



الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات

الإدارة
٨١ شارع السلطان حسين بعابدين
تليفون ٢٧٤٩٠

مدير الإدارة
محمود الخفيف

بدل الاشتراك
عن سنة

ص	
١٢٠	فى مصر والسودان
١٥٠	فى الممالك الأخرى
٥	ثمن العدد

تصدر فى أول كل شهر وفى نصفه

العدد الأول ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٧٢ — أول ديسمبر سنة ١٩٥٢ السنة الرابعة



فهرس العـــدد

فى سبيل الأرض الطيبة

للأستاذ أحمد حسن الزيات

— ١ —

لم يكد المصلون يفرغون من صلاة العشاء فى مسجد القرية حتى ابتدروا الباب يريدون الخروج . لم ينتظروا ختام الصلاة المفروضة مع الإمام ، ولا أداء الصلاة المسنونة بعد الختام ؛ وإنما خرجوا وعلى وجوههم اهتمام، وفى حركاتهم نشاط . لقد كان موعد النشرة الإخبارية الثالثة التى تذاع فى منتصف الساعة التاسعة قد قرب . والفلاحون منذ سنت حكومة الثورة قانون تحديد الملكية ، حراص على أن يجتمعوا كل ليلة فى ساحة العمدة يستمعون إلى الراديو وهو يذيع أخبار هذا القانون ، من تفصيل مجمل ، أو تفسير غامض ، أو تعديل نص ، أو تنفيذ قرار . فإذا فرغ مذيع المحطة من خبره ، أو مندوب الحكومة من حديثه ، لم يجدوا فى أنفسهم ما كانوا يجدون قبل اليوم من الرغبة الشديدة فى الاستماع إلى قصائد أم كلثوم ، أو إلى أغانى عبد الوهاب ؛ وإنما وجدوا مكانها رغبة أخرى لا يملكون عن قضائها صبرا ، ولا يدركون فى غيرها لذة : تلك هى الرغبة فى التعقيب على أخبار القانون السعيد الذى سيملأ القرى غنى كما ملأها الإقطاع فقرا ، وفى التعليق على خطب الزعيم الجديد الذى سيملأ البلاد عدلا كما ملأها فاروق جورا . ولكنهم كانوا بحكم أميتهم يتفاوتون فى فهم ما يذيعه الراديو باللغة الفصحى ؛ فالقلة القليلة وهم المتعلمون وأنصافهم يفهمون كله ، والكثرة الكاثرة وهم الأميون وأشباههم يفهمون بعضه . لذلك كانوا إذا ماأسكتوا المذياع يمدون أعناقهم إلى المصطبة الطويلة التى يجلس عليها كبار القوم ، وينشرون آذانهم إلى ما يقول الشيخ محمود بلغة العامة ، ترجمة عما قال المذيع بلغة الخاصة . حتى إذا فرغ الشيخ من التلخيص، وأعانه الشيوخ الآخرون على الشرح ، انثالت الأسئلة على المصطبة ، وانهالت الأجوبة على الساحة ، وأخذت الناس حال من الحماسة تكاد تخرجهم من جلودهم الغليظة ، وتغلبهم على عقولهم الرزينة . هذا يزهوه

الشموخ الحادث فيملن الاحتقار لمالك الأرض . وذاك يملكه الحقد القديم فيسر الانتقام من ناظر الزراعة . وهؤلاء يرجون أن يقع ما يملكون فى الأحواض الخصبة . وأولئك يخشون أن يقل ما يأخذون عن الفدادين الخمسة . ثم ينصرفون جميعا إلى دورهم مثنى أو ثلاث أورباع ، وهم يعلكون ما تبادلوا من الأحاديث ، ويتمثلون ما تخيلوا من المنى ، ويرسلون أعينهم فى ضياء القمر الزاهر إلى الحقول الكاسية بسيقان الرز وأعواد الذرة ، فتملكهم هزة الطرب فيصيحون وهم يرقصون ويصفقون : أحقا ستصبح هذه الأراضى لنا ؟

— ٢ —

وفى تلك الليلة التى رأيناهم فيها ينصرفون سراعا من بيت الله إلى بيت العمدة ، كان الراديو يذيع أن اللجنة العليا لتنفيذ قانون الإصلاح الزراعى قد استولت على مافوق المائتى فدان من أراضى الملك الخليع المخلوع وآل بيته ومن استنار سيرتهم فى الترف والسرف والطغيان والجور . وكان من بين هؤلاء مالك الأرض التى خلق الله أجسادهم وأرواحهم منها ، وأعاد أجدادهم وآباءهم فيها ، وجعلها لهم ولأبنائهم مستودع الذكريات والتراث ، ومستقر الحياة والرزق ، ومستراد الهوى والأمل ، قبل أن يغتصبها أبناء (قولة) فيما اغتصبوا ببضعة قرون .

فلما انتقل المذيع إلى أحداث الحرب فى كوريا ، وأنباء الثورة فى كينيا ، أقفلوا الراديو وأقبلوا بأبصارهم وأسماعهم على أهل المصطبة . ولم تكد العيون تتلاقى حتى سرى منها إلى القلوب سيال من الشعور المتقد المتحد حرك الألسنة بالهتاف ، وشغل الأيدى بالتصفيق ، وأخرج الشباب عن طورهم فأخذوا يتبادلون اللكمات والركلات على عادتهم حين يستخفهم الفرح . أما الكهول فظلوا فى مقاعدهم هادئين هانئين يتمتعون بما أشعرهم هذا النبأ العظيم من برد السرور وحلاوة الغبطة ؛ لأن انقضاء أكثر العمر فى عبودية المالك وذلة الفقر طبع نفوسهم على التسليم بالواقع والرضا بالمكروه ؛ فحالهم أشبه بحال السجناء حين يتلقون أمر الإفراج ، أو الأرقاء حين يسمعون صيغة العتق ، لا يزيطون ولا يعيطون ؛ وإنما يقابلون الأمر ببشاشة المطمئن وابتسامة الشاكر .

ذهب أكثر الشباب إلى الحقول القريبة ينفسون فيها بالمزح الصاخب عن الفرح المكظوم ، ويتلذذون بمرأى الأرض وهى ملك كما كانوا يتألمون بمرآها وهى سخرة . وبقى أقلهم أمام المصطبة مع الكهول ، يتذكرون ما كانوا عليه ، ويتفكرون فيما صاروا إليه . وكان الحاج إبراهيم خولى التفتيش القديم يتصدر المصطبة فى غياب العمدة ؛ لأنه أكبر

القوم سنا ، وأكثرهم بالزراعة علما ، وأطولهم لموظفى الدائرة صحبة . وكان قد هدف إلى الثمانين ، ولكنه لايزال سليم البدن صحيح العقل ذكى الفهم طلى الحديث مهيب الطلعة ؛ تحسب وجهه الأسمر ، بين كلبوشه الأدكن العالى ولحيته الشهباء المرسلة ، وجه درويش من دراويش الفرس بدت عليه سمات الصلاح ومخايل السكينة . وكان منذ علاه الشيب وخفت عنه أعباء العمل قد قسم يومه بين المسجد والمجلس ، فلسانه لايفتر عن الذكر أو الحديث ، ويده لا تفارق المسبحة أو المغزل . وكان أحب الأحاديث إلى نفسه ما اتصل بالقرية ومن عاش فيها من الأخيار والصالحين ، أو بالأرض ومن تعاقب عليها من الملاك والموظفين . فحافظته سجل واع لما وقع فى البلدة من أحداث وما طرأ عليها من تغير فى خلال قرن من الزمان ، إن لم يكن فيه شاهد عيان فقد كان راوى خبر . لذلك تراه إذا تشقق السمر وتشاجن الحديث يعقب على كل نادرة بنادرة ، ويعلق على كل حكاية بحكاية

— ٣ —

كان الحاج إبراهيم يخوض مع الخائضين فى حديث التمليك والتوزيع حين سمع محمدا حفيد المهدى البهلول يظهر الغبطة ويحمد الله على أن سيكون له فى ثرى قريته الحبيبة فدانان أو أكثر . فالتفت إليه الحاج يقول وعلى وجهه مسحة الأسى ، وفى صوته رنة الأسف : ليت جدك يا محمد كان حيا اليوم فيسمع بأذنيه الراديو وهو ينقل إلينا هذه البشرى ، ويرى بعينيه الحكومة وهى توزع علينا هذه الأرض ! إذن لمات ميتة السعيد الذى صبر فنال ، وسعى فأدرك ، واستغنى فشكر !

فقال له الشيخ محمود : ولماذا تخص المرحوم المهدى بهذا التمنى وأهل البلد كانوا جميعا فى مثل حاله ؟

فقال الحاج للشيخ وقد وقف مغزله وترزن فى لهجته وأقبل عليه بوجهه : لأن المهدى يا أستاذ مات شهيدا فى سبيل هذه الأرض الطيبة . فقال الذين لم يعاصروا المهدى ويريدون أن يعلموا أمره ، والذين عاصروه ويحبون أن يستعيدوا ذكره : قص علينا يا حاج ماذا كان من حديث البهلول واستشهاده فى سبيل هذه الأرض ؟

فقال الخولى القديم وهو ينزع الصوف المندوف من يمناه ، ويضع المغزل كله فى يسراه :

كانت هذه الأراضى لنا منذ أنشأنا الله منها ، وجعل حظنا من الرزق فيها ، حتى اغتصبها محمد على فيما اغتصب ، ثم ردها إلينا سعيد صديق الفلاح فيما رد . فلما تولى الخديو إسماعيل وفسق فى البلاد فسوقه الفاجر ،

وأسرف فى أموال الدولة إسرافه الفاحش ، ركبه الدين الفادح ، وأعجزه الاقتراض المسعف ، وأعوزه المورد الفياض ، كان يفرض الضرائب الباهظة على الأراضى خصيبها وجديبها ، ويكلف عماله فى الأقاليم أن يجبوها مرارا فى السنة الواحدة . وكانوا إذا لم تف غلات الأرض بمطالب الخديو المرهقة ساموا أصحابها سوء العذاب ، فجلدوا بالسوط ، وحبسوا فى الدوار ، وهجموا على الحظيرة والدار ، فلا يعصم ملاك الأرض من كل أولئك إلا الفرار منها أو النزول عنها . وأجدادنا رحمهم الله قد فضلوا أن ينزلوا عن أراضيهم للحكومة على أن يخرجوا من ديارهم ، وهى كما تعلمون ملاعب الصبا ، ومسارح الشبيبة ، ومجالى الأحبة ومدافن الأهل . وكان يوم استيلاء الحكام عليها يوم فرح فى القرية دوت فيه الطبول ، وصدحت المزامير ، وجلجلت الزغاريد ، وأصبح الناس بعده آمنين لا تفزعهم جباة ولا تروعهم جنود . وجعل إسماعيل هذه القرية وست قرى أخرى بمركز طلخا قطيعة لشريف باشا ورثها عنه ابنه على شريف . فلما توفى الوارث اقتسمها أولاده بينهم فكانت قريتنا من نصيب ابنه عز الدين . وكانت الأرض فى عهد شريف وذريته تزرع (وسية) يدير الأرناءوذ شؤونها بالكرباج ، ويعمل الفلاحون فيها (تملية) بالأجر . وكانت أجرة العامل سبعة مليمات فى اليوم ، وفدانا من الأرض يستغله أهله فى السنة . ثم تنقلت ملكية القرية وأهلها من آل شريف إلى أجناس شتى من الملاك ، فيهم التركى واليونانى والمصرى ، حتى انتهى بعضها إلى وحيديسرى ، وبعضها إلى البدراوى .

فأنتم ترون أننا فقدنا السلطان على أرضنا وأمرنا قرابة قرن من الزمان نسينا فيه طعم الملكية ولذة الحرية وعزة الاستقلال . فأصبحنا كلما رأينا المالكين يبيعوننا بيع البهيم ، ويشتروننا اشتراء العبد ، ويستغلوننا استغلال الآلة ؛ وكلما سمعنا أن فلاحين فى المراكز الأخرى لهم أرض يملكونها ، وثروة يديرونها ، وغلة يخزنونها فى دورهم ، ويتصرفون فيها بأنفسهم ؛ أقول كلما رأينا ذلك وسمعناه هذا استشعرنا الذلة ، وأحسسنا الحرمان ، وأدركنا أننا بعداء عن الشعب ونحن منه ، وغرباء عن الوطن ونحن فيه . وكان المهدى عليه رحمة الله أشدنا ألما من هذه الحال ، وأكثرنا هما بهذا الأمر ؛ لأنه كان عبدا من عباد الأرض المخلصين ، يكاد لا يرفع يديه منها ، ولا يمل الجولان فيها ، ولا يسأم الحديث عنها . يعرف أحواضها قطعة قطعة ، ويميز قطعها سهما سهما ، ولا يخفى عليه من قويها وضعيفها شئ فى غيط ولا ساحل .

وكنا إذا فك المالك الأرض ليعيد توزيعها على المستأجرين تركنا له أمر القسمة، فيوازن الحوض بالحوض ، ويقارن القطعة بالقطعة ، ويعادل الفدان بالفدان ، ويقضي في ذلك الشهر أو الشهرين ، ينتقل من مصطبة إلى مصطبة، ويتقلب من جرن إلى جرن ، لا يجف له ريق ، ولا يخفت له صوت ، حتى يستولى كل مستأجر على أرضه .

كانت أمنية المهدى على الله أن يملكه قطعة من ثرى النيل يقصر عليها جهده وخبرته ، ويقوت منها ماشيته وأسرته ، ويطفئ بها شوقه الملح إلى أن يكون إنسانا له كرامة ، ومالكا له نفوذ ، وزارعا له رأى .

ولم يقنع المهدى بوساوس الأطماع وأحاديث المنى ، وإنما كان يبتغى الوسائل إلى تصديق أحلامه وتحقيق أمانيه . كان يسأل كل طارئ على البلدة عن ثمن الأراضى فى جهته ، وعن مقدار المعجل والمؤجل من هذا الثمن ، فكانت الأجوبة كلها تتفق على أن ما عنده من المال لا يبلغه بعض ما فى نفسه . وماذا كان عنده ؟ إسورة من الذهب لامرأته ثمنها عشرة جنيهات، وعجلة من بنات جاموسته ثمنها عشرة أخرى . أما النقد فمن أين يأتيه وكيف يستقر عنده ؟ لم يدخل بيته قطن فيبيعه ، ولم يفضل من أجرته شئ فيدخره . إن القطن وأكثر محصول الحقل لمالك أرضه؛ وأجرته والقروش التى تمر على يده من أثمان البيض أو السمن لنفقة بيته، والدين الذى عليه لتاجر القماش من جلاليب العيد يوفيه من ثمن كيلات من القمح يقتطعها من قوت أولاده.

إذن لم يبق له من وسيلة لشراء الأرض إلا معجزة من الله تدركه ، أو كنز من المال يصيبه .

وكان المهدى ينتظر هذه المعجزة فى ليلة القدر من شهر رمضان ، ومن بغلة العشر فى شهر المحرم ؛ ولكنه وا أسفاه بعد طول الانتظار ودوام الترقب لم تنفتح له (الطاقة) فى السماء ، ولم تفكر فيه (البغلة) فى الأرض !

* * *

وفى عصر يوم من أيام الربيع ، والربيع فصل الآمال والوعود ، عاد البهلول من المنصورة يطفح وجهه بشرا ويفيض صدره بهجة . ولم يكد ينزل عن حماره حتى دعا إليه عشيرته وجيرته . فلما اجتمعوا لديه قال لهم بصوت البشير إذا حمل الخير ، وبلهجة الرائد إذا حمد النجعة : إنى سمعت اليوم فى المنصورة أفندية يقولون إن الحكومة قررت

أن تبيع الفلاحين (وادى الريان) [1] بثمن مقسط على آجال بعيدة ؛ ولهم عليها أن تدبر الماء ، وتبنى الدور ، وتعطى البذور ، وتقرض المال ، وتهب الماشية .

فصاح القوم أجمعون بلسان واحد :
وأين وادى الريان هذا يا بهلول ؟
فقال : سألتهم هذا السؤال فأجابوا إنه فى جهة الفيوم .

وهنا سكت الحاج إبراهيم ليقول لصاحب المصطبة فى شىء من الإنكار :
أين الشاى يا شيخ عبد العزيز ؟
فقال شيخ البلد وهو يسعى إلى داره ليهيىء الشراب المطلوب : إى والله يا حاج ! إنك لتستحق أكثر من الشاى على هذا الحديث

ومرت برهة تبادل فيها الجلوس السكائر وعقبوا على بعض نواحى الحديث ، حتى جاء الخفير يحمل النقيع الأسود فى قدر كبيرة ، فارتشف القوم أقداحه فى التذاذ ونهم ؛ ثم عادوا يرهفون المسامع للقاص الوقور ويقولون له : هيه ، هيه ، يا حاج !

(١) كان مصدر هذه الشائعة الكاذبة مانشرته الصحف يومئذ عن التقرير الذى قدمته لجنة المهندسين الدوليين سنة ١٨٩٤ إلى الحكومة المصرية ، عن استخدام وادى الريان فى خزن ماء النيل زمن الفيضان بترعة تمتد من النهر إلى الوادى ، حتى إذا غاض النيل وأدرك فرعيه الجفاف أطلقوا فيه ذلك الماء المخزون فيساعده على أن يروى مليون فدان من الأرض البور

— ٤ —

وعاد الحاج يقول :
بات أهل القرية تلك الليلة ولا حديث لهم إلا خبر المهدى ووادى الريان . وكان كل رجل فى كل منزل يدير الرأى فى هذا الأمر فيما بينه وبين أهله : كيف يتركون بيئة عرفوها ومعيشة ألفوها إلى بلد بعيد ليس لهم فيه قريب ولا عندهم به علم ؟ وكيف ينصرفون عن حياة مملومة مستقرة فرارا من عسر قد يهون ، إلى حياة مجهولة قلقة طمعا فى يسر قد لا يكون ؟

ومن الذى قدر الأرزاق وقسم الحظوظ ؟ أليس هو الله جل شأنه ؟ ورب هنا رب هناك . وإذا كان الرزاق الكريم قد شاء أن يبدلنا غنى من فاقة ، وملكا من إجارة ، فإنه قادر أن يهيئ الأسباب إلى ذلك من غير حاجة إلى احتيال ، أو ضرورة إلى هجرة .

ومن العجيب أن القوم كانوا فى هذه الاعتراضات لسانا واحدا كأنما لقنهم إياها ملقن واحد !

والواقع أن فى صدر كل مصرى شيطاناً يلقى فى أمنيته كلما تمنى ألا يفترق عن أسرته ، وألا يبتعد عن قريته ، وألا يغترب عن وطنه . فالفلاح يرضى فى بلدته بالمعيشة الضنك ولا يلتمس العيش الرغيد فى إقليم مجاور . والتاجر يقنع فى مدينته بالربح اليسير ولا يطمح فى مديريته

إلى الثراء الضخم . والموظف يحزنه أن ينقل إلى عمل بعيد عن قريته إذا كان فى الريف ، أو عن مسكنه إذا كان فى الحضر . والساكن يشق عليه أن ينتقل من بيت متهدم فى حى قذر طالت سكناه فيه ، إلى بيت جديد فى حى نظيف استجدت صلته به .

فإذا تسارت أهواء القوم على رفض النزوح إلى صحراء الفيوم كان ذلك استجابة لهذا الشيطان الذى صدنا عن حواضر السودان وهى حبيبة ، وصرفنا عن بوادى النيل وهى قريبة !

كانت هذه الوساوس تنتقل من فم إلى فم ، ومن دار إلى دار ، حتى تصل إلى أذنى المهدى فى منزله بطرف القرية ، فكان يفندها مستعينا بما سمع من آيات الله ، وبما حفظ من أمثال الماضين ، وبما روى من أشعار الهلاليين . ولكن القوم لم يلقوا أسماعهم إليه وفضلوا أن يتريثوا حتى يذهب غيرهم إلى هناك ، فيروضوا الأمور ، ويذللوا الصعاب ، ويحتملوا مكاره البدء .

ولم يرد المهدىَ أن يُسمع غير سميع ولا أن يقنع غير مستعد ، فآثر السكوت وصمم فى نفسه على أن يكون هو (أبو زيد الهلالى) بطل (الريادة)

* * *

والحق أن المهدى كان لا يختلف عن بطل الهلاليين إلا فى السواد والفروسية . أما فى صفات الرجولة الأخرى فقد كان يشابهه أو يقاربه . كان أسمر اللون فى ملاحة وجه ؛ وكان شجاع القلب فى سماحة خلق ؛ وكان خشن الراس فى دماثة طبع ؛ وكان على الجملة أشبه بفرسان قصة عنترة الذين تسمعون بهم ، يجمع بين قسوة الجوارح ورقة الشاعر . فهو من جهة يشارك عند الضرورة فى السطو بالليل ، ويبالغ يوم الخصومة فى الحقد على العدو ، ويجيد الضرب بالنبوت والخبط بالفأس ؛ وهو من جهة أخرى يعشق الطرب ، ويهوى الغناء ، ويحسن النقر على الطبلة والزمر بالأرغول والصفير بالناى . ومن أجل ذلك كان موضع الإعجاب من الرجال فى المركز ، ومهوى أفئدة النساء فى القرية

ولعل الزهو الذى كان يملأه من احترام الفتيان له ، وافتتان الحسان به ، كان بعد طبيعته الطموح الحافزَ الثانى الذى كان يدفعه إلى العمل ليغنى ، ويغريه بالغنى ليملك ، ويطمعه فى الملك ليكون أعلى مكانة فى أعين الناس ، وأجل كرامة فى رأى نفسه .

ولقد سنحت له الفرصة فى الهجرة إلى وادى الريان لبلوغ غايته ، ونيل مراده ، فكيف يدعها تفلت ؟ وهل يليق بأهل الفتوة أن يستكينوا لمخاوف تخلقها الأوهام ، ووساوس تبعثها الظنون ؟ إن أرض الله

واسـمة فلمَ يرضى بالضيق ؟ وإن رزق الله كثير فلمَ يقنع بالقلة ؟ وإن البؤس الذى يعيش هو وقومه فيه قد بلغ الحد الذى لاسوء بعده ، فكل تحول عنه لا بد أن يكون إلى أحسن.

وماذا يضره إذا انتجع هذا المكان المجهول، فإن أصابه الخير اطمأن به ، وإن أخطأه التوفيق انقلب إلى أهله ؟

— ٥ —

كنا فى أواخر شهر مايو والفلاحون قد أوشكوا أن يفرغوا من حصاد القمح ، فلم يبق فى حقوله الجرْد إلا جماعات مبعثرة هنا وهناك قد أخرها سعة الأرض أو ضيق ذات اليد . وكان المهدى قد حصد أول الناس ؛ ولكنه كان مدينا بزمال فى الحصد لبعض جيرانه ، وأراد أن يوفيهم هذا الدين قبل أن تحول الأحداث دون الوفاء به ، فخرج مع الحصادين فى الهزيع الأول من الليل، فى يده منجله، وعلى كتفه رداؤه . وكان قبل أن يخرج من داره قد لبس أحسن ثيابه ، وقبل يد أمه ، وعانق إخوته، وودع زوجته وابنته . ثم أمر أخاه الأصغر أن ينتظره بالحمار والخرج فى مدخل سكة السوق بعد صلاة الفجر .

لقد كان مجلس العائلة قرر أن يرحل المهدى وحده إلى وادى الريان ، فيملك الأرض ، ويختار البيت ، ويتسلم الجاموسة؛ ثم يرسل إليهم فيلحقون به

وبات المهدى ليلته الأخيرة فى القرية يحصد، ويغنى، ويغازل، و(ليلاه) من ورائه تلم الحصيد وتكومه أكواما صغيرة ؛ ثم تلمس عمدا كعبه الخشن بيدها الناعمة من حين إلى حين ، تريد أن تنبهه إلى وجودها من خلفه . ولكن المهدى كان مصروف الفكر عمن حوله . كان يتغنى لسامع بعيد ، ويتغزل بحبيب مجهول ، ويتفكر فى دنيا جديدة ، وينظر من آنة إلى أخرى فى نجوم الشرق يبحث بينها عن نجمة الصباح .

وأخيرا هتكت يد الفجر أستاره الوردية ، فانبثق النور ، وهللت الديكة ، ولعلع صوت (أبو عامر) على سطح المسجد الصغير يقول الله أكبر ! الله أكبر !

فترك المهدى منجله ورداءه إلى ليلى وذهب ليتوضأ ويؤدى ركعتى الصبح .

وبعد قليل كان على حماره فى الطريق إلى طلخا ، تحته خرجه ، ووراءه أخوه . فلما بلغ المحطة كان قطار الساعة السادسة على وشك القدوم ، فاشترى تذكرة إلى الفيوم ، ثم اتخذ مقعده بين الركاب . ولم يكد يستقر فيه حتى استغرق فى نوم عميق ما كان يوقظه منه إلا صوت مأمور القطار يطلب منه التذكرة من محطة إلى محطة . وفى طنطا نبهوه أن ينتقل إلى قطار القاهرة فانتقل . وكان قد أحس الجوع

فأدخل يده فى الخرج وأخرجها بقرصة من الفطير وقطعة من الجبن فأفطر . ثم تحلل به التعب والسهر فوضع رأسه على رأس المسند ونام

ولما وقف القطار فى محطة القاهرة نزل جميع المسافرين ولم يبق فى العربة غيره . فسأل أحد الحمالين : أهذه هى الفيوم ؟ فأجابه : هذه هى القاهرة . فإذا كنت تقصد الفيوم فاسأل عن رصيف الوجه القبلى وامكث هناك حتى يقف عليه قطار الصعيد فاركب فيه

حمل المهدى خرجه ونزل من العربة ، ومضى يسأل الناس عن رصيف الصعيد ، فبعضهم يمشى ولا يجيب ، وبعضهم يشير ولا يتكلم ، حتى وجد رجلا يحمل زكيبة وكريكا، فسأله فقال له : تعال معى . فمشى معه المهدى واضعا بين عينيه غرضه ، فلا ينظر ذات اليمين ولا ذات الشمال ، ولا يذكر أنه الآن يتنفس هواء القاهرة التى يسمع أن فيها آل البيت وحديقة الحيوان وأهرام الفراعنة ، حتى دخل هو ورفيقه فى زحمة المسافرين الصاعدين ، فحط كل منهما حمله وقعد بجانبه حتى جاء القطار

— ٦ —

دخل المهدى مدينة الفيوم فى الليل وليس له بها معرفة، ولا له فيها صديق ؛ فمشى يتسفف الأزقة والشوارع لا يعرف مكانا يأوى إليه ، ولا يقصد إنسانا يسأل عنه، حتى دفع إلى بحر يوسف، وهو النهر الذى يخترق المدينة، واتخذ سبيله فى الشارع الواقع على شاطئه الأيمن حتى بلغ ساحة فسيحة تظللها الأشجار، ويكثر فيها التجار ، ويتطرح فى جنباتها العمال والباعة يسترفهون من الإعياء ، ويستروحون طراوة المساء ، ويناقل بعضهم بعضا أحاديث الناس وأخبار المدينة .

ألقى المسافر الغريب خرجه بجانب سور الترعة الآخذة من البحر فى شرق الساحة ، واطّلع قبل أن يقعد فرأى ساقية عظيمة تدور فترفع الماء من غير بقرة ولا مكينة . فعجب كل العجب ، وحاول أن يعرف سرها فلم يستطع ؛ فاستبشر بذلك ، وأيقن أن سواقى وادى الريان كلها من هذا الطراز ؛ وتمنى أن تكون النوارج والمحاريث كذلك؛ فإن فى هذا الطراز اقتصادا فى جهد البهيمة يكثر الشحم ويدر اللبن . ثم وجد فى نفسه الحاجة إلى الطعام فأخرج من الخرج فطيرا وجبنا وأكل حتى شبع . ثم أشعل سيكارة وأخذ يفكر فى الغد المجهول ويقول لنفسه :

ليت شعرى إذا أسفرت هذه الريادة عن صدق ذلك الخبر ، أتلحق بى أسرتى وحدها ، أم تهاجر معها قريتى كلها ؟

وإذا بقى أهل القرية هناك ، وظللت أنا وأسرتى هنا ، فما لذة الأرض الملك إذا لم يرها الصديق فيفرح ، أو العدو فيحزن ؟

وهل يبلغ المرء من الهوان والضعة أن يفضل العيش فى بلدته وهو عبد ، على العيش فى غيرها وهو سيد ؟

صحيح أن قيراطا فى أرض بلدك ، خير من فدان فى بلد غيرك ؛ ولكن كيف السبيل إلى امتلاك هذا القيراط وأرضنا بين (باشا) يستحيل عليه أن يكف عن الشراء ، و (أمير) يستحيل عليه أن يفكر فى البيع ؟

على أننى متى أرجع إلى القرية زائرا ورآنى الناس أمشى فى الحذاء المفصل ، وأخب فى الصوف الفاخر ، وأتلفع بالحرير الأصيل ، وأتعامل بأوراق النقد ذوات المأذنة ، لا يلبثوا أن يقطعوا عزمهم على الهجرة .

وأشرق الأمل فى صدر البهلول وتشوقت نفسه إلى تحقيقه ؛ وتحقيقه لا يبدأ قبل الصباح ، وبينه وبين الصباح هذا الليل الثقيل الطويل ، فرأى أن يقصره بالنوم . فاستلقى على الأرض ، خرجه تحت رأسه ، ولفاعته حول عنقه ، وهراوته فى يده ، ثم نام ملء عينيه .

وفى مطلع الفجر استيقظ على عادته ، فوجد الشوارع ساكتة والمنازل ساكنة والحوانيت مغلقة ؛ فقام إلى الترعة فتوضأ ثم عاد فصلى وأفطر . وانتظر حتى هبت الفيوم من الرقاد ، ودبت فى مسالكها الحياة ، ثم دنا من رجل وقور توسم فى وجهه الخير وسأله :

كيف الوصول إلى وادى الريان ياسيدى ؟

فأجاب الرجل مبهوتا وهو يفكر :

وما وادى الريان هذا ؟ ليس فى إقليم الفيوم كله مدينة ولا قرية بهذا الاسم . لعلك تقصد بركة قارون ؟

فقال له المهدى مستفهما : وما بركة قارون هذه ؟ لم يرد فى الخبر الذى سمعته فى المنصورة مكان بهذا الاسم . أريد وادى الريان الذى توزع الحكومة أرضه على الفلاحين ، وقد قالوا إنه فى مديرية الفيوم .

فقال له الرجل آسفا : سل غيرى يا أخى فربما كان يعلم .

ولم يسترب البهلول فى شئ إلا فى علم الرجل . فتركه ومضى منحدرا مع بحر يوسف يسأل الهابط والصاعد عن وادى الريان فلم يجد علمه عند أحد ، حتى بلغ قرية (الفديين) فجلس ليستريح ويتغدى .

وكان يختار لسؤاله المتكرر ذوى العمائم والبدو والطواقى من أهل طبقته لأنه عليهم أجرأ وبهم آنس . فلما لم يجد عندهم الجواب المقنع بدا له أن يستفهم أحد الأفندية . وقادته المصادفة إلى موظف مثقف سأله فأجاب :

وماشأنك بوادى الريان ؟ فقال : علمت أن به أرضا للحكومة تريد أن تبيعها الفلاحين بثمن قليل . فقال له الرجل وملامح وجهه تترجم عن عجبه :

إن وادى الريان يقع فى الجنوب الغربى من الفيوم ، وهو واد منخفض مجدب لا ينبت به زرع ، ولا يعيش فيه حى ، ولا يسافر إليه أحد . وكل ماأعلمه من أمره أن وزارة الأشغال تريد أن تجعله خزانا للنيل ، تملأه منه وهو يفيض ، ثم تفرغه فيه وهو يغيض، فيظل ماء النهر طاميا طول السنة .

فبهت المهدى وشخص ببصره وأقام لا يطرف . ثم انصرف عن الأفندى دون أن يعقب على جوابه ورجلاه لا تكادان تحملانه من هول الصدمة ؛ ومشى متساقطا من الهم حتى بلغ جدارا فجلس فى ظله وأخذ يحدث نفسه بصوت يكاد يسمعه السائر يقول :

يا خيبة المسعى ويا ضيعة الأمل ! ماذا أقول لقومى وقد وعدتهم الوعود ، ومنيتهم المنى ، وجعلت لهم البر عسلا والبحر طحينة ؟

أأعود ثانية إلى المالك يبيع فى ويشترى ، وإلى الناظر يفتات على ويفترى ! أينقطع الرجاء الأخير فى أن أملك قطعة من الأرض الطيبة التى استأثرت بحبى ، ونزلت فى أوسع مكان من قلبى ؟

ولكن لماذا أيأس من الأمر لدى أول سؤال ؟

لم لا يكون هذا الأفندى من الذين يلذهم أن يجيبوا عن كل سؤال بأى كلام ، فيفتوا من غير علم ، ويشيروا من غير خبرة ؟

وبعث فيه هذا الشك روحا من النشاط فحمل خرجه وسار يتنقل من قرية إلى قرية ، ويسأل رجلا بعد رجل ، وكلهم كانوا يجيبونه إجابة الشيخ الذى سأله فى الفيوم ، أو إجابة الأفندى الذى سأله فى الفديمين . فلم يبق لديه شك فى أن خبر المنصورة كان أفيكة أفاك وفرية مفتر .

وتعاقبت على خاطره الحقائق والأحلام ، فتارة كان يرى العودة إلى قريته ليستأنف حياة الشقاء ، وتارة كان يرى التجوال فى هذه البلاد الكثيرة الأطيان القليلة السكان ، طلبا للغنى وطمعا فى الملك ؛ حتى إذا اغتنى أو امتلك رجع إليهم بالمال أو أقدمهم عليه للملك .

وكان الخرج قد خلا من الزاد ، والكيس قد صفر من النقود ، فاضطر المهدى إلى أن يؤجر نفسه يوما بعد يوم لأعمال الفلاحة ليعيش .

واتفق ذات يوم أن كان عمله عند رجل من الفلاحين واسع الخبرة بالزراعة ،

طويل التجربة للزراع ، فأعجبه من المهدى متانة عضله ، وقوة جلده ، وضربة فأسه ، وقبضة محراثه ، فعرض عليه أن يشتغل عنده مشاهرة بثلاثة جنيهات غير المطعم والملبس والمسكن . فقبل البهلول العرض إلى أن يستبين له الأمر ، وينكشف أمامه المستقبل

— ٧ —

دخل المهدى دار حمدان كما دخل موسى دار شعيب . كان حمدان رجلا كبير السن ، رقيق البدن ، حسن الحال ، يملك اثنى عشر فدانا من أجود الأرض يعتمد فى زرعها على الناس ؛ لأنه كان أبا لثلاث بنات ، تزوجت كبراهن ووسطاهن وبقيت الصغرى تطرد الوحشة عن البيت ، وتشيع البهجة فى الغيط . ولم يكن حمدان يعمل بيده ، وإنما كان يكترى العمال ويقف وراءهم ، يرشدهم إلى ما يريد ، ويكرههم على ما يحب . أما فكيهة فقد كان عملها أن تذهب إلى أبيها بالغداء أو الماء أو الشاى ، وأن ترجع إلى أمها بالخضر أو الفاكهة أو العلف . وكانت فى ذهابها أو إيابها محط الأنظار ومطمح القلوب . وفتاة كفكيهة تحوم عليها نفوس الشباب لثروة أبيها ، فكيف إذا كانت مع ذلك وسيمة الوجه ، خفيفة الظل ، رفافة البشرة ؟ كان الخطاب يتهافتون عليها تهافت الذباب على العسل ؛ ولكن أباها كان يرفض أو يسوف ، لأن نيته كانت أن يزوجها من فتى كريم مستقيم ينزله منه منزلة الابن ، فيساكنه فى البيت ، ويعاونه فى الغيط ، ويعاضده فى القرية . ولكن علوان أحد الخطاب كان طماحا ملحاحا لم ييئسه من خطبته تسويف حمدان ولا إعراض فكيهة . كان يبتغى الوسيلة إلى حب البنية بالهدايا فى كل مناسبة ، ويلتمس السبل إلى رضا الأب بالمساعدة فى كل عمل ؛ ولكن فكيهة لم تجد فى علوان الزوج الذى تحبه ، وحمدان لم ير فيه الصهر الذى يرضاه .

ومضت الأيام على هذه الحال حتى دخل المهدى عضوا جديدا فى هذه العائلة الصغيرة . وكان من طبيعة المهدى كما علمتم أو سمعتم الجد فى العمل والصدق فى النية والإخلاص فى العشرة . فدبر أمور الزراعة تدبير ابن الأرض الذى يجد لذته فى خدمتها ، وسعادته بين تربتها . فوقع ذلك من نفس حمدان موقع المسرة والغبطة ؛ واستبشر أن يكون المهدى هو الابن الذى ينتظره والصهر الذى يرجوه . وسرى إعجاب المالك بأجيره ، إلى زوجته وابنته ، فبالغت الزوجة فى العناية به ، ورغبت البنت فى التودد إليه . ورخص الوالدان لفكيهة أن تقوم على شؤونه الخاصة ، فتغسل ثيابه ، وتنظف فراشه ، وتهيء طعامه ، وترفه عنه بالحديث إذا ما راح متعبا من أعمال اليوم .

وكان المهدى لا يزال مشغول البال بأمسه الخائب ويومه القلق وغده المبهم ، فلم يفطن إلى ما ينعم به فى هذه العائلة الرفيقة من رعاية الأب وعناية الأم ووداة البنت . ولكنه لم يكد يقطع عزمه على انتجاع هذا الإقليم سعيا وراء الغنى حتى تنبه فجأة إلى أن بجانبه أجمل فتاة تنشد الزوج ، وأن تحت يديه أخصب أرض تطلب الفلاح ، وأن أمام عينيه أكرم زوجين يخطوان إلى الموت خطى سريعة

فقال فى نفسه وهو يرد فنجان الشاى فارغا إلى فكيهة: أليست هذه هى الفرصة التى طالما ارتقبتها بعين لا تغفل ، وانتظرتها بصبر لا ينفد ؟ زوجة جميلة تكون أختا لزوجتى ، ودار وسيعة تكون مأوى لأمى وإخوتى ، وأرض خصيبة تكون عما قريب نواة للكى وثروتى !

ولم لا يكون الحظ السعيد هو الذى ألقى إلىّ خبر وادى الريان فى المنصورة لأنتقل من بؤس محض إلى نعيم خالص ؟

وتفتح قلب المهدى للحب، واشتد شعوره بالجمال، فرأى فى فكيهة منية نفسه وقرة عينه وبهجة فؤاده ؛ ووجد فى الفيوم مالم يجده فى إقليم آخر من تبرج الطبيعة فى مروجه الفيح ، وأوديته الخضر ، وحدائقه الغُنّ ، فتحركت فيه غريزة الفنان فتغنى بالمواويل الحمر، واستعان على ترجمة عواطفه المشبوبة بأنغام الناى . وتمكنت الألفة بينه وبين شباب القرية فكانوا يخالصونه الود ، ويقاسمونه الأنس ، ويتمنون لو يتزوج من فكيهة لتستقر به النوى عندهم ، ويطيب له العيش فيهم .

وتوثقت بينه وبين فكيهة عرى الحب ، فكان لا يسعى إلا معها، ولا يتحدث إلا عنها، ولا يفكر إلا فيها، حتى أجمع الناس على أنه الخاطب المختار والحبيب المفضل .

وبارك الشيخ حمدان وزوجه وأهله هذه الخطبة ، وافتخرت فكيهة على أترابها بهذا الخاطب، واغتبطت القرية جمعاء بهذا المواطن؛ فلم يبق فى القوم من ينظر إلى هذا القران نظرة الحقد إلا علوان .

كان علوان الشقى يطمع فى أن تصبح فكيهة زوجه ، ويتوقع أن تصير فدادينها ملكه ، ويؤمن إيمان المغرور بأنه كان أقرب الخطاب إلى الظفر بفكيهة قبل أن يجئ هذا المنافس الغريب فيقلب أمله يأسا ونعيمه بؤسا وفوزه خيبة . كان يرى أنه الفتى الأول فى القرية ، لأنه كان مرهوب العداوة لشدة بطشه ، مرغوب الصداقة لكثرة لهوه . ولكن هذا البهلول المرهوب المرغوب جاء فغض من قدره ، وطأطأ من تعاليه ؛ ثم أصبح بعد خطبته لفكيهة العقبة

التى تصده عن غايته ، والهوة التى تحجزه عن سعادته . لذلك صمم على أن يزيل من طريقه كل حائل يحول من دون مرامه . وطوى صدره على أمر

— ٨ —

قال الحاج إبراهيم وقد تغرغرت عينه وتهدج صوته :

وانقطعت عنا أخبار المهدى ستة أشهر فلم نعرف له مكانا ولم نتلق منه رسالة .

وفى عصر يوم من أيام الخريف ، والخريف فصل الهمود والزوابع ، عاد خفير الأحوال من المركز ومعه إشارة من المأمور إلى العمدة يقول فيها : « أخطرنا بوليس الفيوم أن رجلا يدعى المهدى البهلول من بلدكم قد أطلق عليه الرصاص، وقد نقل إلى المستشفى الأميرى بين الحياة والموت »

وماهى إلا دقائق معدودات حتى شاع النبأ فى القرية فاستولى عليها حال من الجزع لا يتصورها إلا من رآها . ولم نضع الوقت فى عتاب القدر، فسافرنا إلى الفيوم، ودخلنا على البائس الصريع فوجدناه لا يتقار على الفراش من مض الألم ومن حوله جماعة من الرجال والنساء يبكون

فدنا منه العمدة ونحن وقوف نغالب الدمع ونكتم العويل، وكشف عن وجهه الغطاء . فلما رآه المهدى ورآنا ، هم بالنهوض فردته المرضة . وانصرف الآخرون وجلسنا فى مقاعدهم على جانبى سريره . وكان حضورنا قد قوى من روحه وزاد فى تجلده ، فحيا عواده ، وسأل أخاه عن أمه وابنته . ثم سأله العمدة عما جرى له من يوم فارقنا إلى يوم لقيناه . فقص علينا ما سمعتموه الليلة على فترات كان يقطع بينها شدة الوجع أو غيبوبة الحمى

وفى المساء عاود الجريح نزف الرئة فانقطع أمل الجراح من نجاته . وشاء الله أن تنجح عملية الموت وأن تخفق عملية الحياة ، فعدنا بجثة الشهيد إلى الأرض التى خلق منها وعاش فيها ، فاستقبلته القرية كلها بالنحيب والعويل ، وحزنت عليه حزنا لم تجد العزاء عنه حقبة طويلة

ثم أمسك الحاج عن الكلام بعد أن عبر بشفتيه وكفيه عن معنى سبقه إليه القائل :

وا رحمتا للغريب بالبلد النازح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا

احمد حسن الزيات

المظلة

للقصصي الفرنسي جي دي موباسان

بقلم الأستاذ علي أدهم

كانت مدام أوريل مطبوعة على الاقتصاد عارفة بالقيمة الحقيقية للسنتيم ، وقد حفلت جعبتها بالحكم الصارمة التي تحض على مضاعفة النقود ، وكانت خادمتها لا تجد من السهل الهين أن تزيد في دخلها كما كان المسيو أوريل يلقى صعوبة شديدة في انتزاع مصروفه الخاص من زوجته ، وبالرغم من أن الزوج والزوجة كانا ميسورين وليس لهما أولاد فقد كان يشق على مدام أوريل ويحز في نفسها أن تفارق فضتها اللامعة ، وكأنما كانت كل قطعة من النقود تعتصر من صميم قلبها ، وكانت كلما استلزمت الظروف بعض التوسع في الإنفاق باتت مسهدة الجفن مسلوبة الرقاد

وكان المسيو أوريل كثيراً ما يقول لها « إنك في الواقع تستطيعين أن تبسطي كفك بعض البسط فنحن لا نعيش العيشة المناسبة لدخلنا »

وكان ردها الدائم عليه قولها « خيرلنا أن نأخذ بالأحوط ، فنحن لا نعرف ما تأتي به الأيام »

وكانت امرأة ضمرة أنيقة ذات غضون في الأربعين من عمرها غريبة الأطوار ، وكان زوجها ما ينفك غاضبا من المتاعب التي تفرضها عليه وبخاصة من بعض الحوادث التي جرحت فيها كبرياؤه

وكان يشتغل وظيفة رئيس الكتبة في وزارة الحربية ، وقد احتفظ بهذه الوظيفة نزولا على رغبات زوجته ، وكان ذلك يزيد في الفائض من دخلهما ، وقد ظل يذهب إلى ديوان الوزارة في السنتين الأخيرتين حاملا مظلة قديمة مرقعة كانت مثار سخرية زملائه من الكتبة وهدف تندرهم ، ولم يستطع في النهاية الثبات لمزاحهم ، وأصر على أن تشتري له مدام أوريل مظلة جديدة فوظفت ثمانية فرنكات ونصف فرنك في شراء

مظلة كان قد عرضها للبيع أحد المحال الكبيرة من قبيل الإعلان ، وقد تناثرت فى باريس ألوف من هذه المظلات وسرعان ماعرف ذلك الكتبة حينما رأوا المظلة الجديدة فازداد ضحكهم علوا وعانى أوريل الآلام والغصص ، وظهر أن شراء المظلة كان صفقة خاسرة فقد عاث فيها البلى بعد ثلاثة أشهر ، وكان ذلك موضع دهشة موظفى الوزارة جميعا ، وقد نظمت فيها الأغانى التى كانت تسمع فى شتى أرجاء الديوان من الصباح إلى المساء

وفى نوبة من نوبات الغضب أمر أوريل زوجته أن تنفق عشرين فرنكا فى شراء مظلة جديدة مصنوعة من أحسن أنواع الحرير وأن تستحضر الإيصال الذى يثبت ذلك ، فساومت على مظلة بثمانية عشر فرنكا وناولتها لزوجها وقد لاح فى أساريرها الهم والكمد

وصاحت به قائلة « لا بد أن تبقى معك هذه المظلة على الأقل مدة خمس سنوات »

ونجح صاحب المظلة الفرح الجذلان نجاحا باهرا فى ديوان الوزارة ، ولما عاد إلى المنزل فى المساء رمت زوجته المظلة بنظرة قلقة وقالت له « من الخير أن تحافظ على مظلتك فإنك لن ترانى مسرعة إلى شراء مظلة أخرى لك »

وتناولت المظلة من يده وفكت زرارها ونشرت ثناياها وحينذاك استولى عليها الفزع فوقفت وأخذت تحدق فى المظلة ، فقد كان فى منتصف المظلة خرق مستدير صغير الحجم يبدو أنه من أثر حرق طرف سيجارة

وقالت له وقد كادت أنفاسها تتقطع « أنظر إلى هذا الحرق ! »

فسألها زوجها قائلا فى هدوء « ما الخبر ؟ وماذا تقولين ؟ »

وكان الغيظ يخنقها فقالت متعثرة « أنت ... أنت ... لقد حرقت ... وأوجدت ثقبا فى ... فى مظلتك ... أنت .. لا بد أنك مجنون ... أتريد خراب بيتنا ؟ »

فشعر زوجها بالدم يغلى ويفور فى خديه واستدار وقال متعجباً « ماذا تقولين؟ »

« أقول لك إنك قد أحدثت ثقبا فى مظلتك الجديدة ، أنظر إليها » واندفعت نحوه كأنها همت بصفعه وألقت الثقب الصغير المستدير تحت أنفه ، فنظر إليه خائفا وجلا وتمتم قائلا « كيف حدث هذا ؟ إنى لا أعلم عنه شيئاً ، وإنى أقسم أنه ليس من صنعى ، ولا أستطيع أن أفهم جلية الأمر »

فأجابته زوجته قائلة « إنى أعرف !

وإنى أراهن على أنك كنت تعبث بها فى الديوان وتفتحها وتعرضها للأنظار» فقال لها:

— «الواقع أننى فتحتها مرة واحدة وكان ذلك لأريهم جمالها ، وأؤكد لك أن هذا هو كل ما فى الأمر»

فضربت الأرض برجليها غاضبة ، وعاملته تلك المعاملة التى تجعل الرجل المسالم يرى موقده المنزلى أمنع من ساحة قتال يتساقط فيها الرصاص

وأصلحت الثقب بأن وضعت فيه قطعة من الحرير من مظلة قديمة كان لونها يختلف عن لون المظلة الجديدة

وفى صباح اليوم التالى خرج أوريل قاصدا الديوان حاملا كنزه المرقع وهو فى صورة من أدبته العقوبة ، ووضع المظلة فى صوانه وأخفاها

ولما عاد إلى منزله فى المساء انتزعت زوجته المظلة من يده . وما كان أشد رعبها من المنظر المحزن الذى رأته عيناها ! فقد كان غطاؤها ممتلئاً بالثقوب الصغيرة ، وكان من الواضح أن هذه الثقوب من أثر الحرق ، وكأنما أفرغ فوق الغطاء الحريرى رماد ملتهب من غليون ، وكانت المظلة قد فسدت فساداً لا يرجى إصلاحه ، فنظرت زوجته إليه وقد عقد الغضب لسانها ، وأخذ زوجها يفحص المظلة وقد أزاغ بصره الخوف والفزع ، وتلاقت نظراتهما ، فغض طرفه ، وصاحت به زوجته قائلة — وقد أعادت إليها نوبة الغضب القدرة على الكلام — «أيها التعس ! أيها الشقى المنكوب ! لقد تعمدت أن تفعل هذا ، ولكنى سأعاقبك ، ولن تكون لك بعد اليوم مظلة»

ومثلت معه فصلا جديدا . وبعد ساعة من هدوء العاصفة سمحت له بالإصغاء فأقسم لها أنه لا يعرف كيف وقع هذا ، ولا بد أنه من أثر الغيرة أو حب الانتقام . ودق جرس الباب فأنقذ الموقف ، وكان القادم صديقاً قد دعى لتناول العشاء ، وعرضت مدام أوريل الأمر عليه ، وذكرت له أن شراء مظلة أخرى أمر خارج عن الموضوع ، وأن زوجها لن يكون له بعد اليوم مظلة

ولكن الضيف وجه إليها اعتراضاً حكيماً قائلا «فى هذه الحالة يسرع البلى إلى ثيابه ويكون ذلك أخطر وأدعى للخسارة»

فأجابت الزوجة الصغيرة الجرم وهى لا تزال غاضبة حانقة «حسن ، يستطيع أن يحمل مظلة الخادم ، ولن أحضر له مظلة من الحرير»

فأثار ذلك ثائرة أوريل فقال

«فى هذه الحالة أنذرك بأننى سأقدم استقالتى ، وليس هناك ما يدفعنى إلى الذهاب للديوان حاملا مظلة خادم»

فقال الضيف « ولم لا تصلح المظلة ؟ إنها لا تكلف كثيرا »

فأجابت مدام أوريل فى عنف وحدة « إن ذلك يقتضى دفع ثمانية فرنكات على الأقل ، فإذا أضفنا ذلك إلى الفرنكات الثمانية عشرة كان المجموع ستة وعشرين فرنكا من أجل مظلة ، وهذا شىء لا يحتمل ، إنه جنون »

وكان صديقها رجلا فقيرا ، فألهم فكرة جعلته يقول « يمكن الحصول على المبلغ من شركة التأمين ، فالشركة تدفع تعويضا لكل مايحرق على شريطة أن يكون الحريق قد أصاب ما تملكان »

وكان هذا الإيحاء مثل السحر ، فبعد تفكير لم يستغرق أكثر من دقيقة خاطبت مدام أوريل زوجها قائلة « غدا فى طريقك إلى الديوان تأخذ معك المظلة إلى شركة التأمين وتريهم هناك ما أصاب المظلة وتطلب التعويض »

فوثب المسيو أوريل وقال « لن أجترئ على مثل هذا العمل ، والمسألة لم تتجاوز ثمانية عشر فرنكا وهو مبلغ لا يحملنا خسارة متلفة »

ولحسن حظه كان الطقس معتدلا فى اليوم التالى فذهب إلى الديوان حاملا عصاه ولم تنقطع مدام أوريل وهى منفردة فى المنزل عن التفكير فى الفرنكات الثمانية عشرة التى فقدتها ، وكانت المظلة ملقاة على الخوان فى حجرة الطعام وظلت تحوم حولها دون أن تقطع برأى فى الموضوع ، وقد تملكتها فكرة شركة التأمين ، ولكنها كانت تخشى نظرات كتبة الشركة الساخرة وكانت ممن يستولى عليهم الخجل فى المجتمعات . وكان من عادتها أن أتفه شىء يجعل وجنتيها تحمران ، ولم تكن ترتاح إلى محادثة الأجانب ، ولكن حزنها من أجل الفرنكات الثمانية عشر كان يحز فى قلبها كحز الموسى ، وعبثا حاولت أن تبعده عن فكرها ، وكانت ذكرى هذه الخسارة ما تنفك تلذعها فماذا تفعل ؟ وتتابعت الساعات وهى لا تزال فى تردد ؛ وفجأة عقدت العزم على العمل مثل الجبان الذى استجمع شجاعته وقالت :

« سأذهب إلى الشركة وأرى مايحدث»

وكان لا بد من تناول المظلة قبل كل شىء حتى تبدو الكارثة غير قابلة للاصلاح وتقتنع الشركة ، فأحضرت من رف الموقد عود ثقاب وحرقت ثقبا واسعا كحجم كفها بين جانبين من جوانب المظلة ولفت بقايا الحرير وشدت حولها رباطا مرنا وتلفعت بالشال ووضعت القبعة على رأسها وهرولت إلى شارع دى ريفولى ، وكانت إدارة شركة

التأمين بهذا الشارع ، وكلما اقتربت مدام أوريل من إدارة الشركة كانت خطواتها تتقاصر فماذا تقول فى الشركة ؟ وما الرد الذى تتلقاه ؟ وأخذت تنظر الأرقام الموضوعة على الأبواب ، وكان لا يزال بينها وبين إدارة الشركة ثمانية وعشرون منزلا ، وقد أتاح لها ذلك فرصة للتفكير فتمهلت فى السير حتى فاجأها باب كتب عليه بحروف كبيرة «شركة التأمين ضد الحريق» فاختلط عليها الأمر ، واعتاقها الخجل ، وترددت لحظة ، وتقدمت إلى الأمام ثم عادت أدراجها

ولكنها قالت لنفسها « لابد مما ليس منه بد ، وكلما كان الأمر أسرع كان ذلك أحسن »

ولما اجتازت المدخل ودخلت الإدارة شعرت بأن قلبها ينبض نبضا عاليا وتقدمت من رجل كان يمر من الحجرة الرحبة حاملا بعض الأوراق

وقالت له فى صوت خفيض مضطرب : «معذرة ياسيدى ! هل تستطيع أن تدلنى لمن أقدم طلب التعويض عن الحريق ؟ »

فأجابها بصوت رنان « الدور الأول إلى اليسار ، فهناك القسم الخاص بالحوادث»

وزادها جوابه اضطرابا حتى ودت أن تنطلق دون أن تنطق بكلمة واحدة وتضحى بالثمانية والعشرين فرنكا ، ولكنها استمدت الشجاعة من تفكيرها فى المبلغ كله ، وصعدت السلالم وهى تلهث وتقف عند كل درجة ودقت الباب فى الطابق الأول ، فأمرها بالدخول صوت رنان ، فدخلت إلى حجرة واسعة كان بها ثلاثة رجال مجتمعين ومستغرقين فى مناقشة خطيرة

والتفت أحدهم إليها وقال « ماالذى أستطيع عمله من أجلك ياسيدتى ؟ »

فوجدت صعوبة فى استحضار الكلمات وتلعثمت قائلة « لقد جئت . . . بسبب حادثة »

فأومأ الرجل فى أدب إلى كرسى وقال « تفضلى بالجلوس يا سيدتى ، سأكون طوع أمرك بعد دقيقة أو دقيقتين »

واستؤنفت المناقشة التى اعترضها دخول السيدة

وقال المدير « فى الحالة الخاصة بكم أيها السادة لا تعد الشركة نفسها مسؤولة عن دفع مبلغ يتجاوز أربعمائة ألف فرنك ، ولا نستطيع أن نقر طلبكم دفع مبلغ مائة ألف فرنك علاوة على ذلك ، وفضلا عن ذلك فإن هناك التقدير » ...

فقال أحد الرجلين الآخرين « هذا يكفى ، والقضاء سيفصل فى الموضوع وليس هناك حاجة إلى إطالة المناقشة »

وبعدتبادل التحيات انصرف الرجلان، ولو كانت واتتها الشجاعة لتبعتهما وضحت مسرورة بكل شيء ، ولكن الفرصة أفلتت منها ، فقد اتجه إليها المدير وقال لها بعد الانحناء « إنى فى خدمتك يا سيدتى »

فبذلت جهدا لتتنفس وقالت فى صعوبة « لقد جئت ... جئت من أجل هذا »

فنظر المدير فى دهشة إلى الشيء الذى عرضته لنظره ، وأخذت أصابعها المرتعشة تتحسس الرباط المرن ، ونجحت بعد محاولات فى فك عقدته وأخرجت بقايا المظلة الممزقة

وقال المدير فى عطف وإشفاق « يبدو أنها فى حالة سيئة »

فقالت وهى تحاول جس النبض « لقد كلفتنى عشرين فرنكا »

فبدت على المدير علامات الدهشة والاستغراب

« حقيقة ؟ هذا المبلغ كله ؟ »

« نعم ، لقد كانت مظلة ممتازة ، وأريد أن ترى بنفسك حالتها »

فقال المدير « لا شك فى ذلك ، ولكنى لم أستطع أن أتبين بعد ما علاقة ذلك بعملى ؟ »

فوجف قلبها وساءلت نفسها هل تدفع الشركة تعويضات لمثل هذه الخسائر الطفيفة ؟

وقالت للمدير وهى تتعثر فى الحديث « أنظر ، لقد حرقت »

فأجاب المدير دون أن يحاول أن ينقض كلامها « هذا واضح »

وهنا خذلتها الألفاظ ، فقعدت وهى لا تكف عن التحديق فيه حتى أدركت فجأة أنها لم تذكر له اسمها

فبادرت إلى إخباره أنها مدام أووريل وقالت « لقد أخذنا منكم صك تأمين وأريد أن أطالب بتعويض »

ولما كانت تتوقع الرفض البات استدركت قائلة «إننى لا أريد سوى عمل غطاء جديد للمظلة »

فعارض المدير قائلا وقد حار فى أمره « إننا يا سيدتى لا شأن لنا بالمظلات ، ولسنا نقوم بإصلاحات من هذا القبيل » .

فشعرت المرأة القميئة بأن حب الكفاح الكامن فى نفسها ينبعث ويتجدد وكان لابد من وقوع معركة ، ولقد كانت متأهبة لخوض غمار هذه المعركة ، فقد أفرخ روعها وسرى عنها

« إننى لا أطالب إلا بدفع تكاليف الإصلاح ، وإنى أستطيع أن أضع لها بنفسى الغطاء الجديد »

فبدت على المدير الحيرة والدهشة

« إنها فى الواقع ياسيدتى مسألة هينة ، ونحن لا يطلب منا تعويض عن مثل هذه الحوادث التافهة ، وأظنك تسلمين بأننا لا ينتظر منا أن نقدم تعويضات عن المناديل والقفازات والمكانس والخفاف القديمة وما إلى ذلك من الأشياء الصغيرة المعرضة للحريق فى أى وقت »

فشعرت بتدفق الدم فى وجنتيها لاشتداد غضبها وقالت :

« فى ديسمبر الماضى حرقت يا سيدى مدخنتنا وكلفنا إصلاحها خمسمائة فرنك ولم يطلب المسيو أوريل من الشركة مليما واحدا فمن العدل أن تدفع الشركة نفقات إصلاح المظلة »

فابتسم المدير عند سماعه القصة المخترعة وقال : «أظنك ياسيدتى لاتنكرين أنه مما يثير العجب أن المسيو أوريل بعد أن أمسك عن المطالبة بدفع نفقات إصلاح المدخنة التى بلغت خمسمائة فرنك يطلب تعويضا قدره خمسة فرنكات أو ستة لأجل مظلته »

فقالت له فى غير مبالاة « أستميحك المعذرة ، إن الخمسمائة فرنك كانت تخص أوريل ، أما الثمانية عشر فرنكا فإنها من جيب مدام أوريل وهو أمر يختلف كل الاختلاف »

وأدرك المدير أنه لن يتخلص من إلحاحها دون أن يضيع اليوم كله فقال مستسلماً « تفضلى واذكرى لى أيضا كيف وقعت الحادثة ؟ »

فبدأت تروى القصة وقد وثقت من النصر

« لقد وقعت الحادثة على النمط الآتى ياسيدى ، فى قاعة المنزل حامل برنزى للمظلات ، وقد عدت أمس ووضعت المظلة على الركيزة ، وفوق هذه الركيزة رف صغير للشمع والثقاب ، ومددت يدى وأخذت أربعة عيدان ثقاب ، ولم يشتعل العود الأول ، ولمع العود الثانى وانطفأ وكذلك العود الثالث »

فقال المدير مازحا « أظنها من عيدان الثقاب التى تصنعها الحكومة ؟ »

فأجابت دون أن تلقى بالها لفكاهته «يمكن أن يكون ذلك. والأمر المهم أن عود الثقاب الرابع أشعل الشمعة ، وآويت إلى حجرتى ونمت فى فراشى وبعد انقضاء ثلث ساعة ظننت أننى أشم رائحة حريق ، وأنا دائما أخشى النار ، فإذا وقع فى منزلنا حريق لا يكون الخطأ منى ، ومنذ احتراق المدخنة الذى حدثتك عنه وأنا أعيش فى خوف شديد ، ولذلك قمت من الفراش وغادرت الغرفة وبحثت فى كل مكان ، وكنت

أشم مثل كلب الصيد ، وأخيراً كشفت أن مظلتي كانت مشتعلة ، ولا شك في أن أحد عيدان الثقاب قد سقط بين ثناياها ، وأنت ترى حال المظلة» ..

فأحنى المدير رأسه لما ليس منه بد وقال « وما مقدار المبلغ الذي تطالبين به ياسيدتي ؟ »

فلم تجترئ على ذكر المبلغ الذي تريده وظلت صامتة

وأخيرا قالت وهي تحاول الظهور بمظهر الكريمة المتسامحة « إني أترك ذلك لك ، وتستطيع أن تصلحها لي »

فقال: «إننا لانستطيع أن نفعل ذلك ياسيدتي. تفضلي فاذكري المبلغ الذي تريدينه »

قالت « ولم ذلك . . . إني أظن . . . لا ياسيدي ، إسمع لي ، إني لا أريد الكسب على حسابكم ، إنها أعدل الطرق ، سأحمل المظلة إلى أحد الحوانيت ، وهناك أطلب عمل الغطاء من الحرير الجيد المتين وأحضر لكم قائمة بالنفقات ، أيكفي هذا » ؟

فقال : «حسن جدا ، لقد سويت المسألة وهاك مذكرة للصراف الذي سيدفع لك مصاريف الإصلاح »

وأعطاها بطاقة فقبضت عليها بيدها ، وقامت من مقعدها ، وتمتمت كلمات الشكر وأسرعت بالخروج من الحجرة خشية أن يغير المدير رأيه

وبعد هذا الانتصار أخذت تتهادى في الشارع فرحة مبتهجة باحثة عن حانوت فخم ، ولما عثرت على الحانوت الذي يبدو أنه يطلب مصروفات باهظة لإصلاح المظلة دخلت في جرأة وشموخ وقالت بصوت الآمر :

« أريد أن تصنعوا غطاء لهذه المظلة من أحسن أنواع الحرير ، واستعملوا أرقى صنف عندكم فإني لا أبالي بالتكاليف »

علي أدهم



كل شيء على ما يرام

للأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله

رأيت الذين تجتذبهم الأخطاء إليها وهم راغمون يحرصون كل الحرص على أن يجنبوها سواهم من الأحباب ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . .

وكانت هذه هي قصتي مع أبوي . . قصتي التي جعلت أستعيد أحداثها حلقة حلقة حتى قطعها على انفجار أعقبته طلقات مدافع رجفت بها الأرض وقعقعت السماء ، ثم تأهبت الإسكندرية بعدها لتقاسي ليلة من ليالي الهول ، في تلكم الحرب الأخيرة

***

أما نقطة البدء في القصة فإنها ترجع إلى خمسة عشر عاما . ليلة أرقني شيء لست أذكر كنهه وكنت إذ ذاك غلاما في العاشرة لأبوين ريفيين يجري بهما مركب الفقر في خضم الوجود ، فلا تكاد شبكتهما تخرج بما يحفظ علينا الحياة . ووقعت عيناي اللتان أثقلهما النوم على منظر جاشت له نفسي في تلك الليلة :

كان هناك على قبة الفرن في الحجرة الخاوية مصباح بلازجاجة ، مخنوق الأنفاس كأنه يحتضر ، يجثم بينه وبين الحائط وعاء من النحاس مهبب الظاهر ، وكوز من الصفيح : ويرتمي ظلهما على الحائط القديم كالحا قبيحا يرتجف بارتجاف الذبالة . وحصير مفروش افترشه صبيان كنت أحدهما ، ومن فوقنا غطاء غليظ من صوف الغنم تخرق في عدة مواضع ، وكانت رجل أخي النائم خارجة من أحد هذه الخروق . وحمالة للثياب عليها بعض خلقان . وأشياء أخرى لست أذكرها الآن . وشيء أخير لم أنسه لأنه أهم من كل ما رأيته . . ذلك هو شبح أمي !

كانت متربعة في جلستها كالتي فرغت من الصلاة ، رافعة وجهها إلى السماء وكفاها مبسوطتان . كانت تدعو وتبتهل وكان دعاؤها متهدجا غامضا معظمه همس ، لكنه يبعث في القلب رهبة وتخاوف . ولعل أقوى سبب لما أحسسته من دعائها أنني تلفت فرأيت مكان أبي من الحجرة

خاليا ، وعرفت أن الليل قد تقدم نحو الصباح من تصايح الديكة على سطحنا وسطوح الجيران

وكان دعاؤها ينقطع بين الحين والحين حتى إذا مااستأنفته بدا أنه مخنوق بالدموع ، وكان منديل رأسها متأخرا إلى الوراء ، فهو على وشك السقوط لولا أن الضفائر ممسكة به ، فبدت حاسرة الرأس كأنها جزعة أو كأنها موشكة على الصراخ

وفي دعائها عبارة تتردد كثيرا كانت تطلب بها من الله الستر . ثم كفت برهة وخرجت إلى باحة الدار كأنما لتفتش عن شيء ، فأتاحت لى فتحة الباب أن أسمع هواء الخريف الأرعن وهو يعابث أعواد الحطب على أعالى الجدران

ثم عادت أمى واستأنفت ما كانت فيه وعدت أنا إلى التأمل والاستغراق والتفكير فى الموقف ومراقبة الظلال الداكنة على الجدار القديم وهى تتراقص بتراقص الذبالة وأنظر إلى رجل أخى الخارجة من الغطاء المخروق ، فأكتم ضحكة تراودنى رأيتها غير منسجمة مع كآبة ما تقع عليه عيناى

وسمعت طرقة على الباب الخارجى أيقنت معها أن الموقف فى طريقه إلى الوضوح وأن الغمة قاربت أن تنكشف . وخرجت أمى تتعثر فى أذيالها لتفتح ، وانفرج باب القاعة مرة أخرى ، فتناهى إلى سمعى أزيز الحطب . ثم دخل الشيخان من باب القاعة ثم أغلق الباب . . ثم ارتجت الأرض من رمى شيء ثقيل كأنه حمل ، ثم سمعت أنفاس الرجل مضطربة مبهورة . . ولم أستطع بعد ذلك أن أتبين ما حولى بتفاصيله ، لأن المصباح انطفأ عند دخول أبوى وانفتاح الباب فتحة كاملة سمحت لنسيم الليل أن يتدفق نحو الداخل

وجعلت أمى تفتش عن علبة الثقاب فلم تهتد إلى مكانها فسمعتها تهمس لأبى قائلة : لا داعى للعناء ، ما عدنا بحاجة إلى النور .. هل سننظم عقدا ؟ ..لا.. ولا نحن سنفرز ذهبا من فضة . ولم يرد عليها أبى بكلمة لأن أنفاسه لم تعد سيرتها الأولى . وسعل مرتين أو ثلاثا ثم اطمأن . وخيم علينا سكون كأنه قطعة من الأبدية ، وصاح ديك فى الخارج ومد صيحته فى تأنق وإصرار كأنما يؤكد للناس أنه رأى وجه النهار ، فسمعت عندئذ أبى يتنهد ويقول : الحمد لله .. وصلنا فى الوقت المناسب . قالت أمى : وهل وجعك ظهرك ؟ فأجاب : قليلا بالنسبة إلى ثقل الغرارة . . لم أكن آمل أن أعود بهذه السرعة لأن الروماتزم قسا على فى الشهر الأخير ! قالت أمى لم أفتر لحظة واحدة منذ خروجك عن أن

أطلب من الله الستر ، وأحمد الله فلقد استجاب . قال أبي وهو يغالب ضحكة :

هذا هو نفس ما فعلته فى الحقل وأنا أخلع (كيزان) الذرة من الأعواد لأضعها فى الغرارة ، كنت أطلب منه الستر أولا والعفو ثانيا ، غير أنى كنت أخشى شيئا واحدا وأنا أطلب الستر ، وذلك هو أن يكون صاحب الحقل قد طلب من الله نفس الطلب ، وأن يكون الله قد استجاب فتقع الكارثة وأضبط متلبسا بجريمة السرقة

وأخذت الأمور تتضح أمام بصيرتى وأنا مستلق على ظهرى تحت الغطاء القديم فرجعت إلى المسألة من أولها :

إن أبى عاجز منذ شهرين عن أن يحمل الفأس لذلك فإن أحدا من الناس لا يستدعيه ليعمل فى حقله بالأجر . الروماتزم المزمن سيطر على ظهره ... فى موضع الحزام تماما فأقعده عن الكسب . ولما كانت البطون لا تعترف بعجز الأيدى عن تحصيل القوت فلا تكف عن الطلب فإن الرجل لجأ آخر الأمر إلى أن يسطو على حقل غيره فى ظلمة الليل ، ولم يستطع الروماتزم أن يقعده عن حمل غرارة ثقيلة والسير بها مسافة طويلة

قلت بينى وبين نفسى: كان أبى يسرق! أجل . كان يسرق مع أن السرقة (عيب) بدليل أن (شعبان) والد زميلى (مبارك) سجن لأنه سرق وكنا نعير ابنه به إذا ما شرس علينا أو تكبر أو اعتدى .. ثم .. لفنى النوم كما يلف كل الأحياء

* * *

وفى ضحى اليوم التالى رأيت أمى تقشر الذرة بوجه باسر وأعصاب هائجة . كانت كأنها تجهز ميتا لا تجهز طعاما . وكنت أدنو منها وأنظر فى عينيها فلا أرى فيهما إلا نقمة وثورة وتوقعا لمكروه

على أن ذلك كله لم يمنعنا عن الطحن والخبز وأكل الحرام لأن البطون لا تعترف بعجز الأيدى كما قلت لك . ولم أستيقظ فى الليل مرة أخرى ولكننى رأيت فى النهار ذرة تقشر فأيقنت أن أبى عاود السطو لأنه لا يزال عاجزا عن حمل الفأس ولم يستدعه أحد . فمن أين تأتينا النقود ؟! وأخى صغير وأنا لا أساعد أبى لأننى فى المدرسة ويتمنى أبى أن أحفظ القرآن

وتشاجرت مع مبارك بن شعبان ليلة من الليالى فضربنى لأنه أقوى منى ثم فر إلى دارهم حتى لا يدركه الثأر ، فدخلت على أبوى صاخبا باكيا فلما سألنى ما خطبى قلت لهم إن ابن (الحرامى) ضربنى وجرى فأحسست أن أبى يسترضينى بالنيابة عنه كأنما يريد أن ينهى الموضوع . لكن ثورتى كانت لا تزال حادة مشبوبة فقلت

صارخا : أليس أبوه لصا ؟ ... ألم يسرق خروف على المنوانى ؟! له يوم !

ولطمتنى أمى على خدى فحملقت مستغربا ... لكننى أفقت !! وسرعان ما ذكرت أن دارنا من زجاج وإن غاب ذلك عنى . ثم ذكرت ليلة الأرق وما حدث فيها فأمسكت أنفاسى وكظمت غيظا يخالطه خزى حتى سمعت أبى يقول وهو واضع كفه على ظهره : لا تعير أحدا يا بنى فربما عيرت معذورا !

لكن الحوادث شاءت أن تلقى على درسا جديدا فلقد التقيت أنا ومبارك بن شعبان فى ملعب الصبيان بعد أسبوع واحد فما وقعت على عيناه حتى ابتدرنى قائلا : « أهلا بابن أبو غرارة » وضحك الصبيان وفررت أنا أجرى إلى الدار

أما معنى ذلك فإن أبى ضبط متلبسا بالسرقة وكان منظره فى تلك الليلة يثير الضحك والدموع . فقد أبى صاحب الحقل إلا أن يسوقه إلى المخفر وهو يحمل المسروق فرأى الناس رجلا متألما خزيان باكيا يمسك الغرارة بيد ويمسك موضع الألم من ظهره باليد الأخرى ، ويتلقى اللطمات والركلات والشتمات صامتا صابرا !

ثم لقى النهاية الطبيعية التى يلقاها كل خارج على القوانين الموضوعة . لكن إقامتنا فى القرية أضت عسيرة لأننا أحسسنا أنا فقدنا شيئا تتعذر الحياة بدونه ، وذلك هو الشرف

وأقدمت أمى على عمل حاسم فإنها رحلت بنا إلى الإسكندرية حيث بعض أقاربها هناك ونجح مسماها فاشتغلت خادما فى أحد المستشفيات ، وودعنا القرية فى غياب أبى حتى إذا ما قضى مدة الحبس لحق بنا . وألفيناه متعبا مكدودا وبقى كذلك فترة من الزمن ثم زاول فى المدينة عملا لا يحتاج إلى تعلم . . . عملا قريبا من حفر الأرض أو حمل الفأس وإن كان وظيفة « مدير » . . . يدير معصرة قصب فى أحد الدكاكين ويلبس « مريلة » على الجلباب ويرفعه عن الأرض قبقاب عال ويستعمل المكنسة بين آن وآن وينقل الأعواد قبل العصر وبعده إلى الداخل والخارج

وجعل أبواى بعد هذه الحادثة يلقناننا فى كل مناسبة أن الجوع خير من السرقة وأن الشرف أعلى من الذهب . وتعرضت حياتنا بعد ذلك لأزمات عولجت طورا بالصبر ، وطورا بالاقتراض وطورا بالفرار من الأزمة بتأجيل حلها حتى تعرضت أنا لنفس التجربة فأخذت أستعيد كل ماقصصته عليك ...

حتى قطع على أفكارى انفجار أعقبته

طلقات مدافع ، ثم تأهبت الإسكندرية بعدها لتقاسي ليلة من ليالي الهول ...

وكان أبي طريح الفراش والأسرة في حاجة إلى أشياء كثيرة ، وكنت وحدي في المحل التجاري الذي أعمل فيه بعد أن تركني صاحبه أول الليل لثقته بي ، ولحاجة عرضت له . وكل شيء أمامي ... حتى المال ! !

واستبد بي الأمر وضيقت الحاجة على الخناق ، وبدأت أقتنع أن البطون لاتعترف بعجز الأيدي وأنه لا بد من الإقدام . وهممت وأنا أطلب من الله الستر ! لكن المدافع أطلقت وأصبح من الحتم أن أطفيء الأنوار ، فساد الظلام !

ولشد ما تغيرت بعد ذلك فكرتي عن الموضوع . أنزلت نصف الباب ووقفت في بقية الفتحة أرعى الأمانة وقد خيل إلى أن لصوصا عديدين سيهاجمون المحل وأن من حق صاحبه على أن أدفع عنه أيدي الواغلين واستولت على الفكرة فعجبت لنفسي إذ رأيت فيها شابا يحرس المال من غيره ثم لا يدفع عنه عدوان يده ، فخجلت

وغابت عني كل الصور إلا صورة واحدة ... صورة رجل يمسك غرارة بيد ويمسك موضع الألم من ظهره باليد الأخرى وهو مسوق إلى مخفر الشرطة . ثم صورة أسرة هاجرت من القرية لأنها فقدت شيئا تعذرت عليها الحياة بدونه . فتنهدت . وكانت الفرقعة قد كفت منذ مدة وأطلقت صفارة الأمان فأضيئت الأنوار

ودخلت إلى المحل وجعلت أتلفت في كل صوب لأطمئن على ما فيه ، ومضت برهة رأيت بعدها صاحب المال واقفا على العتبة وهو يسأل مخلصا آمنا : هل كل شيء على ما يرام ياصديقي ؟ فأجبت باعتزاز الشرفاء : أجل ... أجل ... كل شيء على ما يرام !

محمد عبد الحليم عبد الله



حياة

للقصصى الفرنسى جى دى موباسان

بقلم الأستاذ لبيب السعيد

« جان » ابنة نبيل نورمندى ثرى تزوجت عن حب من « الكونت دى لامار » ؛ غير أن حسها المفرط الرهافة لم يلبث أن أشعرها عثرة النصيب وضلة الأمل فى زوج أنانى فظ ؛ ومن ثم فهى تسوق حنوها كله إلى ولدها « بول »

وكأنما خلقت « جان » المسكينة للشقاء فهذا الابن العزيز « بوليه » كما تدعوه ، وقد بلغ مبلغ الرجال ، لا يألوها عذابا أليما ، فهو لا يكتب إليها من باريس حيث يعيش مع عشيقته إلا ليطلب مبالغ كبيرة من المال وإذ أشفت « جان » على الإفلاس فقد باعت كرها « لو بوبل » قصرها المنيف القريب من البحر ، حيث أمضت كل أيامها الذواهب . وها هى ذى بسبيلها إلى سكنى الريف فى بيت أكثر تواضعا ، وها هو ذا القروى ابن خادمتها « روزالى » قادم لينقل أمتعة البيت

***

إن « جان » لا تعرف إلى الآن ماذا تأخذ من الأمتعة وماذا تدع ، فبيتها الجديد بالغ الصغر ، ولهذا فأمر النقل يستغرق تفكيرها ... يحمل إليها مشغلة كاربة فى حياتها الحزينة الخالية من الأمل

تجولت « جان » من حجرة إلى حجرة تنشد قطع الأثاث التى تستثير المنسى من الأحداث . هذه القطع هى شطر من حياتنا بل هى بعض كياننا . لقد عرفناها منذ روق الشبيبة ؛ وقد ارتبطت فى أيام من تاريخنا بذكرياتنا البهيجة أو الحزينة . هى من خلصائنا الصامتين فى الساعات العذاب وفى الساعات الحالكة الإهاب . هذه القطع التى تطلبها « جان » قدمت واعتراها البلى : تخرق نسيجها ، وتمزقت بطائنها ، وتهلهلت مشابكها ، وامحت ألوانها

كانت « جان » تتخير القطع التى تريد اصطحابها واحدة واحدة ، وكان التردد

يسيطر عليها ، وكانت مضطربة اضطراب المقبل على اتخاذ قرار حاسم ، فهي تراجع رأيها في كل لحظة ، مفاضلة مثلا بين مزايا كرسيين أو مكتب ذهب رواؤه وبين مزايا نضيد للشغل غبرت عليه سنون . وكانت تفتح الأدراج تلتمس ما يذكرها وقائع مضت لسبيلها ، ثم تنثني إلى نفسها قائلة : « نعم ، سآخذ هذا » ، وعندئذ ينقل هذا الشيء إلى حجرة المائدة

إنها جد راغبة في ألا تدع شيئا من أثاث مخدعها : سريرها .. الأبسطة التي تكسو الجدران .. الساعة .. وكل شيء . ومن حجرة الاستقبال جمعت « جان » بعض المقاعد التي أحبت رسومها منذ صباها الباكر ، هي رسوم تمثل قصص الثعلب واللقلاق ، والثعلب والغراب ، والصرصور والنملة ، ومالك الحزين ...

وذات صباح ، بينما « جان » تطوف بأركان هذا السكن الذي لن تلبث أيامها فيه أن تؤذن بوداع صعدت إلى المخزن ، وهناك امتلكها الروع ؛ هذي أكداس من الأشياء من كل جنس ، بعضها محطوم وبعضها محتفظ بجدته لولا غبرة تكسوه ، وبعضها لا يدرى أحد فيم جيء به إلى هذه الحجرة . لعله لم يعد يسر أحدا أو لعله استبدل به ...

وشهدت « جان » أشتاتا من دمى الزينة الصغيرة التي جمعتها بها قديما آصرة المعرفة ، ومع ذلك فإنها لما اختفت فجأة لم تفكر « جان » في اختفائها ولا فيما كانت تؤديه . هذه الأسقاط التي طوى النسيان مساحبه على ذكرها خمسة عشر عاما ، والتي كانت « جان » تراها كل يوم ولا تلحظ أنها تراها ، تظهر اليوم بغتة في المخزن إلى جوار زميلات لها فتوقظ في قلب « جان » ذكريات الأماكن التي تلقت هذه الأشياء للمرة الأولى ...

وفجأة ، أخذت هذه الأشياء أهمية شهود منسيين أو أخلاء عادوا بعدما ظن ألا تلاق ، وأضحى لهذه الأشياء الأثر الذي يكون لأناس اصطفاهم المرء زمانا طويلا ، ثم ضربت الليالي بينه وبينهم ، ثم على حين غفلة وعلى غير توقع عادوا يتحدثون مسترسلين في الحديث كاشفين عما يملأ جوانحهم من ود غير متهم

مضت « جان » تنقل النظر من شيء إلى شيء وفي القلب أوجاع ، وكانت تناجي نفسها : « صه ! إنه أنا التي كسرت هذا الفنجان الصيني ذات مساء قبل زواجي بأيام قليلة » ، « آه .. هذا مصباح أمي الصغير ، وهذي هي العصا التي كسرها أبي الشاب عندما أراد فتح باب الحديقة

الذى شقق المطر أخشابه »

وثمة أشياء كثيرة لم تكن « جان » عرفتها ولا حفظت لها ذكرى ، أشياء تناورتها عن أجدادها الأدنين أو الأبعدين ، وأشياء علاها التراب نبذت هنالك فى زمن غير زمانها ، وكأنها شجية لما تلقى من هجران ، أشياء لا يدرى أحد تاريخها ولا المغامرات التى صاحبتها ، ولم ير أحد هؤلاء الذين اختاروها واشتروها وملكوها وأحبوها ، ولم يعرف أحد الأيدى التى استعملتها فى ألفة والعيون التى طالما ارتادتها واستطابتها

لست «جان» الكراسى ، ثم أعادتها ، فتركت سيقان الكراسى أثناء تحريكها خطوطا . إن « جان » تحت ضوء النهار الباهت المنبعث من مربعات الزجاج المركبة فى السقف تبحث عما إذا كانت هذه الأشياء تنشر ذكريات مطوية

وأقبلت « جان » على أشياء عتيقة تفحصها رجاة أن تجد لديها ذكريات ، فحصت حوضا نحاسيا ومدفئة منزوعة القاع تعتقد أن لها بها معرفة سالفة ، وكومة من المواعين التى لم تعد تستعمل . وفى آخر الأمر ، كانت « جان » قد جمعت قدرا من الأشياء التى ترغب فى اصطحابها ، فلما نزلت من المخزن أمرت « روزالى » بإحضارها ، وأبت الخادم ساخطة إحضار هذه « الأوساخ » ، ولكن « جان » التى لم تكن لها غالبا أية إرادة أصرت هذه المرة على رأيها ، وأوجبت الطاعة على خادمتها

وفى أحد الأصباح ، حضر الفلاح الصغير بعربته لنقل الدفعة الأولى من الأثاث ، وصحبته « روزالى » لتهيمن على النقل وتضع كل شئ موضعه . أما «جان» التى بقيت وحيدة ، فقد جعلت تنقل الخطى فى أرجاء القصر ، وقد تسلطت عليها نوبة فظيعة من اليأس . وفى حرارة الحب المشبوب بين جوانحها كانت تقبل كل ما تعجز عن استصحابه : قبلت الطيور البيضاء فى السجاجيد المزينة لجدران حجرة الاستقبال ... قبلت المصابيح القديمة ... قبلت كل ما صادفها ... وكانت فى سيرها من حجرة إلى حجرة كالذى خولط فى عقله ، وكانت عيناها غارقتين فى الدمع

وأخيرا ، توجهت تلقاء البحر لتقول له : « أستودعك الله »

كان ذلك فى أدبار سبتمبر ، والسماء الغائمة تحكى ثقلا مطبقا على الدنيا ، والأمواج المعولة الضاربة إلى الصفرة تمتد على مدى البصر ، و « جان » قائمة على الشاطئ الصخرى تدير فى رأسها أفكاراً ممضة

وجن الليل على « جان » فآبت إلى

قصرها وقد برحت بها الآلام أكثر مما فعلت بها أى أحزان وجيعة

وحان يوم الرحيل ...

وفصلت العربة ، ثم وقفت بعد ساعتين على جانب الطريق الفسيحة تجاه بيت صغير مبني بالآجر ويتوسط بستانا زرعت فيه الكمثرى بغير نظام ، وأقيمت فى أركانه تعاريش من الشجيرات والزروع المتسلقة ، ومن حولها أحواض مربعة مزروعة بالخضر ، تشقها مسالك ضيقة تحفها أشجار الفاكهة ، ويطيف بالدار وما حولها سياج عال بينه وبين المزرعة المجاورة حقل . وهناك على بعد مئة متر دكان حداد ، وعلى بعد لا يقل عن كيل تقوم المساكن . فأما المنظر المجاور فمنظر سهل زاحف فى أرض « جو » تناثرت عليه الضياع وقد لفتها أربعة صفوف مزدوجة من أشجار التفاح

وإذ بلغت « جان » البيت أرادت لتستريح ، ولكن « روزالى » أبت عليها ذلك مخافة أن تسترسل فى أحلامها

وكان فى « جودرفيل » نجار ، وها قد أقبل لتنظيم الأثاث ، وشرع يعمل غير منتظر ورود العربة الأخيرة التى يجب ألا تتأخر

كان الأمر مهما ويقتضى التروية والتدبير

وبعد ساعة ، ظهرت العربة عند السور ولم يكن مناص من تفريغها تحت المطر

ولما سجا الليل ، كانت الدار مضطربة النظام تماما ، فقطع الأثاث التى تملؤها ملقاة كيفما اتفق . أما «جان» التى أصابها الإعيـاء فلم تأو إلى مضجعها حتى غشيها النعاس

وفى الأيام التالية ، كانت « جان » مثقلة بالنوافل والمشاغل ، فلم يكن لديها وقت تحن فيه إلى ولدها الحبيب ، هذا إلى أن تجميلها بيتها الجديد كان يشعرها بعض السعادة ويطامن من شجاها ، وكان الأمل فى أوبة ابنها الغائب يراوحها ويغاديها فى غير انقطاع . ولقد بسطت « جان » السجاد فى حجرة الطعام التى اتخذت منها حجرة استقبال أيضا . أما الغرفتان الأخريان فى الشقة الأولى فقد نسقت إحداها بعناية . وسيطرت على « جان » فى ذات صدرها فكرة أن تسمى هذه الشقة « شقة بوليه » ، وقد احتفظت لنفسها بالغرفة الثانية ، وخصت « روزالى » بغرفة أخرى فى جوار المخزن

كانت الدار الجديدة شائقة بعد إذ نظمت بعناية ، وقد وجدت فيها « جان » الراحة فى الأيام الأولى ولو أنها كانت تحس شيئا ينقصها ، شيئا مبهما لم تعرفه ولم تتبينه

وذات ضحى ، جاء كاتب المحامى « فيكام » يحمل إليها ثلاثة آلاف وستمائة فرنك ثمن الأثاث الذى خلفته فى قصر « لو بوبل » والذى قدر قيمته أحد المتخصصين . وما إن تسلمت المبلغ حتى تنفست تنفس الفرحة ، وما إن تركها الرجل حتى أسرعت فوضعت قبعتها منطلقة إلى « جودرفيل » لتبعث إلى ولدها بهذا المبلغ غير المرتقب . بيد أنها وهى تخط الخطى فى الطريق الكبير تقابل « روزالى » قادمة من السوق . ومع أن الخادم لم تستيقن الأمر فقد خامرها الشك . ولما أفضت إليها بالحقيقة ، وكانت « جان » لا تحجب عنها سرا ، وضعت سلتها على الأرض ليمكنها التعبير عن غضبها فى يسر وكما تشاء ، وصاحت الخادم وقبضتا يدها فى خصرها ، ثم أخذت بذراع « جان » حاملة السلة بيسراها ، وانكفأت بسيدتها إلى الدار والغضب لما يسكت عنها ، حتى إذا دخلتا الدار وأصرت الخادم على أخذ المبلغ أعطته « جان » إياها محتفظة بستمائة فرنك . وأدركت « روزالى » التى يراودها الشك أن للمبلغ بقية ، واضطرت « جان » إلى تسليم المبلغ عن آخره . على أن « روزالى » أشارت بإرسال ستمائة الفرنك إلى « بوليه » الذى ورد منه على أمه بعد أيام كتاب يقول فيه شاكرا : « لقد أسديت إلى فضلا كبيرا يا أمى العزيزة ، فقد كنا فى بؤس بئيس »

ومع هذا ، فإن « جان » لم تطمئن إلى « بانفيل » ولم تألفها قط . ويا طالما بدا لها أنها لن تستروح النسيم كما كانت تفعل ، وأنها بالقياس إلى ذى قبل تعانى وحدة أحر وتسقى من هجزان أمر

واعتادت « جان » أن تخرج كل يوم للتروض حتى تبلغ ضيعة « فرنيه » ثم تعود ، ولكنها لا تعود إلا لتنهض ثانية وقد تملكتها رغبة مستجدة فى الخروج كأنما نسيت الذهاب إلى حيث تحب أن تذهب

كان هذا الشعور يراودها مصبحة وممسية ، وكانت لا تدرك سبب ما تحسه من نقص عجيب ، ولكنها فى إحدى الأماسى وهى تهم بالجلوس إلى مائدة العشاء ندت عنها عفواً عبارة كشفت سر الاضطراب الذى يعتلج فى دخيلتها ، قالت : « كم تهفو نفسى إلى رؤية البحر ! »

إذن هو البحر . . . هو الشىء الذى يعوزها ، إذن هو هذا الجار القديم منذ خمس وعشرين سنة ؛ هو البحر بهوائه الملح ، بغضباته ، بأصواته المزمجرة ، بنسماته القوية ؛ هو البحر الذى كانت ترنو إليه

مبهورة من دارها القديمة (لوبوبل) . . هو البحر الذى كانت تستشى عبيره فى الليل إذا يغشى ، وفى النهار إذا تجلى ، والذى كانت تحسه قريبا منها ، والذى أنزلته منزلة الحبيب كأنه إنسان ملؤه الحياة مافى ذلك ريب

* * *

ومضت حياة « جان » وثبا . مضت حزينة وعلى وتيرة واحدة . والسيدة فى سكنها الجديد تنتظر أوبة « بوليه » قرة عينيها ، ولكنها لا ترى من « بوليه » إلا طلبات النقود

وألقى إليها يوما كتاب منه يسألها فيه أن تأذن له بالزواج من عشيقته . وهنالك قررت (جان) والهم يثقلها أن تستقل القطار شاخصة إلى باريس

* * *

وانطلقت الصفارة الثانية إيذاناً بتحرك القطار ، فانسابت العربات فى رفق أول الأمر ، ثم فى سرعة أشد فيما بعد ، ثم فى سرعة مزعجة أخيرا . وكان فى المقصورة التى تتبوأ فيها « جان » مقعدها رجلان اشتمل عليهما النـوم ، وقد أسنـدا رأسيهما إلى ركنين فى المكان

وكانت جان ترسل نظرها فى الغيطان والشجر والدساكر والقرى وهى مذعورة من تلك السرعة ، شاعرة أنها مأخوذة إلى حياة جديدة ، بل محمولة إلى عالم جديد لم تبله فى شبابها الهادئ ولا فى عيشها الرتيب

وعندما بلغ القطار باريس كان المساء قد أقبل ، وسار أحد الحمالين بحقيبة « جان » ، وسارت هى فى أثره وجلة القلب متعثرة الخطى قليلة الحيلة ، يعميها اختراق الجماهير المائجة ، وكانت من خلف الحمال تغذ السير كأنما تهرول مخافة أن يعزب عن ناظرها

حتى إذا بلغت إدارة الفندق ، بادرت تقدم نفسها قائلة : « قدمت إليكم بتوصية من السيدروسيل » ؛ ولكن مديرة الفندق ، وهى سيدة ضخمة جافية ، سألت وهى جالسة إلى مكتبها : « ومن هو السيد روسيل ؟ » ومضت (جان) تقول وهى مستغربة : «إنه موثق العقود بجو درفيل ، وهو متعود النزول عندكم . » فأجابت السيدة الضخمة : «ربما ؛ ولكنى أجهله . أتريدين غرفة ؟ »

— نعم ياسيدتى

وأخذ النـادل أمتعتها ، وصعد السلم قدامهـا

كانت (جان) تحس انقباضاً موغلا فى قلبها . وحين جلست إلى نضد صغير دعت إليها بحساء وجناح دجاجة ، فإنها منذ الفجر لم تكن طعمت شيئا . وأكلت فى ضوء شمعة . أكلت وهى تجد الشجن فى قلبها ،

وكانت تهيج بها ذكريات كثيرة . إنها تذكر مرورها بالمدينة نفسها وهى عائدة من رحلة زواجها . . . نعم ، وقد بدت لها يومئذ فى باريس بالذات الشواهد الأولى لطباع (جوليان) زوجها ؛ ولكنها آنئذ كانت تلبس برد الصبا ؛ ولكنها آنئذ كانت عامرة بالثقة وافرة بالحياة . فأما اليوم فهى تحس أنقاض عمرها تتداعى ، وهى تحس فى نفسها اضطرابا وفزعا ، وتحس فى قواها وهنا ، وتحس قلقا لا تعرف مأتاه

ونفضت يدها من العشاء ، وجلست إلى النافذة ، وأطلت على الطريق المكتظ بالخلائق ، وكان يشوقها أن تخرج ولكنها لم تكن لتجرؤ على هذا ، فقد كانت تعتقد أنها سوف تضل طريقها لا محالة . ولذلك أطفأت النور ، وأسلمت جنبها إلى المضجع ؛ بيد أنها لم تنم . نفى عنها الكرى ضجيج الشارع ، والإحساس بالمجهول فى المدينة الكبيرة ، واللغوب الذى نالها من الرحلة . ومرت الساعات ، وخشعت الأصوات رويدا رويدا ؛ ولكن « جان » لا تجد إلى النوم سبيلا ، فيثير ذلك من أعصابها . لقد ألفت فى الريف الهدوء الشامل والنوم العميق اللذين يخلو إليهما هناك الإنسان والحيوان والنبات ، ولكنها الآن تحس من حولها حركة غامصة ، وتتناهى إليها أصوات غير مبينة كأنها تنسل من جدران الفندق زحفا ، وفى بعض الحالات يتأدى إليها صوت أرضية تصر أو باب يقفل أو جرس يدق

ولم يكد النعاس يدب فى مفاصل (جان) حوالى الساعة الثانية من الصباح حتى رنت بغتة فى حجرة مجاورة صرخة من إحدى السيدات ، فاستوت (جان) جالسة فى سريرها . ولقد خالت بعدها أنها تسمع ضحكات رجل . وكلما اقترب النهار جمل التفكير فى (بول) يأخذ عليها أقطار فكرها ، حتى إذا تنفس الصبح إرتدت ملابسها

كان (بول) يقطن فى شارع (سوفاج) بالمدينة ، وأرادت (جان) أن يكون سعيها إلى هناك سيرا على القدم ، أخذاً بتوجيهات (روزالى) الاقتصادية ، وكان الجو صحوا ، ولكن الهواء البارد كان يقرص الجسد ، وكان الناس على الأفاريز مهطعين ، وكانت (جان) تجد السير ماوسعها ذلك فى شارع ، وكان عليها فى نهاية الطريق أن تنحرف عن يمين ثم تنحرف ثانية عن شمال ، حتى إذا بلغت ميدانا كان عليها أن تعاود السؤال عن الطريق الذى تنهجه ، ولكنها لم تهتد إلى الميدان، فاسترشدت خبازا أدلى إليها بمعلومات

تخالف مالديها . . واستأنفت السير وفق توجيهه فعميت عليها الطرق ، وتجولت وفق إرشادات جديدة فانتهى بها هذا إلى أن ضلت سبيلها تماما

ومضت كالتي ألم بها طائف من جنون تمشي على غير هدى . ولما طالعها نهر السين كادت تدعو جوذيا ، ولكنها التزمت رصيف النهر . وبعد نحو ساعة أدركت شارع سوفاج ، وهو أشبه بحارة مظلمة ، ووقفت حيال أحد الأبواب ، وقد نال منها التأثر مبلغا لم يسعها معه إلا أن تقف لاتريم هنا ، في هذا المنزل كان « بوليه » . .

ومشت في جسدها رعـــدة هزت ركبتيها ويديهـا . . . وأخيراً دخلت ، وسلكت ممرا ، ورأت غرفة البواب ، فسألته وهي تمد إليه يدها بقطعة نقود : أيمكن أن تصعد إلى « السيد بول » لتبلغه أن سيدة عجوزا هي صديقة والدته تنتظره هنا ؟ فأجاب البواب : إنه لم يعد يسكن هنا ياسيدتي

وأخذتها رجفة عنيفة ، فقالت متمتمة « آه ! وأين يسكن الآن ؟ أين ؟ »

— لست أدري

وشعرت « جان » بدوار ، كما لو كانت ستسقط إلى الأرض ، ومكثت بعض الوقت عاجزة عن النطق ، وأخيرا وبعد جهد جهيد استردت حواسهـا ، وقالت بصوت خفيض : ومنذ متى رحل ؟

وأعطاها الرجل معلوماته في سخاء وقال : « إسمعي يا سيدتي ، لقد رحلا ذات مساء من نحو خمسة عشر يوما ، رحلا ولم يؤوبا . ولقد كانا متداينين للحي كلـه ، فكان طبيعيا كما لا يغيب عنك ألا يتركا عنوانهما »

كانت « جان » ترى أنوارا ... ترى لهبا دافقا ، تحسبه عينها طلقات منبعثة من بندقية ، ولكن فكرة عنيدة ملأت منها الجوانح فنحتهـا القـدرة على الوقوف ، وأفاضت عليهـا سكينة ظاهرة ، وأمنت روعها شيئا ما ، ذلك أنها كانت تريد أن تعرف أين « بوليـه » وكيف تبحث عن « بوليه »

— أهكذا لم يقل أبدا أين ذهب ؟

— ألبتة ، ولقـد هربا حتى لا يؤديا ديونهما

— ولكن لا مندوحة له عن إرسال من يتسلم بريده

— لم تعد ترد إليه رسائل ، ولو وردت إليه لأعطيتها إياه ، على أنه لم يكن يتلقى في العام بطوله أكثر من عشر رسائل . وقد سلمتها قبل رحيلها بيومين رسالة

إنه رسالتها بلا شك ؛ وقالت للبواب

فجأة : « أصغ إلى … إننى أمه ، وقد جئت أبحث عنه . هاك عشرة فرنكات لك ، وإن أتاك جديد عن « بوليه » أو جاءك عنه أى نبأ فانقله إلى فى فندق نورماندى بشارع الهافر ، وسوف أجزل لك العطاء »

وأجابها : اعتمدى على يا سيدتى .

وانطلقت …

انطلقت « جان » لا تلوى على شئ ، ولا يعنيها أن تعرف أين وجهتها ، وكانت تسرع السير كأنها موفضة إلى أمر مهم ، وكانت تسير والجدران ، وكانت تصطدم بالمارة وما يحملون من لفائف . وفى عبورها للطريق لم تكن تلقى بالا إلى العربات ، فكان الحوذيون يوسعونها شتما . وكانت تعثر فى الأفاريز التى لم تكن تدير لها حسابا ، كانت تهيم وروحها أمامها هيمانة ..

ووجدت نفسها فجأة فى حديقة عامة ، ولقيت من تجوالها نصبا ، فاتكأت على أريكة ، وظلت غير قليل متكئة وهى مستخرطة فى البكاء ، غافلة عن نفسها لاهية عن المارة الذين كان يستوقفهم منظرها . ثم أحست وطأة البرد فنهضت لتعود إلى نزلها وحملتها ساقاها حملا ، فقد كان التعب والضعف يؤودانها

أرادت « جان » أن تعوج على أحد المطاعم لتنال بعض الحساء ولكنها لم تجسر على غشيان هذه الأماكن ، احتجزها ضرب من الخجل والإشفاق ، ولون من ألوان الاستحياء من الآلام التى تحس « جان » آثارها بادية على صفحتها . ووقفت هنيهة أمام باب المطعم تنظر إلى داخله ، وكانت ترى الناس جالسين يأكلون ، ففرت خائفة وهى تقول : « سأدخل المطعم التالى » ولكنها لم تدخله أيضا

واشترت آخر الأمر من أحد الخبازين قطعة خبز قوراء كالقمر ، وأخذت تقضمها وهى سائرة . ولقد كان العطش يذلقها ، ولكنها لم تكن تعرف من أين تشرب ، ولذلك مضت عطشى

واجتازت قبوة ، فوجدت نفسها فى حديقة أخرى تطيف بها مجموعة متتابعة من العقود ، أدركت «جان» أنها القصر الملكى ، وإذ كانت مرهقة من وهج الشمس وطول السير فقد لبثت جالسة ساعة أو ساعتين . ودخل الناس أرسالا ، وهم أناس يتسمون بأناقة المظهر ، يقبل بعضهم على بعض يتحدثون ويتبادلون التحايا ، فشهدت « جان » جمعا سعيدا نساؤه جميلات ورجاله أثرياء ، جمعا لا يعيش إلا للحلى والمباهج . وتشفق « جان » من أن تكون بين هذا الحشد البراق ، فتنهض لتفر ، ولكن فكرة مفاجئة تساورها ، هى أن ولدها الأثير

« بول » لايبعد أن تلقاه هنا ، لذلك أخذت تجوب المكان وهى تتصفح الوجوه ذهابا وجيئة فى غير توقف ، وتجر خطاها الكسيرة السريعة من أول الحديقة إلى آخرها

وكان بعض الناس يلتفتون وراءهم لينظروا إليها ، وكان آخرون يضحكون وهم يشيرون إليها ، ولاحظت هى ذلك فولت الأدبار معتقدة أنهم يتفكهون بعظهرها وردائها ذى المربعات الخضراء الذى اختارته لها « روزالى » والذى خاطته خياطة « جودرفيل » وفق تعليمات « روزالى » أيضا

ولم تكن تجسر على أن تستهدى المارة الطريق،فسارت تعتسفه اعتسافا، وانتهت بأن وجدت فندقها . وأنفقت باقى يومها جالسة على مقعد بجوار سريرها ، ساكنة لاتبدى حراكا ، ثم تناولت عشاءها كما تناولته بالأمس : بعض الحساء وقليلا من اللحم ، ثم ثابت إلى النوم . كانت تفعل ذلك كله آليا وبالعادة

واغتدت فتوجهت إلى مخفر البوليس رجاوة أن يبحث لها المسؤولون عن ولدها ، ولكنهم لم يعنوها بشئ سوى أنهم سوف يهتمون بالأمر . ومن ثم ، جعلت تطوف بالشوارع، والأمل فى أن تلقاه راودها دائما،

وكانت تشعر أنها وسط هذا الزحام اللاجب أقسى وحشة وأشد ضيعة وأهول بؤسا مما لو كانت فى خلاء مقفر

وعندما ضرب الليل سرادقه ، وجان فى الفندق ، نبئت أن رجلا من لدن « السيد بول » سأل عنها ، وأنه سيعود إليها الغداة ، فتفزت موجة من الدم إلى قلبها ، ولم يطبق لها جفن طول الليل

— لو كان إياه ! لا بد أنه هو

هذا مع أنها لم تتعرف إلى صفات ولدها مما ذكر لها عن السائل

وحوالى الساعة التاسعة صباحا دق بابها فصاحت : « أدخل » ، وتراجعت لتحسن التقدم ، وفتحت ذراعيها ، ولكن المتقدم إليها كان شخصا لا تعرفه . وبينما كان يعتذر إليها عن إزعاجها ويشرح لها مقصده من الزيارة وهو مطالبتها بمبلغ فى ذمة « بول » ، استبقت بالدمع عينها ، ولكنها كتمت بكاءها عن محدثها ، فقد كانت تمسح دموعها بطرف إصبعها كلما تجمعت فى زوايا مقلتيها

لقد علم الدانى من بواب شارع سوفاج بمجئ الأم ، فلما لم يستطع لقاء الشاب قصد إليها ؛ ومد إليها يده بقرطاس تناولته وهى لا تفكر فى شئ ، وقرأت فى القرطاس رقما : (٩٠ فرنكا) فأخرجت

النقود وأدت الدين . ولم تبرح فندقها طول اليوم

وفى الغداة ، تقدم دائنون آخرون ، فأعطتهم جان كل ما كان متبقيا لديها من نقود ولم تبق لنفسها غير عشرين فرنكا ، وكتبت إلى « روزالى » تستنبئها الحال

وقضت الأيام فى جوب الطرقات ، ترقب رد خادمتها ، غير عارفة ماذا تصنع ، ولا كيف تقتل الساعات الفاجعة التى لا تنتهى ، وغير عارفة أحدا تفضى إليه بكلمة شافية ، أو أحدا يعرف شقوتها ... كانت تسير إلى غير غاية ، وكانت فى كبد ، وكانت تنازعها نفسها إلى الرحيل والانقلاب إلى هناك . . . إلى بيتها الصغير على جانب الطريق المنعزل . إنها قبل أيام قليلة لم تكن تقوى على العيش فيه إذ كان الحزن يغلبها ، أما الآن فهى على النقيض تحس أنها لا تقوى على العيش إلا فيه ، حيث تمارس عاداتها الحزينة التى أخذت منها مأخذا عميقا

وتلقت ذات مساء كتابا منطويا على مائتى فرنك ، وفيه تقول لها « روزالى »: « سيدتى جان ، إرجعى بأسرع ما تستطيعين ، فليس بعد هذه المرة من نقود . فأما رأيى فى شأن «السيد بول» فسوف أذهب بنفسى للبحث عنه عندما ترد علينا أخبار ، ولك التحية من خادمتك (روزالى) »

وعادت « جان » ذات صباح إلى بانفيل ، وكان الثلج يسقط والبرد يقرس

* * *

وبقلب يمزقه الأسى كانت (جان) تقضى أيامها . وكانت تتقدم إلى الشيخوخة ، وكانت تنتظر ، وعبثا ما كان انتظارها . وأنبأها ابنها ذات يوم أن عشيقته قد دنا منها خفوق من بين ظهرانيه ، بعد أن وضعت وليدة ، وأنه يعانى الإفلاس

* * *

تهاوت « جان » إلى مقعدها ، وهى لا تكاد تقوى على دعاء «روزالى» . وما إن حضرت الخادم حتى أخذت المرأتان كلتاهما تقرآن الرسالة ، ثم بقيتا طويلا الواحدة فى مواجهة الأخرى والصمت يلفهما . وأخيرا قالت « روزالى » : سأذهب بنفسى لإحضار الطفلة ياسيدتى ، فما ينبغى أن ندعها هكذا . وأجابت « جان » : « إذهبى يا ابنتى »

وأغرقتا فى الصمت ، ثم قالت الخادم : «ضعى قبعتك ياسيدتى ، وهيا بنا إلى موثق العقود فى « جود رفيل » فلو كان هذا آخر عهد العشيقة بالدنيا لكان لزاما على « السيد بول » أن يعقد عليها من أجل مستقبل الطفلة »

ووضعت « جان » قبعتها من غير أن تنبس ببنت شفة . وضعت قبعتها وقد فاضت على قلبها فرحة عميقة لا يجوز الجهر بها ، هي فرحة خبيثة ودت « جان » جاهدة إخفاءها تماما بأية وسيلة ، هي من الفرحات المرذولة التي تخجل صاحبها ، ولو أنه في حقيقة الأمر يلتذها التذاذا في أطواء نفسه : إن عشيقة « بول » مشفية على الهلاك !

وزود موثق المقود الخادم بتعاليم مفصلة ، وقد رددت «روزالي» هذه التعاليم أمام الموثق مرات عدة ، حتى إذا استوثقت من أنها لن تقع في أي خطأ قالت : « لا تخشي شيئا ، فالآن آخذ الأمر على عاتقي» . ثم مضت إلى باريس في الليلة نفسها

وقضت «جان» يومين مضطربة الفكر حتى لتعجز عن التفكير في شيء ، وفي الصباح الثالث من سفر « روزالي » تلقت منها كلمة واحدة تخبرها فيها بأمر واحد هو أنها عائدة بقطار المساء

وفي نحو الساعة الثالثة استقلت «جان» إلى المحطة عربة أحد جيرانها لتنتظر خادمها. وظلت واقفة على الرصيف ، وعينها معلقة بالخط المستقيم الذي رسمته القضبان ، وقد كانت هذه القضبان المتقاربة تلوح وكأنها تفر هاربة إلى الأفق . وبين لحظة وأخرى كانت « جان » تتلفت إلى ساعة المحطة … لم يبق إلا عشر دقائق ، بقيت خمس دقائق … دقيقتان … ها قد حان الوقت ولما يظهر في الطريق الطويل شيء . ثم فجأة ، لاحظت نقطة بيضاء ، ثم لاحظت دخانا ، ثم من أسفله نقطة سوداء بدأت تكبر وتكبر راكضة بكل سرعة . وأخيرا خفضت القاطرة من سرعتها ، ومرت وهي تلهث أمام « جان » التي كانت ترقب الأبواب في لهفة . وفتحت أبواب كثيرة ، وهبط منها الناس : فلاحون في قمصانهم ، وفلاحات يحملن السلال ، وقليل من أهل الطبقة الوسطى بقبعاتهم الناعمة . وأخيرا لمحت « جان » روزالي وهي تحمل على ذراعها شيئا من طرود الأغطية

وودت التقدم نحوها ، ولكنها خشيت أن تخر إلى الأرض فإن ساقيها كانتا واهنتين . ورأتها خادمتها فأقبلت عليها بروحها الهادئة المعهودة وهي تقول : أسعد الله يومك يا سيدتي ! ها قد عدت أدراجي ولكن بعد مشقة

وسألت « جان » في تلعثم : ماالأخبار؟ قالت « روزالي » : « خيرا ، لقد ماتت الليلة ، وقد تزوجا ، وها هي الطفلة » . وقدمت الطفلة التي لا ترى بين طيات ثيابها . وتناولت « جان » الطفلة آليا ،

وخرجت مع خادمتها ، واستقلتا المركبة

واسترسلت « روزالى » تقول : « سيأتى السيد بول بعد الدفن غدا فى نفس الوقت على ما أعتقد » وتمتمت جان : « بول » ! ولم تزد شيئا »

كانت الشمس قد مالت نحو الأفق ، مفيضة النور على السهول السندسية التى يتخللها هنا وهناك زهور الكولزا بلونها الذهبى وزهور عرف الديك بلونها الدموى ، وكان الهدوء الشامل ينشر فسطاطه على الأرض الساكنة التى تنبت الزروع ، وكانت العربة تعدو ماوسعها العدو ، وكان سائقها القروى لا ينفك يحث الجواد على الإسراع

وكانت « جان » تنظر قدامها إلى الهواء ، وكانت تتلفت إلى السماء التى ترفرف تحت قبتها الزرقاء بعض الأطيار . وفجأة أحست الدفء يدب فيها ، وأحست حرارة الحياة تخترق ثيابها وتدرك ساقيها ، وتنفذ فى جسدها . إنها حرارة الكائن الصغير الهاجع على ركبتيها

هنالك غمرها شعور ماله نهاية ، وكشفت فجأة عن وجه الطفلة الذى لم تكن شهدته بعد ، وجه حفيدتها ؛ وكان للضوء القوى أثره على المخلوقة الضعيفة ففتحت عينيها الزرقاوين محركة فمها ، وأخذت « جان » تقبلها بحرارة شديدة ، رافعة إياها بين ذراعيها ، غامرة إياها بالقبل

ولكن « روزالى » وقفت سيدتها غير حافلة برضاها وسعادتها ، قائلة : « حسبك ، حسبك يا سيدتى جان ، حسبك فستجعلينها تبكى » ثم أضافت وهى تجيب على فكرة راودتها هى نفسها : « هذى هى الحياة ، إنها ليست خيرا ولا شرا مما نظن »

لبيب السعيد



لعنة!

للأستاذ يوسف جوهر

على النيل ، بين القاهرة وحلوان ، طريق للسيارات ، ضيق ردىء

ومنذ عامين تقرر توسيعه وإصلاحه ؛ وإنه لمشروع جليل

والمشروعات الجليلة فى بلادنا كانت إلى زمن قريب لاترى النور إلا إذا تبركت بمقام أحد الأولياء ، أو مستها كرامة قديس . وكنت تسمع ، دون أن تدعو نفسك للدهشة والعجب ، أن هذا الجسر لم يكن ليقام لولا نفوذ فلان بك ، ونفعه المحقق لأرضه ، وأن ذلك الشارع ما كان ليمهد لولا أن لفلان باشا فى هذا مأربا . . وعلى هذا النسق كان طريق حلوان خليقا أن يظل « مزنوقا » بين النيل وأرض الله الواسعة التى تحف به ، لو لم يكن للملك السابق فيه مقام اسمه « ركن فاروق »

قد يكون هذا حقا ، وقد يكون بعض ظن السافرين.. والسافرون كان لهم ، إلى عهد قريب ، منطق ممرور ، ودعاء مرفوع : أن يغرى الله أصحاب المصلحة الخاصة بخدمة « المصلحة العامة » حتى ترى حاجات الشعب النور وتأخذ طريقها إلى الظهور

* * *

وفيما مضى لم يكن أحنى من الحكومة على القاولين ولا أشد برا بهم . إن المقاول ليبدأ عمله ، ثم يتوعك ، ثم يضطرب نبضه ، ويحل موعد التسليم . . وتمضى شهور ، وربما تمر أعوام ، والمقاول ينتقل من اضطراب النبض إلى غيبوبة لطيفة لا يكترث فيها بشىء ، ولا تعكر عليه صفوه الحكومة صاحبة الطريق ، لأن الحكومة سيدة بارة طيبة يملأ قلبها الحنان

ولكن العمل هذه المرة بدأ بنشاط ملحوظ ، ولم يضطرب نبضه ، ولم تأخذه إغفاءة ولا إغماءة ، فإن طريق حلوان طريق ملكى ، وليس أشد من الملوك غيرة على الصالح العام .. ومن أجل الصالح العام بدأ الإصلاح من نهاية الطريق المحيطة بركن فاروق ، تيمنا بالمقام الملكى ، وقربى من كرامات الأولياء ، وبركات القديسين

* * *

وانتشر العمال الذين جاء بهم المقاول
لإنجاز المشروع انتشار النمل
جاءوا . . ترحيلة
والترحيلة هى مجموعة من الفعلة الذين
يبتسم لهم الحظ ، ويجدون عملا لأمد طويل
ويرحلون من قراهم فى قطيع كبير يستخفه
حلم جميل .. حافل بالخبز
وعلى جانب الطريق حطوا الرحال ،
وأقاموا الخيام . . وملأت المكان زكائب
الخبز ، والزلع والجرار
وكان الخبز من الذرة ، يفوح منه مع
رائحة الحلبة عطن خبيث . . والأوانى
الفخارية كان بعضها مفعما بسائل عفن
تسبح فيه قطع من اللفت أو ورق الكرنب
الذى تهرأ من القدم .. وبعضها الآخر كان
مغلقا على وجبات أشهى ، قوامها دود
كثير يعيش فى جبن قليل
وكنت أراهم كل يوم وأنا أقطع
الطريق بسيارتى بين حلوان والقاهرة ،
يعملون فى وقدة الشمس المحرقة ، وفى الليل
والصقيع ينهمر وهم أشباه عراة .. وراقبتهم
وهم يشربون الشاى الأسود فى علب الأطعمة
المحفوظة ، ويدخنون التبغ المصمغ بالعسل
جماعات من قصبة واحدة ، وأغانيهم تسيل
شاحبة منهوكة على تراب الطريق
رأيتهم عن قرب ، وتذكرت هواجس
الشعراء والحالمين وهم يتخيلون ابن الحقول
يهد الدنيا بعضله المفتول ، ويضحك
للشمس ملء فؤاده السعيد ، ويترك التعاسة
لهؤلاء الأغنياء الذين يتلفهم الترف ،
وتتقسمهم العلل ، ويحيط قلوبهم بالشحم
الوبيل دسم الطعام . . تذكرت هؤلاء
الحالمين وأنا أرى عن كثب أصحاب
العضل المفتول مهزولين يترنحون من التعب ،
صفحات وجوههم المكروبة كأنها ورق
قديم اصفر من فرط ما لذعته الشمس . .
وابتساماتهم دموع تجمدت على الشفاه . .
وشدوهم أنين يضمدون به الجراح

* * *

وذات صباح رأيت واحدا منهم تقتله
الشمس .. سقطت الفأس من يده .. ووقع
على جنبه .. وتوسد خده الثرى الذى كان
ينبشه منذ لحظات
مات فى لحظة ، وكأنه حشرة شخصها
قـدم
أكان مريضا بالقلب وقتلته العلة ؟
من يدرى وهو فى بلد يعيش فيه
الناس ويموتون دون أن يصل إليهم الطبيب
مرة فى العمر
هل ضربته الشمس ؟ من يدرى وهو
ابن قوم لا يعنيهم كم ساعة يعمل الأجير
فى الشمس الشريرة الخانقة . .

يستوى من يسقط قلبه السقيم بمن تضربه الشمس الشريرة ، ومن تصرعه الحمى بمن ينهار عليه جرف الطريق ويدفن حيا فى التراب .. إنهم يذهبون جميعا بلا دية ، فإن الحشرات لا ثمن لها

* * *

ورأيت رفاقه يحيطون به ويبكون .. إنهم ليسوا أقوياء ولا قساة كما يتوهم الشعراء .. إنهم يكسرون الأحجار ولكن ما أيسر أن تنكسر قلوبهم وتنفطر .. إن أحدهم يضع فى فم الميت جرعة ماء ، ويرجع الماء فيلق الكوز من أصابعه المرتعشة ويلطم وجهه .. وهذا الشيخ يسند الجثة إلى صدره وينوح بصوت خشن مذبوح : «ماذا تقول لأمك .. وزوجتك .. ياحسن .. كيف نعود ونرى أطفالك وأنت لست معنا يا حسن ؟ » .. والباقون ينتحبون مذعورين ، لا فرق بين نحيبهم وبين شذوهم الذى كنت أسمعه يسيل محزونا شاحبا على تراب الطريق

ونظرت من خلال الأجفان المغمضة نصف إغماضة إلى عينى الميت الزجاجيتين ، وتذكرت أن هذا الزجاج كان يبصر منذ دقائق ، وكانت تنطبع عليه الصور

ولكن هل أبصر حقا ؟ ماذا رأى من دنياه ، إنه نام وتقلب على التراب .. ملأ بطنه بورق الكرنب ، والدود ، والعطن .. وشرب من وحل القنوات .. هل عاش أهنأ مما تعيش الدواب ؟ هل نظر أفضل مما تنظر قطط صغيرة عمياء تأكلها أمها قبل أن تتفتح عيونها

* * *

وابتعدت .. تركت الموتى يبكون ميتهم .. وبعد خمسين مترا مررت « بركن فاروق » . وافترس الغيظ قلبى .. وأحسست أن أناقته .. تصفعنى

تذكرت أن (الملك) مر عشرات المرات من هنا .. ولابد أنه رأى الحفاة والعراة والشمس تصهرهم .. وعندما كانت سيارته تمر فى ليل يناير هل كانت كل نظرانه إلى محظياته ونسائه .. ونسائه الناعمات ، الراويات من الفجور ؟ ألم تحن منه التفاتة إلى النائمين وتحت جنوبهم الأرض الرطبة وفوقهم السماء الباكية ! .. هل شغل نفسه مرة بأمر من كان يسميهم فى خطبه « شعبى العزيز » .. هل فكر يوما فى أوانى الفخار المقفلة على الدود .. وفى الخبز اليابس القاتم الشبق .. ألم يرهم وهم يغترفون بأكفهم القذرة المشققة الماء الأحمر من النيل ، فيندى جبينه ويهتف كما كان يهتف فى المذياع : لا يا شعبى العزيز .. إن ركن فاروق على

بعد خطوات .. ادخلوا واشربوا ماء نقيا ..
إن هذا لن يكلفني شيئا .. ادخلوا
واستريحوا فى ظل الأشجار .. واحتموا
بالأسوار من البرد .. هذا لن يكلفني شيئا
يا شعبي العزيز »

وقال لى خاطر رحيم : ليته يمر الآن ،
ويرى الجثة ، ويتحرك قلبه

وقاطعني خاطر ناقم .. إنك كنت
تضحك من الشعراء الواهمين الحالمين . .
هذه أفكار شاعرية .. لو مر الملك من هنا
لقال يكفي هذا الصعلوك فخرا أنه مات فى
طريق ملكي . وهذه الكلاب يكفيها أن
يهش مولاها لها .. ولا يسوقها بالسوط
والكرباج .. إن أجدادى كانوا يسمون
هؤلاء المصريين الأذلاء « عبيد إحساناتنا »
أما يكفيهم أنني أمعن فى الرقة والتواضع
وأدعوهم « شعبي العزيز »

* * *

وكنت كلما مررت بسيارتي قرب ركن
فاروق أرى بقلبي المهين وبكبريائي الجريح
جثة حسن وعينيه الزجاجيتين .

كنت أرى رفاقه يواصلون عملهم
المنكود ، ويسكبون أعمارهم ، وقواهم ،
وشدوهم الشاحب الحزين على تراب الطريق
فأرى مجموعة من الجثث لا تلبث أن تغيب
فى المجهول كما تغيب الشرع الهائمة على
صفحة النيل

* * *

والآن وقد تبدل الحال غير الحال
ما أزال أرى عيني حسن كلما مررت فى
طريق حلوان

ولكنهما ليستا من الزجاج المعتم . .
إنهما تبرقان وتقولان لى : « أيها المتشائم
إنني لم أكن حشرة ، ولا قطة ، ولا
بهيمة . . إنني كنت روحا عظيما . .
والأرواح عندما تزهق ظلما لا تذهب
سدى . . إنها تتحول إلى لعنات . . اللعنة
أخذت مكان الفأس فى يدى . . صرت بعد
موتي فأسا غير منظورة تعمل فى العرش
البغيض وتفترش طريق الملك المنكود . .
أنا لم أمت على مجرد طريق للحرية يرصف كما
تتوهم . . إن جثتي سقطت على طريق يمتد
ويتشعب فى قلب مصر كلها .. إن الأرواح
عندما تزهق ظلما لا تهمل الظالم .. إن الأرواح
البريئة . . لا تذهب سدى

يوسف جوهر

الخفافيش

للقصصي الإنجليزي هاري جرام

بقلم الأستاذ أحمد حلمي

انتخبت منذ حوالى خمس سنوات عضوا فى الجمعية الملكية للحيوان ، ومن ذلك الوقت وأنا أعتبر حديقة الحيوان مكانا يصلح لأن يسرى فيه الإنسان عن نفسه ، ويفيد منه ، إذا قضى به ساعة من صباح الأحد حينما يكون الجو صحوا ، فى صحبة الحيوان المنقرض ترويح وترفيه لطيف ، أو كما يقول مترلنك بحق إن الإنسان كلما زاد اختلاطه بأبناء عشيرته زاد إقباله على سباع البحر

وفى صبيحة الأحد الماضى لم يكن ثمة شئ ما يشغلنى ، فأخذت أجول فى حديقة الحيوان ، أستمتع بالنسيم العليل ، وأناجى أصدقائى البكم ، إلى أن وقعت فجأة على صديق قديم — برسى بيفن — لم أصادفه منذ عهد الدراسة

« فقلت مرحبا : برسى ! ماذا تصنع هنا ؟ »

فأجاب « أنتظر بعض الأصدقاء . تواعدنا على اللقاء بعد الصلاة فى الكنيسة » والتفت إلى بيت على طراز شبيه بالقوطى خصص لسكنى الحيوانات الثديية الصغيرة ، وقال لم لا ندخل ونلقى نظرة على الخفافيش قبل أن تستيقظ ؟

فأجبت (أما أنا فلا ! إنى أمقت الخفافيش ، ويقشعر بدنى لرؤيتها) ولست أدرى لم هذا ، ولكن الحق أن ذلك الحيوان الوديع يثير فى نفسى نفورا لا يعدله إلا نفور الفيلة — وأقل منه نفور النساء — من الفيران المسالمة التى لا تضر ولا تؤذى . وكراهية الفيل لصحبة الفيران معروفة مشهورة تبلغ منه مبلغ العقدة النفسية ، فإذا هبط إلى عرينه فأر انتابته نوبة هستيرية من الخوف وارتمى فى أحضان أقرب حارس والدموع تساقط من عينيه ولا يهدأ له روع حتى يتم طرد الدخيل فى

غير رحمة ولا شفقة

ويخيل إلى أن الذى حدث منذ آلاف السنين أن فأرا مرتاعا ضل طريقه إلى جحره المعتاد ، ودخل خرطوم فيل ، وأوغل فيه ، وأسرف فى إيذائه . وتناقلت الفيلة القصة المزعجة جيلا بعد جيل ، حتى صار احتمال وقوع مثل هذا الحادث أمرا يؤرقهم ويقض مضاجعهم آناء الليل ، ويزعجهم ويشغل بالهم أطراف النهار . وتعلم الأطفال منهم فى أحضان أمهاتهم هذا الدرس فتأصل فى غرائزهم وجعلوا ينظرون إلى الفيران نظرات مليئة بالخوف والفزع

وإنى أقر أنى لا أخشى أن تتسرب الخفافيش إلى خرطومى ولكنى مع ذلك لاأستطيع أن أراها دون أن أحس بمثل نفور الفيلة . ثم إنها تستثير إحساسا بسوء الطالع ، فعادة النوم والرأس متجه إلى أسفل والجسم يتدلى من السقف شىء لم أستطع قط أن أستيسغه . وهناك عادة أخرى عرفت عنها وهى عادة الاشتباك بشعر الإنسان ، وإنى أعترف أنى لم أصادف أحدا شكا من خفافيش تكمن فى شعره . وفيما يتعلق بشخصى فإنى أستمتع منذ عهد بعيد بحصانة كاملة تقينى مثل هذه الكارثة ، فقد عبثت به السنون ولم تترك فيه مكانا يصلح عشا لخفاش مسرف فى القناعة والزهد ، وصار أشبه الأشياء بفناء مصغر للانزلاق

وعلى الرغم من ذلك كله فالخفافيش تثير فى نفسى اشمئزازا لا أقوى على إخفائه مهما فعلت ، كما أوضحت لصديق بيفن

فقال وأنا أحاول أن أستدرجه فى رفق إلى بيت الزواحف: جدا أنت مخطىء

ثم استطرد يقول (فلاريب أن الخفافيش والعناكب والبعوض قد خلقت لحكمة إلهية تقصر أفهامنا المحدودة عن إدراكها . ولله فى خلقه شؤون)

فقلت (نعم)

فقلت: برسى (لقد كان لخفاش فى حياتى شأن كبير ، وأظننى أخبرتك بقصته)

فقال (إن كنت قدفعلت فقد نسيتها، خبرنى بها مرة أخرى

فقال (حسن جدا . سأقصها عليك)

وأخذ يسرد القصة فقال :

من ست سنوات خلت حينما كان عمرى أصغر مما هو عليه الآن بست سنوات دعيت فى شهر يوليو إلى أن أقضى عطلة الأسبوع فى بالسام فريارى ، ذلك القصر الإنجليزى المنيف الذى ينهض مثالا رائعا لفن المعمار فى عهد إليزابث، والذى لا يعد له فى فخامته إلا القليل من القصور على هذا الجانب من المحيط الأطلسى . استأجر سير بورويك

تراوت عالم الآثار المصرية المشهور هذا القصر فى تلك السنة التى أتحدث عنها لمدة الصيف ، واعتاد هو وزوجته وابنته جوليا استضافة جمع كبير من الأصدقاء من السبت إلى الاثنين من كل أسبوع

وكان سير بورويك قد اعتاد أن يقضى ألشتاء فى مصر ، ينقب عن آثار الفراعنة الذين بالغوا جهدهم فى الاحتياط لمنع مثل هذا السطو على كنوزهم ، وأمكنه بالتوفر على نهب عدد لا حصر له من القبور جمع مجموعة فريدة من الجعارين يصر دواما على أن يعرضها على ضيوفه . ولم يكن يمنعنى من قبول الدعوة إلى بالسام فريارى سوى أمرين ؛ أن أرغم على مشاهدة مجموعة الجعارين ، وأن أظل يومين فى القصر متهيبا لقاء ابنته جوليا

وكانت جوليا تراوت فتاة رائعة الجمال تفيض رقة وعذوبة ، ثم إنها كانت فوق ذلك الوارثة الوحيدة ، وهذه حقيقة أقرر فى إخلاص أنها كثيرا ما أحرجتنى . وقد أخذت مدى عام أنتهز كل فرصة لأدلى إلى جوليا برأيى فيها فلا تقابل مديحى إلا بالابتسام الساخر . وفى آخر لقاء كاشفتها بحبى وصارحتها أنى لا أستطيع العيش بدونها ، فطلبت إلى ألا أكون أبله وقالت إنها تكن لى أخلص الود ، وتحرص على صداقتى حرصا يحملها على استبعاد فكرة الزواج منى ، ولذلك ينبغى أن أعتبرها من تلك اللحظة أختى العزيزة

تفطر قلبى للصدمة الأليمة ، فانطويت على نفسى ، وواريت أحزانى فى غمرة اللهو والعبث ، وظللت زهاء ثلاثة شهور أتوخى تجنب الحفلات التى يحتمل أن تحضرها حبيبتى القاسية جوليا . وفجأة وصلتنى الدعوة لزيارة بالسام فريارى فأدهشتنى وأقلقت بالى . خفت أن أعرض قلبى الجريح لطعنة أخرى ، ولكنى كنت كالفراشة التى طالما ألهت الشعراء ، لا أقوى على البقاء بعيدا عن اللهب الجذاب طويلا ؛ ولذلك وجدتنى منساقا إلى الكتابة إلى السيدة تراوت أعبر عن سرورى لقبول دعوتها . ولعل بارقة أمل فى أحناء قلبى جاشت فى صدرى

بلغت بالسام فريارى حوالى الساعة السابعة من مساء السبت ، فوجدت جمعا زاخرا قد التأم فى قاعة فسيحة مغطاة الجدر بخشب البلوط . وكان واضحا أن بعضهم قد حضر فى موعد تناول الشاى ، إذ ران على الحديث شئ من الفتور ، وأحاط بالمضيف بعض زملائى الضيوف يرمقون بعين الملل صحفة كبيرة مليئة بالجعارين يعرضها هو فى حماسته المعتادة التى لا تعرف الكلل

واتخذ الجمع وصولى ذريعة للخلاص من هذا الواجب المضنى . ورحبوا فى نشوة بالغة باقتراح المضيف أن يرشد كلا منهم إلى حجرته . وتولت السيدة تراوت وابنتها جوليا إرشاد السيدات إلى حجراتهن ، وكانت جوليا قد رحبت بى فى رقة ودلال كعادتها ، دون أن تنم عينها عما فى قلبها ، مما أذهلنى وأقلق بالى

أما سير بورويك فقد جمع جعارينه وطلب إلى ضيوفه أن يتبعوه . وحينما اطمأن إلى أن كل واحد منهم قد استقر فى حجرته التفت إلى وقال « أرجو المعذرة يا عزيزى بيفن ، فقد اضطررت فى آخر لحظة إلى أن أقدم حجرتك لشقيق زوجتى — الكرنل وترسبون العجوز — الذى حضر على غير انتظار »

فتمتمت بكلام عن قبول عذره

فاستمر يقول « لقد خصصت لك حجرة نوم رئيس الخدم ، أما مننجز ففى إمكانه أن يدبر لنفسه مكانا فوق حظيرة السيارات . إنى على يقين من أنك سوف تستريح »

« أنا واثق من ذلك »

ثم تقدمنى إلى حجرة صغيرة فى الطابق الأرضى تكاد تكون خلوا من الأثاث وقال « هنا » وأضاف « حاذر أن تصدم رأسك » حين رأى رأسى يصطدم فى عنف بحلية خشبية متدلية فى الباب ، وهى حلية من تلك الزخارف التى تجعل بيوت التيودوز غير صالحة للسكنى .

فسألته مشيرا إلى تابوت كبير مغطى بقماش من التيل المشجر فى ركن من أركان الغرفة . . ماهذا بالله عليك ؟

— « لا شئ ، إنه خزانة ليس إلا »

قال ذلك وأخرج من جيبه مفتاحا وفتحها

— خزانة ؟

— نعم خزانة ، أضع فيها جعارينى كل ليلة وصحب القول بالفعل « وتحفظ فيها زوجتى حليها وبعض الآنية الذهبية . لا تقلق ، ولا تخش اللصوص ، فسينام بونتو معك » ثم أشار إلى حبل يتدلى بجوار المدفأة وقال « هذا نذير الحريق ، والجرس فوق السطح ، فإذا جذبت هذا الحبل جاءك أهل القرية جميعا فى دقيقتين . »

فقلت ضاحكا « إذن لن أفعل »

فقال « حسن . هاءنذا قد عرفتك غرفتك . والعشاء فى الساعة الثامنة والنصف والملابس بطبيعة الحال السترة السوداء »

وغادرت الغرفة وأخذت أرتدى ثيابى تأهبا للعشاء

ولم يحدث فى ذلك المساء شئ ذو بال

سوى أننى أجلست إلى جوار جوليا فبلغ من اضطرابى أنى لم أجـد ما أقول . وإلى الجانب الآخر منها جلس شاب من ضباط الحرس هولورد مولا ربردج ، ظل ينازلها فى تبذل أحنقنى عليه . وبعد العشاء لعبنا البردج فتكرر خطئى . ولم يكن فى وسعى أن أركز انتباهى فى اللعب . وهكذا قضيت سهرة ثقيلة تعسة لم أعف منها إلا حوالى الساعة الحادية عشرة والنصف حين أخذ السيدات ينصرفن إلى فراشهن . وحينما بلغت السيدة تراوت أول الدرج التفتت إلى وقالت « سوف تجد بونتو فى غرفتك . إنه كلب وديع . إنه صديق جوليا وستحبه »

فأجبت » شكرا . ولكن لا داعى للتعب »

فقالت « لاتعب بالمرة . إنه ينام هناك دائما »

ثم التفتت إلى رئيس الخدم وقالت « منتجز ، هل ذهبتم بالسيد بونتو إلى الخارج ؟ »

— نعم ياسيدتى . قام بجولته بعدالعشاء

— إذن فسيكون على خير مايرام . ليلة سعيدة يا مستر بيمن ونوما هنيئا

— « ليلة سعيدة وأحلاما بهيجة »

كذلك قالت جوليا ، وعلى فمها تلك الابتسامة الغامضة التى طالما شغلت فكرى وأقلقت بالى

ولم يكن مضيفنا من أولئك الذين يطيلون السهر ، ففى منتصف الليل رأى أن نلجأ إلى فراشنا

وفى طريقى إلى غرفتى صرت أسائل نفسى هل سأجد فى بونتو رفيقا وديعا حلو الشمائل كما تنبأت مضيفتى ، وأخذت أتصوره كلبا صغيرا مدللا يمت بصلة إلى فصيلة أجنبية وتمنيت ألا يكون من تلك المخلوقات الضئيلة العادية التى تشبه البعوض ولا تكف عن النباح العديم الجدوى

وشد ماعجبت حينما دخلت غرفتى — بعد أن تعثرت فى درجتين غير ظاهرتين وصدمت رأسى مرة أخرى بالباب — وشاهدت كلبا ضخما ألزاسيا من نوع الولف ممددا فوق السجادة ورأسه بين مخالبه وفى عينيه نظرة توجس وارتياب ليست غيرطبيعية إذا ذكرنا أننا لم نكن قد تعارفنا بعد

فبدأت أدلله بقولى : «هيه يابونتو ! أيها الرجل العجوز ! » ولكن بونتو ظل مصما أذنيه ، فلما اقتربت منه فى حذر هدر فجأة ، ورفع طرفا من شفته ليكشف عن أسنانه الحادة العجيبة . على أنه فى الوقت نفسه أدهشنى كثيرا بأن هز ذيله فى هوادة ،

وتلك حركة لم تبد متفقة تماما مع مقتضيات الموقف ، فقد كنت أعلم أن الكلب الذى يهدر يكشف عن سخطه والذى يهز ذيله يعبر عن غبطته ، أما أن يجمع بونتو بين الحركتين فذلك أمر شاذ يثير الحيرة والارتياب

وتذكرت المثل القديم عن ترك الكلاب النائمة وشأنها ، ورأيت عين الصواب فى أن أترك الكلب النائم وشأنه ولو أن الكلب بالذات فى تمام اليقظة

وانسحبت إلى ركن حصين من الغرفة وراء الخزانة ، وأخذت أغير ثيابى فى سرعة وهدوء قدر الإمكان ، ولاحظت فى أثناء ذلك أن بونتو ينظر إلى بعين الاحتقار المطرد ، وحينما مسحت أسنانى بالفرشة وتمضمضت بدت فى عينيه نظرة اندهاش دلت على أن منتجز الوفى لم يكن من عاداته أداء هذه الواجبات الليلية الضرورية . وأخيرا استلقيت على فراشى وأطفأت النور ، وتأهبت للنوم

وتنبهت فى الحال إلى أن بونتو قد نهض واقفا وأخذ يجول فى الغرفة فى غير ماجلبة ، فقاومت كل رغبة طبيعية فى النهوض والفتك بالعدو الزاحف ، وقنعت بتتبع حركاته المختلفة قدر ما وسعنى فى الظلام المخيم

وخيل إلى أنى أسمعه يفحص حذائى بازدراء ، ثم أدركت من تخبط فى الماء أنه يشرب من إناء موضوع بجوار حوض غسيل الأيدى ، وتابع طوافه الصامت حتى بلغ الفراش ، وبعد لحظة سكون — كتمت فيها أنفاسى متسائلا ماذا تكون الخطوة التالية — قفز فجأة فى الهواء واستقر بكل ثقله على ساق

ولست مبالغا إذا قلت إن قلبى قد توقفت دقاته ، فقد ملكنى الرعب ، وذكرت القصص المتواترة عن وحشية الكلاب الأنراسية ، وتوقعت بين لحظة وأخرى أن تنهال أنفاسه الدافئة على وجهى وأن ينشب أنيابه الحادة فى عنقى

على أنى تبينت أن مخاوفى كانت أوهاما ، وظهرت نيات بونتو الطيبة ، وأخذ يتقلب بعض الوقت دافعا بى تدريجا إلى الحائط ، ورقد فى جوار ركبتى ، وتنهد فى رضا ، وتأهب للاستغراق فى النوم

وكانت ليلة من ليالى يوليه الدافئة ، أضيفت إليها هذه الزجاجة الطبيعية من الماء الساخن ، فانقطع كل أمل فى النوم ، وبلغ من ثقل بونتو على الأغطية أن صار من المستحيل على أن أبدى حراكا ، فآمنت بأنى سأقضى ليلة مزعجة غاية الإزعاج ، وتمنيت أكثر من أى وقت مضى لو أنى بقيت بعيدا عن بالسام فريارى

وبعد مضى ساعة أحسست فجأة وأنا فيما يشبه الغيبوبة أن بونتو قد استيقظ ، وتحرك فى قلق وسمعته يزوم فى صوت خافت ، وفى نفس اللحظة سمعت طرقا خفيفا على الباب ، فجلست وأضأت الغرفة

وقلت للطارق : « أدخل »

وفتح الباب ووقفت على عتبته جوليا ، وفى يدها مصباح ، وعليها ثوب من الحرير الصينى المزركش ، وفى قدميها حذاء من الفراء ، يعلوه سروال من الحرير القرنفلى اللون.. وللمرة الثانية هذه الليلة توقفت دقات قلبى ، غير أنها توقفت من فرط السرور الممتزج بالدهشة

قالت « أو مننجز » ولمحتنى فجأة فصدرت عنها صرخة ذعر خفيفة

فسألت « هل حدث شىء ؟ »

— برسى ! أنت ! معذرة . ظننت..

— أردت مننجز

— إنه ينام فوق حظيرة السيارات . هل لى أن أفعل شيئا ؟

— الأمر وما فيه خفاش .

— خفاش ؟

— فى حجرتى .

— يا إلهى ! وماذا يصنع هناك ؟

— « يتخبط . ولكنك ترى أنى لن تغفل لى عين والخفاش فى الحجرة . ظننت مننجز يخلصنى منه . آسف أن أيقظتك . »

— لا تأسفى أرجوك . إنى أحب أن أوقظ . ومع ذلك فما يستطيعه مننجز أستطيع أن أفعله

— يكون لك فضل عظيم

والتفتت إلى كلبها وقالت « إليك عنى يا بونتو ! إليك عنى ! » وكان الحيوان الذكى يحبها بشغف بالغ أثار إعجابى وعطفى عليه

وأسرعت بارتداء ثوبى وخفى وتبعتها إلى الطابق العلوى وبونتو فى أثرى واجتزنا ممرات معتمة حتى بلغنا غرفتها فى الطرف الآخر من القصر

ودخلنا الحجرة فى غير ما جلبة ، وأغلقنا الباب خلفنا ، وبحثنا عن الخفاش بحثا دقيقا دون أن نعثر له على أثر . فقالت جوليا

— ربما كان مختبئا . ولعله أحس بقدومنا .

— سوف يجده بونتو حالا

قلت ذلك آملا أن يعاوننا ولكنه لم يحفل بنا ، وانشغل عنا بإناء فيه ماء ، وما أظننى شاهدت فى حياتى كلبا دائم الظمأ مثل بونتو

فقالت جوليا « أظنه قد جثم فوق

الصوان ، حتى إذا ما لجأت إلى فراشى جعل يتخبط من حولى . »

— إنى أعرف خير طريقة للتخلص من الخفافيش . لقد قرأتها فى كتاب .

— أى كتاب ؟

— لاأذكر ، ولكنه يقول إذا أطفأت المصباح ومكثت ساكنا لحظات حتى يسترجع الخفاش ثقته بنفسه وفتحت الباب فجأة فإنه يخرج إلى الردهة

— وهل يليق ذلك ؟

— يليق .

— أقصد هل يرضى والدى أن تطلق الخفافيش فى أرجاء البيت ؟

— ومن يدريه ؟

— حسن . فلنحاول .

قالت ذلك فى شىء من التردد . فأطفأت النور ووقفت إلى جانب الباب فى ظلام حالك وسكون شامل نحو نصف دقيقة ، حتى خيل إلى أن الخفاش قد أمهل بما فيه الكفاية ليخرج من مخبأه ، ثم تلمست أكرة الباب وأدرتها بسرعة ، وفتحته على مصراعيه ، وإذا برجل بدين متوسط السن ذى لحية يقف فى الردهة ، حاملا مصباحا فى يده ، وقد بدت على وجهه أمارات الدهشة ، فتولانى الارتباك وأحسست أن الموقف يتطلب شيئا من الإيضاح

وقالت جوليا « لا بأس . إنه الحارس الليلى » وأضافت فى بشاشة « مساء الخير يا بارر . الجو جميل . جميل الليلة . أليس كذلك ؟ »

فقال بارر فى صوت أجش « ليلة سعيدة ياسيدتى » متجاهلا تعليقها على حالة الجو

فقالت جوليا « كان مستر يفن يعاوننى على طرد خفاش من حجرتى »

— « خفاش ؟ أجل ياسيدتى »

قال ذلك فى لهجة لا تبعث على الاطمئنان فسألته « هل صادفته فى الردهة ؟ »

— لا سيدتى . لم أصادف خفاشا الليلة .

— إذن فلابد أنه أفلت من النافذة

— أجل . سيدتى

— لا يهم والتفتت إلى وقالت « آسف أن أزعجتك . سيرافقك بارر إلى غرفتك . تسمح يا بارر ؟ »

— نعم سيدتى

— ليلة سعيدة إذن !

« ليلة سعيدة » وأضفت « وأظن الأفضل أن تحتفظى ببونتو . وسيكون أسعدحالا . » وعدت فى أثر بارر إلى غرفتى ملتزما الهدوء . والظاهر أن الرجل كان يميل بطبيعته إلى العبوس والانقباض فلم يجارنى

فى حديث ولذلك كرهت مفاتحته فى شىء

وأدركت من مسلكه أنه يميل إلى إساءة الظن بتصرفاتى ، فساءلت نفسى هل من الكياسة أن أهبه نصف جنيه مثلا لعلى أضمن سكوته ؟ غير أن إحساسا داخليا حفزنى إلى الإحجام عن التورط فى هذه الخطوة الطائشة ، وعدلت عن محاولة رشو الرجل الموقر . ولما تركنى عدت إلى فراشى مؤملا خيرا ومرتاحا لغياب بونتو ، وأطفأت النور مرة أخرى

واستغرقت لتوى فى سبات عميق . وبينما كنت فى وسط حلم شائق زاخر بالحياة أنقذ فيه حياة جوليا من هجمة حيوان ضار ضخم ، إذ حدث ما أيقظنى فجأة ، فأهب من نومى على طرق بالباب

فقلت للطارق : «ادخل» بصوت ينم عن شىء من الضجر لأنى كنت قد بلغت فى حلمى غاية الانفعال إذ ألقت فى الحلم جوليا بنفسها فى غير ما تحفظ بين أحضانى

وفتح الباب وقد أفقت ، ووقعت عينى على الجمال الحبيب ، فانبعثت من قلبى صيحة فرح لم يكن فى وسعى أن أكتمها

وقالت جوليا فى خفر وقد ارتسمت على فمها ابتسامة رقيقة تحمل أبلغ آيات الاعتذار « آسف أن أوقظك مرة أخرى ، ولكن الخفاش نفسه قد عاد إلى حجرتى »

فسألت « أواثقة أنت ؟ »

— « واثقة ؟ » وكررت الكلمة فى كثير من الحنق

فسارعت إلى الإيضاح قائلا « أقصد هل أنت واثقة من أنه الخفاش نفسه وليس آخر يشبهه ؟ ربما كان توأما له أو زميلا على شاكلته ، فما أشد الشبه بين الخفافيش كما تعلمين ، وإذا لم تفحصيها جيدا .. »

فقاطعتنى قائلة : « لست أدرى شيئا عنها ، وكل ما أعلمه أن خفاشا فى حجرتى وأكون ممتنة جدا إذا ... »

فقلت : « طبعا . أمهلينى لحظة حتى أرتدى ثوبى »

وبلغنا حجرة جوليا للمرة الثانية فى تلك الليلة فلم نعثر على شىء . وكان بونتو قد انتهز فرصة غياب سيدته فقفز إلى فراشها وأسند رأسه إلى المخدة متظاهرا بالنوم

فزجرته جوليا قائلة «انزل فورا يابونتو فأنت تعلم جيدا أن هذا الفراش ليس لك »

فنزل بونتو متثاقلا كأنما قد جرحت كبرياؤه ، وشغل نفسه بارتشاف قطرات من الماء

قالت جوليا « غريب أمر هذا الخفاش لابد أنه هنا فى مكان ما »

«إن خطتنا القديمة أفلحت كثيرا . فلم لا نعيدها ؟ »

— لم لا ؟

ومرة أخرى أطفأت النور وكتمت نفسي وأصغيت . ولا أدرى أهو مجرد وهم أم أنى سمعت حفيف أجنحة ؟ وفى لمح البصر تلمست أكرة الباب وانتزعتها بعنف شديد ، فوجدتنى ملقى على الأرض والمقبض فى يدى والباب مغلقا كما كان

فسألت جوليا « ماذا تفعل ؟ »

فقلت : « انخلعت الأكرة »

فقالت فى ضجر : « أعدها إلى مكانها .. أرجوك »

فقمت إلى القفل أحاول أن أعيد الأكرة إلى حيث كانت ، وقلت أطمئنها : «لحظة واحدة ! إنى أبذل قصارى جهدى»

والظاهر أن ارتباكى كان قد بلغ حده فذهبت جهودى عبثا ، ولما أضأت الحجرة عرفت أنى دفعت قضيب الأكرة أكثر من اللازم بحيث صار من المستحيل تحريكها

وسألت جوليا « كيف الحال ؟ »

فأجبت « ليست على ما يرام . فإنى لا أستطيع مطلقا فتح الباب »

— ولكن يجب أن تفتحه

— آسف . فذلك مستحيل

— ولكن ألا تدرك أنك لاتستطيع أن تقضى الليل هنا ؟

— بطبيعة الحال لا أريد ذلك

وأدركت فورا ما فى هذه العبارة من جفاء ، فقلت أصحح هفوتى « أقصد أنى أعلم أنى لا أستطيع ، ولكنى لا أرى مخرجا »

وأخذنا نعالج الباب بكل ما وقع فى أيدينا من أدوات ، ولكنا لم نوفق ، وصار حتما أن نستسلم لمصيرنا

فقلت « أرجو أن تلجئى إلى فراشك قبل أن تصابى ببرد . يمكننى أن أستريح على هذا الكرسى حتى يأتى من يخرجنى »

وحاولت أن أتظاهر بشئ من المرح وعدم الاكتراث ، وأنا أبعد الناس عن المرح وعدم الاكتراث

ولابد أن الساعة كانت حوالى الثالثة صباحا ، إذ كان البرد قارسا ، فأصرت جوليا على أن أتدثر وعادت مضطرة إلى فراشها وأطفأت النور

وكان الموقف حرجا ، ولكنى شرعت أسرى عن نفسى ، وأتشبه بفارس من فرسان البطولة ، تضطره ظروفه إلى السهر طول الليل . وكلما تحركت أحدث الكرسى صريرا ، فالتزمت السكون كى لا أوقظ مرافقتى . على أنها لم تنم ، إذ سمعتها تقول «أوه ! دعنى أرجوك ! » ثم أردفت «أوه ! أهو أنت يابونتو ! » والظاهر أن الكلب كان قد قفز ثانية إلى فراشها

واستدارت ، وأنت أنة خافتة ، ثم انتظم تنفسها فحسبتها أغفت ، وحاولت أنا الآخر أن أغفو قدر ما يسمح حالى ، غير أنى سمعت صوت انفجار مكتوم ، فتنبهت وصحت برغمى : «ما هذا يا إلهى !» وأمكننى أن أرى على ضوء الفجر جوليا مفتوحة العينين

فسألت : «هل وقع شئ» ؟

فأجبت : «أظننى سمعت طلقا ناريا»

فقالت : «سارقو الصيد على ما أظن . لا تحفل بهم».

فاستلقيت على كرسى ، ولكن سرعان ما أدركت أن النعاس قد بات أمرا لا محل له ، فالطيور قد أخذت تستيقظ وتقفز على البساط الأخضر ، والسماء الرمادية اللون قد أخذت تشوبها حمرة ، وبنظرة إلى الساعة الصغيرة الموضوعة على المائدة بجوار فراش جوليا ، تبينت أننا فى الساعة الخامسة وعشرين دقيقة

فقالت وكأنى بها تقرأ أفكارى «بقيت ساعتان . فهم يوقظوننى عادة فى منتصف الساعة الثامنة »

فتساءلت : «وكيف الخلاص من هذا المحرج ؟ »

فأجابت : « لقد فكرت فى الأمر . وأرى أن تختبئ خلف الباب حينما يدخلون وتتسلل إلى الخارج حينما يديرون ظهورهم إليك »

— ظهورهم ؟

— جرت العادة أن تأتى الخادم ومعها وصيفتى حاملة كوب الشاى »

— أوه ! » فهت بها فى غير مرح لأن الفكرة لم تبد سهلة ميسرة ، والفرار دونه مختلف العقبات

على أن الخطة نجحت نجاحا فاق ما كنت أؤمل ، وألفيت نفسى أتسلل فى خفة إلى الردهة وأسرع إلى حجرتى مرتاح البال

ولكن هذا الارتياح وا أسفاه ! لم يدم إلا لحظات . فما أن فتحت باب غرفتى حتى شاهدت منظرا أشاع الرعب فى أوصالى . فقد كانت أشبه الأشياء بغرفة من غرف فرنسا احتلها الألمان ثم جلوا عنها . فالأثاث متناثر ومحتويات الأدراج مبعثرة ، وفى استطاعتك أن تتصور شعورى وقتئذ حين رأيت باب الخزانة مفتوحا والخزانة نفسها خاوية

ولم يكن الأمر فى حاجة إلى بوليس سرى يكشف عما حدث . فقد اقتحم اللصوص النافذة ، وأحدثوا بالديناميت ثغرة فى الخزانة . وهذا يفسر الانفجار الذى عزته جوليا إلى سارقى الصيد المتطفلين ،

واغتنم اللصوص فرصة غيابى وسرقوا حلى مضيفتى ومجموعة الجعارين المشهورة التى قضى سير بورويك زهرة حياته فى جمعها

والحق أنى لم أقع طول حياتى فى مثل هـذا الموقف المعقد . وكيف الخلاص من هـذا المأزق بطريقة تحفظ على كرامتى وشرفى ؟ إذا قلت الحق ، فمن يصدقنى ؟ وإذا ادعيت أنى كنت غارقا فى سبات عميق فى فراشى فمن يصدق أن الدنياميت لا يوقظنى ؟ وفكرت فى أن أقيد نفسى بحبل وأضرب رأسى بآلة حادة كيما يجدنى أول قادم ملقى على الأرض بلا حراك . ولكن هذه الخطة لم تكن ميسورة التنفيذ ، فلو قيدت نفسى بحبل الجرس فكيف أدق رأسى ؟ ولو بدأت بدق رأسى وأغمى على فكيف أقيد نفسى ؟

وبعد استعراض الموقف من جميع وجوهه لم أجد بدا من الالتجاء إلى مضيفى وإخطاره بالقصة كلها والاستسلام له يتصرف فى أمرى كما يشاء

واستجمعت مابقى من شجاعتى ، واجتزت الدهاليز إلى حجرة سير بورويك ، وطرقت الباب . ولما لم يجب أحد فتحت الباب ودخلت

وكان مضيفى واقفا أمام المرآة يحلق ذقنه والصابون قد غطى أذنيه فلم يشعر بوجودى

فبدأت « عفوا سير بورويك ... »

فصاح « ياللشيطان ! من هنا » واستدار فجأة فانزلق الموسى من يده وأحدث جرحا طويلا فى ذقنه

فقلت آسفا « أخشى أن تكون قد جرحت نفسك »

فسأل غاضبا « ومن يكون المخطئ فى هذا ؟ ألا تستطيع أن تطرق الباب قبل أن تدخل ؟ ماريا ! » وقصد إلى باب حجرة زوجته وصاح « ماريا ! ماذا صنعت بعصا الجبس الملعونة ؟ »

— لحظة ياعزيزى . سأحضرها لك

وجاءت السيدة تراوت فأدهشها وجودى وسألت

« ماذا حدث ؟ هل أصاب مستر بيفن شئ ؟ »

فقال زوجها « كلا . قبحه الله . كاد أن يجعلنى أذبح نفسى . هذا كل مافى الأمر ! »

فعدت أقول « معذرة . ولكن ... »

— ماذا ؟

— إنى آسف . ولكن ينبغى لى أن أخبرك ...

— تخبرنى بماذا ؟

— حدثت سرقة بسيطة

— سرقة ؟
— أجل .
— سرقة ؟ أين ؟ ومتى ؟ وماذا تقصد !
— فى حجرة نومى
— يا إلهى ! أتقصد الخزانة ؟
— أجل
— وجواهرى !
— وجماريني !
واندفع سير بورويك إلى الدهليز وهو يصيح
« جماريني ! جماريني ! »
وتبعته أنا وزوجته حتى بلغنا الغرفة المخربة وكان مننجز وباربر واثنتان من الخدم قد تجمعوا فى المدخل . فأزاحهم سير بورويك من طريقه وهرول إلى الخزانة المفتوحة وألقى عليها نظرة سريعة ثم التفت إلى مننجز وسأله
— هل أخطرت البوليس ؟
— كنت على وشك أن أفعل
— إذن ، أخطرهم فى الحال .
— أمرك يا سيدى
واختنق مننجز والتفت مضيفى إلى الحارس الليلى وسأله « كيف حدث هذا يا باربر ؟ »
— « لاأدرى ياسيدى. وربما يستطيع هذا السيد أن ينبئنا بشىء » وأشار إلى .
فقلت متلعثما « أكيد . بطبيعة الحال .. »
فقال مضيفى موجها الكلام إلى «ماذا ؟ لقد نمت هنا ليلة أمس على ما أعتقد ؟ »
— لم تغفل عينى لحظة
— لقد شغلت هذه الحجرة
— أجل ! شغلتها من الناحية النظرية
— إذن فخبرنا ! كيف اقتحمها اللصوص ؟
— من النافذة على ما أظن
— ألم تسمعهم ؟
— لا . لا أستطيع أن أقول إنى سمعتهم
فقالت السيدة تروات « ربما هجموا عليه وضربوه ضربة أطارت صوابه »
فقال سير بورويك « كلام فارغ . لا يستطيع شىء أن يطير صوابه . والآن يا بيفن خبرنا ، لقد كنت هنا فماذا حدث ؟ وماذا فعلت حينما أقبل اللصوص ؟ »
— الواقع أنى لم أكن هنا
— لم تكن هنا ؟
وسألت السيدة تروات « وأين كان بونتو ؟ »
فأجبت « كان هو الآخر نائما فى الخارج »

فنظر إلى سير بورويك نظرة قاسية وقال « هل لى أن أستنتج أنك لم تقض الليلة فى حجرتك ؟ »

فقلت « لا . أقصد نعم.. أى أنى »...

فالتفت مضيف إلى الخدم وأمرهم بالخروج وقال فى لهجة ما كنت أطيقها فى أى ظرف آخر « والآن يا سيدى ! ياصديق الصغير ! أكون ممتنا لو أخبرتنى كيف قضيت الليل »

فأجبت فى بساطة « كنت أصيد الخفافيش »

— لا تحاول أن تسخر منى يا سيدى !

— ما بى من حاجة إلى ذلك . أقصد أنى لا أسخر

— هل أفهم من ذلك أنك لم تشغل حجرتك ؟

— أجل ! لك أن تفهم الأمر على هذا الوضع

— وأنك قضيت الليل فى حجرة أخرى ؟

— أجل ! أظن ذلك

فالتفت إلى زوجته وقال « ماريا ! أرى الأوفق أن تتركينا »

فقالت وقد غلب عليها الحياء « أفضل أن أبقى . »

— كما تشائين » ووجه الخطاب إلى قائلا « لن أضيع وقتى فى وصفك بالصفات التى تستحقها . والقطار إلى لندن يقوم فى الساعة ٣٥و١٠ . ولكن قبل أن تذهب ، هناك شئ واحد أصر على معرفته . فى غرفة من كنت ؟ »

فقاطعته قائلا « أرفض أن أخبرك . فأنا رجل شريف »

« رجل شريف ! » ثم أزاح زوجته جانبا وصاح بأعلى صوته « خبرنى باسم المخلوقة التعسة فورا ، وأقسم أنى سأطردها من البيت فى الحال . »

فتدخلت زوجته قائلة « من المؤكد أنها ليست السيدة إرثنول ولا السيدة تشيب المسكينة ولا أليس جلوم »

وقال هو « والعجوز وندلشام مستبعدة »

فقالت السيدة تروات « إذن لم يبق إلا الأوانس »

فهجم سير بورويك على كالنمر صائحا « لا أظنك تزعم ! إذا جاز أن يحدث ذلك فى هذا البيت ! فإنى أقسم أن أزوجك من الفتاة غدا ! »

فقلت « وليكن ! فلا مانع عندى ! »

وبينما كان بيفن يقص على هذه القصة الطويلة إذا به يتوقف فجأة ، وينظر فى نخار

إلى سيدة بارعة الجمال تقود طفلتين توأمتين تبلغ كل منهما الرابعة من عمرها فألححت عليه أن يتم قصته ، ولكنه أعرض عنى ، وأسرع يستقبل السيدة وطفلتيها وقال « تعالى يا جوليا ! هل أدت الطفلتان الصلاة ؟ » ثم التفت إلى وقال « ألا تعرف زوجتى ؟ جوليا ! هذا صديق قديم »

وتصافحنا وقالت جوليا « ما أظننا تقابلنا قبل اليوم »

فأجبت « ولكن أعرف عنك كل شىء »

فسألت زوجها ضاحكة « ماذا كنت تقص عليه ؟ »

— لا شىء يا حبيبتى

ثم التفت إلى الطفلتين وقال « هيا بنا نطعم الخفافيش »

فقالت جوليا « كم يحب پرسى الخفافيش ! »

فقلت « لا عجب »

أحمد حلمى

حريق القرية

للأستاذ السيد حسن قرون

كانت الندوة عامرة بأصحاب الآراء الحرة ، وكان الجدال شديداً حول تحديد النسل ، وضيق وادى النيل عن تهيئة العيش الكريم لسكانه حين قص علينا أحد الأصدقاء هذه القصة التى أقسم أنها وقعت فى إحدى قرى الصعيد ، ولا يزال كثيرون جدا من الفلاحين يذكرونها ولا ينسونها ؛ لغرابتها ولما تركت فى النفوس من أثر أليم . قال :

كنت فيما مضى أحب القرية حبا يجذبنى إلى الرحيل إليها من حين إلى حين ، وكنت أحب مجالسة الشيوخ ولا سيما الشيخ خواجه الذى عرفت فيه الطيبة والفكاهة ، وكان يطرفنى بقصص مضحكة ، وكنت أصغى إليه إصغاء تاما ، وإن كانت قصصه كلها تدور حول الغنى والفقر ، والشجاعة والكرم إلا أننى كنت أجد فيها ما يروقنى ويشوقنى .

وذات ليلة جلست معه ، وانتظرت منه حديثاً أو قصة أو خبرا من أخبار القرية ، ولكنه لم يفعل ، فقلت فى نفسى : الشيخ خواجة انتهى من قصصه ، وآن له أن يستريح ، وعلى حين غفلة علا صوت استغاثة وصراخ فى ناحية من نواحى القرية ، فهب الناس مذعورين متجهين نحو الصوت ، وهممت بالقيام لأرى ما حدث ولكنه تشبث بى قائلا فى سخرية : الأمر لا يعدو أن يكون الولد (مهنى) قد أتاه الصرع ، وسيأتيك بالأخبار من لم تزود ، وسكت قليلا ، ثم رجع بعض الذين خفوا لإغاثة المستغيث ، فسمعتهم يتندرون ويضحكون ، لأن مهنى جاءه عفريته . فلما سمع حديثهم صاح : « الله يقصر أجله ، وبنا يريحنا منه مصيبة والله على البلد هذا الولد » فقلت له : ما هذا ياشيخ خواجة ، أتدعو على الناس بالموت ؟

ونظر إلى نظرة طويلة تبينتها على ضوء الذبالة الخافت ، وأردت أن أداعبه ، فقلت : كأن بينك وبين مهنى عداوة . وكأنى بهذا الكلام لمست منه جانبا موجعا ، فصاح

وانطلق يروى قصة العداوة بكل ما يملك من أدوات البيان ، يتحدث بلسانه وعينيه ويديه ، ويهز رأسه ، ويقف أحيانا مما جعلنى أعطيه سمعى ونظرى وقلبى أيضا ، وابتدأ حديثه هكذا :

عداوتى معه من قبـل أن تلده أمه ؟ لا تعترض ؟ نعم عداوتى معه من قبل أن يرى الدنيا ، فقد كان مولده نذير شر لى ولأهلى ، وفقدت ثروتى وشقيقى فى سبيله . لقد كانت أمه شيطانة خربت الديار ، ويتمت الأطفال ، وروعت الناس من أجل سواد عينيه .

لقد شهدت ليلة زواج أبيه بأمه ، كانت ليلة عظيمة ، وكان أبوه ــ الله يرحمه ــ رجلا صالحا كريما شجاعا انتخبناه شيخا لحصتنا ، وكانت زوجه المشئومة فتاة سمراء جميلة ، ويقول أهلها إنهـا مؤدبة ! وتدير أحسن بيت ، وكان شيخ البلد فرحا بها يتحدث عنها أمامنا ولا يرى فى ذلك عيبا ، وكنا نجامله فلا نقاطعه ، وحين يمضى نقول عنه إنه عظيم فى كل شئ إلا ذكر امرأته .

ولـكن هذه السمراء المحبوبة لم يرزقها الله ولدا يسر شيخ البلد ، وشعرت المرأة بحرج مركزها وشعرت بمعاداة الأيام لها ، وأحست بزعزعة حياتها عند الشيخ ، وكلما كرت الأيام ازدادت أرقا وقلقا ، حتى نحل جسمها ، وغاص ماء الجمال من وجهها ، وملت العمل فى بيتها وكرهت الدنيا . .

كانت فى أول أمرها محجوبة لا يراها إنسان ، ولـكنها على مر الأيام أصبحت لا تحفل بالناس ، وتراها فى شجار مع النساء . وكان يغيظها ويهيجها أن تسمع من أترابها الدعاء لها بالولد الصالح ، والذرية النافعة ، وتظن ــ وبعض الظن إثم ــ أنهن يعبثن بها ، ويضحكن منها ، وتمنت لو أن الله باعد بينها وبينهن ، وحفظها من مكرهن ، ولـكن من أين لها هذا والبيت مزدحم بقريبات زوجها وقريباتها ، فكانت فى معارك حامية معهن ، حتى جعلت البيت جحيما ، والشيخ راض بما قسم الله له .

والرجل فى القرية كما تعلم لا يهمه من الزواج إلا « الخلفة » ، وقبل أن تمضى شهور على زواجه يفكر فى الوارث ولا يرى المرأة إلا معملا للتفريخ ، فإن خانها الحظ ، ولم تنجب طلقها غير آسف ولا نادم ، أو تزوج أخرى لهذا الغرض . وأخذ أصدقاء شيخ البلد يغرونه بالبناء على غيرها ، والرجل يتمنع آملا فى الولد منها .

وتسمع أم مهنى همسا يدور حولها ، فتعتريها الأوهام ، وتعصف بها الأحزان ، وتبكى ليلها ونهارها . وكثيرا ما تخلو إلى نفسها فتتحدث معها حديثا فيه من النحيب

أكثر مما فيه من التعبير ، ولولا فرحة الشامتين لأعلنت زوجها بحقه فى الزواج عليها ، ولكنها ترتد مجفلة عند هذا الخاطر الأسود .

وأخيرا لجأت إلى ما تلجأ إليه نساء القرية ، فزارت قبور الصالحين تخطيها سبع مرات من جهة إلى أخرى وتذهب إلى جبل اشتهر بالكرامة لتتدحرج عليه ، وتعالجها الداية علاجا عتيقا ، وتضرب الرمل ، وتقرأ الكف ، وتقيم حفلات الزار ، وتعانى من كل هذا ألما مبرحا ، وتعبا مضنيا ، وأمراضا كثارا ولا تفيد من وراء ذلك شيئا ، وضاقت عليها الأرض بما رحبت ، وعنت الموت لترتاح من الأشجان والأسقام ، ورانت عليها كآبة لا تستطيع دفعها ولو تكلفت ؛ فلا تراها تبسم لأحد ، ولا تهش لشئ . وكانت بجوارهـا امرأة — هى أمها — لم تعرف دواءها ، وإن عرفت داءها ، وكم لفهما الليل بردائه الغداف ، وباتتا تعدان النجوم ، وترقبان الصبح ، والدموع تسيل من عيونهما منهمرة . ولكن الإنسان لا ييأس ما دام يحس بالأمل ، ويشعر بالحياة ، وانتظرت الفرج …

فقلت : أذهبت إلى الطبيب ؟ فزم الشيخ خواجة شفتيه ، ثم أرخاها وقد تنفس الصعداء واضطجع إلى الوراء ، وأخرج علبة الدخان ، وصنع دخينة أشعلها وألقى عود الثقاب على الأرض قائلا والدخان يتصاعد مع الهواء فى تراقص : «أى طبيب ؟ صدقنى أنى لا أحب الأطباء ولا الطب ولو جلب الشفاء ، وعلى فكرة لم يكن الطب معروفا على عهدنا ، ولو كان معروفا لنجوت أنا من النحس ومن مصائب أم مهنى ، لقد كان طبيبها جبارا هبط من السماء فجأة ليشفيها ، ويبتلينا»

فقلت كما يقول كتاب كليلة ودمنة وكيف كان ذلك ؟ ولم يقل زعموا ، ولو عرفها ما قالها ، لأنه يحكى قصة شاهدها وذاق مرارها ، ولا تزال آثارها الوخيمة تلاحقه وتضنيه . ولكنه قال وهو يلهث من شدة الغيظ

«لا أدرى كيف ظهر هذا الرجل ، إنه ساحر من بلاد الدكرور نسميه الشيخ الدكرورى ، أعرفه من بعيد . أعرفه شيطانا يغلب الشياطين ، يستخدمهم ، ويوحى إليهم ، وفوق ذلك فهو ساحر قدير ، ما أن سمعت به أم مهنى حتى ركبها ألف عفريت ، وانطلقت إليه نشوى كأنه سيعطيها الولد بمجرد السلام عليه .. مسكينة تستحق الرثاء ، وإن كنت أبغضها من قلبى ، وأعاديها إلى يوم الدين . ماذا تصنع ؟ لقد عرفت عنه أنه يشفى المرضى . ويطرد

الجن الخبيث ، ويصلح بين المرء وزوجه ، وهو يستطيع — لقدرته — أن يكتب كلمة على اليد اليسرى فيلمقها الإنسان فيراها على اليد اليمنى ، وله فى علاج العقيم شهرة واسعة .

لقد أشرقت الدنيا فى حياتها على حين غفلة ، وخيل إليها أن كلمة منه تترك فى أحشائها جنينا يعيد إليها قلب زوجها قبل أن يتحول ، ويعيد إليها جمالها وشبابها ، وسيذهب عنها المرض إلى غير رجعة ، وفكرت فى الولد المأمول ، فانجابت عنها سحب الماضى ؛ وبدا لها طفلها يسعى بين يديها ويخرج صباحا إلى مكتب القرية ، وبعد الظهر يسوق البقر والجاموس إلى أحواض الماء ، ويذهب مع أبيه إلى الحقل ، ويقدم إليها بيده الكريمة باكورة القمح ، ولها أن تباهى أترابها بكل ذلك

جالت كل هذه الخواطر فى نفس تلك المرأة المشؤومة ، فانتفضت من مكانها فتاة صلبة قوية ، ناضرة فتية ، ودفعت الباب بقوة ، وهرولت إلى أمها فى ابتسامة الزهرة الأرجة تهمس فى أذنها أنه قد حضر الشيخ الدكرورى ، وارتعشت يد العجوز وهى تضعها على فمها المفتوح ، وصاحت : أحقا حضر ؟ لقد بسمت لك الدنيا يابنيتى ، وآن لنا أن نستريح ، اكتمى أمرك عن جميع الناس حتى زوجك وتم الاتصال بين المرأتين والرجل ، وأخذ الساحر يعسر الأمور وييسرها ، ويبعدها ويقربها ويجعلها رابع المستحيلات ، وأقرب من حبل الوريد والمرأتان تزيدان له فى الأجر ، وجعلت له البشرى أيضا

أتدرى ما العلاج ؟

لا حول ولا قوة إلا بالله ما رأيت علاجا مثله فى حياتى ، ولا سمع غيرى بذلك العلاج المدمر ، مصيبة والله . العلاج يا سيدى : إحراق القرية وقت صلاة الجمعة فى النصف الأول من الشهر العربى . ومن ذلك اليوم أخذت أم مهنى تعمل على تنفيذ العلاج ، وتعد العدة وتكتم سرها . ودبرت الخطة ، وأقدمت على فعلتها من غير وازع من ضمير ، ولا زاجر من دين

واضطرب جسم الشيخ خواجة عند ذلك ، وجحظت عيناه ، وتقلصت شفتاه ، وأشار بيديه كلتيهما ، وصاح فى عصبيته : « الله يلعنها ! لقد اختارت يوما عاصفا ، وقد كان الصيف قائظا يصهر الرؤوس ، وقد أقبل الناس زرافات إلى المساجد حتى إذا خلت الدور من الرجال وسكنت الطرق من الحركة خرجت المجرمة تسعى ، وكان منزله شمال القرية ، ومنزلها خارجها وأشعلت النار فيه وولت هاربة

ارتفعت النار مرة واحدة ، وامتد

الصراخ إلى أذنى عنيفا مخيفا وأنا فى الركعة الأخيرة ودارت بى الأرض الفضـاء . وانفلت من صلاتى، فرأيت وياشر مارأيت.. لقد صـار منزلى شعلة من نار ، وهبت النيران على المنازل المجاورة تؤزها أزا ، واكتست النخيل ثيابا قانية، ولعبت الريح العاتية لعبتها ، فتطاير الشرر ، واختلط صوت الرجال بعويـل النساء وصراخ الأطفال ، ففقدت وعيى ، فرأيت الناس أشباحا تذهب وتجئ فى أيديهم الجرار وأوعية الماء ، والماء لا يكفى ، ولم نـكن نعرف رجال الحريق

وتنقلت النـار من الشمال إلى الجنوب فى سعار ونهم ، وخلفت فى وسط القرية دائرة حمراء وانجلت الـكارثة بعد أيام عصيبة عن خسائر فى الأرواح والأموال ، وخرجت أنا منها صفر اليدين لا أملك زرعا ولا ضرعا ، وفقدت شقيق وبعض أقاربى .

أفتريد منى أن أحنو على هـذا المتوه المشئوم ؟ الله يرحمنا منه ! فقلت : أحملت به بعد هذه الحادثة ؟ فأجابنى وهو يمضغ الألفاظ مضغا عنيفا : نعم وليتها ماتت فى حملها به !

قال ذلك الصديق : وتركته وأويت إلى فراشى ، فوقعت فى ديمومة من الأحلام المزعجة ما أنقذنى منها إلا صياح الديكة وصوت المؤذن .

السيد حسن قرون

الحمامة الثالثة

للكاتب النمسوي ستيفان زفايج

بقلم الأديب حسن فتحي خليل

تتحدث الكتب المقدسة عن قصة الحمامتين اللتين أرسلهما نوح من الفلك لكشف الأرض ، بعد أن أقلعت السماء وغطى الماء كل اليابسة

ولكن ... هل يدرى أحدنا الرحلة التى قامت بها الحمامة الثالثة ؟

كانت سفينة النجاة قد ألقت مراسيها على الجودى ووقف نوح يسرح الطرف فيما حوله فلم يقابله سوى الماء ، فاضطر إلى أن يرسل حمامته الأولى لتبحث عن اليابسة خلف ذلك الضباب الكثيف

حلقت الحمامة ، ونشرت جناحيها حول الشرق ثم الغرب ، ولما نال منها النصب عادت إلى السفين لتخبر سيدها أن الماء ما زال يفيض على جميع جوانب الأرض

انتظر نوح سبعة أيام كان المطر قد انقطع خلالها وأعاد الاستطلاع فأرسل حمامته الثانية

تركت الحمامة السفين فى الفجر وعادت فى الغروب تحمل فى منقارها غصن الزيتون ؛ فأدرك نوح أن الماء لم ينحسر إلا عن قمم الأشجار فحسب

وبعد سبعة أيام أخر أرسل حمامته الثالثة فطارت تجوس خلال الدنيا. غادرت السفين فجرا وانتظر عودتها فى الغروب ثم فى اليوم التالى واليوم الذى يليه ، ولكنها لم تعد . فأدرك نوح أن السلام قد عم الأرض وأن الماء قد انحسر عن وجهها تماما ، وأما الحمامة نفسها فلم يعد يسمع لطيرانها حفيفا ولم يعرف أحد قصتها حتى هذه الأيام

ولكنى أسوق الآن — فى هذه الحكمة التالية — رحلة تلك الحمامة وما كتب لها فى لوح القدر

حين بسطت جناحيها فى الهواء الذى غدا هادئا عطرا بعد هطول الأمطار شعرت بالحرية فى ذلك الفضاء المتسع حولها ، فطارت محلقة فى الأجواء ، مارة باليابسة

والماء ، منتشية بالسعادة وكأنها فى حلم بهيج .. ثم رأت الأرض وكأنها خلقت من جديد ، فنسيت السفين والمهمة التى طارت من أجلها ولم تفكر فى العودة؛ لأن الأرض أصبحت الآن فرشها والسماء عرشها

جعلت تحلق فوق ذلك العالم الخرب ، وتتقدم وهى لا تشعر بنفسها من فرط سرورها، حتى إذا ما أحست أخيرا بالتعب جذبتها الأرض نحوها شيئا فشيئا . وما أن أقبل المساء حتى كانت فى أعماق غابة لا تعرف لها اسما، واختفت بين غصون أشجارها تستريح من عناء الهجرة الطويلة ، فحرستها الأوراق كما هدهدها النسيم الهادئ ، وظللتها الأشجار بظلالها الوارفة ، وتلاشى كل ما تذكره عن السماء السابعة ورحلتها الطويلة الساحرة ، ولم تعد تشعر بمرور الزمن بعد أن التحفت تلك القبة الخضراء

كانت الغابة التى اختارتها مأوى لها ركنا من أركان عالمنا الذى نعيش فيه ، ولم يكن أحد من البشر قد طرقها بعد أو جاس فى مجاهلها ، فعاشت فى وحدتها تلك وكأنها تنسج حلما لذيذا ، وبنت عشها ، وتوالت الأعوام عليها ، حتى أن الموت نفسه لم يكن يذكر عنها شيئا ، إذ أن تلك المخلوقات الفريدة المتنوعة التى رأت العالم قبل الطوفان لا يمكن أن يفزعها الموت ولا يتسنى لأى شخص قنصها

دارت الأيام دورتها وشعرت حمامتنا باقتراب الإنسان منها ، فهاهى ذى الأشجار وقد قطعها الرجال فأمست والظلام ينتشر حولها من كل جانب . وها هى ذى ضحكات العاشقين الرقيقة وهم يمرون بقربها وقد اشتبكت أذرعتهم . وأناشيد الصبية وهم يجمعون الزهور تطرق سمعها من بعيد . كانت تصل إليها تلك الأصوات المنبعثة من عالمنا وهى كامنة فى مخبئها ، ومع ذلك لم يتطرق الخوف أو الفزع إلى قلبها

ولكن جاء ذلك اليوم الذى أنت فيه الغابة أنينا مؤلما ، وقصف الرعد وكأن الأرض ستنشطر شطرين ؛ ورأت الكتل المعدنية الكبيرة تتطاير أجزاؤها مع الريح حتى إذا ما هوت إلى الأرض انفجرت فى دوى مروع فتحطمت الأشجار . ولاحظت هؤلاء الرجال بملابسهم الرسمية المختلفة الألوان وكل منهم يرصد الموت للآخر بآلاتهم المخيفة التى تشعل النيران وتجلب الدمار .. فيلمع البرق فى السماء ثم يعقبه انفجار هائل مفزع فى الأرض

استيقظت الحمامة من سباتها . كان الموت والفناء يحدقان بها فنشرت جناحيها وطارت فى الهواء فزعة وجلة خائفة تبحث عن مأوى جديد بعيد عن تلك الغابة

اللامينة .. تبحث عن مأوى السلام

حامت حول العالم ، ولكنها أنى ذهبت لا تجد سوى رعود تلك الحروب البشرية المتوالية وبروقها ؛ لقد عادالطوفان . ولكنه ليس طوفان الماء إنما هو طوفان اللهب والدماء

جعلت تطير حول أجزاءالبسيطة علها تجد مكانا تستريح فيه وتستجم ثم تعود بعدها إلى نوح حاملة غصن الزيتون بمنقارها ، ولكنها لم تهبط ذلك المكان المقصود ، فطوفان الخراب الآدمى يعلو رويدا رويدا ، وتلك الجثث الممزقة المحترقة تتطاير أشلاؤها فى كل مكان

ولاتزال الحمامة المسكينة تبحث عما تصبو إليه فلاتستطيع ؛ فالسلام والوئام لم يعد لهما مكان بيننا فى عالمنا هذا ، وستظل طائرة محلقة لن تجد لها مأوى حتى يتم الزمان دورته

كما أنه لم يتسن لأحد منذ بدء الخليقة حتى الآن رؤية تلك الحمامة المفقودة ، الباحثة عن السلام ، والتى تتحدث عنها القصص الدينية ، ولكنها ترفرف بجناحيها فوق رؤوسنا ، غاضبة مزمجرة وقد أضناها التعب . فإذا ما استيقظ الناس فى جوف الليل فغالبا مايسمعون ذلك الحفيف الغريب ثم صوت اندفاع سريع فى الظلام وهمهمة مخلوق قلق يكاد يشرف على الجنون فى سكون الليل . . وأخيرا يسمعون صوت الجناحين يخفقان ويتبع الخفقان طيران مفاجئ

إن خواطرنا المظلمة تحوم حول أجنحتها ، وآمالنا تذوى فى مخاوفها .. تلك التى ترتجف بين الأرض والسماء ، تلك الحمامة الحائرة التى ستحمل أخبار نهايتنا إلى الملأ الأعلى

وهاهوذا العالم اليوم، وبعدأن انصرمت تلك الآلاف من الأعوام مازال ينتظر من يمد يده إليها فتنتهى بذلك تلك المحنة

حسن فتحى خليل

سوما

للقصصي السنهالي مونادسا اماراسكيرا

بقلم الأستاذ محمود الخفيف

عرفت (بياداسا) منذ زمن طويل . لقد كنا نذهب إلى مدرسة واحدة ، ولكنى أذكر أنه كان فى فرقة أعلى ؛ وكان يومئذ يقطن مع عمته ، وكانت عمته جارتنا . وما زلت حتى اليوم أذكر تلك الشجرة العظيمة الممتدة الأغصان، شجرة التمر الهندى التى كانت تقوم وسط الفناء قوية فينانة ؛ ولقد كنت فى الأمسيات ألعب مع لداتى تحت هاتيك الشجرة ، وكان بياداسا أحد هؤلاء

ولقد علمت منذ سنوات أربع أو نحو ذلك ، أن بياداسا أصبح زوجا؛ ثم إنى لقيته وزوجته فى دكان بمدينة كولومبو . ولقد ظلت على وجهه تلك النظرة الشاحبة الفاترة التى كانت تتراءى عليه وهو طفل ؛ ولقد أحسست أنها اليوم أكثر ظهورا ؛ وإن النظرة إلى وجهه لاتنبئ أنه من أولئك الذين صاروا أزواجا وآباء . ولما لقينى كانت ابتسامته لى فى جهد ؛ ومع أن تلك الابتسامة جاءت وليدة جهد ، فقد أحسست فيها شيئا من الصدق ؛ وكانت زوجته رقيقة هزيلة وبدت لعينى لأول وهلة ذات حسن . وإن الصورة التى مدت بها يدها ، مترددة أو تكاد تتردد ، حين قدمنى إليها زوجها ، ثم استردادها نظرتها إلى فى سرعة ، قد أوحت إلى أنها ذات دعة وحياء

وكان لقائى ببياداسا مرة ثانية حين غيرت مسكنى فوجدتنى جاره اللاصق ؛ وكان لا يفصل بين الحديقتين إلا سياج من الأغصان الكثيفة المزهرة ، ولم يمض زمن طويل منذ مقدمى إلى منزلى الجديد ، حتى اعتدت أن أقضى العشيات معه . وكان بياداسا طيب القلب ، ولكنه كان فيما يبدو لا يحب المرح والمجون . ولست فى الواقع حتى اليوم أعرف ما يحب ومالا يحب ، وكان من عاداته أن يظل يقرأ الصحف منذ عودته من عمله حتى ساعة الطفل

ولقد كنت أعجب ماذا عسى أن يكون فى جريدة من مثل هـذا الإمتاع ! ومهما يكن فى الأمسيات من جمال وإغراء ، فلست أذكر أمسية خرج فيها من داره . ولقد كنت أدعوه فى مثل هاتيك الأماسى إلى قليل من المشى ، ولـكنه كان يرغب أبدا عن ذلك

ولما توثقت المعرفة بينى وبين بياداسا وزوجته ، أخذت ألاحظ أن سوما لم تكن كما ظننت حين رأيتها أول مرة ذات حياء. ولقـد وجـدت من العسير أن أوفق بين ما أراه منها وبين ماوقع فى نفسى من أثر أول مرة حين رأيتها

كانت على خلاف بياداسا قد تعودت أن تبرح المنزل أكثر الأمسيات . ولقـد علمت بعد أيام قلائل أنها كانت أحيانا ترجع إلى بيتهـا متأخرة . ثم إنى رأيتهـا مرة أو مرتين حين كنت أقرأ كتابا إلى جـوار نافذتى عائدة مع بعض صاحبات لها أظنهن من جاراتهـا . ولقـد سمعت كلامهن وضحكاتهن ، وما صادفتنى مرة إلا لوحت لى بيدها مبتسمة ابتسامة صادقة

وبعد ثلاثة أشهر منـذ أن تطورت صداقتنـا إلى درجة من الألفة ، قص على بياداسا كيف قضى حيـاته منذ أن ترك المدرسة . وجاء فى معرض قصته أنه استؤجر فى عمل بكولومبو بمجرد أن غادر المدرسة ، وأنه وإن لم يكن يحس ميلا إلى الزواج ؛ قد استجاب إلى إغراء والديه فتزوج سوما .

وكانت سوما من أسرة ميسورة الحـال من إقليم التلال . ولقد أتيح لها قدر كبير من التربية والثقافة . ولقد أنجبت سوما غلاما بعد زواجهما ، ولـكنه مات بغتة وهو فى الثالثة من عمره

وبعد أن أصغيت لحظة إلى هذا الحديث عجبت ماذا جعل بياداسا يبحث عن عمـل مثل هذا كاتبا تابعا للحكومة؛ ولو أنه كان لى مثل ماله من ثراء مارضيت أن أخدم تحت إمرة سيد ؛ وإنى أشعر الآن أن عدم قدرته على أن يظهر شخصيته فى أية صورة أخرى هو الذى جعله يبحث عن مثل هذه الوظيفة

وحل الفصـل الذى أزهرت فيـه الأشجار كل الإزهار ؛ وازدادت الأماسى بهجة ، وباتت الشجيرات فى حديقتهم وفى حديقتى محملة بالأزهار ؛ وأحسست يومئذ أنى إلى صحبة سوما فى نزهاتها أكثر ميلا منى إلى استماع صوت بياداسا ؛ وأحسست كذلك أن سوما تحب أن تقضى الأماسى معى

وكنت بدأت أشعر منذ وقت طويل أنها لم تكن حسناء فحسب، وإنما كان حولها نوع من السحر خاص بها . إنك لو فحصتها جملة فلا أظن أنك واجد فيها شيئا فائق

الجمال وإن عينيها كانتا من السعة بحيث لا تمدان مناسبتين ، ولكنى وجدت فيهما شيئا شديد الجاذبية ؛ وكانتا تبدوان كما لو أن الدموع تريد أن تتساءل منهما فى أية لحظة . وإنى لأحس أن النساء حتى أكثرهن جمالا يلحن أكثر حسنا حين تفتر الدموع أعينهن . ولم يكن أنفها كذلك أشم أو سويا ؛ ولم تك شفتاها رقيقتين ولا حمراوين كزهرة اللوتس ؛ وكانت أصابعها الدقيقة الأنامل تبدو رقيقة لطيفة ، ولكنها كانت من الدقة بحيث لا يمكن أن تعد حسنة التكوين أو جميلة . وكان حديثها كحديث طفلة بريئة ، وكان ينساب طبيعيا لا تكلف فيه حتى لقد كنت أنسى ما يتصرم من الوقت حين كنت أجاذبها أطراف الحديث ؛ ولم تتناول فى حديثها ما يتناول أكثر النسوة عادة من مسائل ، وإنما كان يدور حديثها حول أمور ذات صبغة فلسفية أو أدبية ؛ وكثيرا ما أثر فى نفسى أنها ذات خبرة بأمور لا يهتم بها إلا ذوو العقول الرزينة

على أننى أذكر أنها سألتنى ذات مرة عما إذا كنت أحببت امرأة قط ؛ ولقد ربكنى سؤالها لحظة ، وذلك لأنى رأيت أنه مما لا يليق بسيدة صغيرة مثلها أن تسأل سؤالا كهذا ؛ ثم أجبتها فى حالة تكاد تكون عصبية « كلا » ، وإنى أعتقد أن ما ذكرته هو الحق فإنى لا أكاد أذكر أنى أحببت امرأة . لقد اتجهت نفسى فى المدرسة إلى فتاة كانت معى فى حجرة الدراسة ، ولكنى أشعر الآن أن ذلك لم يكن مثل ما يكون من حب بين الرجال والنساء

ولما كنا فى زمن الزهر ، وكانت خمائل الورد فى حديقتهم تتفتح كمائمها ، فقد اعتدت كل صباح وأنا إلى جوار نافذتى أنتظر حتى يحين موعد ذهابى إلى عملى ، أن أرى سوما بين خمائل الزهر تقطف تلك الورود ؛ وكانت ترسل إلى كل صباح باقة من الزهر ؛ وكانت إذا وجدتنى لا أزال فى نافذتى تسعى إلى بشىء من الزهور التى جمعتها

وكنت ذات مساء أقرأ كتابا فى حجرتى ، ولم يكن بى ميل إلى مبارحة البيت لأنى عدت متأخرا من عملى ؛ وما هى إلا لحظة حتى سمعت شخصا يطرق الباب طرقا خفيفا ، ولما فتحته ألفيت سوما واقفة وحدها !

وسألتنى قائلة « ألا تخرج الليلة لتمشى قليلا يا نيال ؟ إنى أستشعر الوحدة اليوم جدا » وأجبتها « لقد كنت اعتزمت البقاء ولكن إذا كنت تريدين فسآتى معك »

ثم أغلقت من خلفى باب حجرتى

ومشينا مسافة قصيرة فى صمت ؛ وكان

ذلك قبيل الغروب ؛ وكانت تقع غير بعيد من منزلنا بقعة خضراء أشبه بالحديقة لما كان ينمو فيها من وحشي الشجر ؛ ورأينا القمر بازغا يسكب شعاعاته الفاترة الفضية على رؤوس الشجر ! وأحدثت نسمة خفيفة باردة حفيفا بين الأغصان ؛ وأحسست أن سوما تقبض بيدها على أصابعي ، ورأيت أنه يجب على أن أجذب يدى من يدها ، ولكنى لم أجد لدى من الإرادة ما يعيننى على ذلك . ولقد سرى فى بدنى شعور عجيب بالنشوة نتيجة لهذه اللمسة ، ومشت إلى جانبى دون أن تتكلم ، واستطعت أن أرى نور القمر الهادئ على وجهها وعلى ردائها الأبيض . ولقد أضاء وجهها فى نور القمر ، وأبصرت خصلات من شعرها تتألق وتتراقص بفعل النسيم . ثم قطعت الصمت بعد أن مشينا ساعة طويلة بقولها :

— ألا نعود أدراجنا ؟ فأومأت برأسى موافقا إياها

ولما استدرنا راجعين كنت أرى ما يواجهنا من ظلال طويلة معتمة ، وكان بالى فارغا أتم فراغ . ولم أكن أسمع إلا نفسها وحفيف ثوبها كلما خطت . ومس النسيم البارد صفحة وجهى ؛ وازدادت سوما إقترابا منى ؛ وأحسست خيفة فى نفسى من لمس جسمها النحيل اللطيف

ولما اقتربنا من منزلها شممت رائحة أزهار الحديقة ؛ وخطت سوما إلى الفناء قائلة « أدخل يا نيال » وراعتنى دعوتها إذ وجدتها غير لائقة ، وأحسست كما لو كنت أريد أن أنطلق عدوا ولكنى لم أجد لدى القوة لأفعل ، فتبعتها .

ونفذت أشعة القمر من خلال الأغصان فأغرقتنى وأغرقت سوما ؛ وكنا وحيدين فى الشرفة المكشوفة ؛ وكان باب غرفة بياداسا مغلقا ؛ وجلست سوما صامتة ساكنة كقطعة من الحجر ؛ واستطعت أن أرى وجهها يضيئه نور القمر . وكان ما ارتسم من معان على محياها عجيبا جنيا يكاد يخيفنى ؛ وجلست صامتا على كرسى فى طرف الشرفة ولم أعد أقوى على النظر إلى عينيها . وكان يتنزى قلبى بين انفعالات متصارعة . ثم إن ضعفا لم أتبين كنهه قد قضى على ما فى من قوة .

ودلفت فى بطء نحو مقعدى ، ورأيتها وهى تقترب منى كما لو كنت فى حلم ، وجلست على متكأ مقعدى ؛ وكنت أحس تنفسها ؛ واستجمعت كل ما وسعنى من بقايا شجاعتى ونظرت نظرة إلى وجهها ؛ ورأيت محياها قد توقد احمرارا ، وكانت فى عينيها نظرة غريبة واختلجت شفتاها ؛ ودق قلبى دقات سريعة ؛ ولم أحس من النوازع إلا أن

أنهض فأعدو بعيدا عنها ؛ ولـكنى قبل أن أفعل ذلك أحسست بيديها تشتبكان خلف عنق . ثم إنهـا أقبلت بوجهها على حتى داعبت خصلة من شعرها جبهتى

وامتلأت عيناى فجأة بالدمع ، ولم يكن فى وسعى أن أدفع ذلك ، ثم إنى غطيت وجهى براحتى .

ولست أدرى لماذا جاء مسلكى وقتئذ على هذه الصورة ؛ ومايسلك أحد غيرى هذا المسلك فيما أظن . ربما كان مرد ذلك إلى مزيج من الفرح العظيم والأسف. ولقد يكون مرده إلى أن ذلك كان أول موقف وقفت لى فيه تجربة ما مع امرأة . .

لقد ابتعدت فى بطء عنى ووقفت دون أن تنطق بكلمة عند مدخل الشرفة ؛ ولبثت مستغرقة فى تفـكير عميق ، وقد استندت إلى الباب وأسندت ذقنها براحتها . وظلت على تلك الحال لحظة ، ثم رأيتها تدخل الحجرة وتجذب الباب من خلفها جذبة قوية .

وغادرت أنا منزلها وآويت مسرعا إلى منزلى . ولما ذهبت إلى مضجعى أحسست كأن عقلى قد اختلط . لقد ملأنى مسلـكها عجبا ، وكان أعجب منه مسلـكى حيالها ؛ وحين فـكرت فى مسلـكى أحسست أن الحمرة صبغت وجهى ؛ ولـكنى لست أنـكر أن ثمة شعورا من الغبطة كان يكمن فى زاوية من زوايا عقلى . إن ما بعثه ملمس خديها ويديها من نشوة فى نفسى قد أتاح لى تجربة لم أذقها من قبل .

وخيل إلى أن وجهها لا يزال يحدق فى وجهى ، وأن ما ارتسم على محياها مما لا يمكن اكتناه سره لا يزال ماثلا فى عينيها . لقد ابتعثتا شكا فى نفسى لا يزال يلازمنى ؛ ذلك أنى أخذت أتساءل : هل تسلك هذا المسلك كذلك مع غيرى ؟ لقد رأيتها واقفة لدى عتبة الباب تحملق فى غير معنى . ولم أستطع حتى أن أتخيل ماذا كانت تعبر عنه ملامحها فى تلك اللحظة .

واستيقظت فى الصباح على نحيب خادمتى ، ولست أذكر أنها أيقظتنى قط على مثل هذه الصورة من قبل

« سيدى لقد ماتت السيدة جارتنا ليلة أمس » .

وأذهلنى الخبر فوثبت من سريرى سائلا فى لهفة « من ؟ »

« جارتنا السيدة يا سيدى »

« ومتى كان ذلك ؟ »

« لست أدرى فى أى وقت : لقد وجدها السيد ميتة هذا الصباح »

ولم أسأل أكثر من هذا إذ لم أجد لدى شجاعة لذلك . لقد قهرنى الخوف والحزن وانتهيت إلى أنها قتلت نفسها نتيجة للقائنا

ليلة أمس ؛ وأظن أن بياداسا رآنا وأنه سألها عن ذلك ؛ وكان ذلك ماجعلنى أخشى لقاء زوجها .

وبعد لحظة جاءنى بياداسا ليرانى ؛ وإن مجرد مرآه قد قذف فى نفسى الرعب ؛ وفكرت فى أنه سوف يلاحظ عينى تفقدان بريقهما ووجنتى تصبغهما الحمرة ، على أننى تجرأت فحدثته واستفهمته

قال بياداسا إنه حينما ذهب إلى حجرتها فى الصباح وجدها ميتة فى سريرها وإنه ليس يدرى سبب موتها . لقد آوت إلى فراشها متأخرة عن موعدها كل ليلة ؛ ولقد سطرت كتابا أعطته للخادم ليلقى به فى البريد لساعته ، وكان ذلك كل ما استطاع بياداسا أن يجمعه من نبأ حول موتها …

وألقى إلى البريد كتابا فى اليوم التالى ففتحته فإذا هو من سوما وإذا بها تقول ، « يجب أن أوضح لك بادىء الأمر أنى أكتب هذا بدافع الشفقة عليك ، فإنى على يقين من أنك حين تسمع نبأ موتى سوف تعود بالتبعة على نفسك . ولكن يجب ألا تعتقد ذلك فلقد قتلت نفسى لأنى لم أعد أجد فى الحياة فائدة . وإنك لو علمت ماضى فلسوف توافقنى على ما فعلت

قد تكون علمت أنى كنت امرأة فاضلة؛ لقد تزوجت منذ سنوات ست ، وإنى أشعر أن الواجب يقتضينى أن أبين لك مبلغ ما اتفق لزوجى من فضل كرجل ، وإنه ليصعب أن يوجد زوج له مثل صبره ورأفته . ولكنى أشك فى أنه أحبنى . كذلك أرتاب فى أن من لهم مثل طبيعته من الرجال يقدرون على أن يدركوا حقيقة ما يكون فى قلب المرأة من مشاعر وأظنك كذلك أدركت هذا مما عرفت من سلوكه . وعلى الرغم من ذلك عشنا فى وئام؛ ولكنى لن أغفل ذكر أمر واحد : ذلك أنى إذا تدبرت فى ماضى لا أستطيع أن أقول إنى عشت عيشة سعيدة . إننى أدرك أنى لم أحرم قط شيئا ؛ ومع ذلك فإنى لم أذق ما كنت أنتظره من الحياة الزوجية من سعادة كاملة . وبعد أن انقضى عام ولد لنا غلام أحببته بكل ما فى نفسى ؛ وشعرت أن هذا الحب قد عوض ما كنت أحس فى عمق أنه فاتنى من حياتى . لقد كان الطفل محور حياتى وبه شعرت بما للحياة من معنى ومن حقيقة : ولكنه مات بعد ذلك بثلاثة أعوام . وكان فقده مما لا يستطاع حمله . وليت شعرى هل أحس بياداسا مثل ما أحسست لفقده ؟ لقد بكيت مصابى بضعة أشهر ؛ وإن ما أمدنى به طفلى من معنى لحياتى ومن حقيقة لها قد ذهب بذهابه ؛ وبات عقلى مشردا كما لو أنه انتزع

مما يمسكه إلى مرفأه ؛ وازداد فى نفسى ما كنت أشعر به من خيبة قبل مولد الطفل. وأحسست كذلك أنى أفقد فى سرعة إحساسى بالخوف والعار وذلك بسبب هذا الحزن الذى يغتالنى ؛ وبدا لى أن شعور القداسة نحو الحياة ونحو الزواج قد ذهب بددا

وأخذ يتقاذفنى التيار ، وأخذت أبحث عن اللذة أينما وجدتها ؛ ولم تعد تضايقنى أفكار ولائى نحو بياداسا ، وإنى أذكر ذلك الآن فقط فى غضب وفى شعور بالعار . صارت الشهوة عماد حياتى ؛ وإذ ذاك لقيتك وعرفتك

ولست أظن أن بياداسا قد فطن إلى شئ مما طرأ من هذه التغيرات على حياتى ؛ إنه لم يرفرقا بين ما كنت أظهره له وأنا زوجة أمينة وبين ما كان منى حين أصبحت له خائنة . ولو أنه فطن إلى ذلك ، أجل لو أنه فطن إلى حقيقة أمرى لأمكن تجنب هذه الخاتمة ... هذه المأساة !

لقد اتخذتك صديقا لى بدافع الرغبة أن أحقق معك ما تنزع إليه نفسى ، ولكن ردك غير المنتظر قد أحدث فى عقلى تغيرا تاما . إن مسلكك حيالى قد بين لى مبلغ خطأى ؛ وإنى لأتبين ذلك الآن فقط ، وما أظن إلا أنى كنت عمياء طيلة هاتيك الأيام

إنى أشعر كما لو كنت أعترف بذلك كله لبياداسا ، وكما لو كنت أفتتح صحيفة جديدة فى حياتى ؛ ولكن كيف أنتظر منه أن يفهمنى وهو الذى لا يدرى شيئا حول هذه الأمور ؟ حتى لو أنه غفر لى خطيئتى أترانى أرتاح إلى هذا ؟ ولئن كان مستعدا أن يتقبلنى الآن بجميع أوزارى ، فلقد كان يجب عليه أن يتهمنى حين كنت خائنة له . ألا ترى ذلك معى ؟ ولئن قدر أن يشعر الآن بالشفقة على ، فلقد كان عليه أن يغضب على الأقل من مسلكى حينذاك وإذا كان بحيث لم يهتز قلبه وقتئذ ، أتراه يتحرك الآن ؟ إن الموت يبدو لى الحل الوحيد ... المخرج الوحيد مما أنا فيه

وإنى آمل الآن أن تكون قد اقتنعت بأنك برئ »

محمود الخفيف

بنت الصغيرة

للقصصية النمسوية مارى تشافنر

كانت القارة ملأى بصفوف الجند تمتد في طولها وعرضها كأنما تزحف إلى غير نهاية وكانت تتجلى قسوة العصر وآثامه في تلك الخطوط البشرية التي تدفع ذات اليمين وذات الشمال كأنها سلع تافهة . وكان ذلك الإعصار الدامي يمزق في أوربا عرى كان يظن ألا انفصام لها

«أماه !» بهذا النداء كان يرتفع صوت الصغيرة الضالة فيذهب بددا في كآبة الليل وظلمته …

وبينما كان أحد رجال الشرطة يجر رجليه جرا إلى داره مثقل البدن والنفس بالنصب والهم ، إذ وقعت عيناه فجأة على بنية تبكي في زاوية الطريق ؛ ولم تجد حيلة في حملها على الكلام ، ولم ينفعه شيئا ما أبداه نحوها من تلطف وعطف

وحار من أحاطوا في المخفر بتلك الصغيرة ماذا يفعلون كي تتكلم ، وهي تنظر إليهم فزعة تجهش إجهاشات تهتز لها حتى قلوبهم التي اعتادت مناظر القسوة

وأخيرا أجابت وهي تمسح دموعها بيديها وتلمح وجوههم خائفة « إسمي إلفريدي شنيدر وعمري ست سنوات »

ويمد لها مدير المخفر منديلا خلقا وهو يسألها « ومن أبواك يا صغيرتي العزيزة ؟ »

وتقول الصغيرة « لست أدري … حقا لست أدري »

وصاح بها قائلا « بنت كبيرة مثلك لا تعرف من أبواها ؟… هذا كلام فارغ »

وتهز البنية كتفيها يائسة ، وينظر إليها المدير يائسا كذلك ؛ ثم تملي عليه تجاربه أن ليس أفضل لها من أن تنام

ويبسط رجال البوليس بأيديهم الغليظة القبيحة فراشا للصغيرة الباكية فترتمي عليه ولا تزال تجهش حتى يلفها النوم

وفي الصباح الباكر يقبل على فراش الصغيرة مدير البوليس الذي وخط الشيب رأسه وقد عول على المفاجأة وسيلة إلى غرضه ، وينظر إلى الصغيرة إذ تفتح عينيها

وتطرف ، قائلا وقد تكلف من الصرامة والعبوس ما أشعره أنهما أكثر من طبيعته « أنت إلفريدى شنيدر فقولى أين تسكنين ؟ »

وتجيب الطفلة فى غير تردد « رقم ٢٦ شارع موبهلجاس » ثم تنظر حولها حائرة. لم تدرك بعد أين هى . وقال مدير البوليس وهو يفرك يديه فى ارتياح « حسن! هاأنت ذى تعرفين، فهل يقطن أبواك أيضاهناك؟ »

وأجابت الطفلة وقد أفاقت « أوه … لا ، من فضلك ، لا يقيم هناك أبواى ، ولست أعرف أين هما وماذا حدث لهما … إنه وحده يقطن هناك … فرانز شنيدر وحده »

وسألها الرجل متعجبا «أليس هو أباك؟»

وقالت الطفلة « نعم … لا … إنه ليس أبى » ثم عادت الدموع تنسكب من عينيها ، وقد اختنقت بالبكاء ألفاظها فكان لها نبرة حزن لن يصفها كلام

وعرض رجل البوليس الذى وجدها بالأمس أن يذهب بها إلى ذلك المسكن ، فأجابه رئيسه بقوله: « إن الساعة لم تتجاوز السابعة بعد . وها هو ذا فرانز فيما أظن قادما يبحث عنها فإنى أسمع تساؤلا »

وفتح الباب ودخل الحجرة رجل فى وجهه لهفة شديدة ، ولكن ما تكاد تقع عيناه على الطفلة حتى تنفرج أساريره . وتجرى الصغيرة فتتعلق به باكية ، وهو يصيح « إلفى ! ها أنت ذى بين يدى » ثم يضمها إلى صدره ، ويتجلد رجال البوليس كيما يحافظوا على ما ينبغى لهم من ثبات وقوة ، ثم يقول المدير « هكذا تصر هذه البنت العنيدة على زعمها أنها لا تعرف أبويها »

ويقول ذلك الرجل الذى يهدهدها بيديه « حقا إنها لا تعرفهما ولا تدرى أين هما ؛ بل إنها لم تكن تعرف مأساتها هى حتى أمس فحسب »

كان فرانز شنيدر قد عاد من الميدان فى إجازة قصيرة سنة ١٩٤٤ ، وكانت قد ولدت له طفلة ولم يستمتع بطفلته إلا ساعتين ثم دعاه داعى الواجب فعاد إلى القتال

وعصفت العاصفة ، فكم فصمت من عرى ونيقة ، وكم شتتت من شمل جميع ! وأسر فرانز شنيدر ثم أطلق سراحه بعد عام . وأخذ الرجل يبحث عن زوجته وابنته ، فلم يدع سبيلا إلا سلكها ، ولا مكتبا للاستعلامات إلا طرقه ، حتى كلت قدماه . وكان يقرأ فى لهفة مايعلن فى الصحف من أسماء المشردين ، ويستمع إلى الإذاعة وقلبه يثب فى صدره ، ولكنه لم يرجع من ذلك بطائل وأحاط به اليأس ، وكره الحياة

ثم واتته السعادة فجأة ذات يوم فى صورة طفلة تدعى إلفريدى شنيدر ، وجدت ضالة فى إحدى محطات سكك الحديد ، وكان حول عنقها قلادة تحمل اسمها . وراح الرجل

يضم ابنته إلى صدره ، وملء جوانحه الفرح ، وملء عينيه الدموع ، وعبثا حاول أن يعرف منها أين أمها ؛ وكان لا يظفر منها كلما سألها إلا بكلمتين « كانت أمي مريضة ثم تركتني ولم أعد أراها »

وآثر الرجل ألا يسألها بعد ذلك ، فإن ما كان يرتسم على وجهها الصغير من رعب كلما سألها كان يشيع فى نفسه الألم والرهبة ؛ وإنه يجب أن تحيا ابنته حياة سعيدة ، وأن تنسى ماضيها المحزن المؤلم كل النسيان

وانقضى عامان كانت فيهما إلنى الصغيرة عزاء فرانز عن زوجته التى لا يدرى أحية هى أم ميتة . وكانت تؤنس ابنته وحشته ، وكان يرى فيها أمله ورجاءه فى أن يحيا ...

وكان أمس عيد ميلادها الخامس ؛ وقد اشترى لها أبوها من ألوان الحلوى ومن أشكال اللعب ما أبهج نفسها . ولشد ما ابتهجت بعروسها التى تغمض عينيها وتفتحهما والرجل فرح بفرحة ابنته . ولقد قضى أكثر نهاره معها فى حديقة الحيوان وفى المساء أحاط سريرها بالزهر والورق البهيج الألوان

وفى مساء عيدها وبهجتها يأبى القدر إلا أن تذوق الصغيرة من الحزن ما لن تنساه أبدا وإن بلغت أرذل العمر

بينما كان الرجل وابنته يتناولان عشاءها فى حجرة الطعام إذ دق جرس الباب ، ففتحت إلنى فإذا بها حيال سيدة لا تعرفها وكانت معها بنت صغيرة . وسألت السيدة «أيقيم هنا السيد فرانز شنيدر؟ » ؛ ولما أومأت إلنى بالإيجاب ، دخلت السيدة ، ومشت إلى حجرة الطعام فدقت الباب ، ودخلت ، وتركت الباب مفتوحا فاستطاعت إلنى أن ترى ما كان بينها وبين أبيها

وصاحت السيدة قائلة «فرانز!» وألقت بنفسها على صدره باكية ، بينما كان ينهض الرجل وقد شملته دهشة عظيمة ؛ وصاح زوجها قائلا « مارى ؟ أشكر الله ! ها أنت ذى حية » ثم نادى الرجل قائلا « إلنى »

وكان هذا النداء موجها لإلنى الواقفة خارج الحجرة ، ولكنها لم تتحرك ، كأنما ساخت فى الأرض قدماها . لم تستطع إلنى أن تتقدم حينما رأت البنت الصغيرة الغريبة تتدلى من عنق أبيها وهو يقبلها مرتعدا من فرط سروره ثم يضمها إلى صدره

وأسندت إلنى الواقفة خارج الحجرة رأسها إلى الحائط وبكت فى صمت ، ولم تتبين بعد على وجه اليقين ماذا يعنى هذا الذى ترى

وأشارت السيدة إلى اللعب المتناثرة ، وإلى الزهر والحلوى وقالت لزوجها : «هكذا أنت لم تنس عيد ميلاد ابنتك . ما أجمل ذلك منك » ثم التفتت إلى ابنتها قائلة : « انظرى ياإلنى ! إن هذه الهدايا كلها لك » وراحت السيدة ترى ابنتها تلك الهدايا التى

أغدقها زوجها على إلفى الأخرى التى لم تكن تعرف السيدة بعد شيئاً عنها

عندئذ أدركت الطفلة كل شىء ، فهذه السيدة زوجته ، وهذه الصغيرة التى تدعى إلفى كذلك ابنته الحقيقية.. أما هى فلم تكن إلا غلطة فحسب !

وأحست الصغيرة فقد أبيها كما أحست فقد أمها ، ونظرت إلى ذلك الرجل الذى كان أباها منذ لحظات ، ومشت فى جسدها رعدة شديدة ، وشعرت بذل الغربة فى البيت كله وجرت إلى المطبخ وقبعت فى ركن منه

ونهض الرجل فجاء بها يكفكف دموعها وقدمها إلى زوجته وابنته ؛ ولم يكن يعلم منذ لحظات أن لا رابطة تربطه بهذه اليتيمة البائسة

وجلست إلفى الغريبة صامتة دامعة تنظر من خلال دموعها إلى إلفى صاحبة البيت واللعب والزهر والحلوى ؛ ولبثت فى مكانها تستمع إلى ما كانت تقصه تلك الأم من أنباء عذابها وحزنها أيام كانت هى وابنتها شريدتين ، تعبث بهما يد القدر . وانتفضت الصغيرة فى رعب ، وقد أوحى لها ما تسمع عذاب أمها وأبيها

وكانت تنظر الصغيرة المحزونة نظرات الشكر والمحبة إلى ذلك الذى كان أباها منذ لحظات وكانت فى حزنها تستشعر الراحة — كما تفطن الرجل حين نظر إليها — لما كانت ترى من سعادته بلقاء زوجته وابنته …

ولما أووا إلى مضاجعهم جميعا رأتها إلفى وقد نزلت من سريرها ، ومشت نحو العروس التى لم تعد لها ، وربتت بكفها الصغيرة على صدر العروس ومسحت شعرها فى رفق ، ثم تسللت فى سكون إلى خارج المنزل !

ولم تدر أين تذهب ، وراحت تنتقل من شارع إلى شارع حتى أضناها الجهد . ولما جن عليها الليل وأخافتها الظلمة أخذت تصيح « أماه ! » حتى وقع عليها رجل البوليس فأخذها إلى المخفر . وهناك كانت إلفريدى شنيدر عاجزة عن أن تذكر من أبواها

وكان مدير البوليس ورفقاؤه ينصتون فى صمت وتفكر إلى الرجل وهو يقص عليهم قصة الصغيرة الضالة . ولقد كان يضمها أثناء حديثه إلى صدره ، وكانت يداها الصغيرتان فى قبضته ؛ ولما فرغ خاطبها قائلا « والآن ياصغيرتى العزيزة هيا بنا إلى المنزل فإن أمك قد أعدت طعام الفطور ، ولا بد أن أختك قد استيقظت الساعة »

وقال مدير البوليس : « هذا جميل منك ياسيدشنيدر » ثم جهد فى تخليص حنجرته ، وأمسك دمعه فى جهد، فليس مما يليق برجل فى مثل منصبه أن يظهر بمظهر لا يكون مخفر البوليس مجالا له على أى حال

فكر في الحل

خطأ فظيع

أتم رجل البوليس السرى فحص الحجرة ، فوجد كل شئ كما ينبغى أن يكون ، إلا الجثة والدم على أرض الحجرة وعلى حافة النافذة . والتفت رجل البوليس إلى ذلك الشخص الذى يجلس كأنه أبكم أصم على أحد المقاعد وأخذ يستجوبه

وراح ذلك الشخص يذكر نبأ المأساة قال :

« لقد فزعت زوجتى مرات هذه الليلة من أصوات خارج المنزل ، وكانت تسألنى كل مرة أن أتبين ماهذه الأصوات. وفعلت كما طلبت. ولما لم أجد ما يريب عزوت تلك الأصوات إلى عابث همه أن يخوفنا . .

« وأوينا إلى فراشنا كل فى سريره فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . وبعد ذلك بزمن قصير استيقظت على صوت زحف وهمس . وبعد ثوان ألفت عيناى الظلمة فاستطعت أن أتبين شبحا فى الحجرة أمام النافذة. فتحسست موضع مسدسى وكان تحت المخدة ، وتناولته وأطلقت رصاصتين. ثم وثبت من فراشى ، وضغطت على زر النور . وما كان أشد فزعى أن أرى زوجتى هناك ميتة ! فأسرعت إلى التليفون واستدعيت الدكتور ولارد ثم ... »

فقاطعه رجل البوليس قائلا: «لحظة من فضلك» واتجه إلى الطبيب سائلا إياه «ماذا دل عليه فحصك ياسيدى الطبيب ؟ »

فأجاب الطبيب « نفذت رصاصة من الكتف، ودخلت أخرى من الظهر واخترقت القلب ونفذت من الناحية اليسرى للصدر، وحدثت الوفاة فى الحال »

ثم سأله « ألم تمس يداك أى شئ فى الحجرة غير الجثة أيها الطبيب ؟ »

فأجاب الطبيب « لم أمس شيئا »

وسأل الزوج قائلا « وأنت يادانللى ؟ »

فأجاب « لم أمس إلا التليفون ، وكان البرد قارسا . . فذهبت إلى المخزن وأوقدت نارا »

فقاطعه رجل البوليس قائلا وهو يفتح النافذة ليدع شيئا من النور يدخل الحجرة :

« لقد أوقدتها نارا حامية حقا ... ألا إنها جريمة دبرتها فى كثير من الغباء يادانللى . . اقبض عليه أيها الشاويش »

ماذا جعل رئيس البوليس يرفض قصة الزوج ويجزم أن الحادث جريمة مدبرة ؟
فكر فى الحل يا سيدى القارئ ، فإذا أعياك فاقرأه فى العدد القادم

(الرواية)



مجلة الأدب الرفيع والأسلوب العالى

تدخل سنتها الحادية والعشرين فى أول يناير المقبل وهى أقوى
فى التحرير، وأجمل فى الأسلوب، وأبلغ فى التنويع
وأكبر فى الحجم، وأغزر فى المادة

مبدؤها : وصل الجديد بالقديم، وربط الشرق بالغرب على هدى وبصيرة

اقرأها : تزدد فقها فى دينك، وعلما بلغتك، وفهما لأدبك، وسعة فى ثقافتك

تظهر كل أحد من كل أسبوع

مطبعة الرسالة



العدد الثاني — السنة الرابعة



صاحب المجلة
ومديرها ورئيس
تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات

الإدارة
٨١ شارع السلطان
حسين بعابدين
تليفون ٢٧٤٩٠

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

سكرتير التحرير
محمود الخفيف

بدل الاشتراك
قرش
١٢٠ في مصر والسودان
١٥٠ في الممالك الأخرى
٥ ثمن العدد

الإعلانات
تتفق عليها مع الإدارة

العدد الثاني — ٢٧ ربيع الأول سنة ١٣٧٢ — ١٤ ديسمبر سنة ١٩٥٢ — السنة الرابعة



فهرس العـــدد

الأرليزية أو الحب القاهر

لألفونس دوديه

بقلم الأستاذ أحمد حسن الزيات

يمر الهابط من طاحونتي إلى القرية بمنزل ريفي أقيم على جانب الطريق في صدر فناء كبير يظلله الشجر. وهذا المنزل هو المنزل الحق لرب الأسرة البروفنسي بآجره الأحمر، وواجهته العريضة، ونوافذه المتنافرة، ودوارته الهوائية التي تدور على سنمه، ورافعة القش التي تقف على جداره، وحزم الدريس التي تتناثر على سطحه

لماذا كان هذا المنزل يروع قلبي؟ ولماذا كانت بوابته المغلقة تقبض صدري؟

لم أكن أستطيع تعليل ذلك؛ ولكن المنزل مع هذا كان يبعث الرهبة في نفسي.

كان حوله نطاق من السكون العميق الرهيب الشامل؛ فالكلاب تنظر ولا تنبح، والدجاج تنفر ولا تصيح!

أما في الداخل فلا تسمع صوتا ولا حركة؛ لا صوت إنسان ولا حركة حيوان! فلولا الستائر المضروبة على الشبابيك، والدخان المتصاعد من الأسطح، لحسبت المكان غير مأهول

كنت بالأمس عائدا من القرية ساعة الهاجرة؛ وكانت شمس الظهيرة تعج القيظ فيلفح الوجوه؛ فكنت أتقي وقدتها بالسير في ظلال الجدر وفي أفياء الشجر. فلما صرت أمام هذا المنزل وجدت عمالا يحملون عربة بالدريس وهم سكوت. وكانت البوابة مفتوحة، فصوبت في المكان نظر العابر فوجدت في آخر الفناء شيخا جلله الشيب وأوهنه الكبر. قد ارتدى سترة أقصر مما ينبغي، وسراويل مزقتها يد البلى من كل جانب، وقد اتكأ على منضدة عريضة من الحجر، ووسد رأسه على راحتيه، فوقفت. وحينئذ دنا مني أحد العمال وقال بصوت خافض:

ششت! إنه السيد! وهو على هذه الحال التي تراها منذ وقع لابنه ذلك الحادث الأليم

وفي هذه اللحظة مرت بنا امرأة وغلام صغير يلبسان السواد ويحمل كل منهما كتاب صلوات ضخم مذهب. فأتبعتهما بصري حتى دخلا المنزل. فقال الرجل: وهذه هي السيدة! والغلام الذي معها هو

(١) الأرليزية الفتاة المنسوبة إلى (أرل) إحدى مدن فرنسا الجنوبية. وقد كتب قصتها ألفونس دوديه بهذا الإيجاز ثم جعل منها مسرحية من نوع الميلودرام في ثلاثة فصول وخمسة مناظر

ابنها الأصغر . وهما عائدان من القداس ؛ فإنهما لا ينقطعان عن شهوده كل يوم منذ انتحر ابنها الأكبر . آه ! ياسيدى ! لشد ما لاعهم الحزن وأرمض جوانحهم الألم ! ولقد أصر الأب على أن يرتدى ثياب الميت نهاره وليله ، ولم يستطع أحد أن يحمله على خلعها. ثم حرك الرجل العنان فى يديه وقال لحصانه: شى ! فاهتزت العربة تريدأن تسير، فقلت للسائق : أركبنى معك فإنى أريد استقصاء هــذا الحديث . ومن فوق العربة وعلى جمل الدريس أخذ الرجل يروى لى هذه القصة المحزنة :

كان يسمى جان . وكان فـلاحا فى العشرين من عمره ، بارع الفتوة ، صلب العضل ، حيي الطبع ، طلق المحيا . وكان على حظ عظيم من الجمال والرونق فامتدت إليه عيون النساء . ولـكنه كان فارغ القلب منهن إلا من واحـدة : أرليزية صغيرة رآها مرة فى ميدان (أرل) ترفل فى القطيفة والمخرم ، فشغفت قلبه حبا . وبلغ أبويه الخبر فلم ينظرا أول الأمر إلى هــذه العلاقة نظرة الرضا ؛ لأن الفتاة قد انتشرت لها فى الناس سمعة بكثرة الدلال وقلة الحشمة ؛ ولأن أهلها لم يكونوا من أهل هذه البلاد ولا من ذوى المثالة .

إلا أن جان قد أمضى عزمه على أن يظفر بفتاته مهما يكلفه هذا الظفر ؛ حتى أعلن أنه سيموت إذا لم ينلهـا .

فلم يسع أبويه إلا أن يغضيا على مايقال فى الفتاة وقبلا أن يزوجاه منها بعد الحصاد

وفى مساء يوم من أيام الآحـاد أدبت العائلة مأدبة أشبه بوليمة العرس . نعم لم تحضرها الخطيبة، ولـكنهم تقارعوا على ذكرها وشرفها الـكؤوس نخبا بعد نخب . وإنهم لفى شهوة الطعام ونشوة المدام إذ وقف بالباب رجل يطلب فى صوت مضطرب أن يتحدث إلى السيد إستيف نفسه . فقـام إستيف عن المائدة وخرج يلقاه على مدرجة الطريق . فلما دنا منه قال له الرجـل : « سيدى ! إنك تزوج ابنك من ساقطة خالتها سنتين كاملتين . وما أدعيه سأثبته . إقرأ هذه الرسائل . ولقد كان أبواها يعلمان ما كان بينى وبينها من أمر ، فوعدانى الزواج منها ؛ ولـكنهم أخلفوا الوعد وخاسوا به يوم تقدم ابنك إلى الفتاة . فلاهم ولا هى يريدون اليوم أن يصلنى بهم سبب . ولقد كان الظن ألا تصلح هذه الحسناء لغيرى بعد أن حدث بيننا ما حدث »

فقال السيد إستيف بعد أن سمع من الرجل ما سمع ، وقرأ من الرسائل ما قرأ : حسن ! ألا تدخل فتشرب قدحا من المسكات ؟.

فقال الرجل : شكرا ! إن ما بى من الغم أضعاف ما بى من الظمأ . وانصرف

وعاد الأب إلى مكانه من المائدة ووجهه وصوته لا ينمان على شئ مما يكظمه . واستأنف القوم طعامهم وشرابهم حتى انتهت المأدبة كما بدأت فى سرور وبهجة . فلما تقدم الليل خرج إستيف وابنه إلى الحقول فلبثا فيها طويلا ثم عادا . وكانت الأم لا تزال تنتظرهما على قلق . فلم يكادوا يجتمعون حتى قال رب الأسرة لزوجه وهو يقدم إليها ابنه : عانقيه ياامرأة . إنه بائس !

* * *

لم يجر بعد ذلك ذكر الأرلزية على لسان جان ، ولكن قلبه لا يزال كلفا بها . وقد لج به هذا الكلف منذ أروه إياها وذراعها فى ذراع آخر . إلا أن كبرياءه كانت تأبى عليه أن يبوح بمكنون حبه ، وهذا هو الذى قتله . كان كثيرا ما يقضى أياما بأسرها منعزلا فى ركن من الأركان لا يتكلم ولا يتحرك . وكان فى أيام أخر ترتد حاله إلى الضد ، فيقبل على الأرض حاسرا عن ساقه ويده ، فيعمل ثم يعمل حتى ينجز وحده مالا ينجزه إلا عشرة . فإذا أمسى المساء اتخذ السبيل إلى (أرل) فيمشى قدما حتى يرى فى حمرة الشفق قباب الأجراس الدقيقة صاعدة فى سماء المدينة ؛ فيعود عندئذ أدراجه ولا يذهب إلى أبعد من ذلك .

فلما رآه أهله على هذه الحال ، أليفه الحزن وأنيسه الوحـــدة ، لم يدروا ماذا يصنعون ؛ وأشفقوا عليه أن يصيبه مما يعانيه سوء . ففى ذات عشاء قالت له أمه وهى ترمقه بعين عبرى : « اسمع ياجان ! إذا كنت تريدها على علاتها أنلناك إياها » فأطرق الأب رأسه ، وضرج الخجل وجهه أما الابن فقد أومأ إلى أمه أن لا ، وخرج

ومنذ تلك الليلة غير جان أسلوب حياته كان يتصنع المرح ويتكلف السرور ليطمئن والديه على حاله . وكان إذا أقبل الموسم الذى يسمون فيه العجول والخيول بالسمات المميزة ، أقبل هو أيضا على المرقص يخاصر ، وعلى الحانة يشرب ؛ حتى قال الأب : « الحمد لله ! أبل المريض وسلا العاشق »

ولكن الأم كانت على خلاف زوجها ، توجس فى نفسها خيفة ، وتتوقع لابنها شرا . فتعقبت خطواته ، وراقبت سكناته وحركاته ، وأيقظت لتعقبها ومراقبتها العين الكلوء والقلب الشاهد

وكان جان ينام مع أخيه الأصغر فى غرفة مجاورة لبيت دود القز . فجاءت الأم المسكينة بسريرها فأقامته بجانب هذه الغرفة ، بحجة أن الدود ربما احتاج إليها أثناء الليل !

وبعد قليل أقبل عيد القديس (إلوا)

شيخ أرباب الأسر ، فكان عيده فى العزبة يوم متاع وقصف : كانت صنوف الحاوى تقدم إلى كل إنسان ، ودنان الخمر تسيل فى كل مكان، والصواريخ تتفجر فى الأرض ، والقذائف تفرقع فى السماء ، والمصابيح ذات الألوان تكلل أغصان الشجر ، والهتاف بذكرى القديس تشق أجواز الفضاء ، والرقص الريفى ينزو بالناس نزو الجنون، حتى بلغ الطرب بالابن الأصغر أن يحرق قميصه الجديد ؛ وبدت على جان نفسه دلائل الغبطة فحمل أمه العجوز على أن ترقص ؛ فرقصت المسكينة وهى تبكى من طغيان السرور

وانتصف الليل فأوى كل إلى فراشه . وكان القوم من فرط ما قصفوا وعربدوا محتاجين إلى النوم فناموا . إلا جان فلم تكتحل عينه بنوم ، ولم يطمئن جنبه إلى مضجع . وقد حكى أخوه أنه بات طول الليل ساهدا ينتحب ويتململ

لشد ما كابد المسكين ! لقد قلت لك إن لدغته كانت شديدة

فلما غورت النجوم وأسحر الليل ، سمعت الأم إنسانا يجتاز الغرفة وهو مسرع . فسبق إلى وهمها خاطر فظيع فصاحت :

« جان ! أهو أنت ؟ »

ولكن جان لم يجب . لقد كان وقت أن صاحت على السلم. فهبت الأم فزعة مسرعة وهى تنادى !

« جان ! إلى أين تذهب ؟ »

ولكن جان لم يجب . لقد صعد إلى أعلى البيت فصعدت الأم وراءه وهى تصيح :

« جان ! ولدى ! استحلفك بالله »

ولكن جان لم يجب، وأغلق من ورائه الباب وأحكم رتاجه . فوقفت الأم تتضرع وتقول : « جان ! جانو ! أجبنى ! ماذا تريد أن تصنع ؟ »

وأخذت تتحسس موضع المزلاج بيديها المعروقتين المرتعشتين ؛ ولكن صوتا طرق أذنيها ، فسمر يديها : صوت شباك يفتح، وصوت جسم يسقط . وانتهى على بلاط الفناء كل شىء ! لقد كان يقول المسكين لنفسه : «إنى أحبها حبا غلب على عقلى وغطى على بصرى ، فلا حيلة إلا أن أرحل»

ما أبأس قلوب بنى آدم ! حتى الاحتقار الذى يقتل النفس لم يستطع أن يقتل الحب !

ولما أصبح الصباح واستيقظ أصحاب القريه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون : من الذى يصرخ هذا الصراخ المروع قريبا من دار استيف ؟ وما كان هذا الصارخ الهالع إلا أم جان ارتمت عارية على بلاط الفناء أمام المنضدة الحجرية المغطاة بالندى والدم ، وأخذت تصرخ وتعول وبين ذراعيها ابنها الصريع ! **أحمد حسن الزيات**

وأخيراً اختارت

للأستاذ محمود الخفيف

أشرقت الشمس ورأت مأمونة وهى لا تزال راقدة فوق سطح الدار أشعتها الحمراء فى سعف النخلات القريبات وفى قمة المأذنة البعيدة ، فاستوت جالسة على حصيرتها ، ودلكت بأناملها الدقيقة السمراء عينيها الدعجاوين الجميلتين ، ثم ما لبثت أن نهضت فطوت فراشها ونزلت مسرعة إلى فناء الدار ، ونظرت فلم تجد إلا البقرة والجاموسة ، فأدركت أن زوجها قد خرج بجمله إلى الحقل البعيد . وسمعت سلفتها سكينة تحدث بعلها فى إحدى القاعات وقد تهيأ ليسحب الدابتين إلى حقل قريب وتهيأت هى لتحمل جرتها ، ورأت حماتها العجوز نشطة فى بعض أعمال الدار فبدا على وجهها كثير من الخجل والهم ، ثم أبصرت رب الدار على مصطبة لدى الباب يفتل بعض الحبال لحيته فى استحياء

وعمدت مسرعة إلى إبريق فغسلت وجهها بقليل من الماء ثم مسحته بذيل جلبابها الأبيض وسوت شعرها بكفيها معجلة وشدت عليه بمنديل أخضر جديد ، وارتدت جلبابها الأسود ، ووضعت على نحرها عقدها الكهرمانى الكبير الحبات ، وتطرحت بطرحتها الطويلة السوداء ، وأصلحت حويتها وأثبتتها على رأسها ثم وضعت فوقها جرتها وانتظرت ريثما جاءت سلفتها بجرتها وخرجتا تقصدان ترعة قريبة

وراحت مأمونة تبدى عجبها لسلفتها كيف ظلت نائمة بعد أن استيقظ كل من فى الدار ، وكيف لم تصح حين صحا زوجها ، ونهض من جوارها وكيف لم يوقظها ، وأخذت تصف لها كيف ظلت مؤرقة حتى ظهرت نجمة الفجر . ولكن حماتها لن تقبل منها عذرا ومتى سمعت منها إلى معذرة قبل ؟

وكانت سكينة على الرغم من طيبة قلبها لا تخلو من خبث ، فنظرت إلى مأمونة وهى تضحك ضحكة ذات معنى ، وأدركت مأمونة ما تريد فمشت حمرة خفيفة فى وجهها الأبلج الجميل واختلجت عيناها المتألقتان ورفت أهدابهما الطويلة وهى تحدج سكينة حدج الملامة

وقالت سكينة ضاحكة « إنك حريصة على رؤيته وما يهمك غضب حماتك . وإنك لتحلمين به حتى تبدو نجمة الفجر .. اطمأنى فستدركينه فإنه لن يعود من مشيته والله حتى يراك ؛ وستجدينه عند الترعة . وها هى ذى طراوة الصبح تسرى فى الحقول على

الرغم من شمس نؤوبة وما يعشى سيدى والله كل صباح فى إجازته هذه إلا ليراك »

وحبست مأمونة فى جهد ابتسامة حلوة فى ثغرها الدقيق الذى يبدو كأنه ثغر طفلة وصاحت بسلغتها قائلة « سكينة ... ماذا حدث بعقلك ؟ » ثم تظاهرت بالغضب على الرغم مما بدا من أمارات الرضا فى محياها الأسمر المتورد القسيم وعادت تقول « مالى ولسيدك هذا ؟ وهل يفكر فى أمثالنا ؟ وأين نحن منه ؟ »

واقتربتا من الترعة فأبصرتاه مقبلا ، وجعلت مأمونة من طرحتها نقابا لوجهها تخفيه عن سكينة ، وغطت صدرها بذيل الطرحة وإن الاضطراب ليملأ جسمها كله وإن سكينة لتسمع دقات قلبها . وسر بهما فأثبت نظرة فى وجه مأمونة وفى قوامها المرهف وصدرها الناهد ولكنها لم ترفع إليه عينيها . وحيا سكينة كما يفعل كلما رآها قائلا « صباح الخير يا سكينة » وردت عليه فى اهتمام شديد بقولها « صبحك الله بالخير يا سيدى ... الطريق كله منور »

وقالت سكينة لسلغتها وهى تلمح فى وجهها : فرحة وفى عينيها زهوا وفى مشيتها تخلعا «إنه يحبك أنت يامأمونة ... والله إنه يحبك ... وهل يخفى الحب ؟ لقد كان ينظر إليك نظرة لو رأيتها ... »

وضحكت مأمونة ولكنها مالبثت أن تكلفت الغضب وصاحت بسلغتها ثانية بين العبوس والضحك قائلة « سكينة ! ماذا دهى عقلك هذا الصباح ؟ »

* * *

رآها أول مارآها فجأة، وكان خارجا من داره فى طرف القرية ذات صباح من أصباح بشنس ، ولم يمض إلا أيام قلائل من إجازته الصيفية التى يقضيها كل عام فى القرية لايكاد يبرحها حتى تبدأ الدراسة . ونظر فإذا هو حيال قروية شابة يأخذ العين جمالها الرائع، فوجهها المتورد فى سمرة، وعيناها الواسعتان السوداوان، وأنفها المستوى الدقيق ، وفمها الذى لا يزيد عن استدارة الخاتم ، وخدها الأبلج الأسيل، ومفرق شعرها الفاحم تحت منديلها الأخضر ، وعقدها الكهرمانى الذى يدور بنحرها المصقول، وقوامها الأهيف الطويل فى غير إفراط، وصدرها الناهد ، كل أولئك قد ائتلف فى صورة من الحسن عجيبة . وأثبت فى وجهها عينيه وفى نظراته الإعجاب والعجب ، ونظرت هى كذلك إليه نظرة جريئة لم تستردها إلا بعد لحظة . وأدرك أنها تفطنت إلى إعجابه بها فامتلأ بهجة . وأحس أنه قرأ فى وجهها ارتياحا عظيما لما تفطنت إليه ، فلقد كانت تنظر إليه وكأنما تشعر أنها اهتدت إلى من يدرك جمالها ويقدره قدره ...

وانقضى اليوم كله ، ولم تزل صورة

تلك القروية ملء خاطره ، وإنه لمرح طيلة نهاره يرى البهجة فى كل شىء ويحس المتعة فى كل حديث وإنه ليرد ذلك فيما يحس إلى ذلك الجمال الذى طالعه به الصباح

وكان خارجا من امتحانه مكدودا ، لم تبق له إلا سنة واحدة فى كليته ، وكان يحدث نفسه أن يستمتع بإجازته هذه ما وسعه الاستمتاع ، فلن تكون له بعد تخرجه إجازة طويلة ، وها هو ذا يفتتح إجازته بما يلقى السحر فى خاطره ويشيع البهجة فى نفسه ...

وكان يثلج فؤاده حديث نفسه إليه أنه سوف يعرف عما قريب من هى ، وإن كان ليعجب كيف لم يرها قبل ذلك . على أنه يدرك من عقدها الكهرمانى، وثوبها الأسود الشبيه بالحرير، وخلخالها اللامع، وحذائها الجديد، أنها عروس فتلك فى القرية أمارات لا تخطىء ، وأكبر الظن أنها تزوجت شابا فى الحارة التى تقع غير بعيد من بيت عمه العمدة وبيوت أسرته

ورآها فى صباح اليوم التالى تحمل جرتها إلى الترعة فى سرب من الصبايا ، وكان جالسا أمام داره يترقب فى قلق وشوق ، ونظرت إليه واختلجت شفتاها بابتسامة خفيفة ، ولكنها استردت نظرتها فى سرعة مخافة من حولها ، وقرأ فى وجهها أنها تحرص على أن تراه وأن يراها ، وقرأت مثل ذلك فى وجهه . ولم يلبث أن أحس الفتى بعد أيام إحساسا عجيبا فإنه ليمتلىء ضيقا ونكدا إذا مر يوم فلم يرها فيه ، وإنه لا يزال فى ضيقه حتى يراها ، ويرى من بعد ابتسامتها التى تضىء وجهها حين تقع عيناها عليه والتى تحبسها إذا اقتربت منه ، فإذا الدنيا كلها باسمة حوله . ثم إنه بات يعجبه منها شىء آخر يضاف إلى جمالها ، ذلك هو ما يحسه من رزانتها واحتشامها ، وحسن أدبها إذ تحيي صاحباتها أو تتحدث إلى النسوة. وحسن ذوقها فى اختيار زينتها حتى لتبدو وهى القروية الساذجة وكأنها ذات ثقافة

وسرعان ما عرف اسمها واسم زوجها وأسرته ، ولشد ما آلمه وكدره أن تزف مثلها إلى عطية ذلك القصير الأعشى الذى لا يعجب فى هيئة ولا فى هندام وإن كان أبوه ميسورا بعض اليسر ، والذى لا يعرف إلا حقله وداره فيخرج أكثر الأيام قبل شروق الشمس فلا يعود إلى داره إلا بعد غروبها مكدودا مصفارا يكاد يسقط من الإعياء

* * *

ملأت مأمونة وسكينة جرتيهما وجلستا على حافة الترعة تنتظران من يعينهما على حملهما . وقالت سكينة « اسمعى يا مأمونة ! إن سيدى حسين يريد أن يحدثك ... وأنا

موضع سرك و ... » والتفتت إليها مأمونة التفاتة سريعة وقالت وفى وجهها صفرة وفى صوتها تهدج وقد دقت صدرها بكفها : « سكينة ... أنت سلفتى وما أسأت إليك قط وإنى أحبك وأحب أولادك ، فلم نسيئين إلى ؟ ماذا تعنين بهذا ؟ أنا أحب زوجى ... هذا ما قسم الله لى ، وليس بعزيز على الله أن أصبح أما كما أنك أم، ورجائى فى الله كبير ... لم تطيعين حماتك فتتجسسى على ؟ أنا أعرف أنها هى التى دفعتك ، أما زوجى فهو مسكين لا يعرف إلا لقمته وفأسه .. حرام عليك يا سكينة..» وتندت عينا مأمونة ومسحت دموعها بذيل طرحتها

فقالت سكينة مضطربة « أنا يامأمونة أتجسس عليك ؟ والله ما كلمتنى حماتك فى شئ ولا تدرى شيئا ... والله إن سيدى حسين رجل طيب جدا ، سيرته مثل المسك بخلاف أبناء أعمامه جميعا . وما أردت إلا أن حديثه معك لن يضرك شيئا »

وجاءت امرأتان فأعانتهما على حمل جرتيهما ، فسارتا صوب القرية صامتتين . ولما مرتا ببيت العمدة ، وبيوت أسرته ، أسرعت مأمونة مشيحة بوجهها عن تلك الدور لترى سلفتها أنها لا تحب أن ترى أحدا

* * *

أهو الحب عاد يخفق به قلبه ولم يشف من جراحات له بعد ؟ أهو اهتزاز نفسه للجمال فحسب كما تهتز لمطلع الشمس وغروبها وإشراقة الفجر وطلعة القمر ؟ ذلك ما كان يهجس فى خاطر حسين ذات صباح وهو على كرسيه أمام بيته منكدر النفس فقد مرت به مأمونة فى سرب من صويحباتها ولم تنظر إليه وكان فى وجهها عبوس أقرب إلى أن يكون حزنا . وإنه ليسخر من نفسه أحيانا إذا خلا إليها ، فإذا كان مايحسه فى أعماق نفسه هو الحب ، فما غايته من حب فتاة قروية هى قبل كل شئ زوجة ؟ كلا ... ليس مايحسبه إلا الإعجاب بالجمال ملك عليه نفسه وحرك قلبه الشاعر . ولكن ما باله تتكدر نفسه ويظلم نهاره إذا غابت عنه يوما أو يومين ؟ وما بال قلبه يهفو إلى نظرة من نظراتها ؟ بل ما باله اليوم ضائقا بنفسه لأنها مرت به ولم تنظر إليه ؟

وقطعت عليه خواطره سكينة حين رفع رأسه فرآها أمامه . لقد جاءت تبيعه بعض أزواج من الأرانب والحمام ، وكان اليوم يوم سوق القرية ، وإن وجهها ليبدى ما تخفيه فى نفسها ، فسألها باسما « أهذه أرانبك أنت وحماماتك ؟ » فأجابت من فورها بل أرانب مأمونة وحماماتها ولى بعضها ؛ تبيعها لخلاف بينها وبين حماتها على إطعامها ، وهى تريد ثمنها لتزور السيد البدوى وتضع شيئا من المال فى صندوقه ... ثم إن زوجها يطلب منها المال ليشترى الشاى والعسل فليس

يعطيه أبوه شيئاً على كثرة ماله ولا يعطى زوجى حسنا ولكن زوجى لا يرهقنى

فقال باسما : أتعلم أنك تبيعينها لى ؟

فأجابت فى جد : لا والله ياسيدى .

وأنا لاأستطيع أن أفترى الكذب عليك

فسألها ولم لم تذهب بها إلى السوق ؟

قالت : طلبت إلى أن أفعل ذلك … فإنها … إنها مهمومة تبكى … لقد شتمها زوجها وشتمتها حماتها ، وما خرجت لتملأ جرتها هذا الصباح إلا مكرهة

وبدا على وجهه الألم الشديد والرثاء والحنق على حماتها وزوجها ، وأغرى ذلك سكينة بأن تثرثر لتستزيد عطفه ، فراحت تصف له كيف تكرهها حماتها لأنها لم تحمل، وكيف تتهمها دائما أن لا هم لها إلا أن تتزين لتعجب الرجال، وأن ذلك يشغلها عن أعمال الدار . وكيف انتهرها زوجها بالأمس وهم بضربها حين قالت له إنها لا تكاد تراه فى النهار، وما أسرع مايلفه النوم فى الليل، وإنه يرهقها بطلب المال وهى لا تملك سوى ماتربى من طيور قليلة وأرانب يموت أكثرها أحيانا …

وقاطعها حسين قائلا فى كثيرمن الغيظ « أيكون مثل ذلك القصير الأعشى زوجا لأجمل فتاة فى القرية ؟ » وأحب أن يداعب سكينة فليس بينه وبينها كلفة فقد كانت خادمة فى بيته ولا يزال أبوها وأمها من خدمهم، فقال لها «أعجب أنك لاتغارين منها ياسكينة ! » وكأنما أراد بذلك أن يستزيدها من أنباء سلفتها ، فقالت سكينة « وهبنى الله البنين ووهبها الجمال ؛ ولكم تتمنى المسكينة الولد ياسيدى … ولكم تبكى حظها ، وأنا أحبها والله لأنها طيبة هادئة لايكاد يسمع لها فى الدار صوت ، ولأنها تحب أولادى ولا تبخل عليهم بشئ وستزور السيد البدوى وسيدى عبد العال وإن شاء الله يجود عليها ربنا بالولد »

وقال حسين ضاحكا: «على كل حال ما كانت مثل هذه لذلك القصير الأحمق الذى يستوى عنده الغزالة والقردة »

وضحكت سكينة قائلة « والله ياسيدى كلامك حق. ولكم يغيظها منه أنه لايفطن منها إلى أى معنى ممايفطن إليه الرجال، مع أنها إذا نزلت السوق لا يبقى شاب أورجل من بلدنا أو من البلاد الأخرى إلا ويكاد يأكلها بعينيه … إنها وسط مئات النساء والصبايا فى زحمة السوق تجذب الأنظار فلا تقع إلا عليها »

ودخلت سكينة بيته بما تحمل من أرانب وحمائم ، وخرجت بعد حين فسألته فى جرأة: « ألا تتمشى الليلة بعد المغرب ؟ سترانا عائدتين فسنملأ جرتينا هذا المساء من الترعة تحت شجرة الصفصاف عند رأس غيطنا القريب »

ومشت وهى تعد النقود فى يدها ، ورأى وهى منه على خطوات الدهشة فى وجهها من سخائه والفرحة بنصيبها من الثمن وطابت نفسه بأن يمين مأمونة على زيارة السيد البدوى ، وأن يذهب عنها بعض الهم

* * *

قضى نهاره يعد الساعات ، وإنه ليسأل نفسه أتعلم مأمونة بهذا الموعد أم أنه تدبير سكينة وحدها ؟ وإنه ليسأل نفسه كذلك كما سألها ماهذا الذى يحسه نحو تلك القروية الساذجة ؟ وإن لم يكن هذا هو الحب فماذا يكون الحب إذن ؟ ويعود فيقول لنفسه وماغايته من هذا الحب ؟ أذلك الذى يحسه هو سحر الجمال ليس غير ؟ ولكن أيستطيع أن ينصرف عن هذه القروية فلا يفكر فيها ؟ إن هذا السؤال وحده يكدر خاطره وسرعان ماتتمثل له عيناها الدعجاوان ولون وجهها الذى مارأى قط مثل حمرته وسمرته ، ونظرتها التى كان يؤمن أنها لو تمكنت من صخر لاهتز الصخر ... سرعان مايتمثل له ذلك فيهفو إليها قلبه ويملأ نفسه السحر

وتسلل وحده إلى الحقول ولم يبق من الشمس إلا حمرة فى أطراف السعف . ومشى يحيط به الفضاء الذى تحبه فى الريف نفسه الشاعرة، فالأرض خالية على مد البصر إلا من بعض حقول القطن هنا وهناك ؛ وأنفاس المساء تسرى رخية من بين أشجار الصفصاف والتوت والسنط والجميز على جوانب الترع والغدران ، والطرق تكاد تكون خالية إلا من بعض الصبايا عائدات بجرارهن من الترعة البعيدة

وتجاوز فى مسيره شجرة الصفصاف المقصودة وعيناه على الأفق الشرقى مستغرقتان فى خضرة الشجر وحمرة الشفق ، ثم استدار نحو مغرب الشمس ، فأبصر على بعد فتاتين تحملان جرتيهما ، وسرعان ماعرف مأمونة من مشيتها ثم عرف سكينة ..

وتوارى غير بعيد خلف شجرة ، حتى ملأتا جرتيهما تحت الصفصافة ، ثم أقبل كأنه عائد من سير طويل وأبصر مأمونة وكانت لا تزال على حجر فى الماء تكشف عن ساقيها ، وظهرها إلى الطريق؛ ورأته سكينة فضحكت ، فقال «مساء الخير ياسكينة» وقبل أن تجيب التفت إلى مأمونة فرأى دهشة المفاجأة فى وجهها والاضطراب فى جسمها ، ولكنه تبين فى ذلك الوجه المصفار مع ذلك فرحة، ورأى فى عينيها رضا وسكنا، وأحس فى نظرتها شيئا من الخجل والشكر فتذكر ماباعته إياه سكينة ، ثم مالبثت أن عادت لوجهها حمرته فكان وزرقة الماء من تحته كقطعة على الأفق من حمرة الشفق

وقال حسين : وهو يخفى اضطرابه : « من معك ياسكينة ؟ » وابتسمت مأمونة فإنه يراها ، فقالت سكينة « هذه خادمتك

مأمونة » فقال فى هدوء « لاتقولى خادمتك فمن مثلها فى القرية جمالا وذوقا ؟ »

واشتدت الحمرة فى وجه مأمونة وهى على الحجر فى الماء ، والتمعت عيناها فى نشوة وزهو ، ثم أشاحت بوجهها نحو الماء فى خفرفقال « مساء الخيريامأمونة » فردت فى صوت خافت ونفسها يتقطع « مساء الخير والسعادة ياسيدى حسين »

ووقف لحظة وملء نفسه البهجة لايدرى ماذا يقول ، ثم تظاهر أن فى كفيه بعض الغبار وأنه يريد أن يغسلهما ، وقالت سكينة « هاتى بعض الماء بكفيك يامأمونة » واقترب من الماء وأخذت مأمونة تغترف منه بكفيها وتصب على يديه (مرتعشة الأنامل) وهو يتأمل فى جبينها الصقيل وعينيها النجلاوين ويرى من قرب أنفها السوى وفمها الرقيق ، وهى متجهة ببصرها إلى الماء لا تكاد تنظر حتى إلى يديه

وابتعدت سكينة متظاهرة أنها تجمع بعض أغصان الصفصاف تريد بها حوتيها ، فأخرج من جيبه عقدا ودسه فى جيب مأمونة فى مثل لمحة الطرف ، وما كادت تلتفت حتى رأته فى وسط الطريق ...

وخرجت من الماء مرتبكة المفاصل مرتعشة الأطراف ، ولكن فى أساريرها فرحة ، وأعانت سلفتها على حمل جرتها ، وضحكت سكينة قائلة « ومن يعينك على حمل جرتك ؟ لم لم تصبرى حتى يأتى من يعيننا معا ؟ » وما كان أشد دهشتهما حين تقدم حسين فقال لمأمونة « لقد صببت الماء على يدى وسأعينك بنفسى على حمل جرتك »

وتراجعت مأمونة مأخوذة وفى محياها العجب والرضا قائلة « لا . . لا . . ياسيدى وأنا قدر المقام ؟ أنا خادمتك ياسيدى » ولكنه أصر فأطاعت ، فتناول الجرة بيديه وطأطأت رأسها قليلا ومدت يديها المرتعشتين فأعانها على حملها وهو يحس أنفاسها على صفحة وجهه وسارت وسلفتها وملء نفسها الزهو والرضا

***

رآها فى الصباح فابتسمت له شاكرة ، ورأى فى وجهها وعينيها شيئا آخر غير الشكر ، شيئا يحسه ولا يدريه ، شيئا لايكون إلا بين قلبين

وازدادت بينه وبينها الألفة ، فإذا كانت وحدها حياها وحيته ، وإذا كانت مع سكينة حياها معا ؛ ولكنه لايرى عقده فى جيدها أبدا

وعلم من سكينة أنها تخاف أن تلبسه ، فسلسلته ومشبكه من الذهب وحباته مما ليس للقرى به عهد ، وكان قد أعده هدية لقريبة له. وماذا عسى أن تقول لزوجها وحماتها إن سألاها عنه ؟

ورأت عقدها معطلا لايعجب به أحد،

كما كان جمالها معطلا قبل أن يعجب به حسين؛ ولكنها حريصة عليه، تضمه حول جيدها لحظات إذا خلت إلى نفسها وتنظر إليه مليا في المرآة ثم تعود فتخفيه

وعادت من زيارة السيد البدوى فقد ذهبت مع روجها وحماتها ذات يوم فقضوا سحابة النهار. وأنبأته سكينة أنها ألقت أكثر نقودها في الصندوق وأنها تصدقت ببعضها وأنها مطمئنة إلى أن الله سوف يهب لها غلاما

وأصبحت تحرص مأمونة على أن ترى صاحبها، فهى تمر ببيته مرات فى عمل وفى غير عمل. وصارت تخرج كل صباح بجرتها وحدها أو مع سكينة لتلقاه فتبدؤه بتحيتها وتسمعه وقلبها يخفق يحييها بأحسن منها

وصار إذا غاب عنها يوما أو يومين يرى عند التقائهما لهفة فى وجهها وشوقا فى تحيتها. ورآها كلما مرت به فى سرب من صواحبها ترفع صوتها لتسمعه، وتضحك مزهوة وتتمايل تحت جرتها الثقيلة كأنها تتراقص، وتمضى خفيفة مرحة لأنها تعجبه ولأنه يفطن إلى ما تفعل ويعجب به

وجدت آخر الأمر من يعجب إعجابا صادقا يهز نفسها من أعماقها بجمالها الذى طالما تحسرت من قبل أن لم تكن تجد من يعرفه ويقدره. وأحست أنها اليوم تعيش عيشا ماعرفته من قبل إلا فى الحلم ...

وأحست صاحباتها أنها اليوم مزهوة دائما مرحة أبدا، ثم مالبثت عيونهن الماكرة أن تبينت أن ماينها وبين حسين هو مايكون بين حبيبين فإنه لاينظر فيهن إلا إليها، وإنهن ليرين فى وجهه الاهتمام واللهفة، ويرين فى وجهها مزيجا عجيبا من الفرح والاضطراب تحاول أن تخفيهما فى جهد.

وقالت إحداهن وتدعى حميدة ذات مرة فى همس وخوف وحقد تعرض بها وتشير إلى أسرته: إنهم يحسنون الاصطياد ثم يتركون فرائسهم بعد ذلك نهبا للعـــار والجوع.

ونظرت إليها مأمونة متكرهة غاضبة يكاد يطفر الدمع من عينيها وكادت تصرخ فيها قائلة « إلا حسين » ؛ ولكنها كظمت غيظها وإن أحست إحساسا مبهما بنذير لها فى هذه الكلمات! على أن النذر كلها لاتلبث اليوم أن تتبدد فى مباهج ذلك الحلم الذى يملأ حياتها

وغدت لاتعبأ بشىء مما يتهامس به النسوة والصبايا، وأصبح يحييها حسين وهى معهن، وكثيرا مايجعلنها فى مقدمتهن طوعا أو كرها، وهى تزهى عليهن بما تريهن من دلائل حبه وإعجابه وتدل إدلالا يزيدها سحرا وفتنة

* * *

بات يحصى ماتصرم من أيام إجازته، وكان يزعجه انقضاء الأيام فى سرعة ماعرف مثلها من قبل. وسيغادر قريته متى انقضت إجازته مامن ذلك بد. ومع أنه لا تزال له فى

القرية أيام طويلة ، فهو لا يطيق أن يتصور يوم أن يرحل وكأنه وهو الشاعر الذى تتفتح للجمال نفسه ، يرى اليوم من جمال قريته ما لم ير من قبل ، فأسحارها وآصالها ومجاليها وحقولها وبيادرها وكل شىء فيها قد شاع فيه السحر ، وكأن كل فتاة فى قريته حبيبة إلى نفسه منذ عرف مأمونة

وبينما كان على كرسيه ذات مساء أمام داره ، عند مخرج القرية إلى الحقول وقد أخذت أشعة القمر تلألئ رؤوس الشجر والنخل ، وتبدو بيضاء على الجدر الطينية التى تتراءى له على بعد منه ، إذ عاود خاطره ذلك السؤال الذى طالما هجس فى نفسه : ماذا يبتغى من مأمونة ولا يعدو ما بينهما أن تراه ويراها ؟ ويكاد يصدق نفسه أن ما يظنه حبا إنما هو خيال شاعر . وأخذ يبتسم ساخرا من نفسه تارة كما يفعل كل مرة ، ويضيق ضيقا شديدا بهذا الصراع تارة أخرى ، بل إنه ليكاد يعتقد أن ما كان يملأ نفسه من تشوق إليها قد أخذ يفتر منذ أن ألفته وألفها ، وراح يتفكر فى هذه الحالة العجيبة من حالات نفسه ، وشعر بشىء من الارتياح لهذا الخاطر فلا ضير أن ينتهى ما بينه وبينها على أية صورة

ويتمثل له قوامها الرشيق ووجهها الجميل وعيناها اللتان ما رأى مثلها قط . ويتخيلها باتئة خازعة فى صمت كأنما عرفت ما يداخل نفسه من تغير ، فينزعج لهذا الخيال ، ويروح يؤكد لها فى خياله أنه لن ينساها مهما بعد عن القرية ، وأنه سيبقى وفيا لها ما عاش ، وحسبه أن يراها فى كل إجازة . . وترتاح لهذا الخيال نفسه ويزايلها انقباضها شيئا فشيئا . ثم يرفع رأسه فإذا هو أمام حقيقة لاخيال ! فها هى ذى مأمونة فوق رأسها مقطف تمر به صامتة لا تلتفت إليه ! فيتألم ويعجب ، ثم يلتفت يمنة ويسرة فلا يرى غيرها ، فيتبعها مسرعا ويناديها فى صوت خافت ، فتقف تحت نخلة ملتفتة إليه ، ويقبل عليها ولما يفق من دهشته ، ويمد إليها يده مسلما فتسند مقطفها بيسراها وتميل على يده تحاول أن تلثمها ، فيشدها مسرعا ويقول وفى صوته اضطراب وفى بدنه كله نشوة

هكذا تمرين بى ولا تتكلمين ؟

فقالت فى همس خشيت أن يكون أحد فى مدخل البيت

فسألها : إلى أين تذهبين وحدك فى هذه الساعة ؟

فقالت : إلى حقلنا البعيد أحمل الطعام إلى زوجى وأخيه وأبيه ، وسكينة قادمة ورائى ، وليس فى الحقول ما يخيف والقمر طالع والأرض خالية

فسألها باسما : هل سبقت سلفتك لتكلمينى ؟

وضحكت مأمونة ضحكة حلوة وأسندت

يقطفها بأناملها الرقيقة وهي تنثني في عجب ، وكان نسيم المساء يعبث بجريد النخلة فتتسرب أشعة القمر من خلاله حينا فتظهرها وتحتبس حينا فتسترها . وسمع قلبها يدق واشتدت كذلك دقات قلبه ، ورأى شفتيها تختلجان ، فدنا منها حتى اختلطت أنفاسهما ورأى في وجهها استسلاما ودهشة وكانت متجهة صوب القرية فهمست « ها هي ذي سكينة » فالتفت وقلبه يلعن سلفتها ؛ ورد تحيتها في برود . وحيا مأمونة وعاد إلى كرسيه لا يدرى أفي حلم هو أم في يقظة ! وكانت لا تزال ملء بدنه نشوة عجيبة ما أحس مثلها أبدا . وخبرت نفسه كيف يكون أجمل ما في الحياة أن يحب الإنسان وأن يكون محبوبا ، ورأى كيف تنمحي الفوارق جميعا في الحب بل كيف تمتزج روحان فكأنهما في بدن ، وفنيت هواجسه فلم يعد يتصور حياته خالية من مأمونة

* * *

مر يوم لم يرها فيه ولكم اشتد ضيقه وقلقه . ومر ثان وثالث فأظلم كل شيء حوله . ومر رابع وخامس فلم يعد يستطيع صبرا ، وذهبت به الظنون كل مذهب . أنهاها زوجها عن الخروج ؟ أهي غاضبة من زوجها فهي في دار أبيها ؟ أمريضة هي ؟ وما مرضها ؟ وأين سكينة ؟ حتى هي لم يعد يرى وجهها الأغر مما يزيد مخاوفه وارتيابه . ولم يجد بدا من أن يرسل عشية اليوم الخامس من جاءت بسكينة إلى بيته ، فما كاد يراها حتى اطمأن قلبه فليس في وجهها ما ينذر بخوف وسألها فقالت « إن بركة السيد البدوى وسيدى عبدالعال قد حلت بها ، ففي بطنها ولد إن شاء الله ، وهي راقدة من أيام ، وما يضايقها الآن إلا القيء » وسكتت سكينة لحظة ثم قالت في شيء من التردد « وإن الغم ليزيد أوجاعها والغيظ يبعد النوم عنها وأنا بجانبها دائما أنهاها عن البكاء فلا تكاد تكف عنه »

فسألها : وفيم هذا الغم وقد حلت بها بركة السيد ؟

فأجابت من حماتها ومن زوجها ! فحماتها تتهمها بالتمارض وزوجها يتركها في قاعة مظلمة ولا يخطر بباله أن يسأل عن حالها يوما ؛ فإنه لا يكاد يربط جمله في العشية وقد جاء من عمله ويلقى أمامه العلف ، حتى يصعد إلى السطح فينام إلى الفجر ثم يخرج إلى الغيط

فقال في غيظ : وماذا يعنيها من هذا القرد ؟

فقالت : لقد كان يكرهها لأنها لم تحمل وها هو ذا الولد في بطنها ، وإنه ليحزنها أن يظل معرضا عنها

فقال مفكرا : بلغيها سلامي و ...

فقالت : وشوقك إليها يا سيدى ..

أعرف ذلك وهي والله مشتاقة إليك ... كثيرا ما تذكرك

فقال فى لهجة الآمر : خذى هذا وإياك أن تعلم مأمونة . اشترى لها ما تريد وانتحلى لما معك من مال مصدرا آخر . أفاهمة أنت ؟

فأجابت : حاضر ياسيدى . ربنا يبقيك لنـا . . .

* * *

كان بعد ذلك بأسبـوع على ظهر مهره الأسود فى جلبابه التيلى الأبيض الفضفاض يقصد حقلا من حقول أسرته البعيدة عسى أن ينسى بعض همـه . وكان النهار قد متع واشتد القيظ فزاده ضيقا على ضيقه ··· وكان يحس الوحشة فى كل شئ ، ويعجب أين ذهب ما كان يشيع من سحر فى كل حى وفى كل جماد ! وكانت توسوس له نفسه بما عسى أن يكون فى كلام سكينة من اختلاق حتى ليكاد يجزم أنه ما حجب مأمونة إنما هو سبب غير المرض؛ ولئن لم يكن يدرى ماهو، فهو يوجس منه خيفة ، وراح ينتقل من خاطر إلى خاطر كما ينتقل به مهره من ظل شجرة إلى ظل أخرى

ونظر على بعد وقـد انعطف به مهره فى طريقه فلاحت له الصفصافة الحبيبة ، ورأى عندها فى الحقل عطية وحسنا وأباها ، فخفق قلبه ، وأنعم النظر فتبين هناك نسوة فى ظل الشجرة تحجبهن بعـض الدواب . أترى مأمونة فيهن ؟ واقترب من الشجرة فإذا هى هناك ! وإذا بها تسترد نظرتها إليه فى سرعة وتتجه صوب الترعـة . وألقى إلى الرجال تحيـة الإسلام فاعتدلوا واقفين فى احترام وردوا تحيته ثلاثتهم فى اهتمام وجهر

لقد كانت مريضة حقا ··· ذلك ما رآه فى وجهها وبدنها ؛ ثم أخذ وقد زال اضطرابه ينتبه إلى ما دب فى نفسـه من إحساس بالفرح لرؤيتها بعد هـذه الغيبة ومن شعور بالخوف مما تنم عنه نظرتها

إن فى عينيها نذيرا له ما فى ذلك شك . هذا ما فسر به نظرتها. لقد لمح فى عينيها ألم الاعتذار والأسف ، ومض الألم والحزن. إذن فلينتظر القطيعة وليوطن نفسه على تحملها . وأوشك فى ضيقه أن يرحب بهذه القطيعة ففيها شفاؤه من هذه الحيرة الأليمة . وعاد يسأل نفسه فى حزم ماذا يريد من مأمونة ؟ إن واجبه ألا يخدع نفسه أكثر مما فعل . ما غايته من حبه هذا ؟ أيستطيع أن يمتهن هذا الجمال ؟ إنه إن فعل أبطل سحره ، وتركه سلعـة رخيصة ، وماذا يبقى من روعة الحلم إذا غدا وليس بحلم ؟ قطيعـة ؟ كلا ··· كلا ··· إنه يفزع من مجرد اللفظ . إنه واهم ··· فما رآه فى عينيها إنما هو شكاتها من زوجهـا ومن سقمها ···

* * *

قالت مأمونة تحدث سلفتهـا تحت الصفصافة وهما يطعمان لقيمات من الخبز القديد والمخلل والمش « ما كنت أحب

البقية على صفحة ٧٦

يقظة القدر

لتولستوى

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

إيفان إكسينوف تاجر شاب من تجار مدينة فالديمير ، يعيش فى سعة من العيش ، فهو يملك منزلا ودكاكين . لقد كان إيفان شابا أنيقا يتقد نشاطاً ويتوثب مرحا ، يهوى الغناء ويميل — هونا ما — إلى الشراب ، فإذا أسرف فيه عربد . ولكنه حين تزوج عزف عن الشراب إلا صبابات تستهويه بين الفينة والفينة

وفى ذات صيف عقد إيفان العزم على أن يرود معرض نيزنى يشترى ويبيع . وحين أقبل يودع زوجته بالأسرته بقولها : « لا ترحل اليوم يا إيفان ، لأننى رأيتك الليلة فى حلم مزعج »

فضحك إيفان وهو يقول : « لا عجب إن أنت خشيت أن تنزونى نزوات الطرب حين أغتمر فى نشوة المعرض »

فأجابت الزوجة: لست أدرى مم أخاف؛ ولكننى رأيتك فى منامى تعود من المدينة فتخلع قبعتك فإذا رأسك يشتعل شيباً

فضحك الزوج مرة أخرى وهو يقول : « هذه علامة سعيدة ، سأبيع بضاعتى كلها وأشترى لك من أرباحى بعض الهدايا التى تملأ المعرض » وهنا ودع أسرته وأسرع إلى غايته

وفى منتصف الطريق هبط إيفان فندقا يطلب الراحة والجمام . وهناك لقى صديقا من التجار فجلسا معا يتناولان الشاى ويسمران حينا ، ثم انطلقا — بعد حين — كل إلى فراشه فى حجرتين متجاورتين بينهما باب

وعند الفجر هب إيفان ليستأنف رحلته ، فهو قد تعود أن ينام مبكراً وأن يصحو مبكرا . وبعد أن طوى خمسة وعشرين ميلا هبط فندقا آخر ليغذى رواحله وأخذت الخيول تلتهم العلف على حين انتحى إيفان ناحية من الطنف يعزف على قيثارته

وأخذته النشوة فما أفاق إلا على صوت عربة تقف على حين فجأة لدى باب الفندق . وهبط من العربة ضابط وجنديان . وانطلق الضابط من فوره صوب إيفان يسأله : من هو ، ومن أين أتى ، وإلى أين يذهب ، وكيف قضى الليلة الماضية . وهل قابل تاجراً

آخر ؟ وهل قضيا معا الليلة ؟ وهل رأى كل منهما الآخر صباح اليوم ؟ ثم لماذا غادر إيفان الفندق فى غفلة من الناس، عند طلوع الفجر ؟ ...

لقد كان إيفان يسمع هذا السيل من الأسئلة ويجيب وهو فى حيرة . فهو فى سبيله إلى غاية شريفة لم يقترف ذنبا ولم يجترح إثما

وسأل إيفان الضابط : فيم كل هذا ؟

فأجابه الضابط قائلا : « أنا ضابط بوليس الناحية . وأنا أستجوبك لأن التاجر الذى قضيت معه ليلتك الماضية ألفيناه فى الصباح قتيلا ، ولا بد أن نفتش متاعك .

ثم اندفع الضابط والجنديان إلى متاع الرجل يفتشون ، فعثروا بين متاعه على سكين لوثت بالدم . وصاح الضابط فى وجه إيفان « لمن هذه ؟ » ونظر الرجل إلى السكين الملوثة بالدم وهى تجذب من بين متاعه فارتاع وحاول أن يدفع عن نفسه ؛ ولكن الكلمات ماتت على شفتيه إلا كلمتين « لست أدرى ... لست أدرى ! »

وقاطعه الضابط قائلا : « عند الصباح وجد التاجر قتيلا قد حزت رقبته . وأنت الرجل الوحيد الذى يمكن أن يرتكب الجريمة . لقد كان الباب مغلقا من الداخل ولم يكن هنالك غيركما . وهاهى ذى السكين ملوثة بالدماء بين متاعك، وهاهى ذى أعصابك تخونك . فحدثنى كيف قتلت الرجل ؟ وكم من المال سرقت ؟ »

وراح إيفان يقسم أنه لم يفعل ، وأنه لم ير الرجل منذ مساء الأمس ، وأنه لا يحمل مالا سوى ثمانية آلاف روبل هى كل ماله هو ، وأن السكين ليست له . ولكن صوته كان مضطربا متكسرا ، وكانت صفرة الخوف تعلو وجهه ورعدة الاضطراب تسيطر على أعصابه كما لو كان هو المجرم الحقيقى

وذهبت الصيحات هباء . وأمر الضابط فقيد الرجل وألقى فى العربة ليودع السجن

وجاء يوم المحاكمة فأدين المتهم بقتل التاجر وسرقة عشرين ألف روبل كانت معه ، فحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة وجلد حتى دمى جلده ، وأرسل إلى سيبيريا ليقضى مابقى من عمره فى العذاب المهين

وذهبت الزوجة إلى زوجها المسكين تحمل الأسى واليأس فى صدرها وتحمل على كتفيها أطفالا صغارا لم تتفتح عين واحد منهم — بعد — على الحياة . ورأت زوجها يرسف فى الأغلال الثقال وقد تسربل لباس السجن ، تضمه قضبان السجن ليكون لصا بين لصوص ، وليكون مجرما بين مجرمين ... رأته على هذه الحال فاستولى عليها الهلع فسقطت فاقدة الوعى فما أفاقت إلا بعد

لأى . وجلست الزوجة إلى زوجها وقد عصف بها الحزن والكمد تسأله : « ماذا عسى أن نفعل ؟ » قال : « يجب أن ملتمس العفو من القيصر ، فهو لن يدع بريئاً يهلك ظلم عسير » قالت الزوجة : « قد فعلت ولكن التماسى لم ينل القبول » فأطرق الرجل فى يأس واستمرت الزوجة تقول : « لعلك تذكر حديثى ساعة الوداع ، لقد حذرتك من السفر فى ذلك اليوم ... ولكن حدثنى أنا زوجتك المخلصة الوفية ... خبرنى الخبر الصحيح ! قل لى أفعلت ؟ »

وصاح الرجل من أعماق قلبه « حتى أنت ... حتى أنت يتسرب الشك إلى نفسك » ثم غطى وجهه بكلتا يديه وانخرط فى البكاء طويلا . ولكن الجنود لم يمهلوا الأسرة لتستمتع باللقاء طويلا فأمروا الزوجة والأطفال بالانصراف فخرجوا والرجل المسكين يودعهم الوداع الأخير

واستطاع إيفان بعد حين أن يملك نفسه وأن يسيطر على أعصابه ، فتذكر حديث زوجته وراح يناجى نفسه « إنه ليبدو لى أن الله وحده هو الذى يطلع على خائنة الأنفس ، فإليه وحده يجب أن نرفع الأكف بالدعاء ومنه وحده يجب أن نلتمس الرحمة » وهكذا فقد إيفان كل أمل فى الإنسان وأخذ يصلى لله وحده

ومضت ست وعشرون سنة فى العذاب المهين ... مضت السنون الطوال فأحالت الرجل الشاب إلى رجل آخر شاب شعره واسترسلت لحيته وانحنى ظهره وران العبوس على وجهه . يمشى فى بطء ويمسك عن الكلام فلا يتكلم إلا نادراً . لا تنفرج شفتاه — أبداً — عن ابتسامة ؛ وهو بعد يقضى وقته كله يصلى لله وحده

وفى السجن تعلم إيفان صناعة الأحذية ، فهى تدر عليه قليلا من الربح يعينه على قضاء حاجاته . ومما ربح من صنعته اشترى كتاب « حياة القديسين » وراح يستظهر صفحات منه كلما وجد الضوء فى السجن المظلم . وكان يذهب أيام الآحاد إلى كنيسة السجن يقرأ لرفاقه الدروس ويرتل الأناشيد بصوت فيه النغم الموسيقى الأخاذ

ومضت الأيام فإذا إدارة السجن تكشف عن خلال كريمة اتصف بها إيفان ، فهى ترى فيه الدعة واللطف والاستقامة والدين ، وإذا رفاقه يحسون باحترامه ويشعرون بقدرته فيلقبونه مرة « بالجد » ومرة « بالقديس » ثم اتخذوه محاميا يدافع عنهم بالحق وقاضيا يحكم بينهم بالعدل

وامتنعت عن إيفان أخبار أسرته — زمانا — فما عاد يسمع عنهم شيئا

وفى ذات صباح أقبلت ثلة من المذنبين

إلى السجن ، وتجمع السجناء زمراً والتف القدامى منهم حول الحديثين يسألونهم ويتقصون الأخبار ، عل واحداً يسمع شيئا عن أهله وأسرته

وجلس إيفان فى ذلة وانكسار يتسمع إلى حديث رجل طوال متكتل العضل قوى البنية قد شارف على الستين من عمره وقد استرسلت لحيته على صدره ... جلس إيفان يتسمع إلى قصة الرجل وهو يحكيها يقول : « يا رفاق ! إنى لم أفعل شيئا سوى أننى وجدت حصانا شد إلى عربة ففككت رباطه وركبته لأبلغ المنزل فى سرعة فقبض على واتهمت بالسرقة . ولما سئلت قلت : لقد أردت أن أبلغ المنزل فى سرعة ثم أطلق الحصان فيعود إلى حيث كان . هذا إلى أن صاحب الحصان صديق حميم . ولكنهم لم يسمعوا لحديثى فجئت إلى هنا فى غير ذنب . وفى الحق لقد ارتكبت فى شبابى جرما كان جزاؤه أن أساق إلى هذا السجن ، ولكننى أفلت من العدالة ..

فقال له واحد « ومن أين جئت ؟ »

قال الرجل « جئت من فالديمير فأنا من هناك وهى بلدى . إن اسمى ماكار وهم يسموننى سيميونيتش »

ورفع إيفان رأسه لدى سماع هذه الجملة وهو يقول « من فالديمير ؟ خبرنى إذن يا سيميونيتش هل تعرف أسرة أكسينوف التاجر ، ألا يزالون أحياء ؟ »

وقال الرجل متعجبا « أعرفهم ؟ وكيف لا ؟ إننى أعرف الكثير عنهم . . إنهم أغنياء ولكن عائلهم هنا فى سيبيريا قد أودع السجن . أما أنت يا جد فكيف جئت إلى هنا؟ »

ولم يشأ إيفان أن يتحدث عن نفسه ؛ ولكنه أرسل من بين التنهدات العميقة كلمات متقطعة « إن ذنبى قذف بى إلى السجن لأعيش فيه ستا وعشرين سنة »

فقال سيمونيتش « أى ذنب اقترفت ؟ »

فأجاب إيفان فى أسى « لا بأس فإنى — ولا ريب — أستحق كل ما قاسيت » ثم سكت . ولكن رفاقه أخذوا يقصون على الوافد الجديد قصة إيفان كلها وهو يسمع فى دهشة وينظر إلى إيفان فى عجب ثم قال « عجيب ، عجيب جدا ! ولكن كيف أصبحت شيخا هكذا ؟ »

وعجب الرفاق من كلمات سيميونيتش وتحلقوا حوله يمطرونه بوابل من الأسئلة يريدون أن يستطلعوا جلية الخبر ولكنه لم يجب إلا بقوله « إنه عجيب — يا رفاق — أن نتلاقى هنا »

ورنت الكلمات فى أذنى إيفان توحى إليه بأن هذا الرجل يعرف سر مقتل التاجر فقال له « لعلك سمعت يا سيميونيتش عن

مقتل التاجر ! »

فقال له « نعم فإن الشائعات قد جابت الآفاق ، ولكن هذا شيء انطوى منذ زمان وطمست الأيام آثاره فنسيته الذاكرة »

فقال له إيفان « ولكن لعلك سمعت عن القاتل »

فضحك سيميونيتش وهو يجيب « لا شك أنه الرجل الذى وجدت السكين بين متاعه . وإذا كانت السكين قد دست بين متاعك فالذى فعل برىء حتى يدان . ولكن كيف يستطيع رجل أن يدس سكينا فى حقيبتك وهى تحت رأسك ثم لا تستيقظ »

وسمع إيفان كلمات الرجل فأيقن أن هذا الرجل هو القاتل الحقيقى . وصدمته الحقيقة فانطوى على نفسه طول الليل يجتر همومه وبين عينيه أخيلة لا حصر لها تضطرب فلا تستقر : لقد رأى زوجته فى الشباب والجمال والمرح كيوم ودعها لينطلق إلى المعرض ، وسمع كلماتها وضحكاتها ترن فى أذنيه . ورأى طفليه الصغيرين : الكبير فى معطفه الأنيق ، والآخر على صدر أمه تحنو عليه. ثم تراءت له نفسه شابا فى عنفوان الشباب والقوة والنشاط ، يمرح متى شاء ويطرب إذا أراد . ثم مرت الحوادث أمام ناظريه فإذا هو فى شرفة الفندق يعزف على قيثارته ، ثم إذا هو بين يدى البوليس ، ثم أمام المحكمة ثم ... إلى أن انطوت ست وعشرون سنة وهو حبيس هذا السجن البغيض . أفكان كل ذلك فى سبيل هذا المجرم الأثيم سيميونيتش ؟ وثارت ثائرة إيفان تدفعه إلى أن ينطلق إلى هذا الوغد ينتقم منه شر انتقام ، ولكنه كتم ثورته فى نفسه وراح يردد أدعيته طول الليل . غير أن الأدعية لم تكن فى هذه المرة قادرة على أن تبلغ شغاف قلبه فتبعث فيه الهدوء والراحة . وفى أثناء النهار كان إيفان يعرض عن غريمه فلا يراه ولا يجلس إليه ولا يحدثه

ومضى أسبوع وإيفان لا ينام الليل ولا يقر قراره بالنهار

وفى ذات ليلة ذهب إيفان يجول فى أنحاء السجن فرأى فوهة خندق قد حفر تحت أحد الرفوف التى ينام عليها السجناء فوقف برهة يستطلع الخبر ، فإذا سيميونيتش يقفز من داخل الخندق وينظر إلى إيفان فى رعب . وحاول إيفان أن يسير فى سبيله ولكن الرجل أمسك به يحدثه فى فزع حديث الحفرة وحديث الأمل فى الهرب من السجن وهو يقول : « لا بد أن تحفظ السر فى نفسك فستتمكن أنت أيضا من الهرب ؛ فإذا أفشيت السر فإنهم سيجلدوننى حتى أموت ولكنى سأقتلك أنت أولا »

فقال إيفان وثورة الغيظ تسرى فى عروقه « أما أنا فلا أبتغى الهرب ، وأما أنت فلست فى حاجة إلى قتلى لأنك قتلتنى منذ زمان طويل . وسواء أحفظت السر أم أفشيته فإن إرادة الله نافذة حتما »

وفى اليوم الثانى عثر الجند على موضع الخندق ، وجاء الحاكم — حاكم السجن — فى ثورة يستجوب السجناء ليرى أيهم ارتكب هذا الجرم . ولكن واحدا ممن يعرفون كنه الأمر لم يستطع أن يخون سيميونيتش فيكشف عن السر . وفى النهاية توجه الحاكم إلى إيفان وهو يقول « أنت رجل صادق فخبرنى الحق » واختلطت مشاعر الرجل فاهتزت أعصابه وتناهبته عواطف مختلفة وتجاذبته آراء متناقضة تركته لانفعالات شتى فنظر إلى غريمه نظرة خاطفة ثم حدق فى الحاكم وهو يقول : « إننى لا أستطيع أن أتحدث . إن إرادة الله تمنعنى من الكلام ، فافعل بى ماتشاء فأنا بين يديك »

وحاول الحاكم أن يستل من إيفان اعترافا ولكن جهوده ذهبت كلها هباء فلم ينطق بكلمة غير ما قال

وشعر الرجل بأنه أسدى يدا إلى واحد من الناس فاستلقى — أول الليل — على سريره وأخذت سنة من النوم تداعب جفنيه ، وقبل أن يستغرق فى نوم عميق شعر بأن رجلا قد جلس على حين غفلة على سريره ، فاستيقظ ينظر فإذا سيميونيتش يجلس بجواره ، فقال له «والآن ماذا تريد ؟ ماذا جاء بك ؟ » وسكت سيميونيتش فلم ينبس بحرف وهب إيفان من رقاده يزجره قائلا « ماذا تريد ؟ إذهب عنى ! سأنادى الحارس إن لم تذهب حالا ! »

ولكن سيميونيتش أقبل يهمس فى أذنى إيفان فى ضراعة « اعف عنى ، اعف عنى ياإيفان، فإننى أنا الرجل الذى قتل التاجر وخبأ السكين بين متاعك . لقد كنت على عزم أن أقتلك أنت أيضا ولكننى سمعت صوتا خارج الحجرة فخبأت السكين بين متاعك وقفزت من الشباك أطلب الهرب »

وتحير إيفان فما يدرى مايقول . ولكن سيميونيتش هبط من فوق السرير وركع على الأرض وهو يقول « اعف عنى ، اعف عنى يا إيفان ! فسأعترف بكل ما كان وسيخلى سبيلك فتذهب إلى أهلك »

فقال له إيفان « إن من الهين عليك أن تتحدث، ولكننى قد قاسيت من أجلك ستا وعشرين سنة ، فإلى أين أستطيع أن أذهب ؟ لقد ماتت زوجتى ونسينى أولادى فإلى أين أذهب الآن ؟ »

ولكن سيميونيتش لم يرفع رأسه وراح

يريد أن ينساها

للأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله

قضى سواد ليله وهو يعد خفقات قلبه قضاه يعدها ويتدبر معناها تدبر شاب يدرس مهنة الطب ويقف إلى مائدة التشريح ليعمل مشرطه فى جوارح وأعضاء كان يخاف عليها أصحابها هبة النسيم !

وأخذت أفكاره تتضح كلما خطا الليل نحو الأمام خطوة وخطت الحركة فى المدينة نحو الوراء خطوة عكسية حتى لم يعد يسمع جعجعة عربة ولا حفيف سيارة . وكلها يمر من فوق رأسه فتدخل إليه الضوضاء من خلال النوافذ لأنه ساكن فى « بدروم » وحتى الحركة فى الحجرتين الأخريين المكملتين للشقة سكنت ونامت . وأمسى جو « البدروم » مشبعا بالرطوبة أكثر من قبل ، وذلك أيضا لأن الليل خطا خطوة جديدة نحو الصباح

وخفتت الأصوات فى الحجرة الملاصقة التى يسكنها طالبان من طلبة الأزهر ، حمى بينهما وطيس الجدل قبل أن يناما حول مسألة لايدرى طالب الطب أفقهية هى أم نحوية ؟!

وأخذت أفكاره تتضح تحت رواق الليل حتى لكأنه يلمسها لمسا . واستمع من جديد إلى خفقات قلبه فاسترسل معها

يستعطف إيفان قائلا « اعف عنى فإن وقع السوط على جلدى حين جلدونى لم يكن بأقسى من نظراتك إلى ... لقد رحمتنى فلم تتحدث عن جريمتى ، والآن ألتمس أن تعفو عنى ... » ثم أجهش بالبكاء

وسمع إيفان نشيج الرجل فانخرط هو الآخر فى بكاء طويل وهو يقول « يعفو عنك الله ... يعفو عنك الله » وأحس حينذاك أن قلبه قد أصبح طاهرا نقيا لا يحمل ضغنا ولا يحوى حقدا . وأحس أنه لا يريد أن يغادر السجن وتمنى أن تقترب ساعته الأخيرة

وانطلق سيميونيتش إلى الحاكم ليعترف بجرمه القديم . وصدر الأمر بالإفراج عن إيفان . وحين انطلق البشير ... انطلق ليرى الرجل القديس قد أسلم الروح

كامل محمود حبيب

وعاش ، كما نسترسل مع النغم حتى تخال أننا سابح فيه . ثم جعل يسأل نفسه عن عدد خفقاته منذ دبت فيه الحياة حتى جاوز اليوم سن العشرين ، وإلى أى مدى ستدوم هذه الخفقات ؟ وكم من ملايين الملايين سيبلغ عددها يوم الممات ؟ ! يا له من عضو نشط يسهر حتى ونحن نيام ؟ !

ثم أمسك لأنه انتبه إلى دقات ساعته من تحت المخدة وابتسم حين رأى بين الجهازين تشابها عجيبا ... كلاهما يدق ! ! هذا يدق فيجعلنا نحس الوقت لأننا نعيش ، وذاك يدق فيجعلنا نحصى الوقت لنعرف كم نعيش ! ؟

وتخلصت أفكاره من استطرادها الطارئ فعادت إلى ما كانت فيه من قبل . ذكر القلب وخفقات القلب ، فاستحضر صورته كما رآها فى حجرة التشريح ، له أذينان وبطينان ، وأوردة وشرايين ، وأشياء أخرى ... لكنه وثب وثبة كبرى تخرج من دنيا العلوم إلى دنيا العواطف ، وذكر اليوم الحاسم الفعال فى علاقته معها ثم بدأ يستعرض القصة

* * *

كان يريد أن ينساها ولو أن كل شىء يذكره بها . وهذا هو الأسبوع قد دارت دورته وجاء صباح الخميس ...

إذن فهو لم يرها منذ أسبوع . منذ الخميس الماضى بعد أن أمسى المساء فلقيها فى مسكنها . وبعد أن قضى معها فترة من الوقت هبط درجات السلم المظلم الدائر وقد صح عزمه على ألا تطالع عيناه معارف وجهها الحلو مرة أخرى ولو أحرقت أوصاله النار . ولم تكن هى تعلم بأنه اتخذ هذا القرار وإلا كان من الجائز جدا أن تلقى بنفسها من النافذة على مرأى منه حتى تضمن أن يسجى جسدها بيمينه .

ومر الأسبوع كالحا ثقيلا كان فيه أشبه بمن يعيش فى دوامة، لكنه كان مصرا على ألا يرجع خطوة واحدة إلى الوراء لاعتبارات شتى أهم ما فيها أنه يريد أن يضع نهاية لهذا اللون من الحب ، وأنه جعل رجولته فى كفة وجعل السلوان فى كفة أخرى ، وأنه أراد أن يضع رجولته كذلك فى بوتقة تجربة عالية الحرارة ليستيقن من أنها ستثبت على الصهر

وهكذا مر الأسبوع . وخرج فى صباح يوم الخميس آخذا سمته إلى الكلية ، وكان منشرح الصدر نوعا ما لأنه لم يحس ضعفا خلال المدة التى انقضت وإن قاست نفسه ضروبا من الحنين وألوانا من الأفكار .

والتف الطلبة حول منضدة التشريح فى الغرفة وبدأوا يستلون أسلحتهم ليعملوها

فى جوارح خاف عليها أصحابها هبة النسيم وكان بين أيديهم فى هذه الحصة ... قلب !

وقلما يتساءل الطبيب وهو يعمل المبضع فى هذا العضو العظيم ، وعاء العواطف ، قلما يتساءل : ترى قلب من هذا ؟ وإن تساءل مرة أو مرتين فغالبا ماتتخلف الثالثة. وإذا اقتنعت بمنطق فإنك ستسلم باستحالة أن يسأل الطبيب نفسه قائلا : أقلب امرأة هذا ، أم قلب رجل ؟ وبعد ذلك يغمد فى القلب السلاح بنفسية من يغمد المدية فى جنة البطيخ . وهذا هو مايجرى فى حجرات التشريح .

لكن الذى حدث صباح يوم الخميس كان غير ذلك ، لأن أحد الطلبة ممن التفوا حول المنضدة تساءل بعد أن علت شفتيه ابتسامة خبيثة : ترى قلب من هذا : ؟ ! فهمس فى أذنه جاره الأيمن وكان كثير المرح يقول له : « ولا القلب إلا أنه يتقلب » هذا هو كل ماتخلف فى ذهنى من رواسب المدرسة الثانوية ... هل تعرف صدر هذا البيت ؟ ... مالنا ولصاحب هذا القلب أيها الزميل ؟ فقال الأول : حسبتك تعرف صاحبه . فابتسم الجار الأيسر ، وهو صاحب القصة ، ثم مال إليهما مستغربا موضوع الحديث فما كان من الطالب الأوسط إلا أن همس : إننى أعرف صاحب هذا القلب !!

ثم انقطع الحديث بعد ذلك ... وبدأ الطب يسيطر على الحقوق التى فرضتها الحياة للجسم والقدسية التى فرضها الموت للأعضاء فأعملت فى القلب المشارط وحمى وطيس الدرس فنسى المتسائلون ما كانوا بصدده من قول لعل بعضه كان نفحة شاعرية وبعضه الآخر كان دعابة من دعابات الشباب

لكن الطالب الأوسط مالبث أن أعلن بعد انتهاء الدرس على مسمع من المجموع أنه يعرف صاحب هذا القلب . فأقبلوا عليه يستفسرون فى فضول مختلف الدرجات فقال وهو يضحك ملء شدقيه : إنه قلبها ... قلب تلكم الحسناء ... حسناء حارة البغايا ... فى درب الخوخة نمرة ٥ .

هل فيكم من يعرف اسمها ؟ ... كان اسمها جمالات !

فضحك بعضهم ضحكة ماجنة منغمة : « هئ . هئ ... ليرحمها الله ! »

* * *

كان يجاهد نفسه لينساها ولكن الأقدار أراحته من هذا العناء

لقيها يوم الخميس وودعها دون أن تشعر بوداعه ؛ ثم حمد لنفسه فى الخميس التالى أنه ثبت على التجربة وهو لايدرى أن بدا أقوى من كل شئ ستحول بينه وبينها إلى

مدى لايعلم غايته إلا الله !!

وقضى سواد ليله وهو يحصى خفقات قلبه فى ظلال السكون ويسترجع صورة قلبها تحت وميض النصال ، نخيل إليه أنه كان يخفق بحبه حتى وهو فى هذه الحالة ، فاستفظع الأمر وكاد يصرخ فى ظلام الغرفة ثم أمسك ليسأل نفسه : أين موضع الحب من قلوب الناس ؟ وهل تعثر فيه أطراف المباضع على موائد التشريح ؟ ألاليتنى أعلم ؟

وهم بأن يصرخ مرة أخرى لكن نخير الشيخ « أبو المعاطى » فى الحجرة اللاصقة انتهى إلى سمعه فنحاه عن تيار أفكاره شيئاما ، حين قلب حياة جاره فى نواحى فكره وتمنى أن تتاح له هو مثل هذه الحياة ... الحياة الباردة التى لايصرخ فى نواحيها شئ .

لكن جمالات ، حسناء درب الخوخة ولجت أبواب فكره مرة أخرى : إنهم لايعلمون أنه الشخص الوحيد الذى وفق فالتقى بالشخصية الشريفة فى جسدها المبتذل حتى أصبح هو فى حياتها أشبه بالواحه الوحيدة فى صحراء دنياها الواسعة الجديبة

دخل حجرتها أول مرة وهو متأبط ذراع الشيطان ، فدخلا يقهقهان ثم خرجا يقهقهان . وتكررت التجربة لكن طالب الطب خرج فى المرة الثالثة وهو حزين سادر حين اكتشف بين أنقاض الجسم وخرائب المادة روحا جميلا شفافا اندفن تحت هذا الركام

وأخذت العلاقة بينهما تجنح نحو الصداقة رويدا رويدا . واختلط الزيت بالزئبق على الرغم من كل شىء ، لأن طالب الطب كان يعتذر لنفسه كلما دفعه إليها قلبه متعللا بأن الزيت والزئبق من المحال أن يتزجا ، وسيبقى كل منهما منفصلا عن صاحبه وإن طالت مدة التجاور .

وكان يلقى من أمره عسرا عند كل افتراق لأنها كانت تتشبث به تشبث الغريق بالفلين وتكاد تتعلق بأذياله كما تتعلق الهرة الأنيسة

لكنه قرر فجأة ألا يلقاها ...

وكان ذلك عقب تقديم هدية إليها . ولم يكن هو من اليسار بحيث يستطيع أن يقدم إليها كثيرا ولم تكن هى من الاستغلال بحيث تطلب منه أى شئ . فأحس خجلا وحسرة حين تخيل أنه يقتضيها ثمن حنانه القلبى بطريقة «المقاصة» فكأنه يأخذ ثمن العطف متعة . ومن أجل ذلك قدم إليها هدية !!

كانت خاتما جميلا فيه ثلاث حبات من الماس . ألبسها إياه وهما مستغرقان فى الحديث ، فلما انتبهت إلى مافعل شهقت

سائلة مبهوتة وإن أشرق وجهها النحيف بنور فرح ضئيل قالت : « أهو لى ؟ ... هل أستطيع أن أرفضه ؟ ! ... أخشى أن أغضبك ... أو أن أرهقك »

ثم تبين له بعد ذلك أنه فعل أمرا منكرا لأن البون شاسع بين كف أمه والكف التي تختمت به الآن . وقامت فى ذهنه قضية معقدة لأن الموازنة بين المرأتين فى هذه اللحظة جملته بضع جمالات فى نفس المكان الذى يضعها فيه كل الرجال . وكاد ينكر نفسها العظيمة التى طمرت تحت أنقاض الجسد بفعل أيدى الناس !!

ثم لج به الفكر حتى وضع المرأتين متجاورتين فرأى أمه الريفية وعلى رأسها طرحة سوداء تستدير مع استدارة الوجه وهى راكعة عند المدخل على سجادة من الحصير . ثم رأى جمالات وقد تناثر شعرها فى فوضى مثيرة وقد تكون مريبة . فهى امرأة تتزين فى كل يوم عشرين أو ثلاثين مرة ، وتعرف دخلها بعد إحصاء عددمرات الزينة !!

وبعد . فهذا الخاتم يحمل ذكريات عزيزة . حملته أمه إياه ليصلح بعض فصوصه التى انخلعت من مكانها ثم يعيده مع من يراه أهلا لحمل الأمانة ... لكنه خان الأمانة وسيقف بعد ذلك موقف الكاذبين حين يخبر أمه فى رسالة أن الخاتم قد فقد منه حزن يشعر بالإثم ويطلب المغفرة

* * *

وانقضى أسبوع على هذا الحادث ولعلها كانت تنتظره فى كل مساء لكنه تخلف . ثم وقعت الكارثة وشربت جمالات دورق الكونياك السم فى كأس من الشراب . دسه لها خليل ربما كانت قد عنته بسخطها على قلبه أو ضغطها على جيبه أو ضغطها عليهما معا . ونقلت إلى المستشفى وغسلت معدتها لتتخلص من السم ولكن الماء تسرب إلى صدرها فأشقى ، وخدع ، فخدع فالتهبت رئتاها كأنما شب فيهما حريق ... وركبها الهذيان وهو واثق أنه كان موضوع هذيانها .

وها هو ذا الليلة يحصى دقات قلبه ويتحسس فى ظلمة الزمن يوما سيكشف فيه عن الخفقان لأن موتها ذكره بالموت

ثم مال ميزان المعركة أخيرا ، وانتصرت الحياة فبدأ يفكر فى طريقة السلوان . ونزل من فراشه وتحسس زر النور فأضاء الغرفة ...

وجلس على مكتبه وأمسك القلم كأنما أمسكه ليكتب شيئا ...

لكن التفاتة حانت منه إلى خزانة الكتب فرأى على حافتها العليا شيئا تعلق

امتحان زوجة

للكاتب الفرنسي إميل سوفستر

بقلم الأستاذ محمد عفيفي

ليست هذه أيها القارئ العزيز قصة خرافية ، فلن تجد بها ما يوجد عادة في تلك القصص من أخبار الجن والشياطين وعرائس البحر اللائى يغتسلن في ضوء القمر ، ولكنك ستجد فيها ما هو أعجب من ذلك ، ستجد قصة امرأة جمعت من الشمس إشراقها ، ومن الشهد حلاوته ، ومن النساء جميعا خلة الإخلاص والوفاء

تلك هي سيدة قصر « كرجان » ، زوجة النبيل أوليفيين دوكرجان ، التي كانت على سمو مكانتها ، وعلى ما أسلفنا من حسنها الباهر ، أما للفقراء جميعا وربة من ربات الخير والإحسان . فهي لا تنتظر حتى يقصد البؤساء إليها طالبين ، بل تختلف إلى مساكنهم وأكواخهم لتسبغ عليهم العطايا ولا تبخل عليهم بالنصح ، فالمال يغريهم باتباع نصحها ، والنصح يعلمهم كيف يحفظون ذلك المال وينتفعون به . وكان القصر بعد ذلك ملجأ لكل من يتعطل عن العمل ، فإذا كان شابا أرسل للعمل في الحقول ، وإذا كان فتاة ألحقت بحظائر الماشية ، وإذا كان شيخا أو كهلا دفع إليه الكتان ووكل إليه غزله . ثم ترسل الخيوط إلى مهرة النساجين يصنعون منها الأقمشة

به بصره ...

ارتاح قليلا وأحس أنه إن قلق يستطيع أن يجد هنا موئلا للهدوء !!

كانت عيناه عالقتين بجمجمة وضعت على أعلى الخزانة ، فرأى عظمها الخاوى نهاية لكل رأس . والعينين بركتين ، والفم تجويفا قبيحا ، والأنف مدخلا يوحى بالفناء ! فقال في نفسه : هيه ... إنها هي الأخرى جمجمة امرأة ... لأنها صغيرة الحجم ...

وابتسم في حسرة وهز كتفه برفق ثم قال : جائز ... جائز أنها كانت مثل جمالات ... من يدرى ؟ !

ثم أطفأ النور وتحسس طريقه إلى الفراش مرة أخرى

محمد عبد الحليم عبد الله

مختلفة الأشكال والأحجام ، ثم تكدس تلك الأقمشة فى أقبية القصر الفسيحة ، إذ ليس لصنعها من هدف إلا إيجاد العمل للعاطلين …

ومن محاسن المصادفت أن مسيو أوليفيين دوكرجان زوج السيدة — كان يوافق على جميع أعمالها ، وقد صار ينظر بعينيها ويحس بإحساسها . وإنه ليثنى على الشىء تصنعه قبل أن يراه ، ولا يخطر بباله أنها قد تخطىء أبدا . وكانت هى أول شاكر لهذه الثقة وأول عارف للجميل ، فلم تبرح تقول فى مرحها المأثور إنها ما كانت لتخون أمانة زوجها حتى بطير الديك الحديدى الذى يزين برج كنيسة بريفان !

ثم عرض للزوج ما اقتضى رحيله إلى باريس ليمثل بين يدى ملك فرنسا وقتذاك — لويس الرابع عشر — فأقبل على زوجته طالبا منها أن ترافقه فقالت :

— وددت يا عزيزى لو تتركنى ههنا وتذهب وحدك ، وإلا فماذا يكون من أمر هؤلاء اليتامى والمساكين يقتاتون من الغزل عندنا ؟ لقد أنست بهم وأنسوا بى ولم يعد لهم سواى من نصير … فاذهب وحدك يا أوليفيين وأرجو أن تعجل بالإياب

فنزل مسيو دوكرجان على طلب زوجته إذ كان ينظر بعينيها ويحس بإحساسها ، فرحل إلى العاصمة وحده بعد أن أوصاها بأن تكتب إليه وترسل رسائلها ضمن ما يرسله أسقف سانت بول ، حتى تصل فى أمان

واستغرقت رحلة مسيو أوليفيين إلى باريس ستة عشر يوما ، إذ كانت الرحلات من أشق الأمور فى تلك الأيام

وقابل مسيو أوليفيين من قابل من نبلاء البلاط الملكى فأكرموا وفادته واحتفوا به ؛ إلا أنهم أظهروا أشد العجب من أنه لم يأت بزوجته معه ، وقال أحدهم :

لاريب أنها امرأة قبيحة غليظة لاتشرفه

فقال واحد ممن يعرفون أمرها إن الحقيقة عكس ذلك . إنها ذات جمال جرى فى الناس مجرى المثل . فقالوا :

لا ريب إذن أنه قد منعها عن المجىء مخافة أن ترى بين نبلاء البلاط من يفتنها عنه …

وترامت هذه الشائعات إلى صاحب قصر كرجان فاشتد غضبه وأعلن على رؤوس القوم أن سيدة كزوجته هى آخر من تلجىء الزوج إلى مثل هذه الاحتياطات … فقال النبلاء وقد جعلوا من الأمر مزحة :

قد كان لله فى حواء ثقة أعظم من تلك حين أودعها جنات النعيم !

فقال أوليفيين :

« إن فرنسيزا لا تحب أحداً سواى »

فقالوا : وكذلك حواء لم تغرها الشجرة المحرمة حتى بصرت بتفاحة الخير والشر

فاستعر الغضب فى صدر الرجل وهم بأن يستل سيفه لولا أن خاطبه أحد النبلاء بقوله :

« لا أحسبك تزعم لنفسك حكمة تفوق حكمة الخالق يا مسيو أوليفيين …

وإذا كان الله قد عرض حواء للامتحان فجدير به أن يصنع مثل هذا بزوجك …

وهذا صاحبنا « داجويون » الذى فاق الرجال جميعاً فى فن الإغواء ، فأدخله إلى قصرك كى تراه زوجتك رؤية العين ، فإن امتنعت أمامه وردت إغراءه عرفنا أنها أشرف النساء …

وكان صاحب قصر كرجان يفضل أن يحكم السيف بينه وبين هؤلاء النبلاء ، إذ عرف أن أمرين لا يعرضهما العاقل للامتحان : القناطر الجديدة وفضيلة النساء … ولكنه رأى أنه لو رفض الخضوع للتجربة أثبت بذلك أنه يخاف مغبتها لضعف ثقته بزوجته ، فاضطر إلى أن يوافق على إرسال « داجويون » إلى القصر ومعه رسالة يوصى فيها زوجته بإكرام مثواه …

فرحل النبيل واعداً أوليفيين بألا يدعه فى شكوكه أكثر من شهر واحد ، وودعه أوليفيين وهو يصد نفسه عن الفتك به بجهد جهيد !

وبلغ الكونت القصر فأحسنت فرنسيزا لقاءه واحتفت به كأنه أخ لها ، محققة بذلك وصية زوجها فى رسالته إليها . وراحت تهيء جميع الوسائل التى تدخل بها السرور إلى نفس ضيفها ، فهما إما على صهوة الجياد فى الغابة لا يعودان إلا فى الشفق ، وإما ساهران للحديث والسمر ، وليس فى نفس سيدة كرجان إلا أن تقوم بحق الضيف وتحقق وصية زوجها الغائب .

غير أن داجويون بدأ لفوره يستغل هذه الثقة فى تحقيق مآربه ، فبدأ يثنى على جمالها ويحدثها بأنها أجمل من رأت عيناه ، فلم تجبه بغير الضحك . وشجعه أنها لم تصده بقسوة فراح يكاشفها بالحب ويتوسل إليها أن ترق لحاله وتأسو جراحه ، فلم ترد أيضاً على الضحك . ثم إنه طلب منها الشريط الذى تلم به شعرها فأعطته إياه ، وطلب الدبوس الذهبى الذى تزين به صدرها فلم تبخل به عليه ، ثم ألح فى طلب الخاتم الذى فى إصبعها فما وسعها أن ترد طلبه …

إزاء كل ذلك ظن داجويون أنه قد نال مراده ، فسألها أن تحدد له موعداً فى الليل ، ولكنها رفضت . فكرر التماسه مرة أخرى وباء بالرفض ، فلما كانت الثالثة قالت له :

لا أستطيع أن ألقاك فى حجرة النساء لوجود الخدم ، ولا فى حجرة الاستقبال لوقوعها على مرأى من الناس ، ولا فى مخدعى لوجود وصيفتى ، ولا فى الحديقة مخافة البرد ، ولكن إذا تركتنى أحبسك فى البيت الخشبي الصغير حيث الغزل وحبوط الكتان فسأوافيك هناك عندما تخفت الأضواء »

فقبل داجوبيون وقد اشتد به الفرح بالنصر ، فلم يقو على الانتظار ، بل جمع الشريط والدبوس والخاتم وضمنها صندوقا — مع رسالة تعلن قرب عودته — وسلمها إلى رسول يحملها إلى باريس لقاء أجر طيب

ثم إنه ارتدى أنخر ثيابه وتضمخ بالعطر الزكى وحبس نفسه فى البيت الخشبي راضيا ! فلما هدأت الأصوات بالقصر سمع وقع أقدام تقترب ، وفتحت عليه نافذة صغيرة رأى فيها وجه فرنسيزا فكاد يخرج من جلده فرحا …

* * *

وبينما كانت حرمة الغائب تنتهك على هذا الوجه فى قصر كرجان ، كان رب القصر فى البلاط الملكى تقتله السآمة ولا يمنعه من العودة إلا انتظار فترة الشهر المتفق عليها

ولما لم يبق منها سوى خمسة أيام ، أقبل رسول الكونت إلى البلاط بالصندوق والرسالة . فما كاد مسيو أوليفيين يرى حلى زوجته حتى جمدت حركته وامتقع وجهه وبدا كأنه يحتضر … ثم جاش فى صدره من الحقد والرغبة فى الانتقام ما غلب على ما بنفسه من الحزن واليأس ، فدعا بجواد من أسرع جياد فرنسا وانطلق به إلى القصر من فوره

ودامت الرحلة ستة أيام لم يتوقف الرجل فيها ليلا أو نهارا إلا ليطعم الجواد حتى لا ينفق . فلما كان اليوم السابع أبرقت السماء فجأة وأرعدت ، وهبت عاصفة هوجاء تجتاح المبانى وتقتلع الأشجار اقتلاعا . وكان مسيو أوليفيين قد بلغ كنيسة ريفان ونظر إلى برجها الشامخ فإذا به قد حطمته العاصفة فقال فى نفسه :

— قد طار ديك ريفان … وما هذا إلا نذير بأن زوجتى قد خانتنى !

وهمز جواده بشدة فانطلق فى الليل الحالك يسابق العاصفة . ووقع بصره آخر الأمر على مداخن قصر كرجان وقد تراءت فوق رءوس الدوح الشامخة ، فترجل عن الجواد الذى عطل الجهد الشاق ثلاثا من قوائمه وأطلقه قائلا :

— هيهات أن يغفر الله فعلتى … إذا قتلت هذا الجواد الشريف فى سبيل امرأة

خائنة!

وأوغل في الغابة على قدميه حتى انتهى إلى باب القصر العريض فطرقه طرقا شديدا وكانت فرنسيزا في مخدعها فعرفت طرقات زوجها وهتفت في فزع :

— ياإلهى ! هذا زوجى كرجان قدجاء !

وهرعت لتستوثق مما سمعت . ولم تكد تبصر زوجها حتى ألقت بنفسها بين ذراعيه ولكن مسيو دوكرجان أسرع بالقبض على يديها وجرها إلى حجرة بالحديقة حيث وقف إزاءها لاهثا يقول وقد جحظت عيناه

— أين الكونت داجويون ؟ أين هو أيتها المرأة الشريرة ؟

فامتقع وجه فرنسيزا وقالت وهى ترتعد :

— أستحلفك بالله يا أوليفيين ألا تظن بى سوءا ... لقد فعلت كل ما بطوقى كى أمنع ما حدث

فقال دوكرجان وهو لا يكاد يقوى على النطق :

— وأخفقت فى منعه ؟

— لا تلم إلا صديقك هذا ... فلم يكد يطأ أرض المنزل حتى وقع فى هواى وأخذ يلاحقنى فلم يكف عنى لحظة واحدة

— وقد طاوعته ولم تبخلى عليه من وقتك بلحظة واحدة !

فأجابت فرنسيزا :

قد منحته أول الأمر بقدر ... منحته شريطا ودبوسا ذهبيا ... فصاح زوجها !

— وخاتما !

— أجل ، قد أخذ الخاتم أيضا ... ولكن شيئا من ذلك لم يبرد غليله ، فاضطررت إلى حبسه بالبيت الخشبى واعدة أن أوافيه هناك فى المساء ...

— وهل بررت بوعدك يا سيدتى ؟

— ما وسعنى أن أحنث يا أوليفيين ..

فلما كان المساء قصدت إلى هناك ففتحت النافذة وقلت للكونت ...

— ماذا قلت له ؟

— قلت له إنه ينبغى أن يظل فى محبسه حتى تعود أنت

فبدا أن صاحب قصر كرجان لم يفهم قولها وهتف :

— ماذا قلت يا فرنسيزا ؟ هل حبست الكونت داجويون ؟

— أجل ، واعدة أن أخلى سبيله عندما ينتهى من نسج كل ما يحويه المخزن من خيوط الكتان ...

وإن باستطاعتك أن تصغى إلى صوت المغزل ...

فأصغى مسيو دوكرجان وسمع ما أيد قولها

ثم روت له زوجته كيف أعلن

الكونت تمرده أول الأمر ورفض أن يتعلم صناعة الغزل ، فلم يجبره على الخضوع إلا منعها إياه عن الطعام ! ثم أخذ يتعلم مبادئ الصناعة حتى نجح فى صنع « فرش » جميل لم ترقط مثله جودة وإتقانا !

وأبى مسيو دو كرجان أن يصدق كلامها حتى قادته إلى نافذة البيت الخشبى ، فرأى الكونت بعينيه عاكفا على العمل وقد جعل قبعته العالية المزينة بالريش على رأسه فى حين تدلى السيف المرصع من جانبه !

فانفثأ غضب مسيو أوليفيين فجأة وانطلقت منه ضحكة سرور مجلجلة ، فهب الكونت مبغوتا ليرى نفسه أمام غريمه وجها لوجه . غير أنه كان رجلا محنكا رابط الجأش فعرف كيف يعالج الموقف ، إذ أجاب عن ضحكة مسيو أوليفيين بابتسامة مغتصبة وقال :

— قد خسرت الرهان يا مسيو دو كرجان !

فأجابه أوليفيين :

— إذن فلتمد إلى صحبك من نبلاء البلاط ، ولتخبرهم بالحقيقة التى كاد يزيفها تعجلك بإرسال الشريط والدبوس والخاتم

فوعد داجوبيون بأن يقص الحقيقة الكاملة ، وبأن يرد ما أخذ من حلى السيدة ، ولكنها قالت له إنها قد أنعمت بها عليه اعترافا منها بمهارته فى أعمال الغزل والنسيج !

ومن ذلك الحين ذاعت فى المنطقة صناعة ذلك النوع من « المفارش » ، فلم يزل إلى اليوم على الأفواه مثلا جاريا بأن أول تلك المفارش قد صنعته فى قصر كرجان يد نبيلة !

محمد عفيفى

الشيطان

لجى دى موباسان

بقلم الأستاذ محمد محمد مطاريد

كان الفلاح قائما بجانب — سرير المحتضرة — يتبادل الحديث مع الطبيب ، بينما تمددت العجوز فى استسلام ؛ متيقظة الوعى تنصت لما يدور بينهما ! .. إنها تموت !

تقبلت العجوز هذه الحقيقة فى شىء من الرضا ، فمنذ أن أتمت عامها الثانى بعد التسعين تعرف أن نهايتها قد أزفت

ومن خلال نافذة الحجرة تدفقت أشعة شمس يوليو القائظة ، فغمرت أرض الحجرة السوداء الوعرة وأشاعت فيها قيظ الصيف .. وأفاحت الريح الساخنة رائحة الأرض ، والقمح والدريس ، وأوراق الشجر الجافة

ورفع الطبيب صوته قائلا ..

إينوريه ! لن تتمكن من أن تترك أمك بمفردها ؛ فربما تموت من لحظة إلى أخرى ..

فأجابه إينوريه مذعورا :

— ولكن القمح فى الحقل ، ولا بد من نقله إلى الداخل ، وربما يدوم رقادها مدة طويلة والجو الآن ملائم . فما قولك يا أماه ؟

وعلك العجوز جشع النرمانديين ، فأعربت عن موافقتها بإشارة من عينيها ، وإيماءة من رأسها .. تحث بهما ولدها ليعجل بنقل القمح .. وليتركها وحيدة تموت ! فلم يتمالك الطبيب نفسه وضرب الأرض بقدمه غاضبا ، ثم صرخ فى وجهه قائلا :

— أنت وحش بلا قلب . وإنى لأمنعك من عمل أى شىء . فاهم ؟ وإذا كنت تصر حقيقة على نقل القمح اليوم فلتذهب لإحضار الأم رابيت لتعنى بأمك . وإذا ماعصيتنى فسوف تموت كالكلب حين يأتى دورك وتسقط مريضا .. فاهم ؟

ولبث الفلاح يعانى عذاب التردد برهة مشتت الفؤاد بين خوفه من الطبيب وكراهيته لإنفاق النقود . ومضت برهة راح فيها يحسب ، ويقدر .. وأخيرا سأله متلعثما ..

— وكم تتقاضى الأم رابيت على ذلك ؟

فصاح الطبيب قائلا ..

« وكيف أعرف ؟ هذا يتوقف على المدة التى تريدها فلتتفقا فيما بينكما .. ولكنى أصر على أن تكون هنا فى خلال

سحيقة ... فأنهم ؟

وأخيرا انتهى الأمر . فأجابه . .

حسنا ! لا تغضب . وسوف أذهب الآن »

ولما خلا إينوريه بنفسه نلفت إلى أمه

ثم قال لها في شيء من الاستسلام :

« إني ذاهب لإحضار الأم رابيت

فالطبيب قد أصر على أن تأتي . فلا تقلقي على

نفسك وسوف أعود حالا »

ثم غادر المنزل في عجلة ظاهرة .

* * *

أما الأم رابيت فهي عساله مرموقة

ممن يتقن من أهل القرية وجميع

ما جاورها من القرى . فهي التي تدرجهن في

أكفانهن . وهي ضامرة كتفاحة آخر العام ،

شرسة الأخلاق ، حقود ، قد انحنى ظهرها

حتى أضحى جزأين ، وكأن ذلك من أثر

مهنتها التي لا تكف عن العمل في الأكفان .

ويمكن أن نقول إن هناك جاذبية بينها وبين

الموت ! ! فحديثها يدور دائما حول من

شاهدت من موتهم . . وجميع ما حضرته من

ألوان الموت . تقص كل ذلك في تفاصيل

دقيقة لا تتغير أبدا . كصائد يتحدث عن

طلقات بندقيته !

وحين دلف إينوريه إلى داخل منزلها

ألفاها تعد خلول الزهرة لبنات القرية ؛

فحييتها ... الأدوات له رأسها وهي

تقول . .

« هيه . . سلامتك ! »

— أنا بخير ... إنها أمي ...

— وماذا أصابها ؟

— تموت ...

فأخرجت العجوز يديها من الماء ...

تجري على أصابعها يتساقط قطرات شفافة

زرقاء ... ثم سألته وهي تتظاهر بالعطف ...

— وهل حالتها سيئة ؟

— يقول الطبيب إنها لن تعيش إلى

ما بعد الظهيرة ...

— إذن فهي في حالة سيئة جدا

وندم إينوريه على تسرعه ... فلم يكن

ينبغي أن يكشف عما أعده في عقله مرة واحدة !

ولما عجز عن إصلاح الأمر اندفع قائلا ...

— وكم تريدين في مقابل رعايتك لها

إلى أن تموت ؟ أنت تعرفين طبعا أننا لسنا

أغنياء ... فنحن لا نحتمل أجر خادم .

وقد كانت أمي هي التي تقوم بالخدمة .

فأجابته في لهجة رجل الأعمال ...

— لدى سعران : فرنكان لليوم .

وفرنكان لليلة ... ذلك طبعا للأغنياء ...

وفرنك لليوم وفرنكان لليلة للآخرين ...

وسآتي معك أنت بثلاثة فرنكات لكل

يوم بليلته ...

وفكر إينوريه لحظة ... فهو يعرف

أن أمه فى حالة سيئة ... كما يعرف متانة بنيانها ... فربما تظل أسبوعا رغما عما قاله الطبيب ... وأخيراً انتهى إلى قرار ... فأجاب ...

— لا ... لا ... أفضل أن تظلى عنا لإشرافك عليها حتى النهاية ... هى مقامرة لكل منا ... فالطبيب يقول إنها ستموت حالا ، فإذا ماوقع الأمر يكون ذلك فى صالحك بينما أضر أنا ! أما إذا تأخرت حتى الغد ... فإنى أربح بينما أنت تخسرين ...

فرمقته المرأة فى شئ من الدهشة !

فلم يحدث لها أن قامت بمثل هذا العمل فى شكل اتفاق محدد ... واستهوتها فكرة المقامرة ... بيد أنها خشيت أن يكون هناك فخ لها ... فقالت ...

— لا أستطيع الموافقة على شئ ما حتى أراها ...

— إذن فهيا معى ...

ومن ثم جففت يديها وتبعته على الفور ...

وفى الطريق ... أطبق الصمت عليهما فلم ينبسا بكلمة ... هى تسير فى خطوات سريعة واسعة ... بينما كان الآخر يحجل فى قفزات متلاحقة كما لو كان يتخطى قنوات تعترض كل خطوة فى طريقه . ولما اقتربا من المنزل همس إينوريه قائلا : «لعلها انتهت» ... بيد أن أمله الخائب كان باديا فى نبرات صوته !

ولكن العجوز لم تمت ! بل كانت ممددة على ظهرها فوق سريرها المتآكل ، ويدها ممسكة بطرف اللحاف الأحمر ، معروقة ضعيفة من أثر الروماتزم والعمل الشاق وجميع المهن التى قامت بها زهاء المائة عام

وأقبلت الأم رابيت على السرير ثم فحصت المرأة فى عناية تامة ... قاست نبضها .. وتحسست صدرها .. ثم أنصتت إلى تنفسها . . وسألتها عدة أسئلة لتسمع كلامها .. وبعد أن أمضت معها مدة طويلة غادرت الغرفة وخلفها إينوريه ..

لقد قر رأيها على أن المرأة العجوز لن تعيش حتى الليل

وسألها إينوريه .. « هيه ؟ »

فأجابت المرأة

— تنتهى حياتها فى خلال يومين أو ثلاثة . . وسأقبل المهمة فى مقابل ستة فرنكات دفعة واحدة .. فصاح فزعا :

— ستة فرنكات ؟ ستة فرنكات ؟ هل هى صفقة مالية؟ ولقد قلت لك من قبل إن أمى لن تعيش أكثر من خمس أو ست ساعات

لبثت المساومة فترة طويلة ! فكلاهما عنيد .. وأخيراً تظاهرت الأم رابيت بالعودة إلى منزلها .

ولما كان الوقت يمر والقمح لن ينقل نفسه إلى الداخل ، فقد وافق أخيرا . وانطلق إلى قمحه الذى كان ملقى تحت أشعة شمس الحصاد الساطعة . . وذهبت المرأة إلى المنزل ومعها حاجاتها . فقد تعودت أثناء رعايتها لمن يموتو أو من مانوا أن تعمل فى حياكة أشياء لها أو لهؤلاء اللاتى تقوم على رعايتهن . ومن ثم تتقاضى على ذلك أجرا آخر

وفجأة سألت العجوز مستفسرة :

— هل أدليت للقسيس باعترافك الأخير يا أم بانتام ؟ فهزت العجوز رأسها أن لا . والأم رابيت ذات روح طيبة ! لذلك قفزت على قدميها جزعة وهى تصيح فيها :

— يا للسماء ! أحقيقة هذا ؟ سأذهب إذن فأحضر قسيسا

وأسرعت إلى منزل القسيس مهرولة مما جعل الأطفال فى ميدان القرية يوقنون أن حدثا ما قد وقع . وارتدى القسيس مسوحه ثم أقبل على الفور يتقدمه الشماس وهو يقرع جرسا صغيرا . . فرفع الفلاحون فى الحقل قبعاتهم ووقفوا صامتين حتى اختفوا خلف المزرعة . وتوقفت النساء عن جمع القش ثم رسمن علامة الصليب. وتفرقت الدجاجات مذعورة ثم أسرعت إلى مخابئها بين الحشائش بينما كان الشماس فى مسوحه الأحمر يسرع الخطى وخلفه القسيس يسير مطرقا .. يتلو صلواته . . وخلفهم الأم رابيت منحنية الظهر إلى حد كبير كى تساعد نفسها على السير .ويداها مضمومتان على صدرها كما لو كانت فى الكنيسة

ولمحهم إنيوريه وهم يمرون أمامه من بعيد .. فسأل

— لمن هذا القسيس ؟

فأجابه العامل الذى يساعده وقد كان أكثر إدراكا من سيده بأنه طبعا فى طريقه إلى أمه ليباركها .. فلم يبد على الفلاح أى دهشة .. ثم واصل عمله

ورجع القسيس بعد أن أدلت الأم بانتام باعترافها وترك المرأتين وحدهما فى الكوخ المطبق الخانق ، وعادت الأم رابيت تنظر إلى العجوز وهى تموت ! وأخذت تسائل نفسها .. إلى متى تظل طويلا هكذا !

وأخذ الظلام يخيم رويدا .. رويدا .. وهبت نسمة نقية باردة جعلت الصورة الزيتية الرخيصة تصطك بالحائط والستائر التى كانت يوما ما بيضاء ، وأمست فى لون الفيران .. صارت كأنها تريد أن تطير بعيدا لكى تهرب إلى الأبد كروح المرأة العجوز !

وكانت العجوز ترقد بلا حراك . . عيناها مفتوحتان مستسلمتان فى انتظار الموت الذى يبدو وكأنه قريب جدا . ولكنه يتأخر ! وأنفاسها تخرج متلاحقة من حنجرتها المتآكلة فتحدث ضجيجا كالصفير سوف يصمت عما قريب . وحينئذ سينقص من العالم امرأة لن يفتقدها أحد

ولما أقبل الليل عاد إينوريه .. وحين اقترب من السرير رأى أمه مازالت على قيد الحياة ؛ فسألها كعادته حين لا تكون فى صحة طيبة ..

— أماه .. بماذا تشعرين ؟

ثم صرف الأم رابيت على أن تعود فى الساعة الخامسة من مساء الغد .. وعادت فعلا فى الفجر .. وكان إينوريه يتناول حساءه الذى أعده بنفسه قبل أن يخرج إلى عمله فسألته مستفسرة :

— هل ماتت أمك ؟

فأجابها وفى عينيه لمحة حقد أن لا .. ويبدو أنها تحسنت شيئاً ما .. ثم غادر المنزل وترك الأم رابيت تقترب وقد بدا القلق يظهر عليها .. فوجدت أن حالة العجوز لم تتغير .. تتنفس بصعوبة .. ممددة بلا حراك . عيناها مفتوحتان . ويداها مطبقتان على طرف اللحاف ! وهنا أيقنت المرأة من أنها قد تلبث هكذا يومين أو أربعة أيام وربما بقيت أسبوعا . فنخر الخوف قلبها البخيل وأحست بغضب عنيف على هذا الشخص الذى خدعها وعلى هذه العجوز التى يمكنها أن تموت . .

ومع ذلك عادت إلى عملها تنتظر وعيناها متعلقتان بوجه — الأم بانتام — المغضن . . وأقبل إينوريه لتناول غدائه . . وقد بدا مسرورا منشرح الصدر . وبعد الغداء غادر المنزل مرة أخرى . . ومن المؤكد أنه كان وهو مشغول بشحه فى الحقل فى حالة سرور ومرح ! بينما بدا اليأس يزحف إلى فؤاد الأم رابيت رويدا . . رويدا . . فكل دقيقة تمر عليها تبدو وكأنها قد سرقت منها ! فالوقت نقود ! وشعرت برغبة ما . . رغبة وحشية فى أن تمسك بهذه العجوز التافهة العنيدة.. بهذه الخنزيرة الهالكة ، من رقبتها ثم بضغطة واحدة عليها تقف هذه الأنفاس السريعة الضعيفة إلى الأبد . . ولكنها تذكرت أن هذه مخاطرة ! وفجأة خطر لها شيء ما .. فسألتها

— ألم ترى الشيطان بعد ؟

فهمهمت .. أن لا ..

وحينئذ أخذت المرضة تتكلم .. تقص حكايات لتفزع عقل العجوز المتهالكة أثناء موتها ..

قالت .. قبل أن يموت العجوز بعدة دقائق يظهر الشيطان لمن يموتون وفى يده مكنسة وعلى رأسه وابور المطبخ .. يطلق صرخات عالية ! وحين يظهر هكذا يكون قد انتهى كل شئ ولا يبقى لمن يموت سوى بضعة دقائق . ثم أخذت تعدد جميع من ظهر لهن الشيطان فى حضرتها هذا العام .. جوزفين لوازيل .. إيلى راتييه .. صوفى بارفيه . . وسيرافين جوزييه . .

فارتجفت الأم بانتسام بشدة ثم أخذت تتقلب فى سريرها .. تحرك يدها من ناحية إلى أخرى .. وتحاول أن تدير رأسها لكى تحدق فى آخر الغرفة !

وفجأة توارت الأم رابيت خلف السرير ثم أخرجت من صوان الملابس قطعة قماش لفتها حول جسدها وعلى رأسها وضعت الوابور ثم أمسكت بمكنسة فى يدها اليمنى ، وبيدها اليسرى أمسكت بدلو أخذت تحركه فى الهواء لكى يحدث ضوضاء .. ثم أخذت تطلق طنينا مفزعا وهى تضرب بقدميها الأرض .. ثم اعتلت الكرسى وبدأت تزوم وتطلق صرخات حادة فرجف الدلو الذى كانت تخفى فيه وجهها .. ثم أخذت تهدد الفلاحة العجوز بالمكنسة تماما كما كان يمثل الشيطان فى تمثيلية شاهدتها مرة ما ...

وبقوة فوق طاقة الجهد الإنسانى حاولت الأم بانتام وقد تملكها جزع فظيع أن تنهض وتفر . . فلم يرتفع سوى كتفيها وصدرها قليلا ثم سقطت فى مكانها وهى تطلق شهقة مكتومة ونامت إلى الأبد !

وفى هدوء واطمئنان أعادت الأم رابيت كل شئ إلى مكانه . . المكنسة فى الركن بجانب الصوان ، وقطعة القماش فى داخله .. والوابور على الرف . . ثم ألصقت الكرسى بالحائط . . وألقت بالدلو فى المدفأة . . وبعد ذلك قامت إلى العجوز فأطبقت عينيها المفتوحتين ثم وضعت إناء فوق السرير سكبت فيه بعض الماء المقدس وغمست غصن البقس الذى كان معلقا على الدولاب . ثم ركعت فى حماس وإخلاص وبدأت تنشد للميتة صلواتها . .

وفى المساء لما عاد إينوريه إلى منزله وجدها تصلى . . وفى الحال بدأ يحسب ! فوجد أنها استولت منه على فرنك ! لأنها قضت ثلاثة أيام وليلة واحدة .. أى خمسة فرنكات .. بينما اتفق هو معها على أن يدفع لها ستة

محمد محمد مطاوع

النصر

لشاعر الهند رابندرانات طاغور

بقلم الأستاذ عبد الموجود عبد الحافظ

كان « شيكار » شاعر الملك « ناران » شاعرا مجيدا ذا عبقرية قوية ، فإذا ألقى إحدى مقطوعاته الشعرية ، انبعثت نغماته الساحرة من حنجرته الرنانة القوية ، متصاعدة إلى شرفات البهو الملكي الفسيح ، فيسري سحرها مخترقا الستائر ، فتطرب له السامعات هناك . كان هناك خلف الستائر حيث يصل صوته القوى إلى ذلك المكان الذى لا يقدر على الوصول إليه أو الدنو منه أحد، حيث كان يتألق خلف تلك السجف الحريرية الهفهافة شخص الأميرة « أجينا » ذلك الكوكب اللماع المهيمن على مصير الشاعر والمسيطر على عواطفه . وكم كان الشاعر يتمنى أن يراها ثم يفارق الحياة . وكثيرا ما تخيل طيفها يتحرك خلف الستائر ولكن عندما يعود إلى نفسه يرى أنه يسبح فى واد من الخيال . يوم النصر الأكبر عنده ليس هو إعجاب الملك أو الناس بشعره، وإنما هو سماعه صوت الأميرة

كان كثيرا ما يتخيل عالم الأميرة إذا سمع صوت خشخشة من بعيد فيسبح فى خيال جميل ويحلم بسحر عينيها وقسامة وجهها ورشاقة قوامها ... كان قد صنع لها فى خياله تمثالا يفوق تمثال فينوس إلهة الجمال . وكان يتمثل فى خياله الخصب منظر قدميها الصغيرتين الرقيقتين ، يتمثلهما تسيران على الفراش ، فيتمنى أن يسيرا على قلبه . وكم تمثل له أن يضع خلاخلها الرنانة ذات الصوت العذب ، على مذبح قلبه حيث يصوغ ألحانه الشجية وأنغامه العذبة ، على أنغامها الساحرة الجميلة وهى ترن فى قدميها

إن (شيكار) كان يؤمن بشخصية ذلك الطيف الذى يتحرك خلف الستائر ، طيف ذلك المخلوق الذى يطرب لسماع أشعاره والذى يحس الشاعر أن حركاته ورنات خلاخله تغنى على وقع دقات قلبه ..

كان للأميرة وصيفة تدعى « ماناجاوى » تمر كل يوم على منزل الشاعر فى طريقها إلى الحديقة ، وعند عودتها يكون الطريق قد أصبح خلوا من الناس بعد أن يسدل الليل أستاره على المدينة ، تدخل حجرة الشاعر فى جرأة وشجاعة ، ثم تجلس على

طرف البساط وتأخذ فى الحديث معه ، ذلك الحديث الذى تبذل جهدا كبيرا فى أن يكون على هوى الشاعر ورغبته ، كما كانت تحاول أن تكون لطيفة جميلة ، فتبذل عناية فائقة فى اختيار لون قناعها ، وكذلك فى طريقة رشق الزهرة فى شعرها ، وكانت تتعمد أن يراها الناس عند دخولها إلى حجرة الشاعر ، كما أن الشاعر بدوره لم يحاول إخفاء هذه المقابلات عن الناس ، بل كان يصرح ، أنها مصدر سرور عظيم له

* * *

كان شعر (شيكار) ينال إعجاب الناس جميعا من أقل إنسان فى المملكة إلى الملك نفسه ، لأنه كان يمزج الحقائق بالخيال فى شعره فكنت تسمع شعره يتردد على شفاه الجميع ويتغنى به الجميع . فإذا حف النسيم بالشجر وأحدث صوتا ضعيفا هينا ، أو إذا ظهر القمر مضيئا متلألئا ، سمعت أنغام الشاعر تنبعث من كل مكان فى طول البلاد وعرضها من مختلف الناس وعلى جميع الألسنة ، فتسمعهم يغنون فى القوارب فى الأنهار وفى الشرفات فى القصور والطرقات ، بل يخيل لك أن الأشجار والحيطان وغيرها تتغنى كلها بهذا الشعر الجميل الذى يخرج من شغاف القلوب

ومرت الأيام فى سعادة وغبطة ، الشاعر ينظم شعره ويتغنى به ، والملك يقبل على سماعه بكل قلبه ، والناس يهتفون للشاعر محيين مشجعين ، و (مانا جارى) الوصيفة توافيه كل ليلة فى حجرته عند عودتها من الحديقة ، والشاعر يعيش سعيدا قانعا بالطيف الذى يتحرك خلف السجف فى الشرفة ويطرب للنغمات التى ترسلها الخلاخل الذهبية الصغيرة وكأنها أجراس تدق داخل قلبه .

* * *

بينما الحياة تسير على هذا المنوال ، إذ ظهر شاعر جديد ، تحدى من لقيه فى طريقه من كبار الشعراء وهزمهم وتغلب عليهم ، وأخيرا استطاع أن يصل إلى قصر الملك (ناران). فلما مثل بين يديه أجاد فى مدحه . فرحب به الملك وأكرمه أعظم إكرام ؛ لأن مدحه صادف هوى فى نفس الملك . ولما عرف (بندارك) أنه تقرب إلى قلب الملك قال : إنى أطلب يا مولاى مصاولة أكبر الشعراء وأعظمهم ؛ فسرعان ما اتجه تفكير الملك إلى شاعره العظيم (شيكار)

ولم يكن (شيكار) قد خاض من قبل غمار المصاولات ، فهو لا يعرف كيف تقوم الحرب بين الشعراء ولا كيف يستعر أوارها . فلما أعلمه الملك برغبة (بندارك) الشاعر الجديد ؛ بات ولم يغمض له جفن فى تلك الليلة وقد تمثل له الشاعر الجديد المنافس

بقــوامه الضخم وأنفه الأفنى ورأســه المرتفع فى أنفة وخيلاء ، تمثل له فى ليلته هــذه وهو يصول ويجول فأقلق راحته وأقض مضجعه

ولما أصبح الصباح توجه (شيكار) إلى الميدان ، فرآه مكتظا بالجماهير ، ورأى غريمه يجلس منتصبا فى اعتداد وقوة ، فخفق قلبه بشدة . ولــكنه تقدم من غريمه وحياه بابتسامة رقيقة وانحنــاءة خفيفة فى احترام ووقار . فرد (بنــدارك) هذه التحية بإيماءة بسيطة من رأسه فى غير اكتراث ثم دار برأسه نحو أنصاره وابتسم لهم ابتسامة ذات معنى

ورفع (شيكار) بصره نحو الشرفة العالية التى تتدلى عليها الستائر فخفق قلبه وحيا محبوبته فى نفسه قائلا : إذا انتصرت اليوم فى هذه المعركة فسوف يمجد اسمك

* * *

وظهر الملك مقبلا فى ثيابه البيضاء الواسعة ، فأشار أحد القائمين بالأمر ، فدقت الطبول ووقفت الجماهير المحتشدة تدعو للملك بالنصر وطول البقاء . حتى إذا وصل إلى عرشه استوى عليه ، وبعد برهة قصيرة ، هب « بندارك » قائما فساد الســكون فى القاعة الفسيحة وأصبح الناس وكأن على رءوسهم الطير . ثم أخذ يرسل مديحه للملك بصوت كأنه الرعد ، وقد انتفخت أوداجه وارتفع رأسه عاليا وتمدد صدره العريض الممتلىء ؛ وكانت كلماته تهدر كأنهــا الأمواج الصاخبة ، فبدأت تؤثر فى نفوس الجماهير المستمعة ، وسرعان ما أخذت هذه الجماهير بالمهارة الفائقة والمعانى البديعة المختلفة التى نظمها فى اسم الملك (ناران) . ومما زاد فى دهشتها قدرته على تضمين أبياته كل حرف من حروف اسم الملك بطرق متعددة ، ولم يقتصر الإعجاب على الجماهير بل إنه حاز رضاء الأساتذة المثقفين الذين جاءوا من بلاد بعيدة ، فرفعوا أيديهم محيين وهتفوا للشاعر معبرين عن إعجابهم . واتجه الملك نحو شاعره (شيكار) وألقى عليه نظرة تساؤل ، فأجابه (شيكار) بأن رفع إليه عينيه المفعمتين بالألم المرير واليأس القاتل . ثم وقف شــاحب الوجه زائغ البصر وقد استولى عليه الخجل الشبيه بخجل العذارى . وتهامس الناس ، أين هذا القوام الهزيل من ذلك العملاق الضخم ؟ وبدأ (شيكار) يتكلم وهو مطرق الرأس خافت الصوت ، حتى أن كلماته الأولى لم يسمعها الــكثيرون . ثم أخذ يرفع رأسه فى بطء ومشقة ، وكان يرفع تبعا لذلك صوته الذى ارتفع حلوا جليا نحو السماء كأنه شعاع من النور ، فاتجهت إليه العيون ، وبدأ يروى قصــة حياة الأسرة المالكة

متمشيا معها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر ، وهو فى كل ذلك يشيد بعظمتها الخالدة وكرمها الزائد وبطولتها الفذة إلى أن قال :

مولاى ! قد أكون هزمت فى صوغ الكلام ، ولكنى منتصر بحبى لشخصكم الكريم . ثم عاد إلى مكانه وجلس وهو يهتز كأنه القصبة فى مهب الريح

وتأثر السامعون لهذا القول واغرورقت عيونهم بالدموع وتصايحوا معجبين بهذا الوفاء العظيم حتى اهتزت جدران القاعة الحجرية

عند ذلك انتصب (بندارك) قائما فى عنف وقوة ، متحديا هذا الشعور الذى أظهره الجمهور وألقى السؤال الآتى على مسامع الحاضرين :

— هل هناك ماهو أعظم من الكلمات ؟

فساد السكون أنحاء القاعة ، ولما لم يجد أحدا قد تحرك حتى الشاعر (شيكار) ابتسم ابتسامة خبيثة ، ثم أخذ يثبت فى براعة وفصاحة (أن فى البدء كانت الكلمة وأن الكلمة كانت عند الله ...) وأخذ يؤيد أقواله بآيات كثيرة من الكتب المقدسة ويشيد صرحا عاليا لقيمة الكلمة ؛ بل إنه جعلها أعلى وأعظم من كل مافى السماء وكل ماعلى وجه الأرض

ثم وجه السؤال مرة ثانية بصوته الجهورى المرتفع قائلا : هل هناك ماهو أعظم من الكلمات ؟

وجال ببصره فيما حوله فى تعاظم وكبرياء فلم يجرؤ أحد على أن يتحداه . فجلس فى مكانه فى بطء وكأنه أسد أجهز على فريسته ثم أتى عليها فى أكلة واحدة وهتف له الحاضرون فى إعجاب عظيم ولكن الملك ظل صامتا ساكنا من الدهشة

وهنا أحس الشاعر (شيكار) أنه نسى شيئا مذكورا بجانب هذا العلم الفياض والحجة القوية والمقدرة الفائقة . ثم غادر الملك مجلسه وتبعه الحاضرون

* * *

ولما كان اليوم التالى عاد الشاعران إلى الميدان وازدحمت القاعة بالناس وأخذ الملك مكانه فى صدرها ، ثم أومأ إلى شاعره (شيكار) فقام وتوسط القاعة وأخذ يتغنى بذلك اليوم الذى سمع الناس فيه أنغام موسيقى الغرام مقبلة مع هواء غابة «فراندا» الهادئة ولم يستطع أحد رؤية الموسيقى ولا مصدر الموسيقى ودهشت الراعيات اللاتى كن فى الغابة واستولى على المارين نوع من الخوف لأنها كانت تبدو لهم كأنها تنبعث من كل شىء من الجبال والحقول والوديان ومن الطرق الظليلة ومن الخضرة الزاهية

والحشائش النامية . ونسى الناس أنفسهم فعاشوا فى هذا الجو ، ولم تستطع النسوة إدراك كنهها ، وامتلأت نفوسهن رغبات لكنهن عجزن عن التعبير عنها فاغرورقت عيونهن بالدموع اللؤلؤية ، وتمنين لو أن حياتهن انتهت فى هذه اللحظة على عتبة الأبدية

وغاب الشاعر عن نفسه ونسى سامعيه كما نسى أنه ينازل خصما له عنيدا ، فقد كان فى هذه اللحظة يعيش وحيدا مع أفكاره التى كانت تتزاحم وتتضارب فى ذهنه فتحدث حوله حفيفا كحفيف ذلك الثوب الذى تخفيه تلك الستائر المسدلة على الشرفة ثم غنى (أغنية الناى) وكان يتمثل فى مخيلته صورة طيف وأصوات ضئيلة تهمس من بعيد ...

ولما انتهى من إنشاده عاد إلى مجلسه ، وقد استولى على المكان سكون رهيب ، كما استولى على السامعين سرور عميق مصدره ذلك الشعور المبهم الذى تولاهم ، فلم يستطيعوا تحديده أو معرفة كنهه ، وقد استغرقوا فى هذا السرور حتى أنهم نسوا أن يقرظوا الشاعر الذى خلب ألبابهم ولم ينتبه الناس لأنفسهم إلا عند ما انتصب ذلك العملاق « بندارك » واقفا وتقدم أمام عرش الملك وطلب من (شيكار) أن يذكر اسم ذلك الحب واسم تلك الحبيبة اللذين جعلهما موضع قصيدته . ثم أدار بصره نحو أصدقائه وأنصاره وابتسم لهم ، وقبل أن يترك مكانه طلب من غريمه فى تحد ، أن يذكر هذين الاسمين ... وساد المكان سكون عميق ، واتجه الناس بأنظارهم نحو (شيكار) ولما لم يجدوه قد تحرك ، هب أنصار (بندارك) يمدحونه أعظم المدح ، فتبعهم الباقون الذين خدعهم ما رأوا من هزيمة (شيكار) ونصر (بندارك) فإذا كان الأول صاحب حق فإن الثانى قوى التفكير ، سريع البديهة ، وقد خيل للشعب أن (شيكار) بالنسبة (لبندارك) ما هو إلا طفل صغير لا يستحق إلا اللعب ، أين (شيكار) من ذلك المارد الجبار الذى يتغلب على كل عقبة تعترض طريقه بقوة تفكيره وغزارة علمه ، كما خيل لهم أن أشعار شاعرهم ما هى إلا كلام يرص وفى غاية السهولة فليست عميقة التفكير ولا هى جديدة فى شىء ، كما لم تكن تحتوى على شىء من العلم أو الفلسفة .

ودهش الملك ونظر إلى شاعره نظرات الغيظ والحنق عليه يستطيع أن يبذل جهده ليرد على (بندارك) تحديه فقد كان الملك يحب شاعره ويصطفيه ، ولكن (شيكار) لم يفعل شيئا ولم يتحرك من مكانه ، فاغتاظ الملك وهبط من عرشه والغضب يملأ عينيه

وكل جارحة فيه ، وأخـذ قلادته اللؤلؤية وزين بها جيد (بندارك) وعند ذلك دوى المكان بالتصفيق الذى لا حد له

فى هذه اللحظة الرهيبة من حياة الشاعر (شيكار) طرق سمعه صوت ضئيل لخلخال ذهبي رنان وحفيف لرداء حريرى يتحرك ، فطفرت من عينه دمعة ساخنة ، لأنه لن يسمع هذا الصوت مرة أخرى فقد حرم الحضور إلى هذا المكان إلى الأبد

* * *

وأفاق الشاعر من غيبوبتـه فرأى المكان خاليا ، فتحامل على نفسه ونهض من مقعده وخرج يجر قدميه جرا . كانت هذه الليلة سوداء حالكة الظلام ضل فيها الشاعر طريقه إلى بيته . فلما وصله بعد طول عناء ، أخذ يجمع مخطوطاته وأشعاره الأولى التى كاد ينسى ما خطه فيها ، وأخذ يعبث بصفحاتها ويقرأ ما كتب فيها ، فخيل له أنها ألعاب صبيانية لا قيمة لها وأنها تافهة عديمة المعنى لا تستحق الرقاع التى كتبت عليها

وكلما فرغ من قراءة صحيفة مزقها وألقى بها فى إناء أمامه يحوى نارا ملتهبة ويقول : إليك أيتها النار يا فتاتى العزيزة ، إليك يا من كنت تشتعلين فى فؤادى طيلة هذه الأعوام الحافلة . إليك أيتها النار يا من ثم تصهرى معدنى ، فلو أنى كنت قطعة من الذهب لخرجت من أتونك بعد هذه الحياة الطويلة ، أصفى معدنا وأكثر لمعانا ، ولكنى كنت جيفة نتنة طالما وطئتها الأقدام فلما ألقيت فيك لم يبق فيها إلا حفنة من رماد أذرته الرياح عند أول هبوبها

وعندما انتهى من حرق أوراقه ، فتح نوافذ غرفته على مصاريعها وأحضر ما عنده من شموع وأوقـدها كلهـا ، ثم نثر الورد والأزهار البيضاء على فراشه وبعد أن انتهى من كل ذلك خلط عصارة بعض النباتات السامـة ببعض العسل ، وتجرع المزيج فى هدوء كأنه يتناول كأسا من الخمر المعتقة ، ثم تمدد على فراشه فى سكون وراحة ، ولـكنه ما كاد يضع رأسه على مخدته حتى سمع صوتا ظنه من أثر السم الذى تجرعه ، سمع رنين خلاخل ذهبية فى خارج منزله ، تحت نافذته ، وهب النسيم يحمل إلى أنفه رائحة زكية طالما استنشقها فى أيامه الماضية ، فتمتم فى وهن وضعف هل يعقل أن تكون هى ؟ «ربما تـكون قد أخذتها الشفقة بخادمها فأتت إليه فى النهاية لتراه وليشبع منها بصره قبل أن يغمض إلى الأبد» وما كاد يتم كلامه حتى سمع صوتا رقيقا على باب غرفته يقول:

ها أنا ذى جئت لأقف إلى جوارك ياشاعرى الحبيب

اليهودى

للقصصى الروسى ايفان ترجنيف

« قص علينا قصة أيها الكيرنل »

وابتسم الكيرنل نيقولا إليتش ونفخ من فمه أسطوانة حلزونية من الدخان انبعثت من شاربيه ، ومسح بيده على شعره الأشهب ونظر إلينا مفكرا ، وكنا جميعا نحب نيقولا إليتش أعظم الحب ونجله أكبر التجلة ، لما اتصف به من طيبة القلب ، ورجاحة العقل ، ولما لمسناه من حدبه علينا نحن الفتية ؛ وكان رجلا طويل القامة عريض المنكبين ممتلئ البدن قويه ، وكان يجتذبنا إلى شخصه وجهه الأسمر ، أحد تلك الوجوه الروسية العظيمة ، ونظرته الصريحة الذكية ، وابتسامته الرقيقة ، ومافى صوته من ضحولة وعذوبة ، كان كل شئ حوله فى الجملة يمتعنا ويستهوينا

وبدأ نيقولا كلامه قائلا « لا بأس . . فاسمعوا إذن »

* * *

حدثت قصتى سنة ١٩١٣ أمام دانزج وكنت أعمل يومئذ فى فرقة ؛ . ألا أنها شئ

وجاهد الشاعر ليفتح عينيه فقد كانتا غائمتين ، فلما استطاع أن يفتحهما بعض الشئ رأى أمام فراشه شبح امرأة ، ظن أنه طيف المرأة التى كرس لها حياته وعاش على رنين خلاخلها وحفيف ثوبها ، قد جاءت لترى وجهه فى آخر لحظة من حياته

وقالت له أنا أوجينا

وحاول الشاعر النهوض من فراشه ولكنه لم يستطع ، فقالت له : إن الملك قد غمطك حقك . إنك أنت الذى انتصرت فى هذه المعركة ، ولكنهم لم يدركوا هذا لقصر نظرهم ! أما أنا التى فهمتك فقد جئتك لأضع على جبينك تاج النصر . وأخذت طاقة من الأزهار كانت تضعها فى صدرها ووضعتها على جبينه

وتحسسها الشاعر ، ثم غمغم فى صوت خافت : هذا هو النصر الذى كنت أسعى إليه ، ثم سقط على فراشه ميتا وقد ارتسمت على شفته بسمة النصر والرضا .

عبد الموجود عبد الحافظ

تمنع أقصف الحرب ! والزحف كذلك طيب في ذاته ، ولكنه يصبح بطيئا أعظم البطء ، جيش محاصر موقعا من المواقع ، هنالك يجلس المرء يومه المبارك كله في ضرب من الخنادق تحت خيمة ، يفترش الطين أو القش ، ويظل يلعب الورق من الصباح حتى الليل ، وربما خرج المرء من فرطضيقه لينظر إلى القنابل وإلى الرصاصات الحامية كأنها النار ، وهي تطير

وأتاح لنا الفرنسيون ما نستمتع به من قصص أنبائهم ، ولكنهم مالبثوا أن تراخوا . وكذلك ركبنا السأم من هجماتنا على القرية المجاورة لسلب المؤن . وفي الحق لقد بلغ بنا الضيق كل مبلغ حتى لقد أوشكنا أن نوتول من الملل !

ولم أكن قد جاوزت التاسعة عشرة يومذاك ؛ وكنت شابا صحيح البدن ، غضا كالزبقة ، لا أفكر في شيء إلا السخرية من الفرنسيين ما وسعتني السخرية ... وثمة أشياء أخرى ... إنكم تفطنون إلى ما أريد ... وها كم ماحدث ...

لما لم أجد ما أعمله ذات يوم عمدت إلى المقامرة ، وواتاني الحظ فجأة بعد أن خسرت خسارة فادحة فربحت قبيل ابتلاج الصبح (فقد اعتدنا أن نلعب في الليـل) قدرا عظيما ، وخرجت وقد بلغ مني الجهد

وتملكني النعاس ، إلى الهواء الطلق فجلست فوق أكمة ؛ وكان صباحا جميلا هادئا وقد غرقت خطوط حصوننا الطويلة في ضباب كثيف ؛ ونظرت حتى نال مني التعب ثم أخذتني سنة وأنا جالس

وأيقظتني سعلة حذرة ، وفتحت عيني فرأيت يهوديا أمامي ، وكان رجلا في الأربعين يرتدي ملحفة رمادية طويلة الذيل ، وينتعل خفين ويضع على رأسه قبعة عالية سوداء . وكان ذلك اليهودي واسمه جريشل كثيرا ماروح ويجيء حول معسكرنا ؛ يعرض خدماته كعامل عند أحد التجار ، ويحضر لنا الخمر والمؤن وغيرها . وكان هزيلا أحمر الشعر ضئيل الجرم ينقط أثر الجدري وجهه وكانت تطرف عيناه الصغيرتان في غير انقطاع ، وكانتا حمراوين كذلك ؛ وكان أقنى الأنف طويله . وكان يسعل دائما

وسألته آخر الأمر ماذا تريد ؟

— أوه — إني فقط ، لقد جئت فقط ياسيدي لأعرف ما إذا كنت ذا نفع لسيادتك في أية ناحية

— ليس بي حاجة إليك ، وتستطيع أن تذهب لسبيلك

— أنا عند أمر سيادتك ، كما تشاء ، حسبت ياسيدي أنه قد يكون هناك ما ...

— إنك تضايقني ، انطلق ، إني

أقول لك

— حقا ، سيدى ، حقا . ولكن سيادتك ينبغى أن تأذن لى أن أهنئك على فوزك

— لماذا ؟ وكيف عرفت ذلك ؟

أوه — إنى أعرف .. إنى أعرف ذلك حقا . . قدر عظيم من المال . . أوه . . ماأعظمه ! وبسط جريشل أصابعه وهزرأسه

وقلت متبرما : وما فائدة الكلام .. ماذا يجدى المال ويحك هنا ؟

— أوه — لا تقل ذلك .. سيدى .. نعم : نعم .. لا تقل ذلك .. المال شئ عظيم الأهمية دائما ذو نفع .. إنك يا سيدى تحصل على أى شئ بالمال .. أى شئ ! أى شئ ! قل ما تريد سيادتك فحسب ، قل لى وأنا أحضر لك ، يا سيدى ، أحضر لك أى شئ ! أى شئ !

— لا تكذب أيها اليهودى

وهز اليهودى خصلات فوديه وهو يقول ، نعم ، نعم ، سيادتك لا تصدقنى ، نعم ، نعم

وأغمض اليهودى عينيه وحرك رأسه ذات اليمين وذات الشمال ثم عاد يقول أوه ، إنى أعرف ، أعرف ماذا يريد صاحب السيادة الضابط ، أعرف ، حقا أعرف ذلك

وتكلف اليهودى ابتسامة من يعرف حق المعرفة

— حقا أعرف

وتلفت اليهودى يمنة ويسرة فى تخوف ثم اتجه نحوى منحنيا وهو يقول

— فاتنة ، أى فتنة ! ، سيادتك ، مخلوقة حلوة ، أية مخلوقة !

وأغمض اليهودى عينيه ثانية وأطبق شفتيه

— سيدى ، لك أن تقول الكلمة فحسب ، سوف ترى بنفسك . ومهما يكن ما أقوله الآن فاسمعه ، ولكنك لا تريد أن تصدق ، مرنى كى أريك ، هذا هو الصواب ، هذا هو الصواب

ولم أتكلم ، ولبثت أحملق فى اليهودى فقال :

— حسن ، لقد اتفقنا إذن . حسن ، هذا جميل ، وسأريك إذن

— وعندئذ ضحك جريشل وربت على كتفى ، ولكنه انكفأ متراجعا فى الحال كما لو أنه لسع

— ولكن ماذا ترى ياسيدى فى شئ ولو قليلا مقدما ؟

— إنك تخادعنى وسوف تريني نوعا من الغربان

— وتكلم اليهودى فى حماسة غير عادية قائلا وهو يحرك يديه يمنة ويسرة ... ما هذا الذى تقول ؟ أى كلام هذا ؟ كيف تقول ذلك ! فيم ... إذا حدث ذلك

سيادتك ... قمر أجلد خمسمائة ... أربعمائة وخمسين جلدة ! ثم أضاف مسرعا إلى ذلك..

إنك الذى يصدر الأوامر يا سيدى

وهنا رفع أحد رفاقى طرف خيمته ونادانى باسمى ، فنهضت معجلا وألقيت إلى اليهودى قطعة نقد من الذهب

وتمتم قائلا من خلق ... هذا المساء ... هذا المساء

ويجب أن أصارحكم أيها الأصدقاء أنى صرت أترقب المساء فى شئ من نفاد الصبر

وكان الفرنسيون فى ذلك اليوم قد هجموا هجمة للخروج من حصارهم ، وزحفت فرقتنا ترد هجومهم

وأقبل المساء ، وتحلقنا حول النار ، وجعل الجند يطهون طعامهم ، وأخذ رفاقى يتحدثون واضطجعت على عباءتى واحتسيت الشاى وأصغيت إلى أقاصيص الرفاق ، ثم إنهم اقترحوا لعبة من لعب الورق ولكنى لم أشاركهم لعبهم ، لقد كان يساورنى القلق ، وتفرق الضباط شيئا فشيئا متجهين إلى خيامهم ؛ وأخذت تنطفئ النيران ؛ وتفرق الجند كذلك أو ناموا حيث كانوا ؛ وكان كل شئ ساكنا ولم أنهض من مكانى ؛ وكان الجندى تابعى يجلس القرفصاء على عقبيه إلى جوار النار وقد أخذ يهوم ؛ فأرسلته بعيدا عنى وشمل المعسكر كله سكون تام ؛

وبقيت فى مكانى فعل من ينتظر شيئا ؛ وأخذت تطرف الكواكب ، وتقدم الليل ، ولبثت طويلا أنظر إلى ألسنة النار وهى تموت ، ثم خمدت أخرى النيران ؛ وقلت فى نفسى محنقا لقد خدعنى اليهودى اللعين ، وكنت على أهبة النهوض من مكانى حين سمعت من يهمس همسا مرتعشا إلى جوار أذنى قائلا سيدى ، فتلفت فإذا هو جريشل ؛ وكان شاحب الوجه جدا ، ثم تلعثم وتمتم ببعض كلمات فى همس قال :

— دعنا نذهب إلى خيمتك ياسيدى

ونهضت فتبعته ، وقد انكمش اليهودى وتداخل بعضه فى بعض ، وخطا اليهودى فى حذر فوق العشب القصير المندى ؛ ورأيت عن كثب شبحا ملففا لا يتحرك ؛ وأشار إليها اليهودى فمشت نحوه ، فهمس فى أذنها ثم اتجه نحوى وأومأ برأسه عدة مرات ؛ ثم دخل ثلاثتنا الخيمة

ومن المضحك أن أقول لكم إنى كنت ساعتئذ لا أكاد أجد نفسى

وهمس اليهودى فى جهد قائلا : أترى ياسيدى ... أنظر ... إنها خائفة الآن بعض الخوف ... إنها خائفة ، ولكنى أخبرتها أن صاحب السيادة الضابط رجل طيب ... رجل عظيم ... لا تخافى ... لا تخافى ... لا تخافى ...

ولم يتحرك الشبح الملفف ؛ وأحسست أنى كنت أنا نفسى فى حال من الاضطراب المخيف ولم أدر ماذا أقول ؛ وكان جريشل لا يفتأ يتمامل ويأتى بإيماءات واهتزازات غريبة وقلت له . على أى حال اخرج أنت !

وأطاع جريشل على غير رغبة منه كما بدا لى

ومضيت إلى الشبح الملفف ، ورفعت فى رفق قلنسوتها الطويلة ؛ وكان فى (دازج) حريق فاستطعت على ضوئه الخافت المحار أن أتبين وجه اليهودية الشاحب ؛ فأخذ جمالها بمجامع قلبى ، وأذهلنى عن نفسى ورفعت النظر إليها محملقا فى صمت ، ولم ترفع اليهودية عينيها . ثم إن حفيفا ضئيلا جعلنى أدور بعينى ، فقد كان جريشل يطل برأسه من تحت حافة الخيمة ؛ فلوحت بيدى نحوه فى غضب فاختفى

وأخيرا قلت لها : ما اسمك ؟

— سارة — ذلك حسب مافاهت به ، وتبينت لحظة فى الظلام لمح البياض فى عينيها الدعجاوين المستطيلتين ، كما تبينت ما كاد يضوى من أسنانها الصغيرة ...

وجذبت مخدتين من الجلد وألقيت بهما على الأرض وسألتها أن تجلس على إحداها فأزاحت ملحفتها عن كتفيها وجلست ؛ وكانت ترتدى سترة قوزاقية قصيرة مفتوحة من الصدر ذات أزرار مستديرة فضية منقوشة ، وردتين كاملين ؛ وكان شعرها الأسود الكثيف ملفوفا لفتين حول رأسها الصغير ؛ وجلست إلى جوارها وأخذت يدها الرشيقة بيدى ؛ فمانعت بعض الممانعة ، وبدت كأنها تخاف أن تنظر إلى ، وكان فى تنفسها لهفة ، ولقد أعجبت بمنظر وجهها الجانبى الشرقى السمات وضغطت فى رفق بيدى على أصابعها المرتعشة الباردة فقلت لها :

أتتكلمين الروسية ؟

فقالت : نعم بعض الشىء

فقلت : وهل تحبين الروس ؟

فأجابت : نعم إنى أحبهم

فقلت : إذا فأنت تحبيننى كذلك

فقالت : نعم إنى أحبك

وحاولت أن أدور بذراعى حول خصرها ولكنها نفرت منى مسرعة وهى تقول :

لا . لا . أرجوك ياسيدى . أرجوك

فقلت لها : أوه ... لا بأس ... أنظرى إلى على أية صورة

وتركت عينيها الدعجاوين النافذتين تستقران على وجهى ولكنها ما لبثت أن استردتهما باسمة تصبغ وجهها الحمرة .

ولثمت يدها فى حرارة ، فصوبت إلى لحات من تحت أجفانها وضحكت ضحكة خفيفة

فسألتها : ماذا يضحكك ؟

فأحنت وجهها في ذهب وضحكت أكثر من ذي قبل

وظهر جريشل في مدخل الخيمة وهز خنصره محذرا : فأمسكت عن الضحك

وهمست به بين أسناني قائلا : أغرب عني إنك تورثني السقم !

ولم يبرح جريشل الخيمة ؛ فأخذت قبضة من الذهب من جعبتي ودسستها في يده ودفعته إلى الخارج

فقالت اليهودية : ياصاحب السيادة . .

وأنا كذلك ...

فنثرت عددا من القطع في حجرها فانقضت عليها كالقطة

فقلت لها : حسن ... يجب الآن أن أظفر بقبلة

فقالت : لا ... أرجوك ... أرجوك —

ومضت تمانع في صوت مذعور مستعطف

فسألتها : مم تخافين ؟

فأجابت : إني خائفة

فقلت لها : كلام فارغ

فقالت : كلا أرجوك ...

ونظرت إلي في استحياء وخوف ، ومالت برأسها قليلا إلى جانبها وشبكت يديها فكففت عنها

ثم قالت بعد صمت قليل : إذا كنت تريد ... فهنا ، ورفعت يدها إلى شفتي فلثمتها في شغف غير كثير وعادت سارة تضحك

وأحسست بدمي يغلي ؛ وضقت بنفسي ، ولم أدر ماذا أصنع ، لقد فكرت أخيرا أني مائق أحمق ، واتجهت نحوها ثانية وقلت :

— سارة ، اسمعي إني أحبك

فأجابت : أعرف ذلك

فقلت : تعرفين ؟ ألست غاضبة ؟ وهل تحبينني كذلك ؟

وهزت سارة رأسها

فقلت : لا — أجيبيني كما ينبغي

فقالت : حسن أرني نفسك

وانحنيت نحوها ، فوضعت سارة يديها على كتفي ، وراحت تنعم النظر في وجهي وقطبت وابتسمت . . ولم أتمالك نفسي فقبلت خدها قبلة سريعة ، فانتفضت قائمة ، وفي وثبة واحدة كانت لدى مدخل الخيمة

فدعوتها تعالي ، أي فتاة خجولة أنت !

فلم تنطق سارا بكلمة ولم تتحرك

وعدت أدعوها : تعالي هنا إلي

فقالت : لا ياسيدي ، إلى اللقاء مرة أخرى

وأطل جريشل مرة أخرى برأسه المجعد وهمس في أذنيها كلمتين ، ثم بعدها وزحفت خارجة كالثعبان . .

وعدوت في أثرها خارج الخيمة ، ولكني لم أستطع أن أراها أو أرى جريشل ، ولم أجد إلى النوم سبيلا ليلتي كلها

وفى الصباح الثانى كنا جلوسا فى خيمة قائد فرقتنا ، وكنت ألعب الورق ولكن فى غير إقبال ودخل تابعى الجندى وقال « إن شخصا يسأل عن سيادتك »

فقلت : من هو ؟

فأجبت قائلا : يهودى

أيمكن أن يكون جريشل ؟ وانتظرت حتى انتهى الدور وذهبت إلى خارج الخيمة فوجدته إياه

وسألنى وهو يبتسم ابتسامة استعطاف قائلا هل أنت راض عنى ياسيدى ؟

آه أنت يا.. وتلفت محدثنا باحثا بعينيه قائلا:

... ليس هنا سيدات فيما أعتقد، لاعلينا من هذا على أى حال ، آه ، باركك الله هكذا أنت تعبث بى ، أليس كذلك ؟

وقال جريشل فى لهجة تأنيب ولكن ابتسامته لم تفارقه : إى ، إى ، أنت رجل بطال جدا ! إن الفتاة صغيرة خجولة ، لقد أخفتها حقا ، حقا لقد فعلت

فقلت : نوع غريب من الخجل حقا ... لماذا إذن أخذت نقودا ؟

فقال اليهودى : لماذا ؟ وماذا فى ذلك؟ إذا وجد المرء مالا فلماذا لا يأخذه ياسيدى ؟

فقلت : دعها تحضر ثانية ياجريشل ، وسوف أكون كما تحب ، كل ما أطلب هو ألا ترينى وجهك الغبى داخل الخيمة ، دعنا فى أمن ، أسامع أنت ؟

والتمعت عينا جريشل ثم سألنى :

— ماقولك فيها ، أتحبها ؟

قلت : نعم

فقال : إنها جميلة ، مخلوقة حلوة! حلوة! ليس كمثلها أينما اتجهت ، وهل لديك شئ لى الآن ؟

فأجبته : نعم ، هاك ، لكن اسمع ، الصدق خير من الذهب ، أحضرها ثم اذهب إلى جهنم وسأرافقها بنفسى حتى بيتها

فأجاب اليهودى مسرعا : لا ياسيدى ، لا ، هذا مستحيل ياسيدى ، نعم ، نعم هذا مستحيل ، سأمشى حول الخيمة إذا شئت ياسيدى . وسوف ، وسوف ، أبعد ياسيدى. إذا شئت ، قليلا ، ستجدنى مستعدا أبدا لخدمتك ، سيدى سأبتعد ، حقا سوف أفعل.

فقلت : حسن ، تذكر أن تفعل ذلك ، أحضرها .. أسامع أنت ؟

فقال : إه ... ولكنها جميلة، ياسيدى ، جميلة ، إه ؟

وانحنى جريشل ونظر إلى بعينيه الطارفتين.

فقلت : إنها حسنة الهيئة

فقال : حسن ، إذن فأعطنى قطعة أخرى من الذهب

وألقيت إليه بقطعة أخرى ثم افترقنا وأخيرا انقضى النهار ، وهبط الليل

وتقدم ، ولقد بقيت مدة طويلة وحدى فى خيمتى وكان الظلام شديدا خارج الخيمة ، وسمعت فى المدينة دقة الساعة وكانت الثانية .. وبدأت ألعن اليهودى ساخطا ، وإذذاك دخلت سارة الخيمة وحدها ؛ فوثبت من مكانى ، وأخذتها بين ذراعى ، ووضعت شفتى على وجهها ، وكان باردا كالثلج ؛ ولم أتبين ملامحهـا إلا فى جهـد ، فأجلستها وجثوت أمامها ، وتناولت يديها ولمست خصرها ، ولم تتكلم ولم تتحرك ، ثم إنها فجـأة راحت تجهش إجهاشات عاليـة وهى تنتفض ، وحاولت عبثا أن أهدئ روعها ، أو أغريها ، ومضت تبـكى بدمع هتون ، فهدهدتها ، ومسحت دموعها ، فلم تقاوم ، ولم تجب عن أسئلتى ، ومضت تبكى ، تبكى كمسقط المـاء وشعرت بالألم يحز قلبى ، فنهضت وخرجت من الخيمة

وبدا جريشل كأنما انبعث أمامى من الأرض فقلت له : « هاك المال الذى وعدتك به ياجريشل ، خذ سارة من هنا »

واندفع اليهودى لتوه نحوها فـكفت عن البكاء ، وتعلقت به

فقلت: وداعا ياسارة ، يرعاك الله ، وداعا ، سوف يرى كلانا صاحبه مرة ثانية

ولزم جريشل الصمت ، وأحنى رأسه فى خضوع ، وانحنت سارة وأخذت يدى وضغطت بها على شفتيها ؛ ثم انصرفت عنهما

وبقيت يارفاق خمسة أيام أو ستة دائم التفـكير فى صاحبتى اليهودية ؛ ولم يظهر جريشل ولم يره أحد فى المعسكر ، وكنت أنام الليالى نوما متقطعا ، وكانت تلازم خيالى عينان سوداوان قدتندتا ، وأهداب طويلة ؛ ولم تنس شفتاى خدها وقد كان ناعما ناضرا كأنه الخوخة الحريرية الملمس .

وأرسلت بعد ذلك فى جماعة لسلب المؤونة من إحدى القرى على مسافة منا ، وبقيت فى الشارع على ظهر جوادى بينما كان الجنود يسعون فى البيوت نهبا ؛ وعلى حين غفلة أمسكت يد بإحدى قدمى فنظرت فإذا سارة ! وكانت شاحبة مضطربة تقول :

سيدى ، أغثنا ، خلصنا ، إن جنودك يعتدون علينا ويهينوننا .. ثم عرفتنى فألهبت وجهها الحمرة

وسألتها : أتقيمين هنا ؟

فأجابت : نعم

فقلت : أين ؟

فأشارت سارة إلى بيت صغير قديم .

وهمزت فرسى وأسرعت به إلى ردهة البيت فوجدت يهودية قبيحة محطمة تحاول أن تنتزع من شاويشى الطويل سبيليافكا ثلاث دجاجات وبطة ، وكان يرفع أسلابه فوق رأسه ضاحكا ؛ وكانت تصيح الدجاجات

والبطة ، وكان جنديان آخران يحملان حصانيهما بالحطب والدقيق ؛ وسمعت داخل البيت صيحات وأغانا تقسم بلغة روسيا الجنوبية ، وناديت جنودى وأمرتهم أن يدعوا اليهود فلا يأخذوا منهم شيئا فأطاعوا وتبعنى الشاويش فوق فرسه إلى الشارع

وقلت لسارة : الآن هل سرك منى ما فعلت ؟

فنظرت إلى وفى ثغرها ابتسامة فقلت :

— ماذا كان من أنبائكم طوال هذه المدة ؟

فخفضت عينيها ثم قالت: سوف أحضر إليك غدا

فسألتها : فى المساء ؟

فقالت : لا يا سيدى فى الصباح

فقلت : لاتنسى أن تفعلى ، لاتخدعينى

فأجابت : كلا ، كلا لن أخدعك

ونظرت إليها فى شغف ، وقد بدت لى فى ضوء النهار أروع منها فيا مضى ، وأذكر أن ما راعنى بوجه خاص ساعتئذ ما كان فى وجهها من مسحة خفيفة من لون العنبر ، وما كان فى شعرها الأسود من زرقة براقة ، ثم انثنيت عن ظهر جوادى وشددت على يدها الصغيرة فى حرارة

* * *

واستيقظت من نومى مبكرا فى اليوم التالى ، وارتديت ملابسى وخرجت من خيمتى ؛ وكان صباحا رائعا : وكانت الشمس قد بزغت لتوها ؛ وكان كل عود من الحشيش يبرق بما عليه من ندى ومن شعاع أحمر ، وصعدت إلى أحد المتاريس العالية ، وجلست على حافة كوة مدفع ، وكان أسفل منى مدفع ضخم يصوب فوهته السوداء نحو المدينة المكشوفة ونظرت حولى فى فتور ، فوقع بصرى فجأة على شبح منحن فى ملحفة رمادية على مائة خطوة منى : وتبينت فيه جريشل . ولقد وقف لحظة طويلة لا يتحرك فى مكان واحد ، ثم أخذ فجأة يعدو إلى مسافة قصيرة على أحد جانبيه ، ثم تلفت حوله فى سرعة ولهفة ، وصاح صيحة ثم أقعى فى حذر ، ثم مد عنقه وأخذ يتلفت حوله ثانية ومد سمعه ؛ وكنت أرى حركاته هذه فى وضوح تام ؛ وأدخل يده فى صدره وأخرج قطعة من الورق وقلم رصاص ، وأخذ يكتب أو يرسم شيئا . وكان جريشل يتوقف ثم يتوثب كالأرنب ، ينعم النظر فى كل شئ حوله متيقظا ، وبدا كأنما يخط رسما للمعسكر ؛ ولقد أخفى ورقته أكثر من مرة ، وأغمض عينيه نصف إغماضة ، ونشق من الهواء نشقة ثم عاد إلى عمله . وأخيرا جلس اليهودى القرفصاء على الحشيش ، وخلع أحد خفيه وأخفى فيه ورقته

ولم يكد يهم اليهودى بالوقوف حتى ظهر

فجأة من خلف كثيب على عشر خطوات وراءه ، وجه ذو لحية ، وهو وجه الشاويش سيليافكا ، وانبعث جسمه الطويل القبيح نيئا فشيئا من الأرض ؛ ووقف اليهودى وظهره إليه ، فأسرع سيليافكا نحوه ووضع كفه الثقيلة على عاتقه ! وبدا جريشل كأنما ينكمش بعضه فى بعض ؛ واهتز كورقة الشجرة وصرخ صرخة ضعيفة مثل صرخة الأرنب وخاطبه سيليافكا متهددا إياه وأخذ بتلابيبه ؛ ولم أسمع ما دار بينهما ، ولكن مما رأيته فى وجه جريشل من أمارات اليأس والخوف ، وما شهدته من حركاته الضارعة استطعت أن أحدس ماذا فعل

ولقد ارتمى اليهودى مرتين على قدمى الشاويش ؛ وأدخل يده فى جيبه وأخرج منديلا خلقا وحل عقدته وأخرج منه قطعا ذهبية من النقد ، وأخذ سيليافكا ما قدم إليه فى كثير من الشمم ، ولكنه لم يكف عن سحب اليهودى من تلابيبه ؛ وجذب اليهودى نفسه فجأة وانطلق يعدو ، وتبعه الشاويش مسرعا ، وكان اليهودى يعدو عدوا شديدا ؛ وكانت ساقاه فى جوربيه الزرقاوين ترفان فى سرعة عظيمة ، ولكن الشاويش ما لبث أن أدرك اليهودى وقد تكور على الأرض فأنهضه ، وحمله بين ذراعيه إلى المعسكر ؛ ونهضت من مكانى وذهبت لمقابلته

وصاح سيليافكا : « آه ، ياسيدى هذا جاسوس ، لقد جئتك بجاسوس !! » وكان العرق ينصبب من جبهة الشاويش ؛ وراح سيليافكا يزجر اليهودى قائلا « كف عن التملص أيها اليهودى الشيطان ، أتسمع قولى ؟ أيها الشقى ، كف وإلا خنقتك »

وكان جريشل التعس يضرب بمرفقيه صدر سيليافكا فى ضعف ، وكان يركل الهواء برجليه فى ضعف كذلك ، وكانت تطرف عيناه فى تشنج

وسألت سيليافكا ماذا حدث فقال وكان لا يزال يحمل جريشل بين ذراعيه : « إذا تفضلت نخلعت الخف من قدمه اليمنى فإنى لا أستطيع أن أمسكها »

وخلعت خفه فأخرجت منه قطعة من الورق مطوية فى عناية ، وبسطتها فوجدت فيها رسما دقيقا لمعسكرنا ؛ وكان على هامشها بعض الكلمات فى خط دقيق باللغة العبرية

وأنزل سيليافكا اليهودى وأوقفه على قدميه ، وفتح اليهودى عينيه ، فما أن رآنى حتى خر على ركبتيه أمامى ؛ وأريته الورقة دون أن أتكلم وسألته ما هذا ؟ »

فأجاب لا شئ ، سيدى ، لا شئ إنى كنت فقط . . .

فقلت له : أأنت جاسوس ؟

ولم يع ما أقول وغمغم ببعض كلمات متقطعة ثم ضغط على ركبتى فى رعب وهو جاث أمامى

وسألته ثانية : أأنت جاسوس ؟

— فصاح صيحة خافتة وهو يهز رأسه « أنا ؟ كيف أكون كذلك ؟ لم أفعل ذلك قط ولست جاسوسا أبدا ، هذا غير ممكن ، غير ممكن ألبتة ، إنى مستعد ، سوف ، هذه الدقيقة ، إن لدى مالا أعطيه ، سوف أدفع مالا .. »

وهمس بالجملة الأخيرة ثم أغمض عينيه وانزلقت قبعته العالية إلى الخلف حتى عنقه ، وتندى شعره المحمار بعرق بارد ، وتدلت منه ذيول وكانت شفتاه زرقاوين ، تختلجان فى حركة تشنجية ، وكان حاجباه مقطبين فى صورة أليمة وبدا وجهه مسنونا

وجاء الجند فتحلقوا حولنا ؛ وكنت قد اعتزمت أول الأمر أن أخوف جريشل ثم آمر سيليافكا أن يكتم الأمر كله ؛ ولكن النبأ ذاع الآن ، ولابد أن يبلغ مسامع القائمين على شؤون الحرب . فقلت للشاويش خذه إلى القائد

وصرخ جريشل وفى صوته نبرة اليأس « سيدى ... سيدى ... لم آت ذنبا ... مره يطلقنى مره يطلقنى ... »

وقال له سيليافكا « هيا ... إن القائد سوف يقضى فى أمرك »

وعاد اليهودى يصرخ ورائى « سيدى مره ... كن رحيما بى »

وآلمتنى صرخته ، فأسرعت الخطا ، وكان قائدنا ألمانى الأصل ، وكان رجلا أمينا طيب القلب ولكنه كان شديد الحرص على اتباع قوانين الحرب ؛ ولقد توجهت إلى البيت الصغير الذى كان قد أعد له على عجل وشرحت له فى كلمات قصيرة سبب زيارتى إياه ! ولما كنت لا أجهل صرامة القوانين الحربية ، فقد تجنبت فى حديثى كلمة (الجاسوس) وحاولت أن أصور له المسأله على أنها شئ تافه لا تستحق الالتفات ، ولكن القائد لسوء حظ جريشل قد وضع واجبه فوق الرحمة ... وقال لى فى عبارة روسية غير سليمة « إنك أيها الشاب غير مجرب ... أجل إنك فى أمور الحرب لست ذا تجربة بعد ؛ وإن المسألة التى تحدثت عنها خطيرة ، عظيمة الخطر ... أين ذلك الرجل الذى ضبط ؟ أين هو ؟ »

وخرجت فطلبت إلى الجند أن يحضروا اليهودى ؛ وجاءوا به فأدخلوه وكان ذلك المخلوق البائس لا يكاد يستطيع الوقوف على رجليه

فقال : القائد متجها نحوى «والآن أين الرسم الذى وجد معه ؟ »

وأعطيته الورقة فنظر فيهـا وقطب حاجبيه وقال فى تؤدة « هذا مدهش جدا ، من قبض عليه ؟ »

فانبعث سيليافـكا يقول فى قوة « أنا يا صاحب السعادة »

فقال القائد : آه هذا حسن، حسن، والآن أيها الرجل ماذا تقول دفاعا عن نفسك ؟

وتمتم جريشل قائلا « أنا ، سعادتك ، حقا ، سعادتك ، إنى لست مذنبا ، سل الضابط سل سيادته ، أنا بائع ، يا صاحب السعادة ، بائع أمين »

وقال القائد فى صوت خافت وهو يهز رأسه عابسا « يجب أن يستجوب ، تعال ، كيف تفسر هذا يا صاحبى ؟ »

فقال اليهودى : لست مذنبا ، يا صاحب السعادة ، لست مذنبا

فقال القائد : لقد ضبطت متلبسا

فأجاب : صدقنى ، ياسيدى أنا ، أنا لم أجرم

فسأله : هل رسمت هذا؟ أأنت جاسوس للعدو؟

— فصرخ جريشل فجأة « لم أكن أنا سعادتك ... لست أنا ... »

فنظر القائد إلى سيليافـكا فقال هذا « عجبا إنه يهذى يا صاحب السعادة ، إن الضابط ، هو الذى أخرج الورقة من أحد خفيه »

ونظر القائد إلى فوجدتنى مضطرا إلى أن أومئ برأسى موافقا

وقال القائد : أنت جاسوس للعدو أيها الرجل

وأجاب جريشل : لست أنا ... يا صاحب السعادة ، لست أنا

فقال القائد : اعترف ؛ هل أمددت العدو بمعلومات كهذه من قبل ؟

فقال اليهودى : كيف أستطيع ذلك ؟

فقال القائد : إنك لن تخدعنى أيها الرجل ... قل أأنت جاسوس ؟

وأغمض اليهودى عينيه وهز رأسه ورفع طرف سترته

ونطق القائد بعد صمت قصير قائلا فى حزم « أشنقوه وفق القانون ... أين فيودور شليكلمان ؟ »

وانطلق بعض الجند ليحضروا شليكلمان مساعد القائد ؛ وأخذ وجه جريشل يبدو مخضارا وفغر فاه ، وجحظت عيناه كالو أرادتا أن تخرجا من محجريهما ؛ ودخل القائد المساعد فأخبره القائد بما يفعل ؛ ثم دخل الحجرة بعض الضباط يتساءلون بالأحداق

وخاطبت القائد بالألمانية على قدر ما أستطيع « أرجو منك الرحمة به يا صاحب السعادة ... أطلقه »

فأجابنى بالروسية . أنت أيها الشاب غير مجرب كما قلت لك ، فالزم الصمت ولا تضايقنى أكثر مما فعلت »

وألقى جريشل بنفسه صارخا فوق قدمى القائد

« عفوك أيها القائد … رحمة بى …

… لن أعود إليها أبدا … لا لن أعود …

إن لى زوجة … يا صاحب السعادة …

وبنتا … كن رحيما بى »

وقال القائد : عبثا تحاول

فقال اليهودى: حقا.. ياصاحب السعادة.. أنا مذنب … إنها المرة الأولى … ياصاحب السعادة … المرة الأولى … صدقنى

وعاد القائد يسأله : ألم ترسل معلومات قبل هذه؟

فأجاب : هذه أول مرة ، ياصاحب السعادة زوجتى ، أطفالى ، رحمة بى

فقال القائد : ولكنك جاسوس

وأحس القائد كأن شيئا يخزه ، ولكنه لم يجد بدا ، فقال متمالكا نفسه فى هيئة من يضطر إلى أن يأتى من العنف ما يهز قلبه ، ومن يضحى بمشاعره الطيبة فى سبيل الواجب الذى لا معدى عنه : « اشنقوا اليهودى حينما يقضى به القانون ، اشنقوه ، وأنت يا فيدور أرجو منك أن تضع تقريرا عن الحادث »

وغشى اليهودى فجأة تغير مخيف ، فبدلا من ذلك الرعب المتهيب الذى هو من خصائص طبيعته ، حل فى وجهه ذلك الألم الرهيب الذى يسبق الموت ؛ وتنزى كما يتنزى الوحش السجين ؛ وظل فمه مفتوحا وسمعت حشرجة فى حلقه ؛ وصار يثب ويهبط ، محركا مرفقيه فى تشنج ، وكان ينتعل خفا واحدا ، فقد نسوا أن يعطوه ثانى الخفين ؛ وانفتحت سترته ووقعت قبعته عن رأسه

وأخذتنا جميعا هزة ووقف القائد بما كنا فى صمت ، وتقدمت إليه ثانية فقلت « ياصاحب السعادة هلا رحمت هذا المخلوق البائس

فأجاب القائد فى ثبات وإن لم يخل من انفعال قائلا « مستحيل ، إنه القانون ، وفى ذلك ردع لغيره »

وقلت : الرحمة ، أرجوك من أجل الرحمة

وصاح بى القائد « أيها الضابط لا تتكلم وعد إلى موضعك » ثم دفعنى فى غطرسة نحو الباب

وخييت وخرجت ؛ ولما لم أكن مكلفا بموضع معين ، فقد بقيت غير بعيد من بيت القائد وظهر جريشل بعد دقيقتين يحيط به ضابط وثلاثة من الجند ؛ وكان اليهودى المسكين فى ذهول عن نفسه يكاد لا يقوى على أن يجر رجليه ؛ وذهب سيليافكا إلى المعسكر وعاد بعد قليل وفى يده حبل ؛ وكانت تبدو على وجهه الغليظ نظرة عجيبة من رثاء وغضب ؛ ولما رأى اليهودى الحبل

استلقى على الأرض ووضع رأسه بين ذراعيه وأخذ ينتحب ؛ ووقف الجند صامتين حوله شاخصين بأبصارهم إلى الأرض ؛ وذهبت إلى جريشل وخاطبته ، وكان يجهش كالطفل ، ولكنه لم يجبني بل ولم ينظر إلى ؛ ومضيت واليأس فى وجهى إلى خيمتى وارتميت على البساط مغمضا عينى

ودخل شخص خيمتى فجأة فرفعت رأسى فإذا هى سارة ! فاندفعت نحوى وتعلقت بى وأمسكت بيدى ، وألحت على لاهثة ... هيا ... هيا

فقلت : إلى أين ؟ ولم نخرج ؟ لنبق هنا ، فقالت : أنقذه ، أنقذه ، الأب ! الأب !

فصحت بها : أى أب ؟ أبو من ؟

فأجابت : أبى ، إنهم سيشنقونه

فقلت : ماذا ؟ هل جريشل . .

فقاطعتنى قائلة : إنه أبى ، أبى ، وسأخبرك عن ذلك فيما بعد

ثم أضافت وهى تدفعنى فى يأس بداييد « هيا ... هيا »

وخرجنا نعدو من الخيمة ، واستطعنا أن نرى فى الفضاء على مقربة من شجرة فريدة جمعا من الجند ، وأشارت إليهم سارة بيدها دون أن تتكلم

فصحت بها قائلا « قفى » إلى أين نعدو؟ « إن الجند لن يطيعونى »

ولكن سارة مافتئت تجذبنى من يدى ورحت أعدو خلفها . ويجب أن أعترف أن الأرض قد دارت بى . ثم عدت أصيح بها ألا فائدة من ذهابنا ، وأن الأفضل أن نذهب إلى القائد ، فربما استطعنا أن نقنعه

ووقفت سارة فجأة ولبثت تحملق فى وجهى كأنما مسها جنون فقلت لها « إفهمينى ياسارة ، أرجو أن تدركى أنى لا أستطيع أن أفعل شيئا ، ولا أملك لأبيك شيئا ، ولكن القائد يستطيع فلنذهب إليه »

فقالت فى نبرة يخنقها البكاء « ولكنهم قد يفرغون من شنقه أثناء ذلك »

ورأيت سكرتير القائد، فرجوت منه أن يسمح لهم بالتريث ريثما نلقى القائد، فذهب إليهم بهذا الرجاء . ولم يسمح لنا بالدخول على القائد وعبثا رحت أتوسل وأقسم الأيمان ، وعبثا راحت سارة تشد شعرها وتلطم خديها . ثم إن المسكينة أمسكت رأسها بيديها وأخذت تعدو صوب الشجرة ، حيث يشنق أبوها ، وتبعتها إلى هناك وما من أحد إلا وهو ينظر إلينا متعجبا

وكان الجند قد تحلقوا حول الشجرة ، وكانوا يضحكون. تصوروا ذلك أيها السادة ! أجل كانوا يتغامزون ويضحكون من جريشل المسكين . فصحت بهم زاجرا . ورآنا اليهودى فارتمى على ابنته وأدار ذراعيه على

عنقها ، وتعلقت به سارة فى كثير من الحنان ، وظن السكين أنه قد عفى عنه ، وبينما كان يهم بشكرى أشحت بوجهى فصرخ قائلا « ياصاحب السعادة ، ألم أنل العفو ؟ » ثم دق كفا بكف حين وقفت صامتا وحين قلت بعدحين « كلا » . وتمتم المسكين فى صوت خفيف . أنظر ياصاحب السعادة ، هذه البنت ، إنها ابنتى ، وإنى ما كنت أبتعد قط عن الخيمة . ما كنت لأفعل ذلك مهما يكن الثمن » ثم خر جاثيا وأغمض عينيه لحظة وراح يقول «إنى طلبت مالك ، يجب أن أعترف بذلك . ولكن لم أطلبه من أجل شىء .. »

وضقت باليهودى ، ثم أحسست أنى ضائق كذلك بشريكته ، ولكنه عاد يهمس إلى « الآن إذا نجيتنى فإنى سآمرها ، سوف ... هل تفهمنى ؟ كل شىء .. سأذهب إلى النهاية »

وجاء نائب القائد نخاطبنى بقوله « أيها الكورنت أمرنى القائد أن أقبض عليك » واتجـه نحو الجند قائلا « أما أنتم فعليكم باليهودى ، أسرعوا »

وقلت لنائب القائد « مرهم على الأقل أن يبعدوا هذه الفتاة »

وجذب الجند سارة من أبيها فى كثير من العناء ، وابتعدوا بها نحو عشرين خطوة ولكنها مالبثت أن أفلتت منهم واندفعت نحو أبيها ، واعترض لها سيليافكا ولكنها دفعته من طريقها ، وقد صعد الدم إلى وجهها الشاحب والتمعت عيناها، ثم بسطت ذراعيها وأخذت تصيح قائلة : « لتنزل بكم اللعنة ثلاثا.. لعنة الجوع والتشريد والعار ، لتبتلعكم الأرض أيها الكلاب المتعطشون إلى الدم أنتم يامن لا رحمة لكم ولا دين

ثم خرت صعقة فرفعوها وبعدوا بها :

وأقبل نفر منهم فأخذوا جريشل ، وكان المسكين يئن «أوى ... أوى ... أوى ... لحظة ... لدى شىء أقوله لكم ... شىء هام ... دقيقة واحدة ... أنتم تعرفوننى ... أنا بائع أمين مسكين ... انتظروا ... دعونى ... سارة ... أين سارة ؟ أوه ... أعلم أنها عند سعادة ضابط هذه المنطقة ... أيها الضابط ياصاحب السعادة أبتعد عن الخيمة ... نعم سأبتعد ... أنقذ رب أسرة ... سأعطيك عشرة قطع من الذهب ... خمس عشرة قطعة ... رحمة بى أيها القائد ... أوى ... أطلقونى »

ووضعوا الحبل حول عنقه ، ووضعت كفى على وجهى وانطلقت متراجعا . وقضيت أسبوعين مقبوضا على

ولما أطلق سراحى ، خرجت وحملت إلى المستشفى ، ثم سلمت دانزج ، ومضينا ، ولا أزال كلما ذكرت دانزج ذكرت سارة تلك اليهودية الساحرة

البيت الخالي

للقصصي الإنجليزي برسن جريم

إنه صدى خافت لصرخة حزينة تنبعث من نافذة من نوافذ الطابق الثاني . . . لا شيء أكثر من هذا ؛ ولكن هذا الصدى على ما كان من خفوته قد أعقب سلسلة غريبة من الوقائع . لقد ألفى أوستن شيرتن نفسه — وهو الذي كان من قبل لصا جسورا لا يرعوى — مشتبكا في سلسلة عجيبة من الحوادث لعب فيها دور البوليس السرى

وكان عجيبا حقا أنه لم يكن إلا على مسير خمس دقائق من مسكنه في شلسى : وكان ينقل الخطا متئدا، نحو منزله عائدا من مشية بعد العشاء ، حين أوقفه صوت تلك الصرخة . لقد جاءت ، كما أيقن من ناحية (البريت) الذى يقع مباشرة عن يساره، وعلى ذلك فقد نظر مستديرا على عقبيه نظرة فاحصة إلى ذلك البيت

وكان يكتنف البيت ظلام تام . على أنه لم يكن فى ذلك الشارع من أوله إلى آخره إلا قليل من النوافذ التي يرى فيها النور . ولقد انتظر انتظارا لا شعوريا سرحة أخرى وهو واقف يترقب، ولكن شيئا من ذلك لم يقع. وكان الليل ساكنا كما لو أنه لم يحدث شىء غير عادى ؛ ولم يسمع أى شخص آخر كما يبدو صوتا ما ، ذلك لأنه لم يكن هناك من يُرى سواء فى البيت أو فى الطريق

ولقد أخذ يتساءل عما إذا كان قد تخيل كل هذا ؛ فلقد ظل يشتغل جاهدا فى حرفته إلى ساعة متأخرة ، فإن ما ذهب له من صيت كنقاش كان قد أخذ يزداد فى سرعة . ثم إنه وقف مترددا ، لأنه وإن كان قد سمع صرخة فليس فى ذلك ما يهمه ؛ وليس ثمة ما يستطيع عمله : ولكن غرائزه كانت تملى عليه ألا يصغى إلى العقل ؛ وربما كان مرد ذلك إلى أنه اكتشف نبرة فتية فى تلك الصرخة ؛ كما لو أنها انبعثت من بين شفتى طفلة

ثم قال فى نفسه فيما يشبه الغضب : « ألم فى الأسنان » لا بد أن ذلك الصغير التعس يعانى نوبة من الألم.

مفاجئة . . . » ولكن لم لم يكن هناك أى دليل على الحياة فى البيت ؟ ثم لم يكن هناك من يسرع إلى ذلك المتألم بما عسى أن ينجده ؟

نبذ ذلك كله ، فليس ثمة ما هو من شأنه ؛ ثم إنه نزل ببصره فى شىء من التردد عن الطابق الثانى وابتسم ضاحكا . ولكنها لم تكن ضحكة فكهة . إنها كانت ضحكة الضيق لأنه لاحظ حينذاك لأول مرة ما غفل عنه حتى ذلك الوقت . لقد كان البيت خاليا ، إذ كانت تغطى طائفة من الإعلانات نوافذه السفلى

واستدار معتزما أن يتابع سيره إلى بيته وخطا خطوة فى سبيله — وللمرة الثانية سمع صرخة ! وأقسم هامسا بين أنفاسه : إنه لم يعد هناك شك يخالج ذهنه الآن . لقد كان طفلا ذلك الذى صرخ ، طفلا يتألم . وأسوأ من هذا أن الصرخة قد خبست فجأة كما لو أن يداً ثقيلة قد طبقت على فم الطفل . وقد حدث كل ذلك فى بيت يبدو أنه خال ! لقد قطب جبينه . . فإن فى الأمر شيئا مريبا ، شيئا يتطلب البحث

ولما اقتنع بهذه الحقيقة اطمأن إلى قديم سليقته ومكره ، واتخذ سبيله متئدا إلى الأمام . فإنه يكاد يوقن أن الشخص الذى كتم صرخة الطفل سوف يسرع إلى النافذة ليستوثق مما إذا كان قد سمع شىء خارج المنزل ؛ فإذا أبصر ذلك الشخص رجلا فى الطريق ينظر إلى أعلى فإنه يدرك أن شكا قد انبعث ، وعلى ذلك فما دام أنه قد أنذر فلابد أن يأخذ حذره فيتسلح قبل أن يباغت

وبينما كان شيرتن سائرا أخذ يفكر فيما يستطاع عمله . أما أنه لابد من عمل شىء فذلك ما انتهى إليه رأيه ، فإن وجود طفل فى قبضة عات غليظ القلب مجرم قد أيقظت فى نفسه كل مشاعر النجدة والعطف ، تلك المشاعر التى لم تغص قط فى أغوار نفسه بحيث لاتبرز إلى السطح ، حتى أيام أن كان مجرما

لقد كان أوضح السبل أمامه أن يذهب إلى مخفر البوليس بقصته . ولكن لو أنه فعل فماذا عسى أن يفعل البوليس ؟ أكبر الظن أنهم سوف يصغون غير مصدقين ، وبخاصة حين يعلمون أن البيت خال ؛ وإذا فرض أنه استطاع أن يحملهم على أن يصدقوه فماذا فى طوقهم أن يعملوا ؟ وأخذ يكرر ذلك فى نفسه .

إنهم ما لم يحصلوا على إذن قضائى لن يستطيعوا أن يقتحموا المنزل . وإنه ما لم يقدموا بينة حاسمة فليس من المحتمل أن يحصلوا على هذا الإذن . وكذلك لم يغب عن

شيرتن ما يمكن أن يفسر به الأمر من أن أحد المتكلمين بالمحافظة على ذلك العقار كان يوقع بابنه عقابا يستطيع أن يزعم أنه عقاب قانونى خفيف

وابتسم مكره فكرة ، ذلك أنه إذا لم يستطع البوليس أن يبحث هذه المسألة فليس من يفعل ذلك إلا هو : إنه لقادر على ذلك. أجل إن أوستن شيرتن اللص فيما سلف ، قادر على ذلك. إنه ما لم يكن قد فقد مهارته يستطيع أن يدخل المنزل دخول اللص. ولقد يقع من الأدلة هنالك على ما يحمل به البوليس على العمل . ذلك أنه كلما تفكر فى تلك الصرخة ، آذاه ذكرها ، وازداد يقينا مما أوحت به إليه بصيرته ، وهو أن شيئا مريبا يسكن فى ذلك البيت الخالى

واشتد الجدل بينه وبين ضميره . هل يعود ولو ليلة واحدة كما كان شيرتن القديم ، وبهذه الصفة يحاول أن يصل إلى دخول ذلك المنزل ؟ إن هذا العمل لا يخلو بالضرورة من خطر ، ولكن ذلك الخطر إنما يغريه بالإقدام ، لأنه يحب الخطر من أجل الخطر فى ذاته ، ولأن اقترابه منه ينعش خياله ، ويزيد لذته فى المخاطرة . وهو يخشى من ناحية أخرى أنه إذا طاوع فكره إلى هذه المغامرة الجديدة فإنه قد يعضى فى تنفيذها ، ومن ثم يتعرض لأن يؤخذ بفعله ، ولو أنه لا يبتغى هنا مغنما لنفسه . وإنما يعمل فى سبيل طفل معذب

وخسر ضميره المعركة . فإنه منذ ثلاث سنوات لم يفعل فعل اللص . لم يفعل ذلك منذ أن أخذ يذوق لذة الفن ومنذ أن أخذ يطرد نجاحه كنقاش : ولكنه رأى أن إتيانه هذا العمل مرة أخرى مغر له أشد الإغراء ، وبخاصة إذا كان غرضه هو ذلك الغرض النبيل . يضاف إلى ذلك أن الظروف مواتية له بصورة خاصة ، فإنه فى دقائق قليلة يستطيع أن يصل إلى بيته ، فيجمع هناك ما يلزم من أدوات لما هو بسبيله من عمل ثم يعود إلى البيت الخالى . أما ماذا عسى أن يحدث بعد ذلك ، فليدع للزمن بيانه ، على هذا فقد أسرع الخطى صوب منزله فجأة . لقد تغلب عزمه . إن أوستن شيرتن سوف يعود لصا مقتحما ليلة واحدة ليس غير

كان أوستن بعد دقائق فى شقته التى يقطنها فوق محل عمله فى شارع ستانهوب بحى شيلسى . وقد خلع فى سرعة معطفه الخفيف ، وإنه ليتغنى بأحدث نغمة من نغمات الرقص ، وأخذ معطفا قاتما من النوع الذى يقى من المطر ، واستبدل قبعته بطاقية شديدة السواد ودس فى أحد جيوبه مصباحا كهربائيا صغيرا . ووضع فى جيب آخر ما تأخذ العين من مظهره أنه علبة فضية للسكاير ،

ولـكن تلك العلبة إذا فتحت على صورة أخرى لا يعرف سرها إلا شيرتن وحده — وذلك بالضغط على زر خفي — تكشفت عن مكان لم يكن يريب أحدا ، وضع فيه شيرتن كل أدواته ومفاتيحه التي يكسر بها الأقفال والأبواب

ولما تذكر شيرتن تلك المغامرات التي اصطحب فيها تلك العلبة الفضية البريئة المظهر ، اندفع الدم في عروقه ، والتمعت عيناه ، وعاد مرة أخرى ذلك اللص الذي لا يرعوى ولا يبالي شيئا ، والذي كان يقامر حيال القدر مقامرة ناجحة ، والذي ازدرى قوى القانون بأغنية من قلبه ، وابتسامة على شفتيه ، وومضة في عينيه

واتخذ شيرتن سبيله ثانية إلى شارع دريكوت ، وكان يفكر في أحسن وسيلة يدخل بها المنزل رقم ١١ ! ورأى أن خير وسيلة أن يذهب مباشرة إلى باب الواجهة، فإذا لم يكن قفله من أقفال «ييل» استطاع أن يفتحه بأحد مفاتيحه العديدة التي يحملها في علبته ، ولأنه يوقن أنه ليس ثمة في ظهره من قضيب أورتاج ، وإلا لما استطاع أن يدخل منه وكيل صاحب الدار وعملاؤه . على أن في هذه الوسيلة عيبا . فليس مما جرت به عادة الناس أن يدخلوا بيتا غير مسكون بعد منتصف الليل بربع ساعة . و إذا رآه أحد فإن ذلك يبعث الريبة في الحال

على أنه كان لديه من ناحية أخرى المدخل الخلفي . ولكن كيف يصل إلى مؤخرة ذلك البيت ؟ ذلك ما لم يكن يعرفه حتى ذلك الوقت . فمع أن شارع دريكوت يقع قريبا من منزله لم يكن يألف جغرافية هذه الجهة كل الألفة . ورأى أنه إذا عمل في جيرة غير معلومة فإنه بذلك يحطم قاعدة من القواعد الأولى لأيام إجرامه حين كان يألف دائما مكان عمله قبل أن يشرع فيه ، صادرا في ذلك عما في نفسه من استعداد للنقش والزخرفة . ولكنه فيما تقضى به الظروف القائمة لا يجد مناصا من ذلك

بلغ شارع دريكوت فوجده مكانا كثير الحركة إذا قارنه بما كان عليه من هدوء حين مشى فيه من قبل . فلقد رأى سيارة أجرة ينزل منها ثلاثة أشخاص عند المنزل رقم ٩ وكان يسير نحوه شخصان على الجانب الأيسر للطريق . وكان يسير مبتعدا عنه عن يمينه كونستابل من البوليس . وفي هذه الظروف لم ينعطف شيرتن إلى شارع دريكوت بل عبر الشارع ومضى قدما في الطريق الذي كان يسلكه

وتبين أنها كانت حركة موفقة . فإنه رأى على خطوات منه ممرا ، بين يتبين وفكر

أنه من الممكن أن يؤدى إلى ساحة عامة لجميع البيوت فى شارع دريكوت . وما لبث أن اتجه نحو ذلك الممر ، فوجد أنه لم يخطئ إذ رأى نفسه بعد ثوان يقبع لدى الباب الخلفى للبيت الحادى عشر ...

وما إن تلبث ليصغى إلى ما قد ينذره من أن أحدا قد بصر به ، حتى أخرج من أحد جيوبه قفازا من المطاط فلبسه ، ثم أخذ يفحص الباب ليرى ماهو صانع ، وفى يديه مصباحه وأدواته . وكان الباب مكينا . ولما تصوره من الداخل خيل إلى شيرتن أنه لم يكن ثمة قفل فحسب ، بل إن الباب تحصنه الأرتجة من أعلى ومن أسفل ، وذلك لايجعل فتحه مستحيلا وإنما يطيل أمد ذلك العمل .

وكان على جانب الباب شباك تكسبه المنعة قضبان قوية من الحديد . وقطب حاجبيه بعض الشئ ، فإن هذا الشباك الذى كان من الصغر بحيث لاينفذ منه إلا شاب نحيل الجسم ، محصن تحصينا قويا فيه نذير شؤم بما عسى أن تكون عليه النوافذ الأخرى . وقد رأى الحال كما توقع فإن تلك البيوت التى بنيت فى هذا القرن ، قد حصنت نوافذ طوابقها الأرضية أكثر مما يحصن دكان بائع الجواهر .

وفكر فيما إذا كانت نوافذ الطابق الأول قد جاءت على هذا الطراز ؛ ولكنه لم يستطع أن يراها ؛ فقد بلغ من حلكة الليل أن عينيه اللتين تعودتا فى سنوات من العمل أن تريا فى الظلام لم تستطيعا أن تنفذا فيه

ورأى لحسن حظه أن هناك ميزابا للمطر يرتفع حتى السقف . ولكم تسلق فى الماضى مثل هذا الميزاب . وبعد أن تحسس مبلغ متانته ، أخذ يتسلقه ؛ ولم يحس فى هذا من اليسر ماكان يحسه فى الأعوام السالفة ، ولكنه واصل التسلق حتى بلغ موضعا يستطيع منه أن يرى النوافذ

ورأى أنها كانت تحميها قضبان الحديد ؛ وليس هذا شأنها فحسب ، بل إنها تبعد عن أن يبلغها. ولما كان الحال كذلك . فإنه لم يجد فى التسلق جدوى ، فإذا فرض أن نوافذ الطابق الثانى لاتمنعها القضبان ، فليس فى وسعه أن يصل إليها .

وتزاحف هابطا إلى الأرض ، فإن كان لابد له أن يقطع قضبان الحديد فكلما أسرع فى البدء بعمله كان ذلك أوفى بالغرض

وبدأ عمله وقد اتخذ كل ماوسعه من حيطة ، ولما كانت أدواته منتقاة خير انتقاء فإنه لم يمض وقت طويل حتى أتى على أحد القضبان ، ولم يزل يقطع حتى استطاع أن يدخل المطبخ . وأخذ يتحسس سبيله إلى

الباب فإنه لم يجرؤ أن يبعث النور من مصباحه . واهتدى إلى الممر المؤدى إلى واجهة المنزل . وكان جو المنزل قابضا تنبعث منه رائحة عفنة . ولم يكن ثمة من صوت إلا ماتحدثه أسنان فأر خلف الوزرة الخشبية للجزء الأسفل من الجدر ووصوصة مرة أو مرتين ؛ أما عن آدميين فلم يكن هناك أدنى صوت ...

وأصغى لدى باب أول حجرة بلغها ولكنه لم يسمع شيئا ؛ ولف أصابعه الحساسة حول الأكرة وأدارها فى بطء حتى استطاع أن يدفع الباب ففتحه ؛ وأصغى ثانية فلم يصل إلى سمعه شىء ، وأرسل النور من مصباحه فوجد الحجرة خالية

ووجد بقية حجرات المنزل كهذه الحجرة ؛ فليس فى البيت كله نفس من السقف إلى الأرض ! ورأى أنه مما لا يصدق أن كل شخص قد اختفى فى مثل هذه السرعة فهو لم يستغرق إلا عشرين دقيقة على الأكثر ليصل إلى شقته وليجمع أدواته وليعود ثانية إلى هذا البيت الخالى . ولكن من كانوا فيه قد اختفوا فى هذه الدقائق . على أنه يسأل نفسه لم لم تكن فكرة اختفائهم بمثل هذه السرعة مما لا يصدقه ؟ إن الأمر لا يتطلب أكثر من دقائق للتسلل فى هدوء من البيت ... كلا إن الغرابة هى أنسب كلمة تستعمل فى هذا الصدد ؛ فقد كان اتفاقا غريبا أن يرحل هؤلاء الذين كانوا فى البيت فى تلك الدقائق القليلة التى غاب فيها عن المكان ؛ وكان غريبا حقا أن يرى من الصعب عليه أن يصدق أن رحيلهم فى هذا الزمن كان اتفاقا ؛ فإما أن يكون قد رآه أحد وهو ينظر إلى أعلى البيت فنبه ذلك من كانوا به ، وإما أن البيت الخالى لم يؤو أحدا قط !

ووقف يتدبر فى الأمر فى إحدى الحجرات العليا . إنه لا يستطيع أن يصدق على الرغم مما تنبئ به المظاهر أن البيت كان خاليا حين مر به من قبل فى هذه المشية ! وإنه ليوقن أنه لم يتخيل هاتيك الصرخات ولا هو أخطأ الجهة التى انبعثت منها .

وزم شفتيه فى عزم ؛ إن أوضح السبل أمامه أن يتقصى الآثار فى الأمكنة التى حل بها أشخاص منذ قريب ، ولكنه كى يفعل ذلك لابد له أن يطلق النور من مصباحه وهذا عمل محفوف بالخطر ، إذ أنه مهما يبلغ من حذره ، فإن من المحتمل أن يرى ذلك النور من خلال النوافذ التى لا تحجبها ستائر . وما إن يحدث ذلك حتى يرى المكان محاطا من أقطاره بنفر من البوليس . وأخذ يزن ذلك الخطر ، ولكن تذكره ألم الطفل جعله يصمم فغمز زر المصباح ، وأضاء النور

الخافت دائرة صغيرة من أرض الحجرة
وأخذ وظهره إلى النافذة ينقل النور فى بط من بقعة إلى بقعة ؛ وكان يغطى أرض الحجرة تراب كثيف ، بلغ من كثافته أن قدميه كانتا تتركان فيه أثرا واضحا . ووقف فجأة كأنه تصلب ، فلقد استطاع أن يرى آثار أقدام إلى جانب ما تركت قدماه من أثر ، ورأى أنها واضحة وضوح آثاره ؛ ولم يعد بعد ذلك فى حاجة إلى برهان آخر ...

ولما ألقى نور المصباح الكهربائى فى دقة على هذه الآثار تبين أن قصة تمكن أن تقرأ فيها ؛ فلقد دخل الحجرة غيره شخصان آخران أحدهما طفل ؛ وكانت آثار قدمى الشخص الآخر عريضة كبيرة ، ولا يمكن إلا أن يكون رجلا ضخما ذلك الذى تركت قدماه هذه الآثار ...

ولما فحص شيرتن الآثار فحصا دقيقا أحس بشىء من الدهشة ، فمع أن آثار قدمى الطفل كانت صغيرة فإن إحداها كانت بعيدة عن الأخرى ؛ ثم إنهما توقفتا على بعد ياردة من النافذة ولم تعودا صوب الباب

على أن دهشته ما لبثت أن زايلتـه ، وذلك حين استبان له تفسير ذلك فقد جرت الطفلة إلى داخل الحجرة يتبعهـا مطاردها (لأنه يعتقد أن هذه آثار قدمى بنت) وقبل أن تصل إلى هدفها وهو الشباك ، أدركها مطاردها فالتقطها وحملها وخرج بها من الحجرة

واتبع بنظره الأقدام وهى تخرج من الحجرة . ولم تكن القصة خارج الحجرة سهلة القراءة . فإن الآثار قد تناثرت هنا وهناك من الحجرة الثانية فى الواجهة إلى السلم ومن السلم إلى تلك الحجرة ، كما لو أن الرجل قد صعد السلم أكثر من مرة ليدخل الحجرة التى تقع عن يمين شيرتن ؛ كذلك قد أدت أقدامه هو إلى طمس تلك الأقدام بعض الشىء

واعتزم أن يفتش الحجرة الأخرى فى الواجهة ، واتخذ الحيطة كى لا تختلط قدميه بآثار ذلك الشخص . ثم دخل للمرة الثانية الحجرة التى تقع فى الجهة اليسرى للمنزل . وهنا كشفت أرض الحجرة عن قصة أخرى ؛ تلك هى أن الطفلة قد حملت إلى تلك الحجرة ووضعت ممددة على الأرض إلى جانب الجدار الداخلى . ولا يمكن أن يعرف مقدار ما قضته هناك من زمن على تلك الحالة . ولكنه يعتقد أنها تخلصت من قيودها ونهضت على قدميهـا ، وجرت من تلك الحجرة إلى الحجرة المجاورة

ولم اضطرت إلى أن تفعل ذلك ؟ لم لم تندفع صوب نافذة الحجرة التى ألقيت فيها ؟ لقد استطاع أن يجد إجابة ممكنة على سؤاله هذا حين فحص الأرض بجوار النافذة .

إن الرجل كان يقف إلى جوار النافذة من حين إلى حين . ولعله كان يطل من النافذة على الشارع فى الوقت الذى استطاعت الطفلة فيه أن تفلت من قيودها ، ولعله رآها حين أوشكت أن تخرج من الحجرة فصاح مغضبا فانطلقت منها صرخة خوف واندفعت خارجة من الحجرة . ثم إنه جرى فى أثرها وأمسك بها فى الحجرة الأخرى ، فما كادت تصرخ ثانية حتى أطبق بيده على فمها ثم حملها بين يديه

وكان يرى هذا التفسير ممكنا ، حتى لقد أخذ يتساءل عما إذا كان عسيا أن يعلم جديدا من الأمر إذا فحص الحجرات الأخرى . إنه إذا سلم بأن ما استنتجه صحيح فلا يزال أمامه كثير مما يتطلب أن يعلمه فمن هى الطفلة مثلا ؟ ولم توجد فى بيت خال أسيرة كما ينبئ الحال ؟ ولماذا أسرت ؟ ولماذا جيء بها إلى المنزل الحادى عشر فى شارع دريكوت بدلا من أن تؤخذ إلى أى مكان آخر ؟ وأين يقع المكان الآخر ؟

ومع أنه فحص كل شبر من الغرفة لم يعد يجد هنا ما يكشف عنه . وعلى ذلك فقد اتجه إلى الطابق الأول ، حيث توجد حجرات فى مؤخرته كما يوجد فى واجهته . ولم يكن فى حجرات الوجهة ما عسى أن يدله على شيء ، فإنه كما تبين ، لم يدخلها أحد سواه .

كذلك لم يدخل الحجرة الخلفية اليمنى أحد . ولكنه لم يكد يفتح الأخرى حتى تبين فيها آثار أقدام . وتعقب تلك الآثار ، فإذا بها تمتد من الباب حتى النافذة فى غير التواء ، تلك النافذة التى عزت عن أن يبلغها شيرتن حين تسلق الميزاب . وحين أطلق نور مصباحه رأى على أرض الحجرة ما بعث فى جسمه هزة الدهشة ، فقد كان يتناثر على الأرض بقايا محترقة من أعواد الثقاب وبقايا من أعقاب الدخائن . وكان ما أشعل من تلك الدخائن سبع عشرة دخينة ؛ ومن الناحية الأخرى كان عدد أعواد الثقاب اثنين وعشرين

وتجهم قليلا . لماذا يجد اثنين وعشرين عودا لسبع عشرة دخينة ؟ لو عكست هذه الأرقام لأمكن أن يتضح تفسير ذلك . إن عددا من الدخائن فى بعض الحالات يشعل بثقاب واحد ، أو إن دخينة تشعل من بقية دخينة أخرى على التعاقب . وإنه كما تدل الحال إما أن تكون قد أشعلت بعض الأعواد لتبين الوقت أو أن الرجل كان يدخن فى بطء شديد بحيث انطفأت دخينة أو دخينتان ولزم الأمر أن تشعلا من جديد . فإذا كان الفرض الثانى هو الصحيح ، أفدنا من ذلك دليلا على أن الرجل قد وقف مدة طويلة إلى جوار النافذة ، فإن استنفاد سبع عشرة دخينة لا يتم إلا فى زمن غير قصير

وكان السؤال الثانى الذى وجهه شيرتن

إلى نفسه ، لماذا يقف الرجل زمنا طويلا ربما بلغ ساعتين إلى جوار نافذة خلفية ؟ إذا كان حاله أنه كان يحس القلق خوفا من زيارة مباغتة فمن الواضح أنه كان أولى به أن يقف إلى جوار نافذة أمامية . أكان في موقف حراسة أم كان في موقف انتظار ليس غير ؟

وتواثبت إلى ذهنه الاحتمالات والتعليلات والاستنتاجات . وتدفقت في ذهنه اليقظ كل تفاصيل هذه المؤامرة المحكمة . ونزل في خطوات سريعة من هذه الحجرة الخلفية إلى المطبخ ، وهناك فحص الباب المؤدى إلى الفناء ، وندت عن شفتيه كلمة إعجاب بنجاحه . لقد كان كل ما استنبط صحيحا ؛ ولقد وقف الآن على كثير من التفاصيل . وما تبقى بعد ذلك ، إذا استثنى أمراً واحدا ، سوف يكشف في الصباح . أما هذا الأمر الذى يستثنيه فقد كان مع الأسف أهم ما في الموضوع كله ، ألا وهو مكان الطفلة فإلى أى جهة أخذها الرجل ؟

***

دهش سير إدوارد ولاوبى وكيل البوليس إذ رأى أوستن شيرتن يزوره في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى

وحيا سير إدوارد زائره شيرتن بقوله « طاب صباحك يا شيرتن ، ها أنت ذا خارج الدار مبكرا » وكان سير إدوارد وذلك اللص السابق قد تعارفا منذ استطاع شيرتن أن يساعد سكتلنديارد في مسألة سنيك بينللى . وإنه ليمكن أن يقال في كثير من الحق إن صداقة وثيقة قد أخذت تنشأ بين الرجلين ، وإنه على الرغم مما اتسم به شيرتن في سابق حياته ، كان في شخصيته من الظرف والمرح الذى يسرى منه إلى من حوله مالا يقوى معهما على الإعراض عنه إلا القليلون

ولم يضع شيرتن وقتا فاتجه إلى غرضه من الزيارة قائلا : « أعتقد أنك بالضرورة تحيط علما بتفاصيل اختفاء بنت مورتن ميرى ديو ؟ »

وأجاب سير إدوارد في جفاء « نعم لقد اختفت پاميلا ميرى ديو من حجرة نومها الليلة الماضية بعد أن أويت إلى مضجعها مباشرة ، ثم إنها فقدت بعد ذلك . وعلى الرغم من البحث في تلك الجيرة ، ومما فعله رجالنا من استفسارات كاملة عند الناس فلم يعرف بعد أين توجد البنت ، وبقيت المسألة كما يتبين سرا عميقا . إنه من المؤكد أنها لم تخرج من المنزل من الباب الرئيسى ، لا ولا هربت من باب المطبخ . ويستحيل عليها أن تكون قد خرجت من النافذة ، وعلى ذلك فليس يعلم أحد كيف هربت »

وأشعل شيرتن دخينة ثم قال « ينبغى ألا تستعمل لفظة الهرب يا سير إدوارد . إن باميلا قد اختطفت »

وحملق وكيل البوليس فى وجه محدثه فى دهشة قائلا « لك الله ! ماذا تعرف عن هذه المسألة ؟ »

وقال شيرتن « قليلا » .. ثم إنه سكت لحظات ، وأخذ ينظر مفكرا إلى صاحبه ؛ وبدا عليه أخيرا أنه جمع رأيه فأخذ يتكلم فى بطء

« أجل يا سير إدوارد ... إنى أظن أنه بمساعدتك إياى سوف يكون لدى من الفرصة ما يمكننى من العثور على باميلا ميرى‌دبو ؛ ولكن يجب أن أطلب إليك أن تثق بى فترة. ولسوف أكون معك أمينا. إن فى ذهنى خطة للعثور على البنت ، ولكنها قائمة على تفكير مضحك يبلغ من السخف أن أخشى حتى التلميح إليه كيلا يسخر ذهنك المدرب من المشروع كله ، ولكنى لا أستطيع المضى وحدى فى الأمر فلا بد لى من المعونة » وأومأ وكيل البوليس برأسه ، ثم سأل محدثه فى هدوء قائلا « لست بالأحمق ياشيرتن فماذ تريد منى أن أصنع ؟ »

وضحك شيرتن ضحكة خفيفة وقال « إذن فإنى أحذرك أن طلبتى مما لم تسبق به سابقة ولن يدهشنى أنك سوف ترفضها بادئ الرأى . ومهما يكن من الأمر فها هى ذى : هل تمدنى برجل أو رجلين من البوليس لأغراض تعقبية ؟ »

ولم يجب سير إدوارد لتوه ، وإنما أخذ يفكر تفكيرا عميقا ، وإنه ليطرق المكتب أمامه بقلم الرصاص فى غير وعى . ثم إنه رفع رأسه ونظر صوب شيرتن قائلا « إن هذا حقا مما لم تسبق به سابقة ، وهو مطلب ليس يسهل إجابته إذ يأتى هكذا من شخص مثلك ليس ثمة من علاقة رسمية بينه وبين سكتلنديارد . ألا تستطيع أن تكون أوضح قليلا ، فتريني على وجه التحديد ماذا تريد أن يفعل هؤلاء الرجال ؟ »

وأجاب شيرتن قائلا « أريد أن تضعهم بحيث يراقبون بيت ميرى ديو فى طريق بورتسموث ، وأن تأمرهم أن يتعقبوا كل شخص يخرج من الباب الخلفى للبيت ؛ ويجب أن يلازم رجالك هؤلاء الخارجين كل الملازمة ، وأن يخبروك بالتليفون إذا اتجه شخص من هؤلاء إلى بيت ما، وعلى رجالك بعد ذلك أن يراقبوا هذا البيت ، وأن يبلغوك ما يرتابون فيه هناك من حركة . هذا كل ما أريد »

ونظر سير إدوارد متعجبا ثم قال « وكيف يؤدى ذلك إلى العثور على باميلا

ميرى ديو ؟ »

فقال شيرتن « ستعلم ياسير إدوارد ذلك فى حينه ، أخشى أن أرانى مضطرا إلى أن أسألك أن تثق بى »

فأجاب وكيل البوليس بعد صمت قليل « إنى أميل إلى الاعتماد على كلمتك يا شيرتن ولكى أصدقك ينبغى أن أقول إننا عجزنا عن أن نصل إلى أدنى شىء يمكن أن يؤدى بنا إلى معرفة مكان البنت . ولم أنس بعد مهارتك فيما وجهت به مسألة بينلى ، وعلى ذلك فإذا كنت قد أعددت الأمر لتكشف شيئا هاما يتصل بمسألة ميرى ديو هذه فلا بأس. ثم هز كتفيه واستأنف كلامه قائلا « سوف آخذ على عاتقى تبعة إمدادك بما تطلب من معونة »

وبدا الامتنان على وجه شيرتن ، ثم جهر فى حماسة قائلا « إن هذا جميل منك يا سير إدوارد ؛ وإنى آمل أن أريك قبل وقت طويل أن ثقتك بى لها ما يبررها »

وبعد دقائق حملت سيارة أجرة شيرتن ومعه ثلاثة رجال يرتدون ملابس عامة الناس. ولما بلغوا طريق بورتسموث ، وجه شيرتن الرجال إلى الجهة الخلفية للمنزل ، ولما أشار إلى مدخل الزبائن إلى منزل مرى ديو عاد يؤكد لهم جميعا ما لدقة مراقبتهم من أهمية عظمى . ولما تفرق الرجال ووقف كل منهم فى المكان الذى اختير له بحيث لا يرى ، غادر شيرتن الفناء وعاد إلى طريق بورتسموث حيث توجه إلى المنزل رقم ٥ ودق بيده الباب ، ولما فتحه الخادم سأله شيرتن عن ميرى ديو

فنظر إليه الرجل نظرة ارتياب وقال « أخشى أن مستر ميرى ديو سوف لا يستطيع لقاءك اليوم يا سيدى فإنه ... »

فقاطعه شيرتن فى خشونة قائلا « أعلم ذلك ، إنى قادم من سكتلنديارد ؛ أخبر مستر ميرى ديو أن البوليس السرى والنجتن يريد أن يتحدث إليه »

وتغير موقف الخادم فى الحال . ثم تقدم شيرتن إلى غرفة استقبال . وما كاد يخرج الخادم منها حتى دخل مستر ميرى ديو ، وإنه ليكاد يعدو مسرعا ، وكان وجهه شاحبا مكدودا بسبب ماعاناه من قلق طول ليله .

وسأل شيرتن فى لهفة « ألديك أخبار لى ؟ »

وتردد شيرتن ولكن تردده لم يلبث إلا لحظة. فإنه لم يكن ليستطيع وقد تقدم إلى هذا الحد أن يتراجع الآن فقال « أعتقد أن لدى أنباء طيبة لك ياسيدى ؛ إن لدينا من الأسباب مايجعلنا نعتقد أننا اهتدينا إلى مكان ابنتك ، وإننا الليلة بعد الحادية عشرة سوف نباغت بهجومنا ذلك البيت حيث

نأمل أننا سوف ننقذها »

وتمتم الرجل قائلا « شكراً لله » ثم نظر فى لهفة إلى شيرتن وسأله « ولكن لماذا لاتنقذونها الآن أيها الرجل ؟ فكر فيما عسى أن يصيب باميلا حتى ذلك الوقت »

وأوشك فى حرقه أن يتملق بيدى شيرتن

وأجابه شيرتن فى هدوء : « إن لدينا من الأسباب مالا نهاجم معه ذلك البيت قبل هذا الموعد . وأظن أنك تستطيع أن تطمئن أنه لن يمس باميلا أذى مدة الانتظار »

ونهض شيرتن قائلا « وأظن كذلك أنك تستطيع أن تنقل هذه الأنباء السارة إلى قومك يامستر ميرى ديو ؛ فإنى واثق أن ذلك سيريح نفوسهم ؛ وبهذه المناسبة نبئهم ألا يخافوا إذا رأوا رجلا يراقب واجهة المنزل ، فقد وضعنا رجلا هناك للحيطة فحسب »

ومد مرى ديو يدا مرتعشة وهو يقول :

« شكرا لك يامستر والنجتن »

وقال شيرتن وهو يمد يده ليصافح الرجل « وبهذه المناسبة أيضا أقول إنى لو كنت مكانك لبقيت دائما إلى جوار التليفون لا أبتعد عنه أبدا »

وعاد شيرتن من طريق بورتسموث إلى محل عمله حيث قضى يوما من أتعس أيام حياته . إن حركاته جميعا قد قصد بها إلى خير مايرجى . ولكن إذا ثبت خطأ استدلاله ، وإذا كان فى تحمسه لإعادة باميلا إلى أبيها قد سمح لخياله أن يطغى على عقله ، فإنه يكون قد أتى فى هذا اليوم عملا من أحط ماعمل طيلة حياته ، وذلك أنه بث أملا كاذبا فى قلب والد حائر.

وظل يقطع الساعات جيئة وذهابا فى حجرة عمله الصغيرة ؛ وبدت له تلك الساعات كأنها أيام . وكلما دق جرس التليفون اندفع صوب جهازه

دقت الساعة الثانية عشرة ، ثم الواحدة ثم الثانية ، ولم يتلق شيئا . وأخيراً كلمه أحد الرجال الثلاثة فأنبأه أن خادم ميرى ديو ، غادرت طريق بورتسموث لتزور بيتا فى كامبرول . وسأله شيرتن هل يقع ذلك البيت فى حى مزدحم بالسكان ؟ فأجابه الرجل أنه مزدحم جدا . واستنتج شيرتن أن بنت الخادم تقطن هناك ولا أكثر من ذلك .

ونفس شيرتن عن ضيقه بكلمات حين وضع سماعة التليفون ، فليست هذه الأنباء ما أمل أن يسمعه .

ومضت ساعة أخرى . ودق جرس التليفون مرات أخرى ولكنها كانت لأمور تتصل بعمله . ودقت الساعة الثالثة . وبعد ذلك بعشر دقائق اتصل به رجل آخر من الثلاثة .

لقد غادرت امرأة طويلة القامة عادية

المندام بيت ميرى ديو بعد الساعة الثانية مباشرة . ولقد تبعها جريا على ما لديه من تعليمات فرآها تركب فى سيارة عامة حتى فكتوريا ومن هناك ركبت فى قطار إلى إبسوم ؛ واتجهت ماشية حتى بلغت جوسقا أنيقا يقع غير بعيد خارج إبسوم ، وقد فتحت لها الباب سيدة حسنة الهندام

فأمره شيرتن قائلا : «إبق هناك لاتتزحزح. تعقب أى شخص يخرج ومعه بنت صغيرة » ثم ألقى شيرتن السماعة وخرج يعدو من حجرة عمله

وكان قد أعد سيارته من قبل ووضعها قريبا منه . وأسرع فركبها وانطلق مسرعا إلى طريق بورتسموث . ولم تمض إلا دقائق حتى أخذ معه ميرى ديو ، وأسرع صوب إبسوم

وظل ميرى ديو يستفهمه ؛ ولكن شيرتن لم يشأ أن يجيبه . وكان كل ما قاله له : « إنها إما أن تكون أنباء سارة أو لا تكون »

وبلغ إبسوم فى وقت قصير جدا . وذهبا إلى الجوسق . وكان رجل سكتلنديارد على مقربة منه ، فأشار إليهما بعلامة مؤداها : « لم يتغير شىء »

وسار شيرتن إلى الباب الصغير يتبعه ميرى ديو ، ودق شيرتن الباب ، ففتح من غير إبطاء . ووقف فى مدخله امرأة حسنة الهندام

وصاح ميرى ديو مندهشا « إيفا ! »

وابتسم شيرتن ابتسامة الرضا ، وغمغم لنفسه قائلا « إنها أنباء سارة » ، وهو يخطو متئدا نحو مقعد على خطوات

* * *

« إن إيفا هى زوجته المطلقة » ذلك ماراح يحدث به شيرتن سير إدوارد حين أخذ يقص عليه كل ماحدث . ومضى يقول « ولقد قرأت تفاصيل طلاقها قبل أن أزورك هذا الصباح »

وأجاب قائلا وفى صوته شىء من الامتعاض « ولكن كيف أمكنك أن تستنتج تفسير هذا السر الغامض ؟ كيف عرفت كل هذا فى حين أننا هنا لم نعرف شيئا ؟ »

وقص عليه شيرتن ما حدث له فى الليلة الماضية ، وراح يقول « هكذا كما ترى ياسير إدوارد أنه من الواضح أنها اختطفت وأن الذى اختطفها هو ذلك الرجل الذى وقف نحو ساعتين إلى النافذة الخلفية للبيت الخالى فى شارع دريكوت . وكان ينتظر — أو هكذا كان اعتقادى — إشارة من شريك له فى بيت مرى ديو . وحين تلقى هذه الإشارة أشار هو بدوره كذلك إلى رجل ثان كان قد وضع لدى الباب الخلفى للبيت الخالى . ودخل هذا الرجل الثانى فناء بيت

ميرى ديو ومعه سلم يطول ويقصر وقد مده إلى نافذة پاميلا ، وصعد وربما أنه استطاع بذلك أن يلفت نظر البنت فصعدت إلى النافذة وفتحتها ، وعند ذلك أمسك بها أو استعمل مخدرا ، ورفعها إلى عاتقه ، وأغلق النافذة ، ونزل . ثم إنه أوى إلى البيت الخالى ومعه البنت والسلم حيث قابله الرجل الأول

« ولقد وضع السلم فى أحد مخازن البيت الخالى ولا يزال هناك . أما البنت فقد غلت وقيدت وحملت إلى غرفة فى أعلى المنزل وفى تلك الأثناء خرج الرجل الثانى إلى مكان ما حيث أعدت سيارة . وفى موعد محدد بعد بضع ساعات اتجه الرجل الثانى بالسيارة إلى شارع دريكوت وتلبث قليلا حتى رأى الشارع خاليا فوقف عند رقم ١١ . وما أن فعل ذلك حتى برز الرجل الأول ومعه پاميلا وركبا السيارة وانطلقا بعيدا عن المكان

« وما كادت تخطر على بالى فكرة الاختطاف حتى أصبح كل ما بعدها يسيرا ، فإن بقايا الدخائن قد دلتنى على انتظار الرجل لدى النافذة ليتلقى الإشارة . وزاد يقينى ما وضع فى الباب الخلفى من زيت كى ينفتح فى يسر وكيلا يحدث أى صرير . كما أن بقايا الدخائن من النوع الآخر قد دلتنى على وجود رجل ثان

« وكانت دراستى بقايا الدخائن أول ما جعلنى أتجه بتفكيرى إلى أن زوجة ميرى ديو لها يد فى هذه المسألة فإنها كانت دخائن عبد الله ، وكانت أعواد الثقاب من الشمع ، ولا يقرن المرء على أى حال دخائن عبد الله ولا أعواد الشمع بمحترفى اختطاف الأطفال . وأخذ يبدو لى الاختطاف أقرب إلى أن يكون انتقاما شخصيا ، وكذلك أوحى إلى انتظار ذلك الشخص إشارة فى الجهة الخلفية ، أن الطفل أو الطفلة اختطفت من أحد البيوت فى طريق بورتسموث

« وما إن بلغت منزلى وهذه الأفكار فى رأسى حتى نظرت فى الدليل المحلى ، وحين وقعت على اسم ميرى ديو رأيت أنه يقيم فى منزل يقع خلف البيت الخالى مباشرة فى شارع دريكوت وتذكرت بعض الشئ قضية الطلاق بينه وبين زوجته ، ونظرت فى الصباح فى تفاصيل القضية فرأيت أنه صاحب الحق فى حضانة الطفلة

« واستطعت أن أتخيل شعور أم تحرم من طفلتها ، وأدرت فى رأسى ما إذا كانت هذه الأم قد طلبت إلى أحد أصدقائها أن يدبر هذا الأمر ؟ وإن هذا التفسير ليتفق مع وجود ذلك الشريك الذى أشار من بيت ميرى ديو

« ذلك ماجعلنى أحاول محاولتى ؛ لقد أخبرت ميرى ديو أن البوليس ربما عثر

على الطفلة الليلة ، وطلبت إليه أن يذيع هذا النبأ السار فى قومه ، مؤملا أن يعمد الشريك إلى إخطار الفاعل الأصلى ، وهذا ماحدث كما تعلم . وطلبت إليه أن يظل قائما لدى التليفون حتى لايتخذ التليفون أداة للصلة بينهما »

فأجابه سير إدوارد قائلا وهو ينظر إليه نظرة تهكم « يا لك من لص مقتحم أصبح بوليسا سريا ! »

فاحمر وجه شيرتن وتمتم بقوله « أكاد أسمى نفسى بوليســا سريا » . ثم توقف وفكر فى عمق وعاد يقول : « ربما كان ذلك لأنى وقد كنت مجرما سنوات طوالا ، أصبحت أحد من اليسير على أن أستنبط الجوانب الإجرامية فى كل مسألة »

واقتنع سير إدوارد بهذا التعليل ثم قال « مهما يكن السبب ياشيرتن فخذ هذه الكلمة منى ، ذلك أنك ، إذا أردت ، تستطيع أن تكون بوليسا سريا بارعا »

وابتسم سير إدواردوهو يمد إليه يده قائلا : وعلى أى حال فقدأسديت اليوم صنيعا كريما لعدد من الناس »

« ذو القناع »



خطأ فظيع — الحل

كانت النافذة مغلقة ، فقد فتحها رجل البوليس ، وقد استوثق من أن الزوج والطبيب لم يمسا شيئا فى الحجرة غير التليفون والجثة ، ولذلك أيقن أن قصة الشبح مخترعة . وقد أطلق الزوج الرصاص على زوجته متعمدا ؛ إذ لو كان أطلقه على الشبح الواقف أمام النافذة كما زعم لكسرت إحدى الرصاصات على الأقل زجاج النافذة وقد اخترقت الجثة !

وأخيرا اختارت

بقية المنشور على ص ١٦

يا سكينة أن يرانى على هـذه الحال من السقم ولذا جئت إلى هنـا من طريق غير طريق بيته »

فأجابت سكينة « لقد رأيت فى وجهه الشوق إليك والإعجاب بك و … »

فقاطعتها مأمونة قائلة « كفى … كفى يا سكينة … ماذا يريد منى ؟ أنا زوجة وفى بطنى حمل .. إنى خائفة يا سكينة .. أنسيت ما قالت حميـدة ذات يوم : إنهم يحسنون الاصطياد ثم يتركون فرائسهم نهبا للعـار والجوع. إنى كلمـا تذكرت ذلك رفت عينى اليسرى ولقد رأيت فى وجهه ما أخافنى ليلة كنا تحت النخلة »

فقالت سكينة « أمن أجل ذلك إذن مضيت ليلتئذ إلى جانبى ذاهلة صامتة طول الطريق ؟ لا تخافى يا مأمونة فما عرفت عنه السوء قط، أنت لا تعرفينه وهو والله يحبك »

وسكتت سكينة لحظة ثم قالت فى تردد « لست مدينة لى بمال يا مأمونة كما افتريت الكذب عليك وكله من خيره وقد أكد على ألا أخبرك بشىء .. وهو سيدى وطول عمرنا أنا وأهلى فى خيره ونعمته »

فنظرت إليها مأمونة مصفارة دهشة وقالت « أمن أجل ماله إذن أحرص عليه؟ فلتهنأى أنت بماله . . ولتحرصى عليه كما تحرصين . أتراه يشترينى ؟ إنه إذن لا ينظر إلى إلا كما ينظر إلى خادمة … كفى … كفى يا سكينة أنسيت ما قالت حميدة ؟ إنى زوجة وسأصبح أما يا سكينة »

ثم أحست بما فى كلامها من قسوة على سكينة فسألتها الصفح ودمعت عيناها فمسحت دموعهـا بطرف ردائهـا ، وأطرقت فى حزن وصمت

فقالت : سكينة « إنك تسرفين فى الحزن بغير داع يا مأمونة وأنت مخطئة .. خادمة ؟ إنه ينظر إليك نظرة محب … هل نسيت من هو ؟ وهل نسيت يوم أن أعانك بنفسه على حمل جرتك ؟ إنه لن يفعلها قط مع غـيرك … ولقد ملأتنى الدهشة يومها والله … ولـكنه الحب» … وسرى عن مأمونة فضحكت وبدا الاطمئنان فى وجهها … ومنذ العصر أخذت تختلس النظرات إلى الشرق على الرغم من مراقبة سكينة إياها علها ترى حسينا حين يعود . . .

وأقبـل حسين على مهره وقـد غربت الشمس فوجدها وحدها تحت الصفصافة ، فقد انتقل الرجال إلى حقل آخر ، ووقف به مهره تحت الشجرة وهو متجه بقلبه وبصره إلى مأمونة وقالت سكينة ضاحكة « الطريق

كله منور ياسيدى » فشكرها ضاحكا وقال: « الدنيا كلها منورة بمأمونة ولقد كانت موحشة مظلمة لغيابها »

فرفعت إليه مأمونة عينيها الدعجاوين الجميلتين وقد شاعت فى وجهها الحمرة وقالت فى جرأة عجيبة: «الدنيا نور بوجودك ياسيدى حسين أتشغل نفسك بى إلى هذا الحد ؟ ثم ابتسمت فى دلال وخبث قائلة : « وماذا يعجبك فى فلاحة مثلى وأنت من يرى فى البندر ... »

فقاطعها قائلا : «مأمونة.. أنت تجهلين نفسك ولا تدرين ماوهبك الله من جمال ... فلاحة ؟ كلنا من آدم وحواء» ورأى مابعثته كلماته من بهجة وخيلاء فى وجهها وجسمها فحياها وسلفتها تحية المساء وانصرف

وبلغت مأمونة وسلفتها دارها ، فرأتا فى وجه حماتها الغضب لتأخرها ورأت سكينة أن سلفتها لم تعد تبالى بهذا الغضب وأبصرتها وهى تصعد إلى السطح مرحة خفيفة كما كانت قبل أن يمسها السقم . . .

* * *

عاد إليها مرحها وفتنتها ، وعادت تتبرج وتسير بجرتها فى مقدمة الصبايا . وعاد يرقب حسين طلعتها كل صباح ، فإذا أبصرته تأودت وتمايلت تحت جرتها وعابثت صاحباتها ضاحكة لاتبالى بنظراتهن بعضهن إلى بعض

ولا بتهامسهن ، حتى حميدة لم تعد مأمونة تحفل بغيرتها وحقدها ونذرها . . .

وعظمت دهشة حسين ذات يوم واشتد ابتهاجه حين رأى عقده فى جيدها وحين رآها تضحك مزهوة لما بصر به . وأوحى له ذلك أن يهدى إليها هدية أخرى . فليشتر لها خاتما وليهد كذلك إلى سكينة هدية

وتنزل مأمونة ذات صباح من فوق السطح مهمومة تفكر ، فتسألها سكينة عما بها ، فتضحك قائلة ، إنها رأت فى نومها أنها ولدت غلاما وأنه مات ، وأنها فى دار أبيها قد طردها زوجها وغضب عليها والدها ... وتضحك سكينة قائلة « سيعيش ابنك طويلا وسيضمك عطية فى عينيه »

فتنهدت مأمونة قائلة : « أنا خائفة ياسكينة ... نعم خائفة ... ليتنى لم أعرفه . ولكنه طيب وأراه يعزنى وما رأيت قط مثل ما أرى فى وجهه من حنان »

فقالت سكينة فى اهتمام « إن أحسن صبية فى القرية تتمنى أن تنال من حبه واهتمامه بعض ماتنالين . وإنه لن ينساك أبدا . وإذا شئت جملك فوق رؤوس الصبايا كلهن ومتعك بما لاتحلمين به »

فأطرقت مأمونة قليلا ويدها الجميلة السمراء فوق خدها الوردى الأسيل ثم قالت : « أنا حائرة يامأمونة ... آه لو علمت

ما أنا فيه ... إنه يحبنى حقا ولن أخفى عنك أنى أكاد أطير فرحا عندرؤيته . وإن اللاتى يتهامسن عنى إنما تملؤهن الغيرة ولم أعد أبالى مايقلن ... سكينة : إنى مع ذلك أفكر طويلا فى التخلص منه ولكن ... ولكن قلبى لايطاوعنى وكثيرا مابكيت» فقالت سكينة ضاحكة عابثة « يالك من بلهاء .. ليت لى ربع مالك من حظ ! ومن نالت يامأمونة مثل مانلت وما سوف تنالين ؟ »

فأجابتها مأمونة باسمة والدمع يطفئ ألق عينيها السوداوين « أيتنا البلهاء ياسكينة ؟ أنا زوجة وسأغدو أما . وستصبح لى فى الدار منزلة وسيفرح عطية بابنه وسيقبل عليه وعلى كلما عاد من حقله وستحبنى حماتى . . وهل نسيت ياسكينة أن سيدى حسين سوف يغدو زوجا ووالدا ؟ هل يفكر فى يوم ذاك؟»

ثم تنهدت مأمونة تنهدة عميقة ومسحت دموعها بطرحتها ... وعادت تقول فى صوت مختنق « ليتنى ما طاوعت قلبى . . لقد نظر إلى عطية أمس نظرة انكسار ومسكنة كأنه يعلم بكل شئ ورأيت فى نومى أنى مطلقة وأن ابنى مات و ... »

فقاطعتها سكينة قائلة « هذه أوهام الحمل ، هذه أوهام الحمل ... قومى ... هاتى جرتك فقد ارتفعت الشمس . . وهو هناك يتحرق شوقا لطلعتك »

وتخرجان بجرتيهما فتقع عينا مأمونة أول ماتقعان على حميدة فتمشى صفرة فى وجهها وترف عينها اليسرى .. ثم تقرأ فى عينى حسين أنه يتحرق شوقا للقائها على حدة، فتفضى بذلك إلى سكينة وتحس سكينة فى كلامها الرغبة والشوق ...

* * *

سكن من حوله المساء ، وأخذت تنسكب على الجدر وعلى الأرض أشعة القمر من خلال النخيل والسنط ، وأخذت تنسم نسائم المساء رخية تنعش النفوس بعد قيظ النهار . وليس مايقطع سكون الليل الساجى إلا لحن كروان طروب ينسكب مع أشعة القمر من أعلى السموات وفيه النشوة والمرح والاستغراق فى صفاء السكون ..

وكان حسين يمد سمعه وبصره فى ضوء القمر إلى كل قادم ، وقد أخذ يساوره القلق ، وكان يخالط شعوره بالغبطة خاطر مبهم يكاد يفسد عليه سعادته ، فهو يقول فى نفسه : إذا كان هذا مبلغ سعادتى بحب مأمونة فكيف تكون سعادتى بحب أبتنى به عشى وتقر به عينى ؟ ... وليت شعرى حتام يسحرنى ما هو كائن عما أعنى أن يكون؟ .. ولكن لم لا أمرح كما يمرح ذلك الكروان الذى يطلق ألحانه مرحة فتية ولا يفكر فى غد ولا فى حاضر ؟

ها هى ذى مأمونة لا ريب ! كلا إنها سكينة . ومرت سكينة وعلى رأسها مقطف المشاء فضحكت ضحكة فيمها ، وكان مهره مسرجاً فى مدخل الحديقة فسرعان ما ركبه وسار فى أثرها ، وكان لا يفتأ يلتفت خلفه وينظر أمامه حتى أدركها عند الصفصافة .. فتركته هناك وانطلقت صوب حقلهم البعيد

ونظر فإذا مأمونة خلفه ، فترجل فى لهفة وشد مهره إلى الشجرة ، ثم أقبل نحوها قائلا « مأمونة ؟ لشد ما تشوقت إليك » ولما دنا منها كدره أن لم يجد عقده فى جيدها

وتعاقب على وجهها الزهو والرضا والخوف وهى تنظر إليه . ولمح فى بدنها رعشة ، وأحس فى أنفاسها تقطعا ، ورأى صدرها يعلو ويهبط ، وسمع دقات قلبها . ومد ساعده فطوى خصرها الدقيق فى رفق ، والاضطراب مل‌ء جسمه ، فأرادت أن تتراجع ولكنه جذبها إليه فاختلجت على شفتيها ابتسامة عذبة ولمح فى عينيها نشوة . ثم التقت شفتاها ... ولما طال عناقهما تملصت منه ودفعته فى رفق بيديها وأفلتت

ووقفت أمامه تنتفض ، ولكنه يرى الفرح فى وجهها الجميل ، والرضا فى عينيها اللتين طالما هفا قلبه فى إثر نظرة منهما ، فمد ساعده ثانية فطوقها ، فاستسلمت ، ولم يدر فى نشوته وحلمه كم مضى من وقت وهى بين ذراعيه وفمه على شفتيها حتى أفاقا على وقع حوافر المهر يضرب بها الأرض ، فأفلتت مذعورة ، وهم بأن يدخل يده فى جيبه ليخرج الخاتم الذى اشتراه لها ولكنها وضعت فى يده خرقة مطوية على شئ وانطلقت كأنها تعدو ، ونظر فى الخرقة فإذا به يرى عقده الذى أهداه إليها !

محمود الخفيف



فكر في الحل

أقتل أم انتحار ؟

وقف براون سائق سيارة الأجرة أمام مخفر من مخافر الشرطة بسيارته ، وأشار — وهو يخاطب مأمور البوليس — إلى جثة ميت في السيارة يجلس مضطجعا وسط المقعد الخلفي ، وقال للمأمور : « كان هذا الراكب يتحدث إلى سيدة أمام فندق بيرش حين أوقفت السيارة هناك ونزل منها شخص . ولما هممت أن أنطلق بها أشار بيده إلى ، ثم ركب فيها وطلب أن أذهب به إلى تقاطع شارع بيرلنجتن . وكنت أعرف أقصر طريق إلى ذلك المكان ، ولكنه طلب إلى أن أذهب من طريق طويل كثير المنعرجات ، ولا يخلو من فجوات (مطبات) . فأطعته . وقد اقتضاني ذلك زمنا طويلا لأصل إلى هناك »

فقاطعه المأمور قائلا « ثم ماذا ؟ استمر »

فقال السائق : « إني أشهد الله ياسيدي على صدق ما أقول . لست أدري من أين جاءته هذه الطعنة بهذه السكين المثبتة في قلبه ؟ إني لم أقف قط إلا عند التقاطع المعين . فلما لم يتحرك لينزل التفت فوجدت هذه السكين مثبتة فيه وكنت بإزاء مصباح من مصابيح الشارع فتبينتها في وضوح . وجسست نبضه فأيقنت أنه ميت ، فأسرعت إلى هنا . ولست أدري كيف أثبتت هذه السكين في قلبه إلا أن يكون قد طعن نفسه .. لست أدري ! »

فسأله المأمور « أكانت تلك السيدة طويلة أم قصيرة ؟ »

فأجاب « كانت قصيرة نحيلة البدن ، تبدو ذات حسن »

فسأله المأمور : « وهل كان الراكب الذي أنزلته عند الفندق رجلا أو امرأة ؟ »

فقال السائق « كان امرأة عجوزا !؟ »

وهنا قال المأمور وقد نظر وهو في موضعه على الرصيف إلى الميت والسكينة في قلبه : «إنك تكذب يا براون» ثم أمر بالقبض عليه

(الرواية) : لماذا رفض المدير رواية السائق ورأى الحادث قتلا لا انتحارا ؟ فكر في الحل يا سيدي القارئ فإن أعياك فاقرأه في العدد القادم

تجد حل اللغز البوليسي الذي نشر في العدد السابق على صفحة ٧٥ من هذا العدد



العدد الثالث — السنة الرابعة



الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات

الإدارة
٨١ شارع السلطان حسين بعابدين
تليفون ٢٧٤٩٠

سكرتير التحرير
محمود الخفيف

بدل الاشتراك
ص
١٢٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى الممالك الأخرى
٥ ثمن العدد

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العدد الثانى — ١٢ ربيع الآخر سنة ١٣٧٢ — أول يناير سنة ١٩٥٣ — السنة الرابعة



فهرس العـــدد

رجلان وامرأة

للأستاذ أحمد حسن الزيات

— ١ —

أما أحد الرجلين فأديب معلم . بلغ الثلاثين أو أربى عليها بقليل ؛ فهو فى كمال بنيته وعقله . كان على شىء من وسامة الوجه وجمال الهيئة ، وعلى أشياء من سهولة الخلق ولطف الروح ، وبراعة الظرف ، وعذوبة المنطق . ولعل أظهر ما يميزه حياؤه المفرط وصمته الطويل ؛ فأكثر ما يجيب عن أكثر ما يسمع ابتسامة حيية . فإذا نطق رمى بالكلمة أو الكلمتين فى خفوت وحذر ، فتذهبان فى ضجة الحديث كما تذهب النسمة اللينة فى الدغل الشاجن ، أو القطرة العذبة فى الموج الصاخب ، فيزداد امتعاضا وانقباضا ووحشة

ومن العجيب أن حياءه كان يغرى به النساء ؛ لأنه كان حياء من نوع غريب ، لا ينم عن ذلة أو ضعة أو جبن ؛ وإنما ينم عن حشمة فيها عزة ، وعن رقة فيها ترفع ، وعن طيبة فيها شجاعة. فكان النساء يفهمن هذا الحياء على غير معناه : يحسبنه استخفافا وراءه كبر ، أو انصرافا تحته سر . والمرأة يهين دلالها الكبر فتريد قهره ، ويثير فضولها السر فتحاول كشفه . لذلك كانت يفاعته وشبيبته موجات من حبهن الجرىء ، تتعاقب عاتية على قلبه البرىء ، فتفنى فناء الصوت فى قفرة ، أو ترتد ارتداد السهم عن صخرة . فإذا بسطت الألفة من انقباضه ، وأزالت الصداقة من احتشامه ، وجدته محدثا عذب الحديث ، مفاكها حلو الفكاهة، يصل ما بين قلبه وقلب سامعه بكلام رقيق الحواشى ، وصوت رخيم النغم . وهو إلى ذلك شاعر يحس الحياة بقوة ، فنان يفهم الجمال بعمق ، إنسان يأخذ الصداقة بإخلاص. ومن أجل ذلك كثرت خلواته ، لأنه فضلا عن حيائه لا يجد اللذة إلا فى التأمل ، ولا السعادة إلا فى العمل ؛ ومن أجل ذلك أيضا قلت صداقاته ، لأنه لا يحب إلا عن نبل ، ولا يصادق إلا عن حب

***

وأما الآخر فطبيب ناشىء لا يزال فى ربيعه الخامس والعشرين . جميل الصورة، أزهر اللون ، ممشوق القوام . يروعك منه أول ما يروعك شعره الفاحم المتموج ، وثغره الباسم النضيد ، ووجهه السوى القسيم ،

وسمته الهادىء الوديع؛ ولكنه لا يزيد على تمثال أتقن المثّال صنعه وسوى خلقه. ليس فيه روح يفيض الحياة فى جسمه، ولا قلب يدفق الشعور فى دمه، ولا لسان يبث البيان فى حديثه. إنما يتحرك وكأنه لا يحس، وينفعل وكأنه لا يدرك، ويتكلم وكأنه لا يفكر

ومن وجوه الشبه بينه وبين التمثال أيضا فقد الإرادة: فأنت تحطه فينحط، وتنقله فينتقل، وتقوده فينقاد. لا يمتنع ولا يمترض ولا يحرن. وهو ذكى بالقدر الذى يبعده عن الغباء؛ أبى بالقدر الذى يدنيه من التساهل؛ ضعيف إشعاع الروح فلا هو ثقيل الظل ولا خفيفه، قليل إشراق النفس فلا هو غليظ الطبع ولاظريفه. وهو بعد ذلك كله طيب القلب فلا شر ولا ضر؛ سليم الصدر فلا حسد ولا حقد؛ زهيد العين فلا طموح ولا طمع؛ صارم الجد فلا لهو ولا عبث؛ صافى المودة فلا جفاء ولا غدر

***

وأما المرأة ففتاة فى سن العشرين، أدركت شيئا من الثقافة ثم توفرت على التطريز والموسيقى فنالت منهما قسطا لابأس به.

جميلة؛ ولكن حظها من الجمال جمله الله فى وجهها وروحها. أما سائر جسمها فلا يقيد البصر ولا يحرك القلب. ومع ذلك تستطيع أن تقول إنها فتانة: فتانة ببشرتها الخمرية الرفافة؛ فتانة بعينيها الحوراوين اللتين خلقتا لتسحرا لا لتنظرا؛ فتانة بخديها الأسيلين اللذين يقف عليهما البصر الحالم ساعة لا يرتد ولا يطرف؛ فتانة بشفتيها الرقيقتين المنفرجتين دائما عن ثغر قل أن تجد له مثيلا حتى فيما يتخيل الشاعر ويصور المصور؛ فتانة بحديثها الصادر عن قلبها النابض بالعواطف، ووجدانها الجائش بالأحاسيس، وذهنها الزاخر بالمعانى؛ فاتنة بدلالها الطفلى الذى يتمثل فى حديثها النبيل، فيتشكل على فمها كل شكل، ويتلون فى صوتها كل لون. وهى شحنة قوية من الشهوات والصبوات والميول، لا تحتملها أعصابها ولا تسعها قواها؛ فهى دائما تطلب، وهى أبدا لا تكتفى. هوايتها أن تحب، ولذتها أن تغامر، وسعادتها أن تذوق، وديدنها أن تغير. أجمل ما فى حياتها موعد مضروب، وموعود منتظر، وساعة أو ساعتان فى مطعم أو ملهى أو حديقة أو فيهن جميعا. تعيش يوما بيوم؛ فلاتذكر الأمس ولا تفكر فى الغد. ويومها كله زينة تتخذ، وجولة فى محلات الأزياء تجال، وصديقة تستقبل، وزيارة ترد، وحفلة تقام، وسهرة تقضى؛ وفيما بين ذلك عود تحتضنه،

وغناء توقعه عليه

— ٢ —

تعارف الرجلان على شاطئ (جليم) من رمل الإسكندرية عام ١٩٢٣ . عرف أحدهما بالآخر صديق مشترك . ولم يكد الصديقان أن يتعارفا حتى تآلفا . وجد كل واحد منهما فى أخيه ما يرضيه : هنا تمثال من الحسن يلذ الفنان أن يراه ؛ وهناك شدو من شعر القلب يلذ الإنسان أن يسمعه . وبين الصديقين فضلا عن ذلك مشابه فى رقة القلب وحياء الطبع وسلامة النية والتزايل من الناس . فكانا يجدان فى لقائهما وحديثهما من المتاع والأنس ما لا يجدانه فى ملهى من ملاهى المصيف ، ولا فى مجلس من مجالس السمر . لذلك جددا اللقاء وأطالا الاجتماع حتى توثقت بينهما الصلة وتمكنت الألفة ، فصار كل منهما للآخر حاجة نفسه ومصدر أنسه . ثم انتهى المصيف فعاد الصديقان إلى القاهرة فى يومين متعاقبين كل واحد مع أسرته ، وعاد لقاؤهما فى مجامع القاهرة ، على النحو الذى كان فى ملاهى الإسكندرية ..

كان أمين الصديق الأصغر يزور كل يوم حافظا الصديق الأكبر ، فيقضيان الأماسى معا فى سينما أو فى قهوة . وكان أمين كلما أقبل إلى صديقه كل مساء يقول : جئت من بيت عمى ، وتغديت على مائدة عمى ، وأخذت بريدى من صندوق عمى .

فسأله حافظ ذات مرة : أتسكن مع عمك ، فإنى لا أراك تتحدث إلا عن بيته ، ولا تتكلم إلا من تليفونه ؟

فأجابه : إنى أسكن مع أبى ، ولكنى أعيش مع عمى .

فقال حافظ : ما عهدت أحدا يفضل عمه على أبيه ، ولا زوجة عمه على أمه .

فقال وهو يضحك : لا أفضل عمىَّ على أبوىَّ ، وإنما أفضل مخطوبتى عليهم جميعا ، وهى ابنة عمى . وقد أحببتها حبا ملأ شغاف قلبى ، وشغلنى عن كل الناس إلا عنك . فأنا أقضى معها وقت فراغى ولا أكاد أتركها إلا إليك . وهى تعرفك بالسماع ، وكثيرا ما تحدثنا عنك . وأخوها تلميذ لك فلا يبرح لاهجا بذكرك . وأقرب الأيام هذا اليوم ، فقد سألتنى أن أستزيرك . ويسرنى أن تنعم لها بما طلبت .

فقال له : ولم لا تؤجل زيارتى إياكما إلى أن تكون فى بيت الزوجية ؟

فقال أمين : أوه ! إن بيننا وبين الزفاف سنة طويلة . ويصعب على أن أقسم وقتى بينها وبينك ؛ ولكنك إذا عرفتها وعرفتك ، ضمنت ألا أفترق عنها ولا عنك .

* * *

وفى عصر يوم من أيام الخميس ركب الصديقان الترام إلى منزل العم . وكان الشارع الذى نزلا فى بعض محطاته شارع

الجيزة ، فسارا فيه . وكانت أواخر الصيف قد اتصلت بأوائل الخريف فى جو سبتمبر ، فكسرت من حره ، وعدلت من نسيمه ؛ كالصهباء تشعشعها بالماء فتكون منهما النشوة ولا يكون فيهما الحميا . وكان شجر الدردار المنضد على جانب الطريق لا يزال ممسكا بأوراقه العريضة ، فلم تسقطها بعد رياح أكتوبر . وكان النيل بوجهه المتورد يتراءى من بين الشجر ومن خلال القصور جميلا جليلا ، فيغرى السائر بالوقوف ليتملى ويتأمل . فقال الأديب للطبيب : مل بنا إلى الشاطىء نستمتع قليلا بجمال النهر ؛ فإنى — كسائر القاهريين — أكاد أنسى أن النيل يجرى فى القاهرة ؛ لأننا لا نراه إلا عابرين مسرعين على جسوره ، أو سائرين ذاهلين على شواطئه .

فقال الطبيب للأديب وكأنه لا يشعر بما شعر ولا يفكر فيما قال : هذا هو بيت عمى . وها هى ذى (عقيلة) واقفة فى الشرفة تنظر وتنتظر . فاطلع الأديب فرأى فتاة قصداً فى النساء ، لا هى قصيرة ولا طويلة ، ولا هى سمينة ولا نحيلة . ترتدى حلة من قطعتين : عليا حمراء فى لون القرمز ، وسفلى بيضاء فى لون الزنبق . وبجانبها كلب صغير أبيض يطل من فرجة بين قضبان الدرزين . فلما رأتهما ابتسمت وانكفأت إلى الداخل لتلقاهما لدى الباب

تعارفا فى الصالة ؛ ثم تقدمتهما إلى الصالون . وأقبل الخادم بأقداح الشاى وأطباق الحلوى . وبدأ الحديث ؛ ولكنهم لم يتجاذبوا أطرافه ، لأن الحديث لم يكن له إلا طرف واحد أمسكت به عقيلة طول الوقت . وظل الزائران يستمعان ويوافقان ؛ لأن حافظا عقل لسانه الحياء ؛ ولأن أمينا قطع كلامه العى . ثم هم الصديقان بالانصراف فودعتهما عقيلة لدى المصعد وهى تقول لحافظ بلهجة الإصرار والتوكيد : أرجو أن تزورنا فى أى يوم ومن غير دعوة . ولكن حافظا لم يستطع أن يحقق هذا الرجاء الأول لأنه سافر إلى باريس فى رحلة تستغرق العام كله

— ٣ —

تتابعت الرسائل من الأديب الكاتب إلى الطبيب الخاطب تحمل أجمل الأحاديث وأرقها عن مفاتن باريس ومتاحفها وحدائقها ومسارحها وملاهيها وعن كل جميل فيها . وكانت الأجوبة عن هذه الرسائل تتوالى كذلك حاملة صدى تلك الأحاديث وأثرها فى نفس أمين ، ورجاءه إلى صديقه أن يكثر منها ويطيل فيها . وكان حافظ قد فطن إلى أن الروح التى تنبث فى هذه الرسائل ليست روح أمين . روح من ؟ لا يدرى ! وإنما يعتقد على أى حال أن هناك (سيرانو) بجانب (كرستيان) . فاحتفل لرسائله أشد

الاحتفال ، وجعلها أشبه باليوميات يسجل فيها مشاهد اليوم وخواطر الساعة ، وما يتعاقب على نفسه الشاعرة من رضا وسخط ، وانبساط وانقباض ، وإعجاب وإنكار ، وميل ونفور . ولبى رغبة صديقه فأسهب بعض الإسهاب فى وصف من لاقى من أوانس (البلفار) وغوانى (مونمارتر)

وألقى إليه البريد ذات يوم رسائل مصر ففض أول ما فض غلاف «أمين» لأنه يعرفه بخطه ، فإذا بداخله رسالتان : رسالة طويلة بإمضاء أمين ، ورسالة صغيرة بإمضاء عقيلة . فتناول رسالة الآنسة وأخذ يقلب فيها النظر : فى إمضائها المائل ، وخطها المنمق ، وورقها الفاخر ، وشكلها الأنيق ، ولونها المورد . ثم عاد يقرأ :

« عزيزى صديق ابن عمى !

ولى العذر إذا لم أقل صديقى ، فإنك أغفلت ذكرى فى رسائلك التى أقرأها كلمة كلمة ، وأحتفظ بها رسالة رسالة . ولا أدعى أن من حقى عليك أن تسلم على ، فإن زيارة واحدة لا تنشئ بين الزائر والمزور صداقة ؛ ولكنى حسبت أن صداقتك لأمين هى من السعة والعمق بحيث تشمل مخطوبته على الأقل . على أنى أعرفك منذ زمن طويل مما قرأت لك وسمعت عنك . وهب أن المعرفة بيننا كانت قديمة وثيقة ثم نسيت أن تحيينا على البعد ، فإننا نعذرك كل العذر ، لأن من فى باريس لا يذكر من فى القاهرة ، ومن يصبح بين غوانى (مونبرناس) ويمسى بين حسان (سان جرمان) ، لا يجد وقتا للتفكير فى سكاكينى شارع الجيزة أو قاطنى حى المنيرة .

أرجو ألا تحمل كلامى على محمل العتاب ، فليس لى أن أعتب عليك . احمله إن شئت على محمل الاستجداء ، فإنى أجد فى قراءة رسائلك لذة لا أجدها فى متعة أخرى ! فإذا كتبت إلى كما تكتب إلى أمين ، تصبح الرسالة رسالتين ، والسعادة سعادتين . وما أظنك تبخل على إنسان بلذة لا تؤلمك ، وبمنفعة لا تضرك »

ابنة عم صديقك
عقيلة

فلما فرغ حافظ من قراءة هذه الرسالة بدءاً وعوداً ، قرأ رسالة أمين فوجده يرجو ويلح فى الرجاء أن يكتب إلى عقيلة ولو على حساب الكتابة إليه ، ويفضل أن يحدثها عن مباهج النهار وملاهى الليل ، وعما يتصل بالمرأة الباريسية من معروف ومنكر ؛ فلم يسع صديق الخطيبين إلا أن يلبى مبتغاها فى الحدود التى يحدها حياؤه ويفرضها أدبه ؛ ولكنه كان يحرص كل الحرص على أن يدرج الرسالتين فى غلاف واحد .

لا أريد أن أعوق القارئ عن حوادث القصة برواية ما كتب إليها وما كتبت إليه ، فإن ذلك وإن لذ وأمتع

لا يضيف إلى الموضوع إلا مرامى تختبئ وراء السطور تكشف للذهن اللماح طرف النقاب عن وجه المستقبل . فلنمد مع حافظ من باريس — بعد أن قضى حاجته منها — إلى الإسكندرية فى أواخر أغسطس ليجد فى استقباله على الميناء أميناً وعقيلة

وكان عم أمين أو أبو عقيلة يصطاف على عادته من كل عام فى شاطئ (جليم) فاقترحا على حافظ أن ينزل فى فندق (سمر بلاس) ليكونوا جميعاً فى حى واحد . ولم يريدا أن يتركاه لنفسه تلك الليلة ، فصحباه إلى غرفته ، وشاركاه فى عشائه ، ولازماه فى سهرته . وكان مدار الحديث فى هذه الأمسية ، وما تلاها من أماسى ، على ما رأى حافظ وما سمع فى مدينة النور من عجائب الحضارة وغرائب الناس . كان الخطبان يريدان أن يسمعا ذلك من فمه بعد أن قرآه بقلمه . وكانت عقيلة تسأل وحافظ يجيب وأمين يسمع . وكانت الرسائل التى تبادلها الأصدقاء الثلاثة فى ثمانية وأربعين أسبوعا قد أزالت من بينهم الكلفة ، وأطلعت كل واحد منهم على دخيلة الآخر ، فكانت عقيلة تطمئن إلى الصديق كما تطمئن إلى الخاطب ، فتتبسط فى الكلام وتتسامح فى الدعابة ، وتحول التيار الكهربى حيث تشاء برفع الكبس من هنا ووضعه هناك ، فترى أن أثره فى الخشب غير أثره فى المدن ، وأن فعله فى نفس أمين غير فعله فى نفس حافظ ، فتقبل بنفسها وحسها على الأديب أكثر مما تقبل بوجهها وقولها على الطبيب . وكان أمين يجد فى تمكن الألفة بين خطيبه وصديقه رضا قلبه وغبطة نفسه ؛ لأنه يرى فى تودد عقيلة إلى حافظ إعجابا منها بصحة رأيه فى انتخابه للصديق ، وفى تحبب حافظ إلى عقيلة ثناء منه على حسن ذوقه فى اختياره للزوجة . ولم تكن ملاطفة حافظ لحبيبة صديقه عرضاً من أعراض رغبة ناشئة ، ولا أثراً من آثار عاطفة حبيسة ؛ وإنما كان رجلا قريب عهد بالحياة الباريسية التى تجعل التلطف بالمرأة والتظرف لها أدبا مرعيا من آداب السلوك . وهو بطبعه رقيق الحاشية ، يلاين ولا يخاشن ، ويتبسم ولا يتجهم ؛ أما عقيلة فكانت تنشد شيئاً فوجدته فيه . كانت تريد أن تسمع من يقول لها : أنت جميلة ! وإن فيك ما ليس فى أترابك من عذوبة الروح وصفاء الحس وقوة الجاذبية . وكانت تحب أن ترى أثر فتنتها فى عين تنظر بإعجاب ، وشفة تفتر عن دهش ، ولسان يهتف فى خشوع . وكانت تود لو يكون بجانبها من إذا أعجبت بمنظر من مناظر الطبيعة ساهم فى هذا الإعجاب ؛ وإذا تحدثت فى موقف من مواقف السينما شارك فى هذا الحديث ، وإذا شعرت بعاطفة من عواطف القلب استجاب إلى هذا الشعور .

فلما قرأت لحافظ وهو فى باريس، وتحدثت إليه وهو فى الإسكندرية ، وتقلبت معه على شواطىء (الرمل) ، استقرت نفسها بعد طموح بعيد ، وسكن طرفها بعد نظر طويل ، وقطعت نفسها عن أهلها وصواحبها واكتفت به ، يرتادان الشواطئ والحدائق طول النهار، ويترددان إلى المسارح والملاهى أكثر الليل ، وأمين يرافقهما إلى كل مكان، ويوافقهما على كل اقتراح ؛ فكان الثلاثة أشبه بالأقانيم المسيحية الثلاثة : متحدين فى الروح ، متعددين فى الجسد ؛ فحافظ هو الأب ، وأمين هو الابن ، وعقيلة هى روح القدس !

— ٤ —

أقبل سبتمبر وهو الشهر الذى يعود فيه الموظفون من الإجازة ليستأنفوا كارهين العمل فى الدواوين . ويعود فيه الطلاب والتلاميذ من العطلة ليستعدوا خائفين لامتحان الدور الثانى ، أو ليقدموا طلباتهم إلى الجامعات أو إلى المدارس . ويعود فيه أعيان الفلاحين من المصيف ليتأهبوا راجين لجمع القطن وضم الرز وبذر البرسيم. فخلت أكثر الأكشاك، وفترت حركة الشواطىء ، وخفت زحمة الكرنيش ، وهدأت حياة البحر ، فلم يبق على بلاجات الرمل إلا المترفون الذين لا تحفزهم ضرورات العمل إلى السفر ، وإلا السكندريون الذين يبدأون على عادتهم الاصطياف فى هذا الشهر .

وعادت أسرة عقيلة مع العائدين ، فاستبدلت حالة بحالة ، وتحولت من حياة إلى حياة . عاد الأب إلى أعمال المكتب ، والأم إلى شؤون البيت ، والأولاد إلى واجبات المدرسة ، وعقيلة إلى الإبرة والكتاب ، وإلى الزيارة والاستقبال ، وإلى العود والغناء . وسرعان ما اطمأن كل إلى عمله الأول ، واستقر على وضعه المألوف . إلا عقيلة لم تجد فى بيت الجيزة ما كانت تجده قبلا من رخاء البال ، ولم تذق فى شارع فؤاد ما كانت تذوقه قديما من حلاوة الأنس. سمج فى عينها كل إنسان ، وتفه فى ذوقها كل شىء ، وثقل على سمعها كل حديث . وأدركت أن علة هذا التغير إنما هو فقدها الثالوث على الحال التى كان عليها فى الإسكندرية . ولكن كيف يتسنى لها فى غير المصيف أن تمرح طول النهار ، وأن تلهو أكثر الليل ؟ نعم تستطيع ذلك إلى حد ما مع أمين ، لأنه ابن عمها فهو أخوها فى الحاضر ؛ ولأنه خطيبها فهو زوجها فى المستقبل . ولكن الأمر بينها وبين حافظ جد مختلف : لا تصله بها صلة من قرابة ، ولا تصله بأبيها صلة من صداقة ، وصلته بأمين وإن كانت وثيقة لا ترفع الحجب حتى ترى بجانبه فى كل ملهى ، ولا تدفع الحواجز حتى تذهب فى صحبته إلى كل مكان . والولاية عليها لا تزال

لأبيها . والتقاليد الإسلامية لاتنفك متبعة في الأسر الوسطى . أما التفكير في أن تقنع بلقائه مرة أو مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع فذلك ما لم يخطر ببالها ولو بتداعي المعاني وتوالي الفروض . لقد أصبح وجوده في حياتها جزءاً من وجودها هي في الحياة . فلا تتصور أن تعيش من غيره ، ولا أن تهنأ بطيب العيش مع غيره . وإذن فلا سبيل إلا أن تدخل على أبيها وهو يتمزز فنجال الشاي مع أمها في ساعة صفو وتقول :

بابا ! إنك تعلم أن اللغة الفرنسية من ألزم المناصر لثقافة الفتاة العصرية ، وأن القدر الذي ثقفته منها في المدرسة لا يكفي للحديث في مجتمع راق ، ولا للقراءة في كتاب قيم . وأرى إذا سمحت أن أعود إلى تعلمها بعزم أقوى وعلى منهج أتم ؛ فإني تعرضت مراراً للخجل الشديد أمام صديقاتي المتخرجات في (الميردى ديو) حين يحادثنني بها فأتلعثم أو أخطئ أو أتوقف

فقال أبوها ، وكان قليلا ما يرد لها طلبا : لا بأس يا بنيتي ! اصنعي ما تحبين . وقالت أمها ، وكانت كثيراً ما تمكنها من بغيتها : إن المدموازيل هيلين التي كانت تعلمك الموسيقى تستطيع أن تعلمك الفرنسية فاطلبيها وكلميها

فقالت عقيلة وقد سرتها موافقة أبويها : عفواً ياماما ! إني أريد أن أتوسع في نحو هذه اللغة وصرفها ، وأتضلع من بيانها وأدبها . والمدموازيل هيلين لا تعرف من الفرنسية إلا الحديث الدارج والكلام المألوف . وإن لابن عمي صديقاً توفر حظه من هذه اللغة ، وقد قال أمين حين حدثته في هذا الأمر إنه يضمن أن يعطيني كل يوم درساً من غير تحديد وقت ولا تقدير أجر

قالت ذلك وهي لم تتحدث إلى أمين عنه ، ولم تعرف رأي حافظ فيه ؛ لأنها تعلم أن أميناً طوع لها فيما تحب ، وأن حافظاً لا يتشدد على أمين فيما يريد . وكان رأيها في الصديقين صحيحاً فابتدأت الدروس بعد يومين اثنين في المكتب المنعزل من بيت عقيلة ، وفي الساعة الخامسة من كل يوم

— ٥ —

بدأت الدروس طبيعية في الأسبوع الأول كما تكون بين معلم يحب أن يعلم ، وتلميذة تريد أن تتعلم ؛ لأن الأب كان يدخل عليهما فيسلم ويشكر ، والأخ كان يلم بهما فيسمع ويستفيد ، والخاطب كان يجلس إليهما فيشارك أو ينتظر . وخشيت عقيلة أن يستمر الأمر على هذه الحال ، فرغبت أن يكون الدرس في الصباح حين يكون الأب في ديوانه ، والأخ في مدرسته ، والخاطب في مكتبه ؛ فحققوا لها هذه الرغبة . وقد ساعد على تحقيقها أن المعلم كان لحسن الحظ أو لسوئه فارغا من العمل

فى الساعات الثلاث الأولى من اليوم المدرسى أكثر الأسبوع .

وفى السكون الشامل والخلوة الصحيحة مضت الدروس فنية جدية أول الأمر ؛ ثم ظهرت النية وبرح الخفاء فتحولت إلى حديث صرف أقله بالفرنسية وأكثره بالعربية ، يتشقق بعضه من بعض ، فيتناول أخبار الأسر ومغامرات الأوانس ورغبات العرائس ونزعات العصر ؛ فيحاول المعلم أن يحجز سيله الدافق بحمل التلميذة على أن تتحدث بالفرنسية ؛ ولكن الفرنسية لا تواتيها فتعود إلى العربية ، لأن هواها أن تتكلم لا أن تتعلم . وكانت تدس فى ثنايا الحديث بعض المعانى الخاصة فيتجاهلها المعلم ويصرفها بلباقته إلى المعانى العامة ؛ فتعود هى إليها وتلح عليها كما تلح النحلة الشرهة على رحيق الزهرة كلما ذبها أحد عنه .

وبرم المعلم بهذه الدروس التى يتلقاها ولا يلقيها ، فقرر فى نفسه أن يصارح التلميذة فى اليوم التالى بأنها تخسر الوقت ولا تكسب التعلم ، وأن من الخير إذا كان همها الحديث أن تكتفى بما يجرى منه بين ثلاثتهم فى مساء كل خميس ويوم كل جمعة

وكان اليوم التالى يوم اثنين ، فلم يكد يحييها ويجلس حتى قالت له وهى تنظر بفتور ، وتبسم فى دلال : « اسمع يا أستاذى ! إن درسى اليوم سآخذه فى الطريق ؛ فإن لى عند الخياط فستاناً أريد أن أجربه ، وعند المصور صورة أحب أن أراها ؛ ولا تريد أمى أن أخرج وحدى ، فما رأيك ؟ »

فقال لها حافظ : « ومتى كان لأحد عندك رأى؟ هلمى فما الدرس على المكتب بخير منه فى الطريق مادام الأمر لا يتعدى «الدردشة» وكانت قد ارتدت من قبل ثوب الخروج فنهضت ونهض على أثرها ، فذهبا إلى الخياط فى شارع قصر النيل ، ومرا على المصور فى شارع عبد العزيز . ثم اقترحت عقيلة على حافظ أن يجلسا قليلا فى محل معين من محلات الحلوى تفضله على غيره لنظافته وهدوئه . فلما دخلاه انتبذت ناحية فى ركن خال من أركان المحل فجلسا فيه . ولو جلسا إلى أى مائدة من الموائد لما حرك السكون من حولها أحد ؛ لأن خلو الأمكنة العامة فى مثل هذه الساعة من النهار أمر مألوف ؛ والخلوة فى هذا المكان على الأخص مضمونة فى كل وقت لانزوائه عن ضجة الناس فى شارع البواكى .

وكانت النذل فى هذا المحل من الفتيات الحسان فى زيهن التقليدى الأسود . والفتيات بالطبع يحترمن اختلاء الرجل بالمرأة ؛ فلا نظرة فضول ولا علامة تعجب . أما الزوجان اللتان كانا يجلسان فى الركن المقابل فكانا منهمكين فى حديث غزلى حاد صرفهما عن

الدنيا كلها لا عن المحل وحده . إذن ليس هناك مايدعو عقيلة إلى التحفظ فى الجلوس، أو يحملها على التورية فى الحديث ؛ فوضعت الشوكة فى طبق الحلوى ، وفتحت حقيبة يدها فمسحت شفتيها الرقيقتين بالمنديل الأبيض ، ومرت عليهما بالإصبع الأحمر؛ ثم أثبتت عينيها فى عينى معلمها وعادت إلى حديثها تقول : « لنعد إلى موضوع الدرس الذى بدأته فى الطريق . أنا أوافقك على أنى أجعل الدرس وسيلة للحديث . وماذا فى هذا مما تنكره ؟ ولم لا يكون الحديث المرسل وسيلة إلى الدرس ؟ أليست فيه جملة تصوب أو فكرة تصحح أو مشكلة تحل ؟ على أنك أذكى من أن أموه الحق عليك وأكتم ذات نفسى عنك . أنا منذ رأيتك استلطفتك ؛ فلما قرأتك أحببتك ؛ ولما خالطتك عشقتك . وجدت فيك كل ما أبتغيه من رجل ، ووقعت منك على كل ما أرتجيه فى حبيب ؛ فذوقك وذوقى متحدان، وشعورك وشعورى متجاوبان ، وحظك وحظى متشابهان . فلك زوجة لا تفهمك ، ولى خاطب لا يفهمنى. وفيك حساسية تتعبك ، وفى حساسية تتعبنى . ولا أخفى عليك ، فقد كان لى نزوات مع الشبان كنت أبغى من ورائها نشدان من أحب ، ووجدان من أخطب . ولكنى علمت بعد طول الجولان والدوران أن القرين الصالح لا يكون فى الأماكن التى أزورها ، ولا فى الدورات التى أدورها ، فقنعت بابن عمى ؛ وهو كما تعلم يملأ العين ولا يملأ القلب ، ويرضى العقل ولا يرضى الذوق . وخير مافيه خلق صريح ، وضمير نقى، ولسان عف ، وثقة بمن يحب لا تجوز عليها ريبة ولا تنال منها وشاية . فأنا لا أحبه ولا أبغضه ، ولا أقبله ولا أرفضه . ولكنى منذ عرفتك ضاقت نفسى بهذه القناعة ، وعادت مرة أخرى تتطلع إلى حياة النور والشعور والحب ؛ فوقفت عندك وحامت عليك . ولا أدرى وقد فتحت لك قلبى ، وصارحتك بحبى ، أتستجيب إلى أم تنبو على ؟

قالت ذلك ووضعت على المائدة مرفقيها ، وأسندت ذقنها بكفيها ، ثم حدقت فى وجه حافظ وسكتت تنتظر مايقول . وكان حافظ يستمع إليها وهو ساهم واجم مطرق ، لا يقاطع ولا يراجع ولا يعترض . فلما فرغت من حديثها رفع إليها طرفه وقال : يظهر ياعقيلة أنك ذكرت نفسك ونسيت غيرك . نسيت أنك مخطوبة وبنت عم ، وأنى متزوج وصديق (أمين) . فهمت عقيلة بأن تجيب لولا أن قال لها حافظ : اسمعى إلى كما سمعت إليك، ولا تراجعينى قبل أن أفرغ . إن أميناً صديقى وصفيى ، ومن حقه على أن أحفظ ذمته وأرعى حرمته . ولقد لابسته طويلا فما ذممت عهده ولا اتهمت وده . ثم إنى عرفتك لأنى عرفته ، وصادقتك لأنى

صادقته . وما دخلت بينك وبينه إلا لأوثق الألفة بين قلبك النافر وقلبه المطمئن ؛ فقد شكا إلى كثيراً طول إعراضك عنه وسوء رأيك فيه . وما أراك تكرهين منه إلا حسن نيته وخلوص طويته واستقامة خلقه. وهل يضير الرجل ألا يكون فكه الطبع وهو صاحب جد ، وألا يكون لبق الحديث وهو صاحب عمل ؟ إن الفتاة التي تعرف معنى الزوجية وتدرك سر الأمومة لا تجعل من بيتها ناديا ولا مرقصا ولا حانة ، ولا تطلب من زوجها أن يكون شاعراً يطارحها الغزل ، ولا سميراً يناقلها الحديث ، ولا نديما يقارعها الكأس ؛ وإنما تجعل من بيتها عشاً بفيض بالحنان والحب ، وحرما يشيع الراحة والسكينة ؛ وتطلب من زوجها أن يكون عاملا يكسبها الثروة ، وفاضلا ينيلها الشرف ، ومخلصاً يذيقها السعادة . وأمين جدير بأن يكون هذا الرجل ، إذا كنت أنت جديرة بأن تهيئ له ذلك البيت

ثم سمعتك تذكرين الحب وتفسرين به تلك العاطفة التي تجدينها فى قلبك لى ، وأنا أيضا لا أكذبك قد شعرت بأن نبتة من هذه الفصيلة الحمقاء قد نبتت فى قلبى لك ؛ ولكننى أحاول جاهدا أن أمنع عنها الغذاء والرى حتى تموت . لا أقبل أن أكون قطيعة قلبين أرجو أن أوكد بينهما الصلة ، ولا أن أكون شقاء صديق أريد أن أوفر له السعادة . وماذا يقول الناس عنى : ألا يقولون : صدق المثل « أرسلته لى حطبا فتزوج ! » وماذا يقول الناس عنك ؟ ألا يقولون : لعوب تخرج من قلب لتدخل فى قلب ، كما تخرج من ثوب لتدخل فى ثوب !

عالجى المشكلة يا صديقتى بالروية والحزم . واعملى على أن تظل العلاقة التي بينك وبينى علاقة صديق بصديق ، أو علاقة تلميذة بمعلم . وستجدين فى الحب الذى يخلصه لك أمين ، وفى الصداقة التي يختصها بك حافظ ، متعة الروح وسكينة القلب وبهجة العيش

فقالت عقيلة : هل أفصحت عن كل ما فى نفسك ؟

فقال لها : بالقدر الذى يعادل ما قلت .

فقالت : أما كلامك فإذا قسناه بقياس العقل والمنطق فلا اعتراض عليه ولا معارضة فيه . وأما إذا قسناه بقياس القلب والشعور انقطعت حجته ووهى دليله .. إن الحب لا يخضع لمبادئ ولا يستكين لقيود . ومن يرد أن يطبق قواعد الأخلاق على الحب ، كان كمن يريد أن يطبق مواد القانون على الجنون . فأنا أحبك وكفى . وفى سبيل هذا الحب لا أتردد فى قطع كل صلة ، وإبعاد كل قرابة ، وإنكار كل عرف

فقال لها : وما ثمرة هذا الحب إذا لم يفض إلى زواج ؟

فقالت : أنا أريد هذا الزواج . فإذا لم تردء أنت فلتكن ثمرة الحب كما تكون . عاهدنى بشرفك أن تظل دائما معى كما يكون الزوج مع زوجته ، أو الحبيب مع حبيبته . ولا أبالى بعد ذلك أن تكون علاقتى بك عقدا عند مأذون ، أو عهدا عند شيطان . وأعاهدك بشرفى أن أظل لأمين المخطوبة الوفية والزوجة المطيعة . ثم رفعت يدها اليمنى وحركت سبابتها فى الهواء منذرة وقالت : « إنى أريدك يا حافظ بأى ثمن ! فإذا بدا لك يوما أن تقف دون إرادتى تركت لك الوجود كله ! »

فقال حافظ وهو يتكلف الابتسام ويتصنع الهدوء : «عبث طفولة ونزوة شباب! ومازلت قوى الرجاء فى أن تراجعى نفسك وتشاورى عقلك فيما قلت وقلت »

وكان عقربا الساعة قد اجتمعا عند الساعة الثانية عشرة ، فقالت وهى تنظر فى ساعة يدها وتشير إلى العقربين المجتمعين : « يجب أن نظل هكذا وعقرب الثوانى بعيد ! » ثم نهضت ونهض حافظ وركبا سيارة لبثا فيها صامتين مفكرين حتى بلغت بهما البيت فودعها ثم رجع

— ٦ —

لم يشأ حافظ أن يغير من نظامه ولا أن يخرج عن عادته ؛ فقد رأى من الحكمة أن يعالج الأمر باللين ، ويستعين على الداء بالمسكن حتى ينكشف الأمر . فذهب إلى عقيلة فى موعد الدرس فوجدها مضطربة البال ، كاسفة الوجه ، محمرة العين ، لا تستقر على حال من القلق . كانت تخشى ألا يجيء ؛ لأن هيئته فى السيارة ولهجته عند الوداع لم تبعثا فى نفسها الطمأنينة ، فلم تكد تخلو إليه فى المكتب حتى أقبلت عليه والدمع يترقرق فى عينيها ، وأمسكت كتفيه بيديها وهزتهما هزا رفيقا وقالت له : لك الله يا حافظ ! لقد أسهرت جفنى حتى الصباح . كان شيطانى يوسوس فى صدرى بأنك لا تجيء !

ثم أدنت صدرها من صدره كأنما تريد أن تعانقه ، فردها بيديه ردا لينا ؛ ثم أجلسها على الكنبة وجلس بجانبها يريد أن يسكن من روعها . ولكنها انفجرت بالبكاء وألقت بنفسها عليه . فارتبك حافظ وحاول أن ينحيها عنه لينهض مخافة أن يدخل عليهما المكتب داخل سمع البكاء . ولكنها ضغطت بساعديها على ركبته وأنحت على يده وذراعه بالتقبيل واللثم وهى تقول فى نحيب وضراعة : « لا تفارقنى يا حافظ ! قل لى إنك لى ! أنت أول من أحببت فلا تفجعنى فى حبيى الأول ! ليس ما بى عبث طفولة ولا نزوة شباب كما قلت ؛ إنما هو الحب الذى طالما سمعت به وقرأت عنه . عذبت كثيرا من الشبان عن عبث ولهو فانتقم الله لهم منى .

عندى بأن تكون لى على أى حال . وإذا كان أمين هو العقبة فإنى سأفسخ خطبته، وأنكر قرابته » . ودخلت الخادمة تحمل القهوة وعقيلة على هذا الوضع ، فتظاهرت بالإغماء وأخذ حافظ يربت خدها ويدلك يدها . وطلب من الخادمة شيئاً من روح النشادر أو ماء الكولونيا فذهبت مسرعة . وجاءت الأم لهفى تحمل المنبهات ، فأضجعت ابنتها على صدرها الرءوم وهى تقول لحافظ : « توقعت أن تصبح عقيلة مريضة ؛ فقد باتت ليلها تتململ ، وتتقلب ، وتخرج من الغرفة إلى الشرفة ؛ ثم تدخل من الشرفة إلى الغرفة ! » ثم بدا من عقيلة مادل على أنها أفاقت ؛ فنقلتها أمها إلى الفراش . وانتهى الدرس وانصرف المعلم

* * *

خرج حافظ كالهائم لايدرى كيف يسير ولا أين يتجه . لم يكن يحسب أن الحب قد برح بعقيلة إلى هذا الحد وفى هذه السرعة . وعزا هذا الطغيان الغرامى العاتى إلى تأبيه عليها وتحفظه معها وتجافيه عنها . فإن الفتاة العاطفية المدللة التى تعودت أن ينزل على حكمها الأهل، وتجرى على هواها القلوب، لاتطيق أن ينصرف عنها وجه ؛ أو يمتنع عليها طلب ، أو يطيش لها سهم

ولكنه لايستطيع أن يفعل غير مافعل . الأمر بينها وبينه واضح : إما أن يتزوجها فتكون كارثة على صديقه ، وإما أن يخادنها فتكون نكبة على ضميره ! فأما الحالة الثالثة وهى الصداقة البريئة فقد ردتها بعنف ورفضتها بعناد . على أنه قدر فى نفسه أنها إذا يئست من الزواج والمخادنة رجعت بالطبع إلى المصادقة . واليأس وإن كرب الصدر وصدع الفؤاد ينتهى بعد زمن قصير أو طويل إلى الراحة .

وكان قد رجع إلى منزله ، فجلس على مكتبه وأخذ يكتب إليها هذه الرسالة :

عزيزتى عقيلة :

لقد كان من فوق احتمالى أن أراك تبكين هذا البكاء الحار بين يدى فى هذا الصباح بعد أن علمت من أمك ما كابدت من الأرق والقلق طول الليل . لا أدرى كيف تطور الأمر بيننا هذا التطور الذى يكدر الصفو ، ويفرق الشمل ، ويمزق هذا الثالوث الذى جمعه الود وألفه الإخلاص . ليس لك يد فيما كان . إنما هو القدر الذى يصيب بالحب كما يصيب بالحمى ، ويضل بالهوى كما يضل بالعمى . ولقد شبهتنا فى حديثك بالأمس نحن الثلاثة بعقرب الساعات وعقرب الدقائق وعقرب الثوانى فى تمام الساعة الثانية عشرة ، يجتمع اثنان فى هدوء ، ويفترق الثالث فى اضطراب . وقد كنت أنا قد شبهتنا من قبل بالأقانيم الثلاثة التى يتكون منها واحد فى رأى المسيحية ، وهى الآب والابن وروح القدس وأستطيع بعد

أن سمعت منك ما سمعت فى محل الحلوى وفى مكتب الدرس أن أشبهنا أيضا بثلاثة (جوتة)، وهم فرتر وكستنر وشرلوت . ومن العجيب أن الثلاثات الثلاث تتشابه فى أن واحدا منهـا لا بد أن يصاب فى نفسه ، ليضمن السلامة لغيره . فعقرب الثوانى كتب عليه أن يدور منعزلا فى مداره الخاص لينتظم عمل الساعة . والابن صلب على قول النصارى ليكفر عن خطيئة آدم . وفرتر انتحر على رواية جوتة ليوفر السعادة لحبيبته ولصديقه . وأنا ياعقيلة لا أريد ولا أنت تريدين أن يموت واحد منا . أريد وأود لو تريدين أن يعيش ثلاثتنا فى ظلال الصداقة الخالصة وادعين هانئين لا يدخل بيننا شيطان ، ولا يشوب حبنا ريبة . ولعل من الخير أن نقطع الدرس من الغد لنستأنفه حين يثوب الهدوء وتؤوب العاقبة . أما زيارتى إياك فلن تنقطع . سأزورك مع أمين فى كل ليلتين ما أسعفتنى الفرصة وأمكنتنى الحال . وسأكون لك ولخاطبك على الأبد المحب الوفى والصديق الأمين

حافظ

ثم غلف الرسالة وبعث بها مع خادمه إلى منزل عقيلة .

وفى صباح اليوم التالى زاره فى بيته أمين وأخبره وهو جزع مضطرب أن حالة ابنة عمه سيئة ، فقد قضت ليلة أمس الأول على غير عادتها ساهرة تتردد بين الغرفة والشرفة ، تقرأ ساعة وتفكر أخرى ، فأصابها برد شديد بلغ الرئة . وقد تركتها بين يدى الطبيب وحرارتها تسع وثلاثون، لأصحبك إليها فقد طلبتك

جزع حافظ لهذا الخبر وأشفق على عقيلة من عقبى هذا الداء . وأسرع فارتدى ثيابه ثم انطلق مع صديقه إلى منزل عمه .

كانت عقيلة حين دخل عليها الصديقان مستلقية على ظهرها فى الفراش وعلى جبينها كيس الثلج، ومن حولها أمها وبعض سيدات الجيزة . فلما رأتهما أشارت إلى أمها أن تخلى لهما مكانا بجانب السرير . فانصرف السيدات وجلس الرجلان حيث أرادت المريضة

والتفتت عقيلة إلى حافظ بقدر ما سمح لها كيس الثلج — وكانت عيناها وخداها يتوهجن من وقدة الحمى — وأخذت يده فى يدها وقالت : قرأت رسالتك مرارا على رغم ما بى . ثم دسستها تحت الوسادة ليقرأها أمين . وإنى أشكر لك ما أفضته على صداقتى لك من نبل ، وما أسديته إلى علاقتى بأمين من فضل . وأحمد الله على أن اختارنى من بين ثلاثتنا لأكون فداء لما قد ينال صحبتكما من فرقة ، ويصيب مودتكما من فتور . وأنا بهذه التضحية مغتبطة وعنها راضية . لقد أذقتمانى فى هذه الفترة القصيرة من عمرى ألذ

ما فى هذه الحياة المرة من حب وغبطة

كانت لذتى فى أن أمرح وألهو فهيأتما لى هذه اللذة . وكانت سعادتى فى أن أحب وأحب فوفرتما لى هذه السعادة .

فإذا قضى الله أن أفارقكما اليوم كما يحدثنى بذلك قلبى، فلن أقول فى وحشة القبر إنى لم أنعم بالأنس ، ولا فى ظلمة العدم أنى لم أسعد بالوجود . وحسبي يا حافظ أن أحيا فى ذاكرتك وذاكرة أمين . ستجدانني ثالثتكما فى كل مكان تقصدانه ، وفى كل حفل تشهدانه .

وستحس يا حافظ حين تأكل أو تشرب تلك اليد العابثة التى كانت تتفقلك عن طعامك فتنهبه ، أو عن شرابك فتشربه ...

وغلبها البكاء فسالت مدامعها الحرار الغزار على صدغها الملتهب . ولم يملك الصديقان عينيهما فانتحبا انتحاب الطفل . وتجلد حافظ فغيض من دمعه وقال لها وهو يمسح ظهر كفها بباطن كفه : لا بأس عليك يا عقيلة ! إنك بخير . وستعافين بعد أيام فيلتئم الشمل ويستمر الدرس وتعود البهجة !

ولكن عقيلة وا أسفاه كانت أصدق تعبيرا عن مشيئة القدر ؛ ففارقتهما بعد أيام وخلفتهما للحسرة التى لا تهدأ ، والعبرة التى لا ترقأ . لا يجدان العزاء فى تسلية ولا متعة ، ولا يجتمعان إلا على ضريحها صباح كل جمعة

احمد حسن الزيات



أقتل أم انتحار ؟

حل اللغز الذى نشر فى العدد الثانى من الرواية تحت هذا العنوان

من المستحيل أن يبقى جسم شخص ميت معتدلا وسط المقعد وبخاصة إذا كانت السيارة قد اجتازت طريقا طويلا كثير المنعرجات والفجوات . لهذا رأى المأمور الحادث قتلا لا انتحارا

لماذا

للكاتبة الفرنسية آن بانو

بقلم الأستاذ محمود الحنيف

فى صديق شاب . وكم اتخذت من قبله أصدقاء ! ولكن لم يكن فيهم من كان له فى نفسى أثره . صحبتهم إلى السينما أو إلى الرقص ، كانوا يجيئون أحيانا إلى مكان عملى فرادى باحثين عنى ، فما هو إلا أن ينقضى المساء ثم لا يبقى لمن صحبته ذكر فى خاطرى

ولكن هذا الصديق يختلف عن هؤلاء . ولست فى الواقع أعرف من هو إلا أننى أشعر حياله كما لو كان ملكا لى . ولم يتحدث إلى هذا الصديق قط . ولكنى أفهمه حق الفهم من نظراته إلى . وإنى لأعرف أنه لا يريد أن يغرر بى أو يتخذنى هزوا ، وها أنا ذى أنتظر أن يسعى إلى

ولا يكاد ينظر إلى صديق هذا ، حتى أجدنى غير ما كنت . ثم أشعر أنى لم أعد أرغب فى الرقص وأحب أن أبقى معه وحده صامتة . نعم إنى حين ينظر إلى أشعر أنى فتاة أخرى ، فأنا أحس عندئذ أنى أكثر ذكاء وأكثر احتشاما . وأحسب أنه يحبنى على هذه الصورة

لقد رأيته أول مرة فى مرقص كنت أذهب إليه مساء كل سبت مع زميلة لى . وكان يجلس وحده ، وسرعان ما أخذته عيناى إذ لم يكن رجل مثله فيمن حوله . ولست أصفه بالوجاهة فحسب ، فقد كان شيئا فوق هذا . لقد كان له من جمال السمت ما يميزه من كل شخص يحيط به

كان حسن الهندام ذا شعر يعجب من يراه ، ويدين جميلتين أو مرموقتين كما يقول عنهما الناس ، ولم يكن صديقى من الطبقة التى أنتمى إليها

إنه ليشرب وحده ، ويطعم وحده ، وينظر إلى كل راقصة ومراقصها ولا يدعو إلى مائدته امرأة أبدا ، ولقد ظننت أنه سوف يدعونى إليه ، ولكنه لم يخطر ذلك بباله يوما ؛ كان ينظر إلى فحسب . وضحكت ذات مرة ضحكة عالية أسترعى بها انتباهه ولكنه أشاح عنى فى صورة أشعرتنى بكثير من الخجل كما لو كنت ارتكبت جرما . وأحسست أنى أزعجته ، وإن كنت لم أتبين على أى وجه كان ذلك ؛ ولبثت بقية ليلتى صامتة

ورأيته هناك فى الأسبوع التالى وكان

لا يزال يجلس وحده . وقد استمر الحال بضعة أسابيع على هذا المنوال . إنه ينظر إلى لا أكثر ولا أقل ، وهذا كل ما أجده منه . ولطالما تعجبت ، وذهبت بى الظنون كل مذهب : أيتخذنى مسلاة ؟ فإنه لا يحاول أن يتعرف إلى . أبه نوع من الجنون ؟ أهو من سكره لا يفيق ؟ ولم أجرؤ على أن أسأل أحدا فما أحب أن أظهر بمظهر من تسعى فى طلبه . ولم أتحدث بكلمة عنه إلى جانين صاحبتى التى أطلعها على كل شىء ، وأتحدث إليها عن كل شىء . ولست أدرى لماذا لم أنبىء صاحبتى . وأكبر الظن أنى خشيت ألا تفهمنى . وربما ذهبت إليه فأنبأته وأفضت إليه بكل شىء ، تقصد إلى العبث والمزاح

لقد احتفظت بحبى سرا دفينا كما لو كنت أكتم ذنبا . وأعجب من ذلك أنى كنت أشعر أحيانا بالخجل من هذا الحب . أجل كان يخجلنى أنى أكتمه . وإنه لتمر بى أيام فلا أمسك لحظة عن تذكر صاحبى . إنى لأحلم به إذا نمت ، فإذا أفقت كان شخصه ماثلا فى خاطرى كما لو وضعت صورته الشمسية أمام عينى

وأحسست من حبى أول الأمر بالسعادة ثم أحسست بالغضب . وازدريت صاحبى ، وما لبثت أن شملتنى كآبة شديدة . والآن أشعر بشىء من الخوف ولست أدرى لهذا الخوف سببا

لقد سئمت سؤالى نفسى : ترى من هذا الرجل ؟ ولم لا ينفك ينظر إلى ؟ إنى لأعلم أنى أعجب من يرانى ، ولكن هناك مثلى كثيرات ، وأكثر منهن من يفقننى جمالا ... لذلك حق لى أن أتساءل ماذا يبتغى منى ؟ لقد اختلط على الأمر حتى ما أدرك شيئا سوى أنى أحبه . ربما كان مرد ذلك إلى أنه يلهو بى ويتسلى بأن يلعب بلب صبية مثلى . ولكنى لست أراه كهؤلاء الذين يلهون بمثل هذا العبث

ولقد تحلق حوله ذات ليلة صديقات ، وكانت صديقاته يتدثرن بالفراء ، وكن يضحكن ضحكات عالية ، ولقد أورثنى مرحهن الضيق ؛ على أنى مالبثت أن تبينت أن ذلك لم يغير شيئا مما كان بينى وبينه

إنه فى تلك الليلة ما برح ينظر إلى .

ومن أعجب الأشياء فى الحب شدة شعور من مسه الهوى بكل شىء يمت إلى عاطفته بسبب . لهذا فهمت نظراته ، ولم أحس فى نفسى شيئا من الموجدة عليه . بل لقد فطنت إلى أن بينى وبينه تفاهما هو نوع من الموافقة على أنه لا يمكن حينذاك أن يزيد على ما كان عليه . وعلى ذلك فقد قنعت بأن أنتظر . ولئن كان يريد أن يبلو مبلغ احتمالى فلا على

من ذلك فإن شيئا لا بد أن يحدث بيني وبينه يوما ما . وإنى لعلى يقين أن حالتنا هذه لن تمتد إلى آخر العمر . وإذا لم يكن ما بيننا هو الجد فلن أفكر فيه بعد اليوم وأحسب أنه من جانبه يرى هذا الرأى

***

وقضيت على هذه الحال أياما وإنها لتجربة عجيبة حقا . إلى أن كنت ذات ليلة فأحسست أنى كاسفة البال محزونة ، أتذوق طعامى ولا أكاد أسيغه . وربما كان ذلك هو السعادة الحق ، ولكنى لم أذق مثل هذا من قبل ولست أدرى ماذا بين شعورى هذا وبين الأسى من فرق

وكنت على علم أن جانين لن تلبث أن تحضر إلى فتنتشلنى مما أنا فيه . ولبثت أطل من نافذتى قلقة أحس ضيقا شديدا ، وأشعر بالحسرة لأنى لست أمضى مسرعة إلى المرقص قبل الموعد كما كنت أفعل من قبل وملء نفسى النغم ، فتلك كانت حالى التى تعودت . أما الليلة فحسبى أن أنظر إلى قطرات المطر ! وإن مرآها ليشعر النفس بالحزن كما يشعرها به الضباب ، فإنها لدقيقة حتى لا تكاد تبصرها الأعين ، وإنها لتكاد تحجب نور المصابيح ، وهى كذلك تخفت الأصوات. ولقد كنت أحب المطر من قبل وما غشيتنى منه كآبة قط . بل لقد كان الأمر على عكس ذلك فكان المطر ينعشنى . وكنت أحب كذلك الأضواء والأصوات إذ كانت تبعث فى نفسى من النشوة ما تبعثه الراح فى نفوس غيرى . وأغرمت بالمشى فى الشوارع المزدحمة لأسمع أصوات الباعة وأبواق السيارات . وكنت بحيث إذا سمعت نغمة الفالس ورأيت الراقصين ، وجدت فى ذلك ما يكفى لأن يشيع الطرب فى نفسى ، ويجعل عينى ترقصان ورأسى يدور . وكثيرا ما قال لى أصحابى وصويحباتى إنى أسعد بمجرد الوجود . ولكنهم وا أسفاه لن يستطيعوا أن يقولوا ذلك اليوم فإنى لأشعر أنى أكبر سنا وأكثر عقلا ... وأحس الليلة كثيرا من التعب ، ومع أنه لم تمسسنى وعكة شعرت كما لو مسنى الضر . ولم ترفع الصحاف من مائدتى ، ويبدو الإهمال فى غرفتى ، بما تبصره العين من طعامى الذى تراكم فى طبق واحد وكأسى التى لا تزال ملأى ، وفوطتى الملقاة على البساط

ما أشد ما يبعثه هذا المنظر من حزن ! إنى لأحس ما تحسه ذات الضنى ، ولكنى أشعر أنه هناك ينتظرنى . ولست أدرى ما إذا كان ينشرح صدرى لهذا ، ومع ذلك فإنى أتحرق شوقا لرؤيته . أجل تكاد تقتلنى الرغبة فى لقائه الآن

لن أستطيع صبرا بعد ذلك . إنه يجب أن يكلمني ؛ وتطلعي إلى ذلك دون نتيجة إنما هـو الموت شيئا فشيئـا كل يوم

ليست بي رغبة في الرقص ، ولست راغبة في الذهاب إلى المرقص . وما كنت أذهب إلى هناك من أيام مضت إلا لأراه . ولـكم أحب أن أقابله في أي مكان غير هذا في حديقة مثـلا أو في قهوة صغيرة حيث لا يوجد من يحيطون به . أما هنا فإنه ينبغي أن أتظاهر بأني أمتع نفسي كيلا يفطن إلى سري أحد . وهـذا مجهود يشقيني . ولـكن هل يشقيني حقا ؟ هل أستطيع أن أقول صادقة إني لم أجد في ذلك متعة وأنه لم يكن واجبا فرض نفسه علي ؟

إني هناك مضطرة إلى أن أعمل ما لا أريد وأقـول ما لا أحب . فإذا رفضت أن أراقص شخصـا فربما ظن أني أتخير الرجال . وليس ذلك هو الحق فإن في الرجال من ينفرني . فيهم من يبلل العرق أيديهم ، وفيهم ذوو الشعر الذي يقرز مايشبه الدهن ، وفيهم من يحمر وجهه إذا سخن . ولقـد تبينت أن ذلك كلـه ضرب من الحقارة ، وأحسست أن صديقي الذي لم أعرف بعـد من هو كان يزدريني لأني لم أفطن إلى ذلك من قبل . لقد تغيرت شيئا فشيئا حتى أصبحت وكأنني دخلت في إهاب فتاة أخرى وإن ذلك يضايقني ولـكن فيـه شيء من المتعة . بيد وإني ليحزنني أحيانا ألا أكون ما كنت من قبل ! ألا ما أشد تعقد الحب !

يا إلهي ! ها أنا ذي في غرفتي منذ ساعة لا أعمل شيئا وأبدو قبيحة المنظر قبحا مروعا ، هندام غير منتظم وشعر أشعث ، وأنف يبرق من الزكام . لابد أن أصلح من حالي لتعلق بي الأبصار . آه ! مالي أرتعش ؟ لابد أن أكون حذرة في تبرجي مخافة أن تحدس جانين أو غيرها شيئا . ولابد أن أحتفظ بسري طي الضمير حتى أصبح على بينة من أمري

إني بسبيل أن أظفر بالسعادة ، ولسوف أحظى بها ، وأنا منها جد قريبة . إننا لن نستطيع أن نظل صامتين أكثر من هذا . وإن نفسي لتزداد رغبة يوما عن يوم حتى ليصبح تنفسي تنهدات طويلة . ولابد أنه يشعر مثل هذا الشعور

أيمنعني المطر عن الذهاب ؟ كلا فإني أحب المطر . ولسوف نعدو تحته حتى نبلغ المرقص . وسوف أدخل وشعري يبرق بقطرات الغيث وبشرتي منداة من أثر الهواء البارد البليـل كالفاكهـة أخرجت لتوها من الثلج

وأسرعنا الخطى صوب المرقص ، وكانت لا تـكف جانين عن الثرثرة . وقلما أصغيت

إليها، وقد كنا متأخرتين فقلت لنفسي: هي أنه خرج أو لم يأت هذه الليلة! لقد اعتدت أن أراه كلما دخلت صالة الرقص يجلس فى نفس المكان ويحيينى بنظرة. إنه يثبت فى نظرته ولكنى لاأجد فيها شيئا من الابتهاج، وإن كنت أقرأ فيها كل مرة قوله لنفسه «هاهى ذى قد أتت »

ولقد ضايقتنى جانين بعض المضايقة بثرثرتها التى لاتفتر. ولقد قيل: قل لى من تصادق أقل لك من أنت. وأملت أن تهدأ بعد حين فإنى لا أحب أن يظننى على شاكلتها

ولقد توثقت المودة بينى وبين جانين. ولم يكن فى حياتها شئ يختلف عن حياتى. وهى لحسن الحظ لاتدرى أنى ثقفت أشياء كثيرة. وكنت أصيح بها أحيانا « أمسكى ياجانين.. كفى » وكنت أحيانا أمزق الزهرات الصناعية المثبتة فى شعرها فإنها لم تكن مناسبة قط. ولقد نظر صاحبى ذات ليلة إلى المشط الماسى الزائف المثبت فى شعرى، نظرة جعلتنى لاأضع فى رأسى ذلك المشط أبدا. لقد أصلح من ذوقى، ويعد عجيبا أن كان مرده إلى شخص لم يتحدث إلى قط. وإنى الليلة أبدو جميلة وإن لم يكن فى ملابسى شئ مما يأخذ العين

لقد كنت أرتدى فستانا أسود جديدا لاشئ فيه من بهرج ولازينة، وكان شعرى متموجا بعض التموج وليس فيه حلى. ولقد أردت أن أكون على نقيض جانين لأنى أعلم أن ذلك يسره

آه! إننا على مقربة من الرقص! وإن قلبى ليثب فى صدرى، وإن خطاى لتبطئ. لقد جذبتنى جانين من يدى وأنا شديدة الاضطراب. ولو لم أخف من دخول المرقص وحدى لطلبت إليها أن تسبقنى ... ها قد بلغنا المرقص! إنى خائفة كما كنت أبدو حين كانوا يسألوننى أسئلة فى المدرسة. لقد فتحت الباب جانين وحيانا مزيج من الدخان والموسيقى والضوضاء ثم لفنا هذا المزيج وشملنا. وإنى لأحس أول الأمر كما لو كنت عمياء، ولكنى أستجمع شتات شجاعتى وأفتح عينى ... أحمد الله ... إنه هنا!

ما أشد مايبدو من هدوئه وسط هذا المكان الهائج المزدحم! لقد أشاع ذلك فى نفسى سكينة عظمى، لأنى شعرت أنه إذا توقح أحد على أو ضايقنى أقبل هو لينقذنى إذا دعوته. وإنى لأحب أن أكون فى حمايته فإن ثقتى به جد عظيمة. ولقد يبدو ذلك منى سخيفا إذ لست أعرف شيئا عنه.. ولكن ماحيلتى وهذا شعور لاقبل لى بالتخلص منه؟

وقلت فى نفسى: ياعجبا! لقد كنت

عازفة عن المجيء إلى هنا ! لاشك أنى كنت مجنونة ! وبينما كنت واقفة هناك إذ عثرت لنا جانين على مقعدين بالقرب من فتية أصدقاء كنا نعرفهم . وكانت الصالة مكتظة ، ورحت أنتقل فى عسر شديد بين المقاعد والموائد ولا أفتأ أقول : « معذرة » كلما خطوت خطوة لأنى كنت أصدم كل مائدة . . يا إلهى ، إن مائدتنا ملاصقة لمائدته ، وإنى لا أقوى على رفع بصرى إليه . ولقد لاحظت ذلك جانين فقالت « ماذا دهاك وما هذا الذى يرتسم على محياك ؟ » ووددت لو خسفت بى الأرض . وخالجتنى رغبة فى الخروج من الصالة !

وذهبت جانين لحسن حظى إلى حلبة الرقص ورفضت أن أذهب معها .. ويلاه ! ينبغى أن أتماسك فأقضى على ما بى من اضطراب شديد . ولكنى لا أستطيع . إنى لأبدو كما لو أنى اخترت هذا المكان عن قصد فإنى على مقعد يجاوره ! وإنى لأشعر كما لو كان يحملق إلى ولكنه ينظر أمامه لا يحول بصره ولا يتحرك !

إذا التقت عيناى بعينيه هذه الليلة ، فلن يجيء ذلك عفوا . إنه يحدث لأننا هكذا أردناه . ولكننا نجلس كلانا فى غير حراك كصورتين جانبيتين على وجهى نوط ! (ميدالية) . ويشتد اضطرابى حتى لأحس أن بى سقما ، وأكاد أفضل لو أنى جئت فلم أجده . ولكننى أتلهف على أن يحدثنى وتشتد لهفتى إلى حد أن أشعر أنه يسمع مايدور بخلدى فيحمر وجهى كأنه قطعة من الوهج

وينتهى الرقص ويعود الراقصون ومراقصاتهم إلى الموائد . ويطلب الفتية كؤوسا من الخمر المشعشعة . وأنظر ابتهاجهم وأرى كيف يتنادون فأتظاهر كما لو كنت لاتربطنى بهم صلة ؟ ويبدو ذلك منى سخيفا لأنه يعلم أنى أعرفهم

وتملأنى الحيرة وأنا بجانبه . ويدخل المكان قادمون جدد ويتزاحف الناس بمقاعدهم متلاصقين وأجدنى أتزحزح حتى أزداد قربا منه ، وتمس ملابسى معطفه مسا خفيفا ولكنى أشعر كما لو هزت الكهرباء بدنى من قمة رأسى إلى إخمصى ! فأثب وألتفت نحوه ، ولأول مرة أثبت عينى فى عينيه ثم أقول : « أسألك المعذرة »

ولعله لم يفطن إلى شيء ، ولذلك يتعجب من قولى هذا . وربما ظن أنى حمقاء ، ولكن لم تعدلى حيلة وقد حدث ما حدث .

وابتسم وهو يقول « عفوا »

آه ! كم أحببت صوته ! وكم أحب كل شيء يحيط به ! ولقد كان يقول لى غيره من الفتية « عفوا » قبل ذلك ، ولكن

أفواههم كانت تبدو كما لو ملأتها الغراء ..

ولـكن أهذا كل ماسيقوله ؟ أيقف عند هذا ؟ ياإلهى إنى أسـألك ألا يتوقف الآن . ألايحب أن يحدثنى ؟ أكان يكذب كل ليلة حين كان ينظر إلى ؟ ولم أطق صبرا فغمغمت قائلة « إن الطقس حار الليلة ، أليس كذلك ؟ » إنه يبتسم ثانية قائلا « جدا » ولايقول غير ذلك . أتراه يعبث بى ويسخر منى ؟ ولـكن ابتسامته لاتنم عن هذا فقد ابتسم فى ظرف . ويظل ينظر إلى دون أن يتكلم كأنما ينتظر أن أمضى أنا فى الحديث . وأحس أنا كما لو كنت أغرق ولـكنه لايمد يدا لينقذنى . ورأيت أنه لابد لى أن أتحدث فإنى إن لم أفعل ذلك الآن فلن يكون أبدا . فقلت أشير إلى الموسيقى « إنها جوقة جيدة » فقال « لابأس بها » . ولقد فاه بهذه العبارة ليوافقنى فحسب ... تبينت ذلك فيما ارتسم على فمه . وخالج نفسى شعور عجيب كما لو كنت قد فهت بكلام سخيف ولم أدر ماذا أقول بعد ذلك ...

ولا يبرح ناظرا إلى فى صمت ، وقـد ارتسم على محياه مزيج من التلطف والتسلية . إنه لن يأخذنى مأخذ الجد وإن ذلك ليكربنى ولـكنى أقول لنفسى لا ضير فقـد يكون وراء ذلك ماهو أسوأ ؛ ثم إنى أستشعر من الثقة قدرا لم أستشعر مثله من قبل وأقول صبرا ما دام يفكر فى . وينبغى ألا يتطرق إلى نفسى اليأس بمثل هذه السرعة . وإذا كنت لا أستطيع أن أتحول بفكرى عنه فالذنب فى ذلك ذنبـه ، فلا ينبغى أن ينظر نظرات كهذه إلى فتاة لايحبها . ومعى الحق كله إذا اعتقدت أنه يحبنى وإذا أظهرت له الحب كذلك . ومن جهة أخرى إنى لم أر فى حيـاتى رجلا خجولا مثله فى سن كسنه . إنه لم يعد بعد غلاما فهو فى الثلاثين من عمره على الأقل . وأفرغت كأسى فى جرعة ، فلذع ذلك حلقى وكاد يخنقنى ، ولـكنى أحسست أنى خير مما كنت . وعاد بعض الفتية ومراقصاتهم إلى الحلبة ، وبقيت فى مكانى . وأراد فتى أن يراقصنى فقال « بعد أن تأخذى حظك من الراحة ا كتبى إلى رسالة » وأحسست أنه متغيظ ولـكنى لم أعبأ به . واتجهت إلى صديقى وقلت فى ثبات « ألا ترقص أبدا ؟ » فأجابنى بقوله « لست أحب الرقص » ثم تبدو صرامة فى وجهه ويشيح عنى . ويعود بيننا صمت طويل أحسست أنه باعد بيننا بأميـال . وأتفكر ثم أتفكر ، وكلما تفكرت أحسست أنى منه أسوأ مما كنت ... أسوأ كثيرا لعمرى . الآن أدرك لماذا يجىء إلى هنـا . إن نفسه تنطوى على ذكرى ! هذه هى حاله لا شك . لقد كان يحضر إلى هنا من قبل

ولم يكن يومذاك يحضر وحده . ولا بد أنى أشبه صاحبته ، وهذا سبب نظره إلى دائما . وأرتعد وأنا على مقعدى وأثب من الألم . يا لى من بائسة ! لم يعد ثمة لى من أمل ! ولعمرى ما هذا الذى كنت أفكر فيه ؟ ما هذا الذى كنت أمنى نفسى به ؟ أهو رجل كهذا الرجل ؟ إنها لسخرية بالغة !

وينتابنى شعور بالسقم ، وأحس كما لو كان قلبي يتقطع . ويضع يده على ذراعى فأقول لنفسى إن لم يسحب يده فى الحال فسأصرخ ، وأرى أنه لحسن الحظ لا يلاحظ شيئا . . ثم إنه قال لى « أتحبين الشمبانيا ؟ أقصد النوع الأصيل . » ولم أذق قط ماهو أقوى من الخمر الشمشمة ولكنى أومأت إيماءة القبول وأنا أعض على شفتى وأحس كأن حلقى لا يريد أن ينطلق

ومما زاد حالى معه سوءا على سوء ما كان يفيضه على من ظرفه وتلطفه ، فلقد كان من الظرف بحيث لا يسعنى إلا أن آخذ كل شئ يقدمه إلى ، وإنى لآخذ كل شئ وأنا أشعر أن ليس وراءه ما يجعل له معنى ثم اتجه إلى قائلا « هذا حسن فلنحاول أن نشرب زجاجة إذا كان لديهم هنا ذلك النوع » ثم تقبل الساقية على إشارة من يده ، ويحضر لنا صاحب الصالة بنفسه زجاجة مما طلب، ويبدو عليه الاهتمام وهو يضعها أمامنا

وتنظر إلينا جانين ومراقصها وهما يدوران فى الحلبة وتشير إلى بذقنها وأقرأ فى وجهها أنها تقول عنى « لقد بلغت منه ما تريد وليست صاحبتى بحمقاء » ألا ليتها تعلم ما بنفسى !

وأدور بعينى أنظر فى الصالة فهذه آخر مرة لى فيها ثم أرفع رأسى قائلة له « أشرب نخب صحتك يا سيدى » فيجيب قائلا « وأشرب نخب هناءتك يا طفلتى »

ويسود الهدوء فى الصالة شيئا فشيئا ، فقد أخذ منذ لحظات يغادرها الناس ، ولم يبق إلا أربعة أشخاص أمام المائدة التالية وتتجه جانين بنظرها إلى وتصيح بى قائلة إن المكان أمسى قابضا وتحاول أن تغرينا بالانتقال إلى محل آخر وتومئ لى بعينيها ولكنى أتظاهر بأنى لم أفطن إلى ذلك ، ثم أحس أنها صارت تضايقنى . وتقبل جانين آخر الأمر وقد أشبعت نفسها من الرقص فتمد إلى يدا بليلة قائلة « إلى اللقاء فى غد »

إنها ضائقة بى ولكنى أتنهد ولا أجيب إذ تدعنى . ألا إن الحياة ساعتئذ شئ عظيم . وحسبى من عيشى هذه الهنيهة فلا حساب لشئ غيرها وها هو ذا بجانبي !

وأسمع نفسى أتكلم ، ويخيل إلى أن صوتى يأتى من بعيد وقد أمانه سكون عميق امتزج به حفيف لا أدريه . إن هذا ليس

بصوتى ولست أنا التى أتكلم ... إنى أسمع صوته هو كما لو كان هـذا الصوت بداخلى وإنه لشعور عجيب !

ويحجب النور على الحائط ضباب مفاجىء كما كان يحجب نور الشارع منـذ قليل ضباب بفعل المطر ؛ وتقترب منى الجدران أحيانا بحيث لا أستطيع أن أراها ، وقد عشيت عيناى كما لو كنت أنظر فى قرص الشمس ، وتبتعد عنى الجـدران ثم تقترب، وتهتز وتتأرجح فتحملنى معها ، وأحس أنى أسمع صوتا كذلك الذى تسمعه الأذن إذا وضع فوقها إحدى قواقع البحر !

وقد حال بينى وبين الشمبانيا منذ لحظة قائلا : «حسبك الآن» ؛ ولـكنى أمسكت بكأسى فى إصرار جـعله يضحك ويدعنى أشرب . وبدا كأنه أب يداعب بنته الصغيرة وهو إلى جانبها يحميها وإنه كذلك يحمينى

لقد شربت منذ لحظات لأنى كنت حزينة ، وإنى أشرب الآن لأنى سعيدة ! أجل ... ولم لا ؟ إن الأمر أيسر مما تظن ... إن الليل لن ينتهى أبدا ، وإن كل شئ يجرى إلى غير نهاية !

ورأيتنى ذات شخصيتين . وإنى أنظر نظرة احتقار إلى شخصيتى الأخرى . وإنى أحب وجهى فى المرآة وجهى الذى أراه الليلة ، ولا أكاد أعرف نفسى . إن عينى تبدوان أكبر من حقيقتهما ووسـطهما فجوتان مضيئتـان كذلك الضوء الذى ينعكس من الماء وتطرف أهدابى ويتندى شى

كلا .. كلا لست أشعر بنفسى شعورا أضطرب له . وإنى أحس الشجاعة وهدوء الأعصـاب . وأضع يدى مبسوطتين على المائدة وأثبت فى عينيه نظرتى . وهذا ممتع ؛ فنظرته هى كل شئ عندى ، وإنها لتضمنى أكثر مما يفعل ساعدان أيا كانا

وأحس الرغبة فى مزيد من الشمبانيا ، كما أحس الرغبة فى التحدث إليه ، وأفتح له قلبى وأخبره بكل ما كان هناك يوبق روحى . فينظر إلى كما أحس أنه ينظر إلى طفلة أتلفها التدليل ويبدو وجهه محزونا ، ولـكنه يقول لى فى ثبات ما عرفت مثله منه « إنك ذاهبة الآن إلى بيتك . يجب أن تفعلى ذلك فى هـذه اللحظة . وأرجو أن تغفرى لى بقائى بعدك هنا لحظات ... فلن أستطيع أن أرافقك حتى بيتك ؛ وسوف أدعو إحـدى النادلات هنا لتصحبك ... أوه ... أرجوك ... أرجوك ... لا تبكى »

وكانت تنهمل دموعى وأنا ممسكة بإحدى يديه قائلة « لا يمكن أن يكون هـذا صحيحـا .. لن تستطيع أن تتركنى وأن تجتنبنى .. كلا ليس هذا بصحيح»

ولم أستطع أن أتوقف هذه المرة وكانت

تندفع كلماتي في سرعة كسرعة دمعى إذ يتساءل فرحت أقول له « ليس لك من حق في أن تعاملنى هذه المعاملة . . لقد طالما حلمت بك . . أجل كثيرا مافعلت ذلك حتى تعلمت أن أحبك ، وأن أعرفك على بعد . لقد كنت حياتي بالليل وبالنهار وإنك لتعلم ذلك . ولو أنه بدا عليك أنك تسخر منى مرة لقضى الأمر بينى وبينك ، ولكنك مضيت تتطلع إلى عن قصد كما لو أنك تشعر نفس شعورى . . إنى أذكرك بفتاة أخرى ، أليس كذلك ؟ ولكن ماذا يعنيني من هذا إذا كنت تحب صورتها في ؟ إنى سوف أكون لك الفتاة التي تقبلها وسوف تأخذنى بين ذراعيك . ولم أحلم بشيء غير هذا . وإنى لأراك في كل مكان . وإنه ليحدث أحيانا أن أعدو في الشارع خلف رجل لأنه يشبهك وأعرف حينذاك مبلغ حمقي . وحين أكون في بيتي أتحدث إليك في جهر ، وحين أغير ثيابي أسأل نفسي ما إذا كانت تعجبك . ولقد غيرت طريقتي في تصفيف شعرى فهل لاحظت ذلك ؟ إنى أعرف الآن ماذا تحب . إن فتاة غبية مس الحب قلبها هي أذكى كثيرا مما تظن وإنك لا تدرى أى صنيع قدمته لى . ما الاصدقاء ؟ إنى لم أعد أحفل بأحد منهم . فالفتيات عبء على أعصابي ، والفتية مبعث ضيق لى . وإنى لأحس نفسي غريبة حتى في غرفتي التي تعودت أن أحبها وما ذلك إلا لأنى أعيش في دنياك ، تلك التي بلغت من البهجة ما أحسست معه أنها حقيقة لا خيال . لقد جعلتنى أترك حياتي السالفة دون أن تحل محلها حياة أخرى . والآن تريد أن تسقطنى من حسابك ! وماذا عساى أصنع بعد ذلك ؟ ماذا بقى لى ؟ خبرنى ماذا تريد ؟ »

ولم أستطع المضى في كلامى فقد ارتعد ذقنى وغاب الدم من يدى حتى ابيضتا . ورأيته منكس الرأس يمس يدى في رفق وبطء . وعرفت أنه يريد أن يتكلم فتعلقت أنفاسى وأحسست كأن قلبي يوشك أن يقف . يا إلهى لست أقوى على عذاب بعد هذا . رب اجعلنى أحتفظ به . لست أقوى يا إلهى على فقدانه الساعة …

وحملقت في عينيه وانتظرت ، وبدا عليه أنه كذلك يتألم ولكن ليس على شا كلتى . إنه يبدو مستسلما كما لو أنه اعتاد ذلك . وإنى أحس أنه يألم ، ولكنه يرثى لحالى

وأمسكت الجوقة وأخذ الموسيقيون يضعون أدواتهم . ونظرت إلى بيان قد أغلق فبدا لى كأنه تابوت . وراح النادلات يضعن الكراسى مقلوبة فوق الموائد . وكان لايزال هناك بعض الضوضاء في حجرة صغيرة هي حجرة الشرب ، وقد دخلها بعض الزبائن يشربون كؤوسهم الأخيرة

وبات كل شيء هادئا كما هو الحال

كل يوم عادى . وأنا بجانبه أتلوى من الألم وأنتظر أن يتكلم وأحسست أنه إذا جذب يده من يدى وقعت على الأرض ، أقع كما لو جثم على صدرى كابوس فقد كانت يده هى الحلقة الوحيدة التى تربطنى بالحياة

وأخذ يصب الشمبانيا بيده الطليقة فى كأسينا . أيريد بهذا أنى صرت محتاجة إليها ؟ لقد وددت أن أصرخ بكل قوتى قائلة «لا» كما لو كانت هذه الكأس الأخيرة كأسا ملعونة !

رحمة بى يا ربى . لست أطيق هذا العذاب وإنى أحبه . . أحبه بكل قوتى . .

وسمعت نفسى أهذى بعبارات أكررها مرات كما تفعل البلهاء ، وقد توترت أعصابى حتى لقد أيقنت أنها سوف تنحطم كما ينحطم غصن ميت . وشعرت كما لو كنت على حافة هاوية بعيدة القرار وأنى موشكة أن أتردى فيها . ياله من هول ! وشد ما يملأنى الرعب …

لقد كان هذا الصمت مرعبا . وكان هذا الصمت القصير فى حساب الزمن وكأنه عمر من الشقاء والألم وكأنه أبدى كالحماقة نفسها

ويأخذ فى الكلام فأرهف سمعى إلى كلماته ، وتخرج كلماته من بين شفتيه كلمة كلمة فيقول «أى طفلتى المسكينة : لم يكن يدور بخلدى أن حالك فى مثل هذا السوء . أرجو أن تغفرى لى ما أفعل يا فتاتى المسكينة . ينبغى أن نخلص كلانا من هذا الوضع فورا ، وبذلك يترك كل منا صاحبه … لا تتكلمى … استمعى إلى … يجب أن تغادرى هذا المكان الآن وأعدك ألا أعود إليه ثانية . ولا تسأليني أن أصحبك إلى بيتك فلست أستطيع ذلك . . ولست تستطيعين أن تفهمى لماذا … لقد كنت أتمنى ذلك جدا لو أنك تعلمين … »

ورأيت خلال دموعى أن قد ارتسم على وجهه شعور باليأس فقلت فى نفسى : «يا إلهى ، أريد أن أعلم لماذا . يجب أن أذهب الآن فى سرعة قبل أن يفسد كل شئ … إنى واثقة الآن من أنه قد انتهى كل شئ ؛ وأنى ذاهبة وحدى إلى بيتى . ولكنى أحب أن أعرف لماذا … لماذا ينتهى كل شئ ؟ لماذا ؟ يجب أن أعرف فلا أدع نفسى فريسة لحيرة تلازمنى طول حياتى … لماذا يتركنى ؟ إنه إذن يحبنى … وعندئذ ألقيت بنفسى بين يديه صارخة : لماذا ؟ ثم أزداد تعلقا به وأعود فأصرخ : لماذا ؟

ولا يطيق صبرا بعد هذا ، وأرى فى وجهه مزيجا من اليأس والتهكم ! إنه بسبيل أن يفصح . ياله من موقف مرعب ! ولكن يجب أن أعرف لماذا يتركنى . لقد أيقن أنه لا يستطيع أن يذرنى دون أن أعرف لماذا ، والخير لى أن أقف على الحقيقة ولو كان فيها ما يزيدنى أذى . وماذا عسى أن يضيرنى

من جرح هين صغير يضاف إلى جراحاتي ؟ وعدت أقول له : خبرني لماذا . أفصح … أفصح ولتؤذني فلست أبالي … ومع ذلك عاد الخوف يملأ قلبي

وأخيرا قال لي « أتريدين حقا أن تعلمي لماذا ؟ » ونظرت إليه فوجدته قد تغير فجأة حتى لا أكاد أعرفه ، وقد بدا على محياه مزيج من اليأس والكبرياء . وعاد يقول لي « إنك تريدين أن تفسدي كل شيء … هل عقدت العزم على أن تسمعي ؟ » ثم هز كتفيه . فقلت في نفسي : ربما كان ما أسمعه خيرا بالرغم من كل شيء

ويعود فيسألني « أتريدين حقا أن تعرفي لماذا ؟ »

فصحت به قائلة « نعم » ثم عاد يملأني الخوف ، ولقد اشتد خوفي حتى لقد انقلب هذا الخوف شجاعة

« حسن . إذن فانتظري »

وكانت لهجة الأمر في كلمته هذه . ثم إنه جذبني إليه وأسندني إلى كتفه وأخذ يقبلني في عنف وأخذت أشعر بقبلاته تسري في بدني كله وأحس أني جزء منه . وأتبين أني لست الآن ثملة بالكلمات والشمبانيا ولكن بشيء آخر وعلى صورة أخرى . إني أشعر وفمي على فمه وهو يبث في هذه الحيوية الدافقة ، بتيار الحياة ينبعث حارا في أوصالي وفي جسمي كله . ثم يدعني فينتهي كل شيء وأحس بالبرودة تشملني ويقول لي « هيا بنا نذهب .. أتحبينني ؟ »

فأجيبه قائلة : «أحبك»

ثم ينزلق في بطء .. أجل ينزلق من مقعده ويقف بجانبي وأنظر فإذا به من قصر الساقين بحيث أشعر بالرغبة في أن أضحك ملء شدقي .. ماهذا ؟ ! وهو على الرغم من منكبيه العريضين وامتلاء نصفه الأعلى لا يكاد يصل إلى كتفي وهو واقف بجانبي على ساقيه المسيختين

وأحس بالرغبة في أن أطلب من القزم الصفح وأن أظل على حبي إياه وأن أقول شيئا ، ولكن ذلك كله يبدو لي سخيفا ، فليس ثمة ما أقوله ولقد فرغ بالي منه فراغا تاما… ألا ما أغرب هذا الحلم !

وانطلقت من الصالة كأني أعدو دون أن أنظر إليه ، وأتمثله هناك واقفا على ساقيه العجيبتين المقتضبتين كأنه لعبة هزلية تمثل أحد الجند

وأندفع في طريقي ثم أندفع ، وفي خيالي ذلك الذي رأيته وهو نصف رجل ، وأشعر بقلبي يفيض حسرة وأحس في جسمي دبيب الثورة . .

ولكن لكل يوم غد بالضرورة . . وغدي ؟ ترى ماذا يكون الغد ؟

محمود الحفيف

تصفية حساب

للأستاذ نصرى عطا الله

كانت أطياف المساء قد بدأت تنشر غلالاتها السمراء على أعطاف المدينة وتمزج نسماتها الندية الوادعة بالهواء الراكد الثقيل كأنما تسأله بعض الرفق والحنان بعد يوم قائظ ملتهب الأنفاس

ووقف «رأفت» فى شرفة غرفته يرقب فى ملل وسآمة الظلال الطويلة وهى تبهت شيئا فشيئا ثم تنمحى فى مد الظلام ، ثم أرسل بصره فى الأفق البعيد ، وندت عنه زفرة مثقلة بالشجون . . .

لقد مضى زمن خاله لا ينتهى ، وهو ينتظر مغيب الشمس وانخفاض حرارة الجو كى يبارح غرفته تلك وجوها الخانق القابض ، وينطلق هائما فى الفضاء الوسيع علّه ينفس شيئا ما عن صدره الملئ بالأكدار والهموم . وكان اليوم يوم عطلته الأسبوعية ، وقد ظل منذ الصباح حبيس ذلك الجحر القذر الذى يعيش فيه . وقد فكر فى الخروج ولكنه لم يستطع أن يتغلب على خموله وسأمه ، أو يهتدى إلى مكان يرتاح للذهاب إليه ، وأخذ يفكر فى وسيلة ما يدفع بها الكآبة عن نفسه ففشل ، وكان اليوم شديد الحرارة يرسل زفراته النارية فتقض المضاجع وتكاد تحبس الأنفاس فى الصدور . . وكلما تقدم النهار ازداد رأفت تبرما وسآمة وضيقا بنفسه وبالحياة ، ولم يبق فى وسعه إلا أن يعد الدقائق وهى تزحف فى بطء وتثاقل حتى يقبل المساء لينطلق إلى أى مكان تحمله قدماه إليه ، فقد كان كل همه أن يبرح تلك الغرفة التى يتمثل فيها بؤسه وفشله وخموله

لقد كان ثائرا منقبض النفس ، تزداد نفسه ثورة وانقباضا كلما أجال عينيه فى ذلك الأثاث البالى المتداعى الذى تحويه تلك الغرفة القذرة ، بل تلك المقبرة التى تتلاشى فيها سنو عمره يوما بعد يوم دون معنى أو جدوى أو غاية ، كأنها أمطار الصحارى التى تضيع بددا فى الرمال ، أو دموع الثكالى تسيل غزيرة طيعة ، ولكنها لا ترد فقيدا عزيزا إلى الحياة

وما إن أحس رأفت أن ثائرة النهار قد هدأت قليلا بعيد الغروب ، حتى ارتدى ملابسه الرثة فى عجلة ودون اعتناء وخرج

دون أن يعرف له مكانا يقصده ، وفى الطريق سأل نفسه فى مرارة لماذا يعيش ؟ هل هناك غاية تربطه بالحياة ؟ وهل بقيت لديه آمال ؟ هل هو موفق فى حياته أو سعيد ؟ إنه يعرف الجواب الحزين على هاتيك الأسئلة ، بل يعرفه منذ أمد طويل ، ما الذى يغريه إذن بالبقاء فى هذه الدنيا ؟ أتراه الجبن وخوف الموت ؟ واعترف لنفسه فى مرارة أنه لم تعد هناك أسباب أخرى تدعوه إلى التعلق بأذيال هذه الدنيا التى أولته ظهرها منذ زمن بعيد ، ولو كانت لديه الشجاعة الكافية لما رضى أن يعيش لبأ كل ثم يبكى على نفسه

ومضى يضرب فى الطرقات وهو يفكر فى هذه الحالة التى آلت إليها حياته ..

وكانت هذه النوبات تستبد به من حين لآخر ، فتملأ قلبه ثورة وألما وتشاؤما فيتمرد على نفسه وعلى الناس . ويرى الوجود من خلال منظار قاتم لا يكشف إلا عن المتاعب والأوجاع ، وقد عرف هو ذلك عن نفسه منذ أمد بعيد

أما فى الماضى عندما كان مضطرم الحيوية واسع الآمال ، فقد كان يجزع كثيرا عندما يجهر قلبه بالثورة والعصيان على الحياة ، على حياته هو خاصة ! بل كان يقول لنفسه إن العاصفة لا تقصف إلا الأغصان الجافة ولا تكتسح إلا الأوراق الذابلة المحتضرة لتتيح للأوراق النضرة فرصة الحياة الشابة عندما يهل الربيع الجديد . وكانت تلك الثورات النفسية — على ما تكبده من ألم وأشجان — تملأ قلبه بشراً واطمئنانا ، إنها دليل الحياة المتطلعة إلى النور والخير والجمال ، وكم من مرة — بعد أن يثوب إلى الرضى والسلام بعد تلك الثورات — يجد نفسه أكثر صفاء ومضاء واحتفالا بالحياة وبالآمال الغالية التى وهبها حياته . لقد كانت ثورات الحر الأبى الطموح على عوامل الضعف والانحلال فى نفسه مع ثقته وإيمانه بقدرته على سحقها ، والتى خلص منها بقوة الروح وشباب العزم ، وكان إذ يتم له ذلك يشعر بنشوة روحية تغمر كيانه كله ، وسعادة عميقة صافية مثل سعادة المتصوفة والقديسين تملأ شغاف قلبه

ثم أتى زمان أصبحت فيه هذه الثورات النفسية المطهرة ذكرى من الذكريات الأليمة . إن قلبه ما زال يثور كما كان يثور فى الماضى ، ولكنها ثورة البائس الحزين ، ثورة خاسرة يرجح فيها جانب الذكريات التعسة ، ورثاء العمر الضائع والآمال المبددة

كان فى الماضى كلما ثار قلبه عليه واتهمه بالتهاون والخمول ، وقف أمامه كما يقف

المتهم البرئ أمام القاضي . يفند اتهامات خصومه الواحدة بعد الأخرى ، ويقدم الدليل بعد الدليل على براءته ونقاء نفسه ، وكان يعرف كيف يستنهض كل قوى روحه حتى يواجه الأزمة فى شجاعة ويتغلب عليها ، وكان يجد فى الانهماك فى عمله وفى تأمل الطبيعة ودراسة الفن السر الذى يغسل نفسه من أدرانها ، ويرد عليها حيويتها وبشرها المفقود ويبدل بحيبها ألحانا

أما الآن فإن قلبه فى مأتم ونفسه تضن عليه حتى بالعزاء . إنها تصم أذنيها عن نحيبه وصراخه ولا تأبه له ، بل إنها لم تعد تأبه لذاتها . لقد نسى نفسه فى غمار الحادثات حتى تراكم عليها الصدأ والخمول وفقدت طعم الحياة

إن الزوابع التى تثيرها أفكاره وذكرياته فى رأسه تكاد تفقده عقله ، ولقد هرب من غرفته . ولكن أين يهرب من أفكاره ؟

وفكر فى أن يترك جو المدينة الصاخب ويتريض بعض الوقت على الشاطئ . إن بينه وبين البحر ألفة عميقة وثيقة ، وطالما ذهب إليه وهو منكدر النفس حزين الفؤاد ، فعاد وقد امتلأت نفسه اطمئنانا وسلاما . إنه يفهم لغة الماء وكم سمعها فى ثورتها واصطخابها ، وفى وداعتها وسكونها ، وأحس بتجاوب أنغامها مع نبضات قلبه ، وشعر أن فى تلك الأنغام والتسابيح التى يرتلها البحر دائما سرا يريح القلوب المتعبة ويهبها العزاء والسلام

وفى طريقه إلى الشاطئ رآها ... وكانت واقفة أمام واجهة محلات الأزياء تتأمل المعروضات ... ولم يباغت ولم تذهله المفاجأة رغم السنوات الخمس التى مضت منذ أن افترقا ، إنه يعيش فى تلك المدينة منذ ثلاثة أعوام وهو يعرف أنها تعيش فى نفس المدينة ، وظل طوال الأعوام الثلاثة يتوقع أن يراها يوما ما ، فى الطريق أو فى ملهى من الملاهى أو فى أحد المنتديات ، ولعل موضع الدهشة أنه لم يرها من قبل ذلك

ووقف يتأملها فى هدوء وهى لا تحس وجوده : ها هى ذى « أمينة » أمامه مرة أخرى ، أمينة التى عبثت بقلبه وحطمته وتركته أطلالا ، إنها ما تزال كعهده بها دائما مغرية كالتفاحة الناضجة . ترى كم حطمت من قلوب خلال هذه السنوات الخمس ؟

وهز رأفت كتفيه فى استخفاف وهم بالهرب ولكن قدميه لم تطيعاه .. إنه لم ينسها خلال تلك السنوات الطويلة التى فقد فيها الكثير ونسى فيها الكثير وتبدلت أثناءها شخصيته تبدلا تاما ... إنه لم ينسها بل ظل يمنى نفسه بأنه سيلقاها يوما ما ، إن هاتفا

عنيدا ظل يهتف به طوال تلك السنوات : إن قصتكما لم تنته بعد

واقترب منها فى هدوء حتى حازاها ووقف يحدق فى المعروضات التى كانت تتأملها هى متجاهلا وجودها محاولا طول الوقت أن يقمع ثورة نفسه ويمحو آثارها من وجهه وجبينه . وأدارت هى رأسها فى حركة غريبة فوقع بصرها عليه ولما عرفته أفلتت من بين شفتيها شهقة خافتة وأخذت تحدق فيه بعينين جامدتين ذاهلتين . وهى لا تكاد تصدق ، وهمست باسمه همسا رقيقا حالما فأدار رأسه نحوها ومد إليها يده مبتسما فمدت يدها نحوه وهى تغمغم بكلمات مضطربة متقطعة ، ولاحظ هو اضطرابها وأثر المفاجأة فى نفسها ، وهز صوتها المرتعش أوتار قلبه فقال لها مبتسما :

لقد كنت أحس دائما أننا سنلتقى مرة أخرى

فأجابت وهى تنظر إليه نظرة ذات معنى

— لا تزال تذكرنى إذن

— أذكرك ؟ أقسم لك أن صورتك لم تبرح ذهنى لحظة واحدة . إننى لم أسع إلى مقابلتك ولم أبحث عنك رغم تفكيرى المتواصل فيك لأنى كنت واثقا تماما أن الزمن وحده سيدبر أمر هذا اللقاء

ورفعت عينيها إلى وجهه دهشة فراعتها نظراته القاسية فقالت له وهى ما زالت تتأمل عينيه :

— لشد ما تغيرت يارأفت !

فرد عليها فى نبرة تفيض تهكما :

ومن ذا الذى لايتغير ياصديقتى ؟ الزمن والمحن والحادثات تترك فينا آثارها . . ولكن شعرى لم يبيض بعد

فأجابته وهى تنظر إليه عاتبة :

— لم أعن هذا مطلقا !

فقال سواء عنيته أم لم تعنه فإننى لاأظن أن تغيرى يثير سخطك أو أسفك . لقد أصبحت أكثر فهما للدنيا والحياة والنساء . وأنت ؟ ألم يتغير شىء فى حياتك ؟

فقالت : حياتى ؟ لقد انقلب كل شىء فى حياتى رأسا على عقب . لقد عانيت كثيرا ... وأصبحت مثلك — أكثر فهما للدنيا والحياة ... والرجال

وأردفت بصوت يفيض ألما واستعبارا وهى تهز رأسها

— لقد دفعت ثمنا غاليا لأتعلم

فسألها : وماذا تعلمت ؟

فأجابت : تعلمت أشياء كثيرة ، ألا تذكر أنك قلت لى مرة فى لهجة تنديد إن هناك أشياء كثيرة ينقصنى معرفتها

فقال : نعم أذكر وقد قلت لى فى لهجة ساخرة ، ومن ذا الذى سيعلمنى ؟

فقالت : نعم لقد سخرت منك ساعتئذ يا رأفت وبدا عليـك أنك تألمت وقلت لى فى مرارة :

سيعلمك الزمن

فسألها : وهل تحققت نبوءتى ؟

فأجابت : نعم تحققت

وأحس من نظراتها الحزينة ونبراتهـا المجهدة الدامعة أن قلبها مثقل بهموم كثيرة فهل يسألها ؟ إنها تتكلم دون تحفظ كأن السنوات الخمس التى مضت منـذ افتراقهما لم تـكن إلا حلما ولد وتبدد فى ظلمة الليل ولم ينل من صداقتهما الوثيقة التى تعمد هو أن يخنقها خنقا ، وتردد لحظة ثم قال لهـا فى لباقة :

— ليس من حقى أن أسألك عن كل شىء كما كنت أفعل فى الماضى

فقالت : لا ... إن ذلك حقـك فى كل حين ... إننى فى حاجة إلى من أشـكو إليه

وقال لنفسه إنها — كما يبدو — لم تعد تلك الماكرة اللعوب التى كانت تقسم وقتها بين اللهو والعبث بالقلوب ؛ ولـكن سرعان ما هتف به هاتف آخر يقول : لا ، لقـد كانت دائما ناعمة لبقة تجيد التمثيل

ومضت فترة صمت قطعتها هى بسؤالها

— إننى مشتاقة إلى أن أعرف عنك كل شىء .: هل تزوجت !

فأجاب : أتزوج ؟ حاشا لله !

فسألته فى دهشة ولم ؟

فأجاب سـاخرا فى مرارة : لم ؟ لأننى أفضل ألا أعيش مخدوعا .. ألم أقل لك إننى أصبحت أكثر فهما للحياة والناس ؟

وأحست وهى تسمع كلمـاته التى تقطر مرارة ونقمة كأن سهمـا مسموما قد مرق إلى قلبها وإن كان قد سرها أنه لم يتزوج . ورفعت نحوه بصرها عاتبة لتقابل عينيه القاسيتين وقسماته المتجهمة ، ولم يكن من العسير عليها أن تدرك ما يرمى إليه فهى لم تنس بعد أنها خدعته وسخرت من قلبه وعواطفه فى الوقت الذى كانت تتظاهر له فيه بالود والإخلاص ولـكن ... ألم تطفىء كل هـذه السنوات ثورة غضبه ؟ ما باله يهاجمها هكذا فى مرارة ولم تنقض دقائق على لقائهما بعد هذا الفراق الطويل ؟ وشعرت بالحرج ، ونكست رأسها وأخذت تحدق فى الأرض وهى تقول لنفسهـا إن جرحه لم يندمل بعـد ، ومرت فترة صمت طويلة قطعتها بقولها :

— ماأغرب هذا الـكلام منك أنت !. يبدو أنك تنكرت لقلبك وماضيك

فقال : فى الماضى كنت مغفلا كبيرا ، أما الآن فقد تعلمت ، ولعلك تعرفين كم كان الثمن فادحا ، وأنت..هل تنكرت لماضيك ؟

فأجابت : إن التى تحدثك الآن امرأة عاشت وتعذبت وتعلمت درسا جيدا

فقال : لقد جاء الدرس متأخرا ، ألا توافقينى ؟

فقالت : نعم ، لا يضيرنى أن أعترف أن الدرس جاء متأخرا

ثم حل الصمت والوجوم بينهما مرة أخرى

وكانت أمينة تعرف طباع رأفت جيدا وقد اعتادت فى ماضى أيامها أن ترى منه مثل هذه الثورات النفسية ولكنها لم تتوقع فى هذه المناسبة أن تسمع منه مثل هذا الكلام

وبددت الصمت بقولها :

إنك متعب الليلة ولا أريد أن أضيع وقتك ... هل نلتقى ثانية ؟

فقال : كما تشائين

ورغم ما شعرت به من امتهان وإساءة رأت نفسها مدفوعة بكل ما فى قلبها من مشاعر وإحساسات إلى استرضائه واستعادة مكانتها عنده فقالت له فى نبرة رقيقة عاتبة وهى تلقى فى عينيه بكل ما فى نظراتها من عطف وحنان

— كيف تقول إنك لم تنسنى يا رأفت ثم تخاطبنى هكذا ؟ هل وقع لك اليوم ما أهاج أعصابك ؟ إنك ما زلت كما كنت فى الماضى طفلا كبيرا تفرح إلى حد الجنون وتغضب إلى حد الثورة .. سنلتقى يا رأفت مرارا لا لمرة واحدة ولن نفترق أبدا.. فقل لى متى ألقاك أيها الطفل الكبير لأعترف لك بكل شىء وتعترف لى بكل شىء ؟

وأحس وهو يسمع صوتها العذب بثورته وعبوسه يزايلانه شيئا ما . واتفقا على موعد يلتقيان فيه ولم ينس وهو يصافحها أن يعتذر لها اعتذارا ضعيفا عما بدر منه فتقبلت اعتذاره فى رقة وهى تقول :

أهذه أول مرة ؟

وافترقا ، وتابع هو سيره حتى وصل إلى الشاطىء ، وكان رأسه يغلى بالأفكار كالقدر الفائرة ... ما أقسى القدر حين يريد أن يسخر ! أما من ساعة يراها فيها غير هذه الساعة المشئومة التى تراكمت فيها على قلبه كل أحزان حياته ؟

لقد خيل إليه وهو يسمع صوتها يفيض حنانا ورقة أن قلبه شرع يفيق من إغماء طويل ، وكانت قد مضت شهور طويلة لم يتحدث خلالها إلى أنثى ، ولكنه لم يكن يتوقع أو يتمنى أن تبعث « أمينة » من قبر الماضى فى تلك اللحظة وتسوق معها إلى فكره وقلبه ذكريات كاسفة حزينة تحطمت على صخرتها آماله ومستقبله وأوصلته إلى الحالة التى يكابد مرارتها الآن

* * *

عندما لقيها للمرة الأولى كان قلبه خليا

نقيا لم نفض أغلافه بعد ولا تعمره إلا أحلام الشعراء وأخيلتهم الشفافة والشوق إلى رؤية « الحورية » التى ينتظرها منذ طويل كى ترد غربة روحه وتخفف من لوعة أشواقه؛ وظن وهو ينظر فى عينيها أن القدر قد استجاب دعوته وحقق أمنيته … لقد كان ظامئا إلى العطف والحنان وقد وهبتهما له وأحس للمرة الأولى بتلك السعادة الحقة التى لا نحسها إلا فى كنف مخلوق رقيق يستطيع أن يفهمنا ويستوعب آمالنا وإحساساتنا ويشاركنا إياها

وكان رقيقا مرهف الشعور واسع الآمال فاندفع فى حبها اندفاع الواثق المطمئن ووهبها قلبه وروحه وجعلها موضع سره ونجواه ومعقد آماله الواسعة؛ فكانا لا يلتقيان أو يتراسلان إلا سرا، فقد كان رأفت حينذاك موظفا صغيرا بإحدى المدن وكانت أمينة مدرسة بإحدى مدارس المدينة ذاتها … كلاهما غريب تحصى عليه غدواته وروحاته ولا يجد من يؤنس وحشته

وكان فى الإجازات يتفقان على اللقاء فى العاصمة حيث يذهب كل منهما لزيارة عائلته ، ولكن سرهما لم يبق فى الخفاء طويلا فقد رآهما فى العاصمة بعض أهل المدينة التى يعملان بها ونقل الخبر إلى هناك ، وسرعان ما عرف الجميع أمر العلاقة التى تربطهما وراحوا ينثرون حولهما الأقاويل والأقاصيص الظالمة ، ولم تكد تنقضى أشهر قلائل بعد ذلك حتى تحول الهناء الذى نعم به رأفت فترة قصيرة إلى مرارة وألم ، فقد حدث أن رأى أمينة أحد كبار الموظفين الذين يعملون معها فى نفس البلدة فشغف بها شغفا بالغا ، وما أن عرف ما بينها وبين رأفت من ود حتى حقد عليه فعمد إلى استغلال نفوذه لمضايقته وتنغيص عيشه . وأخيرا أفلح فى تدبير أمر نقله إلى إحدى قرى الصعيد النائية ، وهناك تحالفت على رأفت الوحدة والآلام والأشواق ولم يكن لديه من عزاء إلا الكتابة إلى أمينة وانتظار رسائلها

ومضت بضعة أشهر كانت من أمر وأقسى ما عانى رأفت فى حياته . من يدرى متى ينقل من تلك القرية الكئيبة البعيدة عن الدنيا والحضارة ؛ وكيف يعيش من غير الفتاة التى اصطفاها ؟ وكيف يستطيع أن يدبر أموره ويعرض عليها الزواج ؟ وهل تقبل أن تعيش معه فى مثل تلك البلدة التى لم يعرف الماء النقى أو نور الكهرباء طريقه إليها بعد ؟ ، فضلا عن حرها الفظيع فى الصيف وما تحفل به مساكنها القذرة الضيقة من حشرات ، هذا إلى انعدام وسائل التسلية بل انعدام الطعام اللائق أحيانا … إنها المنفى المختار للأشرار من

الموظفين ، وكل جريرته التى سببت نقله إليها هو أنه أحب وأخلص

واتفق الحبيبان اللذان فرقت بينهما الأيام على أن يحصلا على إجازة فى وقت واحد ليلتقيا فى العاصمة وقد حددت أمينة موعد الإجازة بما يتفق مع ظروفها

وظل رأفت يعيش على أمل اللقاء والحنين يصهر قلبه حتى حل اليوم الموعود وسافر.. وبعد وصوله إلى القاهرة بساعات كان جالسا إلى أمينة على شاطئ النيل يبثها أشواقه وأشجانه ويشكو لهـا ما يعانى من وحشة وآلام

وظلا يلتقيان كل يوم من أيام تلك الإجازة ويقضيان معا ساعات طويلة ولم يكن يضايقهما إلا قصر مدة إجازته التى لا تتجاوز عشرة أيام

واتفقا على أن يمدا العدة للزواج ولا سيما أنها قد أنبأته أن أحد كبار الضباط قد تقدم لخطبتها فرفضت فى إصرار مما أثار سخط أمها عليها ، واعترفت له فى صوت حالم أنها تريده هو زوجا لبساطته وإخلاصه وثقته بها، وأخبرته أنها تسعى جاهدة لينقل من منفاه البعيد إلى العاصمة نفسها، وأنها قد استدعت أحد أقاربهـا من المقيمين فى الريف إلى القاهرة لمعاونتها على تحقيق هذه الغاية إذ أنه يتمتع بنفوذ كبير فى دوائر الحكومة

وشكر رأفت للقدر — ممثلا فى شخصية أمينة — عطفه ورعايته، ولم يعد يفزعه كثيرا شبح القطار الذى سينقله بعد أيام قلائل إلى قرية بعيدة لا يصل إليها فى أقل من أربع عشرة ساعة

وبينما كان رأفت ينسج من خيالاته أحلام الهناء إذ تدخلت المصادفة ولعبت دورا من أدوارها الخالدة التى تقلب بها حياة الناس رأسا على عقب وتغير بها أحيانا وجه التاريخ! فقد حدث أن كان يتناول طعام الغداء مع أمينة فى مقصف إحدى الحدائق حين شاهدهما صديق من أصدقائه القدماء الذين ترجع صلته بهم إلى عهد التلمذة فترك رأفت المائدة وتقدم من صديقه « صلاح » وحياه تحية حارة ودعاه إلى مشاركته طعامه مع أمينة فاعتذر فى رقة وانتحى ناحية أخرى من المقصف بعد أن اتفق مع رأفت على موعد يلتقيان فيه

... والتقى الصديقان القديمان وأخذ كل يستفهم الآخر عما لاقى فى زمانه ثم بادر صلاح صديقه بالسؤال التالى :

« هل تزوجت ؟ » فأجاب رأفت : كلا

فقال صلاح : أهى صديقة إذن ؟

فقال : « نعم »

وأخذ رأفت يقص على صديقه كيف عرف أمينة وما لقيه فى سبيلها من اضطهاد

ونى. وما كاد صلاح يسمع بضع كلمات حتى بدا عليه الاهتمام وأخذ ينصت جيدا وهو يحدق فى عينى رأفت وعلى شفتيه ابتسامة غامضة ، وما كاد رأفت ينتهى من حديثه حتى قال له صلاح :

— مادمت تنوى الزواج فيجب أن أخبرك بكل ماأعرفه عنها.. إننى لم أر هذه الفتاة قبل اليوم ولكننى أعرف عنها أكثر مما تعرف أنت وإن كنت موقنا أنى لا أعرف كل شىء ، ولكن ماسأقصه عليك يكفى لأن تدرك حقيقة أمرها ... إن هذه الفتاة لم تأت العاصمة من أجلك وحدك ولم تحدد إجازتها وإجازتك بمحض إرادتها بل نزولا على إرادة شخص آخر ... بل عشيق آخر تعرفه أنت جيدا ولقيته فى دارى مرارا وهو « كامل » ابن عمى

ورفض رأفت أول الأمر أن يصدق ، ولكن صلاح رجاه أن يسمع القصة إلى نهايتها . لقد للتقى بها كامل مصادفة فى أحد دواوين الدرجة الثانية بقطار الصعيد وكانت هى فى طريقها إلى مقر عملها وهو فى طريقه إلى بلدته فتعارفا وتحابا ، وكانا يلتقيان كثيرا فى بعض بلاد الصعيد حيث لا يعرفهما أحد وينزلان فى الفنادق معا على أنهما شقيقان أو زوجان ، ثم أخبره أن علاقتهما ترجع إلى أكثر من سنتين وقد سئمها كامل ولم تعد لديه رغبة إلا فى التخلص منها ، إذ أنه يريد أن يتزوج بإحدى بنات بلدته. أما هى فلا تزال تحبه ولا تزال تمطره برسائلها الوالهة كل يوم وكل أملها أن يتزوجها وهو يسخر من رغبتها ولا يثق فيها ولا يحترمها

ثم أنبأه صلاح أن كامل قد حضر إلى القاهرة منذ أربعة أيام وأنه التقى بأمينة أكثر من مرة وقد رجت منه أن يعاونها عند ذوى الأمر على نقلها إلى الاسكندرية لتعيش مع عائلتها . وعندما افترق الصديقان حدد صلاح موعدا يلتقى فيه رأفت وكامل ليتناقشا فى غرامهما المشترك

وتمت المقابلة وعرف رأفت من أمر أمينة مالم يكن يعرف . إن كامل لم يكن ينشد من وراء صلته بها إلا اللهو والتسلية ، أما هى فقد بهرها غناه وجاهه وليس لها من غاية إلا تحقيق مطامعها بالزواج منه

وشعر رأفت بقلبه يتحول إلى رماد عندما أطلعه كامل على بعض رسائلها إليه فإذا هى منقولة بأمانة عن رسائله هو إليها ، تلك الرسائل التى كان يعتصرها من قلبه اعتصارا ويضمنها أعمق إحساساته وأقدس عواطفه

وأيقن رأفت أنه كان مغفلا كبيرا وبارح العاصمة دون أن يرى أمينة أو يودعها وعاد

إلى مقر عمله بذلك الإقليم النائى وهو محطم النفس حزين القلب مسلوب الأمل يتوزعه الهم والغيظ والرغبة فى الانتقام

وعبثا حاول أن يعزى نفسه أو ينسى مأساته بل كان يزداد على مر الأيام يأسا وتبرما بالحياة وسخطا على الناس ، وأصبح عصبى المزاج سىء الطبع كثير الهياج والعراك لأتفه الأسباب ، وتعددت مشاحناته مع رؤسائه وعوقب أكثر من مرة لإهماله فى عمله ، واستحالت البلدة الصغيرة أمام عينه إلى سجن مظلم . إن الأيام والشهور تمر كالحلة متشابهة لاتأتى بجديد

ورأى رأفت قدمه تنزلق إلى مكان يأنف حتى من التفكير فيه . لقد راح يبحث عن العزاء المفقود فى الخمر والميسر والعبث ، وأعرض عن صرخات ضميره ولكنه لم يستطع أن يخنقه فقد كان يشعر أنه يتدهور فيمتلىء قلبه ألما وندما ، ولكن ماذا يستطيع أن يفعل والسأم واليأس يكادان يقتلانه

وضاق به رؤساؤه بعد أن تعددت التحقيقات معه ، وثبت أنه موظف مشاغب سىء السيرة ، وما لبث أن انتهى به الأمر إلى الفصل

ومرت شهور طويلة لقى فيها رأفت كثيرا من الهوان والتشرد والعذاب قبل أن يوفق إلى عمل تافه شاق مرتبه يسد الرمق وكان عمله الجديد فى الاسكندرية . . المدينة التى أنبتت أمينة ...

وهنالك عاش ليتم قصة تدهوره التى بدأها فى الصعيد ، وكبله الفقر بقيوده الحديدية وحصر حياته وتفكيره وقلبه فى نطاق ضيق ليس إلى تخطى أسواره العالية من سبيل! وظل شبح أمينة يلاحقه ويعذبه ليل نهار

إنه يتوق إلى كل شىء فيها وفى الوقت نفسه يحقد عليها كل الحقد ! ولم تعد لديه أمنية فى الحياة إلا أن تمنحه الأقدار الفرصة لينتقم منها أبلغ انتقام أو يراها وقد أنزل بها القدر أقسى وأشد المحن هولا وبشاعة ، وكان كلما فكر فيما جنته عليه ازداد رغبة وتوقا إلى الانتقام

وعاش منطويا على نفسه ، يجتر أحزانه ويرقب موكب الدنيا والناس بعين الكراهية والتشاؤم ...

... أين الحب الملهم والآمال الكبار ؟؟ لقد كانت ذكرياته العزيزة الغالية تومض أحيانا فى رأسه وتهيج مشاعره وإحساساته فيهوله خموله وتدهوره ؛ ولكن عبثا حاول أن ينتشل نفسه من الهوة التى تردى فيها أو يطرد الظلام الذى تراكم على قلبه ، وأخيرا نزل على حكم الواقع واستسلم شيئا

فشيئا إلى اليأس ولم يعد له من مطمح إلا أن ينسى الماضى كله بما فيه من آمال وآلام وجروح ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك وطيف أمينة لا يغيب عنه والحقد عليها ينمو فى قلبه على مر الأيام ؟

والتمس شفاء نفسه فى اللهو والحب الرخيص بالقدر الذى تتيحه له موارده الضيقة ، وبذل كل ما يستطيع ليخمد كل مشاعره وإحساساته التى كانت ترهقه وتثور عليه وتصمه بالإسفاف والضعة والهوان ، وعاش ليسخر من نفسه ومن الحياة وضجيجها الكاذب وما تزخر به من أنواع الشقاء الذى لا معنى له ولا جدوى ، وتساوى لديه الأشقياء والسعداء ، المنعمون والمحرومون .. إنهم جميعا مخدوعون فرض عليهم الاشتراك فى تمثيل مهزلة الحياة واحتمال عسف القدر وبطشه راضين أو كارهين

ومضت الأيام وهو يحمل على كتفيه عبء الحياة كارها ساخطا ، ويفكر فى الموت تفكير الراغب المشتاق ، ولم تزده تجاربه فى عالم اللهو إلا سخطا واحتقارا للمرأة ، ورسخ فى ذهنه أنها مخلوق غادر ميت الضمير ضائع الفضيلة ، ولا هم لها إلا إرضاء نزواتها وإشباع شهواتها ! وكان إذا ما سمع عن خيانة إحداهن قال وهو يزفر : كلهن كذلك

وهكذا عاش وظل يمنى نفسه دائما أنه سيلقى أمينة يوما ما وينتقم منها .. ولم تكذب الأيام ظنه فقد ساقها القدر إليه فى أصيل ذلك اليوم الحار

لقد أيقظت رؤيته لها كل ما كان يختزنه فى نفسه من أحاسيس وانفعالات ، ومرت صور حياته كلها أمام عينيه وهو يتجول على الشاطئ ويستمع إلى صوت الأمواج وهى ترتطم بالصخور كأنها أنات جبار مكبل بالقيود والأغلال

نعم ، إنه سينتقم ويشفى غليله

* * *

ولما التقيا للمرة الثانية قادها رأفت إلى غرفته تحت ستار الظلام ، وكان قد أعد العدة لمأدبة الجسد التى ظل يشتهيها ويحلم بها منذ سنوات ، إنه سيحقق مطمحا عزيزا ظل يراود خياله طوال السنوات الخمس وفى الوقت نفسه ينتقم من تلك التى غدرت بقلبه بأن يغدر بها ويعاملها كإحدى المنبوذات المأجورات ثم يلقى بها فى عرض الطريق

وأدركت هى نياته حين لمحت زجاجات الخمر ، ولهيب الرغبات يتراقص فى عينيه .. ورفضت أن تتناول قطرة واحدة من الشراب واعتذرت بأن بنيتها لا تتحملها ، وجلست ترقبه وهو يشرب فى شراهة وكل ملامحه تشى ببؤسه ويأسه وانكساره ، ومرت فترة صمت وهو يشرب وهى تجيل

فى الغرفة الحزينة نظرة ألم ، إشفاق وأدركت من هيئة الغرفة ما يعانيه الرجل الذى كان يمد المدة منذ خمس سنوات فقط للحياة الطيبة الزاخرة بالآمال الكبار وقالت له فى أسى بالغ :

— رأفت ... إننى لم أكن أتصور ...

فقاطعها قائلا : تصورى كل شى ولا تتحدثى كالصغيرات الساذجات

فسألته : ولكن كيف ترضى لنفسك كل هذا ؟

ولم يستطع وهو يسمعها تتحدث كإحدى البريئات أن يكتم ثورة نفسه ، إنها تتجاهل أنها الشيطان الآثيم الذى قوض دعائم حياته وتتكلم كإحدى القديسات اللواتى يؤلمهن مرأى الشر فاندفع يقول لها فى حدة :

— بل كيف رضيت أنت كل هذا ... هل يمكنك أن تنكرى أنك أنت وحدك السبب فى كل ما أعانى ؟ هل نسيت فأقص عليك القصة من جديد ؟ لاشك أنك نسيت ما أوقعته بى وبعشرات من بعدى ، ولكن ما فائدة نبش الماضى الآن ؟ إننى لا ألومك على كل حال فالحياة خدعة كبيرة

فقالت : لا يارأفت إنها ليست خدعة كبيرة

فسألها : ماذا تكون إذن ؟ الإخلاص والوفاء ورعاية العهود ؟

فأجابت : إنها الإخلاص والوفاء

وأطلق رأفت ضحكة ساخرة مجلجلة وهو يقول :

— متى اكتشفت هذا الاكتشاف الجديد ؟

فقالت : لا تسخر منى يا رأفت وكفانى ما عانيت ولا تظن أن من السهل أن أكشف عن جراح قلبى لكل إنسان ألقاه.. لقد لاقيت فى هذه السنوات الخمس كثيرا من المحن والمصائب

ومضت أمينة تقص عليه قصة حياتها بعد أن أبعدت عنه ما تبقى لديه من الخمر وحالت بينه وبين الإسراف فى الشراب . إنها لا تنكر أنها كانت غريرة طائشة لعبت وعبثت بكثير من القلوب واستغلت سذاجة الكثيرين ، ولكن بعد أن كابدت كثيرا.. إن كل من عرفت من الرجال كان يمنيها أطيب الأمانى ويصب فى أذنها معسول الحديث فى حين أنه كان لا يزيد على أن يلهو ويستمتع ، وتعلمت هى منهم أن تلهو وتستمتع ، وأشرق هو فى أفق حياتها ثم غرب فجأة عندما قطع صلته بها بمحض إرادته ..وحتى ذلك الحين لم تكن قد أدركت أنها ظلمته وامتهنت عواطفه ... فقد كانت تظنه واحداً منهم

ومرت بها أشتات من التجارب فى دنيا

الرجال ثم تزوجت واستقالت من عملها … وبزواجها بدأت الأيام السود إذ لم يكد يمض على زفافها وقت طويل حتى استولى زوجها على حليها وكل ما تدخر من مال بحجة استثماره فى أعمال كبيرة تدر أرباحا طائلة ، ولم تلبث أن اكتشفت خديعته وعرفت أنه أفاق مغامر يقسم وقته بين الخمر والنساء وموائد الميسر

وبدأ الشقاق بينهما أعنف وأعتى مايكون عندما حاول زوجها أن يبيع بعض أثاث مسكنها وكانت هى تملكه كله ! واستمرت المشاحنات بينهما فترة من الزمن. ولما أدرك هو أنه قد سلبها كل ما يمكنه سلبه اختفى وعبثا حاولت أن تعثر له على أثر

وتزوجت ثانية بعد شهور طويلة من الأسى والوحدة والحرمان ، ولم يكن زواجها الثانى بأسعد من الأول . وكان الزوج الجديد جافا غليظ الطبع وحشى الخلق يحصى عليها حركاتها وسكناتها ويحاسبها على كل مايريبه أشد الحساب ، وكان ضيق الموارد محدود الكسب ولم تستطع أمينة أن تحتمل شظف العيش وغيرة الزوج المتشكك فانفصلت عنه ولجأت إلى أبيها ولكنه لم يرحب بها كثيرا

واشتد بها السخط على الرجال فصدفت عن الزواج وراحت تبحث عن عمل جديد فلما وفقت عادت إلى مسكنها الموحش وعاشت وحدها فى عزلة تكاد تكون تامة ، ورغم ذلك لم تسلم من الريب والظنون وشباك الطامعين المغامرين، وأدركت فى كثير من المرارة أن سيرتها فى الأوساط التى تعرفها لا يرتاح إليها أحد

وبدأت تضيق بحياتها الموحشة ووحدتها الكئيبة وتأسى على آمالها الضائعة ومستقبلها الغامض المعتم

وكان لا يفزعها إلا التفكير فى المستقبل . هل ستقضى بقية العمر وحدها ؟ هل تغامر فى دنيا الرجال وتصبح أداة رخيصة لتحقيق مطامعهم ورغباتهم ؟ لا ، لقد سئمت حياة المغامرات وسئمت التغيير والتبديل وفكرت كثيرا حتى أضناها الفكر فلم تجد أحلى من البيت الهادئ الذى يظلله السلام والاستقرار، وتيقظت فى قلبها غرائز الزوجة والأم وأصبحت تغار من أولئك اللواتى من الله عليهن بالشريك المخلص الأمين والنسل الطيب والبيت الهادئ الذى يفيض أمنا وسلاما، ولكن أنى لها تحقيق آمالها ؟ وعاشت تتلوى تحت سياط الندم والألم وتحاسب نفسها حسابا عسيرا على ماجنته يداها … لقد شربت من نفس الكأس التى سقت منها الناس

واعترفت له أنها لم تدرك إلى أى حد جنت على نفسها وأى ثروة غالية بددتها

حين خدعته وعاملته كالباقين ودفعته إلى الفرار من بين يديها . إنها لم تدرك ذلك إلا أخيرا وبعد أن نهلت من الذل والهوان حتى ارتوت وعرفت معادن النفوس وتاقت إلى الحياة المستقرة النظيفة

قصت أمينة قصتها فى صوت يفيض تأثرا وحرارة وندما ، واستمع رأفت إليها فى سكون ثم رفع رأسه الذى ظل منكسا طوال حديثها وقال :

— والآن ؟

وكانت نبرته تفيض مرارة وتشفيا ، ولم يفت أمينة ذلك ولكنها تجاهلته وقالت مبتسمة :

— والآن شكرا للقدر الذى جمعنا ثانية . .

فقال وهو يتنهد :

— وما فائدة ذلك ؟

فقالت وهى تلقى عليه نظرة رقيقة عاتبة ؟

— هل فقدت كل أمل فى الحياة ؟

فقال : بل فقدت كل إيمانى بالحياة . . إننا من الهالكين

وأضاف وهو يقترب منها باسما

— دعينا من هذا الحديث الآن . . وخذى الحياة كما هى كما أفعل أنا

وصدت أمينة كل محاولاته للاقتراب منها ، وانتصبت واقفة وهى تقول :

لا لا يارأفت . . إننى لم آت لمثل هذا بل لم أتخيل مطلقا أن تقدم أنت عليه . لقد أتيت لأحدث رأفت الذى عاش فى خيالى طوال هذه السنوات مثالا للنبل والتعفف . انتظر منى رسالة أحدد لك فيها موعد اللقاء التالى

وتركته وولت هاربة كالغزال النافر

وقضى رأفت عدة ساعات بعد رحيلها وهو جامد كأنه تمثال من الحجر ولكن قلبه كان كالبركان الثائر الغاضب . وقضى بقية الليل فى فراشه دون أن يغمض له جفن وكان فكره كالقارب الحائر فى عرض البحر تتقاذفه الأمواج الثائرة المضطربة بين شواطىء الماضى العاصف والحاضر الطرب والمستقبل الغامض المجهول ... إن أمينة لم تعد فى نظره إلا حطام امرأة لم تلجأ إليه إلا بعد أن فشلت فى حياتها كل الفشل ؛ ومع ذلك فهى تضن عليه ... ولكن من الذى دفعه فى طريق الهاوية ؟ من الذى حطم قلبه وبعثر آماله ؟ أليست هى ؟ ومرة أخرى قال لنفسه إنه سيحطمها تحطيما ويريح منها الحياة والأحياء .. ومع ذلك فقد ظل حائرا قلقا يفكر فى أمرها تفكيرا يمتزج فيه الخير والشر ، اليأس والأمل ، القسوة والإشفاق ، وإن كان قد شعر بقلبه ينتفض من جديد انتفاضة الحياة ، ورأى زهور الأمل تنبت وترف على حوافى المجرى الجاف

الذى تدفقت فيه منذ أعوام عواطفهما وأمانيهما المشتركة

وظل فى حيرته حتى وصلته منها رسالة تقول فيها « أنتم الرجال تظلموننا كثيرا حتى تتهموننا بالفجور والغدر والخيانة وتقلب الأهواء ، ولو اتهمتمونا بالضعف والجهل وقلة الحيلة لكنتم أقرب إلى الحق والواقع

أنتم — وأنا لا أعنيك انت شخصيا ولو كنت أعنيك لما كتبت لك هذا الكتاب — تشاركوننا فى الجرم منذ اللحظة الأولى وفى الغنم حتى اللحظة الأخيرة ، تمهدون لنا الطريق وتحرضوننا على سلوكه فى أول لحظة تبدو فيها من أى واحدة منا بارقة رضا وتنالون بغيتكم ثم تذهبون إلى غير عودة مخلفين لنا الندم والألم والذل والهوان …

لماذا بالله ؟ ألم تسأل نفسك هذا السؤال؟ أنت الرقيق القلب العطوف الذى يفهم معنى الصفاء والإخلاص . لاشك أنك فعلت ، كيف أجبت نفسك إذن؟ إذا كنت قد أجبتها إجابة صادقة صريحة ترضى الله والناس فلاشك أنك ستغفر لى مااقترفت فى حقك من إثم . لقد كنت ضالة ولم يكن الذنب ذنبى ، وسبحان الذى لايضل ولا يخطىء … والذى يقبل التوبة

إن التى تكتب إليك امرأة لم تلق فى حياتها ناصحا أو شفيقا ، ولم تجد من العناية والتوجيه مايفتح عينيها على حقائق الحياة بل مايسلمها إلى الطيش والحماقة . . امرأة لم يعلمها إلا الألم وحده ولم تفتح عينيها إلا التجارب المرة القاسية ، فأستحلفك بالله ألا تسمينى خائنة بل قل إننى كنت جاهلة أو طائشة . لقد غرر بى الرجال ودفعوا بى فى الطريق الشائك الوعر وخدعونى مرات ومنهم تعلمت اللهو والخداع . لقد عشت حياتى كلها فى الظلام وكنت أنت الكوكب الوحيد الذى أشرق فى أفق حياتى ثم غاب قبل أن أفطن إليه ، فلما فطنت وأدركت تقت إلى النور وإليك إذ لم يكن هناك من يستطيع أن يبدد ظلام قلبى ويهدينى إلى النور إلا أنت . اشتقت إليك كما يشتاق الأعمى إلى الإبصار ، وتذكرت مسلكى معك فندمت وتألمت وعرفت أننى كنت ضالة . لقد أحببتك رغم إرادتى فى الوقت الذى انصرفت عنى لأنك أنت وحدك علمتنى قدسية الحب وفتحت قلبى للمرة الأولى وملأته عواطف حية صادقة وعلمتنى مالم أكن أعلم ، ولولاك لعشت مؤمنة أن اللهو والغش والخداع هو الحب ولبقيت قانعة بحياتى التافهة الكدرة ، ولكننى أعيش الآن معذبة لأننى أدرك ما هو الحب ولا أستطيع الحصول عليه …

والفضل لك أو الذنب ذنبك

وقد مرت بى عشرات التجارب بعد أن جافيتنى ، وكانت كل تجربة تذكرنى بك من جديد وتزيدنى حبا واحتراما لك وتقديسا لمبادئك، وظل كل أملى أن أعثر عليك يوما لأبكى بين يديك ندما وأسفا ، فلم تغلق أبواب قلبك فى وجهى أيها العزيز ؟ إننى الآن امرأة صهرتها وطهرتها التجارب ولا تمت إلى ماضيها بصلة ، وكلانا ما زال فى ربيع شبابه فلا تيأس ولا تتشاءم »

وحددت فى رسالتها مكانا وموعدا للقاء قريب

والتقيا فى بقعة هادئة من الشاطئ ، وفى هذه المرة انهارت مقاومة رأفت تماما وأخذ يقص عليها كل ما حدث له منذ اللحظة التى قرر فيها أن يقاطعها ، ورغبته الطاغية فى الانتقام والتشفى منها ، واستمعت هى صامتة ووجهها ينطق بما تحس من ألم وندم.. وبعد أن فرغ من حديثه أخذت هى تقص عليه ما لاقت فى دنيا الرجال من محن ومآس خسرت فيها كل شئ ولم تكسب إلا العبرة والدرس، وكيف تبدلت أفكارها وغاياتها، وشرحت له ظروف حياتها الحاضرة ودللت له أنها تستطيع أن تعيش عيشة المرأة المغامرة والمستهترة ولكنها لا تريد ... إنها تطمع فى لون آخر من الحياة البسيطة يتوفر فيه الهناء الساذج والرضاء والسلام فلم لا يشاركها هذه الحياة المرجوة ؟

وظلا يتعاتبان ويتشاوران حتى تقدم الليل . إنها تدرك تماما ما يعانيه من عسر وفاقة ولكنها ستشاركه جهاد الحياة . إنها ستظل تؤدى عملها وتضيف إيرادها إلى إيراده وسينتقل هو إلى مسكنها الكامل الأثاث ليعيشا معا فى ظل زواج موفق هنئ . إنها ستمنحه دفء قلبها وإخلاصها كل حياتها وفى الوقت نفسه يبحث هو عن عمل جديد يتفق مع كفايته ومستواه

ولم يكد رأفت يصدق وهو يستمع إلى حديثها أنها هى نفس الفتاة التى خدعته وأسلمته إلى طريق الانحدار وظلت طوال السنين هدفا لسخطه واحتقاره فى حين كان هو مطمح أشواقها وموضع اعزازها وإكبارها، وأحس أنها ليست حطام امرأة كما قال لنفسه عندما قصت عليه قصتها ، وتاق إلى أن يكفر عن نياته السيئة التى ظل يختزنها فى قلبه ويغذيها من حقده عدة سنوات

وافترقا فى تلك الليلة بعد أن اتفقا . وكان رأفت يشعر وهو يشد على يدها فى حرارة أنه إنسان جديد تجرى فى عروقه دماء جديدة تمده بالنشاط والحيوية والعزم والآمال الكبار ؛ وخيل إليه أن كل ماقاساه من آلام وهوان لم يكن إلا حلما مزعجا بين

المربية

للكاتب النمسوى ستيفان زفايج

بقلم الأستاذ على أدهم

لم يكن بالحجرة سوى الفتاتين ، وقد أطفئت الأنوار وخيم الظلام سوى بصيص من الضوء كان ينبعث من الفراشين . وهدأت أنفاس الفتاتين حتى كان يظن أنهما ناعستان

وسرى همس متعثر رقيق من أحد الفراشين ، وكان المتحدث هو الفتاة التى بلغت الثانية عشرة

فسألتها أختها التى كانت تكبرها بسنة قائلة « ماذا تقولين ؟ »

قالت : إنى جد مسرورة لأنك لا تزالين مستيقظة فإن لدى ما أود أن أقوله لك

ولم يكن هناك جواب بالألفاظ ، وإنما سمع هفيف من الفراش الآخر ، وكانت الفتاة الكبرى قد جلست منتظرة وعيناها تتألقان فى الضوء الواهن

قالت الصغرى : انظرى هنا فهذا ما أريد أن أخبرك به ولكن قبل كل شىء هل لحظت أخيرا

يقظتين هنيئتين

وكان يفكر فى حياته طوال السنوات الخمس الماضية وما انحدر إليه من تدهور وإسفاف فيحس كأنه يفكر فى أمر شخص غريب لا يكاد يمت إليه إلا بأوهى الصلات ، وانصرف تفكيره كله إلى المستقبل الذى يريد أن يحقق فى أيامه ما يعوضه من الماضى الضائع

والتقيا بعد ذلك مرات وكان يحدثها فى بساطته القديمة المحببة عما يأمل ويتمنى فتجيبه بأن أمانيه وآماله هى ما يخفق به قلبها وتحلم به ليل نهار

وتزوجا بعد أمد قصير ...

وبرت أمينة بوعدها وعهودها ، وتعاونا على الحياة الطيبة وعاشا معا كطفلين ساذجين فرحين بالحياة ، واستطاع رأفت أن يجد عملا جديدا مربحا ومريحا ، وما لبثت أمينة أن استقالت من عملها لتتوفر على شؤون منزلها ، وبعد عام من زواجهما رزقا فتاة أطلقا عليها الاسم الذى طاف بخيال أمينة منذ أن شعرت بأعراض الحمل وهو « إنصاف »

نصرى عطا الله

شيئا يثير الضحك فى سلوك الآنسة مان ؟

فقالت الكبرى بعد قليل من الصمت « نعم لقد لحظت شيئا ، ولكنى لا أدرى ما هو ، فهى أقل تدقيقا مما كانت ، فمنذ يومين وأنا لا أؤدى التمرينات المطلوبة ، ومع ذلك لم توجه لى أى لوم . ولست أدرى ماذا حدث ، ولكنها فيما يبدو أصبحت لا تعنى بنا ، فهى تقعد منفردة بنفسها ولا تشاركنا فى ألعابنا كما كانت تفعل من قبل

فأجابت الصغرى : أحسبها حزينة ، وهى تحاول إخفاء حزنها ، وهى لا تعزف على البيان الآن »

ومرت فترة سكوت ، واستأنفت بعدها الفتاة الكبرى الحديث قائلة « لقد ذكرت أن لديك شيئا تودين أن تفضى إلى به »

فقالت الصغرى : نعم ، ولكن عليك أن تحتفظى به لنفسك ولا تقولى عنه كلمة واحدة لوالدتنا أو لصديقتك لونى »

فأجابت الكبرى فى غضب « إنى بطبيعة الحال لا أفعل ذلك ، فاسترسلى فى حديثك

قالت الصغرى :

« بعد أن أوينا إلى الفراش أدركت فجأة أنى لم أقل للآنسة مان عمى مساء ، ولم أتردد فى لبس حذائى واسترقت الخطى إلى حجرتها قاصدة مفاجأتها ، ولذا فتحت الباب بهدوء وظننت لحظة أنها غير موجودة بالحجرة ، ورغم ضوء الحجرة لم أستطع رؤيتها ، وفجأة تملكتنى الدهشة ، فقد سمعت نحيبا ورأيتها راقدة فوق فراشها بملابسها وقد أخفت رأسها بين الوسائد ، وكانت تبكى بكاء شديدا جعلنى أستشعر الألم ، ولكنها لم تلحظنى ، وتسللت من الحجرة وأقفلت الباب برفق وهون ولبثت لحظة فى خارج الحجرة لأنى كدت أعجز عن المشى ، وظللت أسمع نحيبها من خلال الباب ، ثم عدت أدراجى »

ثم لاذت الفتاتان بالصمت لحظة ، ثم قالت الكبرى متنهدة « يالها من مسكينة ! »

وعادتا كلتاهما إلى الصمت

وواصلت الصغرى الحديث قائلة : « إنى فى دهشة من أمرها ولست أدرى ما الذى أبكاها ، ولم تحدث مشاجرة أخيرا لأن الوالدة قد كفت عن تعنيفها كما كانت تفعل دائما ، وإنى واثقة من أننا لم نتعبها فما سبب بكائها ؟ »

فقالت الكبرى « أحسبنى أستطيع أن أحزر ذلك »

فقالت الصغرى :

- حسن ، اذكرى ما عندك إذا !

فتريثت الكبرى فى الرد ، ولكنها قالت أخيرا « أعتقد أنها تحب »

ففزعت الفتاة الصغرى وقالت « تحب ؟

فأجابت الكبرى : « بطبيعة الحال أقصده ! وهو يحبها . فى خلال السنوات الثلاث التى قضاها معنا لم يشاركنا فى نزهتنا إلا منذ شهرين أو ثلاثة أشهر ، والآن لا يفوته أن يصحبنا يوما من الأيام ، وهو لم يكد يلحظنا إلا بعد قدوم الآنسة مان ، وهو الآن ما ينفك يحوم حولنا ، وفى كل مرة نخرج نصادفه فى الميدان أو فى الحدائق أو فى أى مكان آخر تصحبنا إليه الآنسة مان ، وأنا واثقة أنك لحظت ذلك ؟ »

فأجابت الصغرى « نعم ، لحظته بالضرورة ولكنى ظننت ... »

ولم تتم جملتها

فقالت أختها : أه إنى لم أشأ أن أشغل بالى بالموضوع فى أول الأمر ، ولكنى بعد حين تأكدت أنه يتخذنا سبباً »

وساد صمت طويل أخذت الفتاتان تقلبان فيه الأمر على وجوهه ، وكانت الصغرى هى التى بدأت بالخروج من الصمت وعاودت الحديث قائلة :

« ولكن إذا كان الأمر كذلك فلم تبكى ؟ إنه مستهام بها ، وأنا دائما أظن أنه مما يسر الإنسان أن يكون محبوبا »

فقالت الكبرى فى لين ورقة : « إنى أرى ذلك ، ولا أستطيع أن أتبين الأمر »

ثم أرسلت هذه الكلمات فى نبرة يخالطها النوم « يالها من مسكينة هذه الآنسة مان ! »

وانتهى حديثهما فى تلك الليلة

ولم تشيرا إلى هذا الحديث فى الصباح ، ولكن كل واحدة منهما كانت تعلم أن أفكار الأخرى كثيرة الدوران حول هذا الموضوع ، ولم تتعمد إحداها النظر فى عين الأخرى لتستوضح ذلك ، ولكنهما كانتا تتبادلان النظرات حينما تقع عيناها على المربية ، وكانتا على الطعام تراقبان ابن عمهما أوتو كأنه شخص غريب ، ولم توجها إليه حديثاً ، ولكنهما كانتا تختلسان النظر إليه وتحاولان أن تكشفا هل هناك تفاهم خفى بينه وبين الآنسة مان . ولم تحفلا بأسباب التسلية لأنهما كانتا لا تفكران فى شىء سوى هذا اللغز الهام . وفى المساء سألت إحداها الأخرى وهى تحاول أن تتظاهر بعدم الاكتراث :

« ألم تلحظى شيئاً جديدا اليوم ؟ »

فأجابت أختها « باختصار « كلا »

والواقع أنهما كانتا تخشيان الخوض فى الموضوع . وظل الحال على هذا المنوال عدة أيام ، وكانت الفتاتان لا تكفان عن الملاحظة فى صمت وقد استولى عليهما القلق وانشغال البال . ولكنهما كانتا تشعران بأنهما قريبتان من كشف سر عجيب

وأخيرا لحظت الفتاة الصغرى فى أثناء

العشاء أن المربية أشارت إلى أوتو إشـارة لا يكاد يدركها أحد ، وأنه أحنى رأسه ردا على هذه الإشارة ، فانتفضت من الانفعال وركلت أختهـا ركلة خفيفة تحت غطاء المائدة ، فنظرت الـكبرى إليهـا مستفسرة فردت عليهـا بنظرة ذات معنى . وظلت الفتـاتان على أحر من الجمر حتى انتهى تناول الطعام ، وفى عقب انتهـائه قالت المربية للفتاتين :

« اذهبا إلى حجرة الدراسة وابحثا عن عمل تؤديانه فإنى أشعر بصداع وسأستلق على الفراش نصف ساعة

وفى اللحظة التى وجدت الفتاتان أنهما فى عزلة انفجرت الصغرى قائلة : « سترين إن أوتو ذاهب إلى غرفتها ! »

فقالت الـكبرى « بالطبع ، ومن أجل ذلك أرسلتنا إلى هنا »

فقالت أختها : « علينا أن نتسمع خارج الباب »

فأجابت الـكبرى « ولـكن افرضى أن أحداً يجئ ... »

فسألتها أختها « من ؟ »

فأجابتها قائلة : « الوالدة »

فقالت الصغرى متفزعة « سيكون ذلك أمراً فظيعا »

فأشارت أختها قائلة « راقبى الممر وأنا أتسمع »

فأظهرت الصغرى استياءها وقالت : « ولـكنك فى هـذه الحالة لا تذكرين لى كل شئ »

فقالت أختها « لا تخافى »

فقالت الصغرى : « أأنت جادة ؟ »

فقالت الـكبرى : « أقسم لك أنى جادة وعليك أن تسعلى إذا سمعت صوت قادم »

وانتظرتا فى الممر وقلبـاهما يخفقان من الانفعال ، فـماذا حدث ؟ سمعتا وقع أقدام فانسلتا إلى حجرة الدراسة المظلمة ، وقد كان القادم أوتو نفسه ، وقد قصد حجرة الآنسة مان وأغلق الباب من ورائه . وانطلقت الفتاة الـكبرى إلى الموضع الذى اختـارته وتسمعت من ثقب البـاب وهى لا تكاد تجترئ على التنفس . وأخـذت الأخرى تنظر إليها نظرات تنم على الحسد ، ودفعها حب الاستطلاع إلى المضى حثيثا نحو الباب ؛ ولـكن اختها تصدت لها وأشارت إليها فى غضب لترجع إلى مكانهـا وتراقب فى آخر الممر . وظلتـا منتظرتين بضع دقائق بدت للفتاة الصغرى كأنها الأبدية . وكانت تشعر بحمى القلق تتمشى فى بدنها وكأنها كانت واقفـة على مثل جمر الغضى . وبصعوبة اسـتطاعت أن تكف غرب دموعها لأن اختها كانت تسمع كل شئ ، وأخيراً سمعت

صوتاً فاستولى عليها الخوف وسعلت؛ وهربت الفتاتان إلى حجرة الدراسة . ومرت لحظة قبل أن يواتيهما النفس لتتحدثا ، وقالت الصغرى غاضبة :

« حدثيني إذن عن كل ماحدث »

فبدت علائم الحيرة على وجه الفتاة الكبرى وقالت كأنها تخاطب نفسها :

« إنى لا أفهم »

فقالت الصغرى : « ماذا ؟ »

فأجابتها أختها «إنه شيء يتجاوز المألوف»

فقالت الصغرى غاضبة : «ماذا ؟ ماذا ؟»

فبذلت الكبرى مجهوداً وهى تقول :

« لقد كان شيئا يتجاوز المألوف ويختلف كل الاختلاف عما كنت أتوقعه ، وأظن أنه حينما دخل الحجرة أراد أن يطوقها بذراعيه أو أن يقبلها لأنها قالت له : دع ذلك الآن لأن لدى شيئاً خطيرا أريد أن أخبرك به . ولم أستطع أن أرى شيئا لأن المفتاح كان معترضا ، ولكنى كنت أستطيع السمع حيدا ، وسألها أوتو فى نبرة لم أسمعها منه قط قبل ذلك قائلا : ما الخبر ؟ وأنت يا أختى تعرفين كيف يتحدث فى العادة بصوت عال وفى قحة ، ولكنى واثقة من أنه كان خائفاً ، ولا بد أنها لحظت أنه يخدعها لأن كل ما قالته هو : أظن أنك تعرف ما فيه الكفاية ؟ فقال : أبداً . فقالت فى صوت حزين : إذا كان الأمر كذلك فلماذا تناءيت عنى ؟ ففى خلال أسبوع لم أكد أسمع منك كلمة ، وأراك تتجنبنى جهد طاقتك ، وقد ابتعدت عن الفتاتين وأمسكت عن لقائنا فى الحديقة ، فهل نبذت فجأة الاهتمام بى والعناية بأمرى ؟ آه إنك تعلم جيداً لماذا تتراجع إلى الوراء هكذا ... فظل صامتاً لحظة ثم قال : إنك لا ريب تعرفين اقتراب ميعاد الامتحان ، وليس لدى وقت أضيعه ، فماذا أستطيع أن أفعل ؟ وأخذت تبكى وقالت له فى رقة وهى تنشج : قل الحق يا أوتو ؛ ما الذى صنعت حتى تعاملنى هذه المعاملة ؟ إنى لم أطالبك بشيء ، ولكن يلزم أن نتحدث فى صراحة ، وملامحك تظهر لى بوضوح أنك تعلم كل شيء عن ... »

وأخذت الفتاة تنتفض ولم تستطع أن تتم جملها

فاقتربت منها أختها وسألتها :

كل شيء عماذا ؟

فقالت : كل شيء عن الطفل !

فقاطعتها الصغرى قائلة : طفلهما ! طفل! هذا مستحيل

فقالت الكبرى : هذا ما قالته

فقالت أختها : لا يمكن أن تكونى قد أحسنت السمع

فأجابت الكبرى : ولكنى سمعت جيداً ، وإنى متأكدة مما سمعت ، وقد أعاد هو قائلا « طفلنا » وبعد هنيهة استرسلت تقول : وماذ نصنع الآن ؟ وحينئذ ...

قالت الصغرى : وحينئذ ماذا ؟

فأجابت أختها : حينئذ سعلت فابتعدت عن الباب

فارتبكت الصغرى ارتباكا شديداً ، والتبس عليها الأمر ثم قالت :

ولكن لا يمكن أن يكون لها طفل ، وأين يكون هذا الطفل ؟

فقالت أختها : لا أعرف شيئاً عن هذا الموضوع أكثر مما تعرفين

فقالت الصغرى : ربما كان هذا الطفل فى منزلها ، ووالدتنا بطبيعة الحال لا تسمح لها بإحضاره إلى هنا ، ولا بد أن هذا هو سبب حزنها

وأجابت الكبرى : آه . هذا كلام فارغ إنها لم تعرف أوتو إذن !

وذهب بهما التفكير كل مذهب ، وعادت الصغرى تقول : طفل ! هذا أمر مستحيل . كيف يمكن أن يكون لها طفل؟ إنها غير متزوجة ، ولا أطفال لغير المتزوجين

فقالت أختها : ربما كانت متزوجة

وردت الصغرى قائلة : لا تكونى غبية ، إنها لم تتزوج أوتو

فقالت الكبرى : حسن ، إذن ... ؟

وأخذت كل منهما تحدق فى الأخرى

وقالت إحداهن فى حزن : إنها مسكينة آنستنا مان

وكان يبدو دائماً أنهما تعودان إلى ترديد هذه الكلمة ، وكأنها كانت تأوه عطف ، ولكن شعلة الاستطلاع كانت تعود بعد ذلك إلى التوهج

وقالت الصغرى : أتظنينها بنتاً أو ابنا ؟

وأجابتها أختها : كيف أستطيع علم ذلك.

فقالت الصغرى : وماذا تقولين إذا سألتها عن ذلك فى تلطف ولباقة ؟

فزجرتها أختها قائلة : أوه ! التزمى الصمت !

فسألت الصغرى : ولم ذلك ؟ إنها تعاملنا بكثير من الرعاية والعناية

فقالت أختها : وما فائدة ذلك ؟ إنهم يخفون عنا أمثال هذه الأشياء ، وإذا تحدثوا عنها وجئنا إلى الحجرة ، فإنهم يمسكون عن الحديث ويشرعون فى التكلم معنا بكلام فارغ كأننا لانزال أطفالا ، وذلك بالرغم من أننى فى الثالثة عشرة من عمرى ، فما فائدة سؤالها لتخدعنا وتكذبنا ؟

فقالت الصغرى : ولكنى أريد أن أعرف

فأجابتها أختها : وأنا كذلك تواقة إلى

المرفة، والذى يضايقنى هو أن أوتو ادعى أنه لا يعرف شيئاً عن ذلك ، وحينا يكون للانسان طفل لا بد له أن يعلم ذلك ، كما لا بد له أن يعلم أن له أبا وأما

فقالت الصغرى : أوه ! إنه كان يدعى ذلك ، ومن عادته الكذب !

فأجابت الكبرى : ولكنه لا يكذب فى مثل هذه الأمور إلا حينا يريد معا كستنا

واعترض حديثهما مجىء المربيـة . وتظاهرتا بالجد فى العمل ، ولم يغب عنهما ملاحظة احمرار جفنيها وما دل عليه صوتها من جيشان العاطفة ، وجلستا فى هدوء وصمت وكانتا تنظران إليها نظرات احترام . ولم تكفا عن التفكير فى أن لها طفلا وأنها حزينة من أجل ذلك ، وبغتة ألم بهما الحزن

وعند تناول الغداء فى اليوم التالى علمتا بهذه الأنباء المزعجة ، وهى أن أوتو سيغادر المنزل ، فقد أخبر عمه أن عليه أن يبذل جهداً كبيراً قبيل الدخول فى الامتحان ، وأنه لا يجد فى المنزل الهدوء الكافى لذلك ، وأنه سيقيم فى مسكن غير هذا مدة الشهرين القادمين

وأثار ذلك مشاعر الفتاتين ، وأدركتا أن لرحيل ابن عمهما لونا من ألوان الصلة بحديث اليوم السالف ، وعرفتا بالغريزة أن هذا الرحيل هو فرار الجبان . ولما جاء أوتو ليودعهما لقى منهما إعراضاً وتجهما ، وبرغم ذلك راقبتا توديعـه للآنسة مان ، وقد صافحته فى هدوء ولكن شفتيها اختلجتا

وبدل ذلك من أحوال الفتاتين فى تلك الأيام ، فقد قل ضحكهما ، وأصبحتا لا تستشعران السرور فى شىء ، وبدا عليهما الحزن ، وكانتا تتنقلان فى أرجاء المنزل وقد احتواهما القلق ، وغلب عليهما سوء الظن بمن كان حولهما من الكبار ، واعتقدتا أن وراء أبسط الكلمات التى تسمعانها خدعة وأنها تنطوى على أكذوبة ، وكانتا فى رقابتهما الدائمة كالظلال الخاطفة تتسمعان خلف الأبواب وتحاولان النفاذ من الشبكة التى تحجب عنهما السر الخفى أو على الأقل أن تظفرا خلال خيوطها بنظرة إلى عالم الواقع ، وقد فقدتا يقين الطفولة وغفلتها القانعة ، وعلاوة على ذلك فقد كانتا على الدوام تنتظران كشفاً جديداً وتخشيان أن يفوتهما ذلك ، وقد علمهما المخادعة جو الخداع والغش الذى كانتا تعيشان فيه ، وكانتا كلما اقترب منهما والداها تظاهرتا بالانهماك فى العمل ، وزاد ما بينهما قرباً تحالفهما على مقاومة عالم الكبار ، وكانتا حينا يغلبهما شعورها بالجهل والعجز يتملكهما دافع حب الملاطفة والملاينة

ويجعلهما تتعانقان . وفى بعض الأحيان كانت تنهمل دموعهما . وهكذا انتقلت حياتهما إلى مرحلة خطيرة بدون سبب ظاهر

وبين متاعبهما الكثيرة كان هناك شيء أسوأ وقعاً فى نفسيهما من كل شيء آخر ، وهدتهما لباقتهما دون أن تتبادلا الأفكار إلى عقدهما العزم على أن تجنبا الآنسة مان التاعب جهد الطاقة لما تعانيه من حزن ، فجدتا فى التحصيل وتعاونتا فى الدروس والتزمتا الهدوء وأحسنتا التصرف وحاولتا أن تسبقا الآنسة مان إلى رغباتها ، ولكن كان يبدو لهما أن الربية لم تلحظ ذلك ، وكان هذا أشد ما يثير ألمهما : ولقد كانت غير مكترثة ، وحينما كانت تخاطبها إحداهما كانت تجفل كالذى استطير نومه ، وكان يبدو أن نظرتها لا ترتد إليهما إلا بعد أن تسير مسافات شاسعة ، وكانت تقضى ساعات وهى جالسة سابحة فى الأحلام ، وكانت الفتاتان تسيران على أطراف أصابعهما خشية إزعاجها لأنهما كانتا تتخيلانها مفكرة فى طفلها الغائب ، وقد جعلتهما أنوثتهما المستيقظة أشد عطفا مما كانتا قبل على المربية التى ألانت لهما كنفها فى تلك الآونة .

والآنسة مان التى كانت دائمة المرح والتى كانت فى بعض الأحيان يغلب عليها القليل من الصلف قد أصبحت أكثر تفكيرا وأشد رعاية وتبصرا . وشعرت الفتاتان بأن أعمالها كلها تنم على حزن خفى ، ولم تبصراها باكية ولكن جفونها كانت قريحة ، وكان من الواضح أنها تريد أن تحتفظ بمتاعبها فلا تفضى بها إلى أحد ، وكان يحزنهما ويحز فى نفسيهما عجزهما عن مساعدتها

وفى ذات يوم اتجهت المربية نحو النافذة لتمسح دموع عينيها فتشجعت الفتاة الصغرى وأمسكت بيدها قائلة « إنك جد محزونة يا مس مان ، وليس هناك خطأ من ناحيتنا فهل الأمر كذلك ؟ »

فنظرت الآنسة مان إلى الفتاة نظرة عطف وربتت على شعرها وقالت :

« كلا يا عزيزتى فليس هناك أى خطأ من ناحيتك » وقبلت الفتاة فى جبينها

وهكذا واصلت الفتاتان الرقابة ، ودخلت إحداها حجرة الجلوس على غير انتظار وسمعت كلمة أو كلمتين لم تقصد أن تسمعهما ، وغير والداها موضوع الحديث ؛ ولكنها كانت قد سمعت ما يكفى لجعلها تفكر .

كانت الوالدة تقول « نعم لقد استرعى نظرى نفس الشيء وسأتحدث إليها فى ذلك »

وفى أول الأمر وضعت الفتاة الصغرى القلنسوة على رأسها وانطلقت لتستشير أختها فقالت

« حول ماذا تظنين هذه الضجة الثارة ؟ »

ولكنهما لحظتا عند الغداء كيف كان والدهما ووالدتهما يوجهان النظرات الفاحصة إلى المربية ، وكيف كانا بعد ذلك يتبادلان النظرات ذوات المعانى ، وبعد الغداء قالت الوالدة للآنسة مان :

« هل تسمحين بالحضور إلى حجرتى ؟ إنى أود أن أتحدث إليك »

فاهتاج ذلك الفتاتين لتوقعهما حدوث شيء ، وقد ألفتا استراق السمع وصارتا لا تخجلان منه ، وكان مناط تفكيرهما هو علم ما خبيء عنهما ، وبادرتا إلى الوقوف خلف الباب بعد دخول الآنسة مان مباشرة وتسمعتا ، ولكنهما لم تسمعا سوى همسات من المحادثة، فهل يظلان فى جهلهما ؟ ولكن لم يلبث أن ارتفع أحد الصوتين ، وقالت الأم غاضبة

« أتحسبين أننا كنا عميا لا نلحظ حالتك ؟ إن هذا يلقى ضوءاً على تصورك لواجباتك كمربية، وإنى أرتجف كلما فكرت فى أننى عهدت بتربية بناتى لمثل هاتين اليدين ، ولا نزاع فى أنك أهملتهما إهمالا شنيعا »

وبدا أن المربية اعترضت على ذلك ولكنها كانت تتحدث فى هدوء فلم تستطع الفتاتان سماع حديثها

وقالت أمهما « تكلمى ، تكلمى ! كل امرأة خليعة تجد أعذارا ، وامرأة مثلك تقدم نفسها لأول قادم دون أن تفكر فى العواقب ، والله يعين ! ومن الكبائر أن تصير فاجرة مثلك مربية ، وما أحسبك تخدعين نفسك فتحسبى أننى أسمح بإقامتك فى المنزل بعد ذلك ؟ »

فارتجفت الفتاتان وهما تصغيان ، ولم تستطيعا أن تفهما فهماً كاملا ، ولكن اللهجة التى كانت تتحدث بها أمهما بدت لهما فظيعة مستنكرة ، وكان جواب الآنسة مان البكاء والتشنج ، فانحدرت الدموع من عيون الفتاتين ، وازداد غضب الأم حدة وتأججا فقالت :

« أكل ما تستطيعينه هو البكاء والنحيب! إن دموعك لا تؤثر فى ، وليس فى نفسى شيء من العطف على أمثالك ، وليس من شأنى أن أعنى بما سيصيبك وأنت، من غير شك تعرفين أين تلتمسين المساعدة فهذا شأنك الخاص ، وكل ما أعلمه هو أنك لن تمكثى فى منزلى يوما آخر » .

وكان البكاء والنحيب لايزالان جواب الآنسة مان الوحيد ، ولم تسمعا من قبل انتحاباً على هذه الطريقة . وكان شعورهما يوحى إليهما أن من يبكى مثل هذا البكاء المر لا يمكن أن يكون مذنباً ، وانتظرت والدتهما قليلا فى صمت ثم قالت بحدة :

« هذا هو كل ما أريد أن أقوله لك ، فاجمعى متاعك بعد ظهر اليوم واحضرى إلى فى صباح الغد لتأخذى مرتبك ، وتستطيعين الآن أن تنصرفى » .

وفرت الفتاتان إلى حجرتهما ، فماذا يمكن أن يكون قد حدث ؟ وما معنى هذه العاصفة المفاجئة ؟ وفى هذه الغمة المظلمة من أمرهما أخذ يتبين لهما ضوء الحقيقة واهياً ، ولأول مرة كان شعورهما شعور الثائر على والديهما .

قالت الكبرى « ألم يكن من القسوة البالغة أن تخاطبها والدتى بمثل هذا الأسلوب ؟ »

وأخاف هذا النقد الصريح الفتاة الصغرى بعض الخوف فقالت متعثرة :

« ولكن ... ولكن ... نحن لا نعرف ما صنعت » .

فقالت الكبرى « إنى واثقة من أنه لم يقع خطأ ، والآنسة مان لا يمكن أن تخطىء ، والوالدة لا تعرفها كما نعرفها نحن »

فقالت الصغرى « ألم تكن طريقتها فى البكاء فظيعة ؟ لقد تركت فى نفسى شعوراً سيئاً » .

فقالت الكبرى : « نعم كانت فظيعة ، ولكن الأسلوب الذى كانت تصيح به والدتى كان مستنكراً معيباً ! »

ودقت الأرض برجليها وفاضت الدموع من عينيها .

وفى هذه اللحظة جاءت الآنسة مان وقد بدا عليها الإعياء وخاطبتهما قائلة : لدى أعمال كثيرة بعد ظهر اليوم ، وإنى أعرف أنكما ستحسنان السلوك إذا تركتكما لنفسيكما ، وسنمضى المساء معا .

واستدارت وغادرت الحجرة دون أن تلحظ نظرات الفتاتين البائسة .

وقالت الكبرى لأختها : أرأيت احمرار جفنيها ؟ إنى لا أفهم لماذا قست عليها والدتى كل هذه القسوة ؟

وأجابت الصغرى : مسكينة آنستنا مان !

وهكذا عاد التحسر لحالة الآنسة مان فى صوت يعترضه تدفق الدموع ، وجاءت الوالدة لتسألهما أتريدان أن يذهبا معها للتنزه

فأجابتا : لا نريد اليوم يا والدتنا .

والواقع أنهما كانتا خائفتين من والدتهما وكانتا غاضبتين لأنها لم تخبرها بأنها ستطرد الآنسة مان ، وكان الأنسب لحالتهما النفسية تركهما لتخلوا بنفسيهما ، وكانتا تضطربان فى نواحى الحجرة كالعصافير الحبيسة فى القفص وقد ضرسهما بأنيابه ووطأها بمنسمه جو الزيف والصمت ، وأرادتا أن تعرفا هل تستطيعان أن تذهبا إلى الآنسة مان ، وتسألاها عن جلية الخبر ، وتخبراه أنهما

تريان أن والدتهما قد أسرفت فى الإساءة إليها ، ولكنهما كانتا تخشيان مضايقتها ، وفضلا عن ذلك فإنهما كانتا خجلتين إذ كيف يتسنى لها الحديث عن أمر كل ماتعلمانه عنه مستمد من الأحاديث المسترقة ؟ وكان عليهما أن تقضيا فترة ما بعد الظهر الطويلة المملة فى خلوة بنفسيهما مهمومتين حزينتين تبكيان من الحين إلى الحين ، مستعيدتين فى ذاكرتهما ما سمعتاه خلال الباب المقفل وغضب والدتهما القاسى ، ونحيب الآنسة مان البائس .

وفى المساء جاءت المربية لتراها ولكنها اكتفت بتحيتهما . وبينما كانت تغادر الحجرة تشوقت الفتاتان إلى الخروج من الصمت ولكنهما لم تستطيعا أن تنطقا بكلمة . واستدارت الآنسة مان عند الباب كأنما دعاها تطلعهما الصامت وكانت عيناها تلتمعان ببريق العاطفة الثارة ، وعانقت الفتاتين اللتين فاضت دموعهما وعلا بكاؤهما ، وأعادت الآنسة مان تقبيلهما وأسرعت فى الانصراف

وكان من الواضح للفتاتين أن هذا هو الوداع الأخير

فبكت إحداهما قائلة « لن نراها بعد الآن »

وقالت الأخرى « إنى أعرف ، فعند عودتنا من المدرسة غداً تكون قد ذهبت »

فقالت الصغرى « ربما استطعنا زيارتها بعد حين من الزمن وسترينا طفلها »

فقالت الكبرى « نعم ، إنها ستظل دائما عزيزة علينا »

وعادت الصغرى تقول « مسكينة آنستنا مان ! »

وبدا لهما أن هذه الكلمة الحزينة تلمح لهما بما يضمره لهما الغيب

وقالت الكبرى « لا أستطيع أن أتصور كيف نستطيع البقاء بدونها ! »

فأجابت أختها « إنى لا أطيق قبول مربية بعدها »

ووافقتها الكبرى قائلة « ولا أنا كذلك »

وقالت الصغرى « لن نجد مثيلا للآنسة مان ، وفضلا عن ذلك ... »

ولم تجترئ على إتمام جملتها ، وشعورهما الباطن بالأنوثة جعلهما تحسان نوعا من الاحترام للآنسة مان منذ عرفتا أن لها طفلا ، وكان هذا على الدوام فى فكرها وقد أثر فيهما تأثيراً بالغا

قالت الكبرى « أقول ... ؟ »

فقالت أختها « تقولين ماذا ؟ »

فقالت الكبرى « لقد خطرت لى فكرة ، ألا نستطيع أن نصنع صنيعا جميلا للآنسة مان قبل أن تنصرف لنريها تعلقنا بها ونعرفها أننا لسنا مثل الوالدة ؟ وهل تنضمين إلى

فى ذلك ؟ »

فأجابت أختها « بكل تأكيد ! »

فقالت الكبرى « تعرفين شدة حبها للورود البيض ، فلنذهب فى صباح الغد ونشترى وردات بيضاء قبل ذهابنا إلى المدرسة ونضعها فى حجرتها »

فسألت الصغرى « ولكن متى نفعل ذلك ؟ »

فقالت أختها « بعد الرجوع من المدرسة »

فقالت الصغرى « لا فائدة من ذلك ، إنها ستكون قد ذهبت . اسمعى ، سأتسلل فى باكورة الصباح قبل الفطور وأحضرها إلى هنا ونحملها بعد ذلك إليها »

فقالت الكبرى « حسن جدا ، علينا أن نستيقظ مبكرتين »

ورجعت كل منهما إلى حصيلتها من النقود ، وسرهما أنهما ستتمكنان من إظهار مدى حبهما للآنسة مان

وفى باكورة الصباح طرقتا باب الآنسة مان والورود فى أيديهما ، ولم تتلقيا ردا ، فظنتا أنها لا تزال نائمة فنظرتا من ثقب الباب ، ولكن الحجرة كانت خالية ولم ينم أحد فى الفراش ، ووجدتا على المنضدة رسالتين ، فاعترتهما الدهشة . فماذا حدث ؟

قالت الفتاة الكبرى « سأذهب توا إلى الوالدة »

وبدون أى أثر للخوف وفى تحد ظاهر جبهت والدتها بهذه الكلمات !

« أين الآنسة مان ؟ »

فقالت أمها « أظنها فى حجرتها »

فقالت الفتاة « ليس بحجرتها أحد وهى لم تذهب إلى فراشها ، ولا بد أنها غادرت المنزل فى الليلة الأخيرة ؛ فلماذا لم تقولى لنا شيئا عن هذا الموضوع ؟ »

ولم تكد الوالدة تلحظ لهجة التحدى ، حتى اصفر وجهها وقصدت إلى زوجها ، وذهب الزوج إلى حجرة الآنسة مان

ومكث بها هنيهة . وفى أثناء ذلك كانت الفتاتان تنظران إلى والدتهما نظرات غضب متجهم ، وبدا أنها عاجزة عن مواجهة هذه النظرات

وعاد والدهما أدراجه من حجرة الآنسة مان وفى يده خطاب مفتوح . وكان هو كذلك مهتاج العاطفة . وانسحب الوالدان إلى حجرتهما وتبادلا الحديث بصوت منخفض . وفى هذه المرة خافت الفتاتان من محاولة استراق السمع فإنهما لم تريا والدهما من قبل فى مثل هذا المنظر

ولما خرجت والدتهما من الحجرة رأتاها تبكى ، فأرادتا أن تسألاها ولكنها قالت لهما فى حدة « إذهبا إلى مدرستكما ، إنكما ستتأخران »

ولم تجدا بدا من الذهاب ، وظلتا ساعات فى حجرة الدراسة دون أن تصغيا لكلمة واحدة ، ثم انطلقتا إلى المنزل ، وهناك بدا أن فكرة رهيبة قد استولت على عقول من فى المنزل جميعا ، حتى الخدم كان منظرهم عجيبا ، وجاءت الوالدة لاستقبالهما وأخذت تتحدث إليهما بكلمات عنيت بتلاوتها

« إنكما لن تريا الآنسة مان بعد ذلك إنها ... » ولم تكمل الجملة فإن ما بدا على الفتاتين من مظاهر الغضب والتهديد جعل الوالدة لا تستطيع الكذب عليهما ، فتركتهما واحتمت بحجرتها

وفى عصر ذلك اليوم ظهر أوتو فى المنزل وكان أحد الخطابين موجهاً إليه وقد استدعى للحضور، وكان هو كذلك قلقا ممتقع الوجه ولم يوجه إليه أحد كلاما ، وتحاشاه كل إنسان ، وأبصر الفتاتين جالستين فى إحدى زوايا الحجرة مهمومتين فذهب إليهما

فنظرتا إليه فى فزع وصاحتا به « لا تقترب منا ! »

فأخذ يتمشى هنا وهناك لحظة ثم اختفى ولم يتحدث أحد إلى الفتاتين، ولم تتجاذبا هما أطراف الحديث ، وكانتا تتنقلان فى المنزل من حجرة إلى أخرى بغير غرض، وتنظر كل واحدة منهما إلى وجه الأخرى الذى بللته الدموع حينما يتقاطع طريقاهما ، وعرفتا فى هذه الآونة كل شئ ، وعلمتا أنهما قد خدعتا ، وعرفتا إلى أى حد تصل الضعة بالناس ، وفقدتا حبهما لوالديهما ، وأصبحتا لا تثقان بالوالد ولا بالوالدة ، ووثقتا من أنهما لن تثقا بأى إنسان بعد ذلك ، وثقل على كاهليهما الضعيفين الصغيرين حمل الحياة ، وتركتا خلفهما طفولتهما السعيدة التى لم تعرف الهم ، وانتظرتهما المخاوف المجهولة . وكان من وراء تفكيرهما إدراك المعنى الكامل لكل ما حدث ؛ ولكنهما كانتا تصارعان محتملاته المروعة ، وقربت مابينهما العزلة ولكنها كانت صحبة خرساء لأنهما لم تستطيعا تحطيم حاجز الصمت . وانقطع ما بينهما وبين الكبار انقطاعا تاما ؛ ولم يستطع أحد الدنو منهما لأن منافذ روحيهما قد أغلقت وربما امتد ذلك بضع سنوات قادمة . وكانتا فى حرب مع كل ما كان حولهما لأنهما فى يوم وجيز كبرتا ونمتا

وفى أعقاب المساء عندما كانتا تنفردان فى حجرة النوم كان يراودهما خوف الأطفال من العزلة، ويغشاهما الفزع من المرأة الميتة، وتلم بهما رهبة المحتملات المرعبة ، وكان البرد شديدا قارسا وقد أذهلهما الاضطراب الذى شمل المنزل عن جهاز التدفئة ، فلاذتا بفراش واحد وتضامتا لتتبادلا التشجيع وتستشعرا الدفء ، وكانتا لا تزالان عاجزتين عن بحث

أسباب تعبهما ، ولكن أخيرا فى تلك الآونة وجدت عاطفة الفتاة الصغيرة المكبوتة متنفسا فى عاصفة من الدموع . والكبرى كذلك أخذتها نوبة من البكاء والنحيب ، وهكذا كانت كل واحدة منهما تبكي وتنشج وهى بين ذراعى الأخرى ، ولم يكن بكاؤهما على فقد الآنسة مان أو على الجفوة التى وقعت بينهما وبين والديهما ؛ فلقد هزها توقع ماقد يصيبهما فى هذه الدنيا المجهولة التى أبصرتا حقائقها لأول مرة فى هذا اليوم ، وقد نفرتا من الحياة التى نشأتا فى ظلالها ، تلك الحياة التى بدت لهما مثل غابة ملأى بالصور التى تبث الرعب وتثير الحذر ؛ ولابد لهما من عبور هذه الغابة ، ولكن هذا الشعور بالهم والحزن أخذ يستحيل شيئا فشيئا شعورا وهميا ؛ وقلت حدة بكائهما وأصبحتا لا تبكيان إلا فى فترات متباعدة ، وهدأ تنفسهما ، وشملهما الهدوء والصفاء واستغرقتا فى النوم

علي أدهم

الطبيب الشاب

للكاتب الأنجليزي هـ-ج- بايلي

دخل مستر ريجنلد فورشن حجرة مدير البوليس في اسكتلنديارد. وقال في هدوء «إنها حلوى من الشيكولاته واللبن ، والأفضل أن نقبض على تلك العمة » وتناول المدير سماعة التليفون وتكلم في حدة ؛ ثم اتجه إلى فورشن قائلا «إنك تذكر تلك المسألة البغيضة مسألة العمة وبنت أخيها الطفلة » .

وتمتم فورشن قائلا «أوه تلك المرأة البدينة البيضاء التي لا يحبها أحد ··· إنها غير سليمة كما تعلم ··· إن في غددها الصماء بعض المرض»

وقال المدير عابسا في لهجة اقتناع « لقد نالت جزاءها ، إنها امرأة شريرة يا مستر فورشن ، ماهرة أشد المهارة » . وتثاءب فورشن قائلا « نعم إنها جد فاسدة ، وقضيتها قضية كئيبة يا بل » .

ثم تنقل فورشن في أرجاء الحجرة حتى استقر عند منضدة فرأى عليها لفة من القطن الطبي وآلة لفتح الأقفال عنوة . فسأل المدير قائلا « ما هذه التحف يا بل ؟ » .

فأجاب المدير : «إنها الأدلة في قضية ذلك الطبيب الشاب ، قضية سرقة الماس في بلومسبري ··· أظنها لم تعد جديرة بأن تحفظ ··· لقد كانت قضية كريهة ؛ ولقد أسفت لهذا الفتى . على أنها كانت قضية واضحة لا صعوبة فيها . هل قرأتها يا سيدي؟ شاب يبدأ عمله ، ويجاهد في سبيله جهادا شاقا ، وفي أشد حالات عسره يتعرف إلى رجل يقتني بعض الجواهر في شقة فيسرقها ؛ وكانت سرقة هوجاء . وهكذا حال كل شاب مستقيم ينحرف عن الجادة . إنه يفقد صوابه؛ وإن مغزى قضية الدكتور ولتن هو تلك العبارة: يا إلهي نجنا من الغواية . إنه لم يتجاوز الثلاثين من عمره ، وهو ماهر كيس؛ وقد كان خليقا أن يسير في حياته سيرا موفقا . لقد قضى على نفسه . ولو أنه كان يملك مائة جنيه فحسب لاستطاع أن يمضي قدما في سبيله»

فقال ريجنلد فورشن مرددا تلك العبارة المأثورة التي يحبها « إن كثيرا من الجرائم نتيجة طبيعية محتومة » ثم قال « إني لم أقرأها يا بل ··· كيف سارت القضية سيرها ؟ » وجلس وأشعل دخينة .

فقال المدير «كانت المحاكمة في صحف

الصباح يا سيدى . ولم تـكن سوى أمر هين . لقد عاد الدكتور هوراس ولتن من الجيش ومعه قليل من المال ، وبدأ عمله متخصصا فى بعض الأمراض ، وكانت عيادته فى حجرة صغيرة خاصة ، كانت إحدى ثلاث حجرات أو أربع استأجرها آخرون فى شقة بشارع هارلى ، وكان يقطن فى شقة بشارع بلومسبرى ؛ فماذا كان من أمره ؟ لم يأت إليه مرضى ، ولم يكن له أصدقاء وأخذ يقل ماله القليل » .

وأومأ ريجنلد فورشن أو (رجى) كما كان يدعى قائلا : « ياله من مسكين » واستأنف المدير حديثه قائلا :

وحدث أن جاء تاجر ماس هولندى يدعى وت فسكن فى شقة تجاه شقة ولتن ؛ وقد عرفه ولتن إذ وصف له دواء للبرد أو غيره ، وأقبل وت على الطبيب وصادقه ، واستمع إلى متاعبه ، وعرض عليه أن يجد له عملا فى شركة هولندية ، وأهدى إليـه قطعتين أو ثلاثة من الماس ، وهى طريقة كيسة لمنحه بعض المال كما أظن .

وحدث بعد ذلك ذات صباح أن دخل خادم الشقق حجرات وت فوجده فى سبات عميق ؛ فلقد أنشق الـكلوروفورم ثم وجدت هذه اللفة على مخدته » .

وتناول رجى الصندوق الذى كان يحتوى على آلة فتح الأقفال ولفة القطن الطبى .

فقال مدير البوليس « لا تهزه ... أترى بقايا الطباق هذه ؟ إنها ذات أهمية . لقد فتح الدرج الذى كان يضع فيه وت ماساته عنوة واختفت منه الماسات . واستدعى وت البوليس ، والآن هل ترى هذا الدخان على لفـة القطن ؟ لقد استرعى اهتمام مفتش البوليس ، فإن هـذه اللفة قد تناولتها حتما يد رجل يدخن هذا الدخان . وأكبر الظن أنه وضعها فى نفس الجيب الذى وضع فيـه الطباق ... دليل نادر أليس كذلك ؟ وأطلع مفتشنا وت على ذلك ولشد ما ارتاع وت ؛ إنه دخان من جنوب أفريقيا كما ترى ، وإنه ليعلم أن ولتن يدخن هذا الطباق . وكان بعض منه متناثرا على أرض الحجرة كذلك»

وسأل رجى وهل أحضر ثم ذلك البعض المتناثر؟ » .

فقال المدير: لا ... لست أظن أنه أحضر ، ولـكن رجلنا رآه وهو مصدق ، وحضر أثناء البحث أحد الصحفيين الهولنديين ، وكان قد عاد من إنجلترة ، وقرر أنه جاء لزيارة وت الليلة الماضية فى ساعة متأخرة ، ولـكنه لم يستطع أن يسمعه أنه بالباب فأدهشه ذلك لأنه رأى أثناء صعوده السلم شخصا يخرج من حجرات وت ورآه يدخل شقـة ولتن . وكان هذا كافيا لأن يستند إليـه

البوليس فى تصرفه ؛ فقبض على ولتن وفتشت شقته ، ووجدت الماسات وآلة الفتح مدسوسة فى حشيــة أحد المقاعد . وحوكم بالأمس ، ولم يدافع عن نفسه ولـكنه أقسم أنه لا يدرى من هذا كله شيئا . وكانت الأدلة واضحة . وتقدموت ، وهو لا بد رجل على جانب عظيم من الرأفة ، فحاول أن يخفف عنه بكل ما فى وسعه ، وتوسل إلى القاضى أن يترفق به . ولـكن بوروديل العجوز قضى عليه بخمس سنوات ؛ وهو حكم صارم . على أن القضية فى ذاتها ستقضى على مستقبل الشاب ، ذلك المسكين ... قضية سيئة يا سيدى أليس كذلك ؟ ضرب من السرقة الهوجاء المنطوية على نـكران الجميل. ولـكنه كان يستطيع أن يعيش أمينا لو أنه كسب من عمله ما يقيم به أوده » .

ولم يجب مستر فورشن ؛ فلقد كان ينظر إلى آلة الأقفال . ثم إنه وضعها أمامه وأخرج منظارا مكبرا ورفع الصندوق نحو الضوء ونظر مقطبا فى لفة القطن .

فسأله بل قائلا: ماذا؟ أى شىء تراه فى هذا ؟

فأجاب مستر فورشن وهو لا يزال يفحص لفة القطن قائلا « آلة الأقفال هذه ، لماذا كانت من صنع ألمانيا ؟ لماذا يستعمل الدكتور هوراس ولتن وهو من شارع هارلى بلومسبرى مفتاحا كهذا صنع فى سولنجن ؟ »

فقال بل « سيدى ، إنك لا تستطيع أن تعرف كيف يحصل المرء على أداة كهذه . إنها تنتقل من يد إلى يد ، أليس كذلك ؟ »

وأجاب رجى « يد من ؟ ولماذا يقطع مفتشك المجرب أن هذا من دخان جنوب أفريقيا ؟ إن فيه مشابهة له ولـكنه فى الواقع من ذلك النوع الفظيع الذى يبيعونه فى ألمانيا ويسمونه روخ ــ تباك » .

وأخذت الدهشة بل وقال « هذا عجيب يا سيدى ــ ألمانى أيضا ؟ »

فقال فورشن : إنك تستطيع أن تشترى بضاعة سولنجن خارج ألمانيا ، وكذلك الدخان الألمانى ، من هولندة مثلا .

فأجاب بل : لست أفهم ماذا تريد أن تذهب إليه يا سيدى .

فقال فورشن: أوه.. إنى أظن أن مسألة الطباق كانت خطأ ... وإنى أظن أنه لم يكن ثمة من داع لأن يذكر الطباق قط ، ولـكن لسوء حظ الدكتور ولتن قد اتخذ منه مفتشك المحنك دليل إدانة ذلك المسكين وسبيل وصمه إياه .

وبدا على المدير عدم الارتياح وقال « نعم يا سيدى ، إن هذا ما لم نـكن نحب أن يحدث ... ولـكن القضية مع ذلك لا تدور على الدخان ، فهناك الرجل الذى أقسم أنه

رأى ولتن يغادر شقة وت ، وهناك ما كان من وجود الماسات فى حجرة ولتن ؛ إن الأدلة واضحة من غير الدخان » .

فقال فورشن : إنى أعلم ذلك ؛ قلت إن الدخان مسألة ليست بذات بال ؛ وهذا هو ما يهمنى منها . إننا نعلم أن ولتن لا يستعمل (روخ ـ تباك) ، ومع ذلك فهذا النوع موجود على لفة القطن ؛ مما ينهض دليلا على أن هناك شخصا آخر فى القضيــة ، شخصا يتذوق ما هو ألمانى ، من قبيل ذلك الشخص الذى يحب أن يستعمل مفتاحا ألمانيا .

وأجاب (بل) فى تؤدة: «ليست هناك قط أية علامة تدل على أن ولتن له شريك ، ولـكن ذلك ممكن بالضرورة »

ونظر إليه مستر فورشن نظرة عطف وقال بل « ياصديق العزيز.. لابد أنك ترى الدنيا شيئا عظيم الغرابة ؛ كلا إنى لا أتجه إلى وجود شريك ، ولـكنى أظن أنه يجب أن أتجه إلى تاجر الماس والصحفى ، وأحب أن أسألهما أيهما يدخن (روخ ـ تباك) . »

وتنهد بل ثم قال « يجب أن يكون ثمة بحث . إنى أفطن إلى ذلك ياسيدى ، ولـكنى لا أرى هذا مما يفيد ذلك الطبيب المسكين أية فائدة ، ثم إن البحث أمر غير حميد الآن بالنسبة لإدارتنا هذه . »

وابتسم له رجى ثم قال « صورة تاريخية للرجل الرسمى.. بين جانبه الرسمى وبين جانبه الإنسانى صراع ! يا لك من مسكين يابل . »

* * *

فى آخر ذلك الأسبوع استدعى مستر فورشن إلى اسكتلنديارد . وهناك وجد مستر سدنى لومس رئيس قسم التحقيقات الجنائية يتشاور مع مستر إدس أحد القانونيين من رجال الهيئة العليا لهذا البوليس .

وقال فورشن مبتسما « ها أنت ذا يالومس: كيف ترى الدنيا ؟ الحياة جد لا عبث .. أليست كذلك يالومس ؟ »

ووضع السيد الموقر سدنى لومس منظارا على أنفه وعبس له قائلا « لست رجل أمن يا فورشن.. أنت مهيج ولا بد من اعتقالك صونا للأمن . »

وقال إدس فى قطوب.. « أما أنا فأميل إلى أن أسميه مقلق إدارات ! »

وأجاب فورشن: إنى إذ أشكر كما ، أسأل ماذا تشكوان منه ... إن دخينة من دخائنك الضخمة لن تحدث لى ضررا يا لومس . ثم تناول دخينة من صديقه .

وقال إدس « إن قضية ولتن كانت قضية مقنعة جدا حتى تدخلت فيها ؛ ثم إنها قضية حكم فيها »

وأجاب رجى عابثا « والآن ترونهـا لم يقض فيها ، ما أجمل ذلك منكما وما أشده

حتما لسكما على الجد ! »

وقال لومس فى حدة « إنها الآن تبدو ضربا من الجنون ··· إنها كابوس الليل »

وأجاب رجى فى جد عابس « أجل ··· أجل ··· أكاد أقول إن ذلك هو ما يراه الدكتور ولتن . ومهما يكن من شىء فقولا ماذا ذهبتم إليه ؟ »

فقال إدس « إنك على صواب فيما يتصل بالدخان ، خيرك الله . وكذلك فيما يتصل بالمفتاح فكلاهما من صنع ألمانيا فهلا أخبرتنى ماذا يعنى ذلك ؟ »

فأجاب رجى « إن سؤال صديقى الموقر أجدر أن يوجه إلى السيد وت والسيد جيرار ، وإنك لترى أن هـذا أشبه بحال أليس فى أرض العجائب : الحكم أولا ثم التحقيق ! لم لم تدرس القضية قبل أن تحققها ، وبذلك كنت تستطيع أن تناقش وت وجيرار وهما تحت يدك رهن التحقيق ؟ »

فأجاب لومس « لا يمكننا أن نسألهما الآن على كل حال فقد اختفيا ··· غادر وت شقته يوم المحاكمة ، وغادر جيرار الفندق فى نفس الليلة ، وقل كلاهما إنهما عائدان إلى أمستردام ، وهاهو ذا ما أفاد به البوليس الهولندى : لم تفهم برقيتكم المؤرخة ٢٧ من هذا الشهر ؛ لا يعرف أحد بهذه الأوصاف فى أمستردام، ولا يمكن أن نترصد القادمين »

وأجاب رجى : حسن .. حسن . . قوة بوليسنا الذكية العاملة ··· إن فى القضية ما يلذ . أليس كذلك يا لومس أيها الرجل القديم ؟ »

وأثبت إدس فيه نظره وسأله « ماذا تريد أن تقترحه يافورشن ؟ »

فقال فورشن «أريد أن أبين بطلان الأدلة بل فراغها فراغا مطلقا من أية قيمة »

وأومأ إدس قائلا : هذا مسلم به . إن هذه الأشياء جميعا غير مقنعة ؛ فالدخان من حيث أنه دليل إدانة هو فى صالح السجين ، وقد اختفى بعد المحاكمة أهم من تقدموا للشهادة ضده مما يحيط أمرهم بالشك ··· على أنه بقى بعد ذلك تلك الحقيقة : ألا وهى وجود الماسات فى حجرة السجين

فتبسم رجى قائلا : أوه ··· أجل وضعها هناك شخص ما

فقال رجل القانون : دعنا نسمع رأيك صريحا ، هل تعتقد أن هـذه القضية التى ذهب ضحيتها الدكتور ولتن قد دبرها أولئك الذين اختفوا ؟

فقال فورشن : هـذه هى الفروض الاحتياطية ، لأنه ما من شىء آخر يفسر الوقائع . لقد استعملت أشياء ألمانية وليس ما يصل بين ولتن وألمانيا ؛ وقد حضر تاجر الماس إلى حيث كان يقطن ولتن فعلا ،

وتلمس سبيل التعرف إليه ؛ وانبعث صديق التاجر فجأة وجاء فى اللحظة الدقيقة ليدلى ببرهان كان لابد منه ؛ وحين يطمئنان إلى أن ولتن قد أدخل السجن يختفيان ، ولا يبقى مما نعرفه عنهما إلا أنهما ليسا كما زعما أول الأمر ... لذلك فالافتراض الوحيد الذى يتفق مع هذا كله هو أن هذين أرادا أن يضعا ولتن حيث هو الآن ... هل من اعتراض لديك على هذا يا إدس ؟

فقال إدس : إن هناك اعتراضا واحدا ، وهو أن نظريتك تفسر كل ما حدث ولكنها لا ترينا قط لماذا حدث أى شئ من هذا ، أعنى أنه تفسير يجعل القضية أكثر غموضا الآن منها فى أى وقت مضى . إنا نستطيع أن نفهم أن يسرق ولتن الماسات ولكن لا يستطيع أحد أن يفهم لم يريد أن يدخله هذان الرجلان أو أى امرئ غيرهما السجن

فقال فورشن : أوه — ياصديقى هكذا تبلغ من القانون مبلغا عظيما . إن ما غاب عنك علمه لا يعد معرفة . إنك لا تدرى لماذا يراد أن يبعد ولتن من الميدان ، ولست أدرى أنا كذلك ؛ ولكن ...

فقال إدس فى تأكيد : ولم يدر ولتن كذلك . إنه لم يشك فى هؤلاء ؟ ولم يتبين بين دفاعه أن له أعداءا . إنه أنكر أى علم له بهذه السرقة ، ولقد أصر محاميه على أن اللص الحقيقى أخفى الماسات فى حجرته لأنه بوغت وخوف

فقال لومس : أجل .. إن ذلك رأى متهافت كما ترى ... أف لهؤلاء المحامين .. أف لهم يا إدس .. قوم ثقلاء

فأجاب إدس : إننا لا نهتم إلا بالبراهين

فقال فورشن : ولماذا لاتستعملونها إذن ؟ لقد كان ذلك الرجل وت ممتعا جدا فى ساحة المحكمة حين قال إنه بدافع الرأفة قد عرض على ذلك الطبيب الذى ينكر الجميل عملا فى شركة المستعمرات الهولندية ؛ وهى على بعد كبير من إنجلترة كما تعرف ياإدس. ولم يشأ ولتن أن يقبل ذلك . وعلى ذلك كان لابد من إجراء آخر

ونظر إليه إدس مفكرا ثم قال : إنى أوافق على أن ثمة شيئا فى هذا ، ولكن لماذا ؟ إنا نعرف أحوال ولتن جميعا . لقد كان حتى الآن حسن السيرة ، فكان فى المستشفى وفى الجيش وفى عيادته الخاصة مستقيما موثوقا به ، فلماذا يوجد له أعداء لا يألون جهدا حتى يلقوا به بعيدا عن طريقهم ؟ إن رجلا فى عصابة من المجرمين أو فى جماعة من الثائرين خليق أن يجد أحيانا من يكيدون له ليعاقبوه أو ليتقوا أن يخونهم ، ولكن ذلك لا يمكن أن يكون حال ولتن ، فإن حياته واضحة عادية . إنه

قد يكون للمرء أعداء شخصيون ولكنى لست أذكر مثلا لذلك غير هذه القضية

فأجابه لومس : أوه ... نعم هناك مسألة بكثر ؛ ولقد كنت أعتقد أبدا أن هذا هو الدافع إلى مقتل برندن

وقطب إدس قائلا : نعم ؛ كما تقول ولكن ولتن لم يشك فى مؤامرة كيدية ، وليس يعلم أن له أعداء

فقال رجى : كلا ... إنى أميل إلى القول بأن ولتن لا يدرى ماذا يعلم . هب أنه وقع عن غير قصد على بعض الأدلة ضد وت أو بعض أصحاب وت ، فإنه لا يدرى ما فى ذلك من ضرر ، ولكنهم يدرون

فقال لومس : لقد قتل أناس فى ظروف كهذه ولم يعلموا لم قتلوا

فصاح إدس : إن هذا ممكن لاريب ، ولكن هذه الأقوال تذهب هباء فليس ثمة ما أستند إليه

فقال رجى : لست أرى رأيك ... إنك كثير التواضع

وهز إدس كتفيه قائلا : ربما كنت كذلك ، ولكنى لا أستطيع أن أوصى بمراجعة الحكم فى قضية ولتن بناء على فروض

فصاح رجى قائلا : «سحقا للمراجعة . . إنى أريد أن يطلق سراحه »

فحملق فيه إدس ثم قال محتجا : «ولكن هذا شئ خيالى»

فقال رجى « أريده حرا بريئا .. يا إلهى .. فكر فى هذا المسكين ! كيف يغدو فى عداد المجرمين لأن أولئك الأوشاب الصعاليك رأوا وجوده غير ملائم لهم .. إنك إذا خففت عنه الحكم فحسب فإنما تقترف إثما آخر ... إنه يريد منك أن ترد عليه حياته »

فتنهد إدس قائلا : إنها قضية تعسة ، ولكن ماذا أستطيع أن أصنع ؟ إنى لا أستطيع أن أعيد إلى المسكين شخصيته . إننا حتى لو أطلقنا سراحه سنجده رجلا قد تحطم

فقال رجى فى رفق : يا زميلى العزيز ، هذا ما قلته ؛ وهناك نقطة أخرى ، ماذا يدفع مستر وت حتى يهتم مثل هذا الاهتمام ؟ ذلك ما يمكننى أن أعرفه

فأجاب إدس : ليس هذا من شأنى ، ولكنك لا تزال ترسل كلامك فى الهواء يا فورشن ، ماذا تريد أن أفعل ؟ يجب أن أفعل شيئا

فقال فورشن : هذا أمر مؤلم لكل رجل رسمى خير . إنى أرثى لحالك وكذلك يفعل لومس أكثر منى . أليس كذلك يالومس؟ ولست واثقا من أنك تستطيع أن تصنع أى شئ فى هذا الأمر

ثم اضطجع مستر فورشن وراح يدخن

سيكارته ويفكر

وتكلم إدس قال : إنك يا فورشن خير من يعيننى .

وقال لومس : الحقيقة التى أمامنا هى أن جميع الأدلة ضد ذلك الرجل قد ثبت بطلانها ويجب أن نواجهها . وخير أن تطلق سراحه يا إدس

وشهق إدس قائلا : لومس يا عزيزى ، لست حقا أستطيع أن أوافقك ؛ إن الدليل الوحيد الذى ثبت بطلانه هو الدخان ولم يكن جوهريا ؛ ويحيط الشك بالأدلة الأخرى ، ولكنا لا نستطيع القول بأنها باطلة ، ولقد أقنعت القاضى والمحلفين ؛ ولم تسبق سابقة فى حالة كهذه بتخفيض الحكم حتى يصبح كأنه لم يكن !

فقال لومس : لست أنظر فيما يعترضك من صعاب ؛ وإنما أرمى بذلك إلى معرفة ماذا وراء (وت) من سر

وانبعث رجى من تفكيره وتدخينه قائلا: أخرج ولتن وضعه تحت المراقبة ، ثم انظر ماذا يفعل وت وشركاؤه . لا بأس : إنها إحدى الطرق ، ولكنها مقامرة

فأجاب إدس : « وهى كذلك خارجة عن الموضوع

فالتفت إليه رجى قائلا : ما عملك على وجه التحديد يا إدس ؟ هل لى أن أعرف ما هدف وجودك المبارك ؟ فنبهه إدس فى برود إلى أنه ليس ثمة من ضرورة تقضى بأن يفقد الإنسان صبره

ورد فورشن بقوله : كلا ... لست غاضبا ؛ وإنما أنت تحير عقلى الساذج . لقد ظننت أن عملك هو أن تتحقق من العدالة إذن فامض فى سبيلك

فأجاب إدس وقد احمر وجهه : هلا تكرمت فذكرت ماذا تقترح ؟

فأجاب فورشن : سوف تقول إن ذلك لم تسبق به سابقة . . لا بأس . دونك رأيى الضعيف : أخبر الدفاع بالدخان ، وقل إن ذلك يكفى سبباً لأن ترفع القضية إلى محكمة الاستئناف . ثم أفض إلى الصحافة بأن هناك شكا حول إدانة الدكتور ولتن و ... واحتمالا بإعادة النظر فى القضية وكلاما آخر من هذا القبيل ، كلاما طناناً محاطاً بالغموض ، مما يجعل الصحافة تنشط فى الحديث عن قضية ولتن. والتفت فورشن إلى لومس باسما وهو يقول «ألسنا نستطيع أن ندبر ذلك يا لومس ؟ » .

فأجاب لومس : لقد فعلنا مثل ذلك من قبل .

وصاح إدس قائلا : يا إلهى ، إنى لا قبل لى بما يستدعى أية صلة بالصحافة .

فقال فورشن متهكما : بوركت نزاهتك

الرائعة ، سوف ندبر الأمر ، وليس يعنينا ماذا تقول الصحافة ما دامت ستثير ضجة حول الموضوع . إن ذلك سوف ينبه وت ومن معه وسنرى ماذا يكون .

وبدت على إدس الحيرة والارتياع ثم قال فى جد : أظن أنه من الجلى أن يخبر الدفاع بما كان حول الدخان حتى يمكن استئناف الحكم ، ولكنى لا أستطيع أن أسوغ شيئا غير هذا بالضرورة .

فقال لومس مبتسما : هذا صحيح يازميلى العزيز ، ما من أحد يسوغ هذه الأشياء ، وما من أحد يفعلها ، إنما هى تحدث فحسب

وخلص الرجلان من إدس وقال رجى وكأنما يئن : وطنى ... أوه ، ياوطنى..مثل هذا النوع من الرجال يحكمونك !

***

بعد ذلك بيوم أو يومين فى أحد أصباح أبزيل ، كان مستر فورشن أمام سجن برنستون ، ودق الباب وهو يرتعد من البرد ؛ حتى إذا فتح له قصد مسرعا إلى محافظ السجن يطلب منه الإذن بأن يلقى الدكتور ولتن .

فقال المحافظ وهو يهز رأسه : لست أظن أنك ستفيد كثيراً من لقائه ، فقد فقد الرجل رشده فيما يبدو ، وإن كل رجل مثله كان يشغل مكانا طيبا خليق أن يصير إلى ما صار إليه إذا ماجىء به إلى هنا ، ولكن الدكتور ولتن مسرف فى يأسه وتألمه ، وحين أخبرناه أن فى الأدلة نقصا ، وأنه يمكن استئناف القضية لم يبد أى اهتمام بذلك ، وبدا عليه مايبدو دائما من البلادة والحزن . وكل ما فاه به قوله : « وما فائدة ذلك ؟ لقد قضيتم على » .

فتنهد رجى قائلا : يا له من مسكين تعس

فقال المحافظ وفى وجهه الشك : ربما كان كذلك ، فقد لا يستطيع المرء أن يحكم على خلق سجين من أيامه الأولى فى السجن ، ولكنى عرفت أشخاصاً طالما أظهروا لى أكثر مما يظهر هذا ، ما يجعلنى أصدق أنهم أبرياء .

وأدخل الدكتور ولتن على الرجلين وكأنه بقية رجل فى ملابس السجن . ونظر فورشن إلى وجهه الذابل الشاحب ومد إليه يده فلم يفطن إليها ، وقال فورشن : «اسمى فورشن وقد جئت من اسكتلنديارد . لقد اكتشفت ما حدث من خطأ فى الدخان ، وقد جعلنى ذلك أهتم بقضيتك كل الاهتمام ، ويقينى حسبما أشعر أننا لم نعرف وجه الحق فيها بعد ، وإذا أنت أعنتنا على معرفة ذلك فإن فى ذلك عونا لك » .

فقال ولتن : لن يستطيع البوليس مساعدتى ولن أقول شيئا .

فقال فورشن : اسمع يابنى العزيز ؛ إنى أعلم أن المسألة مكيدة خبيثة ، ولكن هناك كثيراً غير هذا يتطلب البحث ، فإذا أتيحت لنا فرصة فربما استطعنا أن نجلو القضية كلها ، ونجعلك تقف ثانيا على قدميك ، وهذا ما جئت من أجله .

فضحك ولتن قائلا فى انشراح : كلا . شكراً لك .

وعاد فورشن يقول : فكر فى الأمر فقط . ... إنى لا أستطيع أن أحدث لك الآن ضرراً . إنى أبحث عن الحقيقة ، وأنا فى جانبك . هل لك أعداء ؟ ذلك كل ما أريد معرفته . هل هناك من يهمه أن يحطمك ؟ أو من يريد أن يزيحك من الطريق ؟

فقال الطبيب الشاب : البوليس ليس غير

فأجاب رجى يمحو ذلك : أوه ... يا بنى العزيز ؛ هل حدث لك أى شىء لا يسرك قبل هذه التهمة ؟

فصاح ولتن وقد صعد الدم إلى وجهه الشاحب : ماذا ؟ ماذا تقول ؟ أوه ، هأنذا أرى . إنى مجرم قديم ، أليس كذلك ؟ خير لك أن تنظر فى سوابقى ، وتستطيع أن تخترعها ، هذا سهل جدا

فقال رجى فى نبرة حزينة : ماذا يفيدك هذا يا بنى العزيز ؟ إن البوليس لم يخترع هذه التهمة . إن صديقك مستر وت هو الذى صنعها . أتعلم شيئا عن مستر وت ؟ هل خطر ببالك قط أنه أراد أن يزيحك من سبيله ، إما إلى المستعمرات الهولندية وإما إلى السجن ؟

فقال ولتن : ليس فى نفسى شىء ضد وت .

فتنهد فورشن قائلا : أوه ... يا صديقى العزيز وكيف جاءت الماسات إلى حجرتك؟

فأجاب ولتن فى توحش : أجل ... كيف جاءت ؟ اسأل مفتش البوليس . اسأل مفتشكم الذى قال عن الدخان ما قال . أنت رجل بوليس وتعرف كيف تدبر هذه الأشياء

فقال رجى وهو يتنهد فى عمق : آه ليتنى أعرف . لو أنى عرفت ما كنت أنت هنا .

ولم يستطع فورشن أن يعود بشىء أكثر من هذا من مقابلته ولتن ، فخرج غضبان أسفا . ولما لقى لومس فى الصباح التالى لم يكن قد استرد هدوء نفسه . وكان لومس متطلعا إليه فى تحمس فقال : « أقبل فإنك الرجل الذى أطلب الساعة ، ماذا كان رأى السجين ؟ »

فهز رجى رأسه قائلا : لومس ! هل رأيتنى قط يداخلنى بعض الغرور بسبب ما لشخصى من أثر حسن فى النفوس ؟ شأنى فى ذلك شأن من يحس أن ليس فى الناس من يستعصى عليه ؟

فأجابه لومس : لم أر من سلوكك ما يسيء يا فورشن ، ربما كان فى غرورك شيء صبيانى قليل . وإنك معجب بنفسك ألست كذلك ؟

فقال رجى فى لهجة من لا يريد أن يمزح : دعنا من هذا الهراء يالومس . إذا شعرت ثانية بما لشخصى من حسن الأثر فى النفوس فاذكر اسم ولتن . لم أرك فى نفسه أى أثر ، ورأيته عصبيا .

فقال لومس فى جد : إنك تدهشنى ... ألم تعد منه بشيء قط ؟

فتنهد رجى قائلا : كثير جدا ... كثير جدا . إنه كئيب ، متجهم ، غبى . هذا ما أصف به صاحبنا الدكتور ولتن ذلك المسكين . لقد راح يقول إن البوليس هو الذى دبر كل هذا ، وإن المفتش هو الذى وضع الماسات فى حجرته . . . لقد فقد المسكين صوابه وأصبح كالطفل الذى يركل الكرسى الذى اعترض سبيله .

فقال لومس : لقدانتحر المفتش يافورشن ، لقد استدعيناه كما تعلم لنستوضحه ، فكان مضطربا متهيج الأعصاب ، ولما عاد إلى منزله قتل نفسه .

فملق رجى فى محدثه وأخذ يهتز فى مقعده من الدهشة . واستأنف محدثه قائلا : لم يكن ثمة شيء قبل هذا ضده ؛ وليس الآن إلا مسألة الدخان . ألا إنه فعل شيئاً نكراً

فقال رجى : إذا كان الدخان سبب انتحاره ، فإن شعوره بوخز الضمير هو أقوى مما يكون عليه رجل البوليس . إنه ليس شيئاً نكراً كما تقول . إنه جدير بالرثاء . يا إلهى إذا قتلنا أنفسنا بسبب أخطائنا فمن يبقى فى البوليس ؟ لقد ذكر ولتن المسكين أن المفتش وضع الماسات فى حجرته ، ولكن هذا ضرب من الهذيان .

فأجاب لومس : إن المسألة كلها هذيان ، فها أنت ذا تتخبط يافورشن . إنك تقول إن انتحار المفتش بسبب الخطأ هذيان ، وتقول بإشارتك إلى الماسات ورأى ولتن فيها إن افتراض سبب آخر لانتحاره هذيان .

وتمتم رجى قائلا : أيها المسكين ... أيها المسكين ... لم أتخبط يالومس وإنما أنا مغضب ، فإن ولتن غير مذنب ، ومفتشك غير مذنب . ومع ذلك فأحدهما فى السجن والآخر قتل نفسه ، ونحن نسمى أنفسنا رجال بوليس ... أغلقت الحظيرة بعد أن سرق الحصان . هذا هو عملنا كما أظن ، ويا ليتنا أغلقنا الحظيرة حتى بعد أن سرق الحصان .

فقال لومس : لست مغضباً فحسب وإنما أنت مهتاج ، ماذا يمكن أن نفعل ياصديقى فورشن ؟

فسأل فورشن: ألم يظهر شيء عن وت؟

فقال صاحبه: كلا. إلا إذا كانت له يد في انتحار المفتش

فسأل فورشن: وهل توقن أن المفتش انتحر؟

فقال لومس: خير لك أن تذهب فترى الجثة فإن الدليل مقنع تماما.

فسأل فورشن: أليس في الصحف شيء؟

فقال لومس: كلام كثير بالضرورة، ولكني لا أنتظر أدلة من الصحف.

فقال رجي: إنك دائما لا تقدر الصحف حق قدرها يالومس.

وذهب فورشن فرأى جثة المفتش في المشرحة، ثم عاد وفي وجهه أمارات التفكير العميق

فسأله مدير البوليس بل، وقد كان في توديعه: أأنت مقتنع ياسيدي؟

فأجاب فورشن: مقتنع؟ قل إني محنق، فهذا ضحية أخرى للسيد وت وشركائه. ثم اتجه إلى لومس وقال إني ذاهب إلى منزلي لأنظر ماذا في الصحف.

وجلس مستر فورشن في بيته يقرأ الصحف وقد ذهب مذاهب شتى في التعليق على القضية، وأشارت معظمها إلى أن في الأمر سرا، وكانت كلها إلا صحيفة واحدة تعطف على الدكتور ولتن.

كانت هذه الصحيفة المسماة (ديلي وتشمان) تعطف أول الأمر كزميلاتها على ولتن، ثم انقلبت في اليوم الرابع تحمل عليه فراحت تحت عنوان: «فضيحة ولتن» فكتبت تحذر القراء مما يصطنع من عطف يقصد به أن يؤدي إلى الإفراج عن ولتن، فهي حيلة من حيل السياسيين ورجال الثقافة الحديثة لحماية مجرم من العقاب، وهي صورة جديدة للدعوة إلى سن قانون للأغنياء وآخر للفقراء، وهي مؤامرة دنيئة يدبرها أصدقاء مذنب لص، هم من ذوي المكانة، وعلى الشعب أن يقف مجتمعاً في وجوههم، إذا أراد ألا تروع البلاد كل ليلة بمثل هذه السرقة الشنيعة.

وذهب مستر فورشن ليتمشى في نادٍ يجتمع به عادة عدد من رجال الصحافة، وأخذ يسأل صديقا له هناك عما إذا كان يعرف من كتب ذلك الكلام في صحيفة ديلي وتشمان، وتعجب الصديق من شدة اهتمام فورشن بهذا الأمر، ولكن فورشن أظهر له أنه قد استوقفه انحراف الصحيفة عن وجهتها الأولى ليس غير، فأراد أن يفهم سر ذلك.

وفي اليوم التالي حمل البريد إلى مستر فورشن رسالة قصيرة عليها توقيع س. و، يقول فيها مرسلها إن الذي كتب ذلك الكلام في تلك الصحيفة رجل يدعى كمب،

وإن له صـــلة جديدة برجل حديث عهد بالنعمة فى المدينة يدعى كويبر .

وذهب فورشن إلى حى من أحياء التجارة فى المدينة فصادف صاحباً له من التجار يدعى توماس أوين ، فسأله هل تعرف رجلا اسمه كويبر ؟ فقال صاحبه إنه يعرف رجلا يحمل هذا الاسم يقول إنه يبيع جواهر وحليا من روسيا ، وهو نحيف يبدو عليه الـكبر ذو لحية قصيرة مدببــة ، أنيق الملبس ، يتكلم الإنجليزية فى طلاقة ، ويقول إنه هولندى .. وأردف توماس قائلا : وتســتطيع أن تراه بنفسك فإن له مكتبا هناك فى المبنى الجديد فى مودلين لين .

وكان مستر فورشن يجمع شتات فــكره وهو فى طريقه إلى منزله ، وعجب إذ وجد كويبر الذى يحيــط به الغموض يزعم أنه هولندى ، ووت الذى اختنق يزعم كذلك أنه هولندى ، وقال وت إنه تاجر حلى ، كما قال كويبر إنه كذلك تاجر حلى ! ولما بلغ المنزل كلم لومس فى التليفون يطلب إليــه مراقبة جوليوس كويبر فى مودلن لين وأن يناط بذلك رجال مجربون يقظون .

ونم صوت لومس حتى فى التليفون عن الدهشة وهو يكرر قوله « كويبر ؟ كويبر؟ » ثم قال : ما المناسبة وما العلاقة يافورشن ؟ قضية ولتن ؟ هل قلت جوليوس كويبر ؟ ولـكنه من رجال السياسة . إنه بولشفى »

وأحس رجى كذلك بشىء من الدهشة ولـكنه لم يبده وقال : بعض رجالك الذين عملوا من قبل فى أوساط إجرامية جريئة . أسرع أبها الشىء القديم .

وفى صباح اليوم التالى دق جرس التليفون فى بيت فورشن ، وكان المتكلم لومس وأخذ يقول : « أأنت فورشن ؟ مســتر فورشن العظيم ؟ إنى أتجه بقلبي نحوك ياريجنالد وإنى أحنى رأسى لك ... هلم إلينا هلم » .

ورحب به فى مقر البوليس صاحباه ، بل ولومس ، وبالغا فى السخرية منه فى مزاح عابث ، وقال لومس « إنك تبلغ الغاية بينما نكون فى أول خطوة » وأجابهما فورشن بقوله « كفى ... كفى . خبرنى يالومس من كويبر هذا ؟

وقال لومس : حسبنــا أنك أنت الذى تخبرنا عنه ... ولـكن وا عجبا ماذا جعلك تجرى فى أثر كويبر هذا ؟

فأجاب فورشن : إنه يزعم أنه هولندى ، وكذلك يزعم وت ، وهو يبيع الحلى وكذلك يبيع الحلى وت . ولقد ألقى فى روعى أنه هو الذى وجه صحيفة ديلى وتشمان لتنبح نباحها كى يبقى ولتن فى السجن

فقال لومس : إذا فسرت لنا ماذا يعنى ذلك فلك شكرى .

فأجاب فورشن فى هدوء : ليس فى ذلك معنى ... إنى أعرف ذلك . إلى الجحيم بهذا كله .. ينبغى أن تفعلوا شيئا لأنفسكم . برروا وجودكم ... هلا أخبرتنى يا لومس من هو كويبر ؟

فأجاب لومس : قد وضعه قسم السياسة تحت المراقبة زمنا ... وقد كان يبيع حليا روسية . وهم يعتقدون أنه بلشفى

وتمتم رجى قائلا : هذا لا يفيدنا شيئا .

فقال لومس : لا ... ألا ترى من ذلك ماقد يكون من علاقة بين وت والبلشفية ؟ ألا إنى أراك تصيد فى غير صيد يا فورشن

معذرة فلم يعرف أحد من رجالنا كويبر . ولكن واحدا منهم عرف وت ، وإن وت هذا يعمل فى مكتب كويبر ...هذا مدهش يا ريجلند . كيف فعلت ذلك ؟

فصاح رجى فورشن قائلا : واراسى .. أوه ... وا رأسى ... كويبر وسيط بلشفى ، وهو يستخدم رجلا ليزيح ولتن من الطريق ؟! إنه حلم فظيع

فقال لومس : أجل ... إنها مسألة معقدة .. ليست من أقضيتك اليسيرة يافورشن

وقال (بل) فى تهيب : إذا كان الدكتور ولتن على علم بمؤامرة من المؤامرات البلشفية يافورشن ، فإن ذلك يجعلهم يزيحونه من الطريق .

فقال فورشن وهو يهز رأسه : هذا ما يحدث فى قصته .. إن ولتن لا يدرى ماذا يعلم وماذا يجهل

فقال بل : ربما كان هو نفسه بلشفيا ولو قليلا يا فورشن

وضحك لومس قائلا : إن بل ذو موهبة فيما أرى للملهاة الدرامية

فأجاب فورشن : أجل ... أجل ... إن فى الحياة كثيرا من مواقف الملهاة الدرامية ، ولكنى على أى حال لا أتصور أن وت وكويبر وشركاءهما يلعبانها الآن ... أحسب أنه لا بد لى من الذهاب إلى حيث يعملان » .

وأثبت فيه لومس نظره وهو يقول «أنت؟»

ونهض بل قائلا : لن تذهب وحدك فيما أحسب يا سيدى

فقال فورشن : حسن ... تعال معى لتحرسنى يا سيدى ... نعم إنى أريد أن أرى هؤلاء يا لومس . إن ولتن رجل طب كما تعلم وأحب أن أرى المرضى أيضا

فأجاب لومس فى تردد : يمكنك أن تحاول ذلك يا فورشن ، ولكنك تعلم أنه ليس هناك على التحديد شىء ضد وت ، وليس هناك مطلقا شىء ضد كويبر ، ولست على يقين من أن كويبر لم تأخذه ريبة : إنه يختلف إلى النادى الأولبى وقد كان هناك ليلة الثلاثاء ، ولكن رجالنا لم يروه ليلة أمس

وقف مستر بل مدير البوليس لحظة أمام المبنى الجديد فى مودلن لين وتلفت حوله ، وأشار إليه أحد رجاله هناك إشارةفهمها ، ثم دخل البناء ومعه فورشن ، وصعد إلى مكتب يوليوس كويبر .

ولقيهما فتاة جريئة سليطة اللسان ، فقالت إن مستر كويبر لا يقابل أحداً إلا فى موعد يحدد وقاطعها بل قائلا :

«إنهسوف يقابلنى» ومدإليها يده ببطاقة فتناولتها وهى ترمقه فى شراسة ، ثم اختفت. وكانت فتاة أخرى تنظر إلى الرجلين من وراء زجاج الحاجزالخشبي القائم لدى الباب. وعادت الفتاة الأولى بعد لحظة قصيرة تقول فى جرأة « آسفة ليس مستر كويبر فى مكتبه وخير لكما أن تطلبا تحديد موعد»

فأجابها مستر بل : هـذا لا ينفع ... ومن هنا ؟

فصاحت الفتاة «لاتزعجنى من فضلك » فأجابها بل فى خشونةوهدوء : إنكلاتحبين فيما أظن أن يحدث لك ما تـكرهين..أفاهمة أنت ؟ ثم نظر إليها عابسا وقال : اذهبى فقولى إن بل مدير البوليس فى انتظار أن يدخل على مستر وت

فأجابت فى ثبات : ليس لدينا هنا من يدعى مستروت. فصاح بها : إفعلى ماتؤمرين. وذهبت فغابت لحظات طويلة ؛ وكانت تسمع غمغمة هنا وغمغمة هناك . ثم عادت وعلى وجهها اضطراب وتركتهما دون أن تتكلم ، وسارت فى ردهةفتبعها بل ثم رجى ، واقتحما حجرة داخليةفوجدا رجلايصفف شعره ، وما أن رآها حتى صاح بهماوقداحمر وجهه : هذا اقتحام يا صاحبى .

فصاح بل باسما : آه ... هاهوذا صديقنا مستر وت »

فقال الرجل : لابد أن هناك غلطة ... إنك مخطىء ياسيدى. مااسمك ياسيدى المدير؟ أما أنا فاسمى سيجل

فقال بل : إذن لماذا سميت نفسك وت ؟

فأجاب الرجل : لست أدرى ماذا يعنى كلامك .

قال بل : لست أنسى الوجوه ... وأستطيع أن أعرفك أينما كنت ... أنت ذلك المستر وت الذى اتهم الدكتور هوارس ولتن. ولقد حان الوقت ...

فعاد الرجل يقول: ماذا تعنى بذلك ياسيدى؟

وتدخل فورشن فقال فى ابتسام وهدوء : آن أن تقول الحق ... وأن تفكر فى نفسك أليس كذلك ؟ لقد اطلعنا على أدلة اتهامك ولتن. وهى زائفة . لماذا لفقتها يا مستر وت ؟

فسأل الرجل : ماذا تريد ؟

قال فورشن ... حسن ! أين صديقك مستر كويبر... خير لك أن يكون معنا هنا:

فأجاب الرجل: لقد سافر كوبير ياسيدى:

فضحك فورشن قائلا: لست أظن ذلك ... وإنك لتظلم نفسك . أظن أنك لم ترد أن توقع ولتن فى الفخ فقل لى ماذا كان من أمر كوبير فى هذه اللعبة ؟ :

وتلفت وت حوله فى حالة عصبية وقال : لا نستطيع أن نتكلم هنا فالفتاتان تسترقان السمع ، ولا بد أن أخرج معكما :

وما كاد يتأهب وت لمرافقتهما حتى دفع باب الحجرة ، وانطلقت رصاصتان من مسدس فأصابتا وت ، فانقلب على وجهه والدم يسيل منه ؛ واندفع بل صوب الردهة ومسدسه فى يده ، وأكب رجى على الجريح يسأله فقال لا هثا « كوبير ... كوبير »

فقال فورشن : أعرف ذلك .. وسنقبض عليه ... أتعلم أين ذهب ؟

فقال وت فى همس : إلى يخته ... إلى يخته فى جريفسند وقد أعده هناك . ثم أن الرجل وتلوى فقد أصيب فى كتفه وبطنه

وذهب رجى إلى التليفون وبينما كان يطلب نقالة لنقل الجريح إذ دخل الحجرة بل منقطع الأنفاس ، يتبعه عدد من رجال البوليس فى ملابسهم الرسمية وقال : لقد هرب من ناحية بول كورت ، وإن أحد رجالنا هناك ، ولكنه لا يعلم بحدوث شئ وسوف يتعقبه فقط.. وأرجو ألا يفلت منه فقد أفلت من رقابة رجالنا بالأمس

فقال فورشن : أبعد هؤلاء الفتيات وضع حارسا على الباب . إنى أريد أن أتحدث فى التليفون . وبينما كان رجال الإسعاف يحملون وت على نقالتهم ، كان فورشن لا يزال يتحدث فى التليفون وكان يقول : أمفهوم هذا ؟ حسن إذن

وركب فورشن وصاحبه بل فى سيارة إلى جريفسند وقصدا إلى مخفر البوليس هناك ، وما أن بلغا باب المخفر حتى قال لهما شاويش كان فى انتظارهما أأنتما رجلا اسكتلنديارد؟ فأبرز له بل بطاقة تثبت ذلك، فقال الشاويش : إن المأمور هناك على الشاطئ فى انتظاركما وسأصحبكما إليه

وأنبأهما المأمور عند الشاطئ أنه علم أن الرجل قد هرب فى يخته المسمى سيرلا وكان قد أعده من زمن ليهرب به عند الاقتضاء

وسأل فورشن : هل أعددت قاربا سريعا ندرك به سيرلا ؟

فأجاب المأمور : ها هو ذا القارب البخارى السريع

وركب فورشن وصاحبه فى القارب وحدث فورشن ربانه قائلا : إننا فى أثر سيرلا .. أتعرف هذا اليخت ؟ .. نريد أن ندركه وأكبر الظن أنه اتجه صوب شاطئ هولندة .. أسرع ما استطعت

وأخذ القارب يشق الماء فى سرعة عظيمة وجلس بل وصاحبه تحت مظلته ، ووقف على مقربة منهما بعض الجند تتدلى من أحزمتهم المسدسات وفى يدى اثنين منهما بندقيتان كبيرتان . ونظر بل فإذا الجو أكدر ، وكانت الرياح الشرقية تحيل سطح الماء إلى موجات تعلو وتهبط . وبعد دقائق أبصر بل وصاحبه على بعد نقطة سوداء ، وقال الربان إنها سيرلا . وما هى إلا لحظات حتى أخذيتراءى اليخت ، وأخذ الربان يزيد سرعة القارب وما زال يجد فى أثر سيرلا حتى أصبح يرى بالعين المجردة . فنادى ربان القارب البوليسى فى بوق يطلب إلى سيرلا أن يتوقف ، وأخذ يكرر الطلب مهددا حتى توقف سيرلا . ولما كان القارب البوليسى يدنو منه سمع صوت رصاصة ورؤى دخان ينبعث منه فقال : بل أكبر الظن أن الرجل أطلق الرصاص على نفسه

وبعد لحظـة أصبح القارب البوليسى محازيا لليخت الهارب . وخطا بل وصاحبه ومعهما رجال البوليس إلى ظهر سيرلا . وسأل بل ربانه : أين مستر كويبر ؟ فأجاب الرجل وهو يلعق شفتيه ولا يكاد يجدريقه : ليس معنا من يدعى مستر كويبر ولا نعرف شيئا عن هذا الاسم . إن معنا مستر هوتن وهو هولندى وإن هذا القارب ملك له ، فسأله بل « أين هو » فقال الرجل « هنا فى حجرة صغيرة وأظنه قتل نفسه » فقال بل « أحضره . . أسرع » وأشـار إلى بعض جنده فتبعوا الرجل إلى تلك الحجرة . وبعد لحظة ألقى على ظهر اليخت رجل ممدد ينزف الدم من جسده فنظر فورشن فإذا هو بعينه يوليوس كويبر كما وصفه التـاجر توماس أوين « نحيف يبدو عليه الـكبر ، ذو لحية قصيرةمدببة . أنيق الملبس »

وجثا رجى فورشن إلى جـانبه وجس نبضه وتحسس موضع قلبه ، وكان الرجل يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وصاح رجى قائلا : يا للعجب ! فسأله بل : ماذا تجد ؟ أمايفرغ لك عجب ؟

فقال فورشن : إن الرجل لا قلب له ! هذا شئ جد عجيب ! يا إلهى إن قلبه فى جانبه الأيمن ! لقد أجريت له عملية فى الغدة الدرقية.. ثم ابتسم فورشن ابتسامة الرضاء

فصاح بل : إذن فأنا أعرفه ولقد تذكرت الآن هيئته . إنه لوتن ياسيدى ! لوتن ذلك الشيطان المحتال . صاحب الاحتيال الـكبير على المصرف الرئيسى . لقد اختلس خمسين ألف جنيه أو أكثر من ذلك . وقد حصل ذلك قبل عملك فى البوليس ، ولـكن لعلك تذكر تلك القضية .. يا عجبا ! ماذا جاء به ثانية إلى هنا ؟ يا له من محتال جرئ ! »

وقال فورشن متعجبا : أهذا هو لوتن ؟ الآن سوف أعرف كل شئ

* * *

قال فورشن : يقص على لومس كيف عمل كوبر لوتن على الإيقاع بالطبيب الشاب حتى أدخله السجن « لقد وافقنى ولتن على أن الشذوذ فى وضع قلب كوبر لوتن هو أصل الشر كله »

فقاطعه لومس قائلا : أى صديقى العزيز ما لنا ولهذا .. دعنا من صحته ومرضه ..

فقال فورشن : صبرا يا صديقى .. قلت لك إن هذا الشذوذ فى وضع قلبه هو أصل الشر فخذ الحديث على سرده ..

فنظر إليه لومس فى دهشة وأصغى إليه فى شوق فقال فورشن : وقع حادث لكوبر فى أحد الميادين فقد صدمت إحدى السيارات سيارته ، واتفق أن كان ولتن المسكين على مقربة من الحادث فأسعفه وعالجه . ولكنه تملكته الدهشة حين وجد قلبه فى الجهة اليمنى من صدره وعد ذلك أمرا يهمه كطبيب ، وكان قد عرف سائق كوبر فتردد على ذلك السائق يسأل عن سيده فأوجس كوبر خيفة فإن موضع قلبه فى الجهة اليمنى هو العلامة التى لا تخطئ فى الكشف عنه وهو لوتن المحتال القديم لايوليوس كوبر .. وازدادت مخاوف لوتن حين علم أن ولتن صديق حميم لذلك المفتش المسكين الذى قتل نفسه . فأرصد لوتن وت وشريكه ذلك الصحفى الهولندى فدبرا تلك المؤامرة التى راح ضحيتها ولتن الطبيب التعس ومفتشنا البائس، فلقد أرادا أن يجدا عملا لولتن خارج إنجلترة فلم يوافق الطبيب الشاب فما زالا به حتى أدخلاه السجن . وكان يخشى ذلك المفتش أن تؤثر صداقته للطبيب فى عمله فأوحى إليه ضميره أن يهتم بجمع الأدلة ضده فكانت ورطته فى مسألة الدخان ، ولما تبين له خطؤه الذى أوقعه فيه ضميره ، عاد ذلك الضمير فأوحى إليه أن ينتحر ! فأضيفت مأساته إلى مأساة الطبيب الشاب ! أرأيت كيف كان ذلك الشذوذ فى وضع قلب لوتن هو أصل الشر كله؟

ونظر لومس فى وجه صاحبه لحظة ثم قال فى نبرة حزينة : « لست أدرى ما إذا كان أصل الشر قلبه أم الشذوذ فى وضع ذلك القلب ... لقد ذهب ضحيته رجلان ... صديقان.. وأجهد البوليس ما أجهد. يالها من مأساة ويا له من شيطان ! ولكن خبرنى ما حال ذلك الطبيب بعد أن غادر السجن ؟

فقال فورشن وفى وجهه أمارات الأسى : أرجو أن يستعيد عما قريب ثقته بالحياة

« زو القناع »

ما بعد الموت

للكاتب الروسى بوريس بابوف
بقلم الأستاذ فوزى شاهين

تلخص هذه الكلمات الأربع حياة الملازم فوجانوف : طفولتـه ومدرسته والكلية الحربية. أما الكلمة الرابعة فتحتاج إلى مجلدات ضخمة تنظم فيها الملاحم . كثيرا ما يحدث ألا تزيد الساعات الجديرة بالذكر فى حياة الإنسان الطويلة على ساعات ثلاث . ولما كنا نتحدث عن فوجانوف ، فالساعات الثلاث الأخيرة من حياته هى ساعاته الخالدة

أتيح لفوجانوف فى هذه الساعات أن يرقى إلى أسمى مراتب البطولة الإنسانية ، إذ لا حياة ولا موت ، وإذلا مكان لغير الأبدية والخلود.. فى هذه الساعات الأخيرة احترقت حياة فوجانوف ، ولكن الدبابات الألمانية لم تستطع تقدما

قابلت الفصيلة المرتدة عن الجبهة الأمامية المدفعية التى يترأسها فوجانوف ، وحملق فيهم الرجال تعروهم الدهشة وتهتز قلوبهم رعبا وحذرا . وكأنما كانوا يرونها للمرة الأولى ؟ ومنذ تلك اللحظة أصبح فوجانوف ورجاله موضوعا للأغنية والأسطورة ، وصارت مدفعيتهم المتهالكة موضوعا للمتاحف والتاريخ ، وما كان الرجال وهم فيما هم فيه من هول يحلمون بشىء من ذلك . .

كان الرجال يسيرون خلف عربة المدفع التى تحمل جثة قائدهم صامتين والأسى يلفهم بردائه الأسود القاتم ، واستودعت الأرض بأطراف القرية جثة فيدور فوجانوف . وبعد أن ألقيت كلمات الوداع وأطلقت آخر طلقة للتحية ، أسقط الكاتب من السجلات اسم الملازم فيدور فوجانوف ، ثم تابعت الفرقة سيرها لتستأنف حياة القتال الرتيبة

حديث واحد هو ذلك الحديث الذى كان يدور فى المساء سواء فى فرق المدفعية المنتشرة على طول الجبهة ، أو فى الخنادق المنتشرة هنا وهنالك ، أو فى المحطة القريبة من جبهة القتال — الحديث عن بطولة فوجانوف وميتته الخالدة . انثالت الأسئلة على كل من حضر الموقعة ، وحاول كل أن يستعيد ما تستوعبه الذاكرة . وقال الذين لم يروا فوجانوف على قيد الحياة : لقد عاش بيننا ذلك البطل ومع هذا تركنا الفرصة تفلت !

أما أولئك الذين عرفوه فقد أجهدوا

أذهانهم مسترجعين ذكريات لقائه، مستعيدين كلماته حرفا بحرف، سواء أكانت تمت إلى موضوع أم كانت من عادى الكلام. وتحدث طباخه عن الطبق المفضل لديه ...

وبالرغم من أن تلك الذكريات لم تذكر بطولة الفقيد، فقد كان الرجال حريصين استعادتها كما لو كانوا يجمعون كنزا ثمينا، راغبين فى رسم صورة كاملة للشهيد يطبعونها على صفحة ذاكرتهم، حتى إذا تقدم بهم العمر، وجدوا ما يقصونه عن البطل لأبنائهم وأحفادهم

هكذا بعث من جديد فيدور فوجانوف، وبدأ يحيا حياة أخرى، ولم يعد — كما كان فى حياته — ذلك الفتى الأشعث الشعر، وإنما بدا فى نظر رجال فرقته أنموذجا رائعا لما ينبغى أن يكون عليه البطل. وعثر البعض على بطاقته الشخصية وقد خضب دمه مكان الجبهة والكتفين من صورته، فأجمع الكل على أن تلك الصورة هى التى تشبهه تماما ..

تأمل دور كهوف — أحد الكشافة — الصورة مليا ثم استأذن فى استبقائها لديه تلك الليلة، وسهر الليل بطوله يرسم لوحة مكبرة لفوجانوف، ما كاد يتأملها زملاؤه فى الصباح حتى هللوا قائلين إنها تشبه الأصل كثيرا، إلا أن أحدهم اعترض على شكل الأنف، فقد كان أنف فوجانوف أفطس قليلا، ولكن الكشاف رد عليه قائلا:

— لقد عاش فوجانوف رجلا ومات بطلا. أفتريد منى أن أرسمه بأنف قبيح؟ كلا! ليكن كاملا فى كل شىء!

ونشرت الصورة فى الجريدة الإقليمية فقال كل من رآها: «الصورة الحية!» واحتفظ كل منهم بالعدد تذكارا

كان من بين مخلفات فوجانوف القليلة مسدسه، وهو مسدس عادى كسائر المسدسات التى يحملها زملاؤه. وبالرغم من أن مقبضه لم يكن من فضة أو يتميز بالحلى والنقوش، فقد اشتعل الجميع رغبة، كل يطالب بالمسدس ليحتفظ به للذكرى كأن المسدس أصبح رمزا للمجد، فصاح القائد بغضب عندما انهالت عليه الطلبات:

ماذا دهاكم؟ أليس لكل منكم مسدسه؟

وقرر القوميسيير أن يكون مسدس فوجانوف من حق القائد الذى تبلى مدفعيته أحسن بلاء. وهكذا تسابقت الفرق إلى الظفر بالمسدس الذى أوقفت رصاصاته زحف الألمان

أعيد تنظيم فرقة فوجانوف، وقبل بها بعض الجدد ممن لم يروا فوجانوف من قبل؛ ولكنهم منذ اللحظة الأولى سموا أنفسهم «الفوجانوفيين» لأن هذا هو اللقب الذى اختاره رجال الفرقة جميعا، ولم يغضب ذلك القائد الجديد، فقد كان المجد الخالد الذى أتيح لسلفه ينعكس عليه فيحيطه بهالة من نور، فامتلأ فخرا لوقوفه على رأس فرقة فوجانوف التى ذاع اسمها فى كل مكان

وبدأ الصحفيون يتقاطرون إلى المكان ، كلهم يطمع فى الحصول على نبأ جديد عن البطل الراحل ، وأخذوا يجمعون ما كان بالأمس نسيا منسيا ، فأصبح بين عشية وضحاها قصصا خالدا . وهكذا انتشرت أنباء حياة فيدور فوجانوف القصيرة التى تلخصها أربع كلمات ، وأنباء موته الذى يستحق أن تؤلف عنه المجلدات

طارت الأخبار إلى القرية الصغيرة بسيبريا حيث ولد فيدور فوجانوف ، وطالعت الأم القصة التى تمجد بطولة ابنها ؛ ولكن المقالة التى ملأت صفحة كاملة بما كانت تحمله من أسباب تبعث على الفخر ، لم تكن تحدثها إلا عن أمر واحد : لقد مات ولدها ! انفجرت الأم باكية وتلقتها جارتها بين ذراعيها غير محاولة أن تخفف عنها أو تقدم لها العزاء ، وقالت ببساطة :

— إبكى ما طاب لك البكاء يا ستيبانوفنا ! ينبغى أن تبكى ، ولكن من حقك أن تفخرى أيضا !

وقطع مدرس القرية الدرس فجأة وهو يقول بصوت مرتجف :

— أى أبنائى ! على نفس هذا المقعد جلس من قبل فيدور فوجانوف البطل الخالد

وتطلع الصغار جميعا إلى المقعد الذى كان يحتله البطل وقد توردت خدودهم تيها ، وظل المدرس فترة يرمق المقعد دون أن تستطيع عيناه تحولا أو يواتيه الصوت ليستأنف الدرس

وعندما اجتمع فلاحو القرية اتفقت كلمتهم على أن يطلق اسم البطل على القرية ، وأن يقام لفيدور فوجانوف تمثالا على خضرة الوادى . وسرعان ما وفد إلى القرية مثال سأل الأم أن تعيره ما لديها من رسوم ، فمنحته كل ما عثرت عليه ، ومن بينه صورة لابنها عندما كان حدثا أشعث الشعر فى زى المدرسة ، وأخرى له وهو فى البزة العسكرية ؛ ولكن الصور لم ترض الفنان ، فإنه لم يأت إلى القرية لينحت تمثالا لطفل غر ، وإنما جاء لينحت تمثالا لمحارب ملأ صيته الأسماع

ونفذ الفنان الفكرة التى طافت برأسه كما تخيلها لفيدور . عينان واسعتان متفتحتان للحياة ، وجبهة عريضة تحدثك عن عزم وقوة ، وقامة مديدة لمحارب صلب العود ، كما كان يصبح فوجانوف لو امتد به الأجل واكتمل نضوجه

كم أود لو أمتع ناظرى بذلك التمثال . إننى أحسد فوجانوف .. ترى كم تبقى لدى فى الحياة من نسمات ؟ أقدر لى أن أعيش ساعة .. شهرا .. عاما .. ثلاثين عاما ؟ لكن فيدور فوجانوف سيظل إلى الأبد حيا ، يشرف على قريته الخضراء ، نابضا بالحياة ، خالد الشباب ، وستستعيد الأجيال المقبلة قصة حياته القصيرة ، وميتته الخالدة ، وهم يتناقلونها جيلا بعد جيل .. هذا هو الخلود

فوزى شاهين



فكر في الحل

رواية شاب هادئ

سمع إفرت مور مساعد الصراف فى إحدى الشركات الكبرى وهو ينتظر فى غرفة خارجية بالطابق الثالث ، صوت سيارة تقف عند باب الشركة فى الساعة الثانية إلا قليلا بعد منتصف الليل . وبعد لحظة دخل عليه مأمور البوليس حيث كان ينتظر . فقال مساعد الصراف فى هدوء : «جئت متأخرا» فنظر إليه المأمور نظرة فاحصة ثم سأله ما الحادث ؟ فقال فى أسف ولكن دون أن يبدو عليه أى اضطراب: « لقد جمعنا الليلة قدراً عظيما من المال ووضعت أوراق النقد فى درج مكتبى هنا فى غرفة داخلية لأعدها قبل أن أودعها الخزانة » ثم صحب المأمور إلى تلك الغرفة الداخلية وهو يقول : « وفى الساعة الواحدة والنصف سمعت وقع أقدام على السلم بأسفل البناء فبادرت بإطفاء نور الشقة إذ كنت وحدى فى البناء كله ، وكان النور بحيث لا يرى من الشارع ولا من السلم .. وبعد لحظة أحسست بشخص ينسل فى جرأة وفى غير بحث أو حذر إلى هذه الغرفة على نور مصباح كهربائى صغير ، ونظرت فإذا نور المصباح على مكتبى وإذا به يخرج النقود فى سرعة من الدرج ويدسها فى حقيبة كانت معه وكان مقنعا وفى يده مسدس . وسمعت صوت سيارة قادمة ، فانتظرت حتى تقترب بحيث يغطى صوتها صوت قرص التليفون إذا أدرته . ثم أدرت القرص وطلبتكم فى المخفر العام مستغيثا فى همس . ولما لم يكن معى سلاح لم أستطع مقاومة ذلك اللص . وبعد أن نزل بدقيقتين أضأت الشقة

فقال المأمور أى رقم طلبت ؟

فأجاب الشاب فى هدوء : الرقم العام للبوليس ٠١٢١٩ :

فسأله المأمور : ألم تغادر هذا المبنى طيلة هذه الليلة ؟

فأجاب الشاب : غادرته فى الساعة الحادية عشرة إلى قهوة حيث أكلت شطيرة وشربت قدحا من الشاى ... وكان الصراف لا يزال هنا ومعه بعض الموظفين والخدم

فقال المأمور : ولم لم تتعش فى مطعم ؟

فقال الشاب وما زال هادئا كل الهدوء : أحببت أن أعود مسرعا لأتم عملى ولكى يستطيع زملائى الانصراف :

فقال المأمور : ألبس قبعتك واصحبنى إلى المخفر مقبوضا عليك :

الرواية : لماذا ارتاب المأمور فى كلام الشاب وقبض عليه ؟
فكر فى الحل ... ... الخ

تجد حل اللغز المنشور فى العدد الماضى فى ص ١٦ من هذا العدد



العدد الرابع – السنة الرابعة



الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات

الإدارة
٨١ شارع السلطان حسين بعابدين
تليفون ٢٧٤٩٠

سكرتير التحرير
محمود الخفيف

بدل الاشتراك
قرش
١٠٠ في مصر والسودان
١٥٠ في الممالك الأخرى
٣ ثمن العدد

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العدد الرابع — ٢٧ ربيع الآخر سنة ١٣٧٢ — ١٥ يناير سنة ١٩٥٣ — السنة الرابعة



فهرس العدد

صفحة

لأمُّه

للأستاذ محمود الخفيف

نهض الفتية واقفين فى اعتدال وأمسكوا عن الظياط والضحك حين أقبل عليهم ذات مساء من أماسى مايو على أخو العمدة وكانوا خمسين أو يزيدون قد فرغوا منذ قليل من عملهم المضنى وبدا فى وجوهم التعب إذ كانوا طيلة نهارهم يحملون مقاطف الفحم واللبنات الثقيلة على كواهلهم إلى حيث أخذ البناؤون يرصونها على نظامهم طبقات بعضها فوق بعض يتخللها الفحم ليجعلوا من ذلك اللبن آجرا بالحريق

وكان الفتية قد تقاضوا منذ لحظة أجر يومهم من صراف العمدة وكانوا جميعا فى الأجر سواء لافرق بين قويهم وضعيفهم . ولقد تعودوا أن يظفروا كل مساء ببضعة قروش زيادة على أجرهم من على أو الأستاذ على كما تعود الناس أن يدعوه فى القرية . وألقى الأستاذ إليهم السلام هاشا كما يفعل كل أمسية ، وردوا مرحبين وإن بدا عدم الارتياح على وجوهم لرؤيته فى ملابس المدينة فلعله مسافر الليلة ، ثم أخذ يضع بنفسه فى يد كل منهم ثلاثة قروش وهو كعادته يحذرهم ضاحكا من المعسل والشاى الأسود ، وهم يتظاهرون بالطاعة ويضمرون العصيان حتى بلغ آخر الصف فالتفتوا ليروا ماذا يضع هذا المساء فى كف صابر . ونظر الأستاذ إلى صابر معجبا وهو يقول له : « أنت اليوم بخمسة رجال يا صابر وكنت أمس بأربعة » ثم ألقى فى يده قدر ما يلقيه إلى خمسة منهم . فتهلل وجه صابر الذى يترقرق فيه ماء الشباب ولا يبدو فيه أثر الجهد، وقال وهو يرفع يده القوية التي يخططها الوشم إلى رأسه بالتحية وقد التمعت بنشوة الفوز عيناه المليحتان : « وغدا بعشرة إن شاء الله يا سيدى .. وربنا يطيل لنا عمرك»

وتفرق الفتية إلى دورهم وقد أخذت تشرب كدرة الأفق حمرة الشفق . . وما كادوا يبتعدون حتى أخذ بعضهم يتغامزون وبعضهم يتهامسون . وقال أحدهم فى صوت مسموع : « والله إنه يكرمه من أجل عينى نعيمة .. عينيها الخضراوين وهذا.. العبيط لايفهم شيئا» وقال آخر: «حذار، فإن شبل ابن خالتها وراءك قادما من حقله » وقال ثالث: «لا والله! بل إن الأستاذ يحب صابرا منذ صغره ويعجب بقوته ومواويله وأرغوله

ولم لانقر بالحق فهو بخمسة منا أو أكثر»
وسمع شبل هذه العبارة فقال فى غيظ وقد
مر بهم على ظهر حماره : « اليوم بخمسة
منكم وأمس كان بأربعة وغدا بسبعة ! والله
هذا كلام فارغ . ولست أدرى ماذا يعجب
الأستاذ فيه ! »

ومر صابر بهؤلاء ولم يسمع ما يقولون .
والتفت شبل فنظر إليه نظرة كلها حقد
وبغض فضحك من رأوه من الفتية

***

كان صابر فى الثانية والعشرين من
عمره ، ريان الشباب ، تأخذ العين قامته
المديدة فى غير إفراط ، وجسمه الممتلئ فى
غير بدانة ، وعضله المفتول فى غير غلظ ،
وتعجب الناظر إليه فوق ذلك وسامة فى
وجهه الأسمر ، وملاحة فى عينيه السوداوين ،
ووشم أزرق فى صورة عصفورين على عارضيه ،
وأسطر من هذا الوشم فى ظاهر كفيه .
وقل فى شباب القرية من يساويه فى ضربة
فأسه وطول نفسه . يعمل طول نهاره ولا
يكاد يكل ، وإذا تحمس فى عمله نسى نفسه
ففعل مالا يطيق غيره أن يفعل ، وإذا نافسه
فى البأس والجلد منافس جعل كل همه أن
يفوز عليه ، فما هى إلا لحظات حتى يحمل
على الإذعان منافسه ، ويضحك منه ، ولقد
يتكاثر عليه المنافسون فإذا بهم تبهرهم قوته

وتخزيهم عزمته . ولقد شاع فى القرية
حديث بطولته كما شاعت فيها مواويله .
وإنه ليتغنى بالمواويل أثناء العمل فينصت له
الشباب مأخوذين بسحر صوته وقد ملأ
الطرب أجسامهم ، وإنه كذلك يغنى غناء
هاو فى بعض الأعراس فما أن يذاع أنه
سيغنى ذات ليلة حتى يقبل فتيان القرية على
دار العرس فيملأونها ويملأون الشارع
أمامها وتقبل الصبايا فيملأن الأسطح
القريبة ومداخل الحارات . ويقترح عليه
الشباب أى معنى فما أسرع أن ينظم فيه
موالا جديدا وما أسرع أن يصلصل حلقه
القوى بتطريب عجيب ، ينبعث من أعماق
نفسه قويا مجلجلا حتى لكأنه يهز الدور هزا

***

دخل صابر داره وفى يده منديل يحمل
فيه أشياء اشتراها فى طريقه من دكان ،
وكانت تضئ صحن الدار مسرجة ترسل
دخانها الكثيف فى كوة صغيرة قد اسود
سقفها وجوانبها من كثرة ما علق بها من
الهباب . وكانت أمه جالسة مع أخته
فتحية بجوار المصطبة ، وكانتا تطعمان الخبز
القديد والمخلل . ورأى فى نظرة أمه إليه
أنها كانت تترقب قدومه وإنه ليفطن إلى
ما تريد ، وقال لهما دون أن يحييهما « ماذا
تأكلان ؟ » ووضع منديله على المصطبة

وقبل أن تجيبه إحداها ذهب إلى عجلته وكانت تحت عريشة بغير باب فى جانب من صحن الدار ، ونظر فيما أمامها من علف ، وقلبه بيديه ثم عمد إلى مقطف بجوار المصطبة فأخذ منه بعض الفول ونثره على ذلك العلف ومسح بكفه على ظهر عجلته وهو يسأل أخته هل سقيتها ؟ فأقسمت له فتحية وهى بنية خفيفة الروح فى الثانية عشرة من عمرها أنها سقتها ثلاث مرات وأشهدت أمها على ما تقول ، فأخرج لها صابر من منديله نصف رغيف وقطعة من الحلوى الطحينية ، وأعطى أمه مثل ما أعطى أخته، وجلس على حافة المصطبة يأكل ما تبقى له فى المنديل .

وقالت فتحية : متى تمطينى ثمن منديل لرأسى وقد وعدتنى بذلك ألف مرة ؟

فأجابها صابر : سأشترى لك منديلا يوم السوق ما دمت مهتمة بعجلتى

فقالت أخته ضائقة : تقول هذا كل أسبوع ولا تعطينى شيئا .. ألست مثل ...

ونظر إليها أخوها فى غضب فلم تقل مثل نعيمة . وفطنت أمها إلى ما تريد فتحية فمشت فى وجهها كدرة وزمت شفتيها متكرهة كما تفعل كلما ذكرت نعيمة . فقال صابر لأخته وهو يشير إلى يديها يريد أن يغير مجرى الحديث ...

ومن اشترى لك هذه الغوائش الجميلة ؟

فضحكت فتحية ورن فى صحن الدار صوتها العالى وقالت : أنت اشتريتها .. ربنا يخليك ياصابر وأفرحك بالعروس التى تحب .. ثم عادت تضحك فى كثير من الرعونة فحدجتها أمها زاجرة فأمسكت فى جهد . ثم تركت أمها وأخاها وخرجت إلى الحارة وقد سمعت صاحبات لها يتغنين ويلعبن ...

فقالت أم صابر لولدها : ياصابر أبوك فى حاجة إلى جنيه . وقد ظل ينتظرك هنا طويلا ثم ذهب إلى الجامع

فتغير وجه صابر وكان لا يزال به أثر السرور مما قالت أخته؛ وقال لأمه : ذهب إلى القهوة لا إلى الجامع .. جنيه ؟ ومن لى بهذا الجنيه ؟ ألا يكفى أنى أطعم نفسى ؟ إنى أعمل عمل الأجير طيلة نهارى ثم يأخذ أبى قروشى فيضيعها فى القهوة ! حتام يأخذ قروشى ؟

فقالت أمه : إن نصف الجنيه دين عليه يريد أن يؤديه ، ونريد أن نشترى بالنصف الآخر ذرة وقد أوشك أن ينفد ما عندنا منها

فنظر صابر إلى وجهها الضارع المصفار وإلى عينيها اللتين تمسكان الدمع فى جهد وإلى بدنها الذى نال منه الكدح وقال : غدا أحضر لك الجنيه .. ولكن اسمعى : إنه إذا طلب منى شيئا بعد ذلك فلن أدفع أبدا

فقالت أمه فى نبرات ملؤها الحماسة : الله

يخلف عليك يا صابر ويطول عمرك يا ابنى ويفرحك ببنت الحلال

فقال صابر يداعب أمه ليضحكها : ومن تكون بنت الحلال هذه ؟ ألا تعرفينها ؟

فما كادت تبتسم أمه حتى حبست ابتسامتها وكادت تشيح عنه بوجهها وكان يقع عليه نور المسرجة منذ أن اتجهت إلى ابنها فأمعن صابر فى مداعبتها قائلا : ولكنى أعرف بنت الحلال هذه وهى واحدة لا ثانية لها . فأشارت أمه بكفها متناظة إشارت الرفض دون أن تتكلم ، وضحك صابر ضحكة عالية فيها كثير من عذوبة روحه ..

* * *

فرغ الفتية بعد بضعة أيام من عملهم وجلسوا فى آخر أمسية لهم متحلقين ، وقد نفضوا التراب عن ثيابهم ووجوههم وكانت تعلو وجوههم غبطة ؛ فقد علموا أن الأستاذ عليا عاد من سفره وأنه سيعطيهم من ماله الليلة عن يومهم هذا وعن الأيام التى غاب فيها عن القرية ، وكانوا يتحدثون بما عسى أن ينال كل منهم وما ينال صابر بوجه خاص ، وكان شىء آخر يدخل السرور على نفوسهم وإن لم يشيروا إليه فى أحاديثهم . ففى القرية الليلة عرس وسيغنى فيه صابر ..

وبينما كان الفتية فى حلقتهم إذ أقبل شبل ومعه فتى ليس فى القرية من يجهل شره وغدره ، هو سالم الذى ألقى فى السجن مرات فلم تزده السجن إلا تمردا وعتوا .

وأشار سالم بيده إلى صابر فخف إليه وإلى صاحبه . ووقف ثلاثتهم يتحدثون لحظة حديثا غير مسموع ، ثم علا صوت صابر فى غضب ، فنهض الفتية من الحلقة واحدا فى إثر واحد ، وقد أحسوا أزق الأمر شرا وتجمعوا حول صابر ومن معه ، وشخصوا بأبصارهم إلى صابر والحنق فى معارف وجهه والثورة ملء بدنه وهو يقول إنه لا يخشى أحدا إلا الله وإنه لا يعرض فى أغانيه بأحد وإنه لا يعيبه أن يحمل الفحم والطوب: ولولا أنه فى ساحة العمدة لأراهما كيف يرد على إهانتهما إياه . ثم اتجه إلى شبل قائلا : هل جئت بسالم لتخوفنى به ؟ لم لم تحضر وحدك إذا كنت رجلا ؟ واستخذى شبل كما استخذى صاحبه . وأخذ سالم فى مثل روغان الذئب يتنصل مما نسب إليه ويعلن أنه صديقهما معا وأنه يحب صابرا وما قصد إلا الصلح بينه وبين شبل . وأنه لن يتهدد أحدا فى ساحة العمدة

وعجب الفتية كيف يغضب صابر على هذه الصورة وما عرفوه إلا هادئا صبورا ، عذب الروح ، يصلح بين المتخاصمين ، ويطفىء الشر بنكاته . وتساءل بعضهم فقال صابر : هل تصدقون أننى أعرض ببنت خالته فى أغانى؟

ثم اتجه إلى شبل قائلا : وماأنت وهذا ؟ ثم من أنت حتى تعيرنى بعملى وهل يعيير الإنسان أنه يأكل من عرق جبينه ؟

وما أن سمع الفتية ذلك حتى أقبلوا على شبل ينهرونه ، وكاد يتفاقم الشر لولا أن أقبل على أخو العمدةفسكنت ريحهم وتسلل سالم وصاحبه

ثم تفرق الفتية إلا صابرا بعد لحظات وفى واحاتهم من القروش ما ألهج بالدعاء لعلى وأخيه العمدة ألسنتهم ، وفى نفوسهم من التطلع إلى العرس وغناء صابر ماأنساهم كلام شبل وما خفف عنهم تعب أجسادهم .

وجلس الأستاذ على كرسيه ووقف صابر إلى جانبه وما زال أثر الغضب فى وجهه على الرغم مما أصاب من نقود لو عرف الفتية مقدارها للأهم العجب . وكان على يختص صابرا بمحبته ، وينزله من نفسه منزلة بين التابع والصديق ، ولولا العرف وما ينطوى عليه من سخف كثير لوضعه فى موضع الصديق . فنى إجازاته لا يكاد يرى صابر إلا معه إذا لم يمنعه من ذلك عمل . يرسله على فى أكثر أموره ،ويأنس بفكاهاته وأحاديثه عن القرية وأنبائها . وإن عليا ليعجب من تعفف صابر على مابه من خصاصة فما يطلب منه مالا أبدا مهما بلغ به العسر .ولايطمع منه فى متاع أو زاد كما يطمع غيره ، لذلك ينتهز على فرص العمل فيضاعف له الأجر..

والتفت إليه على فسأله : ماذا يكربك يا صابر ؟ هل كنتم تتشاجرون ؟

فأجاب صابر : لا . . أبدا وهل نتشاجر فى ساحتكم ؟ إنما أحس بشىء من التعب

فقال على : أنت تحس التعب ؟ قل كلاما غير هذا يا صابر ... لابد أنك لم تر نعيمة اليوم هذا هو السبب الحقيق

فابتسم صابر ولم يجب .. وبعد لحظة قال لعلى : أرجو منك أن ترسل من يأتى بأبى بعد أن أنصرف ، فتمنعه من السهر فى القهوة لقد رجوت ذلك كثيرا منك .. إنه يرهقنى بطلباته ويهمل القراريط التى يستأجرها وماذا يعمل إذا تزوجت أو مت ؟

وضحك الأستاذ على قائلا : عجيب أن يكون الولد هو الذى يدعو إلى استقامة الوالد ... سأفعل ما تريد يا صابر .. قل لى أصحيح أنك ستغنى الليلة ؟

فابتسم صابر وقال : إنى أغنى كما تعلم يا سيدى غناء هاو ، فإذا أتاح لى المغنى المستأجر فرصة غنيت .. على أن كل صاحب عرس ينكدر خاطره إذا حضرت ولم أغن ولهذا فلابد أن ألبى . ولكن بعد أن يفرغ المغنى الأصيل من غنائه

فقال الأستاذ على : سأحضر الليلة بنفسى لأسمعك . لا تعلم أحدا بذلك . وسيكون

أجرك مني لا من صاحب العرس

وبدت الدهشة والغبطة فى وجه صابر ثم قال : هذا شرف عظيم لى ولصاحب العرس وللقرية كلها

* * *

مضت ساعة بعد صلاة العشاء ولم يعد شبل إلى داره . وكان أبوه الحاج عثمان فى الدار ينتظره قلقا ساخطا عليه لتأخره ، وكانت أمه تهون له الأمر ، وتلتمس المعاذير لتأخر ابنها ، وإنها لتعلم أين هو فهو فى دار خالته لا يكاد يتخلف ليلة عنها على الرغم من ضيق محمد ابن خالته به ، ولكنها تقول لزوجها لعله يلم ببعض الدور ليتفق مع من يعينونه غدا فى الحراثة ، أو لعله خف إلى بيت أخواله ليعود حسنا ابن خاله ، وما هى إلا لحظة ثم يرجع . ولكن أباه لا يقتنع بهذا ويصيح بها فى غضب قائلا وهو أمام منظرته تحت فانوس يرسل ضوءه الخافت فى صحن الدار الواسع : إسمعى يا امرأة .. ما دامت يدى هذه تلف عمامتى لا أسمح لأحد من أبنائى أن يعصينى ... إن أخاه الكبير هنا من بعد صلاة العشاء . أيظن أنى غافل عنه ؟ لقد سمعت الليلة فى الجامع أنه اتخذ سالم حماد صديقا له وليس فى البلدة من يجهل من هو سالم . إنه يستغفل ابنك ليأخذ منه ما يستطيع أخذه من مال ومن زرع . ولقد كاد يجره الليلة إلى مشاجرة فى ساحة العمدة مع صابر بن جودة ... وكيف يقوم ابنك غدا إلى عمله قبل الشمس وهو لم ينم حتى هذه الساعة ؟ لقد اتفقت منذ المغرب مع من يعينوننا ولدينا مزارعونا وهم من أقوى الرجال

وهمت امرأته بأن تطفئ الفانوس لتنصرف إلى غرفته فى أعلى الدار لينام ، مكتفية بنور مسرجة فى كوة عند باب السلم وأخرى فى مدخل الحظيرة . ولكنه استمهلها مغضبا فهو خارج ليلتمس ابنه ، ودخل المنظرة فأخذ هراوة فى يده ومضى يريد الخروج فلم يكد يفتح باب الدار حتى وجد ابنه على عتبتها ، فأمسك بتلابيبه بيسراه وهو يسأله أين كان حتى هذه الساعة ، ثم رفع هراوته يريد أن يهوى بها على جسم الفتى وكادت زوجته تصرخ ولكنها أمسكت بالهراوة ، وظلت تتوسل إلى زوجها حتى أطلق ابنه وقد عقدت المفاجأة لسانه . وكأنما أراد شبل أن يطفئ ثائرة أبيه ، فذهب إلى الحظيرة فقلب العلف أمام الثور والبقرة وألقى عليه بعض الفول ، ثم فعل مثل ذلك بعلف الجاموستين والحمير الثلاثة ، وأطفأ مسرجة الحظيرة وأغلق بابها .. فقال له أبوه . إذا تأخرت خارج الدار بعد ذلك كما فعلت الليلة فلن تدخل دارى ، وإذا بقيت على صلتك

بسالم فلست إبنى . أتعير صابرا بأنه أجير ؟ والله إنه خير من عشرة مثلك

ونظر شبل صامتا إلى أبيه وهو يصعد السلم ، حتى إذا خلا إلى أمه قال لها فى صوت يخشى أن يجهر به وهى تلومه بنظراتها : حتام يعاملنى أبى كأنى طفل !

ونظرت أمه إلى بدنه النحيل الطويل ووجهه الشاحب وطاقيته الصغيرة ، وذكرت كيف كان كالمصفوز فى يد أبيه القوية وكيف كانت عمامة أبيه المتخذة من صوف غزله بيده ترتفع عن هذه الطاقية شبرين وتبدو كأنها قدر خمس مثلها

وقالت له أمه : ألم أقل لك كفى ذهابا إلى دار خالتك ؟ أتذهب كل ليلة ؟ هل تخشى على نعيمة أن تطير ؟ متى تصبح عاقلا ؟ لقد سمعت أنها كثيرا ما تهرب من الدار إذا كنت هناك معتذرة بأى عذر ، وأنت لا تريد أن تفهم

* * *

امتلأت الدكة الخشبية أمام دار العرس بشباب القرية ، وجلس نفر من الشيوخ على المصاطب أمام الدور القريبة ، وقد أضاءت المصابيح القوية المتدلية من الأعمدة الفضاء بين هذه الدور . وجلس على الأسطح فى الظلام حشد من النسوة والصبايا ، كن يرين الرجال ولا يكاد هؤلاء يرونهن ، وفى مدخل إحدى الدور الواسعة الظاهرة النعمة جلس على أخو العمدة على مصطبته مع صاحب الدار

وأخذ مغنى العرس يبدئ مواويله المحفوظة ويعيدها ويجمع « النقوط » من هذا وذاك . والناس ضائقون يسألون متى يبدأ صابر . وفطن أصحاب العرس إلى ضجر الناس ، فما كاد ضيوفهم يفرغون من شرب القرفة حتى دعا أحدهم صابرا ، فضج الشباب بأصوات الفرح ثم سكتوا وأرهفوا آذانهم . وتزاحف النسوة والصبايا على الأسطح يقتربن ليرين صابرا وهو يغنى ...

ووقف صابر فى جلبابه الأبيض النظيف وعلى رأسه طاقية أنيقة بيضاء فيها قليل من صبغة زرقاء ، وعلى أحد عاتقيه كوفية منقوشة من الحرير وفى يديه أرغول طويل . وكان موقفه تحت أحد المصابيح فأضاء وجهه الأسمر الوسيم حتى ليرى المصفوران فى عارضيه . ودار صابر بعينيه فى الجالسين لحظة ، وهو يختلس النظر إلى الصبايا على الأسطح عن يمين وشمال ، ثم نفخ فى أرغوله لحنا قصيرا ، ما كاد يفرغ منه حتى وضع على خده الأيمن كفه وقد أظهر النور ما يخططها من وشم . وبدأ صابر بموال جديد فصاح فى صوته الممتلئ الجميل قائلا :

« صابر على الجر بس الحلو موش دارى »

وانتظر حتى قرت أصوات الاستحسان فقال «أنا اللى قلبى انكوى لكنى باداري» وانطلقت صيحات الشباب واشتدت حماستهم ، وانبعثت بعض الزغاريد من الأسطح . ثم ساد السكون ؛ ونظر السامعون إلى المغنى الشاب وقد أحسوا أن معانيه تنبعث من قلبه كعهدهم به إذ يغنى ، وبلوا مبلغ تأثره فيما تشكلت به أساريره فقد كان يبدو كأنما أخذته حال عن نفسه ثم صلصل حلقه بقوله « صابر على النار لا أهلى ولا دارى — ولا نعيم الصبا يطفى لهيب نارى » :

وما أتم هذا البيت حتى تصايح الشباب كأنما طاف بهم طائف من الجنون . فلما سكتوا عاد الفتى يقول « صابر على النار » وتوقف قليلا فصاح أحد السامعين وهو رجل عرف فى القرية بحسن النكتة قائلا « صابر على النار ؟ لا والله بل على الجنة يا صابر بعد طول عمر .. وهل يدخل النار من يغنى هذا الغناء ؟ » وضج السامعون بالضحك حتى النسوة فقد تضاحكن وعلا ظياطهن . وثاب صابر إلى نفسه فأضاءت وجهه ابتسامة جميلة

وأخذ صابر يغنى وقد ملأ السرور كل قلب ، ولكن ما راع الناس إلا نكتة سمجة باردة نطق بها ثقيل أحمق فكادت تفضى إلى معركة بين الشباب وبين قائلها ، وكان لها من سوء الوقع فى نفوس الناس بقدر ما كان لتلك النكتة الظريفة السالفة من حسن الأثر . فعندما وقف صابر عند قوله « ولا نعيم الصبا» سمع من يقول «نعيم أم نعيمة؟» وتلفت الناس فإذا بسالم هو صاحب النكتة. وأحرج أصحاب العرس ؛ وهم بعض الفتية بضرب سالم ، وأوشك العرس بذلك أن يستحيل إلى معركة ، لولا أن ظهر على قدعا سالما ونهره وصرفه فى غضب وتوعد

ونسى صابر ما حدث وعاد يغنى حتى أتم مواله ، وقد أوشك الليل أن ينتصف . وأقبل عليه أصحاب العرس والسامعون يحيونه ويثنون عليه قبل أن ينصرفوا

ونادى على صابراً فنحه جنيها ، وأخذه صابر فى استحياء وغبطة ، ورأى على فى وجهه شيئا من الانقباض ، فعزاه إلى ماحدث من سالم فنصحه ألا يهتم بذلك فحسبه أن الناس جميعا كانوا يعطفون عليه وحسب سالم ماصبه الناس عليه من سخط وازدراء

ومضى صابر إلى داره . ولكن شيئا آخر كان يقلقه ، فإن نفسه تحدثه أن نعيمة لم تشهد هذا العرس . وقد التمسها بعينيه بين الصبايا على الأسطح فلم يجدها ، وما يذكر أنه غنى فى عرس وغابت عنه ، وإنها لتحرص أن تجلس على السطح لحظة أول الأمر بحيث يراها ثم تندس بين

الفتيات ، وإنها لتسترعى انتباهه عند انصرافها إذا لم يرها أول الليل

وبلغ داره فوجد نبأ ما فعل سالم عند أمه قد حملته إليها أخته فتحية . وسألته أمه لماذا يتحرش سالم به وحذرته من شره وهى تغمغم مغضبة كأنما تحدث نفسها قائلة : مالنا ولهذه البنت ياناس ؟ أليس ابن خالتها أولى بها ؟

ونظرت فتحية إلى أخيها باسمة ، فقرأ فى وجهها ما تريد أن تقول ؛ فدنت منه حتى لا تسمع أمها وقالت : نعيمة لم تكن فى الفرح . علمت من صاحباتها أن أباها حرج عليها كما طلب منه شبل ابن خالتها

كادت نعيمة أن تبلغ الثامنة عشرة من عمرها . لو رآها من ليس يعرفها لخالها فتاة رائعة الحسن من بنات العلية فى المدن تزيت بزى قروية ، فوجهها الأبيض المتورد الجميل وعيناها الخضراوان المتألقتان وشعرها الأصفر الجزل ، كل أولئك قل أن يتفق لصبية من صبايا الريف . وهى إلى الطول أقرب منها إلى القصر . وإلى الامتلاء أدنى منها إلى النحافة ، بضة غضة ... وإنها مع ذلك لدقيقة الخصر مستوية القد جميلة الأطراف ، تسترعى الأبصار يداها الصغيرتان وقدماها الدقيقتان ، بقدر ما يسترعيها دلال مشيتها ومرح لفتتها وجرأة نظرتها وسذاجة ابتسامتها . وإنها لتضحك فى شىء من الرعونة وترفع صوتها الساحر العذب فى الحديث حتى ليحسبها الجاهل لعوبا ماجنة ، إذ هى فى الواقع محصنة ليست من المجون فى شىء .. ولعلها اكتسبت لون بشرتها ونعومة بدنها وبضاضته وجمال صوتها ، من أمها ، فلقد كانت لأمها شهرة بهذا كله أيام صباها ، ولا تزال لها بقية منه ، أما جمال وجهها ووسامته فمن أبيها ؛ فوجهه على الرغم من كهولته ناطق بما كان من رونق شبابه وقسامة محياه ، وأما سذاجتها ومرحها فمن أبويها معا ، فأمها ضاحكة أبدا عالية الصوت فى الضحك والحديث خفيفة رعناء ، وأبوها عذب الروح ، يضحك ملء نفسه مقهقها إذا روى نبأ أو ضرب مثلا ، وهو على قلة ما قسم الله له من رزق وكثرة من يعول من عيال قانع دائما متفائل لا يتسخط ولا يشكو .. ذلك ما اكتسبته نعيمة من أبويها ، أما خضرة عينيها وصفرة شعرها فليس يعلم أحد مصدرها

جن بها صابر ثم أحبته وشغفها حبا حتى صار حبهما حديث القرية كلها ومضرب المثل للحب فيها ، فهى حلم شبابه وأمل عيشه وملهمة أغانيه . وإنها لتزهى بذلك ولا تنكره إذا داعبتها به صويحباتها فتضحك ويخفق قلبها وتشيع البهجة

والنشوة فى جسمها كله . وإن كثيرا منهن ليحفظن مواويله ويعدنها عليها . فتذكرهن بعض ما نسينه منها

وكثيرا ما لقيها صابر ولقيته فى الحقول على غفلة من الناس ؛ وكثيرا مالقيها فى دار قريبة له هى صالحة بنت أبى العيش ، مع ابنتها زينب . وفى زحمة الأعراس كان يراها وتراه وتسمع مواويله وتتفطن أكثر من غيرها إلى معانيه ، وكثيرا ما أهدى إليها من الغواشى والمناديل التى تطرزها زينب على قدر ما تتسع له قروشه . وكان أهل القرية يتمنون أن تصبح له زوجا فهم يحبونه ويعجبون به ويعطفون عليه لدماثته واستقامته وبطولته ، فما عرفت القرية فزعا من حريق أو غرق أو عراك إلا كان صابر فى طليعة من يدفعون البلاء فى همة وتحمس . ثم إن الناس يعلمون ما فى قلب نعيمة من حب له ؛ لذلك أحب أهل القرية أن تزف إليه كأنما يرونها خير هدية تهدى إليه

ولكن خطيبها هو ابن خالتها شبل سميت عليه منذ طفولتها ، ويريد أبواها وأبواه ألا تكون إلا له ، وليس فى جانب صابر من أهلها إلا أخوها محمد فإنه يحب صابرا منذ صغرها ولا يزال على مودته له وإعجابه به ولذلك فهو متحمس لأن تزف أخته إليه

أما أهل صابر ، فأمه لا تميل ميله من أول الأمر مخافة أن يجره ذلك إلى نزاع لا قبل له به مع شبل وأهل شبل . وأبوه لا يلقى باله إلى ذلك فى كثير ولا قليل

وكانت نعيمة لا تطيق أن تسمع اسم شبل وما تنسى مرح طبعها وصفاء نفسها إلا حين يذكر لها صواحبها أنها سوف تكون له ، فتغضب وتهم أن تعبر بالكلام عن غضبها ثم تمسك عن الكلام فى جهد

ولكن ابن خالتها واثق من الظفر بها أو يكاد يثق بذلك ، فأبوها لن يعصى أمرا لأبيه ، وأمها خالته قبل كل شىء ، وأين صابر الذى يعمل حتى فى حمل الفحم والطوب، منه وهو ابن رجل ذى سعة فى الرزق . وليس ما يقلق شبلا إلا الأستاذ على فلمله بنفوذه وجاهه يستطيع أن يحدث شيئا ...

* * *

بكرت نعيمة وأمها بعد أيام إلى دار خالتها يعينانها فى خبز طحينها الكثير ، وكان فى الدار غيرها بعض نساء الحارة وفتياتها، كل تعمل عملا يتصل بالخبز وكانت نعيمة على غير عادتها عابسة صامتة ، وبخاصة كلما نظرت إلى فهيمة زوجة ابن خالتها الأكبر حسن، تلك التى كانت تبغضها ولا تحب أن تراها سلفة لها لطيشها كما اعتادت أن تقول ، وغيرة منها كما تقول نعيمة ضاحكة كلما علمت بذلك، وكأنما

أغرى صمت نعيمة وعبوسها الفتيات بها فرحن يعا كسنها . قالت إحداهن لخالتها : متى يعقد عقد نعيمة على شبل ؟

فضحكت خالتها قائلة : حالا بعد أن تخضر الأرض . وضحك كل من فى الدار إلا نعيمة فما ازدادت إلا عبوسا وتبرما . وكرهت أمها ذلك منها فلامتها أول الأمر بنظراتها . ثم ما لبثت أن وجهت إليها سيلا من ألفاظ السباب التى تجرى بها ألسن النسوة فى القرية وقالت : هل تستأهلينه ؟ إن ظفره بألف مثلك .

ولم تنفرج شفتا نعيمة عن كلمة أو ابتسامة ، وهى التى كانت ترى مرحة أبدا . ترفع صوتها بالضحك وتضحك كل من حولها . ودنت منها خالتها وتناولت ذيل ثوبها . وقد تدلت منه خيوط كأنها الأهداب الطويلة فقطعتها مخافة أن تعثر بسببها ابنة أختها كما قالت ، ونظرت نعيمة فوجدت خالتها تحتفظ بهذه الخيوط فى يدها فدهشت وقطبت واصفر وجهها قليلا .

ودخل شبل الدار وقد ارتفع الضحى يدفع حماره أمامه وقد جاء به من الحقل ليحمل عليه علفا وطعاما . وضحكت بعض الفتيات وسألته إحداهن لم لا يحيي عروسه؟ فضحك أولا ثم ما لبث أن عبس وأشاح بوجهه قائلا : عروسى ؟ عليها أن تتعلم من الآن كيف تحمل الطوب والفحم هى الأخرى .

وتضرج وجه نعيمة وازداد تألق عينيها الخضراوين من الغضب والتحدى الصامت فبدت كأنها هرة وحشية . ثم سمعتها بعض الفتيات تغمغم قائلة : وأحمل الطين أيضا لا دخل لأحد بى .

وسمعتها أمها فقالت : دعوها ... دعوا هذه المجنونة التى لا تستأهل النعمة .. ومن يترك دار العز هذه إلى ... ماذا أقول وهو ابن خالتها .. عشنا حتى رأينا البنت تخالف أهلها وتختار لنفسها ؟ ومن يقرها على قلة حيائها ؟ تنكسر رقبتها .

وظلت نعيمة طول نهارها صامتة عابسة حتى فرغت من عملها فسبقت أمها إلى دارها وملء نفسها العجب من خالتها إذ تحتفظ بتلك الخيوط التى قطعتها من ذيل ثوبها

* * *

أخذ حديث صابر ونعيمة يملأ القرية بالشائعات ، فالفتيات يتحدثن بأنها قالت لأمها إنها إذا زفت إلى شبل على رغم أنفها فسوف لا تعيش معه وإن قتلت . ويتهامس بعضهن أن حبها لصابر يبعث على الريبة فى أمرها . والفتية يتحدثون بأن سالما يتربص بصابر ، وأن بعض الناس شهدوا معه منذ أيام رجلا غريبا فظيع المنظر من الشاطئ الغربى أو بر البحيرة كما يقولون ، وقال

بعض النسوة إنهن شاهدن بأعينهن شيخا معمما بعمامة خضراء يحرق البخور فى دار أم شبل وذلك فى غيبة زوجها وبنيها ، وتهامسن أنه كتب لصابر بما يجمله يرزح كالميت ، وأن نعيمة سوف لا تطيق أن تسمع اسمه ، وسوف تحب شبلا بقدر ما كانت تحب صابرا.

وقال غير هؤلاء إن سالم هو الذى يأخذ المال من أم شبل ليعطيه لرجل يستحضر الجن، وقد رأى زوجها سالما فى الدار مرة فقال له لولا أنك فى دارى لحطمت رأسك وطرده ثم انهال على ابنه ضربا حتى ما استطاع الرجال أن ينقذوه منه إلا فى جهد ، وهم بزوجته ليضربها فحال بينه وبينها أهل الحارة

وكان الأستاذ على قد سافر فملل بعض الفتية سفره بأنه أراد أن يبتعد عن القرية ريثما يدبر العمدة مكيدة يزج بها سالما فى السجن حتى لا يذكر اسم على إن عرف أمر هذه المكيدة

وسألت فتحية أمها ذات يوم قائلة : هل تنفع الكتابة فيعجز صابر أخى ويرزح وهو لم يؤذ أحدا ؟

فقالت أمها : أية كتابة ؟ وما مناسبة هذا السؤال يا بنيتى ؟

فقالت فتحية : أم شبل كتبت لأخى والنبى ياأمى ... والنبى اكتبى له حجابا ... أيرزح صابر أخى ؟وس يطعمنا ومن يساعد أبى ؟ . وصرخت فتحية باكية وأخذتها أمها بين يديها وهى تبكى قائلة : حسبى الله ياولدى على من يريدك بسوء ... يارب أنت موجود .

ويعجب الناس إذ يرون صابرا وقد أخذ يشحب لونه ويضمر بدنه ! وقد ذهبوا مذاهب شتى فى تعليل ذلك . فقال بعضهم إنه الحب ولوعته، فقد حجبت نعيمة فى دارها ولم يعد يراها . وقال آخرون بل إنه الخوف من سالم وما يبيت له من غدر . وقال غير هؤلاء كلا بل إنه المرض . فقد شاهدوه أكثر من مرة منذ بضعة أيام يضع يده على جنبه ويتأوه أثناء العمل . وهو الذى لم يكن يعرف قبل ذلك ألما .

ويغالب بدنه القوى مابات يطرأ عليه مما يشبه العلة ، فيبدو أحيانا أنضر مايكون وجها وأحسن مايكون عافية ؛ ويتراءى أحيانا وفى وجهه سهوم وشحوب ، وفى مشيته تخلج ، وفى عينيه ألم ،ولقد رأته إحدى النسوة ذات مرة وهو على هذه الحال فهمست تقول لصاحبتها : وا كبدى ... لقد أخذت الكتابة تفعل فعلها فيه ... منهم لله القوى.. واعينى على شبابك ياصابر.. كان الله فى عون أمه المسكينة ... من لها بعده غير الله . .

* * *

صالحة زوجة أبى العيش أرملة تقيم هى

وابنتهـا زينب البالغة من العمر أربعة عشر عاما فى دار لهـا منعزلة فى الطرف البحرى للقرية ؛ بينها وبين الدور فى هذه الجهة نحو فدانين من الأرض الزراعية الخـالية من المبانى ، وبينها وبين الطريق الزراعى العام نحو ثلاثين مترا ، وتكاد تحجب وجهتها عن المارين بهذا الطريق شجرة توت كبيرة تقوم على مقربة من بابها ... ولهذه الأرملة غير ابنتهـا زينب ابن يعمل خادما فى إحدى المدارس بعاصمة الإقليم، ولا تـكاد تراه إلا حين يزورها مرة كل شهرين أو ثلاثة .

وبين صالحة وصابر صلة رحم بعيدة من ناحية أخواله الذين طواهم الموت . وكانت نعيمة صديقة لزينب، وكثيرا مالقيها صابر فى دار زينب إذ يسعى إليها بحجة أنه ينوب عند قريبته عن ابنها الغائب . وكان صابر يلم بدار قريبته هذه من حين إلى حين لأنه فى طريقه إليها يمر بدار نعيمة فيتواعدان بنظراتهما على اللقاء أو يكتفى بأنه ينعش روحه بنظرة منها وبخـاصة إذا غابت عن عينيه يوما أو يومين . ولـكن صـابراً لا يلم اليـوم بدار قريبته وفى القرية مافيهـــا من حديثه وحديث شبل .

وجاءت زينب ذات يوم إلى صابر تنبئه أن أمها تريد أن تراه فى دارها عقب المغرب وترجو منه ألا يتخلف أو يتأخر .

فلما غربت الشمس، أخذت صالحة ترقب قدوم صـابر أمام دارهـا ، حتى إذا غاب الشفق رآه مقبلا. فلما ألقى إليها التحية قالت وهى بين التبرم من تأخره والارتياح لمجيئه : أدخل فانظر من بالدار . فدخل صابر دهشا وإن أحس قلبه ماذا تريد صالحة بعبارتها ، ونظر فإذا نعيمة بالدار تجلس مع زينب على حصير فلم يـكد يصدق عينيه ولم يدر أول الأمر ماذا يقول وكادت تخونه قوته ،ودخلت فى إثره صالحة فقالت : جاءت نعيمة تأخذ مناديلهـا من ابنتى وقد طرزتها كما أرادت. وابتسمت نعيمة متظاهرة بالموافقة ، وفى لمح عينيها أنها جاءت لترى صابرا حيث طلبت أن تراه .

وسلم صابر فردت زينب تحيته وغمغمت نعيمـة . ثم مضت زينب لتعد الشـاى ، وانصرفت أمها إلى خارج الدار فقال صابر : نعيمة .. كيف أرد لك هذا الجميل ؟ لقد ضاقت بى الدنيا لغيابك عنى .. كفانى جميلك هذا ولو مت غدا لخرجت من الدنيا مستريح البال ... لقد سمعت أنهم حجبوك ، وكنت أقضى الليالى ساهرا أتساءل كيف أراك ... كيف أرد لك هذا الجميل يانعيمة ؟ .

وأخـذت نعيمة تنـكت التراب بعود قصير من القطن فى يدها . وارتاع صابر لما رآه من هم فى وجهها فأمسك بيدها القبضة

الجميلة ووضعها بين كفيه القويتين وسألها مابك يانعيمة ؟ فرفعت إليه عينيها الجميلتين قائلة : احذر من سالم ياصابر . ألم تفكر فى أن تلبس حجابا يحميك ؟

فضحك صابر قائلا : صدقينى . أنا لا أعبأ بسالم هذا ولا بعشرة من أمثاله ، وماهو إلا دجال يحتال على ابن خالك لا غير، وأنا أفهم ألاعيبه . أما الحجاب والكتابة فكلها كلام فارغ لا أصدقه، وما دمت لى يا نعيمة فلا أبالى بشىء . ثم ضغط على يدها قائلا: لن أعيش يوما واحدا يا نعيمة إذا صرت لغيرى .

وحملقت نعيمة لحظة فى وجهه، ثم انحدرت دمعتان على خديها ولم تجب . وأطلق يدها فأدخلتها فى جيبها وأخرجت منه حجابا وناولته إياه مبتسمة ؛ فأخذه ودسه فى جيبه ضاحكا وهو يقول : سيكون حجابك أغلى عندى من كل شىء، وسيحمينى فلن أخاف! وشكرته بنظرة ثم قالت : عشت ياصابر، وأنت ... أنت أغلى عندى من عينى

وهم صابر بأن يأخذها بين ذراعيه ، ولكن زينب أقبلت بالشاى . ونهضت نعيمة معجلة إلى دارها معتذرة بأنها تأخرت ووضعت يدها المرتعشة فى يد صابر مسلمة ثم تلثمت بطرحتها وغادرت الدار مسرعة

* * *

غاب صابر عن رفاقه أياما فلم يعودوا يرونه فى عمل أو يسمعونه فى عرس . وقال أحدهم ذات مساء لصاحب له: ياأخى، يظهر أن السحر والكتابة لها أثرها ! فهذا صابر الذى كان بيننا كالبكر قد برك ... أليس فى قلوب هؤلاء الناس رحمة ؟

فقال صاحبه : ما الكتابة ؟ وما السحر ؟ هذا كله كلام فارغ ... صابر يشكو من جنبه فى مثل هذه الأيام من كل عام ، وذلك منذ أكثر من سنتين ، ولكنه لم يهتم لقوته وعافيته ؛ ولأن الألم كان لا يمكث إلا بضع ساعات . وقد رأيته منذ أيام وقد ترك الطنبور فى الحقل وعاد إلى القرية يلهث ويده على جنبه وهو يكتم ألمه ويغالب مرضه ؛ وقد سألته فقال إن مرض جنبه اشتد عليه . والحقيقة أنه لو كان هذا المرض فى جسم غير جسم صابر لهده من زمن؛ ولكنه كان يتكل على عافيته ولا يبالى ولا يعالج نفسه . أما السحر وغيره فخرافات نساء .. وقد سألت الواعظ عنها فقال هذا جهل ووهم ولا يصح أن نصدقه . وما دخل السحر فى أن يتبول صابر الدم والصديد ؟ فقد حدثنى محمد شحاته أخو نعيمة أنه رأى فى بوله كثيرا من الدم

وذهب الفتيان إلى دار صابر ليعوداه فوجدا فيها كثيرا من صحابته وسرا إذ رأياه معافى لولا شحوب فى وجهه وضمور

قليل فى بدنه . وكان رفاقه يديرون (الجوزة) بينهم ويدخنون المعسل ويضحكون فرحا بشفائه ، وكانت فتحية تزيد النار فى الكانون تحت قدر كانت كلما فرغت ملأوها مما أحضروه معهم من الشاى وشربوه أسود كالمداد . وشرب صابر من هذا الشاى وقدمت له (الجوزة) وراح أحد الفتية يقلده وهو يغنى ولكن فى صوت أشبه بتنعاب الغراب شد ما ضحك منه هؤلاء السامرون الذين أفرحهم شفاء صابر

وجاءت أمه حسونة بوعاء فيه ماء ونار فألقت فيه بالملح وأدارته فوق رؤوس الفتية، وهى تدعو أن يصيب الملح إذ يتطاير عين الحسود وعين من لا يصلى على النبى

وكان محمد شحاته أكثر الفتية فرحا بشفاء صابر ، فأخذ الوعاء من أمه وأداره ضاحكا عدة مرات حول صابر ، وهو يقول مشيرا إلى ذلك الفتى الذى كان يقلد غناءه « سيغنى لك هذا ليلة زفافك يا صابر ليعلم الناس أن فى القرية من يفوقك » وقال بعض الفتية « ستكون ليلة فرح صابر فرح البلدة كلها » وأشار أحدهم إلى عجلته فى العريشة وقال « صارت العجلة تساوى مقدار المهر يا صابر » وقال آخر « لا .. مهر نعيمة أعظم من هذا .. إنها تساوى قدر وزنها من الذهب » ونظرت حسونة فإذا جودة زوجها قادم من القهوة وقد تقدم الليل ، فأخذ الفتية ينصرفون إلى دورهم

ولما خلت الدار منهم نظر الرجل إلى ابنه قائلا « الحمد لله يا صابر على شفائك .. الدار من يوم أن رقدت يا ابنى وكأنها خراب ، والقيراطان إن لم نتدارك الذرة فيهما يعوض ربنا علينا »

فقال صابر « لا تخف يا أبى فسأدفع ثمن السماد حين أقبض بعض الأجر المتأخر لى عند عمر البناء وغيره .. وستصبح الذرة بإذن الله أحسن زرع فى البلدة »

* * *

امتلأت منظرة الحاج عثمان بدر عصر ذات يوم بنفر من أقاربه وأصحابه وجيرانه حتى لم يبق مكان خال على دكة من دككها الخشبية التى تدور بجدرها وكان شحاته ... الخولى فى ركن منها قريبا من الحاج عثمان . وكان شبل وابن خالته محمد شحاته يجلسان على مصطبة خارج المنظرة تحت نافذة من نوافذها

وبعد أن شرب الضيوف القهوة قال الحاج عثمان يخاطب شحاته « لم تقل لنا يا شحاته متى تبت فى هذه المسألة . متى تذهب إلى دارك لتخطب البنت نعيمة لابن خالتها ؟ أردت أن أكلمك أمام أسيادنا

البقية على ص ٧٤

الغرفة الزرقاء

للقصصي الفرنسي بروسبير ميريميه

بقلم الأستاذ محمد عبد الفتاح محمد

انطلق الشاب يذرع رصيف المحطة فى قلق واضطراب . كان يضع على عينيه نظارة زرقاء . وكان يخفى أنفه بمنديل برغم أنه لم يكن يشكو الزكام . وكان يحمل بيده اليسرى حقيبة سوداء صغيرة ، تحتوى — كما علمت بعد — على « روب دى شامبر » من الحرير الأزرق وبعض السراويل التركية.. وكان بين الحين والحين يذهب إلى مدخل المحطة فيلقى على الشارع نظرة يلقى بعدها إلى مكانه . وأخيرا نظر فى ساعته فوجد أن أمامه ساعة كاملة على بدء تحرك القطار . وهكذا نرى بعض الناس ، حرصا على اللحاق بالقطار يذهبون إلى المحطة قبل الموعد بساعة أو يزيد ، على حين نراهم فى بيوتهم يحترمون مواعيد طعام الغداء احتراما شديدا ! وكانت مركبات الدرجة الأولى شبه خالية . فقلما وجد الإقبال على ركوب الدرجة الأولى

وحين أخذ الركاب يتقاطرون على المحطة ، أدرك الباريسى الأنيق ، من مجرد استعراض وجوههم ، أنهم من الفلاحين وصغار التجار .. وكان الشاب ذو النظارة الزرقاء يحس بقلبه يضطرب بين جنبيه حين يرى مخلوقا يدخل أو عربة تقف بالباب . بل إن ركبتيه كانتا ترتعدان . وقد لا يكون من المغالاة إذا قلت إن الحقيبة كانت للهفته تسقط من يده وتنحدر النظارة على طول أنفه ، فتبدو للعابر لو رآها هكذا أنها فى وضع مهمل لا أقل ولا أكثر

وأخيرا دخلت امرأة مجللة بالسواد من باب جانبى لا يغرى بمراقبته ، وعلى وجهها نقاب صفيق ، وتحمل فى يدها حقيبة بنية اللون تحتوى — كما عرفت بعد — على روب حريرى رائع وخفين من حرير الساتان الأزرق

دنت المرأة من الشاب ودنا منها . وتلفتا ذات اليمين وذات الشمال ؛ ونظرا ماشاءا أن ينظرا أمامهما إلى أن التقيا فتصافحا . غير أنهما تلبثا بضع دقائق دون أن ينطقا بحرف ، وكان جسداهما يختلجان لما يصطخب فى صدريهما من انفعال .. انفعال أحتاج لكى أصفه إلى دراسة علم النفس مائة عام سويا

وهتفت الشابة قائلة : ليون !

.. آه .. نسيت أن أذكر أنها كانت فينانة الشباب، رائعة الحسن

— ليون ! ماأشدسعادتى ياليون ! آه ! هذه النظارة الزرقاء ! لم أكد أعرفك بها

فقال : وأناياحياتى كدت لاأعرفك بهذا النقاب الصفيق

فقالت : إننى نشوى من الفرح..هلم إلى مكاننا فى القطار . ماذا لو برح القطار من دوننا ؟ ثم ضغطت على ذراعه قائلة: لقددبرت كل شئ تدبيرا حسنا.. إننى الآن مع كلارا وزوجها فى سبيلنا إلى عزبتهما حيث أقضى معهما ليلة أبرح فى صباحها .. و ...

وضحكت ثم قنعت رأسها وقالت :

ولقد خرجت مع كلارا منذ ساعة . وفى الغد بعد أن أبيت معها الليلة الأخيرة ، وضغطت على ذراعه مرة أخرى ، ستصحبنى كلارا إلى المحطة حيث أجد « أرسول » الذى أرسلته إلى عمتى .. أرأيت كيف دبرت الأمر فأحكمت تدبيره ؟ هلم إلى شراء التذاكر..محال أن يكتشفوا أمرنا . ولكن يالله ! . . بماذا نجيب لو سئلنا عن اسمينا . لقد فاتنى هذا

فقال : ليكن اسمانا « مسيو ومدام دورو »

فقالت : لا ... غير هذا الاسم ، فى حينا بائع أحذية بهذا الاسم

قال : إذن « دومون » أيعجبك ؟

فغمغمت : دومون !

فقال : على حال كل ، لا تراعى ، فلن يسألونا عن شئ

ودق الجرس ، فاندفعت المرأة بقناعها المسدل على وجهها إلى إحدى العربات ومعها صاحبها . وعندما دق الجرس دقته الثانية ، أغلق عليهما حمال باب الديوان فهتفا فى جذل:

— وحدنا أخيرا !

ولكن بعد لحظة ، اقتحم عليهما الديوان رجل فى الخمسين من العمر فى رداء أسود ، عابس الوجه ، مقطب الجبين ، وانزوى جالسا فى الركن القصى ... ودوى صفير القطار ، وبدأ يتحرك . وكأنما ضايقهما هذا المقتحم الثقيل ، إذ ابتعدا عنه ما وسعهما ، وأخذا يتهامسان بالإنجليزية درءا للشبهات

— سيدى !

انطلقت هذه اللفظة من الراكب الثالث بالإنجليزية أيضاً ، ولكن فى لهجة أسلم من لهجتهما :

ثم قال : إذا كان حديثكما مما تحرصان على كتمانه فاستعملا لغة غير الإنجليزية فأنا إنجليزى الجنس . وبعد فمعذرة لاقتحامى الديوان عليكما . إذ كنت فى العربة الأخرى، وكان بها رجل واحد، ولا أخشى أكثر من السفر فى عربة مع رجل واحد . لقد

كان الغدر والشر تلمع بهما عيناه . ولعله قد سال لعابه حينما رأى هذه

ثم أشار إلى حقيبته التي كان قد ألقى بها على المقعد أمامه . وأردف الرجل :

— أما إذا لم أستطع النوم ، فسوف أقرأ

وأخرج من الحقيبة غطاء لرأسه ثم أغلق عينيه لبضع دقائق ، بيد أنه فتحهما فى تبرم وأخرج من الحقيبة نظارة وكتابا لاتينيا ، ثم استغرق فى قراءته . وقد حدث بينما كان يبحث عن الكتاب أن قلب محتويات الحقيبة ، وأخرج بعضها إلى المقعد . وكان من بينها حزمة من أوراق النقد الإنجليزى . وقبل أن يعيدها إلى الحقيبة ، رأى الشاب إياها وسأله عما إذا كان يستطيع تحويل هذه الأوراق إلى عملة فرنسية

فأجابه : أظنك تستطيع ذلك فى مدينة (بجلند) وكانت بجلند هى المدينة التى يقصدها الشابان . وكان بها فندق صغير ، ولكنه نظيف أنيق . وكان غالبا ما يكتظ بالنزلاء وبخاصة فى عطلة الأسبوع . وكانت غرفه نظيفة نسبيا . ولا يمكن أن نقارن طبعا بين فندق بجلند وأحد فنادق باريس . وكان ليون قد زار الفندق قبل هذا ولكن بدون نظارة زرقاء . وبعد أن أشاد بالفندق من حيث الموقع والنظافة والخدمة ، تلهفت حبيبته إلى زيارته . هذا إلى أنها كانت فى حالة من السعادة والابتهاج حتى لترى أن السجن مع ليون هو جنات النعيم

واتخذ القطار سبيله لا يلوى على شئ .

واستغرق الإنجليزى فى قراءة كتابه دون أن يحفل بالنظر إلى رفيقيه فى السفر اللذين انطلقا يتناجيان فى همس هو أسلوب العاشقين منذ القدم . وقد لا أثير دهشة فى نفس القارئ إذا قلت إنهما كانا عاشقين هاربين . أما ما يبعث على الدهشة حقا والاستنكار ، فهو أنهما لم يتزوجا ولا حتى أزمعا الزواج استسلاما منهما للعقبات التى تعترض زواجهما وبلغوا طينهم . وكان الإنجليزى هو أول من غادر القطار ، وبينما كان ليون يساعد حبيبته على النزول اندفع من عربة مجاورة رجل هبط إلى الرصيف . كان شاحب الوجه ذا عينين غائرتين ينبعث منهما الشر ، وذقن مدببة . كان مظهره مظهر رجل مجرم بفطرته ، وكانت ثيابه نظيفة تغشاها البلى . وكان معطفه أسود اللون يوما ما ؛ أما الآن فقد أصبح أخضر داكنا على الكتفين والظهر . وقد ضمه إلى عنقه وربما كان ذلك ليخفى سترته العتيقة البالية . . وقد تقدم إلى الرجل الإنجليزى وهتف فى لوعة : عماه !

— فصاح به الكهل الإنجليزى وعيناه تتقدا غضبا

— اغرب عن وجهى أيها الشقى

ثم هرول يبغى الخروج . فقال الشاب فى لهجة تجمع بين اليأس والتهديد

— لاتدفعنى إلى هاوية اليأس

فقال الإنجليزى لليون : ارع بنظرك هذه الحقيبة ثم ألق بالحقيبة عند قدميه ، وقبض على ذراع الشاب الذى اعترضه وانتحى به ركنا مهملا ونهره فى خشونة ثم أخرج من جيبه بعض الأوراق المالية ودسها فى يده فأخذها دون أن يعنى بشكره وفارقه ثم اختفى

وكان بالمدينة فندق واحد . إذن فلا عجب أن اجتمع أشخاص هذه القصة مرة أخرى بعد بضع دقائق . . وفى فرنسا تكون أجمل غرفة فى الفندق عادة من نصيب الرجل الذى يتأبط ذراع امرأة أنيقة. مما يدل على أننا أرق شعوب أوربا جمعاء

وإذا كانت الغرفة التى أعدت لليون وصاحبته هى أحسن غرفة فى الفندق ، فعلينا إذن أن نصدق أنها كانت حقا غرفة فاخرة . كان بها سرير خشبى كبير ، وعلى نوافذها أستار من المخمل نقش عليها بلون بنفسجى أسطورة «بيراموس وتيسب» أما الجدران فكانت مكسوة بورق بلون رسم عليه أحد مناظر مدينة نابولى ، وتناثرت عليها رسوم ووجوه مختلفة ، عمد بعض النزلاء الماجنين إلى تشويهها بإضافة رسم الشوارب والغلايين إليها ، سواء فى ذلك وجوه الرجال أو النساء . هذا إلى جمل حمقاء كتبت بالقلم الرصاص على موضع السماء والماء فى الرسم . وعلى أحد الجدران كان ثمة نقوش أخرى تمثل بعض الأحداث التاريخية مثل لويس فيليب وهو يحلف اليمين فى ٢٦ أغسطس سنة ١٨٣٠ ، ومثل اللقاء الأول بين جوليا وبين القديس بريه ... إلى غير ذلك ... وكانت الغرفة مشهورة باسم الغرفة الزرقاء ، ذلك لأن المقعدين الكبيرين بها اللذين يحفان بالموقد ، كانا مكسوين بقطيفة هولاندية من ذلك اللون ، بيد أن اللون اختفى منذ بعيد تحت كسوة جديدة رمادية اللون لامعة يتناثر عليها تطريز على هيئة ورود ملونة صنوفها مختلفة الأصناف

وترك ليون حبيبته تعنى خادمة الغرفة بشؤونها ، وذهب إلى المقصف ليوصى بإعداد طعام العشاء ، وكان يحس ضيقا رغم وجوده فى جو مشبع بروح الحب الندى وأنسام الهوى العاطرة . وكان عليه أن يبذل جهدا فى إقناع أولى الشأن فى الفندق كيما يعدوا له عشاء خاصا . بل كان عليه أن يلجأ إلى الرشوة لبلوغ قصده ولكنه دهش حين وجد أن ذلك سهل ميسور دون حاجة إلى قوة إقناع ، أو مال . فقد قيل له إن مائدة الفندق العامة الملاصقة للغرفة الزرقاء مشغولة

الليلة بفرقة ضباط الفرسان الثالثة التى كانت ماضية لتحل محل فرقة الضباط المشاة ومعنى هذا أن الطعام الجيدسيتوفر الليلة فى الفندق لهذه المناسبة

وقد أقسم صاحب الفندق بأغلظ الأيمان أن هؤلاء الضباط من بين جنود فرنسا أجمعين، يمتازون بأخلاق كريمة ، وأن تصرفاتهم لاتدفع إلى الشكوى ولاالامتعاض .وأكد له أنهم لن يزعجوا السيدة وصاحبها بوجودهم على مقربة من غرفتهما ، هذا ولو أنهم لاينتهون من العشاء إلا قبيل منتصف الليل

واهتم ليون لهذا الأمر وحسب حسابه . ورأى من الأحداث كذلك ، أن الرجل الإنجليزى نزل بالغرفة الملاصقة لغرفته. وكانت الغرفة مفتوحة فى أثناء مروره بها ، فرأى خلال بابها الكهل الإنجليزى جالسا إلى مائدة صغيرة عليها زجاجة من خمر وكأس مترعة ، وقد علق بصره فى سقف الحجرة فى استغراق واهتمام كأنما كان يحصى عدد الذباب الذى كان يتواثب عليه ويحوم حواليه.

وقال ليون يحدث نفسه :

وماذا يهمنا أن يكون أى صنف من الناس جارا لنا ؟ سيستغرق الإنجليزى فى سكره بعد قليل ، أما عن الضباط فلسوف يبرحون قبل منتصف الليل

وكان أول شئ فعله ليون حين عاد إلى الغرفة الزرقاء ، أن اختبر الأبواب . كان الباب الذى يفصل بينه وبين الإنجليزى من خشب سميك كما كان الجدار سميكا أيضا . أما الباب الموصل إلى مائدة الضباط فقد كان من خشب دقيق ولكنه كان على أية حال ذا رتاج ومفتاح . على كل حال كانت خلوتهما أمنع للفضول والتطفل من خلوة فى عربة كل ما فيها من حواجز ستائر مسدلة . وبعد فكم من العشاق من يزعم حين يختلى فى عربة أنه ابتعد عن أعين الدنيا بأسرها !

وأى خيال شاعر مهما أوتى من قوة التعبير ، يستطيع أن يصور تلك السعادة التى يختلج بها قلبا عاشقين صغيرين التقيا بعد طول بعاد .. وأى لقاء ! لقاء فى خلوة آمنة بعيدين عن أعين العواذل والرقباء والفضوليين يطرحان متاعبهما وينفثان عن أشواقهما وينعمان بهوى ضارم مشبوب . . ولكن كثيرا ما يتلمس الشيطان بعض الأساليب ليصب بضع قطرات من العلقم فى كأس السعادة ذات الخدر الحالم اللذيذ ...

إذ حدث أنه بينما كان ليون ومالكة قلبه يتناولان عشاء متواضعا لذيذا توفر مما أعد للضباط ، إذ امتعضا وتقززا مما اشتمل عليه حديث السادة فى غرفة المائدة المجاورة من كلمات مكشوفة وألفاظ نابية . كانت أحاديثهم بعيدة كل البعد عن المعارك الحربية

والخطط الاستراتيجية .. ولعلى لا أستطيع أن أزجى للقارئ الفاضل مثلا من هذه الألماظ . وكانت الضحكات الصاخبة تتفجر من حناجرهم بين الحين والحين. وكم أزعجتهما هذه الضحكات .. ولم تكن صاحبته من ذوات المزاج الحاد ، وإنما هناك أشياء تمج المرأة سماعها وبخاصة إذا كانت مع الرجل الذى تهواه . وصارت الحال لاتطاق. وحين بدأ الضباط يتناولون الحلوى ، كان ليون فى سبيله إلى صاحب الفندق يرجو منه أن يطلب إلى هؤلاء السادة أن يكفوا عن إحداث كل هذه الجلبة وأن لايسرفوا فى مجونهم الفاضح تلطفا منهم لوجود سيدة مريضة فى الغرفة المجاورة

وحار صاحب الفندق — كما هى عادة أمثاله إزاء ضباط الجيش — كيف ينقل إليهم هذه الرسالة . وما كاد ليون ينتهى من رجائه ، حتى أقبل نادل يطلب زجاجة شمبانيا للضباط ، وخادمة أخرى تطلب زجاجة من النبيذ البرتغالى للكهل الإنجليزى ثم أضافت الخادمة :

علما بأنى قلت له إنه ليس لدينا خمر برتغالية . فقال صاحب الفندق معنفا إياها :

— يالك من حمقاء ! مالك ولهذا . أهى معضلة أن نصنع خمرا برتغالية فى فرنسا .. سأمزج له سريعا زجاجة كأنها آتية لفورها من البرتغال

وبعد أن مزج الرجل الخمر المطلوبة ؛ ذهب إلى الضباط يبلغهم رسالة ليون

وهبت بين الضباط عاصفة حين سمعوا مقالة الرجل ، وانشق من بينهم صوت آمر ساد الصمت على أثره وتساءل هذا الصوت أى صنف من السيدات هذه الجارة المريضة . فقال صاحب الفندق :

— ثقوا يا سادة أنها جد قانتة ، كما أنها خجولة كزنبقة طاهرة ، ولقد أنبأتنى مارى جان أنها تضع فى بنصرها خاتم زواج ، لذا أعتقد أنها عروس جاءت مع عريسها لقضاء شهر العسل هنا كدأبهن دائما

فانفجر أربعون صوتا تهتف :

— عروس ! لابد أن تنضم إلينا وتشرب معنا . سنشرب جميعا نخب العروس الحسناء. ولسوف نعلم زوجها كيف يتصرف معها

وارتفعت أصوات الضباط تحمسا للرأى المقترح . فارتعد العاشقان حسبانا منهما أن الضباط سيقتحمون عليهما الغرفة . ولكن عاد الصوت الآمر يزجرهم . أمرهم بالصمت ثم حادثهم فى همس لم يصل إلى آذان من فى الغرفة الزرقاء . لقد إقترح عليهم وسيلة أخرى للتسلية ، لم يثوروا لها فرحا ، وإنما تقبلوها فى تقدير وإعجاب

على أثر ذلك ساد صمت شامل ، وجمد

صاحبانا العاشقان للصوت الآمر صنيعه . وبدءا ينعمان بهمسات العشق و بجوى الغرام ، بيد أن نصب السفر وذلك الأثر الذى تركه عبث الضباط فى نفسيهما ، لم ينجابا عنهما إلا بعد فترة طالت على عاشقين . وإن اثنين فى مثل سنهما الشابة الزاخرة ، لا يجدان كبير مشقة فى التخلص من متاعب تتحالف على هاربين فى الهوى ، وسرعان ما أوغل كل منهما فى الاستمتاع بوقته واغتنام لذة ساعته

وخيل إليهما أن ما يخشيانه من الضباط قد انجاب وانجلى ؛ ولكن ما كان هذا مع الأسف إلا هدنة قصيرة إذ حدث فى تلك اللحظة المرموقة ، تلك اللحظة التى كانا يحلقان فيها فى آفاق من السعادة المطلقة أن تفجر صوت أربعة وعشرين بوقا مصحوبة بأصوات أخرى من آلات نحاسية فى نشيد مشهور بين الفرنسيين هو «النصر لنا» وكيف يطيق أى مخلوق مهما أوتى من قوة الاحتمال ، مثل هذه الجلبة الهادرة

وانقلب العاشقان المسكينان إلى حالة تدعو إلى الرثاء

ولكن . . كان ما أعقب ذلك أدهى وأمر .. إذ خرج الضباط فى النهاية من غرفة المائدة وتقاطر مرورهم بخطواتهم المنتظمة والمزعجة أيضا ، حتى إذا وصل كل منهم إلى باب الغرفة الزرقاء صاح بأعلى صوته : « طابت ليلتك أيتها العروس »

والآن ... اختفت الجلبة وعم الصمت .. لا . عفوا فقد أخطأت .. إذ خرج الإنجليزى إلى الردهة وصرخ قائلا : « يا ساقى ! إلى بزجاجة من هذا الشراب البرتغالى المدهش ! »

وأخيرا ، ساد الهدوء فى الردهة الصغيرة . وكان الليل فى روعة وسحر وجلال ، وكانت الأنسام تهب طرية ندية فتثير كوامن الشوق والحنين ، وكان القمر الزاهر يضفى على الكون نورا فضيا ساجيا يوحى بالشعر ويبعث الأحلام .. آه ! وعلى ذكر القمر ، لا يذكر التاريخ متى بدأ هيام العشاق بالتطلع إلى القمر وبالتغنى بضوء القمر ...

فتح ليون وصاحبته النافذة وكانت تطل على حديقة صغيرة واستقبلا نسائم الليل الفواحة بعطر الأزهار المحملة بترانيم الأطيار . ولم يطل بهما الوقوف فى النافذة . كان فى الحديقة رجل مقنع الرأس يعقد ذراعيه على صدره ، وبين شفتيه سيجار مشتعل . وقد عرف فيه ليون ابن أخى الإنجليزى الولوع بالخمر البرتغالية الجيدة

إننى أكره ذكر التفاصيل كلها ؛ كما أنه ليس مفروضا على أن أذكر للقارئ كل صغيرة وكبيرة تحدث فى الفندق . . إذن

حسبى أن أقول إن الشمعة الموقدة والمثبتة على رف الموقد فى الغرفة الزرقاء ، كانت قد أوشكت على نهايتها حين انفجر من مخدع الرجل الإنجليزى الذى كان يشتمله الصمت حتى الآن ، صوت جلبة شديدة ثم صرخة مكتومة وبضع كلمات مبهمة كأنها سباب وشتائم

واستولى الفزع على الشابين فى الغرفة الزرقاء ، ولعل صوت السقوط كان قد أيقظهما من النوم ؛ إذ أن هذه الجلبة المجهولة قد كست وجهيهما بالحنق والسخط على حظهما التعس . وتكلف ليون ابتسامة تخللها قوله : — إنه صاحبنا الإنجليزى يحلم

وما كان قوله هذا إلا لإبعاد الخوف عن رفيقته ؛ ولكنه هو نفسه كان يرتعد فى شكل ظاهر . ومرت دقيقتان أو ثلاث ، سمعا بعدها بابا فى الردهة يفتح فى حذر — على ما يبدو — ثم يغلق فى هدوء وكأنما كان امرؤ يسير فى الردهة خفيف الوطء مضطرب الخطى ، كأنه فى أغلب الظن يحرص أن يمر دون أن يسمع وقع خطواته أحد . وصاح ليون فى سخط وتبرم قائلا :

— أى مكان هذا المكان الملعون ؟

فقالت : — بل إنه الفردوس

ثم ألقت برأسها على صدر ليون وتثاءبت قائلة : ما ألذ النوم !

وتنهدت ثم رقدت وسرعان ما غلبها النوم ثانية . بيد أن ليون كان متوتر الأعصاب . وبدأ خياله يصور له أشياء لم يكن ليعبأ بها فى ظرف غير هذا ... ارتسم على صفحة ذهنه المرهق ابن أخى الرجل الإنجليزى المنحوس . لم تكن قد أعجبته نظرته إلى عمه فى أثناء توسلاته حين كانا يتحادثان فى المحطة . كان يسأله نقودا ولا ريب . وليس من العسير على شاب ملأ اليأس صدره أن يتسلق من الحديقة إلى نافذة الغرفة الملاصقة ، ثم هو ما زال فى الفندق فقد رآه فى الحديقة منذ قليل .. من يدرى .. ربما ... أجل ربما ... بل من المؤكد أنه كان يعلم بحزمة الأوراق المالية فى حقيبة عمه . ثم هذه الضربة الشديدة التى تشبه سقوط هراوة ثقيلة على رأس أصلع ، وهذه الصرخة المكتومة ، وهذا الأنين الأليم ، ثم هذه الخطى الزاحفة الحذرة ، إن لابن الأخ هذا لنفس مجرم قاتل .. ولكن كيف ؟ إن فندقا غاصا بالضباط ليس بالمكان اللائق لارتكاب جريمة ... ثم إن الرجل الإنجليزى ، وهو متشكك مرتاب ، لابد أنه قد أغلق بابه جيدا ، ولاسيما وهو يعلم أى نوع من الرجال يحوم حوله .. إنه لا يثق به ، وآية ذلك أنه لم يشأ الذهاب إليه وبيده الحقيبة .. حين دعاه ،

ولـكن يا لله ! لماذا ينقب الإنسان عن أوهام تنغص عليه وقته الهنئ إبان سعادته ؟

هذا ما دار بخاطر ليون ... ومن بين أفكاره هذه التى لا أحب أن أجعل القارئ يمل من الإطالة فى وصفها ، والتى مضت تتتابع فى خياله كرائى الأحلام ؛ ألفى بصره يتجه دون قصد منه إلى الباب الفاصل بين الغرفة الزرقاء وبين غرفة الإنجليزى

ويخلق بنا أن نشير إلى أن الأبواب فى فرنسا لا تـكون محكمة وإن أغلقت . كان بين هـذا الباب وبين أرض الغرفة فتحة ارتفاعها نصف بوصة . وعلى حين فجأة ومن خلال هذه الفتحة تبدى له شئ قاتم اللون يبرق من طرفه ما يشبه سلاح مطواة انعكس ضوء الشمس على نصلها . ومضى هذا الخط القاتم من طرف ، اللامع من طرفه الآخر ، يزحف فى بطء تجاه خفين من الساتان الأزرق ألقيا فى إهمال على مقربة من الباب .. ماهذا .. أتراه حشرة زاحفة؟ كلا . . ما هو بحشرة ، فما له هيئتهـا .. الآن أقبل خطان .. بل ثلاثة بنفس الجانب اللامع البراق تزحف إلى الغرفـة الزرقاء . وكانت حركتها سريعة بفضل انحدار أرض الغرفة .. الآن قد برح الخفاء .. إنه سائل، وإن لونه ليبدو الآن واضحـا فى ضوء الشمعة .. إنه دم .. وبينا كان ليون جامدا لا يتحرك ، يحدق النظر فى فزع إلى الشئ الرهيب ، كانت الشابة مستسلمة لنوم هادئ وأنفاسـها الدافئـة المنتظمة تلفح عنق الرجل الهلوع

وكان ليون شابا متزن التفكير ، يدل على ذلك أنه أمر أول ما نزل بالفندق بإعـداد طعام العشـاء .. لذلك وضع لـكل أمر احتماله ؛ ولم يفقد حضور بديهته ورباطة جأشه فى هذا الموقف .. لم يأت بأية حركة تدل على انفعاله ، بل صعدت جميع الدماء إلى رأسه لاسـتنباط حيلة تخلصه من ذلك الموقف الصعب الذى يحيط به

ولعل القراء الأعزاء وخاصـة السيدات منهم ينكرون على ليون هلعه وانهيار أعصابه ، ولعله يقال إنه كان حتما عليه أن يسرع إلى غرفة الرجل الإنجليزى ليعتقل قاتله ، أو على الأقل كان عليه أن يقرع جرس غرفته ويثيرها ضجة فى الحانة كلهـا . ولـكن ليون له معاذيره ؛ إذ يجب أن يدرك القراء أن حبل الجرس فى الفنادق الفرنسية ، إن هو إلا بعض زينة غرف النوم والمخادع ، وغالبـا ما يفتقر إلى آلة معدنية تقوم بالغرض المنشود ، كما يجب أن أضيف بكل تحفظ ولـكن بإصرار على رأيى ، أنه ليس من السهل على عاشق يستقر على كتفه رأس حبيبته النائمة أن يزعجهـا بأمر جريمة حدثت فى الغرفة

المجاورة قتل فيها إنجليزى . . فما يستحق مقتل أجنبي كل هذا العناء .. هذا إلى أنه ماذا كان يحدث لو أن ليون صاح بملء صوته وأيقظ الفندق كله . سيأتى رجال البوليس والمحققون ، وبدلا من أن يسألوه عما رأى وما سمع ، سيراهم بدافع الفضول يستجوبونه هكذا : « ما اسمك ؟ وأين أوراق شخصيتك ، والسيدة .. ما اسمها وما علاقتها بك . ولماذا تقيمان معا فى هذه الغرفة الزرقاء .. عليكما أن تثبتا للمحكمة أنكما ساعة الجريمة كنتما فى مكان كيت وكيت ... الخ »

كان هذا أول ما خطر ببال ليون .. وكم فى الحياة من مشكلات !.. والآن ! ترى أيهما أفضل ، أن نترك أجنبيا يقتل ، أم أن نجلب العار والفضيحة على امرأة حبيبة ؟ لا ريب أن ليون تصرف كأى رجل آخر يكون فى موقفه

تلبث فى مكانه كالصنم . وبدا كأنه مخبول العقل وهو يرنو إلى الخفين الأزرقين ، والمجرى الأحمر الصغير الذى مسهما .. وتصبب العرق البارد من جبينه ، واشتدت ضربات قلبه كأنما ستمزق صدره . وانتابه إحساس بالخوف شديد ، وتلاحقت فى ذهنه أخيلة أفزعته ، وهب من أعماقه صوت راح يهمس فى كل كيانه : « سينكشف الأمر فى ساعة واحدة ... إنها غلطتك ، وإنها لنتيجة غلطتك »

ومن بين كلمات مثل هذا السؤال الذى ظل يدور فى ذهنه قوله « ماذا أصنع فى هذه المشكلة ؟ » غالبا ما يلمح الإنسان بصيصا من الأمل ... وقال ليون لنفسه يلتمس مخرجا : « ماذا لو أسرعنا بمغادرة هذا الفندق اللعين قبل أن يكتشفوا ما حدث فى الغرفة المجاورة .. ولسوف تضيع آثارنا . فما من أحد يعرفنا هنا .. ما رأونى إلا والنظارة الزرقاء على عينى ، وما رأوها إلا والقناع على وجهها . ولا يفصلنا عن المحطة سوى خطوات قلائل . وفى ساعة نكون بعيدين عن هذه المدينة المشئومة . » ... وبينما كان يدبر أمر فراره إذ وقع بصره على الساعة فذكر أن ثمة قطارا يمر بالمدينة فى الثامنة يقصد باريس حيث يستطيع هو ورفيقته فى زحمة تلك المدينة العظيمة أن يختفيا إلى الأبد . فطالما أخفت باريس المجرمين والأشقياء . من يستطيع فيها أن يعثر على شخصين بريئين ؟ ولكن ماذا تكون الحال لو دخل امرؤ غرفة الإنجليزى قبل الساعة الثامنة ؟ هذه هى المشكلة .. ولكن هل يستطيع غير هذا ؟ وبذل جهدا كبيرا للتخلص مما ران عليه من روع وفزع . واستيقظت رفيقته لأول حركة بدرت منه ، فقبلته ، بيد أنها صاحت عندما

مست خده البارد وهتفت فى لهفة :
— ماذا جرى ؟ إن جبينك بارد كالرخام
فقال فى صوت يرتجف :
— لا شئ إلا أنى سمعت جلبة فى الغرفة المجاورة
وغادر فراشه ابتغاء إخفاء أى أثر يجعلها تعلم . أخفى نعليها الأزرقين ، ووضع مقعدا كبيرا يخفى به خط السائل الأحمر الذى تجمع الآن وأنشأ ما يشبه بركة صغيرة على بلاط الغرفة ، ثم فتح الباب وأنصت فى الصالة ، ولمس فى نفسه جرأة جعلته يختبر باب غرفة الإنجليزى .. ألفاه مغلقا .. كان الهدوء يطوى الفندق كله . وكان نور القمر ينبثق ، وبدأ بعض الخدم يجهزون الجياد فى الإسطبل ، وفى الطابق الثانى كان ثمة ضابط يهبط الدرك وخلفه جلبة من مهمازيه
عاد ليون إلى الغرفة الزرقاء وقص على رفيقته الأمر كله فى أسلوب ملتو مخفف
كان من الخطر البقاء ، وكان من الخطر الإسراع فى الرحيل .. بل كان الخطر كل الخطر فى البقاء فى الحانة حتى يكتشفوا ما حدث فى الغرفة المجاورة . ومن العبث أن نفصل وصف الخوف الذى نشأ فى صدر الشابة العاشقة من سرد الخبر . هاتيكم الدموع الغزار التى انهمرت ، وتلكم الآراء التى قلبت . وكم من مرة ألقى كل من العاشقين بنفسه فى أحضان الآخر . وكم من مرة همست الشفاه المرتجفة « غفرانك يا حبيبى ! » … «اصفحى عنى ياحبيبتى!»
ولقد استقر فى روع الشابة الحسناء أنهما سيؤخذان بتهمة قتل الإنجليزى ، فأقسما أن يموتا معا ، وألحى كل منهما على نفسه باللوم وأبعد التبعة عن صاحبه ، والتحما فى عناق طويل مخافة ألا يسمح لهما بذلك عند إنزال القصاص، وسقيا شدة الوجد بالدموع الغزار
وأخيرا وبعد تبادل الهمسات وتقليب الرأى عرفا بين غمرة من العناق والقبل أن تدبير ليون أن يبرحا بقطار الثامنة هو أنسب التدابير ، ولكن أين هم من الساعة الثامنة الآن ؟ ما زال ثمة ساعتان طويلتان
وكم كانا يرتجفان ويستولى الرعب عليهما حين يطرق آذانهما وقع أقدام فى الردهة ، كل ضربة حذاء تسرع إلى خيالهما بتهاويل رجال البوليس وتصاويرهم ، وحزما أمتعتهما فى أقل من رد الطرف ، وأرادت الشابة أن تحرق الخفين الأزرقين فى المدفأة ، ولكن ليون أخذها ومسحهما فى طرف ملاءة السرير ، ثم قبلهما ، وغيبهما فى جيبه ، ولقد دهش حين شم فيهما رائحة « الفانيليا » رائحة كانت تحبها رفيقته كما كانت تحبها الإمبراطورة أوجينى …
الآن استيقظ كل نزلاء الفندق ، وتناثرت إلى أسماع ليون ورفيقته ضحكات الخدم

وترانيم الوصيفات ، وأناشيد الجند وهم ينظفون أثواب ضباطهم ... ودقت الساعة سبع دقات ، وأراد ليون أن يجعل حبيبته تتناول قدحا من القهوة ، ولكنها أشارت إلى حنجرتها كأنما تلتهب فلا تسيغ شيئا ما

وضع ليون نظارته الزرقاء على عينيه ، ثم هبط يدفع حسابه ، وأبدى له صاحب الفندق معاذيره عما حدث من جلبة وضوضاء ، فلم يفهم ليون ما يعنيه الرجل ، فإن كان يقصد جلبة الضباط وتصرفهم ، فقد كان ذلك نعمة كبرى قياسا إلى ماحدث في غرفة الرجل الإنجليزي ... ومضى ليون يؤكد له أنه قضى ليلة هادئة هانئة

وتابع صاحب الفندق يقول :

— أما عن جارك الإنجليزي فلا يستطيع الآن مضايقتك ، فهو الآن يقينا نائم كالقتيل

هنا اعتمد ليون على مكتب الرجل اتقاء السقوط ، ورفيقته التي أصرت على مصاحبته شدت هي الأخرى على ذراع ليون وأثبتت القناع على وجهها

واستأنف صاحب النزل حديثه في خشونة :

— إنه نبيل إنجليزي ، ولا يرضى بغير الأجود في كل مطالبه ، وهو مهذب لاريب في ذلك ، ولكن ليس كل الإنجليز مهذبين ، فبالفندق إنجليزي آخر كأنه مجرم سفاح ، كل شيء في ناظريه مرتفع الثمن : أجر الغرفة ، وثمن العشاء ... وقد أرغمني بلسانه السليط وعينيه المتوهجتين أن أستبدل له مائة وخمسين فرنكا بورقة مالية من فئة الخمسة جنيهات الإنجليزية ... انظر ياسيدي ! ها هي ذي الورقة أرجو ألا تكون زائفة

ونظر ليون إلى الورقة في يد الرجل فرأى في أحد أركانها بقعة حمراء فهم ليون منها كل شيء وعاد الرجل يقول :

— أظنها صحيحة . أوه ! مازال الوقت متسعا . فما يصل القطار إلا في الثامنة . بل كثيرا ما يتأخر عن موعده . آه ! عفوا يا سيدتي .. ألا تجلسين ! يبدو أنك متعبة

هنا دلفت خادم عفراء مكتنزة . قالت :

— أسرع بماء ساخن لشاي اللورد ، ثم باسفنجة أيضا فقد انكسرت زجاجة الخمر وغمرت غرفته جميعا

وترك ليون نفسه يسقط بين ذراعي مقعد كبير ، كذلك فعلت صاحبته ، بنفسها ، وأحسا كلاهما برغبة شديدة في الضحك ، وتغير رأيهما ، فلن يبرحا بمثل هذه السرعة

وأمسكت الشابة بذراع ليون وهزته في ابتهاج شديد . وقال ليون لصاحب الخان :

— يقينا لن نبرح قبل المساء . وعلى ذلك فجهز لنا غداء فاخرا في تمام الساعة الثانية عشرة

محمد عبد الفتاح

الدهليز المكشوف

للأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله

أخذت روائح الرضا تهب على أسرة النجار مرة أخرى بعد أن مسح الزمان على الوالد بيد على أطرافها مرهم قليل . وبدأ عقدهم يلتئم كل مســاء فى دهليز دارهم المــكشوف الذى يقع تحت ناظرى مباشرة كلما أطللت من نافذتى نحو الجنوب

كنت أراهم فى ليالى الصيف مفترشين الحصير تنصب عليهم أشعــة القمر فتغنيهم عن المصباح أو تلمع فى كانونهم جمرات الخشب فتلقى عليهم نوراً أحمر إن لم يكن هنالك قمر . يتبادلون الحديث الساذج المطبوع بطابع الرضا والمسالمة والإيمان بالقضاء والقدر، تلك المعانى التى تمشى فى الريف جنبا إلى جنب مع دقيق الذرة ومع الجبن والرايب!!

مسح الزمان على جراح الوالد فتمثل مصابه . تمثله وتشربته نفسه أيا كان طعمه لأنه من البلايا التى لا تنسى

كان نجارا فى القرية يصنع ما يصنعه هنالك كل نجار . فى أدواته حشونة أدوات أصحاب الحرف فى الريف لأن عمله لا يعدو أن يكون إصلاح ترس أو تركيب يد فأس أو صنع وتد لحيوان أو شيئا من هذا القبيل فهو لا يصنع خوانا ولا صوانا ولا أثاثا مما خلقته الحضارة . ثم أعفاه الزمان من هذه الحرفة التى بلغ حد نقمته عليها أنه أقسم ألا يعلم ابنه إياها ! لــكن طريقة الإعفاء كانت كريهة فلقد كف بصره فجأة حين نجم فى عينيه ما يسمونه « ماء » ··· علة تستل نور الأبصار برفق خبيث ثم تدع المقلة وكأنها سليمة فتخدع فيها العيون السليمة

وأصبحت أسرة النجار منذ ذلك الحين موضع رعاية أهل البر لأن الرجل لم يكن ذا ولد يمكن أن يعوله ، ولأنه باع أدوات النجارة بثمن بخس زكاه فى نفسه أنه لم يعد محتاجا إلى قدوم ولا منشار . وأسند إليه أهل القرية عملا يتناسب مع ما أهداه إليه القضاء . يتناسب معه تماما ويكاد يكون « مؤهلا » مشروطا لمن يقوم بمثل هذه الوظيفــة فلقد عينوه « ملا » يدير مضخة كابسة ترفع المــاء إلى صهريج المسجد

لــكن حسن النجار ما كان يرى وحده فى طريق ···

كان لا بد له من فترة حتى يألف حياته الجديدة ... أعنى حياة الظلام الدائم . فكان ابنه « ربيع » يسير إلى جواره يهديه سبيله لأن الذين ينطفئ النور فى أبصارهم وهم كبار يحتاجون إلى فسحة من الوقت لتتمكن بقية الحواس من أن تتحمل ما كانت تتحمله العين قبل ذلك . لا بد من وقت للداخل فى دنيا الظلام على كبر حتى تتدرب أذنه على قياس المسافات فيعرف عرض الطريق من أحاديث المارة على جانبى الطريق ، وطول المدى بينه وبين الكلب النابح من صوت نباح هذا الكلب ، وارتفاع النخلة أو الشجرة من همس الريح فى ذوائب إحداها . ولا بد للأنف كذلك من مدة ليتدرب على معرفة الأماكن والأوقات فيشم رائحة الربيع كما يشم رائحة الشتاء ، ويميز رائحة الصبح كما يميز رائحة المساء !! وهذه هى سنة التعويض التى يجرى بها قانون الحياة !!

كان « ربيع » فى السادسة من عمره ، صبيحا مليحا ، يستأثر بقلبك منه وجه مستدير أسمر تشغل عيناه منه مساحة كبيرة كأنها لم تترك لبقية أعضاء الوجه مكانا فشغل الفم والأنف مساحات صغيرة . وكنا لا نراه إلا باسما تطرف أهدابه باستمرار إذا ما نظر طرفات حلوة تراسلها ابتسامة دائمة فيتألف من ذلك كله معنى يستطيع ربيع أن يتودد به أقسى قلوب الناس . أما الجميل الشاذ فى ابن النجار ، فقد كان شعره :

لم يكن يذهب إلى الحلاق لأن أمه كانت تقوم بهذه المهمة . كانت تجز رأسه بالمقص فترى ضربة هنا وضربة هناك ، وشطبا فى الشعر كأنها شطب السيف ، وفى أعلى الجمجمة « شوشة » وفى أعلى الجبين « شوشة » كذلك ... منظر شاذ قد لا تتصوره عينا مدنى لكنه أحلى من الشهد موقعا فى قلوب الناس وبخاصة إذا ناست هذه الخصلات مع هبات النسيم

كان أكبر أبناء أبيه على حداثة سنه ، كما كان المحور الذى تدور حوله آمالهم وآلامهم وبخاصة بعد أن فقد الأب نور عينيه ، وكان اسمه إذا ما جن الليل وجلسوا فى الدهليز المكشوف ينادى ألف مرة كأنما كان — كما يقولون عنه — إداماً لخبزهم وسكرا لشايهم وكعكهم فى ليالى العيد ، ومسكنا لآلامهم إذا ما ثارت فى نفوسهم حوادث الماضى

وقد رأيته منذ أسبوع مضى وهو واقف إلى جوار أبيه فى ضحى يوم العيد . وكان يجمع بيده الصغيرة اللاليم فيعطيها للوالد ، وأقراص الفطير وأطواق الكعك فيضعها فى غرارة شدت إلى حامل الأرجوحة . تلك الأشياء التى يقدمها الصبيان أجر الركوب أرجوحة الصناديق التى يملكها النجار والتى

صنعها أيام كان مبصرا وطلى خشبها بألوان زاهيـة فيها سذاجة واضطراب لـكنهما يسحران لب الصغار . وكان على « ربيع » جلباب جديد أحمر ، وعلى فمه ابتسامة جديدة بيضاء ، وفى قدميه حذاء قديم أسود ، واسع قليلا ، فهو يثير به التراب إذا ما خطا على الأرض .

* * *

هذا هو الدهليز المـكشوف يقع تحت ناظرى وقد أطللت عليه من الشباك . وفى السماء قوس هلال ضئيل لم يستطع نوره أن يبين الأشباح فى دار حسن النجار بوضوح كامل . لـكن الذى أثار فضولى وهيج انتباهى أن سحابة هم كانت ترفرف على المكان .

كان جوهم ثقيلا تمشى فى نواحيه وحشة كئيبة . وهناك قدر على النار يسطع بخارها مختلطا بدخان الحطب « وقوالح » الذرة ، والأم منحنية على وليد صغير يمتص درها ويصرخ بين فترة وفترة فتسد فمه بإلقامه الثدى . أما الأب فكان منزويا ساكنا وعلى الحصير بين أيديهم رقد ابنهم ربيع .

وطالت جلستى فى النافذة حتى هجعت القرية فلم يعد ينتهى إلى مسمعى إلا أصوات بعض الفلاحين وهم يجأرون بالغناء على صرير الطنابير التى تروى الأرض فى موسم التحاريق وبعض ضفادع طال سمرها فى البركة القريبة . وانطفأ الكانون ونام الرضيع ثم نادت الأم ابنها الأكبر لينهض فينال شيئا من لحم الدجاجة التى ذبحتها من أجله !! ولـكنه أجابها بأنين وتململ وضجر ، ولم يطل بينهما النقاش لأن الأب تحسس رأس ولده وقال مخاطبا زوجه : دعيه مرتاحا . ثم رفع رأسه إلى السماء وقال مخاطبا ربه : يا إلهى ... أنت جاهى !!

وصاح ديك مع الفجر واتصل صياحه بعويل امرأة حتى كأنه امتداد لهذا الصياح فهببت مذعوراً وأطللت على دهليز حسن النجار لأننى لم أكن نسيت أن ابنه مريض ، فرأيت على نور أول شعاع من الفجر شبحى الأبوين وهما يتنزيان كما تتنزى كرة المطاط بين الأرض ويد اللاعب ، لم يكن أحدهما يقول شيئا جديدا ولا غريبا عما تعودا أن يقولاه ! بل كانا يناديان على التوالى أو فى نفس واحد ، باسمه فحسب ، كأنهما كانا يتوقعان أنه سيجيب !!

ثم درج الزمان فى طريقـه غير ملتفت لشىء وأظل المساء الأول بعد غياب الصغير عن دار أبيـه ، وانصرف بعض النسوة وبعض رجال كانوا يعزون ، وخلت الدار بالزوجين وأطللت من نافذتى كأنما لأسهر على وحدتهم من بعيـد فرأيتهما ينطويان على نفسهما ويتكور كل منهما فى ركن ويستسلم

للنوم فى سكون بائس . لكن الحال لم تدم على هذا المنوال فقد بدا الجزع واضحا على الأب فى الليالى التالية ؛ أما الأم فقد كان حزنها كئيباً صامتاً كأنه حزن المقابر . لكن حسن النجار كان يقضى الليل فى حركة وكلام لا ينقطعان ، اللهم إلا فترات من السكون خيل إلى أن الرجل كان يناقش فيه قضية نفسه ثم يعلن نتيجة النقاش جملا قصيرة لعلها عتاب تشوبه الشكوى أو شكوى يمازجها العتاب فيقول : يا إلهى ... ضاع عكاز الأعمى ... وبقى الأعمى بلا عكاز !! ثم يقوم ليقطع الدهليز فى جيئة وذهاب ويداه ممدودتان أمامه كأنما ليتقى بهما شيئا ، يفعل ذلك وهو يردد : عكاز الأعمى يا إلهى ... عكاز الأعمى يارب ! !

كنت فى نافذتى أتدبر القضية التى يتدبرها حسن النجار فى ضميره وأحاول أن أصدر فيها حكما ولكننى لا ألبث أن أتنحى عن الموضوع لأننى لست جديرا بأن أحكم فيه . لكن معنى واحدا سيطر على إحساسى حتى استرقنى وجعلنى عبدا له ، وهو أن الموت ضرورة لهذا الرجل . كنت أراه يجد السير فى طريق له شعبتان إحداهما جنون وإحداهما هلاك .. فتمنيت أن تهديه قدماه اللتان تقودهما الأقدار إلى الشعبة التى تفضى به إلى الموت فإنها خير على كل حال

* * *

ولم يقو حسن النجار بعد ذلك على إدارة المضخة لمل ء الصهريج لأن قواه قد خارت من أثر الصدمة . ولم يكن هناك من يهديه السبيل بعد أن خرجت زوجته إلى العمل فى الحقول

وحرم أهل الحارة على أبنائهم أكل التين الشوكى مدة طويلة . ولم يعد أحد منهم يسمح لولده أن يتسلل من مرقده فى الصباح الباكر ليسبق غيره إلى جمع البلح من تحت أقدام النخيل حتى لا يفضى به المسير إلى تلك الربوة العالية التى تغطيها أشجار التين فى جهامة وجفارة فيلقى مصير ربيع بن حسن النجار .

تسلل إلى هناك متسلحا بقطعة من الصفيح زاحفا على بطنه كما تفعل القنافذ حتى لا تراه عين الخمير . وجعل يعمل السكين فى الثمار ويأكل حتى تصبب شعاع الشمس من خلال ألواح التين . ولم يكن الصبى يعلم أنه ظلم نفسه وأنه أكل فوق ما يطيق وأنه ملأ بطنه « زلطا » وحصا سيكون آخر ما تزود من الدنيا . ثم ... ثم رانت الوحشة على الدهليز المكشوف !!

* * *

قلت لطبيب المستشفى المركزى بعد أن رأيت على وجهه دلائل الألم :

إن رأيى فى مشكلة النجار قديم يرجع عهده إلى تاريخ موت ابنه ؛ فقد كان الرجل

يتعذب إلى حد جعلنى أدرك مغزى « خلق الموت والحياة » . أجل يا سيدى إن الموت شىء يجب أن يخلق . فهز الطبيب كتفه وقال بصوت لا يخلو من العتاب : أتحدثنى عن الموت ؟ أتحدث عنه طبيبا والموت هو المحور الذى تدور حوله أعمال كل طبيب ؟! فقلت : عفوا ، بل قصدت أنه نعمة بالنسبة لذلك النجار

لم يتكلم منذ دخل المستشفى بكلام مفيد بل كان يخلط فلم يفهم عنه جيرانه شيئا . وها هو ذا فى فراشه اليوم يحيط به « برافان » ليعزله عن بقية الحجرة حيث الحياة مرجوة والشفاء مرتقب . وكان لا بد للنجار أن يدخل هـذا المستشفى لأنه كثيرا ما ضاق بالوجود فاستعان بمصاه وخرج هائما على وجهه حتى إذا ما استقبل الفضاء وأحس خلاء الحقول رفع عقيرته صائحا بملء حريتـه مناديا ولده فلا يرد عليه إلا الصدى

كان يفعل ذلك من حين إلى حين حتى تردى ذات يوم فى حفرة عميقة على جانب الطريق وعلى رأس مزرعة . حول أحد الفلاحين طينها إلى لبن استعمله فى البناء ثم تركها تردم رويدا رويدا كلما شاء أن يلقى فى جوفها بشىء

واستقر فى أعماقها النجار وأصابه منها ما أصابه . ثم انتشلوه وعلى وجهه دم وطين وفى ضلوعه وأحشائه إصابات عميقة . وقال أهل القرية : إن يد أحد الصبيان العابثين هى التى قادته نحو هـذا المصير يوم قال له الشقى : اتبعنى يا سيدى أهدك سبيلك . فذكر الرجل ابنه فسأله عن اسمه ، فأجاب العابث كاذبا : اسمى ربيع . فحن الأعمى وتحسس رأسه فألفى على جبينه « شوشة » فتبعه فى غمرة من الذكرى حتى قاد خطاه إلى أعماق الهوة . وكان هناك صبيان آخرون شهدوا المنظر لـكنهم تفرقوا من الذعر فى كل صوب كما تتفرق العصافير عند فرقعة الرصاصة!

وقد حرصت — وأنا جاره — على أن أتحرى صحة الرواية ، لـكننى رجعت بفكر مبلبل وخاطر متشتت ، وخيل إلى أن كل حادثة تقع مرتين على الأقل ، مرة فى عالم الحقيقة ومرة أخرى فى خيال الناس

ولـكن كل هـذا لا يغنى بعد أن وصل النجار إلى ما وصل إليه

وضعت عند رأسه بعض فاكهة حملتها على أمل أن يفيق فيطعم منها شيئا لـكنه كان يجد السير نحو النهاية المحتومة

رأيته آخر ما رأيتـه يمد يده إلى الأمام على هيئة من يتحسس الطريق وهو يقول : العكاز ... عكاز الأعمى ... ! ! فقدمت له عصاى على الرغم من أننى فاهم كل مايقصد. فأمسك العصا بين كفيه وقبض عليها بقوة.

امرأتان ورجل

بقلم الأستاذة زينب الحكيم

كان عليها أن تتظاهر بالصداقة كلما هفا قلبها للحب . ونرى فى هذه القصة صراحة المرأة وثورتهـا إذا هى بحثت عما يعوضها مما تفقد .

قالت « نانس » : لن أنسى أبدا ذلك الصباح الذى أتى فيـه « بوب » للعمل فى مكتبنا . وكانت ذكرى اليوم الذى أحببته فيه أكثر من ذلك أهمية ، فقد عرفت من قبل أنه متزوج .

ولـكن الحب على مايبدو شىء ليس فى مقدور البشر ضبطه . وقدحدث أننى عندما قابلت «بوب» كنت وحيدة وغيرسعيدة . وفى هذه الظروف كان من المستحيل ألا أقع فى حبه كما برهن واقع الحال على ذلك ، ولاسيما أن مظهره الخـلاب ، وشخصيته الجذابة جعلتاه من نوع الرجل الذى يسترعى انتباهى كثيرا . وقد ذكرنى بغتة بزوجى « جيف » الذى قتل فى الحرب . ولم أفطن إلى ذلك الحب متى وقعت فيه ، وظلت هذه اللحظة غامضة إلى أن جلاها لى النبأ الذى سمعته فى آخر الأسبوع الماضى ... وهو أن زوجته « لى » تنتظر مولودا .

فإن ماانتابنى من ألم خانق، وما تبع ذلك من اضطراب عواطفى لم يدع لى مجالا للشك فيما وقعت فيه . نعم وقعت فى الحب الثانى، وتأكدت أنه سيجلب إلى عذاب القلب فى

وكانت هناك كلمات ضعيفة لم تستطع أن تخرج من بين الشفتين إلا هواء ... هواء فارغا من كل صوت . وأخذت يداه بعد دقائق تتخليان عن العصا قليلا ... قليـــلا ... قليلا فالتفت خلفى فإذا بالطبيب ينظر إلى وهو يسأل سؤال العارفين :

— خلاص ؟ فأجبت :

— خلاص !

وأطللت على الدهليز المـكشوف فى مساء نفس اليوم فـلم أر إلا كانونا لا نار فيـه ، وحصيرا ينعكس عليه ضوء القمر ، وامرأة حانية على وليد ترضعه فى سهوم بعد أن تفرق من حولها النسوة

محمد عبد الحليم عبد الله

هذه المرة أكثر مما يجلب السعادة .

لقد كنت أنا و« بوب» صديقين من أول يوم تقابلنا فيه لنقتسم العمل المتشابه فى مكتب رئيس مقاطعتنا ، ونيط بى تلخيص المسائل، وتزويدها بما يلزم من تمهيد فى كل عمل توليناه . وأعجبنى منه تركيز انتباهه إذا مادرس أى مشكل جديد ، وسرنى سرعة تفكيره .

وأتذكر أول محادثة لنا غير رسمية ، عندما تناولنا سيكارتين فى فترة راحة أثناء قيامنا بعمل مرهق فقد قلت له : إنك تذكرنى بالمرحوم زوجى ، ودهشت من نفسى بعد أن قلت له ذلك ، فلم يكن من عادتى أن أتحدث عن « جيف » بهذه السهولة للغرباء ، وقلت مستطردة لأخفى دهشتى من اعترافي : لقد كان له مثل موهبتك من القدرة الخارقة على كل عمل تولاه ، فقال « بوب » : لابد أنه كان رجلا عبقريا . لم أكن أعلم أنك متزوجة ! وهل حدث ذلك من مدة طويلة؟

فأجبت : نعم كنت متزوجة ولكنه مات بعد سنتين من حياة زوجية سعيدة ، وترانى لاأستطيع شرح موته بهدوء مع أحد . فغير « بوب » موضوع الحديث . وكانت تعلم « نانس » أن زوجته معه فى وشنطن ، وسبق أن تكلم أمامها عن بعض مشاكلهما البيتية ، وطلب إليها غير مرة مقابلة زوجته مؤكدا لها أنهما سينسجمان معا. وأخيرا قابلت نانس زوجة « بوب بريسكوت» فى حفلة ساهرة ، وكان « جاك أنسلو » يرافق نانس حينئذ ، وقد وصلا متأخرين ، ووجدا جموعا من الناس يتنقلون بين الحجرات ، ولكنهما لم يريا بعد أسرة بريسكوت . وفجأة سمعت نانس صوتا ليس غريبا عنها بالقرب منها ، فوجدته « بوب» مخاطبا إياها « ها أنت ذى هنا . لقد ظننت أنكما اعتذرتما من عدم المجئ » ، والتفت إلى زوجته « لى » قائلا : عزيزتى «لى» أريد أن أعرفك باثنين من أصدقائى « نانس ورن » و «جاك أنسلو» ،فسلمت عليهما محيية ولمحت « نانس » فى مهارة لمحة لم تخف عليها ، وعرفت « نانس » من هذه الحادثة أنهما لن تكونا صديقتين. وصدق حدسها مع الأسف ، ولكنها عولت على أن تحب « لى » زوجة « بوب » لأنها أحبته هو. وقد كانت لى ذات جمال يسترعى النظر وطلعة بهية ، ووجه يكاد يكون شبرقيا مع شعر ناعم أسود معصوب حول عنقها . ولكنها كانت من نوع المرأة السفساطة المشاكسة المتحفزة . وقد قابلت نانس من أمثالها كثيرات من قبل

اقترح « بوب » أن يذهب أربعتهم إلى المطعم لتناول العشاء ، وأسرع جاك إلى تأييد

الاقتراح ، أما « لى » فقد كانت تسلم بما اقترحه زوجها .

ووصفت نانس جاك قالت : لقد كان رجلا لافتا للنظر وعلى جانب كبير من الظرف، ولكن لن أتصور أن أقع فى حبه أبدا ، لذلك لم يزعجنى ما رأيته من عبث «لى» معه تلك الليلة، وإنما الذى أقلقنى حقا ، وضايقنى فعلا ، هو ما يمكن أن يحدث هذا السلوك من رد فعل لزوجها . على أن « بوب » لم يبد أى علامة تدل على أنه لحظ شيئا على سلوك زوجته ، وقد يكون بالفعل رأى شيئا . وحاولت جاهدة أن أجد موضوعاً أستطيع نقاشه معها .

وأخيرا سألتها : هل تحبين وشنطن ؟ فأجابت : وهل يحبها أحد ؟ على أنى قد آلف الوجود فيها بالتدريج كما يقول «بوب» ولكنها تظهر فى عينى مملة الآن .

فقال «بوب» : إن هذه هى المرة الأولى التى عاشت « لى » فيها بعيدة عن أسرتها ؛ ويلزم للإنسان بعض الوقت ليلائم بين نفسه والبيئة الجديدة .

فقالت « لى » : لست أعتقد أنى أريد أن آلفها .

فقال « جاك » : هذا شىء مما أعرفه عن النساء إنهن يحببن العزلة ، ويردن المدينة التى سبق أن عرفنها ، والأصدقاء ذاتهم ، والنادى نفسه من المهد إلى اللحد .

فضحك « وب» وضحكنا معه . وقالت « لى » فى انسجام — إنى متأكدة أيضا أنك تعرف أشياء أخرى عن النساء ياجاك، فقال فى حذر: ولكنى لن أزعجك بما أعرف.

وعادت نانس إلى منزلها وقد كونت فكرة محددة عن «لى» . وأكثر من هذا أنها بعد أن تقابلت معها ، كان من الصعب عليها أن تنزعها من أفكارها ، فلم تعد بعد الآن نكرة ، ولا امرأة ليست لها أهمية بالنسبة إلى . إن لها شخصية خاصة ، وهى جميلة وأنانية، وهى بلا شك امرأة قاسية، ولكنها فى الوقت ذاته تحمل سعادة « بوب » فى يديها الدقيقتين .

ورأت « نانس » « لى » ثلاث مرات بعد ذلك ، مرتين منها فى حفلتى كُكتيل صغيرتين، وكانت المرة الثالثة فى منزلها عندما كانت وزوجها يكرمان « بتى وليز» لانضمامه لموظفى المكتب ، وكان « بتى » وزوجه « إيدث » الصديقين الحميمين لأسرة بريسكوت ثم علمت نانس بالتدريج شيئا عن نشأة «لى» فقد سبق أن اشتغلت فى إحدى شركات الإعلانات قبل أن تتزوج، وكثيرا ما أشاعت أنه كان فى مقدورها أن تبرز فى عملها ، لولا وقوع « وب» فى حبها ، ونقلها بعد الزواج إلى وشنطن ، مما أساء إلى مشاعر زوجها .

واختار الموظف الجديد وزوجته منزلا صيفيا ، ودعوا فريقا كبيرا من أصدقائهما فى آخر الأسبوع للسباحة ، وذهبت نانس وجاك إليهما يوم السبت مبتدئين الرحلة من وشنطن متأخرين ، ولدى وصولهما وجدا جميع المدعوين قد حضروا ماعدا أسرة بريسكوت ، لأنها لم تتحرك من وشنطن إلا ظهرا ، وعندما وصلا كانت « لى » فى حالة نفسية سيئة ، أما بوب فكان ممتقع الوجه بادى الهزال ، فاستقبلهما بتى باهتمام وسأل بوب عما أخرهما واطمأن عليهما .

لقد كان فريق من المدعوين مضطجعين على كراسى الشاطئ فى الرواق الرملى الذى ترى على بعد خمسين ياردة منه مياه الخليج الزرقاء المترقرقة كالبلور الصافى . وقال « بوب » إن « لى» مريضة ولعله كان من الواجب ألا تحضر اليوم ، فقالت «لى» مكررة ولم لا ؟ إذهب للاستحمام ، وسأجلس هناك حيث أستطيع رؤيتك ، أو قد أشغل نفسى « بالحياكة » أليس هذا هو ماتعمله الأمهات المترقبات للمولود المنتظر يابتى ؟

فقال بتى : أعلم أنك تكرهين السباحة على أى حال فلا تتظاهرى بالتضحية .

فقالت مخاطبة « بوب » عجل بارتداء لباس البحر . وسنراك فى الماء .

ففعل ماأمر به وتوجه توا إلى مبنى الحمام وبعد دقيقة مشت « لى » متكاسلة لتلتحق « بإيدث » وفتاة أخرى فى الرواق .

قالت « نانس » شعرت باضطراب عصبى فى أعماقى ، ودق قلبى دقات خاطفة من الألم ، وبغتة تغير كل شيء ، ولم يبق اليوم هادئا سعيدا ، فكأنما التقت زوبعة بعاصفة فى أحشائى ، وكانتا تمزقان جسمى إربا .

وكان المدعوون يتداعبون أو يجاهدون راجعين إلى الماء ، بينما حضر إلى جاك واجتذبنى من كرسى قائلا : إنك شاحبة كالشبح أرجو أن تكونى بخير . فأجبت لماذا ؟ طبعاً أنا بخير ، وكل ماأحتاج إليه هو أن تلوح الشمس وجهى . واتخذنا طريقنا نحو الجماعة ، وشعرت وأنا أسير معه على الشاطئ الرملى بأن قواى ستخوننى إذا ماخضت فى الماء ، ومع هذا حاولت ، بل جازفت بنزولى فى الماء ؛ ولكنى بقيت بقرب الشاطئ وسبحت فى أنصاف دوائر بلا غرض ، فقد تردد فى خاطرى أنى أحب « بوب بريسكوت » ، إنى أحب « بوب بريسكوت» ورددت أمواج الماء هذا اللحن الرخيم : — أنى أحب «بوب بريسكوت» و « لى » زوجته تنتظر مولودا .

وبينما كنا نتناول بعض الشراب على الشرفة فى المساء ، وقف « بوب » إلى جانبى لحظة وقال : إنى سعيد برؤيتك

« يا نانس » ، وكانت تحيط بعينيه هالات سمراء ، وبدا عليـه الوهن أكثر مما بدا عليه حين أتى ، كما بدا عليه القلق والهم . ودبت الرعشة فى قلبى وذلك ما لم يحصل فى اليوم السابق . وكنت مرتبكة بحيث لم أجد كلاما أقوله له . ومر بنا جاك فى تلك اللحظة ، فمضيت إليه واجتذبته إلى الداخل ليتحدث إلينا ، فكان مساء لا ننسى ذكرياته المؤسية . فقد حدث أنه بعد أن تحدث إلى « بوب » لحظة ، رأيتـه يضع كأسه وقد فرغت إلى النصف وراء شجيرات الأصص التى فى الطنف . وبعد دقيقة يصل إلى «لى» ليحاول أن يأخذ كأسها من بين يديها ليمسك هو بها ، فتقول فى خفة : أتركنى فسأحتسى كلما أردت ذلك

ولم يقل « بوب » شيئا وحرك كتفيه فى يأس ومشى بيديه فارغتين . وهنا كانت اللحظة التى أيقنت فيها أن شعورى المتأثر بموقف لى منى ، قد زاد وبدأت أكرهها ، لأنها زوجة الرجل الذى أعجبت به ، والمرأة التى استولت على من أحببت ومنافستى الوحيدة فيـه ، وهى المرأة التى ستنجب ابنه . وبلغت المنافسة بيننا أشدها ؛ ولـكن كان من حقها كل شىء ، وكان الترجيح فى جانبها

فكان لها أن تعنف أو تعير « بوب » وأن تفتك به أو أن تفسد حياتها كلها ، وكان عليه أن يحتمل لأنها زوجته ، وسيكون لها سلاح آخر من الأغلال أقوى ، توثقه به إلى الأبد إذا ما رزقت مولودها المترقب . وقد أتخيل أن « بوب » يضيق ذرعه ، ويضعف احتماله بهذه الحال ، وقد يطلقها ، ولـكنى لا أتصور أبدا أنه يضحى بابنه

ضاقت نفس « نانس » بهـذه الحالة العاطفيـة العسيرة التى أحاطت بها من كل جانب وازدادت سوءا إثر كراهيتهـا لمواجهة « بوب » فى مكتب العمل . ممـا جعلها فى موقف شاذ ، ونفسية مريرة ، وحياة قلقة ، فـلم يغمض لها جفن طوال ليلة الأحد . على أنها استطاعت أن تدارى موقفها إلى حد كبير فى اليوم التالى عندما ذهبت على عادتها إلى مكتب العمل ، وحيت « بوب » بابتسامة لطيفـة كادت تـكون طبيعية ، عندما أسرع إلى مكتبها ليجمع بعض التقارير الخاصة بالمؤتمر ، الذى سينعقد فى مكتب الرئيس

وتعددت هذه المؤتمرات بحيث ضاعفت العمل بالـكتب أياما كثيرة ، ولم تهدأ الحالة نوعا ما إلا فى يوم الخميس ، وحينئذ سنحت الفرصة « لبوب » بأن نتكلم عن شىء آخر غير العمل ، وكنت قد عكفت على حياة الغرام التى تبينتها فى نفسى بالنسبة لبوب

أثناء الأربعة الأيام الماضية ، فشعرت بشيء قليل من الهدوء النفسي . واقترح «بوب» فى ذلك الصباح أن نذهب إلى المقهى لنتناول فنجانا من القهوة . ونفذنا الاقتراح فورا ، وحينما كنت أضع جزءا من السكر فى فنجانى شاردة الذهن لحظت أنه كان يلقى على نظرة فاحصة ، فقابلت نظراته بابتسامة ، فسألنى فيم كنت أفكر ، قلت : كنت أفكر فى حبى الشديد. فقال: شكرا لك «يانانس» ، إنك صادقة مخلصة ، وأعتبر نفسى موفور الحظ لأنى أتخذك صديقة . فقالت شكرا لك « يا بوب » إنى بدورى شديدة الاعتزاز بهذه الصداقة . وساد الصمت بينهما فترة ، إلى أن تشجعت نانس فأضافت جملة أخرى ، فقالت : إنى مغتبطة كل الغبطة لأنك و«لى» سترزقان مولودا . وما كدت أنتهى من هـذه الجملة حتى لحظت على وجهه نوعا من الوداعة لم أعهده من قبل ، ولـكن كان تأثيرها مريرا على ، فكانت كسكين اخترقت قلبى . وساد الجوفترة سكون أخرى ، وبدأ « بوب » الـكلام هـذه المرة ، وسألنى : ألك أولاد يا نانس ؟ إنك لم تحدثينى عن أحد منهم — وكم عجبت لذلك . فهززت رأسى سلبـا ، وقلت : هـذا موضع ندمى دائما . فقال : وهكذا انتهت الحال على هذه الطريقة ، فقلت فى صوت هادئ نعم : لو كان لى طفل لعوضنى جانبا من فقد «جيف» ، لأنه جزء منـه كان يجب أن يستمر حيا ، فضلا عن أن وجود الطفل كان شيئا مهما بالنسبة لى شخصيا — لذات الطفل . وكم وددت أن تـكون لناذرية صالحة ، ولـكن حياتنا ما كادت تبدأ حتى انتهت ، فقدمات جيف فى الحرب . فقال « بوب » ولـكن تنشئـة الأطفال وحدها أمر شاق جدا يا نانس ، فقالت لم أكن أتصورها سهلة ولـكنى كنت أستطيعها . فقال : لا ريب كنت تستطيعينها لأنك شجاعة ، ولك مقدرة على هذا العمل الذى ربما أرهق زوجك . فقالت لست أظن ذلك ، لقد فهم أحدنا الآخر ، وكنا صديقين كما كنا محبين . فقال مبتسما : لقد كان زواجكما سعيداً إذن . ثم أضاف : لست أدرى إذا كانت زوجتى تفهمنى دائما ، أو أفهمها أنا أيضا . وأخشى أنها تظننى أبله لأنى شديد الشغف بابنى ، ولو أنه صغير الجسم بصورة غير مألوفة ، فوزنه أربعة أرطال ونصف وقد وضعه الأطباء فى بيئة أشد شبها بمحضن التفريخ زيادة فى الحيطة . على أن طبيبـه الخاص يؤكد أنه بخير ولا خوف عليه . فسألته : وكيف حال « لى » فقال إنها بخير ، وأشغل نفسى كثيراً بإعداد النشرات عنها وعن المولود

وعلى الجملة لم يدع « بوب » كبيرة ولا

صغيرة لم يخبر نانس بها . وشعرت نانس أنها تعيش حياتين : حياتها الخاصة وحياة « لي » ، ولهذا عولت على أن تتخذ خطوة حاسمة مقررة أنه من السخف المروع أن تقع المرأة في حب زوج امرأة أخرى ، وقررت أيضا التخلص من احتمال آلام منصبها الراهن في العمل الذي يسبب مقابلتها « لبوب » باستمرار مع معرفة الكثير عن حياته الشخصية والتي لا يخصها نصيب منها ، وأصرت على أن ترحل عن وشنطن ، حتى تبعد عن كل شيء ، ولتعيش بعيدا على ذكرى حبها الثاني

وبكرت في صبيحة أحد أيام نوفمبر لترى مدير المكتب ، وطلبت إليه نقلها . فظهر عليه التعجب والدهش لطلبها ، ولكنه قال : سأنظر فيما يمكنني عمله من أجلك ، وأشار إلى أنه ربما استطاع تحويلها إلى عاصمة الولايات

لم تخبر « نانس » « بوب » بما انتهى إليه قرارها ، مفضلة إرجاء ذلك حتى يتم النقل . وفي الوقت ذاته كان « بوب » مضطرا للسفر بالطائرة إلى الشاطئ الغربي في منتصف نوفمبر بتكليف رسمي لإلقاء محاضرات . وشغلها فرز التقارير التي قد يحتاجها في رحلته طيلة عصر اليوم السابق ليوم الرحيل وسألته «نانس» إذا كان فرحا بالرحلة !

فأجاب سلبا ، وقال كم وددت لو كانت الرحلة قد انتهت وعدت منها اليوم ! لأني أكره فراق « تدي » ولدي العزيز ، الذي لم تريه حتى الآن . وسألها متى تزور أسرته ؟ قالت : لقد أرسلت بعض الأزهار إلى «لي» بالمستشفى وهدية للمولود ، ولم أحاول رؤية الطفل مؤجلة الزيارة الشخصية خشية أن تخونني رزانتي عند رؤيته ، وكذلك منعتني كثرة العمل

فقال : هذا عذر واه ، وعلى أية حال يمكنك تأدية الزيارة وأنا مسافر . فوعدته أن تفعل ذلك ، وحددت يوم الأحد مقدرة أنه سيسهل عليها رؤية الطفل لأول مرة من غير أن يكون أبوه المزهو به واقفا إلى جانبه

وتركت « نانس » نزلها في الساعة الرابعة مساء ، متجهة نحو جسر « تافت » تاركة رسالة مع عامل التليفون بأن يخبر «جاك» بأنها ستعود في نحو الساعة السابعة فقد كان بينهما موعد للعشاء

وكان اليوم صحوا لطيفا مشمسا من أيام أواسط نوفمبر ، واستقلت السيارة العامة « إلى جورج تون » وقطعت مسافات طويلة في رحلة موفقة ، تفرجت أثناءها على جزء كبير جدا من وشنطن التي ينتظر أن ترحل عنها قريبا وفي نفسها لوعة لذلك

قالت «نانس» عندما نزلت من السيارة

مشيت أمام الأبنية الثلاثة الضخمة الموصلة لمنزل أسرة « تريسكوت » وأشارت إلى أن كل إنسان يعرف وشنطن يقدر ما تكون عليه « جورج تون » ، فهى خليط من الأسر والبيوت القديمة العظيمة ، والأسر العريقة الصغيرة ، وهى صفوف من الأبنية ، ولفت نظرى أحدها ، كان لون طوبه أخضر ناضرا ، وتحيط به ممرات على جوانبها أشجار الزينة ، وله مداخل أنيقة ترتفع درجة أو درجتين على مستوى الشارع ، وفى رحابه حدائق صغيرة جميلة التنسيق منمكمة داخل أسوار مرتفعة

وكان المساء يتقدم بينما اقتربت «نانس» من منزل « بوب » ، وكان منزلا صغيرا مكونا من حجرة واسعة ، وثلاث أخرى فى الداخل بنى على سطحها ست غرف ومعها الحمام والمطبخ وقد أجراها مفروشة

قالت نانس : ودهشت إذ رأيت جرائد الأحد مبعثرة فى المدخل ، فجمعتها ثم طرقت الباب ، فلم أتلق إجابة لمدة دقيقتين ، ولكنى سمعت صوت كرسى تحرك على أرض حجرة عارية ، ورأيت ضوءا أشعل فى حجرة الاستقبال ولو أنى لم أستطع رؤية شىء مما بداخلها فقد كانت نوافذها مغلقة . وطرقت الباب مرة ثانية ، وبعد لحظة سمعت مفتاحا يتحرك فى قفل الباب ، ثم فتحت « لى » وحيتنى بنظرة عابرة ، وكانت مرتدية معطفا منزليا ذهبى اللون وعليه تطريز جميل من قماش الكريب ، ولكن كان عليه بقعة كبيرة فى أحد جوانبه أصابته ، كأنها كانت تطهو وهى ترتديه ، ورحبت بى فى صوت كدت أنكر أنه صوتها الذى أعرفه ، قالت : ها أنت ذى ! تفضلى ، وقادتنى إلى حجرة الاستقبال ، فوجدت بها امرأة شقراء جمالها لافت ، ترتدى سروالا رصاصيا وصدارا أخضر اللون ، وكانت مضطجعة فى إحدى زوايا الكنبة الكبيرة وممسكة بكأس فى إحدى يديها ، وبسيجارة فى اليد الأخرى أطفأتها بينما كانت لى تقدمنى إليها

قالت « لى » هذه « جيرى » صديقة قديمة ، أتت أمس فقط فى طريقها إلى نيويورك

ثم قالت : وهذه « نانس » «يا جيرى» تعمل فى المكتب الذى به « بوب » . وجلست على كرسى ، بينما جلست أنا على الكنبة إلى جانب « جيرى »

ولحظت أن «جيرى» تفحصنى متعمدة . وأخيرا وضعت كأسها على المنضدة ، ثم نهضت قائلة : سأعد لك كأسا فأى مزاج تفضلين : الماء أم الصودا ؟ فقلت الصودا ، مفضلة قبول الكأس على الاعتذار منها

ودار نقاش حول هذا

وذهبت جيرى إلى المطبخ حين جلست « لى » فى مكانها مظلمة النفس واضعة رأسها على متكأ المقعد . ودرت بنظرى فى حجرة الاستقبال المبعثرة ! فأيقنت أنهما كانتا تعاقران الخمر طوال يومهما ، كما كانت صحف السبت ملقاة فى كومة على الأرض بجانب الكنبة، واكتظت منافض السجائر بالأعقاب حتى شوهت أعقاب السجائر جانبا كبيرا من المناضد التى تحملها ، كما كانت مقاعد الزهريات بحجرة المائدة مغطاة بأوراق الأزهار المتناثرة من بقايا الورود الذابلة . وكانت هناك أكواب كثيرة مهملة هنا وهناك ، بالإضافة إلى ثلاث زجاجات من آثار غذاء الطفل . وقد ذكرتنى هذه الزجاجات « تدى » فسألت وكيف حال الطفل ؟ فأجابتنى « لى » إنه بخير — ينام كل الوقت أو يأكل — واستفسرت عما إذا كان نائما الآن ! فقالت إنه فى الطابق العلوى ، ثم أومأت ها هى ذى «جيرى» ! ونادتها فى رقة قائلة : كونى ملاكا يا عزيزتى وزيدى كأسى قليلا . وما لبثت الرءوس أن حميت ، ثم أعقبتها ساعة من الكابوس مزعجة ، فقد كانت «جيرى» من ذلك الصنف الذى يهذى إذا ما لعبت الخمر رأسها — واحتكرت الحديث — ولما تعبت من كثرة الكلام عن نفسها وعن عملها فى فن الإعلان بالإفاضة المملة ، تناولت « لى » وأسرفت فى وصف نبوغها لما كانت موظفة ، وأشادت بتعدد مريديها فى حلقة الرقص ، ثم عرجت على نقد حياتها الحاضرة ، وقللت من قيمة ربط حياتها بزوج وبابن ورعاية منزل ، وأنكرت أن تقصر ذكاءها على معالجة مثل هذه الأمور التافهة

فقالت « نانس » فى شىء من الحدة : ليس من الضرورى أن تجلب الوظيفة السعادة فى الحياة . ولكن « جيرى » عارضتها فى ذلك قائلة : إذا لم يكن من مزايا الوظيفة العامة إلا التسلية والتنشيط لكفى . لقد كانت «لى» وكذلك كنت أنا من أسعد الموظفات ، ولم يحدث أن صادفتنا ظروف كرهت إلينا ما أخذنا على عاتقنا أداءه ، وأمنت « لى » على قولها ، وأضافت : أما الحياة الآن فملة وسخيفة . ودهشت « نانس » من لون حديثهما ، وأرجعت ما فيه من شطط إلى ما فعلته الخمر برأسيهما ولكنها حنقت فى الوقت ذاته على « لى » التى لا تقدر النعمة التى من الله عليها بها — وهى الزوج والولد — وقد حرمتها هى وكانت خير من ترعاها وتشكر الله عليها .

وعلى حين بغتة سمعنا صراخ طفل ينبعث من الدور العلوى . . . . .

فقالت «لى» بصوت قلق : إنه «تدى» جوعان مرة أخرى . واستأذنت « نانس » فى أن تراه ، فأجابتها « لى » إلى ما أرادت قائلة : اصعدى إلى فوق وألقى نظرة على — الغول — ، وبعد أن همت لتصعد معها جلست ثانية ، ونادت « جيرى » وسألتها أن تغذى الطفل هذه المرة لأنها متعبة جدا ولا تستطيع أن تصعد السلم ، وتمتمت قائلة : هناك كثير من زجاجات التغذية بالثلاجة ، نعم كثير منها ، لأنى أملأ زجاجات طول اليوم ، وهـذا هو العمل الابتكارى اللعين الذى أؤديه الآن وأضيع وقتى فيه

وصعـدت « نانس » بينما اتجهـت « جيرى » إلى المطبخ ، وكان السـلم من النوع الذى يرى عادة فى المنازل العتيقة ، ذلك النوع الشامخ العميق الدرج وكان موصلا إلى صالة صغيرة ، وأرشدنى صوت بكاء الطفل إلى حجرة نومه ، وكانت أشد شئ شبها « بالسلاخانة » فـكان السرير الـكبير غير مرتب ، والأحذية والملابس الداخليـة مبعثرة على الأرض . كما كانت منضدة الزينـة مغبرة بالعفـار وبأنواع الساحيق ، ومحمـلة بشتى زجاجات العطر والحلى ، والعجائن والذرور ، وزيت للطفل وزجاجات أخرى فارغة

وأخيرا وجدت الطفل البائس فى مهده بالزاوية المقابلة من الحجرة ، وكان نائما على بطنه ، ويبكى بحدة ، ولم يظهر من جسمه إلا جزء من مؤخرة رأسـه وقبضة إحدى يديه فوق البطانية ، وكانت هذه الأجزاء محتقنة

فوقفت هنـاك أنظر إليـه فى ألم ، وانهمرت دموعى غزيرة عندما لمست يدى رأسه الناعمة ، وكم حمـدت الله أنى كنت منفردة بنفسى فى تلك اللحظة

وسكت الطفل قليلا ، واستأنس بأن أحدا قريبا منه ، وفى عجلة أتت « جيرى » تترنح على السلم ومعهـا زجاجة غذائه ، وأرادت أن تضعها فى فمه وتعود مسرعة ، فقلت لها : أقدر أنه مبلل الثياب ! فقالت : هو دائما هكذا إما مبللا أو جوعان . فلمـا استوثقت من قولها أشرت بتغيير ملابسه فطلبت إلى أداء هذا العمل ، وأسرعت إلى كومة من الغسيل النظيف ملقاة على أحـد الـكراسى ، وناولتنى ما لزم للطفل ، ثم طلبت إلى أن أباشر تغذيته أيضا لأنها تخاف من الأطفال بوجه عام ، وتفزعهـا رؤية « تدى » بشكل خاص لضآلة حجمه . فلم أرفض ، وحملت الطفل المسكين إلى كرسى بقرب النافذة لأعطيه غـذاءه ، وغابت « جيرى » ناحية غرفة الحمام ، واستمتعت بصحبة الطفل فترة ، كما عشت فى لحظات من أغرب ما صادفت فى حياتى كلها ، فقد

جلست فى منزل امرأة غريبة عنى ، وعنيت بطفل امرأة أخرى ، ومع هذا خيل إلى أنى فى منزلى والطفل ولدى ، وتمثل لى الخيال حقيقة لا ريب فيها ، بحيث أننى عندما نظرت إلى وجه « تدى » شعرت بالزهو والرضا اللذين تشعر بهما كل امرأة إذا ما وضعت طفلها الأول ، مع امتزاج هـذا الشعـور بالحب الصـادق والحنو الدافق والشغف الذى بدأت به حياته . كما أننى أحسست حينئذ بأنى إذا لم أعقب طفـلا فيكفى أننى عرفت من تجربتى مع «تدى» كيف يكون شعور الأم التى رزقها الله ولدا

وفرغت زجاجة غذائه ، وظهر عليـه الاستعـداد للنوم ثانية . وكم كرهت أن أتركه من بين ذراعى ، ولـكن كان من الضرورى أن أضمه فى مهده ليستريح . ووقفت أنظر إليه دقيقـة أخرى قبل أن أتركه لينام وقدرت أنى ربما أرى هـذا المخلوق ألف مرة وقد لا أراه مرة ثانية . ولـكنى حرصت على أن أثبت فى ذاكرتى إلى الأبد صورة ابن « بوب » كما رأيتهـا اليوم ، فقد كان ولدى أيضا اليوم

وكنت قد انتهيت من دس الأغطيـة حوله ، حين عادت جيرى إلى الغرفة آتية من الردهة متجهمة الوجه من الإسراف فى الشراب ، وأقلق تفكيرى ترك الطفل فى رعاية امرأتين ثملتين ! واستفسرت من « جيرى » ونحن فى طريقنا إلى السلم إذا كانت « لى » بخير ؟ وعما إذا كانت غير متـأثرة من الإسراف فى الشراب ؟ ! فأجابتنى مغرقة فى الضحك : « لى » ! « لى » ؟ إنها لا تفقد شعورها أبدا ، وقد عرفتها من سنين طويلة ، وعجيب أنى لم أرها مرة ثملة مهما احتست من الشراب . فقلت: وهكذا أنت واثقة من طبعها ! حسن.. لن أزيدك توصية بالانتباه إلى الطفل فإنه يحتاج إلى رعاية ، فلا تقصرا .. قلت هذا وخيل إلى أن عينيها متقدتان غيظا ولـكنى لم ألحظ نبرة الدفاع فى صوتها إذ قالت : ولـكنه ابن لى أليس كذلك ؟ وعليها أن تعنى به ياسيدة « نانس» يازميلة «بوب» فى العمل بالمكتب

بالطبع قالت هذا بطريقتها الخاصة لتشير من طرف خفى ، بأن لا أتدخل فى شؤون الغير ، ولـكنى حاولت هجوما آخر قبل أن أنهزم فسألتها إذا كانت تسمح لى بإعداد فنجانين من القهوة أو شئ من الطعام لهما قبل أن أفارقهما ، فلم توافق على أن أشغل نفسى حتى ولا بالتفكير فى هذه المسائل . وأكدت أنها ستمنى بالطهو اليوم لتعطى « لى » فرصـة للراحة ، ودعتنى أن أبقى للعشاء معهما ؛ وقالت : إنك طيبة القلب ورحيمة بالأطفال كذلك . فشكرتها معتذرة

بأن لدى موعدا للعشاء فى الخارج ويجب أن أذهب حالا

وسلمت على « لى » وقد صاحبتنى إلى إلى الباب بخطوات كأنها ثابتة

وما كادت تغلق الباب خلفى حتى شعرت بأنه كان يجب على أن أبقى . وبينما كنت أتردد فى الأمر مرت سيارة أجرة ووقفت أمامى فى الطريق المهجور ، فصعدت إليها بدون تفكير ، وبلغت مسكنى سالمة، وأقنعت نفسى بأنى عملت كل ما كان ممكنا عمله فى الظروف التى وجدت فيها من ضبط النفس، وهدوء الأعصاب ، ولم أهول فيما رأيت من سلوك الأم للطفل نظرا لإمعانى فى كراهية«لى» خشية أن أتهم بالتحامل عليها . على أن القلق على « تدى » ساورنى ثانية بعد أن ارتديت ملابسى استعدادا لموعد العشاء ، وتصورت فى وضوح أنه من الممكن جدا أن يسقط الطفل من بين يدى الثملتين، وقد تهملان غطاءه فيصاب ببرد شديد ، أو قد تتعثران به على السلم الذى لادرابزين لها

وخلصنى من وساوسى هذه جرس التليفون ، وكان المتحدث « جاك » الذى أكد أنه سيحضر فى تمام الساعة السابعة والنصف ليصطحبنى فى سيارته لتناول العشاء . فلما انتهت المحادثة ، جال بخاطرى أن أترك رسالة تليفونية « لأيدث ويلمر » لتمضى مساءها عند « لى » زيادة فى الحيطة نظرا لما هى وصديقتها عليه من حال ، فوجدتها وزوجها فى الخارج ولن يعودا إلا متأخرين فأسقط فى يدى وتركت الأمر لله

لا ريب فى أن « جاك » أعد لنا عشاء شهيا فى تلك الليلة ، ولكنى كنت فاقدة الشهية ، ولا بد أن صحبتى كانت مملة ، فقد تركزت فى أفكارى كلها حول ذلك المنزل فى جورج تون ، ولم أذكر عن ذلك شيئا « لجاك » وعدنا إلى مسكنى حوالى منتصف العاشرة ، وودعنى « جاك » عند بابه ، وآويت إلى فراشى فورا لأكون مستعدة لعملى فى صباح الغد

وباشرت عملى فى اليوم التالى وقد طلبت إلى الله أن يكون طالعه سعيدا ، ولكن القدر إذا نفذ فقد نفذ ،ودق جرس التليفون بالمكتب قبيل العاشرة ببضع دقائق،فجاوبه « بتى » وبدا أنه سمع خبرا مروعا ، ثم سمعته يقول سأحاول الاتصال «بسان ديجو» لأخبره على الفور ، وقرر « بوب » العودة فورا على الطائرة ، ووضع « بتى » سماعة التليفون فى قنوط ونظر إلى « نانس » فى يأس وأفضى إليها فى صوت مختنق بأن ابن « آل بريسكوت » قد مات! فأجابته مختنقة: لقد مات بسبب « لى » . وأمسكت بطرف الدرج حتى لا تسقط من فوق مقعدها . ثم

سألته : وكيف اكتشف موته ؟ قال: وجد هامدا فى مهده هذا الصباح مخنوقا أو شيئا من هذا ، ولم تستغرب الأمر ، فلقد حسبت أنه كثيراً ما التف بالفراش واختنق غير مرة . وقيد موت الطفل بسبب حادث ، وشيع الجثمان فى جنازة بسيطة بعد صلاة قصيرة . وخانتنى شجاعتى فلم أحضر الصلاة فى الكنيسة على الجثمان . وعاد « بوب » إلى مكتب العمل بعد أيام قلائل ، وطلب إلى أن أذهب معه لتناول فنجان من القهوة قرابة منتصف اليوم . فلما جلسنا منفردين فى أحد أركان المقهى أسر إلى فى إيجاز: أن الله أراد بى رحمة واسعة، بنذر أينك «يانانس» . وظهر عليه أنه كان يجاهد فى إخراج الكلام وهو يشرب القهوة فى ذهول، كما كان وجهه شاحبا هزيلا متعبا ، وانطبقت شفتاه على خيط رفيع مر . وبدا فى نظرى أكبر سنا مما كان قبل أسبوع ، وعاودنى الحنين المضنى إلى ضمه بين ذراعى

وكنت أقدر أننا لا بد أن نتكلم عن موت « تدى » وإن لم يكن اليوم ففى وقت قريب ، ولكنى كرهت ذلك الحديث على أية حال . وأرقنى ضميرى وأسرف فى اللوم ، حتى رغبت رغبة شديدة فى الاعتراف لبوب رجاء أن يغفر لى تركى الطفل فى تلك الليلة حتى أريح ضميرى ! على أن أى أعتراف من جانبى كان لابد أن ينال «لى» وبقدر ما كرهتها ولعنتها واعتبرتها المتهمة الأولى فى موت الطفل ، أحجمت كل الإحجام عن أن أفضى بذلك لزوجها. وأخيرا قال « بوب » أريد أن أتحدث عن « تدى » « يا نانس » الذى لا يغيب عن بالى أبدا ، فقلت : بالطبع أقدر عواطفك تماما وشعورك المرهف النبيل ، كما أحس بإيحاشه لك ، ولهفتك على فلذة كبدك ، الذى كان عمره كعمر الزهر فأنست به قصيرا ثم غاب مسرعا وإن هذا أشد على النفس مما لو لم يرزق الإنسان ذرية قط . فقال « بوب » إنك على حق فيما تقولين ، فقد كان هذا الولد كنزا بين يدى واختطف منى بغتة ، وأشد إيلاما من ذلك أننى دائم التفكير فى أن موته ما كان ليحدث لو بقيت أنا فى المنزل لأعنى به !

فطلبت إليه فى توسل ألا يعنف نفسه ، فإن الآجال محدودة . وقد يحدث الموت بدون سبب . ولا بد أن نتقبل هذه الأوضاع برضا

فنظر إلى فاحصا وقال : إن ضيق ناتج من أنى مختزن فى ذهنى كثيرا من الشكوك والمخاوف ، فقد أصيب زواجى بالمشاكل ، ولعلك حزرت ذلك ، ولكن شرب «لى» الخمر هو مسألة المسائل ، ثم أومأ لحظة وواصل حديثه بعدها فى حرارة وأدب :

قال : لست أقصد أنها مدمنة ، ولـكنا كثيرا ما تشاجرنا من جرائه . ورجوت بعد أن وضعت الطفل أنها ستقلل من الشرب ، وكانت فعلا عند حسن الظن بها فقد وعدتنى بأنها لن تشرب عندما ودعتها قبل السفر . ولـكن لم تتوفر لها الظروف لتبر بوعدها ، فقـد حضرت « جيرى » صديقتها القديمة، والتى كانت صداقتها مضرة بهما معا . وفى هذا اللقاء . اقترحت «لى» أنه لابد من أن تشربا إحياء لاسـتئنافها اجتماعهما، ولاشك فى أنه كان اجتماعا فاسدا مسببا للخراب . وعلى هذا لا أستطيع أن أخالف حدسى فى أن ذلك سبب موت الطفل العزيز . هـذا وأن احتساء بضع كؤوس بسيطة من الخمر شىء ، أما احتساؤها حتى العربدة فشىء آخر . آه لو أيقنت أنهما لم تكونا كذلك عندما فارق الحياة! وتردد برهة ثم سألنى مصمما قال : لقد زرت منزلنا فى يوم الأحد الماضى فأخبرنى « يا نانس » كيف كان الحال آنئذ . وشعرت « نانس » بأن اللحظة الحاسمة قد أزفت ، فإما أن تخلص «نانس» «لى» أو تتحداها بقول الصدق ، وبذلك تهدمها إلى الأبد فى نظر زوجها . وأخيرا اتخذت قرارا حاسما وقالت الشىء الغريزى الذى تقرره أية امرأة مخلصة فى حبها لرجل فكذبت عليه لتخلصه من آلام ظنه بأن إهمال «لى» كان سبب موت ابنه

وقالت : لقد كان بخير عندما تركته — وأكدت له ذلك قدر ما استطاعت — كما كان كل شىء على ما ينبغى ، فلا داعى للوم «لى» على ما حدث

فجلس «بوب» ينظر شزرا فى الفضاء ، وخشيت عليه الضر ، فقلت بصوت متهدج دون إرادتى : لا تدع الحزن يولد مرارة فى نفسك يا بوب . وستفجر السعادة ثانية ، وسـيكون لك أطفال آخرون أكبر قيمة وأكثر معزة عندك ، بسبب أنك احتسبت هذا الطفل بالذات

ونظر إلى لحظة ، وكأنمـا كانت عيناه الرماديتين تفحصان وجهى ، ثم قال : فى بطء بعد أن هز رأسه : إنى أشك فى أنى سأعقب أى أطفال بعد الآن يا نانس فإن «لى» تريد أن تعود إلى العمل (الوظيفى) وتقول : إن العمل قد ينسيها كل الذى حدث، كما أنها من أولئك النساء اللائى يردن أن يكون لهن مستقبل ملحوظ ، وقد تكون على حق فى هذا !

فسألته نانس عما إذا كان عارضها فيما انتوته . فقال : ليس هذا من شأنى ، وعليها أن تقرر مصيرها بنفسها ، ولاسيما وأنى فى هذا الوقت لا أهتم لشىء ، بعد موت تدى الذى أصابنى بذهول ووحشة وشعور شديد،

ولم يعد لدى ما أعيش من أجله بعد الآن

فقالت نانس : قلت لنفسى إنه تكلم بحذر وفى مضض ، وعبر بصوت حزين لا يقصد إلى أى معنى ، وليس فى ذلك من عجب ، فإن الحزن يقضى على أى عهد متين بين شخصين . ولكن ربما زالت شكوكه فى لى بعد أن تنكسر حدة المصيبة كما يذهب معها شعوره باليأس والمرارة لفقد الطفل

ومن يدرى ؟ فقد أستطيع أنا المرأة التى أحبته فى يأس ، أن أحميه من الزواج بامرأة أخرى إذا ساعدنى الحظ وقدر لى أن أبلغ ماأريد، فسأ كفرعما أجرمت إهمالى تدى

ومرت بضعة أسابيع ، وحدث ذات يوم بينما كنت وبوب نجلس فى مكتب العمل إذ دق جرس التليفون ، وكانت المتحدثة لى زوجته . ولم يكادا يتبادلان بضع جمل ، حتى شعرت بدقات قلبى تتزايد فى اضطراب . وفهمت أن الفرصة الذهبية التى أحبها للى لتحمى حياتها الزوجية كانت على شفا حفرة سحيقة ستطرحها فيها ، وسمعته يسألها : أين أنت ؟ قالت : إنى فى الباخرة (ماى فلور) مع جيرى . فسألها : ومتى ترحل السفينة ؟ وعقب ذلك فترة صمت طويلة شعرت أثناءها بموجة من التزمت تسود الحجرة . وأخيرا قال فى صوت كأنه يخاطب نفسه : ما مقدار ما احتسيت يا لى ؟ إنك مخطئة إذا حسبت أنى متطفل عليك بهذا السؤال ، وقد وعدتنى بأن تتقبلى ملاحظاتى بصدر رحب ، ثم قال فى جفاء : وهكذا قد رتبت لك جيرى برنامج الرحيل إلى نيويورك معها ، كان على أن أقدر هذا من قبل ! هكذا قد صممت قبل أن تناقشى الموضوع معى !؟ حسن لا أريد أن أعترض سبيلك فى تكوين مستقبلك — إن كان سيكون لك مستقبل — وقد نلتقى عندئذ . ثم ألقى السماعة

وكنت أسير فى طريق نحو الباب ، فسألنى فى ذهول : أذاهبة لتتغدى ؟ فقلت لا ، أريد أن أرى الرئيس لبضع دقائق

ولما قابلته أخبرته بأنها لا تريد النقل الآن فقد غيرت رأيها . فلما عادت إلى المكتب … قالت : لقد وجدت بوب واقفا عند النافذة ينظر محدقا ، ثم خاطبنى فجأة : تعالى نتناول الغداء معا « يا نانس » ، وسنذهب إلى ناحية ما من المدينة . إنى أريد أن أتحدث إليك ، بل فى الواقع أريد أن أبكى بين يديك ! فقلت : إنى أسمح لك بأن تفضى إلى بما تريد كلما أردت ، وكان موقفه هذا أكبر مشجع لى على إبداء أى تصريح « لبوب » ، ولن يكون الأول والأخير فقد عولت على مضاعفة اتجاهى وجهودى العملية بشكل واضح صادق لمنافستى إياها فى حب زوجها

كانت « لى » بنيويورك منذ شهرين وما زالت فى عصمة « بوب » وربما حاولت التمسك به على الرغم مما بينهما من تباعد ، إذ ربما لا تزال تحبه على طريقتها المهلكة ، أو قد تلتحق بالوظيفة وتحتفظ بزوجها فى الوقت نفسه ، أما أنا شخصيا فلا أريد إلا « بوب » كما أنى على استعداد لأن أمنحها كل ما أمتلك . والمهم هو أن أتغلب على كل ما يحدث حتى أكون المرأة التى لا بد أن يحتاج إليها ويحبها

وقال بوب مرة أخرى عندما كان بجانب منضدتى : ماذا حدث لك يانانس ؟ إنك متلألئة العينين بشكل غير عادى ؟! فقالت فى بشر : ليس بى من شئ ، ولكن أشعر بسعادة مفاجئة ، فسألها لماذا ؟ قالت : لست أعرف تماما لماذا ، وهل يجب أن يذكر المرء أسبابا لشعوره بالسعادة ؟ ! فقال : ليس ذلك ضروريا. واختلجت ابتسامة روحية حول شفتيه ، ثم قال : وهل تعتقدين أنى سأشعر بالسعادة ثانية بسبب أو بدون سبب؟

فقلت على الفور : ليس فى ذلك ريب ، ومددت إليه يدى ، وأمسكت بيده ، ونهضت من مقعدى ، وقلت إنى أعدك بالسعادة ، فقال : إنى فعلا أشعر ببعض الاطمئنان الآن ، وكان يداعب أصابع يدى ولكنى ارتعبت فجأة من هذا التماس ، وسحبت يدى من يده

فلما نظرت إلى أعلى ، رأيته يرمقنى بابتسامة لطيفة ، ووثقت من أنه قدر أنى أحببته حبا غامرا فى صمت ، شهورا بل أعواما

يا إلهى — لقد واتتنى الفرصة التى سأعوضه فيها من كل ما فقد . وسأكفر عن كل ذنوبى إن كان لى ذنوب ، وسأصلى من أجل (تدى) و(لى) وسأشكر الله أن جعل لى الحق فى بوب فسأطوقه بذراعى ، وأغدق عليه من القبل ، وأبدد قلقه وأعوضه أحلاما سعيدة

زينب الحكيم

عن مجلة modern romances الأمريكية



ملك أشوريا

لتولستوى

بقلم الأستاذ مصطفى جميل مرسى

لم يكد « إشرخادن » ملك أشوريا . يفوز بالنصر المبين على مملكة عدوه السلطان « لايلى » وينزل به هزيمة نكراء ، حتى تملكه الطغيان والانتقام ؛ فانطلق يخرب البقاع ويحرق البلاد ويشيع الفناء فى كل الأرجاء ؛ لم أمعن فى إنزال نقمته بهذه المملكة ، فأسر رجالها وسبى نساءها ، وساقهم أمامه كالبهائم إلى مقر ملكه ، حيث ضرب رؤوس الجند وذبح فريقا من الأمراء والرؤساء ذبح الشاة ، وسلخ بشرة بعضهم ومازالت عروقهم تنبض بالحياة!

ولم يسلم الملك لايلى نفسه من شر نقمته ونذر عدوانه . فقد حمل مكبلا بالأغلال حبيسا فى قفص كالوحوش الضارية

وبينما كان الملك إشرخادن ضجيعا فى فراشه الوثير ذات ليلة يستلهم فكره ويستوحى جنانه وسيلة بشعة للقضاء على لايلى ؛ إذ طرق سامعيه حفيف يدنو منه ويرف من حوله ! فانتبه بغتة وفتح عينيه فتراءى له شيخ مهيب الصلعة عظيم الوقار ذو لحية مرسلة وخطها الشيب فزاد من هيبته وجلاله ينظر إليه بعينين تنبعث منهما الرزانة وتفيض الوداعة ويسيل اللطف !

لم تمض برهة حتى علا صوت الشيخ وهو يسأل فى هدوء :

أتود أن تقتل لايلى ؟

فأجابه الملك والدهشة تتنازع مشاعره :

أجل . ولكنى لا أجد وسيلة لذلك !

فقال الشيخ : ولكنك أنت لايلى

فأجاب الملك : هراء . لايلى هو لايلى .. وما أنا إلا أنا !

فقال الشيخ : بل إنك ولايلى شخص واحد ! ولعله الوهم الذى يصور لك أنك لست لايلى !

فبلغ العجب والدهش بالملك إشرخادن حدا جعله يصيح بالشيخ قائلا :

ماذا تعنى ؟ ها أنذا جالس هنا على أرائك ناعمة لينة ، محاطا من كل جانب بالعبيد والقيان ! وسأقيم الغداة مأدبة فخمة أدعو إليها خاصتى وصحبى المخلصين ، فنلهو ما شاء لنا اللهو ونقصف كحالنا كل يوم ! أما لايلى فهو ملقى كالطائر المهيض الجناح ..

حبيس فى قفصه يترقب مصرعه بين لحظة وأخرى ! حيث يسلخ جلده ويملق من لسانه فى الفضاء فيظل يناضل حتى يطويه الموت بعد عذاب أليم فيرمى جسده للكلاب الجائعة تنهشه نهشا وتمزقه إربا !

فتبسم الشيخ ، وقال فى صوت تشوبه سخرية هادئة :

أتحسب أن فى وسعك أن تمدمه الحياة ؟

فأجاب الملك : فما حال آلاف القاتلين من أعدائى الذين بطشت بهم وسلت أرواحهم من أجسادهم فجعلت منها روابى وأكواما . إن الحياة ما زالت تمور فى جسدى أنا .. أماهم فقد صاروا آثرا بعدعين ! أما فى هذا دليل مبين على أن فى قدرتى أن أسلب الحياة ممن أشاء !

فقال الشيخ : أو تحسب حقا أنهم صاروا أثرا بعد عين ؟

فأجاب الملك : أجل .. إذ أن طرفى لا يقع على أحد منهم ، بعد أن أذيقوا من العذاب ألوانا مريرة .. بينما أجد نفسى سعيدا فى قصرى ناعما بالحياة !

فقال الشيخ : ماهذا إلا وهم وخيال .. وما عذبت إلا نفسك !

فقال الملك : إنى لا أحير لك فهما ولا أستطيع لك إدراكا أيها الشيخ

فقال الشيخ : أفى نفسك رغبة إلى الفهم وشغف بالمعرفة ؟

فأجاب الملك : أجل أيها الشيخ الوقور !

فمد الشيخ أنامله مشيرا إلى عين يرفض منها الماء وهو يقول : تعال معى ! فنهض الملك من رقدته ودنا من العين .. فواصل الشيخ حديثه :

هيا انزع ثيابك وغص فى هذا الماء

فصدع إشرخادن بما أمره الشيخ الذى مالبث أن قال — وهو يملأ إبريقا من الماء — يجب عليك أن تمد رأسك تحت الماء عندما أصبه

وأمال الإبريق على رأس الملك فما إن وضع إشرخادن رأسه تحت الماء المتساقط حتى اكتنفه إحساس غريب وانتابه شعور مبهم .. هو أنه ليس إشرخدن بل كائنا آخر فقد رأى نفسه — وما برح هذا الشعور المبهم مسيطرا عليه — راقدا على سرير فخم ضخم .. وإلى جانبه امرأة ذات فتنة باهرة وجمال جذاب .. لم يقع طرفه عليها من قبل بيد أنه ألقى فى روعه أنها زوجته

وبعد هنيهة قامت المرأة ، وهى تقول فى صوت رقيق عذب :

زوجى العزيز لابلى .. لقد برح بك التعب من الأعمال التى قمت بها أمس فأغرقت فى نوم عميق على غير عادتك .. ولم أحاول إيقاظك حتى تصيب من الراحة

قسطا يزول معه ذلك العناء.. غير أن الأمراء ينتظرون أن تشرفهم بلقائك فى القاعة الكبرى .. فهيا ارتد ثيابك واسع إليهم

فأدرك إشرخادن من هذا القول أنه لايلى.. بيد أنه لم يتوله العجب.. وإنما الذى أثار دهشته هو أنه لم يدرك ذلك الأمر من قبل .. وقام إلى ثيابه فلبسها وانطلق فى سبيله حتى بلغ القاعة الكبرى حيث ألفى الأمراء يترقبون حضوره .. فلما ولج بابها نهضوا جميعا وحنوا هاماتهم حتى كادت أن تلامس الأرض تحية وإجلالا لملكهم لايلى.. ثم اتخذ كل منهم مجلسا بعد أن أذن لهم بذلك وتهيأ أكبرهم سنا للحديث .. فقال وفى صوته حدة لا تخفى :

إن الصبر قد عيل يا مولاى إزاء تلك الإهانات التى يلاحقنا بها الملك الأثيم إشرخادن.. وشق على أنفسنا احتمال الضيم وتقبل العدوان الذى يلاقينا به فى كل مكان ومن الواجب أن نرد إليه إهاناته بمثلها .. فنشنها عليه حربا عوانا — يكون فيها القضاء عليه والفناء لملكه

فلم يصادف ذلك الرأى هوى فى نفس الملك لايلى.. بل أمر أن تبعث من لدنه وفودا إلى الملك إشرخادن لتحتج عنده على ماحدث فيصالحها على الخير !

وما انتهى من النظر فى شؤون الدولة وقضى فيها بما ارتآه حتى أحس فى نفسه رغبة إلى الصيد والقنص فأمر بأن تعد العدة لذلك ، ثم انطلق — يحف به الأمراء — إلى الغابة .. ورمى بسهامه قطيعا من الحمير الوحشية فأصاب الكثير منها وعاد إلى قصره .. فأقام مأدبة أعقبتها حفلة راقصة أتاحت له لهوا ومتعة

وفى اليوم التالى بادر إلى إيوانه حيث فصل فى الشكايات التى ترفعها رعيته إليه ، وحكم فى القضايا الهامة التى تعرض عليه .. بما هداه إليه الحق والعدل ، بعد أن حقق أقوال المدعين واستبان منهم الصدق ! فلما فرغ من شؤون ملكه.. مضى إلى مسلاته الحبيبة (الصيد) فأصابت رميته لبوة عجوزا ، فقتلتها وحمل معه شبليها ! وانثنى إلى قصره المنيف حيث أولمت له ولأصدقائه الموائد الحافلة .. وهيئت لهم الحفلات الراقصة التى تتلوى فيها القيان عن دلال يثير الإعجاب وإغراء يبعث النشوة . . وتطرب النفوس بأغانى المنشدين وألحانهم .. ثم قضى الملك ليلته مع زوجه الحسناء الفاتنة التى ملأت قلبه حبا لها وشغفا بها !

* * *

وانقضت أيامه على هذا المنوال .. ينهض بأعباء الملك ومهامه فى الصباح وينثنى إلى اللهو والمرح فى المساء .. ويهجع إلى زوجته

إذا ماجن الليل ! حتى إذا ماانتهى شهر .. آبت الوفود التى بعثها إلى الملك إشرخادن فإذا بها مجدوعة الأنوف مقطوعة الآذان مشوهة الوجوه .. وأخبره الرجال أن الملك إشرخادن قال لهم إن الذى حل بهم سوف يلقاه الملك لابلى نفسه . . إذا لم يبادر برفع الهدايا إليه ، ويبعث له بالجزية من الذهب والفضة وأشجار السرو ! ، ويسعى بذاته ليؤدى له فروض الطاعة والولاء

فثارت لذلك نفس الملك لابلى — إشرخادن من قبل — وعصف به الغضب وهزه الحنق.. وجمع الأمراء وعظماء الدولة فأشاروا عليه بأن يشن على إشرخادن الحرب ، ويبتدره بالهجوم فى عقر مملكته قبل أن يسبقه إلى ذلك ... فوافقهم الملك على قولهم ، ومشى على رأس جيش فى سبيله إلى مملكة إشرخادن ، واستغرقت الحملة فى سيرها سبعة أيام .. كان الملك إبانها يطوف بالجنديشحذ هممهم ويبث فيهم الحماس ويثير فى قلوبهم القوة والشجاعة ،يستحثهم إلى النصر ...

وفى اليوم الثامن .. التقى الجيشان .. والتحم الجمعان فى واد عميق . . يتدفق فى وسطه نهر تنحدرمياهه فىشدة وفىعنف.. وقد حارب الجند فى بسالة فائقة وقاتلوا فى شجاعة خارقة ... ولكن الملك لابلى — إشرخادن من قبل — شاهد جنود عدوه تنحدر من سفوح الجبال كالنمل وتتدفق كالماء ، فلم يلبثوا أن هزموا جيشه وأنزلوا بعسكره خسائر فادحة .. ولكن جنوده — على الرغم من ذلك — لم ينوا عن القتال لحظة .. بل صالوا ودافعوا إلى آخر رمق فىالحياة أو إلى أن يقبض عليهم ويجردوا من سلاحهم ...

وكان الملك لابلى نفسه يحارب فى جرأة ويقاتل فى بأس على صهوة جواده الأشهب ، بيد أنه ما لبث أن خر صريعاً ووقع فى الإسار ...

ثم حمل إلى مدينة إشرخادن فى قفص يحرسه بعض الجند الأشداء ، وسيق معه كل من ظل على قيد الحياة من رجاله ومن رحن سبياً من نسائه.. حتى إذا كان اليوم التاسع .. بلغوا بهم المدينة بعد رحلة شاقة عنيفة !

وقد عانى لابلى — فى محبسه — ماأصابه من جروح وآلام ، وكابد ما ألم به من قرصة الجوع وحرقة العطش .. غير أن كل ذلك لم يكن يقرن بالذلة التى برحت به والعار الذى استشعرته نفسه لما باء به من هزيمة وخسران ...

وكان كل ما يطيقه إزاء أعدائه — وقد جردوه من قوته ومرغوا عظمته — أن

يحرمهم اللذة فى رؤيتهم له يئن ويتـأوه ..
فتجلد وكتم فى قلبه أشجانه وأمسك على
نفسه آلامها ... وتحمل فى بسالة وشجاعة
كل ما أذاقوه من عذاب !

وظل عشرين يوما يتوقع الهـلاك بين
عشية وضحاها .. قابعا فى قفصه ينظر ذويه
ورجاله ... وهم يسـاقون إلى الموت زمراً
ويسمع صراخهم وهم يعذبون فى غير رحمة،
فيفت ذلك من عضده ، وكان حراسه يأتونه
بنبأ قتلهم وسلخهم — وهم أحياء — وقطع
أيديهم وأرجلهم من خلاف ! بيـد
أن كل ذلك لم يجعله يسفر لهم عن الفجيعة
التى تجتاح نفسه أو يكشف عن الحزن الذى
يخنق فؤاده ... بل إنه رأى زوجته الحسناء
— أحب الخلق إلى قلبه — يقودها بعض
(الخصيان) .. فأدرك أنها فى سـبيلها
لتكون حظية (إشرخادن) .. فلم يوهن
هذا أيضا من تجلده وإظهار عدم المبالاة
لأعدائه ...

ولـكن الذى أثار حفيظته وأفقـده
هدوءه ، قول أحد حراسه له فى سخرية :
كم أرثى لك يا لايلى ! أين ما كنت
تشمخ به من ملك وتختال فيه من سلطان !
فحينئذ حز فى نفسه ما آل إليه أمره .. وعز
عليه فداحة ما فقده .. فأخرجه ذلك عن
طوق احتماله وتجلده ، فأمسك بالقضبـان
التى أحيط بهـا وراح يخبط رأسه
بها مبتغيا الموت غير أنه لم يجد لديه القوة
التى تعينه على ذلك .. فانقلب يئن فى يأس
وانكفأ ينتحب فى لوعة !

* * *

وأخيرا أتاه رجلان من الجـلادين ..
فقيداه بحبال غليظة ، وانطلقا به وهما
يدفعانه أمامهما إلى ساحة الإعدام . .
حيث ألقاها ملطخة بالدماء مليئة بجثث
رجاله وقد علقوا من الرقاب ! ثم أبصر وتداً
من حديد قد ركز فى الأرض ، فأدرك أن
الموت يترقبه من فوقه ، ومالبث الجلادان
أن أمسكا بلايلى من حباله ورفعاه إلى أعلى
ثم خليا بينه وبين الأرض ، فهوى فوق
الوتد ! ..

فصاح لايلى : إنه الموت .. فرحماك
يا إلهى ! ثم انفجر باكيا من الألم ، والدم
يتدفق من جراحه ونسى ما كان من عزمه
على التجلد ، وراح يتضرع إلى ربه أن
ينجيه من هول هذا العذاب ، وأخذ يتوسل
إلى من حوله أن يرحموه ! دون جدوى !
غير أنه مالبث أن صرخ من فرط الألم
والفزع لا يمكن أن يكون هذا حقيقة !
إنه حلم .. لا بد أنى نائم .. وطفق يكافح
فى غير هوادة حتى يفيق إلى وعيه ويثوب
إلى رشده !

فإذا به يلقى نفسه شيئاً آخر .. لا هو بإشرخادن ولا هو بلابلي ! بل حيوانا ! فتولاه العجب وتملكته الدهشة ! كيف أنه لم يكن يعرف من قبل أنه حيوان

لقد كان قائماً في واد نضير يرعى العشب الأخضر ، ويذب الهوام عن جسده بذيله الطويل ، ولكن ! آه ! إنه رأى إلى جواره جحشاً رمادي اللون مرقش الظهر .. طويل السوق رفيعها .. يرتع حواليه ، ثم ما لبث أن أقبل عليه ودفع رأسه في بطن أمه (إشرخادن) وتناول بشفتيه الصغيرتين ثديها ، وراح يمتص منه اللبن !

ففطن (إشرخادن) إلى أنه قد صار أتانا ! وأن ذلك الجحش الذي يرتع في ظلها ولدها ! ، فلم يثر ذلك في نفسه لواعج الحزن ولم يحرك دواعي الاستغراب بل أشاع في نفسه بهجة وحنوا !

وعلى حين غرة ! برق شيء في الهواء ثم أصابه في جانحته ونفذ في لحمه فأحس له ألما بالغ الحدة فانطلق يعدو بعد أن أرهف أذنيه نحو الجهة التي أتاه منها السهم إلى وجهة أخرى ! وجحشه الصغير يتواثب وهو يجرى إلى جانبه !.

فما كادا يبلغان القطيع الذي نفرا منه منذ حين حتى أصيب الجحش في عنقه بسهم آخر جعله يخر صريعا والدم ينزف من جرحه غزيرا فلم يتخل إشرخادن – وهو أتان – عن ولده بل مكث جواره لا يحير لألمه ما يخفف من شدته .. فحاول الجحش أن ينهض على قوائمه الطويلة الرفيعة .. ولكن ما لبث أن تهاوى إلى الأرض خائر القوى واهن الجسد ! فأسرع نحوه مخلوقان يسعى كل منهما على ساقين – من البشر – وعجلا بذبحه في غير شفقة .. فما لبث إشرخادن أن ردد في اضطراب وهلع : « كلا .. لا يمكن أن يكون هذا حقيقة ! إنه رؤية حالم .. فما أنا بلابلي كما أني لست « أتانا » .. وإنما أنا إشرخادن ! »

***

حاول إشرخادن أن يخلص نفسه مما اكتنفها .. فأخذ يناضل وراح يصرخ .. فما لبث أن ألفى ذاته واقفاً في ماء العين ! وما برح الشيخ قائماً يصب قطرات الماء على رأسه من إبريقه ! فهتف وما زالت جوانحه تختلج بالخوف وقلبه يخفق بالروعة : آه ... يالها من رؤيا مخيفة .. أي فزع عانيته منها ! كم استغرقت من الزمن !؟ فأجابه الشيخ في هدوئه وابتسامته : زمن ؟! إنك لم تكد تضع رأسك تحت الماء المتقاطر حتى جذبته في شدة ولم تمض لحظة .. أنظر .. إن الإبريق مازال مملوءاً بالماء .. أفهمت ؟!

لم يجب إشرخادن ! فقد جمد لسانه في

فمه وراح يمد إلى الشيخ نظرات من الدهشة والفزع .. فواصل الشيخ حديثه بعد هنيهة قائلا : هل أدركت الآن ؟ وعلمت أن لابلى هو أنت ؟ وأن جنده الذين قتلتهم هم أنت أيضا .. ليس الجند وحدهم .. بل الحيوانات التي ترميها بسهامك فتوردها مورد الهلاك ، وتتخذ من لحومها طعاماً لك ولأضيافك .. ما هي إلا أنت ؟ لعلك كنت تحسب أن الحياة لك وحدك .. بيد أنى — وقد حسرت حجاب الوهم والتصور الكاذب عن بصيرتك — جعلتك ترى أن الشر الذي تحاول أن تصيب به غيرك من الخلق إنما يرتد إليك ويحيق بك أنت !

إن الحياة واحدة عند الخلق جميعا .. وما حياتك إلا شطر ضئيل كل الضآلة — من هذه الحياة العامة ! وليس في وسعك أن تؤثر إلا في شطرك هذا وحده .. تزيده أو تنقصه .. وتسيء إليه أو تسعده !

إنك تستطيع أن تقوم من نصيبك هذا بإزالة الحدود التي تفصل بين حياتك وحياة الآخرين فتنظر إلى حياتهم كما تنظر إلى حياتك، وتحب لهم ما تحب لنفسك، وتسعى بينهم بالمودة والعطف والحنان! بهذا يمكنك أن تضاعف نصيبك من الحياة !

واعلم أنك تؤذى نفسك وتضر حياتك باعتقادك أنها هي الوحيدة في هذا الكون، وأنك تزيد في خيرها وسعادتها على حساب حياة غيرك وشقائهم !

إنك بهذا تصغر من شأنها وتجعلها ضئيلة حقيرة !

إن إفناء الحياة التي تكمن في الخلق أعظم وأجل من أن يستطيعه فرد من البشر في مثل قوتك وملكوتك .. إن حياة هؤلاء الذين ذبحتهم لم تزل إلا في نظرك أنت ! إنها لم تفن ولم تصبح أثرا بعد عين كما خيل إليك . أواعتقدت أن بإمكانك إطالة حياتك وتقصير حياة الآخرين .. هه! إنك إذن لسادر في وهمك.. فما أنت بمستطيع ذلك!

فالحياة لاتعرف أواناً أو مكاناً.. إن حياة لحظة مثل حياة آلاف السنين .. وحياتك مثل حياة الآخرين على حد سواء ! ولايملك أحد للحياة إنهاء أو تبديلا .. فهي الشيء الوحيد الأبدي الوجود . الدائم الخلود !

لم يكد يفرغ الشيخ من حديثه وينتهي من حكمته حتى تلاشى بغتة من حيث أتى !

***

وفي اليوم التالى أصدر إشرخادن أمره بإخلاء سراح الملك لابلى ومن بقى من الأسرى والسبايا .. وبإعادتهم مكرمين معززين إلى بلادهم .. وأعلن في الناس أنه لن يعدم إنسانا بعد اليوم ! ثم دعا ابنه (أشور بانيبال) فقلده السلطان .. و نادى

به ملكا على (أشوريا) بدلا منه

أما هو .. فانطلق إلى صومعة فى الصحراء فلزمها يفكر ويتأمل فيما تلقاه من حقائق وما بلغه من علم .. ثم مالبث بعد حين أن راح يجوب البلاد ويجول فى البقاع .. يدعو الناس إلى الخير ويأمرهم بالمعروف .. ويعلمهم أن الحياة واحدة فى كل الخلق .. وأن الإنسان إذا ما أراد أن يصيب غيره بأذى فما يصيب إلا نفسه .. ولا يحيق الشر إلا بصاحبه !

مصطفى جميل مرسى

الورقة الثالثة عشرة

للكاتب الإنجليزى فيليب أوبنهايم

بينما كان جماعة من الرجال بينهم جاسبر سلين يتأهبون ذات ليلة ليلعبوا الورق فى حجرة بأحد الأندية إذ دخل النادل الحجرة ، وفى وجهه سمة المستعجل فنادى السيد جاسبر قائلا سيدى إن شخصا يطلبك فى التليفون على عجل

ولكن جاسبر تباطأ مفكرا ثم قال : تليفون فى مثل هذه الساعة ؟ أعرفت من المتكلم ؟

فأجاب النادل : إنه لم يذكر اسمه ياسيدى، ولكنى أظنه صوت لورد منشنجهام . ولقد قال إنه يرجو أن تتصل به فى سرعة

فقال سلين لرفاقه وهو يتنهد آسفا : احتفظوا بمكانى على مائدة اللعب فسألعب الدور الثانى ولست أدرى لم يطلبنى منشنجهام هذه الساعة من الليل وعلى هذه الصورة !

وأمسك جاسبر سماعة التليفون وقال : إنه أنت يا منشنجهام كما أظن ؟

فأجاب منشنجهام : هل يشغلك الآن عمل هام يا جاسبر ؟

فقال جاسبر : لا .. لقد كنت بسبيل أن ألعب البردج

فقال محدثه : وكنا هنا كذلك نلعب ، ولكن يظهر أن القدر تدخل بيننا .. أتستطيع أن توافينى على عجل فى رقم ١٦ بأبنية كننجهام ؟

فأجاب سلين وفى لهجته شئ من الفتور : أتقصد الآن أم ترى أنه يمكن أن آتى بعد حين ؟

فقال منشجهام : أقصد أن تجئ هذه اللحظة . اركب أسرع سيارة أجرة تصادفك . فقد حدث هنا أمر لا نستطيع أن نفهمه وأعتقد أنك خير من يعيننا . إلى شديد الأسف .

ولكن ...

فقال جاسبر : سأحضر الآن

وأرسل جاسبر اعتذاره إلى رفاقه وأسرع فارتدى معطفه وقبعته واستقل أول سيارة صادفته إلى كننجهام . وكان البناء الذى يقصد إليه جاسبر صغيرا بالنسبة إلى ماحوله. كان يتألف من طوابق ثلاثة ، أما أسفله فكان دكاكين كله . وكان الطابق الأول مكاتب مختلفة ، وكان الثانى شقة مسكونة . وكان لورد منشنجهام الأعزب يسكن فى الطابق الثالث

ولاحظ سلين وهو يدخل هذا البيت أن ثمة بعض القلق والضيق يبدو على وجهى عامل المصعد وحارس المبنى . على أن سلين لم يسأل أحدهما عن شئ . ودخل المصعد مسرعا ثم خرج منه عند باب الطابق الثالث ولقيه خادم منشنجهام فى مدخل الشقة وأخذ منه معطفه وقبعته ، ثم تقدمه إلى حيث كان يجلس سيده ، فنهض منشنجهام وفى وجهه حيرة وقلق وفى عينيه ذبول واستقبل صديقه وأجلسه على مقعد بجوار مائدة اللعب ، وكان يجلس حولها رجلان آخران ولم يكن يشغل المقعد الرابع أحد

وقال منشنجهام لصديقه : حسنا فعلت إذ جئت الآن . إنك تعرف هذين فيما أظن

فأومأ سلين برأسه موافقا ، وتبادل إيماءات التحية مع الرجلين ، وكان أحدهما جورج برت أحد كبار وزارة الخارجية وكان الثانى مارتن فبس عضو البرلمان ورئيس كثير من الشركات الهامة ومن ذوى الشهرة العالمية فى شؤون المال . وقد لاحظ سلين منذ دخوله الحجرة أن هناك شيئا ما يتصل بذلك المقعد الخالى

وقال جاسبر مازحا ماذا تصنعون هنا ؟ أتدبرون مؤامرة لقطع بعض الرقاب ؟

فأجابه منشجنهام : إننا نخشى أن يكون هناك من يفعل ذلك غيرنا ... لقد جلسنا نلعب منذ ثلاثة أرباع الساعة وكان يلعب معنا كارتريت . إنك تعرف رونى كارتريت بالضرورة .

فأجاب سلين : نعم . . أعرفه

وعاد منشنجهام يقول : ما كدنا نوزع الورق حتى دخل الحجرة خادمى تومسن يقول إن شخصا يريد أن يكلم كارتريت فى التليفون فنهض كارتريت معتذرا إلينا ، وكانت ورقاته بيده وكان يرتبها وهو يغادر الحجرة ... وأنت تعلم أن التليفون فى الحجرة الصغيرة المجاورة .. إنى أعلمك بهذه التفاصيل إذ ليس لدينا ما نعتمد عليه غيرها، وربما وجدت فى أمر تافه مما أسرد، مايعينك على الفهم ...

فقاطعه سلين قائلا : نعم ... نعم ... استمر .

فقال منشنجهام : وانتظرنا دقيقة أو دقيقتين .. ثم مضت خمس دقائق ، ثم عشر ، ولم يعد صاحبنا وأخذ القلق يساور هذين الصديقين فنهضت لأنظر أين ذهب كارتريت. ولكنى لم أجده ، ورأيت ورقاته على المنضدة الصغيرة بجوار التليفون . فناديت باسمه فلم يجب أحد ، ثم بحثت عنه فى الشقة كلها وبحث معى خادمى تومسن فلم نعثر له على أثر. ونزلت إلى الطابق الأرضى وسألت حارس المبنى وكان بحيث يرى كل داخل أو خارج ، فقال إنه لم يغادر حجرته منذ أكثر من ساعة ولم ير أحدا يدخل البيت أو يخرج منه. وخلاصة القول ياسيدى أنها قصة جد سخيفة .. ولكن كارتريت قد اختفى فى غير سبب

فقال سلين مبتسما : أظن أنه فى هذه المدة لم يبعد عنا بعدا كبيرا !

فأجاب منشنجهام قائلا : وهذا يسهل عليك البحث عنه . إنك تعرف جغرافية هذا المبنى فيما أعتقد . فالدكاكين فى الطابق الأرضى وهى مغلقة منذ أكثر من ثلاث ساعات ، والمكاتب فى الطابق الأول وليس فيها أحد منذ ساعتين على الأقل . أما الطابق الثانى وهو الذى يقع تحت شقتى هذه فتسكن فيه الأميرة مادزويل وهى سيدة عظيمة الثراء مزيج فى جنسيتها من الروسية والبولندية. ويجعلنا مقامها هنا نرى دنيا العلية وحسبك أن بعض زائريها من قصر بكنجهام نفسه

وسأله سلين فى اهتمام : أيعرف كارتريت تلك الأميرة ؟

فأجاب منشنجهام : كلا إنى واثق من أنه لا يعرفها فقد سألنى حين كان هنا آخر مرة قبل هذه عمن يسكن فى الشقة التى تقع تحتنا . والآن ماذا ترى أيها الصديق ؟ الدكاكين مغلقة والمكاتب مغلقة خالية ، وشقتى لم ندع فيها مكانا إلا فتشناه ، وشقة الأميرة لا يسكن فيها غيرها ، وهى كما قلت لك سيدة معروفة ، تعيش عيشة هادئة ولا تخرج قط من مسكنها بالليل .. فأين ذهب كارتريت إذن ؟

وأشعل جاسبر سلين سيكارة ولبث لحظة يفكر ، ثم نهض كأنما وصل إلى رأى ، وذهب إلى حيث يوجد التليفون ، فوجد ورقات كارتريت فى موضعها كما ذكر منشنجهام ؛ ولكنه حين عدها وجدها اثنتى عشرة فقط ، فأخذ يبحث عن الورقة الناقصة تحت المنضدة وحولها وفوق البساط وتحت أطرافه ولكنه لم يجد شيئا . ورد الورقات إلى موضعها ، وتناول سماعة التليفون ووضعها على أذنه وأصغى فلم يسمع شيئا ،

فضغط على زر التليفون ولكن فى غير جدوى . وظل لحظات يعالج التليفون ولكنه رآه وكأنه قطعة من الحديد ليس غير . فنادى تومسن فسأله قائلا « أهذا هو التليفون الذى دق حين استدعيت كارتريت ليتكلم ؟

فقال تومسن : هو بغير شك يا سيدى، فليس فى الشقة غيره ، إلا امتدادا له يدق فى حجرة النوم

فقال سلين : أرجو أن تذهب فترى هل فى الجهاز الآخر خلل ؟

وعاد الرجل بعد قليل يقول : لم أستطع أن أحدث أية صلة يا سيدى وأظن التيار مقطوعا عنا من مكان ما

فأومأ سلين برأسه ثم قال : إن هذا التليفون قد عبث به عابث فكيف كلمنى فيه لورد منشنجهام ؟

فقال تومسن : تكلم اللوردفى التليفون الذى فى الردهة السفلى للبيت حين ذهب ليسأل الحارس

فسأله سلين فى اهتمام : أواثق أنت من أن كارتريت رد على طالبه فى هذا التليفون ؟»

فقال الخادم : واثق كل الثقة ياسيدى ، فقد كنت أسمع صوته فى وضوح

فسأله سلين : ألم تسمع ماذا قال ؟

فأجاب الخادم مستنكرا : إنى لم أصغ إلى حديثه يا سيدى

فقال سلين فى هدوء : هذا حسن .. أبلغنى اللورد أن مستر كارتريت قد اختفى وسألنى أن أبحث عنه ، فإذا عرفنا من كان يكلمه سهل علينا الأمر

فقال الخادم : آسف يا سيدى إنى حقا لم أسمع شيئا من حديثه

فسأله سلين : ألم تلاحظ شيئا من الاضطراب على وجه مستر كارتريت أثناء الحديث أو بعده ؟

فقال الخادم : لا أستطيع الإجابة على هذا السؤال كذلك يا سيدى ، فقد كنت مشغولا أنظف المائدة فى حجرة الطعام وكل ما أعرفه أنى سمعت صوت مستر كارتريت وهو يتكلم فى التليفون، وبعد دقيقتين خرجت من حجرة الطعام فلم أجد بجانب التليفون إلا تلك الورقات على المنضدة

فسأله سلين : وماذا كان من أمر معطفه وقبعته ؟

فقال الرجل : إنهما لا تزالان هنا ، وإذا كان لى أن أجرؤ فأشير إلى شئ فذلك أنه لم يكن ليحاول الخروج من غيرهما فالليلة باردة جدا والسماء تساقط الصقيع

فغمغم سلين قائلا : حسن ... إن من الخير أن يبدأ الإنسان بفرض محدد أيا كان . فليكن هذا الفرض أن كارتريت لا يزال فى

هذا المبنى وأننا إذا التمسناه هنا وجدناه

ودخل سلين على صديقه منشنجهام وصاحبيه ، فسأله : ماذا ترى ؟

فقال سلين : إنك على حق فيما قلت فقد اختفى كارتريت بالمعنى الدرامى الكامل للاختفاء فلا يزال معطفه وقبعته بالردهة ولا تزال ورقاته على المنضدة وقد قطع تليفونك

ونظر الرجال بعضهم إلى بعض فى قلق ثم قال جورنج برت : إن المعجزات لا تحدث فى هذه الأيام . ولا بد أن هناك حلا يسيرا لهذه المشكلة

فقال سلين : أرجح ذلك كثيرا فهيا بنا ننظر ماهذا الحل . وقد اقترح بادىء الرأى أن تفحص امنسجهام أنت وصديقاك هذه الشقة فحصا جيدا بينما أذهب أنا فأستفهم الحارس ، وإذا لزم الحال فسوف أشاغب الأميرة بكلمات بعد ذلك

فوافق مشنجهام على ذلك ودعا صديقيه ليصحباه . ونزل سلين إلى الحارس فوجده رجلا لا يمكن أن يرتاب فيه بأن يتآمر تآمرا من أى نوع أو يهمل عمله . وقد أكد فى غير تحفظ أنه منذ أن جاء ضيوف منشنجهام لم يدخل المبنى أو يخرج منه أحد . وقال عامل المصعد إنه منذ أن صعد هؤلاء إلى مضيفهم لم يدع إلا لينزل بمنشنجهام إلى مدخل المبنى ليسأل الحارس .

وصحب سلين عامل المصعد إلى الطابق الأول ، ففحص الأقفال فوجدها كلها مقفلة ولم يتبين أى شعاع من النور داخل المكتب

فعاد ثانيا مع العامل إلى الطابق الأرضى وسأل الحارس عن أصحاب تلك المكاتب فإذا هؤلاء قوم معروفون بين محام وتاجر فراء ووكيل شركة أفلام ، وقد غادروا المبنى جميعا هم وموظفوهم منذ الساعة السابعة

فقال سلين : إذن ليس هناك من قاطن لهذا المبنى إلا لورد منشنجهام فى الطابق الثالث والأميرة فى الطابق الثانى فخبرنى ماذا تعرف عن هذه الأميرة

فأجاب الحارس وقد أخذ صوته وهيئته ينمان على احترام شديد : إنها أرملة ياسيدى وإنها روسية الجنسية على ماأظن وقلما تخرج من بيتها ، ولكن زائريها كثيرون وكلهم من العلية . وهى سيدة كريمة رحيمة من خيرة من سكنوا هذا المبنى . وكثيرا مانرى السادة والكبراء هنا فى زيارتها »

فقال سلين : هل يقيم أحد معها ؟ ومن خدمها ؟

قال الرجل : إن لها رفيقة ، وهى سيدة شابة تلازمها دائما . ويخدمها رجلان وثلاث نساء

فقال سلين : إنها إذن ليست فقيرة مثل معظم الروس

فأجاب الرجل : فقيرة ؟ كلا ... إنهـا تشترى دائما ماتحب من زهر ومن خمر، وخير المأكولات من أرقى المحلات التجارية. ويأتى الحائكون والحائكات إليها هنـا . ولها سيارتان وتجدها فى الأوبرا أو فى غيرها من دور التمثيل تتخذ أحسن مكان منفرد .

فقال سلين: شكرى لك عظيم على ما أخبرتنى به . ولو أن ماقلته لم يصـل بى إلى رأى فيما أنا مشغول به فهو مفيد على أى حال .

ثم دس سلين فى يد الرجل ورقة مالية . فلما نظر فيها وجدها من فئة الجنيه فقال فى دهشة هذا أكثر مما استحق على إجابتى عن بعض الأسئلة

فقال سلين : هو لك عن طيب خاطر إذا أجبت عن سؤال واحد هو الأخير. إن لديك هنا جهازا جديدا من أجهزة التليفون لتحويل التيار إلى الشقق والمكاتب المختلفة ، وهو جهاز نافع . والآن هل لك الآن أن تخبرنى لماذا قطع السلك الموصل إلى شقة منشنجهام؟ أنظر هنا فوق الجهاز ببوصتين تجده مقطوعا

واستدار الرجل فى سرعة ونظر ، وفغر فاه، وأخذت عيناه تطرفان فى دهشة وقال : ليرحمنى الله . لقد كان الجهاز سليما حين رأيته قبل هذا ... أقسم أنه كان سليما .

فقال سلين : لقد كان سليما عند التاسعة والربع ، لأن لورد منشنجهام كلمنى فى النادى وقتئذ . فمن نزل هنا إلى البهو غيره ؟

وشملت الدهشة الحارس من أقطاره ولم يستطع أن يحول بصره عن السلك المقطوع إلا فى جهد ثم قال : لم ينزل هنا أحد غير من اعتدنا أن نراهم أنا ووليم عامل المصعد ؛ لقد نزلت رفيقته الأميرة وخرجت إلى الشارع ومعهـا الـكلبان الصغيران كما تفعل أحيانا ونزل أحد الخادمين فدخن سيكارة ثم وقف ينتظر عودتها خارج الباب . ولست أذكر أحدا غير هذين يا سيدى . وإنى واثق أنه لم يدخل المبنى أحـد من الخارج ولا غادره أحد فلم يعد إليه

فقال سلين : حسن . لنقف عند هذا فلست تعرف من قطع التليفون . وهـذا جانب من ذلك اللغز الذى حـيرنا . . ولـكنك تبدو ذا بصيرة فما رأيك فى كارتريت وأين تظنه ذهب ؟

فأجاب الحارس : إنى أظنه قـد ألقى بنفسه من إحدى النوافذ يا سيدى . فإنى لا أستطيع أن أتبين طريقة غير هذه لخروجه من هذا المبنى وآخر احتمال لحل هذا اللغز أنه ربما كان كارتريت صديقا للأميرة وأنها هى التى طلبته فى التليفون ، فنزل إلى شقتها وأصابه هنالك إغماء أو شىء من هذا القبيل وهو احتمال غير مقنع ولـكن ماذا لدينا غير هذا مما يقنع ؟

وأومأ سلين موافقا ثم سأل الرجل قائلا: أظنك باقيا هنا ساعة على الأقل ؟

فقال الرجل فى تأكيد : سأبقى هنا حتى تنزل مهما مكثت مع صديقك

وصعدت سلين إلى شقة منشنجهام ، وكان الرجال الثلاثة ينتظرون وقد فرغ صبرهم . فقال منشنجهام : إنهم لم يدعوا موضعا إلا فتشوه فلم يعثروا على أثر لكارتريت . وسأل صاحبه هل وفق إلى شئ فأجابه سلين أنه لم يهتد إلى شئ بعد . وأن آخر أمل له هو شقة الأميرة وأنه لا بد أن يذهب إليها

فقال منشنجهام : إذن فتجرع شيئا من الشراب فإنك فى حاجة إلى كل عصب من أعصابك لتفعل فعلا كهذا فى الساعة الحادية عشرة

فتناول سلين كأسا من الويسكى وجلس يفكر على متكئ أحد المقاعد لحظة . ثم أخذ يسأل منشنجهام عن كارتريت فقال :

ألم يكن ثمة ما يقلق كارتريت أو يكربه ؟

فقال منشنجهام : كلا بل .. إنى ما رأيته أكثر تحمسا لعمله منه فى هذه الأيام وأشد اطمئنانا وثقة

فسأله سلين : أليست له علاقات نسائية ؟

فأجاب منشنجهام : ليس حوله إلا امرأة واحدة هى زوجته الجميلة الهادئة التى تخلص له الحب والتى يبادلها حب بحب

فقال سلين فى عزم : إذن ليس أمامنا إلا أملنا الأخير وهو شقة تلك الأميرة فإلى هناك

ونزل سلين إلى شقة الأميرة وإنه ليسأل نفسه ألا يشعر بالمرض من كثرة ما حصر ذهنه فى جوانب هذه المشكلة ؟

ثم وقف لحظة أمام باب الشقة مفكرا قبل أن يغمز زر الجرس . ولم يكد يغمز الزر حتى فتح له الباب أحد الخادمين

فسأله سلين عن الأميرة هل هى موجودة ؟ فأجابه الرجل وفى نظراته الدهش إنها موجودة ولكنها لا تقابل أحدا إلا عن موعد . فقال سلين : إنه يريد أن يراها لسبب طارئ ؛ ومد إلى الرجل يده ببطاقته . فأخذها الرجل ودخل الشقة ووقف سلين ينتظر لدى الباب.

وسمع سلين صوتا نسويا فى إحدى الغرف فى نبرته دهشة ، وبعد قليل عاد الخادم فقاده إلى هذه الغرفة ، فإذا هو بين أثاث فخم يدل على بسطة فى الثراء ، وأحدت عيناه امرأتين ، إحداهما الأميرة فيما يبدو ، وكانت ترتدى ثيابا سوداء لا بهرج فيها ولكنه رأى الحلى الثمينة الجميلة حول جيدها وفى أذنيها ، وقد أزاحت شعرها الأشهب عن جبينها فى هدوء ولحته بعينيها السوداوين . وأما الثانية فشابة تلبس كذلك الملابس السوداء ، قوية معارف الوجه ، سوداء الحاجبين ، ضيقة المحجرين،

صغيرة العينين ، وكانت تقرأ كتابا فى يدها وبدا عليها أنها قوطعت حين كانت تجهز بقراءتها ونظرت إلى سلين دهشة تتساءل بعينها .

وقال سير جاسبر سلين : أرجو أن تقبلى يا سيدتى معذرتى عن إقحام نفسى عليك فى مثل هذه الساعة . وليس لى إلا أن أدع سبب مجيئى على هذه الصورة لتقديرك فهل تأذنين لى أن أشرح هذا السبب ؟

فأجابت الأميرة فى صوت كان على الرغم من لهجتها الأجنبية جميلا موسيقيا : «بكل سرور» ثم أشارت بيدها إلى مقعد قائلة هل تتفضل فتجلس ؟ ونظرت إلى الفتاة فقالت : هذه رفيقتى ولا عليك من وجودها معنا فقص على ما تريدمنى فى مثل هذه الساعة من الليل

فقال سلين : إنه أمر سوف يبدو سخيفا منى مضحكا فيما أرى ولذلك أرانى مضطرا أن أقدم له بمقدمة ... إن صديقى الذى يسكن فى الشقة العليا ، لورد منشنجهام كان وثلاثة من صحابته يتهيأ للعب الورق منذ ساعة ونصف أو ساعتين فيما أظن ، وبينما كانوا يوزعون ورقاتهم إذدق جرس التليفون فدعى الخادم أحدهم ويدعى كارتريت ، فخرج من الغرفة ليتكلم فى التليفون ، ولكنه لم يعد إلى رفاقه والتمسه لورد منشنجهام فى شقته فلم يجده

وأكد الحارس كما أكد عامل المصعد أنه لم يخرج من البناء ، فلم نر منطقيا إلا أنه غير بعيد منا ، كما تحتم هذه الحقائق

فقالت الأميرة : هـذا سر جد عجيب وإنه لسر غامض

فأجاب سلين وهو ينظر إلى وجه الفتاة الجامد فكانت تصغى دون أن يبدو فى أساريرها أى اهتمام : إن كارتريت لم يغادر البناء فأين هو ؟ إننا لم ندع موضعا فى شقة منشنجهام إلا فتشناه ، والمكاتب التى تحت شقتك كلها مغلقة وقد غادرها أصحابها وموظفوها كما يؤكد الحارس منذ أربع ساعات أو خمس ، وليس ثمة فيها ما يدل على أن بداخلها أحدا . وعلى ذلك فلا يبقى أمامنا إلا شقتك فى المبنى كله ، فأرجو منك أن تأذنى لى بأن أفتشها مصحوبا بأحد خدمك

ورفعت الأميرة حاجبيها دهشة وتغضنت جبهتها ، وتألقت عيناها ، واختلجت ابتسامة طفيفة فى جانبى فمها ثم قالت : ولكن ذلك أمر لا يصدقه العقل ، فإنى أؤكد لك ياسيد جاسبر وأنا واثقة كل الثقة أنه ما من رجل دخل شقتى الليلة ، فأنا لا ألقى زائرين فى هذه الأيام إلا أصدقائى المقربين ، ولم أغادر شقتى .. ولست أعرف صاحبك هذا الذى تبحث عنه ذلك الذى يدعى ... ماذا تسميه؟ كارتريت ؟ فماذا يدعوك إلى أن تتخيل أن

يكون فى شقتى بأى وجه من الوجوه ؟

فقال سلين : أيتها الأميرة .. إن هـذا الافتراض يبدو لنا غريبا بقدر ما يبدو لك؛ ولـكن أرجو منك أن تتبيني وجهة نظرنا . إنه ليس بمقل أن يذوب رجل أو يستحيل إلى هواء . وهـذا الرجل الذى نلتمسه لم يغادر هـذا المبنى ، وما تركنا موضعا فى المبنى إلا فتشناه إلا شقتك هـذه ... لولا هـذا ما وضعت نفسى منك فى هذا الموضع ، ولما افترضت هذا الفرض الذى أعرف أنه يبدو غير معقول

ونظرت الأميرة فى بطاقة سلين وقالت مفكرة : أظن أنى أعرف اسمك ياسيد جاسبر . إنى قلمـا أبرح مسكنى ولذلك ترى دائرة معارفى ضيقة . ولـكن يخيل إلى أن ثمة شيئاً مألوفا حول هذا الاسم..أتكتب مثلا؟

فقال سلين : أكتب بعض مقالات عن الإجرام من نواح مختلفة ولـكن ذلك نادر جدا ؛ إلا أنى أعرف الـكونتس مونتزينى وأظنها صديقة لك

فقالت الأميرة : آه.. ألجا عززتى ... إنها صديقتى حقا . حسن ! ليـكن لك ماأردت ياسيد جاسبر . إغمزى الجرس ياأنا . إننا سندع هذا الرجل يفعل مايحب وليصاحبه جرابلنج

فقال سلين : إنى أشكرك أعظم الشكر أيتها الأميرة وسيشكرلك لورد منشنجهام صنيعك . وأعدك أنى لن أمدعينى فى غرفتك إلى غير ما جئت من أجله

فابتسمت الأميرة قائلة : أخشى أنك لن تجد فى شقتى مايسترعى بصرك كثيرا ياسيد جاسبر . فتشها كما تريد ، وأرجو أن أراك قبل أن تخرج

وكان جرابلنج خادما حسن المران فى عمله وهو فيما يبدو إما ألمانى أو روسى . ولم يكن هو الذى أدخل سلين الشقة . ويظهر أنه رئيس الخدم . ولما دعته الأميرة وأشـارت عليه بما يعمل لم يبد على وجهه الصلب شىء من الدهشة

وكانت غرفة نوم الأميرة آية فى الرونق والفخامة ، ولم يـكن فيها ما يدل على أية زيارة للرجال . أما غرفة أنا فـكانت أقرب ما تـكون إلى غرفة خادمة فليس فيها إلا سرير من الحديد ، على أن غطاءه كان من قماش ثمين . وقد علق فوق السرير صليب حديدى وصورة جميلة للسيدة العذراء . وكانت هناك غرفة أخرى للنوم غير مستعملة فيها أثاث غير ذى قيمة كبيرة ، وبعض التحف الفنية . وقد فتح جرابلنج الأصونة فـكان ملؤها الصينى الفاخر وأنماط من الـكؤوس والزجاجات . أما قسم الخدم فـكان عاديا وقد فتشه سلين شبرا شبرا ، لم يدع موضعا حتى مـكان التليفون الذى

لا يتسع إلا لشخص

وقال جرابلنج فى احترام : لم يبق بعد ذلك مكان ياسيدى ، لقد دخلت كل حجرة وكل مرفق وفتحت كل صوان

فدس سلين جنيها فى يده وهو يعبر عن أسفه لما ساقه إليه من تعب من جراء هذا التفتيش ، وقبل الرجل الجنيه ، ثم فتح باب الصالون وقد تقدم سلين إليه ، والتفتت الأميرة وعلى ثغرها ابتسامة ضئيلة . وقالت فى لهجة ساخرة : إنك لم تعثر على صديقك مستخفيا تحت سريرى أو قابعا فى خزانة ملابسى ... لعل صديقك حسن الهيئة ولا ريب أنى فقدت بفقده شيئا يؤسف عليه

فبدا على سلين سمة الاعتذار ثم قال : لم يتح لصديق من حسن الحظ ما يسوقه إلى شقتك ، وإنى أرجو أن تقبلى معذرتى وشكرى فمدت له الأميرة يدها مسلمة ، ونظر إلى الفتاة فلم يجد ملامحها معبرة عن شىء ، وقالت الأميرة : أرجو أن تعود لزيارتى ذات يوم يا سيد جاسبر لتخبرنى على الأقل ماذا كان من أمر صاحبك المختفى

فأجاب سلين : إئذنى لى أن أعبر لك عما يبعثه عطفك من عميق الأثر فى نفسى

وكان فى طريقه إلى الباب والحيرة تأخذه من أقطاره ، فإن كارتريت بلا شك غير موجود بهذه الشقة ... وتباطأ سلين فجأة فقد وقعت عيناه على شىء بعث هزة فى جسده وشعاعا من الأمل فى ذهنه . كانت باقة كبيرة من الزهر موضوعة فى أصيص على منضدة قرب الباب فرأى سلين ورقة من أوراق اللعب مكورة بجانب هذا الأصيص ، فمال على الباقة ليشمها وتناول هذه الورقة دون أن يفطن أحد إلى ذلك فقد كانت الفتاة تتأهب لتستأنف القراءة ، وكان جرابلنج يفتح الباب ، وكانت الأميرة متجهة نحو صندوق كبير للسكائر تخرج سيكارة منه

* * *

كان منشنجهام وصاحباه فى شقة ينتظرون عودة سلين ولم يبق فى نفوسهم صبر . فلما دخل عليهم كانت ورقات اللعب لا تزال فى مواضعها على المنضدة فنظر إليه منشنجهام متسائلا بعينيه ثم قال : هل من جديد ؟

فقال سلين : إلىّ ببعض الويسكى والصودا

فأسرع منشنجهام فناوله كأسا ثم عاد يقول له : هل من أمل ؟

فأجاب سلين : لست أدرى ... دعنى أتفكر لحظة . وليعد كل منكم ورقاته

فأخذ كل منهم يعد الورقات وفى وجوههم دهشة من طلبه . ثم قال كل منهم : ورقاتى ثلاث عشرة

وأخذ سلين يعد ورقات كارتريت وقد

أحضرها من جانب التليفون فى الردهة ثم قال اثنتا عشرة وأخرج الورقة المكورة من جيب سرواله وأضافها إليها قائلا : وهذه الثالثة عشرة . وكان ظهر هذه الورقة كظهر الورقات جميعا

وحملق الرجال الثلاثة فى وجهه وصاح منشنجهام قائلا : ماذا تعنى بذلك ؟ ثم مد يده يأخذ الورقة المكورة ، فقال له سلين انتظر لحظة ، ثم أخذالورقة بيده قائلا : إن هذه هى «الدوه» فهل فى ورقات أحدكم « دوه » ؟ فنفى الجميع ذلك . ونظر سلين فى ورقات كارتريت فلم يجد بينها ذلك « الدوه » فقال : إذن فهذه ورقة كارتريت لا ريب . لقد وجدتها على منضدة فى شقة الأميرة ، بينما كانت الورقات الاثنتا عشرة هنا فى الردهة على منضدة بجانب التليفون

وساد الصمت لحظة ولم يستطع أحد أن يستنتج شيئا من هذا أول الأمر . ثم قال منشنجهام : ماذا حمل كارتريت ينزل إلى شقة الأميرة دون كلمة منه لنا ؟وقال جورج برت : ودون أن يرجع إلينا. وتساءل مارتن فيس قائلا : أهو هناك الآن ؟

فقال : كلا .. ليس هناك إلا إذا كان استحال إلى هواء أو قطع مئة قطعة وأخفى فى مائة مكان ! لقد دهشت الأميرة من طلبي تفتيش شقتها ثم أرسلتنى فى صحبة خادمها فلم أدع شبرا إلا فتشته . ولقد قالت لى إنها لم تلق زائرا فى ليلتها ولم تبرح صالونها وإنها لا تعرف أحداباسم كارتريت. ومع ذلك بإن هذه الورقة التى كانت فى يد كارتريت حين غادر هذه الحجرة قد وجدتها فى صالونها

وضغط منشنجهام براحتيه على فوديه قائلا : أتمم كلامك يا سلين . إنك تمضى بنا إلى الجنون

فقال سلين : وأنا أحس أنى خطوت خطوات فى هذا السبيل . لا بد لى من العودة إلى الحارس وإنى لأثق فى قوله إنه لم يخرج أحد من باب المبنى وإنه لا مخرج للمبنى إلا هذا الباب

وقال جورج برت فى شئ من التردد : ألا يمكن أن يكون قد ألقى بنفسه من النافذة ؟

فأجاب سلين : على كل حال إن خطوتنا التالية هى أن ننظر حول البناء فى الشارع

ونزل منشنجهام وصاحبه سلين إلى بهو المبنى يقصدان إلى الشارع فسألهما الحارس : هل وجدا صاحبهما المختفى ؟ فقال منشنجهام لم نجده بعد . لا تترك مكانك . سنرجع بعد قليل

وبحثا فى الشارع فلم يجدا شيئا وأخذ سلين ينظر إلى النوافذ من شقة منشنجهام

إلى الطابق الأرضى ، ثم ذهب فاستدعى الحارس إلى حيث كان يقف منشنجهام .

وأشار سلين إلى أعلى قائلا : إن هذا الضوء الخافت فى شقة الأميرة على ما أظن ؟

فقال الحارس : نعم يا سيدى

فسأله سلين : ولمن هذه المكاتب التى تقع تحت شقة الأميرة ؟

فقال الحارس : لرجل يدعى ميشيل هو وكيل فى تجارة الفراء والأشياء الشرقية

فقال سلين : صف لى أى رجل هذا

فأجاب الحارس : أحد أولئك الأجانب . ممتلئ الجسم ذو لحية ، وملابسه من نمط أجنبى . وله سكرتير وكاتب على آلة الكتابة

وأخذ يقل اهتمام سلين بالنوافذ . واتجه وصاحبه صوب البناء وتبعهما الحارس . فدخلوا ثلاثتهم وقال سلين للحارس سأصعد إلى شقة صاحبى وأعود بعد لحظات وأرجو أن تظل يقظا فقد يحدث حادث كما أرجو ألا تسمح لأحد مطلقا بمغادرة المبنى

ولما دخل منشنجهام وصاحبه الشقة ، سأل سلين : أليس لديك سلاح من أى نوع ؟ ومصباح كهربائى ؟

فقال منشنجهام : لدى مسدس وعدد من المصابيح الكهربائية

فقال سلين ؛ إلى به وهات مصباحا منها

ولما أخذ سلين المسدس والمصباح قل للرجال الثلاثة : من شاء منكم أن يأتى معى فليأت ، فإنى ذاهب إلى باب مكاتب ميشيل فصغ لدى هذا الباب ، فإن لم أسمع شيئا فلست بفاعل أى فعل .

وخرج ثلاثتهم فى أثره ، ونزلوا على السلم يمشون على أطراف أصابعهم ، حتى بلغوا باب ميشيل فنظروا فى اللافتة فقرأوا عليها « ميشيل وولده » . ثم وقفوا صامتين لدى الباب يسكون أنفاسهم . وجثا سلين لحظة ووضع أذنه على الأرض ، ثم نهض فى سكون تام . ورأى أصحابه فى عينيه تألقا وفى وجهه سمة الأمل والانتعاش . وأشار إليهم أن يتبعوه ونزلوا معه إلى البهو . وكان الحارس لا يزال فى مكانه وعامل المصعد على كرسيه بالقرب من مصعده .

وقال سلين : أيها الحارس ، خذ حذرك فإن ثمة ما يريب فى مكان ما بهذا المبنى

فقال الحارس فى كثير من الارتياع : أين ياسيدى ؟

فأجابه سلين : دعك من ذلك الآن . خذ هذا المسدس ولا تسمح لأحد أيا كان رجلا أو امرأة أن يغادر المبنى بينما أتكلم فى التليفون

فقال الحارس : لا حاجة بى إلى المسدس فلن يستطيع أحد أن يمر من هنا رغم إرادتى

فقال سلين : اسمع نصيحتى . ماذا يكون

موقفك إذا كان من يريد أن يخرج يحمل سلاحا

ثم اتجه سلين إلى منشنجهام قائلا : سوف أطلب اسكتلنديارد وسأطلعك على كل شيء في وقته المناسب .

وأومأ منشنجهام قائلا : افعل ما ترى فإني أكل كل شيء إليك أيها المحزوز الحنك

ومشى سلين نحو التليفون ولكنه مالبث أن وقف فجأة . وأحس كل رجل في هذه الجماعة كما لو سرت إليه هزة كهربائية !

إن وقوفه شيء لا خطر له ولكنه أحدث في نفوسهم من الأثر كما لو أن قوة خفية شلت الحركة في أبدانهم . وسمعوا جرس المصعد يدق !

وساد الصمت لحظة ثم قطعه سلين بقوله يسأل الحارس في استنكار : من تراه يغادر المبنى في مثل هذا الوقت من الليل ؟

فأجاب الحارس : لا أستطيع أن أتصور من يكون هذا

وصعد عامل المصعد . وما هي إلا لحظات ثم هبط المصعد ، وفتح العامل الباب فخرجت منه أنا ، تلك الفتاة التي كانت تجلس مع الأميرة ، واتجهت صوب باب المبنى وفي يدها مظلة ومعها كلبها ، ولكنها لم تكد تخطو بضع خطوات حتى اعترض سلين سبيلها قائلا : آسف ياسيدتي .. أظن أن كلبك يستطيع أن يستغني عن رياضته هذه الليلة ، وقد خرج مرة قبل هذه فيما أظن ؟

فنظرت إليه بعينين تقدحان شررا وقالت : إنه يخرج عدة مرات كل ليلة ، وقد تأخر هذه الليلة لأنك أنت الذي أخرتنا بمجيئك إلى شقة الأميرة ، ولا بد له أن يعدو إلى زاوية الشارع .

وأرادت أن تخطو ولكن سلين لم يتحرك من أمامها وقد عاد يخاطبها قائلا : إن الكلب على كل حال أمر لا أهمية له وإنما المهم أنه قد صدر أمر ألا يغادر هذا المبنى أي شخص حتى ينجلي ما نحن بصدده .

فالتمع الغضب والشر في عينيها وقالت : وأي أمر هنا يمكن أن يصدر هذا الأمر ؟ ثم حاولت ثانية أن تمضي في سبيلها ؛ فأمسك سلين بعاتقها وقال : إنه لن يسمح لك أيتها الفتاة أن تبلغي الشارع ولا أن تعودي إلى حيث كنت .. أيها الحارس شدد الرقابة على هذه الفتاة ريثما أعود

وفتحت الفتاة فمها تريد أن تصرخ ، ولكن الحارس أسرع فوضع يده على شفتيها ، بينما ذهب سلين إلى التليفون .

وعاد سلين بعد أن طلب سمبسون مفتش البوليس في اسكتلنديارد ليحضر ومعه ثلاثة أو أربعة من رجاله . وكانت الفتاة لا تزال تحاول التملص فقال لها سلين : لن تجدي محاولتك شيئا وخير لك أن تقولي أين مستر

كارتريت

فأجابت فى عنف : ومن لى بأن أعرف مستر كارتريت هذا وأين يوجد ؟

وتركها سلين حيث كانت واقفة ، وأخذ يذرع الردهة جيئة وذهابا ، وهى تنظر إليه بعينى نمرة : وبعد ربع ساعة وصل سمبسون مفتش البوليس ومعه أربعة من رجاله ، فلما رأى سلين سأله قائلا : ميشيل وولده ؟ هل قلت فى الطابق الأول ؟

واتجه سلين إلى حارس المبنى قائلا : اعط المفتاح العام للمفتش أيها الحارس

وتناول المفتش المفتاح من الحارس ، وصعد هو واثنان من رجاله ومعهم سلين إلى الطابق الأول وتركا رجلين يحرسان مدخل المبنى ، وفتح المفتش شقة ميشيل وولده

ودخل الجميع الشقة وغمز المفتش زر النور فوجدوا فى أول حجرة بعض المكاتب وبعض أنماط من الفراء معلقة على الجدران ثم رأوا النور فى حجرة داخلية ينبعث ثم ينطفئ فى مثل لمح البصر ، فاندفعوا إلى تلك الحجرة وفى أيديهم المسدسات وأضاءوا نورها . فوجدوا هذه الحجرة خالية وفى وسطها رجل على كرسى ثقيل وقد شد بحبال إلى هذا الكرسى ، وكان هذا الرجل هو كارتريت بعينه ! وما كاد كارتريت يرى سلين حتى صاح به : ها أنت ذا يا صديقى سلين ؛ أسرع بإرسال بعض الجند إلى مدخل المبنى .. انظر إلى السقف تجد هذه الفتحة الموصلة إلى مطبخ الأميرة ، قد أنزلنى منها خادمها على سلم من الحبال ، وقد صعد عليه هو وميشيل الآن وأخشى أن يهربا

فقال سلين ضاحكا : لا تخش شيئا يا كارتريت فسيجدان البهو محروسا . كان الله لك .. أى فخ هذا الذى وقعت فيه ؟

وتقدم سلين فقطع الحبال

وقال منشنجهام ضاحكا : يالك من تعس .. ماذا جاء بك إلى هنا ؟

فأجابه كارتريت : وأنت من جاء بك لتسكن فوق شقة عصابة من البلاشفة

* * *

كان سير جاسبر سلين ضيف الشرف فى الليلة التالية فى بيت أحد الوزراء ، وكان كارتريت أحد الضيوف ، فأخذ الوزير يثنى على سلين ويصف ماأداه إلى الدولة من صنيع بالقبض على هذه العصابة وقال إن رجال البوليس كانوا على علم بحركات هذه العصابة ، ولكنهم لم يكونوا يعلمون أين تقيم . ولم يكن يدور بخلدنا أن الأميرة ترأس هذه العصابة ، التى كانت تمد البلاشفة هنا وفى روسيا بكثير من الأنباء أسبوعا بعد أسبوع .. ثم اتجه الوزير إلى كارتريت وسأله عما إذا كان قد أطلع سلين على سبب اختطافهم

إياه .. فقال سلين إنه لم يطلعه بعد .

فقال الوزير : كانت إحدى السفن فى طريقها إلى هنا . وكانت تحمل مايساوى مليون جنيه من ذهب روسيا . ولم يعلم السفير الروسى ماذا انتهى إليه رأى مجلس الوزراء بشأن هذا الذهب . هل تضع حكومتنا يدها عليه ؟ وكان لايستقر من فرط قلقه ، وكان كارتريت هو الرجل الوحيد خارج المجلس الذى يحيط علما بقراره فتعقبوه منذ أيام حتى أوقعوه فى حبائلهم بحيلة غريبة أدع له أن يصفها لك .

فقال كارتريت : استدعيت فى التليفون من شقة منشنجهام فإذا المتحدث يلقى إلى كلمة السر التى كانت بينى وبين وزارة الخارجية ويطلب لقائى فى شقة الأميرة . فما كدت أدخل الشقة وأسلم على الأميرة وكان خادمها يقف ورائى حتى غبت عن وعيى . ولم أصح إلى نفسى إلا فى تلك الحجرة التى وجدتنى فيها موثقا بالحبال . وكان ميشل وذلك الخادم يضعان مسدسيهما على صدرى لأفضى إليهما بقرار مجلس الوزراء . وكان يصعد أحدهما إلى شقة الأميرة ويدع الآخر يتهددنى تارة . وكانا يجتمعان على تهديدى تارة أخرى ، حتى أحسا بقدومك ومن جاء معك من البوليس ففرا إلى شقة الأميرة ، وكادا يهربان لولا ما اتخذت من حيطة .

ثم ضحك كارتريت ومال برأسه وقد أسند مرفقيه على مائدة الشاى قائلا : والآن خبرنى ياسيد سلين كيف عرفت بالله أنى دخلت شقة الأميرة حتى تشك فى شقة ميشيل وولده ؟

فضحك سلين وقال : ورقة « الدوه » ورقتك الثالثة عشرة . . أفهمت ؟

« ذو القناع »

لا مفر

بقية المنشور على صفحة ١٦

هؤلاء ليكونوا علينا من الشاهدين »

وأخذت شحاتة ربكة أول الأمر ثم قال « وفيم العجلة ؟ الأفضل أن ينتظر قليلا »

فقال الحاج عثمان « كن صريحا وتكلم أمام هؤلاء الرجال . لقد كنت أشد منى رغبة فى أن تزف نميمة إلى شبل فماذا جرى بعد ذلك ؟ »

فقال شحاتة « أتريد الحق ؟ البنت مجنونة هذه الأيام وأخوها محمد أجن منها والأفضل أن تأخذها بالحيلة والسياسة »

وضحك شحاتة فى صوت مسموع كأنما يريد أن يخفف وقع كلامه على صاحب الدار

فقال الحاج عثمان « ماذا تقول يا رجل ؟ لم يبق إلا أن البنت تفرض إرادتها على أبيها .. ومحمد ما شأنه ؟ هل هو أبوها ؟

أنا لا أرضى لك بهذا ... إما أن تكون أنت الرجل وإلا ... »

فأجاب شحاتة : ماذا أصنع ياإخوانى ؟ سألت الواعظ فقال إن الشرع لايسمح بأن تزوج البنت رغم أنفها ، ومن تزوجت بهذه الصورة فزواجها باطل فهل نتبع ...

وقاطعه الحاج عثمان قائلا : الله ... الله ... متى أصبحت رجل شرع ... وهل يسمح الشرع للبنت بأن تختار من تريد ؟ ماهذا الكلام ؟ والله لو أن عندى بنتا تفعل هذا لدفنتها حية ... ألا تخشى الفضيحة يارجل ؟

وضحك شحاتة ضحكات متتابعة فضاق به صاحب الدار وقال له : إما أن تصرح بما فى ضميرك وإلا فلنقفل هذا الباب .

فقال شحاتة : انتظر حتى يعود الأستاذ على أخو العمدة وبعد ذلك نتكلم .

فأجاب رب الدار فى غضب : وما دخل الأستاذ فى هذا ؟ ثم تدارك كلامه قائلا : أقصد أنه لايمنعك من أن تزوج ابنتك لمن تشاء ، وهم على كل حال هو وأسرته رؤساؤنا وكبراؤنا من قديم ... ولكنى لاأرى لهم دخلا فى أمر كهذا .

وكان النسوة يسترقن السمع خارج المنظرة وقالت أم شبل لزوجة ابنها حسن دون أن تعبأ بوجود ابن أختها : وهل يستطيع شحاتة أن يبت فى هذا ؟ الكلمة فى داره كلمة أختى .. وخير للحاج ألا يتعب نفسه . والله لولا أنها بنت أختى ماقبلتها لابنى .

وكأنما ألهم زوجها ماتقول ، فقد صرف الحديث عن وجهه ، ثم انفرط عقد المجلس ، وأخذ الرجال يحدث بعضهم بعضا فى مختلف الشؤون حتى قربت الشمس من المغرب فأخذوا ينصرفون . وكان شحاتة أول من

تسلل من المنظرة .

* * *

عاد على من سفره فافتقد صابرا بضعة أيام ثم سأل عنه فسمع إجابات مختلفة ، فمن قائل إنه سافر ليعمل فى عمارة تبنى فى مدينة قريبة وسيعود بعد أيام ، ومن قائل إنه عبر إلى الشط الغربى ليعمل فى البحيرة فقد ضاق بالعيش فى قريته لأن أباه يأخذ ماله فينفقه فى القهوة على جلسائه ، وهو يريد أن يقتصد مهره مما يكسب . ولقد دهش على مما سمع ولكن دهشته لم تطل . فقد مر به محمد شحاته فقال له إن المرض قد اشتد على صابر بعد أن شفى منه ، وأمه لا تحب أن يراه أحد حتى يبرأ مخافة أن يشمت به شبل وأهله ، ولذلك فهى تخبر من يسأل عنه أنه سافر فى عمل مع البنائين وسيعود بعد أيام

وشخص على بين المغرب والعشاء وحده إلى دار صابر ، فألفى فتحية وحدها على مقربة من الباب وقد وضعت رأسها بين رجليها فى صورة حزينة زاد معنى الحزن فيها ضعفين غناء لداتها وضحكهن على مقربة منها

وطرقت فتحية الباب ونادت أمها ففتحت لها ، فقالت الصبية وهى تدفع الباب «اتفضل يا سيدى» . فقال على « ياساتر .. مساء الخير يا حاجة » وأخذت حسونة ربكة أول الأمر ثم قالت « مساك الله بكل خير يا سيدى ... أهلا وسهلا » وتناولت يده وانحنت لتلثمها فجذبها فى رفق وعيناه على صابر ، وقد تمدد على المصطبة ونور المسرجة فى الكوة فوق رأسه ؛ وكان صابر راقدا على ظهره ووجهه إلى أعلى ولم يستطع أن يلتفت فدنا على منه وقال وهو يتكلف الابتسام «لابأس عليك ياصابر .. مابك؟ »

ورد صابر فى صوت خافت قائلا « لا أراك الله ما أنا فيه يا سيدى ... أشكرك ... جنى كأن فيه «مسارا »

وجلس على على حافة المصطبة عند قدمى صابر، فإذا هو حيال منظر كم تمنى لولم يره . ولكم حاول جاهدا أن يمسك دمعه وأن يتكلم دون أن يتهدج صوته . أهذا هو صابر الذى كان مضرب المثل فى قوة البدن ونضرة الوجه ؟ ! إنه يرى يديه من تحت الغطاء نحيلتين معروقتين كأنهما يدا شيخ ! ويرى وجهه الذى كان يترقرق فيه ماء الشباب وقد غدا مسنونا مصفرا كأنما عفره الموت بترابه . ثم إنه يرى فى أسارير هذا الوجه الذى يقع عليه نور المسرجة ما لم ير مثله قط لا فى حقيقة ولا فى خيال من صورة الألم البشرى ، ويستمع إلى أنات صابر وهو يكتمها تجلدا وإشفاقا على أمه فيهتز قلبه اهتزازا

وقال على وهو يهش لصابر متكلفا ..

كن رجلا كعهدى بك يا صابر .. كل إنسان يمرض ويشفى ... فهمس صابر كى لا تسمع أمه قائلا « لا ... لا مفر من الموت هذه المرة » وقالت حسونة « منهم لله .. يا رب أنت حسبى على الذين عملوا هذا بولدى ... أنا مسكينة يا رب وأنت عالم بى .. يا رب أنت حسبى » ثم كتمت نشيجها إشفاقا على ابنها ومسحت دموعها بكفها

قال على « أرى هنا دواء فى زجاجة على الرف فهل رآه الطبيب ؟ وماذا قال ؟ »

فقالت أم صابر « ذهب ابنى إلى الطبيب قبل أن يشتد المرض فأعطاه هذا الدواء ولم يقل شيئا »

فقال على « إن شاء الله يشفى ... لا تخافى يا حاجة »

فقالت حسونة « ربنا موجود ياسيدى ، ربنا يبقيك ولا يسيئنا فيك »

وغافل على المرأة وأخرج من جيبه بعض أوراق النقد فدسها تحت مخدة صابر ؛ ونظر فإذا بصابر يرفر زفرة خفيفة ثم تنحدر دمعتان على خديه .. وغمغم صابر ببعض كلمات الشكر ، ونهض الأستاذ ليخرج فقال «سأقابل الطبيب وإن شاء الله ماهناك إلا الخير » وأمسك بيد صابر مسلما وهو لا يقوى على النظر ثانية فى وجهه ، وقال « لا تخف يا صابر كن جدعا » فقال صابر فى همس « لست خائفا . سيريحنى الموت ... لا يذل الإنسان إلا المرض »

وتبعت فتحية عليا إلى خارج الدار فناداها ووضع بعض القروش فى يدها الصغيرة فقالت فى غير مناسبة « بعنا العجلة ياسيدى .. عجلة صابر أخى فإن أبى عليه إيجار لم يسدده ... ولم يكن عندنا ذرة ولا فلوس للحكيم والدواء من يوم أن مرض صابر وانقطع عن العمل ... وكان صابر يربى العجلة ليدفع ثمنها مهرا لنميمة فهو يحبها يا سيدى وهى تحبه ... ولما سحبنا العجلة إلى السوق لم يغضب صابر أبدا . ربما يشفيه ياسيدى ! من لنا غيره ؟ »

واتفق أن التقى على فى هذه الليلة بالطبيب فعلم منه أن مرض صابر حصاة فى الكلى وخير علاج له أن تجرى له جراحة، فاعتزم على أن يرسله فى غده إلى المستشفى فى عاصمة الإقليم . وقضى على ليلته مكتئبا يسأل نفسه كم فى القرية من أمثال صابر ممن يعيشون على عملهم يوما فيوما . فإذا أقعدهم المرض عن العمل لم يجدوا مايأكلون !

وطاف بخاطره قول صابر لا يذل المرء شىء مثل المرض . وهزت نفسه من أعماقها دمعتاه اللتان انحدرتا وهو يدس له النقود تحت المخدة ولم يغب عنه ماوقع عند ذلك فى

نفس الفتى من معنى أبكاه . وحين أوى إلى فراشه تذكر وحصاة الكلى فى خاطره أنه رأى صابرا منذ سنتين فى الحقل وقد جلس على حافة قناة كأنما يقمى ووضع فمه فى قليل من الماء فى قاع القناة كان نصفه طينا فشرب منه وعجب يومذاك كيف يفعل ذلك ولا يصيبه الضر

* * *

فقدت دار شحاته الخولى ما عرفت به بين الدور من مرح أهلها ورضائهم عن حياتهم . وأحس أهل الحارة بالكآبة تغشى هذه الدار، فالرجل دائم الخلاف مع امرأته ، وامرأته عابسة مهمومة أبدا، وابنها لا يكاد يكلمها أو ينظر إليها ، ونعيمة التى كانت بهجة الحارة والتى كانت لا تدخل دارا إلا ملأتها مرحا لا ترى اليوم إلا صامتة محزونة . ولكن الناس لا يحارون فى تعليل ذلك فهم يعرفون أن الرجل لا يريد أن يكره ابنته على الزواج من شبل عملا برأى الواعظ. والمرأة يؤلمها ويثير عنادها أن ترى الرجل يخالفها بعد موافقة وهو لم يكن يرد لها طلبا مهما كان ... وكثيرا ما يشتد الجدل بين الرجل وزوجته حتى يوشك ذلك الجدل أن يستحيل إلى معركة

وتحدثت زينب بنت صالحة مع بعض النسوة فقالت : إن نعيمة ثارت فى وجه شبل وعنفته منذ أيام فى دارها حين ذكر صابرا أمامها بالسوء وقالت له إن الشماتة ليست من خلق الرجال. وإنه ليس له أن يفرح فإنها علمت من أخته فتحية أنه شفى بعد أن نجحت الجراحة وأنه عما قريب سيعود إلى القرية

قالت زينب : فسألها شبل وماذا يأكل فى داره حين يعود ؟ فقالت نعيمة: إنه رجل وإنه يأكل من عرق جبينه ولا يعتمد على مال أبيه

فقال شبل : ويحمل الطوب والفحم .. فأجابته نعيمة : وأى عار فى ذلك ؟ ألم يكن أبوك يعمل أجيرا فى شبابه قبل أن يشترى ما يملك من أرض ؟ فثار شبل وسمعت خالته ثورته فأظهرها على ما قالته نعيمة فأهوت عليها ضربا بعصا أخذتها من يد شبل، ولكن نعيمة انتزعت العصا من يد أمها وحاولت أن تكسرها على ركبتها واتجهت إلى شبل قائلة: قل ما تشاء فليس يهمنى ما تقول..وماذا أفاد ما كتبته أمك ؟ ثم استدارت وقالت لأمها: والله لو قتلتمونى ما أرجع عن رأيى .. ألم تتزوجى أنت أبى على الرغم من أهلك كما أخبرنى الناس ؟ ثم ألم تهددى أهلك بأنك تحرقين نفسك إذا منعوك عنه ؟

قالت زينب : فاستخذت أمها واستخذى شبل . وحضر أخو نعيمة فكاد أن يضرب شبلا لولا أن جاء أبوه شحاته فنهره وأخرجه من الدار واعتذر لشبل عما فعل ابنه

وشاع حديث زينب فى القرية ، وأخذ أصحاب صابر يرتقبون عودته فقد آلمتهم شماتة شبل كما آلمهم حزن نعيمة وشقاؤها وقال من زاروه منهم إنه بخير وإنهم فرحوا حين رأوه فقد أخذت تعود إليه عافيته . وقد أوصى الأستاذ على به الأطباء وزاره أكثر من مرة فاهتم به كل من فى المستشفى

* * *

عردت نعيمة ولم تعد تذعن لأمها فتبقى فى الدار لا تبرحها ، وشكتها أمها إلى أبيها فأدار لها ظهره قائلا : وممن تخافين على ابنتك وصابر فى المستشفى لا يعلم إلا الله متى يعود ؟

ويرى الناس نعيمة صامتة، تتنسم الأنباء عن صابر ولا تتكلم ، ولا تجرؤ الفتيات أن يمابثنها اليوم ولعلهن يرثين لها

وكانت عائدة من دار زينب ذات ليلة بعد المغرب مهمومة تدور طرحتها برأسها ووجهها فى صورة حزينة فصادفها على وقد نزل من سيارته على الطريق الزراعى ، فأحست أنه قادم من زيارة صابر ، فنظرت إليه فى لهفة . وكان على يعرفها منذ صغرها وكثيرا ما كان يداعبها ، ولم يزل يستوقفها ويضاحكها كلما رآها حتى أصبحت فتاة ناهدا . وإنه ليذكر يوم أن رآها أول مرة وهى فى العاشرة أو دونها قليلا فاستوقفها وكانت مع عدد من البنات وقد استرعت بصره بينهن بجمال وجهها وخضرة عينيها وصفرة شعرها . فسألها عن اسمها فجرت ضاحكة واندست بين أترابها ولم تجب …

وناداها هذه الليلة وقد رأى اللهفة فى نظراتها ومد إليها يده مسلما فالت عليها ولثمتها . وأحس أنها تريد أن تسأله عن صابر ، ولكن الحياء يمنعها فقال لها ضاحكا : احزرى من أين أنا قادم . فابتسمت ولم تتكلم وارتسم على وجهها شئ من الاطمئنان ، فقال : إنه بخير وعما قريب تجدينه فى البلدة . وتضرج وجهها الجميل وتألقت بالغبطة والشكر عيناها وأدارت وجهها عنه فى حياء تحاول أن تخفى سرورها . ولما مد إليها يده مودعا لثمتها مرتين فى حماسة تعبر له بذلك عن عظيم شكرها إياه

* * *

لم يكن يعلم أحد فى القرية متى يعود صابر من المستشفى ، وإن كان صحابته وأهله يعلمون أنه تماثل للشفاء . ومضت أيام بعد شفائه ولم يعد . ثم ما لبث أصحابه أن أصبحوا يشفقون عليه من العودة ويتمنون لو امتد أجل بقائه فى المستشفى !

وأنزلت سيارة عامة صابرا ذات مساء على الطريق الزراعى فى مدخل القرية ، وسار نحو داره من طريق ضيق قلما سلكه من قبل ، هو أقرب الطرق إليها . ورآه بعض

الناس قبل أن يقرب من داره ، فكانوا يسلمون عليه مظهرين فرحهم لشفائه ولكنه كان يلمح فى وجوههم ما يشبه الرثاء له ، كأنما يخفون عنه مالا يحبون أن يفاجئوه به، ورأى ذلك جليا فى بعض الوجوه فقد كان يرتسم عليها فى وقت واحد السرور لشفائه وذلك الرثاء الصامت الحزين الذى ينفذ إلى قلبه فيختلج بين أضلاعه ، حتى لقد انتحى بأحدهم ناحية وسأله قائلا « هل ماتت أمى فإنى قدرت أنها ستموت وأنا فى المستشفى » ولكن صاحبه أكد له أن أمه وأباه وأخته بخير ...

ودخل صابر داره ، فلم يجد إلا فتحية ، فأقبلت عليه مسلمة ، وأسرعت فأوقدت المسرجة فى الكرة ، فرأى فى وجهها رثاء وحزنا كانا فيه أبلغ مما رآه منهما فى وجوه الناس ، فدق قلبه وسألها عن أمه فقالت إنها فى إحدى الدور القريبة وإنها ذاهبة لتدعوها ... فسألها أخوها ماذا تعمل أمه فى تلك الدار ، فبدا الخزى على وجهها وقالت بعد تردد « تقترض بعض المال لنشترى ذرة »

ثم جلست بجانبه على المصطبة تنظر فى وجهه وقد ابيض وانضح لون العصفورين الزرقاوين فى عارضيه ، ثم قالت فى سذاجة لا تخلو من ألم وغيظ « نعيمة تزوجت يا صابر وزفافها الليلة بعد العشاء » فأسند صابر ظهره إلى الحائط وقد جف ريقه وارتعدت يداه . ومضت أخته تقول وهو ينظر إليها صامتا هادئا « وكانت تبكى ليلة الحناء وتلطم وسط النساء والبنات بيديها قبل أن يحنوها ؛ وكانت أمها تشتمها ونعيمة تقول يا خيبتى يا سوء حظى .. ماذا صنعت يا رب ؟ وبكت بعض البنات والنساء لبكائها . وسمعت من زينب أن أباها لطمها على وجهها حين رفضت أن توكله للعقد وقال لها ستفضحيننى فى البلدة والله أذبحك وأدفنك الليلة . فلم ترد وظلت تبكى فقال له الحاج عثمان زوج خالتها تعال إلى المأذون فهى موافقة ونحن شاهدون .. وقالت زينب أيضا إنها ظلت تبكى طول النهار . ورأيتها أنا بنفسى العصر وحولها بعض أقاربها فقالت لأخيها محمد وبعض أصدقائه أليس فيكم رجل ؟ خذونى إلى جهنم .. يا رب أريد أن أموت.. ماذا جنيت يارب ؟ ثم لطمت وجهها ودعت على أبيها بأن لا تطلع عليه الشمس .. » ثم أجهشت فتحية وقالت « وسمعت بأذنى سلفتها زوجة حسن تقول لها « أتبكين لأنك ذاهبة إلى دار خالتك دار العز بدل دار الفقر ؟ وماذا كنت تجدين حول صابر وأهل صابر إلا الجوع والشقاء والعمل مع البنائين ؟ »

فربت صابر على كتف أخته يكفكف دموعها وقال لها فى صوت خافت « إذهبى فأخبرى أمك بمجيئى » وما كادت تبتعد أخته عن الدار حتى خرج هائما على وجهه لا يدرى إلى أين يتجه ولا أين يبيت ليلته، فما يطيق أن يبيت فى البلدة، وكان يقف كلما مشى بضع خطوات يريد أن يرجع ليرى أمه، فماذا عساها تصنع حين تأتى فلا تجده فى الدار؟ ولكنه كان يعود فيمضى مسرعا وما زال مترددا بين المضى والعودة حتى اقترب من محطة السكة الحديد فقابلته إحدى الفتيات فعرفته فى الظلام وسلمت عليه هاشة فرحة بشفائه، ولكنها انزعجت لما تراه فى وجهه من ذهول واضطراب، فأدركت ما به. وسألته إلى أين يذهب فقال « سأعبر النيل إلى البحيرة لأعمل هناك » فقالت له « بعد أن تسترد عافيتك، وهل تقوى على العمل إلا بعد أيام؟ أمن أجل بنية كهذه تهجر البلدة؟ العرائس كثيرات يا صابر وأنت ظفرك بألف .. تعال .. تعال ارجع معى » ومدت يدها تمسك كمه فدفعها فى رفق وابتسم فى هدوء كأنه لا يحس شيئا من ألم أو يأس وهمس بقوله « قولى لأمى إنى عائد قريبا و .. وقولى لنعيمة تعيش فى هناء مع زوجها إن كانت تحب أن ترضينى »

* * *

سمع الناس الزغاريد بعد العشاء تنبعث من ناحية دار الحاج عثمان. ولكنهم مالبثوا أن سمعوا صياح امرأة ينبعث من ناحية أخرى متتابعا متقطعا وتبينوا فيه حرقة الحزن وشدة الجزع. وتساءل الناس، فقال بعضهم إنها أم صابر كما أخبرتهم بعض النسوة فراح يؤكد هؤلاء أن ابنها مات فى المستشفى. وقال البعض إنه جاء الليلة وإنهم رأوه بأعينهم فلعله مات فى الدار. ووقف القوم حيرى حتى جاء رجل من ناحية تلك الدار فأخبرهم — وهو يكرر قوله: لا حول ولا قوة إلا بالله — بأن صابرا قتل فى المحطة وقد شاع أن سالما هو الذى قتله

وما هى إلا لحظات حتى أسرع كثير من الشباب والرجال والنسوة صوب المحطة، وقد سبقتهم إلى هناك حسونة أم صابر صائحة مولولة ومعها بنتها فتحية تبكى وتصرخ، بينما كان أبوه لا يزال فى القهوة لا يعلم شيئا

ووقف الجميع منصتين متزاحمين حول خفير « المزلقان » وهو يحدث الأستاذ عليا وكانت تضيع بعض ألفاظ الخفير فى صرخات حسونة وقد أحاط بها بعض النسوة وأمسكن بذراعيها إشفاقا على وجهها من

اللطمات وهى تقول ولدى ... ولدى . فى
حرة تقطع أغلظ القلوب ، ودموعها تغرق
خديها الذابلين

قال الخفير : لقد كان صابر يحدثنى
وكان هادئا مبتسما ، وقد رثيت له حين علمت
أنه عاد الليلة من المستشفى وحين فطنت إلى
أنه لم يطق أن يبيت فى القرية ، ورحت
أهون له الأمر فنظر إلى لحظة وقال يخفى
عنى ماتفطنت إليه من سبب لهجرانه البلدة:
مابقائى بالبلدة ولن أستطيع العمل لأكسب
قوتى قبل شهر على الأقل كما قال الطبيب ؟
وماذا أصنع يا أخى ؟ هل أتسول وأنا الذى
ما أخذت قرشا إلا بعرق جبينى ؟ ثم تنهد
تنهدة طويلة وزم شفتيه كأنما اعتزم أمرا
وأومأ برأسه مرات وعاد يقول : ما أوجع
الشماتة فى الجسد الحر ... هيه كان الله لأمى

وصفر القطار واقترب فما راعنى إلا صابر
يلقى بنفسه تحت عجلاته . ودق الخفير كفا
بكف يعبر عن دهشته ، وأجهش أكثر
الفتية والرجال ، ونظر من كان منهم قرب
القضبان إلى غطاء يغطى جثة صابر وقد
وضع قربها فانوس ووقف حولها موظفو
المحطة والحزن فى وجوههم . وبات بعض
أصحاب صابر إلى جانبه ... إلى جانب جثته
حتى يسمح بنقلها . وعاد الآخرون إلى
القرية واجمين دامعين ، فلما مروا بدار الحاج
عثمان لم يتمالكوا أنفسهم فحطموا المصباح
القوى المعلق ببابها وعفروها بالتراب

محمود الخفيف



رواية شاب هادى

حل اللغز الذى نشر فى العدد الثالث من الرواية تحت هذا العنوان

لقد ذكر مساعد الصراف أنه أطفأ النور حين سمع أقداما
على السلم فى أسفل البناء ، فكيف استطاع إذن أن يرى فى الظلام
رقم التليفون حين استدعى البوليس ؟ هذا دليل على اختراع
القصة كلها . ولذلك أقنى المأمور أنه هو السارق



فكر في الحل

جثة عارية فى الحمام !

دخل مأمور البوليس الحمام فوجد جثة بول لوكن عارية وتحت ذقنه جرح طويل يصل ما بين أذنيه والدماء تغطى أرض الحمام الفسيح . فتناول الموسى من فوق حوض الاغتسال وفتحه ونظر فى شفرته الحادة ثم ثنى سلاحه وأعاده إلى مستقره فى المقبض ووضعه ثانية على حافة الحوض

ونظر المأمور إلى الجثة لحظات : ثم اتجه إلى الطبيب وكان بجانبه فتساءل بعينيه وهزات من رأسه ، فقال الطبيب إنه يشم عقب سيجارة ، فبحثا عنها فوجداها تحت الجثة . ثم اتجها معا إلى الصالون . حيث سأل المأمور سيدرك كندريك رئيس الجوقة الموسيقية التى كان بول لوكن أحد أعضائها عما يعرفه عن الحادث ، فقال رئيس الجوقة : بعد « البروفة » عادت إلينا «أنا» إحدى مغنيات الفرقة من شقتها فى الطابق الأعلى وتناولت عشاء خفيفا معنا أنا وبول فى شقتنا هذه فنحن نقيم هنا معا . وبعد أن شرب بول كأسا من الخمر ذهب إلى الحمام ، وما هى إلا لحظة حتى سمعنا صوتا كالذى يحدثه سقوط جسم على الأرض ، فأسرعنا إلى الحمام وفتحنا الباب فيا هول ما رأينا .. ولم نستطع الدخول فأغلقت الباب واستدعيت الطبيب والبوليس

فسأله المأمور : ألم تلاحظ وجود رائحة دخان فى الحمام ؟

فقال رئيس الجوقة : نعم شممت نوعا من الدخان كان يحبه بول

وسأل المأمور الطبيب فى كثير من الإشفاق : هل تألم بول كثيرا أيها الطبيب ؟

فقال الطبيب : لا .. لقد مات قبل أن يشعر بألم شديد كما ثبت لى من فحص الجثة

فقال المأمور لرئيس الجوقة : وهذا بالإضافة إلى غيره يجعلنى أرى الحادث قتلا لا انتحارا ... فاصحبانى أنت وصاحبتك إلى المخفر مقبوضا عليكما .

الرواية : أى قرينة أخرى غير موت بول السريع جعلت المأمور يرى الحادث قتلا لا انتحارا ؟
فكر فى الحل يا سيدى القارىء فإذا عجزت عنه فاقرأه فى العدد القادم

الرسالة

مجلة الأدب الرفيع والأسلوب العالى

تجددت

فى الشكل ، والموضوع ، والتحرير والحجم

لتساير العهد الجديد الذى بدأته مصر في الثقافة والحضارة

سيرتها : وصل الجديد بالقديم ، وربط الشرق بالغرب على هدى وبصيرة

اقرأها تزدد فقها فى دينك ، وعلما بلغتك ، وفهما لأدبك ، وسعة فى ثقافتك

تظهر كل أحد من كل أسبوع

مطبعة الرسالة



المجلد الخامس — السنة الرابعة



صاحب المجلة
ومديرها ورئيس
تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات

الإدارة
٨١ شارع السلطان
حسين بعابدين
تليفون ٧٧٤٩٠

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

سكرتير التحرير
محمود الخفيف

بدل الاشتراك
قرش
٩٠ فى مصر والسودان
١٣٥ فى الممالك الأخرى
٣ ثمن العدد

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العدد الخامس ١٢ جمادى الآخر سنة ١٣٧٢ — أول فبراير سنة ١٩٥٣ السنة الرابعة



فهرس العـــدد

صفحة

زامر الحي

للأستاذ محمود تيمور

كنت وأنا فى أوج الصبا أسكن حى « درب سعادة » ، ذلك الحى العتيق الذى تتزاحم دوره ، ويتضايق طريقه ، حتى لكأن الدور على جانبيه توشك أن تتعانق

ولم يكن رواد هذا الحى كلهم من سكانه ، فمن بين أهليه طوائف من الناس تختلف إليه طرفى النهار وبعض الليل ، لا يكادون ينقطعون عنه فى يوم ، ولا يخفى عليهم من سكانه أحد ، أولئك هم الباعة الجوالون ، والعفاة من طلاب الصدقات ، وغيرهم من المرتزقة بفنون الملاهى وألوان التسلية وضروب الإضحاك والتفكيه

وقبيل الصيف ، أظلتنى أيام الامتحان ، فألزمتنى الدار أستذكر وأستوعب ، فإذا ثقلت على الوطأة ، ودار بى رأسى ، خرجت إلى البــاب أتخذ به مقعداً يشهدنى مواكب الطريق

وفيما أنا جالس ذات يوم ، صاخت سمعى رنات لحن حنون تبعثها صفارة من مكان قريب ، وما برحت هذه الرنات الشجية تتوارد على مستبينة وضاحة ، حتى تجلى بها زامر للحى لم يكن لى به عهد

وجه ضامر عليه سماحة ، تزينه لحية خفيفة كساها الخضاب ، وزى على سذاجته بادي النظافة رائق الهندام ، ومشية وادعة مسترخية تتطلع فيهـا أنظار الرجل إلى السماء ، كأنها تستملى منها ما يستوى عليه النغم من إيقاع

وراعنى من لحن ذلك النــاى أنه كان حزين النبرة ، ينبض باللوعة ، وكأنه ينطوى على سر حبيس يحاول أن يصونه ، ولكن السر يأبى إلا أن يتسلل فى حنايا النغم ، كأنما هو نفثة مصدور

صادف هذا اللحن من نفسي هوى ، بل مس من قلبي الشغاف ، فجعلت أحرص على الجلوس ساعة الأصيل ، أرتقب صاحب الناى فى موعده المألوف ، فإذا مر بى الصوت وغاب عن سمعى الصدى ، أحسست بروحى تتبعه ، هائمة معه

وعلى مر الأصائل تم التعارف بينى وبين شيخ الناى ، أستوقفه بعض وقت ، وأدعوه إلى الجلوس بجانبى فى الأحايين

وكان كلانا يأنس بصاحبه ، يجاذبه ألوان الأحاديث ... أما هو فلا تفرغ له جعبة من الطرائف والنوادر والحكايات ، يحسن كيف يرويها خلابة الوصف ، شائقة العرض؛ وأما أنا فلا أمل سؤاله فى شأنه : كيف كانت أطوار حياته ، وأية آفاق تقاذفته ؟ فيجيبنى إجابة المقل الكتوم ، يضن بالإفاضة ، ويتحرز من التصريح

ومما كنت التزمته فى هذه الأيام التى أتأهب فيها للامتحان أن أؤدى الفرائض فى أوقاتها لا أتهاون . وكان على مقربة من دارنا مسجد صغير أقصده طالبا صلاة الجماعة ، وحضر وقت المغرب وأنا بالباب أتحدث إلى شيخ الناى ، فدعوته معى إلى المسجد ، فاشرأب تائه النظر فى كبد السماء وهو يقول مجمجما :

أعفنى ...

ثم لم نفسه يهم بالمضى عنى ، وهو يقول قم لصلاتك .. إنى ذاهب فى سبيلى !

وهرول فى مشيته تخفيه طيات الطريق ، فوقع تصرفه من نفسى موقع الغرابة ، واستربت بأمره ، ولكنى شغلت عنه بإقامة الصلاة

وفى أمسية من الأماسى ، قفلت من المسجد بعد أداء فريضة المغرب إلى الدار ، فلمحت شيخ الناى يحوم حول بابها كأنه يتفقدنى ، فأخذت بكتفه أبادره بقولى :

أنت هنا ؟ .. أطال انتظارك إياى ؟

— حضرت منذ قليل ، وأطلقت صوت الناى يدعوك

— كنت فى المسجد ... لماذا لا أصادفك فيه ؟

فوجم الرجل ، واكفهر وجهه ، ثم رجفت شفتاه دون كلام ... فحدقت إليه أقول :

ماذا يقعد بك عن المسجد ؟

— المسجد ؟ المسجد ؟

واستبانت الرعشة فى صوته وهو يقول :

إنما الأطهار من عباد الله هم الذين يؤمون بيوت الله

وما غتم أن استدار عنى ينفتل ماضيا ، وهو يلوح لى مودعا بيده . فانقبضت نفسى مما رأيت ، وبلغت بى الحيرة فى شأن الرجل كبير مبلغ ، وأقسمت لأعرفن من جلية أمره ما يخفى

ما بال صاحب الناى يتحدث عن الأطهار كأنهم من طينة غير طينته ، وكأنهم على شاكلة غير شاكلته ؟ ومن الأطهار إن لم يكن من بينهم هذا الرجل الذى تنطق سماته وقسماته بالطيبة والصلاح ؟ ومن أولى بالصلاة من ذلك الذى يأكل لقمته من كسب حلال ، فى عفة نفس ، وشرف سعى ، لا يشرك

الناس فى نقائص الناس ؟

ولبث صاحب النـاى على حاله فترة من الزمن ، وهو لغز عصى يستغلق على ، وكأنما زادنى هذا الإبهام الذى يكتنفه إقبالا عليه ، وتعلقـا به . ولـكنى مع ذلك تهيبت أن أقتحم عليه سره ، خشية أن يضيق بى ، فينفر منى

وتواصل الود بيننا ... أسبغ عليه من عطف ولطف ، وأبثه الحديث فى خاصـة أمرى ، وأطلب مشورته فيما يساورنى من مشكلات دنياى . وهو يمحضنى النصح ، ويقـدر ثقتى به ، ويكبر ما أستودعه من سرى ، حتى شرع يرفع الـكلفة بينه وبينى

وكان فى الحين بعد الحين يسترسـل فى إنشاد بعض الأهازيج الريفية التى تنطوى فيها لواعج الحب وتباريح الهيـام . وكأن هذه الأناشيد تترجم بالـكلام ما كان الناى يرسله من أنغام ... فإذا فرغ من إنشاده ، بعث من أعماق صدره تنهدات حارة ، وأفاض فى حديث عـاطفى مشبوب ، يقص على ما يلقاه العاشـقون من ضروب الوجد والحنين ، وما يعترض طريقهم من عقبات وأشواك ، وأنا أخالسه نظرات تستشف ما وراء تلك النفس المعذبة الحيرى !

وبينما كنت يوما جالسا إليه ، وقد ترنم بالغزل ، وقص على ما قص من مصارع العشاق ، جذبت يده إلى ملاطفا ، وأنا أحملق فيه ، وعلى فمى ابتسامة ، وقلت مباغتا فى صوت رفيق :

يمينا لقد كانت لك عصفورة .. عصفورة طارت من عشك !

فرعـدت يد الرجل فى يدى ، وزوى بصره عنى ، وجمجم يقول :

عصفـورة ؟ عش ؟ أية عصفورة ؟ وأى عش ؟

واستأنفت أقول :

يمينا لقـد لوعك الحب ، وإن قلبك لينطوى على جرح دفين !

فأطرق يشد على يدى قائلا :

دعنى بربك دعنى . . خلنى وما بى ... إنه سرى !

ثم تغشاه الصمت هنيهة ، وأنظاره تسبح فى أعراض الأفق ، وإذا هو تنفرج شفتاه ، رقيق الصوت ، حزين اللهجة ، كأنما يناجى نفسه .. يقول :

« . . يحكى أن . . يحكى أن فتى يدعى «سرحان» درج فى قرية تسمى «الشباريق» وكان أخوه الشيخ « محمـد الرخ » إمام المسجد الـكبير فى القرية يكفله منذ الطفولة وقد أحسن تنشئته وتربيته ، فعلمه القراءة والخط ، وأحفظه ما استطاع أن يحفظ من كتاب الله ، واستمان به فى خدمة المسجد

وأداء الأذان فى مواقيت الصلاة

شغف هذا الفتى منذ صباه برجل ينتسب إلى بعض الطرق الصوفية لا يخلو من لوثة ، أكبر همه النفخ فى صفارته ، وترديد الأذكار ليل نهار ، فاتخذه الفتى أستاذا له ، لقن منه فن الصفير ، وروى عنه الأغانى والترانيم

ويوما ، والفتى فى نحو السابعة عشرة من عمره ، وقف على رأس الطريق ضحوة يرقب ، فإذا أخوه الإمام قادم بعد غيبة عن القرية نحو شهر .. وراع الفتى أن يرى أخاه قد اصطحب إحدى النساء منتقبة تكسبوها الملاءة السوداء

من تكون ؟ إن امرأة أخيه قضت نحبها منذ أشهر قلائل ، وما كان لأخيه أن يصطحب من النساء إلا ذوات القربى ، وليس يلوح على هذه المرأة أنها من أهله ..

وبينما الفتى فى دهشته ، إذ دنا منه أخوه يرغب إليه فى أن يحمل عن صاحبته ما فى يدها من صرة المتاع ، وهو يقول له :

صافح زوج أخيك !

وعقدت البغتة لسان الفتى ، فمشى عاثر الخطا تتنازعه خجلة وفضول .. وهمهم يريد التحية ، ولا يدرى بأى قول نطق ، وما لبث أن تناول صرة المتاع مسرعا إلى الدار

كانت عروس الإمام فى زهرة الصبا وضيئة الطلعة ، ما كاد الفتى يعايشها أياما حتى أنس بها أنسا لم يحسه لأحد من قبل . وكلما تقادم العهد جد من ألفة الفتى لها ما علأ نفسه هما ، وبان له أخيرا على غير شك أنه يهواها ، وأن الهوى يذيبه ، فهاله الأمر واستنكف أن تكون له هذه العاطفة الأثيمة نحو زوج أخيه . . أخيه الذى هو فى مقام أبيه ، ولى نعمته فى عيشه كله

وعالج الفتى أن يرد عن قلبه ذلك الهوى المشؤوم ، فحرص دوما على ألا يخلو بزوج أخيه ، وتحاشى جاهدا أن يطارحها الحديث ، فكان كأنما ينفخ فى النار ، يزيدها من ضرام

ولم يجد بدا من أن يقبر فى أعماق نفسه سره الفاضح ، لا سلوى له إلا صفارة من قصب ، يودعها نفثات ملهوفة من صدره المقروح

وضاق الفتى ذرعا بما كان يلحظه من رعاية زوج أخيه له ، وبرها به ، ولا سيما فى مغيب أخيه .. فإذا خصته بشىء من طريف ما تطهو من طعام ، تأبى أن يقربه ، متلمسا ألوان المعاذير ، وإذا تعللت ببعض الأسباب لإطالة حديثها معه ، تعمد اقتضاب الكلام ، بغية الإفلات

وذات يوم ، والشمس على أهبة الغروب كان الفتى خاليا بنفسه خلف الدار ، آخذا

بصفارته يبثها نجواه ، وهو تائه الفكر هيان ، فاستشعر على حين بغتة بأن خلوته يشوبها طارق . وما إن تلفت حوله حتى لمحت عينه « هنية » زوج أخيه تواريها كومة من حطب عن كثب ، وهي ترنو إليه في سكينة وخشوع ، فملكته رعشة ، ونهض من فوره يقول :

أنت هنا ؟

فأجابته في صوت عطوف :

حضرت منذ قليل

فقال لها في اضطراب :

ما أتى بك ؟

فكسرت عينها ، وهي تقول :

جذبني صفيرك

ورآها تتهادى إليه حتى واجهته ، فقلقت قدماه ، يبغي هربا …

فأمسكت « هنية » بطرف كمه تقول :

ماذا يعجلك ؟ لتلبث قليلا …

فصاح الفتى صيحة مختنق ، وهو يدير عنها بصره ، وينحيها عنه بيده ، قائلا :

دعيني … دعيني …

فهمهمت تقول له في مسكنة وانكسار :

ماذا يبعثك على كرهي ؟ لم تضيق بي ؟

واستبدت بها نوبة من البكاء والنحيب ، فأحس الفتى شغاف قلبه يتهتك ، ورأسه تغلي مراجله ، واقترب منها يقول في تلعثم :

أأنا أكرهك يا « هنية » ؟

فأشرعت إليه عينا تشرق بالدمع ، وفي نظراتها تعرف واستخبار ، فوقف حيالها يحكم أوصاله ، ويقهر عاطفته ، فإذا هي تلقي برأسها على صدره ، ويداها تتشبثان بمنكبيه ، وجفناها ينسدلان . وخيل إليه أنها توشك أن تتهاوى ، فألفى نفسه يطوقها بذراعيه ، وكانت بينهما فورة من تقبيل وعناق!

وأنبهتهما من نشوة الصبوة أصوات حملها النسيم من بعيد ، فتطلعت أعينهما هنا وهنالك ، فاستبانت لهما على جسر الترعة أشباح سيرها وئيد ، فارتجفت « هنية » وهي تقول :

هذا أخوك في صحبة بعض مستأجري أرضه .

وقفزت تدخل الدار ، فاتخذ الفتى طريقه في الحقول يطيل سيره ، وهو يحاول أن يراجع صحوه من سكرة تلك الساعة

وعاد الفتى إلى الدار ، فوافق أخاه جالسا إلى صينية الطعام ، وقد شرع يصيب عشاءه ، فلما وقع بصر الشيخ على أخيه ، صاح به وفي قوله رنة فرح واستبشار :

أين كنت ؟ ما أطيب الليلة! … أقبل … أقبل …

فوقف الفتى حائرا لا ينبس ، وواصل الشيخ قوله متضاحكا :

سنة كلها خير وبركة ... لقد أجرنا الأرض الليلة بقيمة فاقت ما كنا نؤمل ... الحمدلله ... تعال نخذ نصيبك معى من الطعام

فجلس الفتى إلى الصينيــة قبالة أخيـه ، وطفق يأكل ، يده إلى فه تلقى باللقيمات وترجع إلى الصينيــة تصيب منها عودا على بدء ، وذلك على غير وعى منه ولا تيقظ ، عبثا يحاول أن يلملم ما تشعث من فكره ، ويضبط ما اهتاج من أعصابه

وفى الفينة بعد الفينـة تهل « هنيــة » على الحجرة بجديد من الصحاف تارة وبقلة الماء تارة ، وهى تسير ممتقعة الوجه ، مسترخية الجفنين ، لا تستطيع لخطوهاوزنا

وما إن تقبل على الحجرة ، حتى ينكس الفتى رأسه ، ويمضى فى الطعام متشاغلا به عجلان ، ولم تكن « هنية » تلبث إلا ريثما تضع الأشياء فى مواضعها ، وتعود أدراجها على الفور

أما زوجها الشيخ ، فكان متطلقا يثرثر فى حديثه عن الإجارة ، وهو بما ظفر به مغتبط تياه

وبغتة ، والفتى منكب على صفحةطعامه ، تطن حول سمعه كلمات أخيـه لا يعى منها حرفا ، أزعجه من غفوته سقطة جسم فى الحجرة ، وتحطم بعض الآنيـة . فالتفت يتعرف الأمر ، فإذا أخوه ينهض مسرعا إلى زوجه ، وقد تهاوت على الأرض ، وانزلقت من يدها الصحاف ، وسمع أخاه يقول :

ماربك يا « هنية » ؟

فاعتدلت المرأة تصلح شأنها ، وهى تهمهم :

لا شىء ... أصابنى دوار !

وأنهضها الشيخ بين يديه ، وصحبها إلى مخدعها قائلا لها فى تحنن :

استريحى قليلا ...

ولزمها حينا يعنى بها ويلاطفها ، والفتى ماكث فى مكانه يرقب ما يجرى مخبول النظرات ، كأنه تمثال من حجر ، لا يملك لنفسه من حراك

ورجع الشيخ إلى مكانه من صينيــة الطعام يستأنف عشاءه ، وقال للفتى :

أجهدت المسكينة نفسها فى أعمال الدار

ولما لم يبادله أخوه الحديث ، ممسكا عن الطعام ، أردف قائلا وقد رفع إليه بصره :

مالك لا تأكل ؟

فعالج الفتى أن يجيب ، وبعد لأى قال متحشرج الصوت ، يزيغ بصره عن أخيه :

اكتفيت ؟

وأعجب ما كان من أمر الفتى أنه كان فى هذه الساعة لا يطيق أن ينظر إلى أخيه ، وأن يتابع الحديث معــه ... إنه ليجد فى نفسه طارئا من الشعور بأنه يمقت أخاه ، وينكر عليه حظه من الحياة !

وهب واقفا يطلب الخروج ، فسمع الشيخ يقوله له :

إلى أين ؟

— إلى المسجد ، لأغلق بابه …

وأدبر عن الدار ، تقوده قدماه إلى البقعة التي كان فيها منذ قليل مع « هنية » يستمرئان متعة اللقاء … وما هي إلا أن طاف ببصره يمنة ويسرة ، ثم انخرط في نشيج وبكاء ، وظل على حاله فترة ، وكأن روحه تذوب في مسيل الدموع !

ولا ينسى الفتى كيف قضى تلك الليلة المسراء ، فقد مرت به ساعاتها أرقا تتقاذفه الأركان والجدران ، خلف الدار ، فإذا غلبته إغفاءة تمثل له شبح أخيه الشيخ شائه الوجه ، تتلظى عيناه ، في يده يلتمع سيف المسجد الخشبي ، وما يلبث أن يهوى به على جسد الفتى في قساوة وضراوة يقطعه إربا إربا ، فيصحو الفتى مذعورا محموم الأوصال كأنما يريد أن ينسلخ من جلده

ولم تكد تنجلي عنه ظلمات الليل ، وتنضح جبينه أنداء السحر ، حتى سكنت سورته ، وغشيه سبات ثقيل … فلما علا الضحا ، وأراد أن ينهض ، خانته قواه ، واستشعر الخور يملك عليه جسده كله ، فجلس إلى جذع من جذوع النخيل ، والفتور ينجاب عنه شيئا بعد شيء . وفي الحين بعد الحين تسنح لخاطره بعض الصور ، فيثور عليه الضمير ، وتحزه ندامة

ونادى المؤذن لصلاة الظهر ، فلباه الفتى قاصدا المسجد ، وهناك وافق أخاه ، فسارع إليه يعتذر من التخلف بألوان من الأكاذيب … وما عتم أن هبط على يد أخيه مرتجفا يقبلها غير مرة ، وهو يقول :

سأكون دائما طوعك ، أبتغي مرضاتك . . فكن راضيا عني

فقال له الشيخ في تحنان :

أنا راض عنك دائما … هداك الله ، ووفقك للخير ، وعصمك من الشرور والآثام …

فسما الفتى بعينه إلى وجه أخيه ، فطالعته قسماته تتجلى فيها محبة وإخلاص ورضا

وأبى الفتى أن يريم المسجد بقية يومه . فلما أسدلت العشية أستار الظلمة ، كان الفتى قد أقسم بينه وبين نفسه على أمر ، وعول على أن يبر بقسمه أبد الدهر … لقد لطف الله به فيما جرى من ملاقاته الآثمة لزوج أخيه ولن يعود لمثلها ما بقيت فيه حياة

وتوالت على الفتى أيام قضى أكثر ساعاتها في المسجد ، يطيل الصلاة ، ويكثر التسبيح ، وكان لا يتوخى الدار إلا عند الضرورة القصوى ، يحضر من أخيه لا بد … فأما « هنية » فكان لا يكلمها

إلا لماما فى اقتضاب ، متحاشيا أن تلتقى عيناها بعينيه ، وأما صفارته فقد هجرها فى مرمى بعيد ، لا ترطبها أنفاسه العذاب !

وانقلب الفتى ناسكا وقور السمت،صلب القسمات ، يريد نفسه على ألوان من التقشف والشظف ، ولكنه أدرك من أمره أنه كان سريع الذهول ، طالما أخطأ فى صلاته ، وطالما شرد فكره وهو آخذ فى تسبيحاته ، فإذا هو تتراءى له أطياف لا يكاد يتبينها حتى ترتعد فرائصه ، وهو يهمهم :

إنه معها ... إنها له ...

ويرجع إليه ما غرب من صحوه ، فيضرب جبهته بيده ، هاويا على سبحته ، يستغفر الله العظيم !

وتواردت الأيام على الفتى تدور به فى آفاق شتى ، يقبل على عبادته حينا ، وتلعب به الوساوس والتصورات حينا آخر ، وهو فى عامة أمره يجاهد نفسا باتت فريسة الحيرة والقلق !

وبينما يكون الفتى مطمئنا إلى أنه ملك زمام شعوره ، إذا به بغتة يروعه هتاف تتردد أصداؤه فى أنحاء صدره ، فيدوى فى مسمعه صوت يقول :

إنه معها ... إنها له !

ويخرج هائما على وجهه ، لا يعرف إلى قرار من سبيل

وذات عشية ، وقد جهدته نوازع نفسه الجياشة ، وطال به التطواف فى أطراف الحقول ، تحت جنح الليل ، ألفى نفسه بعد لأى تجاه المسجد ، فدخله فى استسلام ، واستلقى على الحصير يبيح لأوصاله أن تسترخى ، ولوعيه أن يغيب ...

وفيما هو على حاله تلك ، إذ شعر بيد تلمس كتفه ، فرفع جفنيه يتبين فى ضوء القمر المنساب من الكوة ، وما هى إلا أن وثب مذعورا كأنما لسعته عقرب !

إنها « هنية » عينها ، زوج أخيه ، يلمحها فى تلك الساعة الواغلة فى صميم الليل ، وفى ذلك المكان الذى ليس فيه سواه

وسألها فى تلعثم :

فيم جئت ؟

— لم تحضر إلى الدار طوال يومك !

— وما شأنك بى ؟

فتدانت منه تأخذ بكتفه وهى تقول مبهورة الأنفاس :

لم يبق لى صبر .. جئت لأراك فى خلوة..

— أنسيت يا «هنية» أن لك زوجا هو أخى ... أنت له ... أنت له ...

— بل إنى لك دون سواك !

وتشبثت بصدره تتمالى تنهداتها وهى تقول :

لا تكن جافيا قاسى القلب ... كن

ما كابدت لأجلك من عذاب !

وانتفض جثمان الفتى انتفاضة عارمة زلزلت كيانه ، وأوقدت فيه نارا حامية ، فدارت يداه على الفور بالمرأة تطوقها وتهصر عودها ، وهوى عليها يقبلها منهومة شفتاه ، وهو يردد فى أنفاس تتلاحق :

أنت لى ... لى أنا وحدى !

ولبث الفتى مع هنية ساعة من ساعات الغرام المنيف ... ساعة رائعة يستطيع الفتى أن يقسم لك غير حانث أنه قد أصاب فيها من النعيم ما لم يصبه أحد منذ خلقت الأرض ... إنها فى حساب الزمن ساعة ، ولكنها فى الحق أحفل عنده بالمتعة والنشوة من أعمار طوال

نام الفتى وصاحبته متعانقين ، لا يعنيهما من الوجود شئ ، حتى لاحت فى الأفق تباشير الفجر ، ولم توقظهما إلا طرقات بالباب . يتبعها صوت ينادى :

يا سرحان ... افتح يا سرحان ..

فقالت المرأة للفتى فى همس راجف :

هذا أخوك ...

وتواصل الطرق على الباب ، وتابع الصوت نداءه :

يا سرحان ... افتح يا سرحان ...

فوجد الفتى نفسه يجيب على الصوت :

سأفتح ... سأفتح ...

ولم تجد المرأة بدا من التسلل ، صاعدة إلى سطح المسجد ، على حين اتخذ الفتى طريقه إلى الباب يفتحه ، ودخل أخوه مقطب الجبين يقول :

أما زلت تنام فى المسجد يا سرحان ؟ ... أليست لنا دار تسعك ؟

— سرقتنى إغفاءة ، بعد صلاة العشاء فامتد بى النوم على الرغم منى ...

وجلس الشيخ صامتا بعض وقت ، ثم استأنف يقول فى قلق :

لقد صحوت من نومى ، فلم أجد هنية فى الدار ...

فقال الفتى مأخوذا يعانى التلفظ :

كيف ذلك ؟ أين ذهبت ؟

فقال الشيخ هين الصوت :

خرجت ... أتكون قد ذهبت لتملأ الجرة ؟ أتكون فى بيت جارة لها تخبز ؟

فهمهم الفتى :

لا بد أن يكون ذلك ، لابد ..

وخلا الشيخ لنفسه صامتا هنيهة ، ثم نهض قائلا :

هلم إلى الصلاة يا سرحان

ومثل الفتى عن كثب من أخيه يركع ويسجد ، وكانت صلاة آثمة باركها الشيطان

وشرع الناس يتوافدون على بيت الله ، يؤدون له مكتوبة الصبح ، والفتى يقاسى

من حاله محنة عسراء ، فما شهد أخاه يبارح المسجد حتى انسل صاعدا إلى السطح وهو يتلفت ، وما كان أشد دهشته حينما ألفى السطح خاليا ليس فيه من إنسي . فطوف ببصره غير مصدق ، وجعل يذرع السطح متأملا كل رقعة فيه ، حتى كأنه اختبل

وانتهى به الطواف إلى حافة السطح خلف المسجد ، وأفلتت منـه نظرة إلى الأرض ، فندت من حلقه صيحة مصعوق وسرعان ما ألفى نفسه ينحدر على الجدار ، حتى بلغ مسقط هنية فإذا هى ملقاة تئن فى خفوت ، فأقبل عليها فى هلع ولهف ، وهو يسائلها :

ما بها ؟

فعالجت أن تجيب فى عناء :

لقد تحطمت يا سرحان ... تحطمت ..

وكانت تعض على شفتيها فى عنف ، لتكتم التأوه ، فاحتضنها الفتى يواسيها ، ولا يدرى ماذا هو قائل ؟ وماذا هو فاعل ؟ فسمعها تهمهم :

أوجاعى لا تطاق ... إنى أموت !

وما وجد الفتى بدا من أن يحتملها فى رعاية واحتراس ، والأسى يمزق نياط قلبه ورأسه تتضارب فيه المخاوف

وانتحى بها بيت « أم عبد الجليل » وكانت مستودع سره ، عطوفا عليه ، وفية له ، فأفضى إليها ببعض الأمر ، وناط بها تدبير المخرج

فنهضت المرأة ناشطة إلى دار الشيـخ تنهى إليه الخبر . وما أسرع أن نقلت هنية إلى دار زوجها تحوطها العناية والتمهد

وأشاعت « أم عبد الجليل » أن هنية قدمت عليها قبيل الفجر لتخبز ، وصعدت إلى سطح الدار ، تجلب منه الوقود ، فزلت بها القدم ، وسقطت تلك السقطة الحاطمة

ومضى يومان ، تكابد فيهما هنية آلاما مبرحة ، والفتى عائذ بتلك البقعة الخاليـة وراء الدار ، حيث ارتشف أول قطرة من غرامه المحرم . فـكانت تنوبه ثورات تحتد به ، حتى ينحى على شعره تقطيعا ، وعلى جبهته لـكما وجيما ، وهـو يغمغم مختنق الصوت . .

أنا الذى يجب أن يعذب ... أنا الذى يجب أن يموت !

وقضت هنية نحبها فى الغداة ، وشيعت جنازتها إلى جبانة القرية على النحو المألوف فى عرف الريف

وتجلد الفتى أول الأمر ، يكبت مشاعره فى جهد ، فقام بما وكل إليه من شأن المأتم ولـكنه كان يؤدى عمله فى تبلد ووجوم . وكثيرا ما تزدحم عليه التصورات والأخيلة فيحس كأنما هو يهوى من حالق ، أو كأنما

هو تنخسف به الأرض

وبعد أيام عراه انقلاب ، فلم يعد يطيق اللبث فى مكان ، وإذا هو يهيم على وجهه فى المطارح القصية ، كأنه ثور انفك من قيوده ، فهاج وماج

وأسلمه ذلك بعد حين إلى انهيار وخمول فلزم الدار أكبر وقته ، وهو يحاول جهد إمكانه أن يتجنب مواجهة أخيه ، فإذا التقيا على رغم منه وكره ، أحس كأنما أخوه يوشك أن يسائله :

كيف سولت له نفسه أن يفعل مافعل ؟

وعلى مر الأيام أحس الفتى بأن سره ينمو فى صدره ، ويكاد ينطق بجريرته الشؤمى ، وأن العيون من حوله تقول :

خذوه !

وكان إذا برح الدار ، تنقل فى أرجاء القرية ، متنكبا عن المسجد لايقربه ، فجاءه أخوه ذات يوم يسأله :

فيم تخلفه عن بيت الله ؟

فلم يجد الفتى مندوحة من الذهاب إليه ومعاودة القيام بعمله فيه ... وفيما كان يروح ويجىء ، تتمثل له مشاهد ليلته التى قضاها مع هنية فيه ، فينقبض صدره ، وتغيم عيناه ، وتنهشه الأفكار السود

ولما جن به الليل فى المسجد ، أحس الخوف يدب فى أوصاله ، ويتسرب فى كيانه ولكأن أشباحا مفزعة تدف حواليه ، وهمسا راعبا يطن فى أذنيه

وما كاد المسجد يخلو من قصاده ، حتى عمد إلى الباب ليوصده ، وبينما هو فى طريقه إليه استشعر خفق أقدام فوق سقف المسجد فأرهف السمع ، ولقلبه وجيب دءوب . فألفى نفسه يهرع إلى السطح صاعدا ، وتراءى له على الحافة طيف يتردد ، فأقبل نحوه ، فانهوى الطيف دفعة ، ورن فى أذن الفتى وقع سقطته ، وتتابعت إليه أناته بتوجع . فانحدر الفتى على الجدار ليبلغ مسقط الطيف ، فإذا هو فى البقعة التى احتوت هنية منذ أيام جسدا ملقى يئن فى خفوت

وحوم الفتى بعينيه على حذر وتخوف يبحث عن الطيف ، فلم يجد له من أثر . وما إن خطا خطوة حتى صادف أخاه الشيخ قادما من جانب المسجد ، فبوغت بمرآه ، وما عتم الشيخ أن قال فى استنكار :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ! .. أنت هنا ؟ ... فيم بقاؤك فى الظلام ؟ !

فوجم الفتى واقفا يدور رأسه ، وتزيغ عيناه ، ويبدو ارتباكه واضطرابه ... واستأنف الأخ قائلا :

ماذا بك ؟ ما الذى تخفيه عنى ؟ .. تكلم !

فصاح الفتى فى غير وعى :

لا تسألنى ... لست مجيبك ... هذا قضاء الله !

فتعجب الأخ من قوله ، وتدانى منه يتفرس فيه ، فرده الفتى عنه يصيح مخنوق الصوت :

لا تقربنى ... لا تقربنى !

وانطلق يهيم على وجهه كمن أصابته جنة ..

وكان هذا آخر عهده بأخيه ، وبقرية أهليه وتقاذفته البلاد على تنائى أطرافها ، يحيا حياة الطريد الشريد ، لا أنيس له ولا سمير إلا تلك الصفارة الحنون

وها هو ذا يستقر به المطاف فى هذه المدينة ، حيث تراه ! ...

* * *

ونكس زامر الحى رأسه ، وقد نال منه الجهد ، فقلت وقد شجانى حديثه :

لماذا لا يستغفر الخاطئ ربه ، مستأنفا تقواه ؟ إلى متى يتخلف عن بيت الله ؟

فرفع الرجل وجهه إلى ، وقد برقت الدموع فى محجريه ، وهمهم :

أترى يغفر الله له ما قارف من إثم ؟

أترى ينفسح لمثله المسجد الطهور ؟

وما هى إلا أن اجتذب صفارته من صدره ، وانكب عليها يوقع لحنا رقيقا يتفطر من ضراعة وندامة وحنين !

محمود تيمور

عِنـيـان

للكاتب الهندي ك. ت. محمد

بقلم الأستاذ محمود الخفيف

كل من لهم أعين يبصرون بها يضحكون مني إذا رأوني. ولقد يضحك بعضهم ضحكات راعدة. وإن لديهم لأنباء مضحكة يروونها عني. ولكني أعلم ما يقولون وأعلم ماذا يجعلهم يضحكون كما تنهق الحمر

إن من أسباب ضحكهم وسخريتهم مني أن لي أيضاً حبيبة كما يكون لأي امرئ حبيبة. وأكثر من ذلك مدعاة لسخريتهم أني تزوجتها! كيف أصبحت عاشقاً وكيف أصبحت زوجاً؟ إنهم يجعلون من ذلك قصة يسوقونها مساق العجائب التي يضحكون منها ثم يغرقون في الضحك. فإذا استفهمتهم عن هذه الأعجوبة المضحكة، أحالوك على لتنظر إلى نظرة! وإني لأقف أمامك فماذا ترى في مما يسترعي انتباهك بوجه خاص؟ إني بعد هذا كله آدمي كسائر الناس.

أنا رجل قصير؛ سواد بشرتي كسواد الفحم، تحملني ساقان غير متكافئتين طولا. أما رأسي المهول فإنه قمة لما في بدني من تشويه وقبح. وفي وجهي عينـان صغيرتان مستديرتان في محجرين عميقين، وأنف أفطس، وفم واسع غليظ أشبه ما يكون بفم الضفدعة. وفوق ذلك ترى جبهتي الضيقة بين أذنين أكبر حجماً مما تكون في العادة الآذان. وتجد كذلك في وجهي علامات تريك مبلغ ما صنع الجدري النهم بلحم وجهي حين بليت به وأنا في الثانية عشرة من عمري. وفي رجلي اليمنى عرج بسبب سقطة سقطتها وأنا صغير. حقا إني كومة من القبح. ويقول لي الناس إني لأول وهلة أمثل لمن يراني صورة قرد أسود. وليس يضحك الناس حتما إذا أبصروا قردا. وإنما ينبعث ضحكهم حين يرونني لأني أشبه القرد وأنا إنسان! وبينما كنت سائرا في الطريق ذات يوم إذ سمعت من يقول عني لصاحبه: إن هذا

كانت هذه القصة إحدى خمس وأربعين اختارتها جريدة هرالد تريبيون الأمريكية للنشر في مجموعة أصدرتها في كتاب وذلك من بين أكثر من ستين ألف قصة أرسلت إليها من جميع أنحاء العالم في مسابقة كانت أعلنتها في القصة القصيرة.

ونذكر بهذه المناسبة أن القصة التي نشرناها في العدد الثالث تحت عنوان «لماذا» هي التي فازت بالجائزة الأولى في هذه المسابقة العالمية.

وسنتخير من هذه القصص الخمس والأربعين ما نترجمه للقراء بين حين وحين.

الرجل يذكرني بأحدب نوتردام ! ومع أني لست أحدب لم أقف مرة لأحتج على مثل هذا . ولست أنا على كل حال من يقطع ماذا تذكر الناس صورتي أو من يذكرونه حين يرونني . على أن ضحكهم مني قد علمني عن نفسي الكثير . وإني لأنكمش حتى ليتداخل بعضي في بعض إذا أبصرت الغانيات يخطرن في حللهن المزركشة الزاهية الألوان ، لأنهن يشحن عني في سرعة كما يفعل البراهمة إذا وقعت أبصارهم على بومة هم منها يتطيرون . وهن حين يرفضن في كبرياء أن ينظرن إلى نظرتهن إلى آدمي ... ويأبين أن يرعين شعوري كإنسان ، حينذاك أشعر أشد ما أشعر بحالتي المحزنة

ولما كنت قد وهبت حاسة إدراك الجمال كما يوهب أي إنسان ، فإني كذلك أستمتع بالنظر إلى ما هو جميل ، ولكن الناس يعدون ذلك مني جريمة لا غفران لها . وقصارى القول إن دنيانا هذه تعلن في جلاء أن أمثالي من البشر لا يستحقون أن يعيشوا فيها

لقد مات أبي قبل أن يشرق فجر الذاكرة في نفسي . وهكذا لم يبق لي مما يسمى حياة عائلية إلا حياة أمي العجوز . وليت شعري على أي أبوي تقع تبعة قبحي المرعب المحزن ؟ أتقع التبعة على أبي ؟ أم تقع على أمي ؟ كلا إني لست ألومهما كليهما . وفيم اللام ؟ لقد ولدت . ومن يدري فلعلهما لم يريدا أو لم يتوقعا أن أولد . ولقد حاولنا أن نحتفظ بهيكل العائلة ، أنا الذي لم يذو عودي ، وأمي التي لم يهو فرعها ، ولم لا ؟ أما ينبغي لهذه الشجرة العائلية أن تنبثق منها أفرع جديدة . وأن تبقى حية نامية ؟

ولقد أخذت أمي تثير في نفسي الإحساس بالعائلة ، ذلك الإحساس الذي يهجس في نفس كل رجل لأنه كائن اجتماعي . فسألتني أمي قائلة ذات يوم : ألم يأن أن تجيء إلى بيتنا بعروس ؟

ولم يفاجئني سؤال أمي ، فأجبتها وأنا أهدهد قلبي المحزون : نعم يا أماه حين تسنح الفرصة

وأخذت أمي تستشير جاراتها اللاتي أبيضت رؤوسهن . وقضت في ذلك عدة أيام . ولما كانت تعود إلى يوما بعد يوم ، وممض الألم في معارف وجهها ، أصبح مرآها مشكلة تحيرني . وكنت أسألها كل يوم : ما خطبك يا أماه ؟ فتجيبني قائلة : أوه ... لا شيء يا بني . وكان يخفق مع هذه الإجابة قلب أم يفعمه اليأس وقلة الحيلة

وتصرم أسبوعان ، ولم تعد أمي تغادر الدار . وأخذ يضحك مني حتى من لم يكونوا يضحكون من قبل ! ونظر إلى ذات يوم

رجل وخط الشيب رأسه فقال فى كثيرمن الشفقة على : ياله من مسكين ! لم جهدت أمه لتحصل له على عروس ؟ يا إلهى لم يخلق رجل مثل هذا ؟

وبدأت أستعمل الأصباغ وأتخذ وسائل الزينة سرا . ولبست الملابس الأنيقة ، ولكن ذلك لم يزد الناس إلا سخرية منى وجعل ضحكاتهم أعلى مما كانت . فهل أصبحت أشد قبحا ؟ ذلك ما تبينته بعد حين . فإن الاستحمام لن يجعل من الغراب يمامة كما يقولون

لكى استأنف ما بدأت من قصة حتى أقول إنى أخيرا ، أنا الذى ذكرت لك من صفاتى ما ذكرت ؛ أنا أيضا ، وجدت لى حبيبة ! وأكبر ظنى أنك تتوق إلى معرفة قصتى أو الجانب الإنسانى من حياتى وأنك لم تعد تطيق صبرا عنها . إذن دون هذه القصة

لقد طالما تطلعت أن أحب وأن أكون محبوبا . أليس ذلك طبيعيا ؟ وإن قصة حبى لقصة عجيبة حقا . فهى تدور حول شابة أحبتنى ثم ارتضتنى زوجا دون أن تلقى بالها قط إلى هيأتى التى نفرت منى جميع الأعين وكرهتنى إلى كل الأنفس .

لقد انتهت محاولة أمى لتحصل على عروس بالإخفاق ، فلن ترضى امرأة أن تصبح زوجا لامرئ هو فى خلقته بين القرد والإنسان

ولقد أدى بها ألمها من هذا الإخفاق إلى ضرب من الإعياء ، أراه طبيعيا فى سن متقدمة كسنها . ثم برحت بها العلة فلم يعد يرجى لها شفاء ... وأخيرا فإن أمى هذه ، أمى التى كانت تبرد حشاى وتثلج فؤادى المحترق بما تسبغه على من حنانها ، أمى الحبيبة التى ظلت تربط بين نفسى وبين هذه الحياة البغيضة برباط ذهبى من حبها ، أمى التى كانت حياتى ، والتى ترى نوعا من الجمال حتى فى قبحى المروع .. أقول إن أمى هذه قضت نحبها من فرط الحزن وخلفتنى وحيدا . ولست أذرف الدموع عليها ، فإن تألمها لى لم يدع لها فضلا من قوة لتتحمل أكثر مما تحملت .

لم تطل بى الوحدة ؛ فقد حدث بعد أيام أن سمعت نقرات عكاز على الأرض أمام بيتى أعقبها صوت فتاة تقول : أعطنى شيئا ياسيدى . شيئا أمسك به حياتى ، وكانت فتاة شحاذة . وعادت تقول : إنى ضريرة أيها السيد فهل من صدقة ؟ فنظرت إليها ثم نظرت إلى عينيها فبعث مرآها الرثاء فى قلبى .. وتفكرت وأنا أنظر إليها وقد نسيت حالى . فقلت لنفسى : يالها من مسكينة ! إنها شابة ولكن ليست لها عينان . فليس يمكنها فى حياتها هذه إلا السمع . اللمس

ولم تكن هذه الفتاة ذات حسن . ولكن

سمها المتناسق الأعضاء كان يوحى إلى
نى روعة الشباب . يالها من بائسة ! إن
ى ليعطف عليها وإنه ليتجه إليها

قلت لها فى رفق : تستطيعين أن تدخلى وأن تجلسى هنا لحظة . فمدت يدها تتحسس موضع البـاب ، فنهضت وأمسكت بيدها وقدتها إلى داخل البيت . وكانت هذه أول مرة تلمس فيها يدى يد فتـاة ، وكان ذلك وقلبى مثقل بما ينطوى عليه من عواطف حزينة مكبوتة . ونظرت ثانية إلى وجهها . فوجدت رونق الشباب فى هـذا الوجه البائس ، على الرغم من هاتين العينين اللتين انطفأ نورهما. ولم يكن صدرها الناهد بعيدا عن صدرى . وأخذت تسرى فى بدنى رعشة كما لو كنت أرتعش من البرد ، قبل أن أنتبه إلى حالتى هذه . ثم ارتهكت مفاصـلى ، وأحسست بشفتى تنفرجان ، وبأنفاسى تسرع كما لو كدت ألهث .

وقدت الفتاة إلى مقعد فى نهاية الشرفة وقلت لها : تستطيعين أن تجلسى هنا . هل أحست بارتعـاش يدى ؟ لست أدرى . وأعطيتهـا بعض ما طهوت من طعام وعملة صغيرة

وقالت لى إن اسمها ليلى ، وأنهـا تعيش مع أمها العجوز فى كوخ ذى سقف من الصفيح على مقربة من أحد المصانع الـكبيرة فى المدينة . ولما همت بالخروج سـألتها أن تجئ ثانية إلى

وأخذت ليلى تجئ إلى بيتى من حين إلى حين ، ثم أصبح ذلك عادة لهـا . وصرنا نتحدث فى أشياء كثيرة ، وأحسست أنى أخفف من أثقال قلبى ومن أعباء حياتى . وصرت أجد فى بعض ساعات الحياة ما يرضى المرء بالعيش !

واأسفا على عينى ليلى ! لو كانتا تبصران لزادذلك من جمالها . أليست نظرة المرأة كفيلة بأن تفقد الرجل صوابه ؟ ومع أننى علمت ذلك من تجارب غـيرى من الرجال فأنا أستطيع أن أدرك معناه . إن قلبى المحروم له كذلك أمنياته ؛ على أنه ليس بغيب عنى مبلغ ما فى أمنيتى هذه من حماقة ... ولـكن لم أتمنى ذلك ؟ لعلها لم تـكن تتخذ الشحاذة سبيلا للعيش لو كان لها عينان . ولو أنهـا اتخذت الشحاذة عملا ، فما كانت لتقبل منى إلا ما أعطيها من صدقة . كلا ما كانت عيناها لتجعلاها تجئ إلى بيتى وتتحدث إلى كل يوم .. إلى أنا الذى عرفت من صفاتى ما عرفت

ولحظ الناس لقاءاتنا . ولـكننا لم نكن موضع حسد عند أحد . ولقد كنت بسبب خلقتى التى هى مزيج من القرد والإنسـان موضع سخريتهم من قبل كما علمت ؛ والآن أمدتهم قصة حبى لفتاة عمياء وتعلقى بهـا

بشئ جديد يضحكون منه ! ولشدما ضحكوا من هذا الائتلاف بين العمى والقبح ! . إنه لشئ مضحك .. أليس كذلك ؟

وسألت ليلى ذات يوم قائلا : ليلى … ما ظنك بى ؟ وملأتنى فرحا ابتسامتها التى يمازجها الحياء ، فقلت لها : تعلمى يا ليلى .. إنى أريد أن أعرف رأيك . فقالت فى رقة شديده : هل قلت عنك قط إنك رجل سئ ؟

وأحسست روح الإخلاص فى كلماتها فملأنى ذلك غبطة . وبدا لى فسألتها دون سابق قصد ، فى لحظة من جيشان العاطفة أتحبيننى يا ليلى ؟ وأحنت رأسها فى حياء دون أن تتكلم . وشعرت أن كل ما فى الحياة من جمال وسحر قد اجتمع فى هذا المنظر

وانصرفت ليلى عقب ذلك . ليلى ! هاأنذا كذلك قد أصبح لى اسم أهتف به فى شغف فى هذه الدنيا الفسيحة الموحشة ! أجل أصبح لى من أنتظر مقدمه فى لهفة ومن أتحرق إلى لقائه . وأصبحت حياتى حلوة ممتعة يشيع فيها الأنس . تلك حياتى التى كنت لا أجد فيها من قبل إلا الانقباض والعزلة .. أليس ذلك حظا عظيما ؟

إن الذين يسخرون منى هم أعدائى . فماذا يكون الحال لو أنهم تحدثوا إلى ليلى عن قبحى وصوروا لها هذا القبح ؟ أتراهم فعلوا ذلك ؟ من يدرى فلعلهم فعلوه . ولكن لاضير ، فكيف تميز ليلى الحسن الجذاب من القبح المنفر إذا كانت لا تستطيع أن تميز النهار من الليل . لقد أخبرتنى أنها ولدت عمياء . ولست أقول إن ولادتها عمياء هو حظى الحسن ولكن هل كان ذلك سوء حظها ؟

وجاءت ليلى فى اليوم التالى ولقد كنت أفكر فى زواجى بها وكيف أحقق ذلك الزواج . أليس يقتضى زواجنا أن يشهده نائب عن الله كما يحدث فى كل رباط مقدس بين رجل وامرأة ؟ ولكن ما من قسيس من قساوسة الله يقبل أن يشهد زواجنا : وإن لذلك لسببا . إن لهؤلاء القسيسين الذين ينوبون عن الله وجهة نظر دنيوية لا يفتأون يسمونها روحية . إنى وليلى زوجان غير متكافئين فى نظر هؤلاء . ولذلك فلن يقدموا لنا معونة مهما قيل لهم فى وضوح وجهر أنه ما من أنثى غير ليلى ترغب أن تكون زوجا لى فى هذه الدنيا التى يزيد فيها النساء على الرجال . وفى مثل هذه الأمور ليس غير تحدى كلمة أولئك الذين يقولون إنهم ينوبون عن الله والذين يتولون هذه النيابة فى أسماء مختلفة . ولعلك لم تحط بعد علما بأنى مسلم

وسألت حطيبتى قائلا : ليلى أتقبليننى زوجا ؟ وشعرت أنها ارتاعت لسؤالى هذا

أخذتها منه دهشة . وقد جعلها لا ريب تذكرها أنى مسلم تفكر طويلا قبل أن تجيب . ثم سألتنى ماذا تقول ؟ وشعرت أن هناك حدا لما تشعر به هذه الشحاذة العمياء من عطف على . وعدت أقول لها : ليلى ! حسبك أن تذكرى أنى آدمى قبل كل شئ وأن الله أرسلك إلى . وما التقاليد والطقوس إلا من صنع الناس . ونظرت فى توسلى إلى شفتيها المرتمشتين ، وأحسست إحساس القاتل ينتظر كلمة القاضى . أجل فكانت هى التى تقضى بأن أحيا أو بأن أموت . وظلت ليلى صامتة . فقلت لها : تكلمى يا ليلى إنى أريد أن آويك وأن أحميك فعدينى بأن تهبينى السعادة

فقالت أخيرا : سوف أجيب سؤلك ، لقد سمعت من الناس كثيرا من عبارات الازدراء يرموننى بها ، فكلما مررت بهم قالوا : هذه حبيبة نصف القرد ؛ وأظنك حسب أقوالهم لم تظفر بأى قسط من الجمال

فسألتها : وماذا تشعرين نحوى يا ليلى ؟

فقالت : لست أفهم معنى ذلك الجمال الذى يتحدثون عنه . ولم أر بالضرورة قردا وعلى ذلك فلست أبالى بما يقولون ؛ وهل كنت أشعر خلاف ذلك حتى ولو أنهم قالوا إنك أعظم الناس وجاهة ؟ بقلبى وحده رأيت الدنيا . وبقلبى أرى الجمال والقبح . إنك مسلم وأنا هندوكية ، فإذا لم يكن لديك ما يمنعك من زواجنا فليس لدى ما يمنعنى . لقد حسبت أنه ليس فى هذه الحياة من يحبنى فى إخلاص ، ولكن ..

فقاطعتها فى لهفة : وما محل « لكن » هذه الآن ؟

فقالت : أجل . هناك « لكن » غليظة وراء تلك الحرفة المهينة حرفة التسول . ليست لدى وا أسفاه أنوثة طاهرة أقدمها إليك ؟ لقد كان يظمأ قلبى إلى الحب على الرغم من أنى عمياء . ولكن وعاء الشحاذة — وكثيرا ما كان يبيت فارغا بالرغم من شحاذة اليوم كله — كان يضحك ضحكة شيطانية ساخرة من فراغ بطنى وبطن أمى فلم يكن بد من أن أذعن لطلاب الشهوة من تلك المخلوقات التى كانت تطرق بابنا ونحن فى هول الليل . وليس ثمة من فائدة إذا شعرت نحوى الآن بالاشمئزاز بسبب ذلك . إنه ما من رجل يصع شيئا فى وعاء شحاذة فتاة بدافع البر . ولقد ظننت أول الأمر أن ما أبديته نحوى من عطف كان من هذا القبيل وأرجو أن تغفر لى هذا الظن السئ . على أننى اليوم لا أشعر نحو آدمى غيرك باحترام ومحبة

وقد عقدت الدهشة من كلامها لسانى لحظات وصدمنى قولها صدمة شديدة فبقيت

سا كتا لا أحير كلاما . وأخيرا قلت لها : ليلى : إن ما ذكرته هو قصة أنانية الرجل ، تلك الأنانية الرخيصة المنحطة ، ولن تخطر لى هذه القصة على بال بعد الآن . ولم تجب ليلى بشىء وظلت صامتة حتى انصرفت

وحدث الزواج بعد بضعة أيام ، وأحدث فى القرية ما أحدث من عجب وإثارة فكر وفضول . فلقد التقينا أنا عبد الله وخطيبتى ليلى ولم يشهد التقاءنا أحد ، ولم يتم على عقدنا شهيد ينوب عن الله ، ولا زكانى ولا زكاها . وأقسمنا كلانا أن نكونا شريكين فى الحياة

وازدادت جلبة الضحك من حولنا ، وازداد فضول الناس وعلت قهقهتهم حين جاءت ليلى وأمها لتعيشا معى فى كوخى . وأصبح الذين يجعلون من أنفسهم أوصياء على المجتمع وإن لم يعترف بهم أحد أو يسندهم قانون ينظرون إلينا ويعرضون لزواجنا متسائلين فى دهشة ! ولم يفطن هؤلاء الناس إلى أن وراء هذه القصة ، قصة حبنا وزواجنا قلبين يحترقان . وحاولت أن أخفف عن ليلى ، وأن أذهب عنها الحزن فقلت لها : ليلى ! دعى الناس يضحكون فإنهم لا ريب مجانين

وأخذنا نعيش معا . ولست أقول إن حياتنا الزوجية كانت حياة سعيدة من جميع نواحيها . كانت معيشتنا زوجين مثارا شديدا للجانب الإنسانى من نفسيتنا . هذا ما أصف به حياتنا الجديدة . أما عن الناس فإن ما تواضعوا عليه من أخلاق اجتماعية وتقاليد دينية ، يتخذون حولنا مظهرا انتقاميا فظيعا فلا معونة لنا من أحد ولا تعاون معنا فى أية صورة ؛ وليس ثمة ما يشعرنا أو يوحى إلينا أننا نستطيع أن نعيش سعيدين . ولكنا أردنا أن نعيش وقد أخذنا أهبتنا لنواجه ما يصادفنا من مصاعب

وحدث بعد ذلك حادث جديد . إن ليلى بسبيل أن تصبح أما . إن تكوينى فى صورة فردية آدمية ، وإن عماها لم يحولا دون أن أكون أبا وأن تكون أما . ولقد تجاهلنا أحاديث الناس وسخرياتهم . وماذا يهمنى من الناس ؟ إن ما لم أكن أحلم به من ضروب المسرات قد ظفرت به تباعا فقد أصبحت محبا ثم صرت زوجا . وها أنذا بسبيل أن أغدو أبا . لقد توجهت بقلبى إلى الله شاكرا نعمه ، فما أعظمه سبحانه ... يا عينى ليلى اللتين انطفأ فيهما النور .. إليكما ترجع هناءتى !

ولكن المرض انتاب ليلى وبينها وبين أن تضع ما فى بطنها شهران . واستدعيت طبيبا ففحصها ورحت أتوسل إليه أن ينقذها ، فقال : ليس فى الأمر ما يخيف

وسوف أشفيها . ثم سكت لحظه وسألني : أهي عمياء منذ ولادتها ؟ فلما قلت له : نعم فحص عينيها ثانية ثم قال بعد أن تفكر لحظة : إني قادر على أن أرد إليها بصرها بعملية جراحية ولكن ذلك مستحيل الآن فلندعها حتى تسترد عافيتها بعد أن تضع حملها

وهزت كلمات الطبيب قلبي من أعماقه وهزت شباب نفسي وهزت حياتي كلها . ماذا يقول الطبيب ؟ إنه يستطيع أن يعيد النور إلى عيني ليلى ! أإذا أبصرت ليلى أتراها ترتجف حين تراني وهي لا تعرفني إلا بأنني رجل له قلب جدير بأن يحب ؟ أتراها ساعة تستطيع أن تبصرني تبقى على محبتها إياي واحترامي ؟ ماذا ينبغي أن أقوله للطبيب ؟ لقد أردت أن أصيح قائلا لنفسي : لا ، إن عينيها لا تطلبان النور . ولكني وجدت نفسي أقول : ليلى ! يقول الطبيب إنه يستطيع أن يبرئ عينيك من العمى !

ورحت أردد في صورة آلية ما سمعته مني ولكن كيف أبين لها أن إعادة النور إلى عينيها إنما يتهدد حياتي من جذورها ؟ أأمنع النور عن عينيها ؟ ما هذا الذي أفكر فيه؟ وأي شئ يقف الإنسان دون بلوغه ليحتفظ بنور عينيه ؟ أليس شفاء الإنسان من العمى إذا أتيح له حظا دونه كل حظ ؟ إن ليلى التي عرفت قلبي وفهمتني من هذه الناحية حق الفهم لا تدرك الناحية الدنيوية من نفسي . لقد قالت لي : إذا كنت أستطيع أن أسترد بصري فإني راغبة في ذلك كل الرغبة ألا تجد سعادة في ذلك ؟ إني إذا استطعت أن أراك فسيجعلك ذلك تحبني أكثر مما تحب

ورأيت الرضا والأمل في وجهها حتى في مثل تلك الحال من المرض والألم ! أكان ذلك لمجرد أن حياة جديدة توشك أن تنبثق؟

وكتب الطبيب الدواء وشرح لي كيف أسهر عليها وكيف أعطيها دواءه وقال : تعال عندي حين تسترد عافيتها بعد الوضع وسأحدثك عن تلك العملية حديثا مفصلا

ولبثت ليلى هادئة . ولكن رأسي كانت تعصف به العواصف من فرط تفكيري ، وكأن نارا تلهب ذهني . فذهبت إلى نهاية الشرفة وهناك جلست وحدي . إنني لا أستشعر شيئا من الراحة إلا في كوخي هذا الصغير . وسوف أحرم حتى من هذا القدر الضئيل من هدوء البال . ما أضيق مضطربي في هذا الوجود ! ... كلا ... كلا .. إنك لن ترد إلى ليلى بصرها أيها الطبيب ! لقد تآمرت مع أعدائي الذين يتهمونني على قتلي ، ولكنك لن تقتلني فسأعجل أنا بقتلك !

لماذا قذفت بالنار على حياتنا ؟ كلا .. لست بملوم أيها الطبيب ... إن واجبك أن

تحارب الأمراض . وإن العمى لمرض من أقبح الأمراض وأشدها سوءا ، ولست بمستطيع أن تقف حياله مكتوف اليدين . وعلى ذلك يجب أن تهب لها النور وإنك لا تدرى شيئا عن حياتى ... ليلى عزيزتى تستطيع أن ترى ؟ يا إلهى هب لها هذه النعمة التى يجب أن يسعد بها كل آدمى ... ولكن يجب أن أكون ترابا قبل هذا .. قبل أن تستطيع ليلى أن تدرك بعينيها ما ذا يكون الرجل القردى ! وبذلك أعيش فى ذاكرتها وأنا ذلك الرجل الذى له قلب والذى أحبها فى إخلاص وآواها . ليت شعرى هل يبقى إلى الأبد حبها الحالى إياى وما تراه فى من جمال؟ إن قلبي ليبكى بين أضلعى !

ووضعت ليلى غلاما .. وعاد فضول الناس يتعقب هذا الغلام الذى عده سفيحا . وضحك بعضهم مقهقها كما تنهق الحمر ! أليس ذلك أمرا يحمل على الضحك وعلى الاستغراق فيه ؟ ولكن هذا الغلام الذى ولد لأب قبيح الشكل وأم عمياء برىء براءة كل مولود . ولقد ورث هيئة أمه وعيني أبيه !

واستردت ليلى عافيتها ، وما كادت تحس القوة حتى ذكرتنى بما حملتنى أنانيتى على أن أمسك عن الإشارة إليه ، فقالت ألا نذهب الآن فنقابل الطبيب ؟ ولم تدر أى عاصفة بعثتها كلماتها فعصفت بقلبي

وكذبتها فقلت : نعم لقد كنت نسيت وسأذهب فأراه اليوم وأنظر ماذا يقول . ولقد كنت أعلم أنى كاذب وكنت كالذى يتقاذفه الموج . فخرجت من كوخى وعدت إليها بعد ساعتين أقول لها : لقد مات الطبيب . وكان ذلك قصاراى من القول فماذا عسى أن أقول أكثر منه ؟ لقد ظننت أنى لن أستطيع أن أقول حتى هذا الذى قلت ! ولقد عجزت حتى عن أن أظهر بمظهر الزوج الذى يجب أن يفزعه ويحزنه نبأ كهذا ، نبأ موت الطبيب الذى كان يزمع أن يشفى زوجته من العمى ! وكان على بعد ذلك أن أحتفظ فى قلبي الذى يثخنه الألم بذلك السر الذى تولد من القسوة والأنانية .. آه .. لقد كان حملا أثقل من أن يقوى قلبي على حمله ، وإن ما فعلته ابتغاء الأمن والهدوء قد قضى قضاء مبرما على راحة ضميرى وهدوء بالى إلى الأبد

وأخذت الأيام التعسة تتعاقب يوما فى إثر يوم . وقد حدث أن رأيت ذات يوم حين عودتى إلى كوخى منظرا خليقا بأن يمزق نياط القلوب ، فقد نسيت أم ليلى أن تخرج من الحجرة طستا واسعا من النحاس كان فى وسطها . واندفعت ليلى صوب سرير ابنها وكان يبكى ولم تستعن بعكازها فعثرت بالطست فارتمت على وجهها وتفجر الدم من جبهتها ، وكان جرحها عميقا فحملتها إلى المستشفى

أتراك تشعر كما لو أردت أن تضحك الآن؟ لم يعد لدى ما يدعونى إلى الشكوى . ومن ذا الذى يبالى بشكاتى ؟

ليلى يا عزيزتى .. يا حياتى ... يا دنياى ! لقد استدعانى أحد الأطباء وقال لى : لا بد أن سقطتها كانت شديدة مرعبة فإن جرحها خطير . ومضيت إلى ليلى وكانت راقدة تتلوى من فرط تألمها وحدثتها فقالت وهى تجهش : أجئتنى ؟ إنى ذاهبة .. آه لو كنت أستطيع أن أراك مرة واحدة بعينى !

وبدت لى رغبة ليلى هذه الأخيرة امتحانا لمبلغ تحملى . أتراها حزينة لأن الطبيب الذى كان قادرا على أن يرد بصرها إليها قد مات ؟ لقد لاذت بالصمت ...

فقلت لها : ليلى لا تحسبى أن رؤيتك إياى بعينيك أمر جدير بالاهتمام ، ألم ترينى بقلبك النقى الكبير إنى أعلم أنك وحدك فى هذه الدنيا التى رأيتنى كما ينبغى أن أرى . وإن الناس لا يستطيعون أن يرى بعضهم بعضا بأعينهم ، وعلى ذلك فلتطيبى نفسا يا عزيزتى ، وستبرئين من مرضك عما قريب

وأصغت ليلى إلى ثم أعقب ذلك صمت .

وكانت الشمس قد جنحت للمغيب وأخذت ليلى تنتحب . وأخذت أحس مرارة الألم . وشعرت بأن سرى الذى ينوء به قلبى يوشك أن ينبعث منه على رغمى . ورأيت ألا قبل لى بأن أظل قائما حيث كنت . وجاءت أم ليلى بالغلام فوضعته إلى جانب أمه . وبدأ يصرخ هذا المخلوق الضئيل ولعله اختنق فى ذلك الجو الدرامى الذى أحاط بنا . وراحت تبكى كذلك أم ليلى . ووجدت نفسى بحيث لا أستطيع أن أملك لهم شيئا ولا أملك لنفسى نفعا

وذهبت نفس ليلى الصافية إلى بارئها فى هدوء . ولست أذكر ماذا فعلت حينذاك . لقد وقفت نبضات قلبى ، وزلزل حوله قلبان . وعندئذ غربت الشمس وتكاثفت حولى الظلمة . ولا يزال أولئك الذين لم يدركوا ما كان وراء قبحى المرعب من آلام وآمال والذين لم يقفوا على قصة حبى العجيبة ، يضحكون منى كلما رأونى . وإنى لأسأل نفسى أحيانا : ترى ماذا كانت تصير إليه قصتى لو أننى كنت أعمى كذلك ؟

محمود الخفيف



ولدها

للأستاذ كمال رستم

أيها الأصدقاء ! لا تهزأوا بى إذا قلت لكم إننى كنت بسبيل أن أرتكب يوما جريمة مروعة ! .. إنكم لا تستطيعون أن تتصوروا أن مثلى يقدم على قتل ذبابة ؛ ولكن الحقيقة أننى كنت سأقتل .. لا رجلا رشيدا .. بل طفلا غريرا لا تعدو سنه الرابعة !

دعونى أقص عليكم قصتى فهى لا تخلو من عبرة وعظة !

كنت فى السادسة والعشرين حينما غزا الحب قلبى ! ولم أكن مجدود الطالع لأننى لم أحب عذراء بل تعلقت بسيدة فارقت زوجها بعد أن استولدها طفلا ! وكانت فى التاسعة عشرة حينما تعرفت بها ! ولم يكن فى سماتها شئ ما ينبئ عن أنها سيدة . كانت تبدو عذراء أكثر من العذارى .. فى جمالها ورشاقتها .. وروحها العذبة ! واندفعت إليها اندفاعا جنونيا .. اندفاع العاشق المسبوه المسلوب الإرادة والعقل ! ومع أنها أنبأتنى منذ كان لقاؤنا الأول أنها أم لطفل ؛ إلا أننى لم أجد فى قولها خطرا يهدد حبنا على الإطلاق !

جرى كل شئ فى مجراه الطبيعى .. وشعرت أننى فى حبها أسعد من على بسيط الأرض حظا وجدا ! كنا نلتقى فى الأماكن العامة والنزهات الخلوية .. وكان حديثنا هو حديث الحب الشائق ، ولم يحدث أن فكرت فى طفلها .. فإن حدث هذا كان تفكيرا سطحيا لا يبلغ أغوار النفس .. وأعماق الشعور ! ومع هذا كانت العقبات تعترض سبيل سعادتنا ! كنت أعلم أن أسرتى المحافظة سيهولها العمل الذى كنت بسبيل أن أقدم عليه ؛ فقد كنا أجمعنا أمرنا على الزواج .. وكنت أعلم أن هناك غير ظروف الأسرة ظروفا أخرى قاسية تجعلنى أروى النظر فى هذه الخطوة الجريئة .. خطوة زواجى من سيدة !

إن الناس سيديرون الحديث عن زواجى ، ويذهبون فى تأويله كل مذهب .. ولن يخلو الأمر من فضولى سمج يلقى على مثل هذا السؤال :

— لم تزوجت من ثيب .. والعذارى

كثيرات ؟

ومع أن حياتى الخاصة حرم مقدس ليس لفضولى أو متطفل أن يدس أنفه فيه إلا أن الناس درجوا منذ قديم الزمان على أن يدسوا أنوفهم فى حياة الناس رضى هؤلاء أم كرهوا !

كانت هذه الحقائق القاسية تكدر هنائى وتعكر صفوى حينما أخلو إلى نفسى .. ولكننى كنت أنسى كل شئ .. كل شئ حينما أكون بين ذراعيها المبلتين !

وعن لى أن أشرك بعض الصحاب .. بعض الأصدقاء فى مشكلتى .. وأن ألتمس لديهم صواب الرأى فأنكروا على زواجى من ثيب قائلين :

— أيكون أول « بختك » سيدة ؟

كنت لا أعى ما يعنون .. ماذا لو بنيت بثيب أو بفتاة ما دمت أحبها ؟

ترددت طويلا قبل الإقدام على الزواج من حبيبتى ، وشرعت أقابل بين زواجى منها وانفصالى عنها . فلما رأيت أن مجرد خاطرة الفراق تملأ نفسى هلعا وقلبى رعبا لم أجد معدى من التسليم بنصيبى المقدور وقلت لنفسى إننى مشغوف بها مصبوب عليها ومحال أن أفترق عنها دون أن يؤثر ذلك فى نفسيتى وأعصابى !

وشئت أن أتحقق من موقفها بالقياس إلى ولدها فيما لو تزوجنا فأكدت لى أنها راضت نفسها على العيش بعيدا عنه وأن جدته كفيلة به وقالت والابتسامة الآسرة على شفتيها :

— لن تشعر أبدا بأن لى طفلا !

وتزوجتها !

وبقى زواجى منها سراً مغلقا حتى بالنسبة إلى أقرب الناس إلينا .. ولم أكن رتبت أمرى لاستقبال حياتى الجديدة فقبلت أن أدعها بعض الوقت عند أسرتها .. ريثما أوفق إلى مسكن خاص بنا !

والآن تدبروا أيها الأصدقاء موقفى ... وانظروا كيف أن خطأ يسيرا قد يكون له كل الأثر فى تشكيل حياة الإنسان وتغيير مجراها . . لقد رأيت ثمة طفلا غيورا تدفعه الغيرة العمياء إلى إتيان أعمال شيطانية ولمست فى نفسى نحوه شعور العداء والكراهة والمقت .. هذا الطفل الغرير فى الرابعة من عمره لم يكن يدعنا لحظة واحدة نخلو إلى نفسينا .. ونهنأ بحبنا

فما كانت تحتوينا حجرة إلا رأينا الباب يصطفق فى قوة وعنف ثم تجتلى الطفل واقفا أمامنا بسحنته البغيضة يشرع عينيه إلينا فى حقد جنونى ! لم يكن طفلا غريرا بل ماردا صغيرا ! ويظل هذا المارد الرجيم ماثلا أمامنا ليس فيه سوى عينين تقدحان

بالشرر وأرانى دون وعى ولا تفكير أراخى عن أمسه ذراعى .. وقد زكت فى نفسى ضده ثورة عارمة .. بينما تصعد إليه بصرها وتقول له فى غضب يشيع فيه الحنان المستور

— ألم أقل لك لا تدخل إلى هنا ؟

ثم تأخذ فى ملاطفته إلى أن يزايل الغرفة

ولكنها بمرور الأيام وترادف الحوادث أدركت بغريزة الأنثى التى لا تخطىء أننى بدأت أصحو من هدأة الحب الحالم .. وأننى شرعت أميز الأشياء .. أدركت أن الطفل الذى لم يكن له أثر فى حياتى صار له الآن كل الأثر !

وفى يوم كانت فيه مشاعرى مهتاجة .. وأعصابى ثائرة، فلم أستطع أن أحتفظ بسمات المجاملة التى ألفت أن أكسو بها وجهى كلما عليت الطفل . وقد وقع أن رآنى أحتوى أمه بين ذراعى فاتجه إلينا وفى عينيه تصميم وعزم ثم ارتمى بكيانه الصغير على أمسه وشرع يجذبها من شعرها ليحررها من بين ذراعى .. وراحت هى ترسل ضحكاتها الناعمة السعيدة ؛ وكأنما أدرك الطفل قصور وسيلته وعجزها فانهال على ظهرها بقبضتيه الصغيرتين ضربا ولكما .. وفى غير وعى ولا إدراك أهويت بجمع يدى على رأسه فى ضربة مغيظة محنقة . كانت قد أثارت الكراهية الثاوية فى أعماق فى ثور مجنونة ضد هذا الطفل الدالل .. الطفل اللعين !

تراخت قبضة الطفل .. وراح يحدق فى فى ذهول وضعف .. ووقف منا غير بعيد لا ينتحب ولا يبكى .. وإنما ينظر إلى وفى عينيه ذلك البريق الإجرامى .. هذا الطفل الذى كان لا يعدو الرابعة .. والذى كان الكلام يتعثر على شفتيه ، عددته غريمى ، فى حبها وحنانها وتفكيرها !

وأدرت بصرى عنه .. وصعدته إليها.. فاجتليت فى عينيها نظرة قاسية .. سرعان ما تحولت إلى نظرة عاتبة !

وكان فى هذه اللحظة أن عرفت أن حبى لها مهدد بوجود الطفل .. ولم أستطع أن أدارى عواطفى فملا وجهى وجوم.. وفترت قبلاتى وخات من الشغف والانفعال ورأيتها تضمنى إلى صدرها فى قوة وانساب إلى صوتها الناعم وهى تقول :

— أيها الطفل الكبير . . أتغار من صغيرى وأنت تعرف أن لك حبى كله . . لك وحدك ؟

ولأول مرة أيقنت كذبها !

وتطلعت إلى ولدها ونهرته ولكنه ظل واقفا لا يريم فقالت فى غضب :

— أخرج ...

فمضى الطفل فى خطوته المتعثرة صوب الباب وقد استدار إلينا بجسده الأعلى وفى

عينيه نظرات التحدى والمقت !

وتشكل تفكيرى منذ كان هذا الحادث وشرعت أرنو إلى المستقبل بغير العين التى اعتدت أن أرنو بها فى الماضى .. لم يعد هو المستقبل السعيد الهادئ الذى طالما رأيته فى أحلامى ! وإنما هومستقبل ينذر بالفشل ويوحى بخيبة الرجاء !

وكان أقسى ما يحز فى نفسى أن أعلم أن طفلا صغيرا هو سبب شقوتى وتعاستى وأننى لا حيلة لى فى مقاومته ومناهضته لأنه يتصل بأمه بأسمى العواطف وأرفعها وأبقاها على الدهر ! وغدا الطفل هو شاغلى الأول .. كما غدوت أنا شاغله الأول كذلك ! وبات وكده أن يعكر الصفو الذى يكون بينى وبين أمه .. وكنت أعجب لدهاء الطفل ومكره المبكرين فما أن يرانى أخلو إلى أمه حتى يطالبها بمطالب لا تكاد تنتهى :

— أمى ... أريد أن آكل ...

— أمى ... أريد أن أخلع الحذاء ...

— أمى ... أريد قرشا ...

— أمى ... أريد أن أنام ..

ولم يكن يرغب فى هذه المطالب ، إذا أحضرت له أمه الطعام عزف عنه واجتواه ! وإذا خلعت له الحذاء عاد فسألها أن تعيد وضعه فى قدميه .. وإذا نقدته قرشا لبزايل الغرفة وقف فى مكانه لا يريم ! وإذا حاولت أن تهدده لينام ظلت عيناه يقظتين كأنه ذئب صغير !

كنا نجلس هى والطفل وأنا ... ثلاثة نفوس مضطربة ثائرة ! هى تأخذها اللهفة على ولدها وتحقد على ! والطفل يغار منى ويحقد على ! بينما كنت أنفس على الطفل حب أمه له فحقدت عليهما معا !

وبدأت تعشش فى رأسى الأفكار السود ! بدا لى أن شعورى بالضجر لأننى تزوجت من ثيب لم يكن أمرا ذا بال بالقياس إلى ما قاسيته من هذا الطفل الذى أنجبته من زوجها الأول !

زوجها الأول ... لم لا يضم هذا الرجل إليه ابنه بعد أن تزوجت أمه ؟ أيها الأصدقاء تدبروا هذه الحقيقة المؤلمة وانظروا كيف أن بعض الرجال لا يفكرون بالمستقبل ! هم يتزوجون وينسلون ثم يطلقون ! ثم تكون هذه النتيجة الوخيمة .. أطفال هجرهم آباؤهم . أو نزحت عنهم أمهاتهم ، فتتمقد نفوسهم الصغيرة ويلقى بهم إلى قلوب غير رحيمة .. وأيد غير أمينة ... وإذ يحرمون من الحنان ذلك النبع الصافى ؛ وهل أملك إلا أن أعترف بأننى كأحد الذين قدر عليهم أن يدفع إليهم بطفل من هذا القبيل ، لم أكن أشعر له فى أعمق نفسى سوى شعور المقت ؟

وأقسم لكم غير حانث أنني حاولت جاهدا أن أجرد من نفسي هذا الشعور البغيض .. ولكن ذهبت محاولتي كلها بددا وقبض الريح !

* * *

هجرت هذا البيت اللعين حالما عثرت على مسكن لنا ... وتنفست الصعداء ... وبدأت أرسم في خيالي صورة زاهية للمستقبل الهانئ السعيد .. هذا هو العش الجميل الذي كانت صورته تومض في خيالي .. ها هو ذا يصبح حقيقة واقعة .. فلا طفل صغير يعكر هناءنا ولا أي شئ ...

ودرجت الأيام ولم أر الطفل ... فتبددت طائفة من هواجسي وأوهامي ... ولكنني من فرط هلعي من الطفل ... تحكمت في نسلي من أمه .. كان قد وقر في ذهني أنها ستغير من طباعها وتبدل من سلوكها متى حملت مني فتطالبني بأن أضم إليها ابنها ؟ وبعد أن يتعقد ما بيني وبينها .. كيف يمكن إلا أن أخضع لإرادتها وأنصاع إلى أمرها ؟

وراحت في أعقاب ذلك تحاول جاهدة أن تكشف لي عن مفاتنها .. وأن تؤكد لي صدق عواطفها ... إلا أن هذا زادني حرصا على حرص ... وأبدا لم أفكر في أن أغير سلوكي معها . فظللت دائما الحريص على ألا أنجب منها أبدا ! وبقيت هكذا وقتا غير قصير موزع النفس مشترك الذهن ... تتنازعني عوامل الثقة بها والريبة فيها . وغدا ما بيني وبينها أعصاب حبيب ! فأينا فقد سيطرته على أعصابه كشف عما استتر من مشاعره ؛ ولكنها كانت حديدية الارادة فولاذية الأعصاب .. ولم أكن دونها صلابة وعزما .. فاستمرت الحرب الخفية بيني وبينها .. وعلى شفتي كل منا للآخر ابتسامة كبيرة !

وأحضروا الطفل بضع مرات إلى منزلي ، وكانوا يتركونه إلى أن يأتي المساء فيعيدونه إلى جدته .. كان هو الطفل الغيور الشرز الذي يلتمس السبيل إلى التحرش بي !

ووقر في ذهني أن والد الطفل لا جرم مجرم ! إنه كان نزازعا . الانتقام شرعته .. والفأس أداة هذا الانتقام ... فما الذي يجعل هذه البذرة لا تنحدر إلى ابنه وتترعرع ! والولد كما يقولون سر أبيه ! أي عدل أيها الأصدقاء في أن أتحمل دونه هذا العبء الكبير ! لماذا يتزوج الرجل وينسل كالحيوان .. ثم يترك ولده مضيعا مهيض الجناح للغرباء ... لئن كان والده برما بابنه فصدور الناس به أشد ضيقا وبرما !

ورأيتني بعد هذا تنمو بنفسي رغبة طائشة ... رغبة مجنونة في أن أضرب هذا الطفل وأعذبه وأشقيه ! .. الطفل الذي

يأ كل من بيتى .. ويغار منى ويحقد على !..
الطفل الذى تتربص بى أمه الدوائر كيما تكرهنى على الإنفاق عليه ! كرهته كراهة مرة .. !

عددته سارقا !. مجرما !. وكنت أشقى الشقاء الكبير عندما أراه يركض فى بيتى على رغم إرادتى كما يركض الأطفال ، ويلهو ويلعب كما يلهون ويلعبون !

حدث أيها الأصدقاء ذات يوم ..
هذا الذى أنا بسبيل أن أقوله لكم ! بعثت به إلينا جدته مصاباً بالتهاب رئوى . وتركت لأمه أن تسهر على برئه وعلاجه . خيل إلى بادئ الأمر أننى جردت نفسى من نوازع الشر ، وأننى نسيت كراهيتى لطفل برئ لا يعى ولا يعقل ! . فذهبت به إلى الطبيب وأحضرت له الدواء وسهرت أمه على حقنه بالمصل الشافى ! ..

ستة أيام أيها الأصدقاء لم يغمض لى فيها جفن ، حتى أشرفت على الهوس والجنون. وهالنى فى ظل مشاعرى الجديدة أن أرى الطفل الذى كان بسبيل أن يموت فيخلو لى الجو مع أمه وتصفو الحياة ؛ تشاء له الأقدار المصرفة أن يبرأ من مرضه على يدى .. وأن يمتد به العمر ليكون الخطر الماثل دائماً لسعادتى وهنائى ! . مسح الله مابه . وزايله المرض ...

وارتدت إليه العافيـة الغاربة ليطالعنى بسحنته البغيضة . وابتسامته الخبيثة من جديد !

وجاءتنى أمه لتقول لى بعد أن غدا سليما معافى :

— سيبقى هنا تحت ملاحظتى وإلا انتكس !

واحتدم الغضب فى صدرى لأننى كنت أنتظر يوم رحيله فى صبر أرعن فصحت بها:

— لن يبقى غير هذه الليلة . أتعرفين ؟

وشاع الغضب فى وجهها وهى تقول

— بل يبقى. وإلا ذهبت معه إلى أمى !

— اذهبى معه إلى الجحيم !

وزايلت المنزل كأشقى ما أكون إنسانا!

وانطلقت إلى الطريق تحتضننا أفكارى !

كانت فى الجو نذر عاصفـة مقبلة من بعيد !

ولكننى ظللت ذاهلا بإفكارى عن العاصفة والوجود والخلق جميعا ! تحقق لى أننى جانبت الصواب حينما لم أقدر عاطفة الأمومة . كنت فى غمرة عاطفتى سادرا فى أوهام الحب وسابحاً فى خيالاته فلم أدرك هذه الحقيقة القريبة !

وبعد أن مضيت على وجهى طويلا فى الطرقات دون قصد ولا غاية .. أبت إلى المنزل لأن السماء أرسلت رعودها وسيولها . ودلفت من فورى إلى غرفة النوم . وأضأت النور .رأيتها مستغرقة فى النوم والطفل بين ذراعيها تتحدى به الموت أن ينتزعه منها .

وراحت الخواطر تتراكب فى ذهنى .. وفجأة برزت من بينها خاطرة فذة.! خاطرة مجنونة!. إن الطفل ما زال فى دور النقاهة .! فلو فتحت الآن نافذة الغرفة على مصراعيها . ونحيت الملابس والأغطية عن صدره المريض. فى هذا البرد القارس والمطر الهاطل لارتد إليه المرض عنيفا قتالا !

أدرت هذه الخاطرة فى ذهنى طويلا وأنا أنضو عنى ثيابى المخضلة بماء المطر . وما كدت أفرغ من خلعها وارتداء منامتى ومعطف المنزل حتى استمليت منها نظرة خاطفة . فرأيتهما ما زالا مستغرقين فى النوم !.

مضيت فى صمت وهدوء إلى النافذة وفتحتها على مصراعيها . أحسست بتيار الهواء يندفع إلى الغرفة باردا قارسا مميتا !

ووقفت برهة ألتقط أنفاسى وأتوقف من البرد . ثم مضيت فى خطوات وانية . فى خطوات مخنوقة إلى الفراش . وفى خفة ولطف نحيت الثياب والأغطية عن جسده ، وفى لحظة كان صدره المتقد المريض يتلقى النفحات الأولى للبرد القاتل !

ومرت لحظات رهيبة راح بعدها الطفل يسعل ، فاذا الزرقة تعلوه ، وإذا أنفاسه تتلاحق ..

كل شىء كان يسير وفق الفكرة الشيطانية التى كانت تعشش فى رأسى ! كل شىء .. وينتهى الأمر !

أيها الأصدقاء لا ترمونى بالوحشية والقساوة . فقد رأيت كم هو رقيق ذلك الحاجز الذى يفصل أشرف الناس وأكرمهم عنصراً عن الجريمة .. لذلك لم أنجز العمل الإجرامى الذى شرعت فيه !

استيقظ ضميرى فجأة واستهولت أن أكون قاتلا أثيما . فاتجهت من فورى صوب النافذة فأغلقتها ، وإلى الطفل فأحكمت تغطيته بالثياب والأغطية ! تم هذا كله فى لحظات مرت كأنها الأبد ! ولما لم تكن بى رغبة فى النوم ولا قدرة عليه فقد دلفت إلى غرفة مكتبى وظللت هناك مسهدا أرقا ... أقلب وجوه الرأى وفى قلبى كآبة كبيرة !

وعندما طالعتنى آخر الأمر تباشير الصباح. كنت قد أجمعت رأيى على فكرة واحدة هى أن أفترق عن الطفل وأمه قبل أن يتمزق ذلك الستار الرقيق الذى يفصلنى كما يفصل أى واحد منكم عن الجريمة

كمال رستم

وأخيراً استجيبت

بقلم الأستاذة زينب الحكيم

لقد طالما أصغيت إلى الصدى المروع لوقع خطواتى فى الممر الخالى ، إنه نغم محزن ، يبعث فى نفسى وحشة أستجير بها من الوحدة ، فيزداد شجنى

يا إلهى أعنى على التغلب على هذه الوحدة الموحشة . وأدرت وجهى نحو باب ملجأ أبناء الشعب ، ورجوت الله تعالى أن أجد رضيعا هذه المرة لأتبناه ، فقد قرأت فى وجه زوجى « هانك هارت » الوسيم شدة ولهه بالخلف عندما تركت المزرعة هذا الصباح ، وقت أن هتف بى « مارجورى » وكأنما عرف تماما ما انتويته فقال : إذا لم تجدى رضيعا هذه المرة أيضا ، فلا بأس من إحضار طفل أكبر . ولكنه إذ صرح بهذا لم يقدر أبدا شدة ولعى وتعطشى لضم رضيع بين ذراعى ، كما لم يقدر تماما شعورى بالضياع عندما تكبر العجول التى فى المزرعة ، ولم تعد تحتاج إلى رعايتى لها . كم رغبت أن يكون لى رضيع حتى ولو اشتريناه من السوق السوداء ، كما فعلت أختى « ليلى » ولكن يا إلاهى ... هل نشترى رضيعا كما نشترى صغار العجول ! إنى إذا فعلت ذلك ورضيت به فإن « هانك » يتأبى

وكرهت مجرد الفكرة أنا أيضا . ولكن ليلا قد تبنت إبنا رضيعا ، وعلقت أملا كبيرا على أن يصون هذا التبنى حياتها الزوجية ، وها قد رحلت موفقة هى وزوجها « ركس » من سنة مضت إلى المدينة محل عمله ؛ وما زلت أنا وهانك بلا ولد هنا ، نعم هنا بالريف الهادئ

وقابلتنى الموظفة المشرفة بالملجأ مقابلة لطيفة ، وأخبرتنى فى ظرف أن الآنسة « شبرد » الرئيسة تنتظرنى ، فنهضت من فورى ، ولم أحاول النظر طويلا إلى صف الكراسى الذى طالما جلست عليه مع مثيلاتى ننتظر الساعات الطوال ، وكانت الكراسى خالية من الجليسات هذا الصباح ماعدا بنية صغيرة جالسة ، يبدو عليها الاستقامة والجد ، وترتدى ثوبا قطنيا جديدا كانت توالى لمسه بأصابعها الدقيقة فى حرص

وبينما نقرت على باب حجرة رئيسة الملجأ رجاء لقائها ، كانت هذه الصغيرة أسرع من

البرق قد وقفت إلى جانب منضدة المشرفة وسمعت الطفلة تسر بالكلمات الآتية فى أذنها : هل أنا هنا لأجد أما وأبا اليوم ؟ أرجو أن يكون ذلك ! وما زلت أسمع الطفلة تسأل هذا السؤال بعد أن دخلت غرفة الرئيسة وأغلقت بابها . وسألتها إذا كان لديها بالملجأ رضيع أتبناه ؟ فنظرت إلى وابتسمت ابتسامة ود ، وطلبت إلى الجلوس لأنها تريد أن تتحدث إلى — ثم أخبرتنى بأنه توجد أزمة بالنسبة للرضع الذين تطلبهم الأسرات للتبنى ، كما توجد صعوبات جد خطيرة لعدم الثقة بإيجاد الوالدين الصالحين لتحمل المسؤولية ، وحدجتنى بنظرة فاحصة دقيقة ، فخفق قلبي وزاد نبضى ، ومضت قائلة : نعم نريد والدين يتبنيان أطفالا كبارا فتغلب على نفسى ملل شامل من جديد ، ولكن عينى الرئيسة اليقظتين ، ونظراتها الثاقبة فتحن طريقا لتفكيرى ، وبددت يأسى ، وفى يسر اختبرت نياتى ، وبلباقة فحصت منزلنا العتيق بالمزرعة عندما زارتنا ، ثم سألتنا فى تعجب لماذا يريد كل إنسان أن يتبنى رضيعا — فى حين يوجد أطفال أكبر ليس لهم أسر ولا والدون ! ثم قالت مخاطبة إياى : أريد مساعدتك ياسيدة (هارث) لأنى أعتقد أن الأسباب التى أبديتها تجعلك جديرة بأن تتبنى طفلا . وتعلمين أننا مطالبون بما يحتاج إليه الأطفال ، ولذلك لا تطمئنى أبدا لإيداعهم بين يدى زوجين يريدان حماية زواجهما بتبنى الطفل فحسب ، أو على حساب أسباب أخرى أنانية ، ولكنى أعتقد أنك وزوجك تفكران فى الطفل ذاته وليس فى نفسيكما ، وعلينا أن نحميكما كذلك ، فسنعطيكما طفلا سليما عقلا وجسما ، وأن بعض النقائص لا تظهر فى الرضيع ، أما مع الطفل الأكبر فأنك تميزين ما ستواجهينه . هل رأيت البنية الصغيرة التى تجلس فى الخارج ؟ فقلت إنى آسفة يا آنسة شبرد فإنى لا أحتاج إلى الطفلة الكبيرة ، وشكرتها وأسرعت إلى الخروج ، وتذكرت قول شقيقتى لى بأنه لا فائدة من الحضور إلى هذا الملجأ ، ولا أمثاله من منظمات رعاية الطفوله ، وكان أجدى الطرق لتبنى رضيع هو شراؤه . وأمسكت بأكرة الباب ودفعته فانفتح بعنف ، وأحسست أنه خبط شخصا ، وقد وجدت فعلا جسما صغيرا فى ثوب أحمر وقد انكفأ على وجهه على الأرض الصلدة اللامعة ، فرفعت الطفلة ، وأوقفتها على قدميها ، واستفسرت عن سلامتها راجية ألا تكون قد أصيبت بأذى ، ولكنى لحظت أن فمها قد تورم واحتقن الدم حوله من السقطة على الأرض ، وبدأ كلامها يثقل

ولـكنها قالت وهى تتحسس ثيابها فى اهتمام وقلق : « هل أتلف ثوبى ؟ إن على أن يكون منظرى حسنا إذا كان لا بد أن أجد أما و — و » ثم توقفت عن الـكلام متلعثمة وأجهشت بالبكاء ، وانتابها رعب نمت عنه عيناها عندما لمست شفتيهـا المتورمتين بأناملها الدقيقة ، ثم ولولت ... فمى ؟ ماذا حدث لفمى ؟ ياويلتاه لن يقبل على الآن أحدا

ولم أكن مفكرة حينئذ ، وإنما كنت شاعرة بخيبة أمل الطفلة وكنت جاثيـة بجوارها أواسيها ، ولم أتمالك أن قلت لها: هل تحبين أن تأتى معى لمنزلنا ؟ فانتشر على وجهها الدقيق شىء من التعجب كما لو كان شعاعا مضيئا خارجا من قرارة نفسها فأضاءه وقالت الطفـلة : أتقصدين بهـذا أنك ستكونين أمى ؟ فقلت يا إلهى ماذا أقول لها الآن وما قصدت إلا أن أسرى عنها بزيارة للمزرعة فقط ؟ ولـكنى قبل أن أجيبها بشىء .. سمعت صوت الآنسة شبرد خلفى ، قالت : كلا يا « جينى » وجـذبت الطفلة إليها ، وضمدت ما أصابها من رضوض فى رفق ، نعم كلا ياعزيزتى فإن السيدة (هارث) لا تعنى أنهـا ستتبناك ، ثم التفتت إلى المشرفة وأمرتها بأن تأخذ الطفلة إلى الطابق الأسفل ، وأن تضع كيسا من الثلج على شفتيها المتورمتين ، وشهدت الإشـعاع ينطفىء ويتلاشى من عينى الطفلة ، ومشت كالدمية التى لا حراك فيها مع المشرفة ، ومرتا من الأبواب المتحركة ، ثم اتجهت إلى الآنسة « شبرد » وقالت : إنها يتيمة لايعرف أبواها ، لقد كان قصدك حسنا ، ولـكن كان من القسوة أن تمنى الطفلة ثم تخيبى أملها ، وشعرت السيدة « هارث » بما وقعت فيه من خطأ لـما نمت عنه عينا « جينى » ، غير أنها خرجت من محاسبة نفسها شبه منتصرة موضحه أنها أنما تتبنى طفلا لغرض حفظ الذكر ، وقد عاهدت نفسها وزوجها على أن يصبرا حتى يوفقا للطفل المناسب ، ولا ضرورة لمالأة الطفلة . على أن هذا لا يمنع من جعلهـا تشعر بأن أنسانا يريدها ، ويحب أن يعنى بأمرها

وأخبرتنى الآنسة « شبرد » عن الطفلة بأنها قدعاشت فى ملجأ اليتيمات مدة طويلة ، وتحتاج إلى تعود حياة المنزل ، ويجب أن تتعلم كيف تعيش فى أسرة تشعر بأنها عضو فيها ، وفرد من صلبها ، حتى لا يصعب عليها ذلك إذا ما سلمناها لمن يتبناها ، ثم ترددت ثانية ولـكنها قالت : لدى زوجان يريدان تبنى طفلة كبيرة بعد عودتهما من المصيف ، فإذا رغبت يا سيدتى أن تضيفى جينى فى المزرعة حتى يعودا تكونين أسديت

معروفا كبيرا لها ، على أن تذكريها دائما بأنها ممك فى أشهر الصيف فقط ، فلم تمانع السيدة « هارت » وصحبتها معها فى سيارة المزرعة ، ولكن كان يشغل بالها ما قد ينشأ لدى زوجها من ولع بالطفلة ، وكيف يمكنها أن تثنيه عن ذلك ! وصممت بينها وبين نفسها على أن تتبنى رضيعا قبل أن تقدم على تبنى طفلة كبيرة ، وأنها ستسلك لذلك أى طريق

وكان اليوم عاصف الصباح بريح عاتيه ، عندما أرسلت السيارة من الطريق الخلفى الموحش نحو المزرعة ، وقد تذكرت ذلك الصباح منذ ثلاث سنوات مضت ، وكنت عائدة من لدن الطبيب لأخبر زوجى عن تقريره الذى يشير إلى عقمى . نعم لم أنس شعور الألم المحض لحرمانى عاطفة الأمومة العملية ، ولن أنسى أبدا ذراعيه عندما احتوياتى ، فكأنما أدخلنى فى سويداء قلبه ، وغمرنى بعطفه ومواساته الصادقة ، بل لقد سرى عنى وهون الأمر بقوله : « سنتبنى رضيعا »

وصبرنا عامين كاملين لعلنا نحصل على الرضيع المناسب ، ولما لم نوفق أشار بأن نتبنى طفلا أكبر ، وحدث أن كنا فى العزبة نتفرج على عجل حديث الولادة ، وبفعل الغريزة وجدتنى أمر بيدى على وبره الناعم وأقول لزوجى ألا تحب كل شئ صغير ؟ فقال فى بطء : إنى أفضل الصغير ، ولكنى لا أكره من زال بعض همهم ، وأحسست من هذا أنه كان يستدرجنى لأمر ما ، وثقل على الاصغاء

وقلت معترضة : كلا ثم كلا إن وقت الرضاعة سيكون متاعا لكلينا إذا ما وفقنا لرضيع قبل أن يبلغ بنا العمر مبلغا . لنذكر لذة ذلك الطور وآثاره العظيمة «ياهانك» وماذا يضطرنا لأن نتعب أنفسنا فى تربية طفل كبير قد كون عادات خاصة ، ونشأ مع ناس فى بيئة تختلف عنا وعن وسطنا ؟ وأغضيت عما كان فى صوت «هانك» من نغمة توسل ، ولكنه قال : إن الرضيع لا يبقى رضيعا لمدة طويلة ، وإنما الزمن الطويل الذى يستغرقه اقتلاع ما اعتاده الطفل من عادات هو المهم ، وإن جعل الطفل يشعر بأنه محبوب وفى أمان ، ومعاونته على النمو الصحيح ، وتمييز نفسه الطيبة ، ثم مساعدته على الاستقلال والتحرر منا ، فهذا ما كان ينبغى أن يكون واجب الوالدين الأول . هذا وإن الطفل فى مراحله الأولى يحتاج إلى الحب والعطف : أما الأطفال الأكبر فهم الذين يحسون كأنهم نبذوا من المجتمع ، وحرموا الاجتماع بقرنائهم ويشعرون بأنه لا سند لهم . قاله

هذا « هانك » فى سخط وتحد ، ثم أردف قائلا :

لنعمل على أن يكون الطفل رشيدا إلى حد ما ، بحيث يعرف ما سيكون مصيره قبل أن يميز له أبا ربما يكون وغدا لا تفوز الأسرة منه بخير كثير ولا قليل ، ولكنى قلت لنفسى : لعله لم يكن جادا فى تبنى طفل أكبر ، ولكنه قد يكون عول على تبنى واحد الآن ، وقد يفرح عندما يعرف فى المستقبل أنى صممت على تبنى رضيع ذكر ، ليكون ابنا ينمو هنا فى المزرعة ، ويحب الأرض والماشية ، ويكون رفيقا صديقا لهانك ، ولنفخر به عندما تعرض مواشينا فى المعرض ، وليرثنا فيما بعد . وركبت سيارة المزرعة على الفور ، وأخذت معى بعض النقود لشراء الزبد والبيض ، كما أخذت الرسالة التى كتبتها لشقيقتى ليلا لتساعدنى على إيجاد رضيع ، وسوف لا يعرف هانك شيئا عن ذلك إلا بعد أن يتم كل شئ .

وحين كنت اتجه إلى الشارع الذى خلف مزرعتنا لأصل إلى الطريق العام المحاذى للمزرعة نظرت إلى جينى وكانت تجلس فى سكون تام إلى جانبى ، وكانت أصابعها الدقيقة تلمس ثوبها الجديد فى فترات متقاربة وبحالة عصبية ، فابتسمت لها وقلت : لقد وصلنا إلى منزلنا مجتازين الشارع الجميل العامر بالأشجار الباسقة ، فوقفت السيارة ، وظهر فى عينيها شئ من التعجب ثانية وقالت : إن هذا البيت يشبه المنزل الذى قرأت عنه فى بعض القصص ! وقابلنا هانك قرب المزرعة وابتدرنا فقال : حسن يامارجيرى لقد وفقت . فقلت له مقاطعة : هذه جينى حضرت لزيارتنا . وقالت الطفلة : سأبقى معكما الصيف كله ، ونظرت إلى قلنسوة هانك الرمادية ثم قالت :

إن شعرك يقف كما يقف شعرى أحيانا .

فقال : إن هذا التشابه يجعلنا من مشرب متشابه بلا ريب ، ثم قال مستفسرا : بربك أخبرينا ما الذى جعلك تظنين بأنا سنتركك تذهبين عندما ينتهى الصيف ؟ وكان فى صوته نوع من الشدة ، وابتعدت جينى عنه خطوتين فى قلق ، كما شعرت مارجيرى بغضب وعدم صبر فى نفسها جعلها تحنق على رئيسة الملجأ التى حملتها مسئولية جينى ولكنها على أية حال هدأت من روع الطفلة ، وطلبت من هانك أن يفرجها على صغار العجول ويلهيها حتى تطهو دجاجة للغداء ، فصحب الطفلة كما أمرت زوجته بعد أن حدجها بنظرة ذات معنى ، ورفع الطفلة إلى كتفيه فسرها ، وخرجا للمرعى . فلما تناول طعام الغداء ظهرت على وجه زوجته تلك النظرة .. نظرة الاتهام ، وطلب إلى الطفلة أن تذهب

لتكتشف المزرعة ، ثم قال لزوجته : لم يكن من العدل نحو هذه الطفلة أن تحضر هنا، فبدأت مارجيرى توضح لماذا أحضرتها ، وأكدت أنها لا تستحسن فكرة رئيسة الملجأ ، فإنها إذ تعتاد على المعيشة معنا ، سيكون من المسير أن تنتزع لتعيش مع غرباء ، ولكنها أرادت أن تمرنها على الوجود فى أسرة بحالة طبيعية قبل أن تتبنى

فقال هانك وكأنما لم يستمع لما قلت : إن الطفلة تألفنا بسرعة ؛ وقد لفت نظرى هذا فى اللحظة التى رأيتها فيها لأول مرة ، كما حدث لى تماما عندما رأيتك لأول مرة ، بل أكثر من هذا أراها تشبهنا ، لهذا يحسن أن نخبر الآنسة شبرد بأننا نريد أن نتبناها . فارتج على مارجيرى ولم تدر ماذا تقول ، ولكنها صممت على عدم مفاتحة الآنسة شبرد فى الأمر . وعلى حين فجأة التمعت نظرات هانك فى عينى مارجيرى ، وقال : إذا كنت حقا تحبيننى فلا تعرقلى تبنينا هذه الطفلة . وتمتمت مارجيرى ... إذا كنت أحبه ! عجبا لقد جمله شدة ولعه بأن يكون له طفل غير متزن التفكير ، وأكدت فى نفسها قائلة : لا شك أنه سيصلح ، وسينسى جينى عندما يكون لنا رضيع أجمله يحبه ويحبنى أكثر ، وأسرعت بكتابة رسالة أخرى لأختى ليلى لتعجل بمساعدتى على شراء رضيع كما فعلت.

وجاوبتنى برجوع البريد ، فى بضعة سطور أوضحت فيها أنها ستحضر لرؤيتنا أقرب مما نقدر ، وأنها ستساعدنا على الحصول على رضيع . ولم تذكر شيئا أكثر من هذا ، مما جعلنى أرتاب فى أمرها لما قرأته من بين السطور غير المنتظمة ، وزاد قلقى عليها أنها لم تذكر شيئا عن زوجها ركس — يا لله ! هل يمكن أن يكون وجود الرضيع معهما قد وسع الهوة بينهما بدلا من تضييقها ؟ حقا لقد أصابنى قنوط وحسرة . ومزقت الرسالة حتى لا يراها هانك . . يا إلهى لقد أصاب شقيقتى ما أصابنى ، وكنت مشفقة عليها منذ أحضرت جينى إلى منزلنا ، فقد انصرف عنى زوجى كلية ، واكتفى بصحبتها ، وأهملنى إهمالا مروعا شعرت معه بالوحدة المريرة ، وآلمنى افتقاد عطفه كأنما تحول قلبه وبعد عنى مسافات طويلة ، وشعرت بالوحدة أكثر وأكثر فى الأسابيع التى أتت بعد ذلك ، فدرست الموقف ، وأدركت أن هذا التحول كله يرجع إلى وجود الطفلة جينى بيننا ، فقد التصقت به وتعلقت بصحبته بحيث أخرجت أنا جملة من الحساب ، بل لقد أغرمت به وتبعته فى كل خطواته طوال اليوم ، ولكنها معى كانت لاتزال حيية ،

على أنها أحبت الثياب الجديدة التى صنعتها لها ، والتى لا ترتديها إلا عندما تذهب إلى الكنيسة ، وتكتفى بالنظر إليها كل ليلة وتطمئن عليها قبل أن تلزم فراشها ، وتنظر إلى فى الوقت نفسه ، كأنما تأمل فى تضرع أن أزيد من حبى لها ، حتى تبقى معى .
وحدث ذات ليلة وأنا أودعها فراشها أن تعلقت برقبتى قائلة : إنى أعجب كيف كان منظر أمى ! قالت هذا فى نبرات متهدجة منخفضة ، فصعد الدم من قلبى وكاد يخنقنى من شدة التأثر ، وأمسكت بيدى ووضعتها على خدها وقالت : لا شك فى أنها كانت تشبهك ، ففاض الدمع من عينى وأنا أقبلها وأحييها تحية المساء لتنام ، وأسرعت إلى الخروج من الحجرة ، ووجدت زوجى فى الردهة ، وأعتقد أنه سمع كل شىء ، ولكنه لم يذكر لى شيئا عن ذلك حتى نزلنا إلى الطابق الأرضى حيث قال : إنه ليؤلمنى كثيرا الطريقة التى تحاول بها جينى أن ترضينا . إنها تريد أن تكون منا ، وحقا سيكون من العسير على فراقها . وساد صمت عميق بيننا ونحن فى طريقنا لنجلس فى الشرفة . ولقد كانت مفاجأة غريبة أن نرى نوز عربة تشق الطريق بين أشجار السرو الباسقة ، وأدهشنى أن رأيت شقيقتى ليلى تنزل من العربة حاملة الرضيع بين ذراعيها عجبا لماذا لم تخبرنا بمجيئها حتى كنا نستقبلها على المحطة ؟ ولحظت على وجه هانك السؤال نفسه . وهو يحمل حقائبها إلى الطابق العلوى .

إنه كان يحب ليلى ويحترمها على الدوام ، ولكن نظرته إليها فى هذا الموقف كانت أشد تحفظا .
وسلمت على قائلة : أرجو المعذرة من إزعاجك بهذا الشكل على غير موعد . وفى الحق أننى لم أفكر فى شىء سوى سرعة مجيئى إليك .
وظهر عليها شىء من الضعف والتحول ، وبعض العجز والهزيمة ، كما ظهر عليها الوهن من حمل الرضيع المستغرق فى النوم
فاسرعت إليها وحملته عنها ، وقلت : لا ينبغى أن تعتذرى فأنت حرة تحضرين إلى متى شئت فى أى وقت . وشعرت بأن الحمى تنتاب الرضيع وتشل حركته ، فضممته بشغف ، ففتح عينيه ، ونظر إلى تائها ، ثم أغمضهما فى ثقل ، ولكنه بقى مطمئنا بين ذراعى . كانت تنظر إلى « ليلى » فى هذه الأثناء ؛ وعلى وجهها مسحة ألم ظاهر ، وسألتنى فى صوت حنون : أتحبينه ؟ قلت : نعم ، إنى أحبه لدرجة أنى أود لو تبنيته . قلت هذا ونظرت إليها فى صمت ، فقالت فى صوت عميق متهدج : هذا هو ما دعانى للحضور إليك لأعطيك ابنى ، فأنى وركس سنفترق ونفض شركة الزواج بيننا ، وكان

يحسن بنا ألا نتبنى ابنا ، فلم نكن نصلح أن نكون أبوين ، وقد كره زوجي أن يربطه أي قيد ، حتى لقد ضايقه الوقت الذى كنت أصرفه مع الولد مهما كان قصيرا .

وعلى أية حال لقد قضى الأمر ، وأنا أفكر فى الطفل وحده الآن ، فقد حرمته من حق الوجود فى الأسرة التى يتحد فيهـا الوالدان على حب الأبناء بإيثار ، فقد أحب أحدهما الآخر أول الأمر هـذا الحب فقالت مارجورى : ولـكنك تحبين الولد فلماذا لا تحتفظين به ؟ ولا سيما أن ركس سينفق عليكما ، أليس كذلك ؟ فقالت ليلى بتأثر : لا أعتقد أنى أستطيع الاعتماد عليه ، لشدة ولعه بلعب القمار فضلا عن أن هناك امرأة تضايقنى كلما تخلصت منها ، وإلى جانب هذا .. فان كل طفل يحتاج إلى أب فلا ترتاعى ، واطمئنى من جهتى فلن أطالبك به بعد الآن . ويمكنك أن تتبنيه رسميا وهو لحسن الحظ صغير ، ولن يذكر أنى تبنيته تلك الفترة القصيرة فشعرت حين صرحت بهذا أن الحظ قد هبط علينا من السماء ، ولم أصدق أن هذا الرضيع الذى بين يدى حقيقة موجود معى ، ولا أنه سيكون ابننا حقا !

ونظرت إليه وسالت دموعى شكرا لله ثم كانت عينا جينى على حين فجأة تنظران إلى فى حيرة ويأس ، وتذكرت قولها : لعمرى كيف كان شكل أمى! ولا إخالها إلا تشبهك .

لقد شعرت بوهن شـديد انتابنى فى صباح اليوم التالى ونحن نتناول طعام الإفطار عندما شاهدت جينى تلتهم كمية كبيرة من البيض المقلى والبسكوت الساخن ، ونظرت إلى فى جد قائلة : إنك طاهية ماهرة ، ولم أستطع مواجهة نظرات زوجى ، وقصرت مشاهداتى على قفزات الطفلة وحركاتهـا بعد الإفطار وهى بجانب هانك بقرب حظيرة الماشية وهو مشغول يسوس العجول استعدادا ليوم المعرض ، وكان صوتها الذى ينم عن طفولتها يملأ صداه هواء الصباح الصافى قائلة : ستفوز (بتشا) العجلة اللطيفة بالجائزة ، فشعرت بألم ممض فى أعماق عندما عدت إلى داخل المنزل وكانت شقيقتى ليلى والرضيع وأنا لا نزال بالطابق الأعلى ، واشتد انزعاجى عندما سمعت عربة الآنسة شبرد رئيسة الملجأ تقف أمام البـاب . وعندما ذهبت لاستقبالها وجدت زوجين فى منتصف العمر قد حضرا معهما ، امرأة نحيفه ضئيلة الجسم شعرها ذهبى فاتح ، ولها أنف دقيق ، ورجل نحيل متحفظ متردد ، وقف ساكنا ينتظر أن تبدأ زوجته الحركة الأولى . وأدت الآنسة شبرد مهمة التعريف : هذه السيدة «هارت» وهذان السيد باركر وزوجته ، اللذان سبق أن حدثتك عنهما . لقد حضرا لرؤية جينى

فأشفقت على الطفلة المسكينة ، ولكنى شعرت أنه ليس من واجبى أن أختار أبويها فإن الآنسة شبرد أعرف منى لهذه الأمور وأشد حرصا ، على أنه انتابتنى رجفة سرت فى جسمى على الرغم من وجود حرارة الشمس التى كنا نمشى تحت أشعتها نحو الحظيرة ، حيث كانت تقف جينى إلى جانب بابها المفتوح ، تلعب وتمرح بحرية وانطلاق فى المزرعة ، وتداعب العجول برش الماء عليها بالفرشة من أناء كبير ، فلما وصلنا إلى الحظيرة قالت السيدة باركر : ما كنت أعلم أن لك ابنة ! وما رأيت قبل الآن طفلة شابهت أباها مثل ابنتك هذه . فضحكت فى بساطة ولم أعلق بشئ ، وإنما عجبت لتطفلها ؛ ووثبت جينى فجأة كما لو باغتتها إحدى الزواحف المضرة ، وأخذت تنظر إلى آل باركر بانفعال وروع طارئ على وجهها ، لعل المسكينة قدرت ما هناك ! وأوضحت الآنسة شبرد أن آل باركر حضرا ليريا جينى ونظرت السيدة باركر إلى زوجها نظرة ريب قائلة :

لست أدرى ، وحسبى أن ينشأ مع أى طفلة كبيرة عادات رديئة تظهر فيما بعد ، وربما كانت هذه الطفلة من ذلك الطراز ، ولكنها ضغطت على كلماتها بعد أن فطنت إلى وجودى بجوارها ، وعادت فأوضحت استغناءها عن فكرة التبنى ، فنظرت إلى جسم الطفلة القوى الدقيق ، وتذكرت قول زوجى مرة ثانية « أن فراق « جينى » سيكون كما لو ضحيت بلحمى ودمى . » وتأثرت أشد ما يكون التأثر من موقف السيدة باركر الذى أصابنى فى الصميم كالسهم المسموم ، وقلت : إن جينى ليست من بناتنا ، ولكننا نعاملها كابنتنا ، وأنى أعرف الآن كيف صدق قول « هانك » بأن مسئولية الأمومة ليس معناها مجرد حمل الرضيع بين الزراعين ، والشعور بعجزه واعتماده على غيره . إن الأمومة الحقة معناها معاونة الطفل على مساعدة نفسه ، وتهيئة الجو الملائم للصغير لينمو صحيحا عقلا وجسما واجتماعيا بما يتناسب وطبيعته ، وليكن بعد ذلك حرا

أن ابن « ليلى » فى حاجة إلينا أيضا وسيكونان ابنينا . وسألت الآنسة شبرد إذا كانت تأذن للطفلة أن تختار أبويها ؟! وراعتنى الطريقة التى حدجتنى بها ، ولكنى مع ذلك رأيت فى عينيها شيئا من الاطمئنان . وزاد عجبى من أمرها ، ولكنى ارتبت كثيرا فى أنها أحضرت آل باركر بقصد تسلم الطفله . وأغلب الظن أنها أرادت أن توقفنى شخصيا على حقيقة شعورى بالنسبة للطفلة ، فهى سيدة مجربة . ونسيت وجود آل باركر ، وكذلك وجود الآنسة

لوسى

للقصصى الإنجليزى سومرست موم
بقلم الأديب عبد الوهاب مجاد

كانت ، إذا غبت عن مجلسها ، لا تذكرنى إلا بلاذع القول ، وقارس الكلم . وما كنت أستغرب ذلك منها . فإن لوسى كانت تبغضنى وتضيق بى. وبرغم ذلك كله كانت دائمة الاحتفال بى ، شديدة الانشغال بأمرى . أما مصدر ذلك الاحتفال ، وسبب ذلك الانشغال فقد كان سدا مغلقا دونى . ولكن مزيدا من رقة ، وفيضا من حياء كانا يمنعانها أن تصرح أمامى برأيها فى . وحتى ذلك ما كان يحول بينها وبين ما تهدف إليه من معنى وما تقصد إليه من رأى ، فهى تصل إلى ما تريد بالنظرة العاتبة أو الإيماءة الرشيقة أو التنهدة الحرى

عاشرت لوسى خمسة وعشرين عاما فوجدتها طرازا من النساء فريدا ، ولونا من الحسان طريفا ؛ فهى لا تعرف للعشرة الطويلة قيمة ، ولا تحفظ للود حرمة ، وقد كنت فى نظرها رجلا غليظ القلب ، بليد الإحساس ، سقيم الوجدان ، ساخرا بالدنيا ، هازلا بالناس ، ولم يكن ليعجبنى ذلك الرأى منها بقدر ما يعجبنى تعلقها بى ، وانجذابها نحوى ، فهى لا تفكر مطلقا أن تخلى بينى وبين نفسى ، ولكنها كانت دائما تلاحقنى بدعواتها للغداء أو للعشاء أو للشاى ، وفى بعض الأحايين كانت تهيئ

شبرد فى اللحظة التى جثوت فيها على ركبتى بجوار جينى لأخفف من يأسها ، وأؤمن خوفها ، وأطمئنها بأنها ابنتنا ، نعم ابنتنا التى لن نسمح لأحد أن يأخذها منا ، إلا إذا أبدت هى رغبة أخرى ؛ وقلت لها ولكنك تريديننا أليس كذلك ؟! فحملقت الطفلة فى وجهى وابتهج وجهها كشروق الشمس فى اليوم الصحو ، وارتمت بين ذراعى . ونادتنى : أمى ، أمى ، فى صوت خافت فرح ، وهكذا نادتنى لأول مرة ، بينما كان هانك ينظر إلينا كأنما نقيم فى سويداء قلبه . ولم استطع مغالبة دمعى الذى انهمر من عينى ؛ ولكنها كانت دموع الفرح ، كانت دموع السلام ، كانت دموع الاستجابة

زينب الحكيم

لى فى أجازة آخر الأسبوع برنامجا لطيفا فى بيتها الريفى الجميل

وأخيرا اكتشفت سر ذلك التعلق والانجذاب ، ولم يكن غير الشك والظن : الشك القاتل الذى يقلق مضجعها فى أننى لم أكن أثق بها ، والظنة المبرحة التى تثير أعصابها أننى لم أكن أومن بها . وهذا الشك وهذه الظنة هما الشىء الذى كان يفضى إليها وفى الوقت نفسه يربطها بى . وكيف لها أن ترتحى أو تستريح منى وأنا الأوحد بين الناس الذى لم يكن يرى فيها غير أضحوكة وملهاة ، وقد يصح أنها كانت تحس إحساسا خفيا أننى كنت أبصر وجهها الحقيق وراء ذلك القناع التنكرى الذى كانت تبدو فيه ، فما كان يقر لها قرار ، ولا يهدأ لها بال حتى ترانى قد أخذت القناع على أنه الوجه ولكن هيهات لما تريد !

ما كنت لأجزم بأن لوسى كانت مدعية مفترية ولكنى كنت دائما أسائل نفسى : أأفلحت هذه المرأة فى خداع نفسها كما خدعت الناس من قبل ، أم هى جذوة من دعابة وروح من فكاهة استقرت فى أعماقها تحبب إليها ما تفعل ، وتزين لها ما تقول ؟! وإذا صح ظنى هذا الأخير فربما كانت لوسى تنجذب إلى بوصفى صديقا لدودا لها يقاسمها سرا تخفيه عن الناس أجمعين !

وترجع صلتى بلوسى إلى ما قبل زواجها يوم كانت فتاة صغيرة هزيلة مرهفة رقيقة نحيلة وإنى لأذكر عينيها تينك الواسعتين الجميلتين وقد غشتهما سحابة حزن تزيدها جمالا على جمال . وأذكر أن والديها كانا يفتنان فى تدليلها ورعايتها ، ويتنافسان على حبها ومرضاتها . وأذكر أن مرضا أصابها أغلب ظنى أنه الحمى القرمزية ، أورثها قلبا واهيا واهنا مضعضعا ، وكان عليها أن ترفق به وترعاه ما استطاعت إلى ذلك سبيلا

ولما جاءها (توم ميتلاند) خاطبا روع والداها واضطربا ، فاعتقادها أن قلبها كان أضعف من أن يدبر بيتا أو يتحمل عبأ ، وأن جسمها كان أوهن من أن يقوم على زوج أو يسهر على ولد ؛ ولكنهما لم يكونا على سعة من العيش مثلما كان توم . ثم أن هذا قد أكد لهما أنه مسخر نفسه وما تملك لإسعاد لوسى وإمتاعها ، فلم يجدا بدا من أن يحملوها أمانة فى عنقه ، ووديعة بين يديه

كان توم ميتلاند قويا جميلا ، وكان ضخما طوالا ، وقد توله فى حب لوسى وتدله ، واعتقد كما اعتقد غيره من الناس أن عمر لوسى معه ، بقلبها ذاك الضعيف الواهن ، سيكون كعمر الزهر أو أقصر ، ولذا أمضى العزم على أن يجعل من أيامها القليلة معه رغدا وبرا وسعدا ، هجر توم أحب أنواع

الرياضة عنده ، ولم ترغب إليه لوسى فى ذلك إذ أنه كان يسرها أن تراه يخرج للصيد أو الجولف . ولكن نوبة القلب كانت تغشاها كلما هم أن يتركها أو يبعد عنها ، ففتنه ذلك فى رياضته وصده عنها

وقد يختلفان فى أمر من أمور الدنيا ، أو فى مسألة من مسائل البيت فتكون لوسى هى المذعنة الخاضعة ، فهى أطوع زوجة يحلم بها رجل ولكنها ما تكاد تنصاع لما يرى زوجها حتى يصرعها « القلب » فتلازم فراشها أسبوعا أو نحو أسبوع ؛ ثم بعد ذلك يتجادلان فيما اختلفا فيه من قبل جدلا رفيقا ، فما يقدر توم أن يصرفها عما انصاعت إليه إلا بعد لأى شديد

شاركتها وتوم ذات مرة فى رحلة خلوية قصيرة كانت إليها مشوقة ، وقد نعمت بها وابتهجت ، ومشت فيها أميالا ثمانية ما ارتفع لها صوت بشكاة ، وفى ذلك قلت لتوم :

« إنها أصلب عودا مما تحسب ويحسب الناس »

ولكن توم هز رأسه هزة من لا يوافق وقال لى :

لقد عرضت على أبرع أطباء القلب فى العالم ؛ واتفقوا جميعا على أن حياتها معلقة بخيط واه ولكن لها روحا لا تقهر

وقد سمعت لوسى مقالتى تلك منه فقالت لى :

« غدا سأدفع الثمن غاليا ، وسوف أذوق طعم الموت علقما »

ولكنى رددت عليها :

يقينى أنك دائما قوية جدا لتنهضى بما تريدين

وتلك حقيقة ، فقد كنت ألاحظ أنها تغشى الحفلة الساهرة ، تروق لها فترقص فيها وتمرح حتى الصباح . وتغشى الحفلة الساهرة تظلم أمامها وتثقل عليها ، فتشعر بأسقام الدنيا تبرح بها ؛ فيضطر توم أن يعود بها إلى البيت مبكرا . أما ردى عليها فأغلب ظنى أنه لم يقع فى نفسها موقعا حسنا ، فقد رأيت فى وجهها ابتساما متكلفا ورضا مصطنعا . ولكن عينيها الزرقاوين الجميلتين كانتا تقدحان شررا ، ثم إنها لم تستطع أن تحكم نفسها أو تزجر لسانها فانطلقت تقول لى :

« لكأنى بك تنتظر حتى أسقط مغشيا على ، فأموت لتسر وترضى »

ولكن لوسى لم تسقط ، ولم يغش عليها ولم تمت ، ولم أسر أو أرض ، فقد عاشت حتى وارت توم فى التراب

لاقى المسكين حتفه فى رحلة نهرية اشتد فيها الصقيع وقرس الماء ، واستأثرت لوسى بالأحفة والأغطية من دونه . فراح توم

ضحية لنزلة ذلك البرد

مات توم وقد ترك لها ثروة طويلة عريضة وطفلة صغيرة جميلة . ولا شك أنها رزئت بموته، ولكنها استطاعت أن تغالب أحزانها فى صبر جميل . وكان أهلها وأصدقاؤها جميعا يرون أن لحاقها بزوجها أمر وقت لا أكثر . فكانوا يرثون لأريس طفلتها تلك الصغيرة الجميلة . ولكنهم لا يلتفتون فى ذلك الوقت لأريس بقدر ما يلتفتون لأمها لوسى ، فهم جميعا مشغولون بها ، فما كان لها أن تحرك أصبعا أو تنشط قليلا ، وكيف لهم أن يخلوا بينها وبين الحركة والنشاط وقد رأوها بأعينهم تسقط صريعة نوبة القلب ، وتقف على عتبة الموت كلما أخذت نفسها بعمل فيه تعب

* * *

لقد أصبحت لوسى فى حيرة من أمرها : فلا ذراع قوية تتكئ عليها ، ولا صدر رحبا تسكن إليه ، وكيف يتأتى لها تربية تلك الصغيرة أريس وهى على ماهى عليه من سقم . هكذا كانت تقول لمن حولها من الأهل والأصدقاء ، فيسألها هؤلاء وهؤلاء : لم لا تتزوجين ثانية ؟ فتجيبهم أن ذلك أمر لا يمكن أن تفكر فيه أو تفعله وهى فى مرض قلبها. وتزيد على ذلك بأن روح توم العزيز لا شك مباركة أمراً كذلك لو تم ، وربما كان زواجها خيرا ورحمة بأريس لو أقدمت عليه . ولكن من يجرؤ أن يحمل بنفسه مسئولية الزواج من امرأة ارمضت جوانحها الآلام ؟

والغريب من الأمر أن أكثر من فتى تقدم ليحمل تلك المسئولية الضخمة — مسئولية الزواج من لوسى !

وبعد سنة من وفاة توم كانت صاحبتنا تسرع الخطا نحو مذبح الكنيسة لتعقد قرانها على جورج هوبهاوس

وكان جورج فتى رائع القوام ، سمح المحيا . ولم أر رجلا يقر بالفضل ويعترف بالجميل كما كان جورج يفعل وهو يقترن بتلك الأرملة الصغيرة الهزيلة . كانت تقول له :

« سوف لا أعيش طويلا يا جورج ، وسوف لا أكلفك من أمرك رهقا »

وكان جورج جنديا طموحا . وكانت لوسى فى عنايتها بصحتها تقضى الشتاء فى مونت كارلو ، وتقضى الصيف فى دوفيل . وقد تردد جورج قليلا أو كثيرا وهو يهم بترك عمله . وكانت لوسى فى بادئ الأمر لا تسمع إليه وهو يعرض لحديث الاستقالة ولكنها خضعت آخر الأمر ، كما كانت تخضع دائما ، واستقال جورج من الجيش ثم أصبح ولا شغل له إلا راحة لوسى

وإسعادها !

وفى السنتين أو الثلاث التى أعقبت زواجها من جورج رأيت لوسى ، بالرغم من ضعف قلبها ، تتزين فى تبرج ، وتغشى الحفلات فى مرح ، وتقامر فى جنون ، وترقص فى طرب ، وتداعب الشباب فى دل وتيه

ولم يكن جورج هوبهاوس فى قوة زوج لوسى الأول ؛ فكان يضطر من ساعة لأخرى أن ينعش نفسه بشراب قوى يعينه على عمله اليومى المضنى ، بوصفه زوج لوسى .. الثانى ! وكان محتملا أن تتحكم عادة الشرب تلك فى جورج فتغضب لوسى وتقلق . ولكن لحسن الحظ شبت نار الحرب ، فالتحق جورج بفرقته من جديد ولم تمض شهور ثلاثة حتى جاءها نعيه

***

فدحتها الصدمة . ولكنها استجمعت قواها وقررت ألا تستسلم للأحزان فتعصف بها الأحزان ، وألا تجتر الآلام فتصرعها ؛ ثم رأت أن تجعل من كرمتها الصغيرة فى مونت كارلو مستشفى يستقبل الضباط الناقهين ، ويشغلها عن دنياها تلك الخاوية الباكية ... وكان جميع أصدقائها يؤكدون لها أنها لا تقدر على كل تلك الجهود والاعباء ولكنها كانت ترد عليهم :

إنها ستقتلنى . وأنا أعرف ذلك . ولكن ذلك لا يمكن أن يثنينى عن القيام بدورى مهما كان صغيرا

ولكن الجهود لم تضنها ، والأعباء لم تقتلها ، بل بقيت دائما كما كانت قبل أن تقرعها الخطوب . وعاشت عمرها كاملا وكان بيتها فى مونت كارلو من أشهر بيوت النقاهة فى فرنسا ، وأوسعها صيتا ؛ وأبعدها ذكرا ، جمعتنى بها المصادفة مرة فى باريس ، وكانت تتناول الغداء فى مطعم بصحبة شاب فرنسى جميل ، وقد علمت منها أنها تزور باريس فى شأن من شئون مستشفاها ، وذكرت لى فيما ذكرت أنها سعيدة جدا مع ضباطها الناقهين ؛ فهم جميعاً يعرفون قصتها فيشفقون على قلبها الضعيف ومزاجها الرقيق ؛ فما يدعونها ترهق نفسها بعمل مضنى أو أمر ثقيل ؛ وكلهم يرعونها ويرثون لحالها ؛ كما لو كانوا جميعا أزواجها ! ذكرت لى ذلك ثم أعقبته بتنهدة حرى أرسلتها فى الهواء ! ثم جعلت تقول:

ما أتعسك ياجورج ! من كان يظن أننى بقلبى هذا الكسير الضعيف المثخن بالجراح ، يمتد بها الزمن حتى أواريك التراب ؟! فقلت لها :

وما أتعس توم أيضا ! . ولا أعرف لم لم تسر لذكر توم . ولكنها قابلتنى بابتسامة

صفراء باهتة. ثم رأيت عينيها الزرقاوين الجميلتين تسحان بدمع سخين . ثم أخذت تقول لي :

إنك تبدو كمن يحسدني على الأيام القليلة التي أقدر أن أعيشها ! فرددت عليها قائلا :

ولكني أظن أن قلبك تحسن . أليس كذلك ؟ فأجابتني :

لن أصير إلى خير من ذلك مطلقا . لقد كنت في زيارة متخصص كبير هذا الصباح ، وقال لي يجب أن أكون مستعدة لأسوأ الظروف والمفاجآت ! فقلت لها :

أجل ! لقد كنت مستعدة لذلك طيلة العشرين سنة الأخيرة ..

***

ولما وضعت الحرب أوزارها ، استقرت لوسي في لندن . وكانت يومئذ في أواخر شبابها وأوائل كهولتها ، شاحبة الخدين ، واسعة العينين ، نحيلة الجسم ، هزيلة الأعطاف ولكن سنها لم تبد يوما واحدا أكثر من الخامسة والعشرين

وكانت أيريس ابنتها في ذلك الحين طالبة بالمدرسة . قد اكتمل عودها وامتلأ جسمها وقد جاءت لتعايش أمها . وكانت لوسي تقول :

إنها سترعاني وتقوم على أمري . وقد يثقلها أن تلازم سيدة عليلة سقيمة مثلي . ولكن أيامي معها لن تطول ، فسوف لا تتبرم بذلك أو تشقى .

كانت أيريس فتاة دمثة الخلق ، حلوة الطبع ، رقيقة الشعور ، وقد شبت وهي تسمع أن صحة أمها في خطر دائم . وأن لا شيء مطلقا يجب أن يمكر صفوها أو يقلق خاطرها وكانت لوسي تقول إنها سوف لا تسمح لفتاتها الصغيرة أن تضحي بنضرة شبابها وزهرة أيامها في سبيل امرأة عجوز مثلها . ولكن قولها ذاك لم يجد عند فتاتها الطيبة أذنا صاغيا أو قلبا واعيا ، فالأمر عند إيريس لم يكن أمر دين تفي به لأمها ، ولم يكن أمر تضحية تبذلها لصحتها .. وإنما كان سعادة وفرحة ورضى تحسها جميعا وهي تسعى لتسعد أما عزيزة بائسة كأمها

وبين التنهدات والزفرات كانت لوسي تسمح بأن تضحي كثيرا ، وتضحي دائما ..

كانت لوسي تقول : أن أيريس تسر كثيرا إذ ترى نفسها قد شبت عن الطوق ونضجت وصارت شيئا كبيرا يعمل فينفع . وكنت أسألها :

ألا ترين أنه يحسن أن تعطى الصغيرة فرصة أكبر لتذهب هنا وهناك — تروح عن نفسها ، وتلعب مع لداتها ، وتنعم بوقتها وشبابها ؟ فترد على لوسي :

ذلك ما أقوله لها دائما . ولكني قد عجزت أن أجعلها تسعد بأيامها ، وتنال من الحياة أطايبها وثمارها .. فأيريس لا تسمع لي

كلاما . والله وحده يعلم ما إذا كنت أرغب أن أرى أحدا يشقى لأجلي أو يضحي بحياته لحياتي . ولكني عندما عاتبت أريس على مسلكها ذاك قالت لي :

يا لأمي المسكينة ! إنها لترغب إلى أن أزور صديقاتي ومعارفي ، وأن أغشى السهرات واشترك في الحفلات ؛ ولكني ما أكاد أهم بمغادرة البيت حتى يصرعها قلبها — ذاك العليل . ولهذا فأنا أفضل دائما أن أبقى بجوارها أقوم عليها وأرعى حالتها

***

وكانت سهام كيوبيد قد عرفت طريقها إلى قلب الصغيرة أريس . وكان فارسها شابا رقيقا من أصدقائي . ولما طلب إليها أن تتزوجه وافقت على ذلك وارتاحت إليه . وقد اهتززت للنبأ وطربت . فأريس كانت أثيرة عندي ، وكنت سعيدا جدا إذ أن زواجها كان سيهيء لها حياة أسعد وأجمل من حياتها مع أمها . ولكن صبحا يصبح وإذا بخطيبها ذاك يأتيني محزونا كئيبا ليخبرني بأن زواجه قد تأخر إلى أجل غير مسمى . إذ أن أريس قد شعرت بأنها لن تستطيع أن تتخلى عن أمها . وبالطبع أن الأمر لم يكن أمري . ولكن وجدت نفسي أقرع باب دار لوسي . وكانت يومئذ قد تقدمت بها الأيام وبدت عليها آثار السنين ، وأحاطت نفسها بجماعة من الأدباء والكتاب والفنانين يغشون ندوتها كل يوم في الأصيل ، يتناولون أقداح الشاى ويتجاذبون أطراف الحديث أشتاتا وألوانا

قلت لها بعد أن استقر بي المقام قريبا منها :

سمعت أن زواج أريس لن يتم ! فقالت لي :

أنا لا أعرف من أمر ذلك شيئا . ولكن أريس تبدو كمن لا تريده قريبا . وقد توسلت إليها ألا تفكر في أمري . ولكنها تصر وتحرص على ألا تتركني وحيدة في محنتي هذه ! فسألتها :

ألا ترين في ذلك سحقا لقلبها ، وعصفا بحبها ؟ فأجابت :

صحيح ما تقول . ولكن الأمر لن يطول فما هي غير شهور وأكون قد فارقت هذه الدنيا . وشد ما يحزنني أن أرى أحدا يضحي بشيء من أجلي . فقلت لها وقد عيل صبري :

عزيزتي لوسي ! لقد واريت الثرى زوجين ولا أرى ما يمنعك أن تلحقيهما باثنين آخرين !

فحدجتني بنظرة ملؤها الخبث والمكر وجعلت تقول : أترى في كلامك هذا مزحة أو دعابة ؟

فقلت لها : ألا يدهشك يا لوسي أنك ترغبين في الأمر فتندفعين إليه كالإعصار لا تلوين على شيء حتى تؤديه كأحسن ما يكون الأداء ! ألا يدهشك أن قلبك هذا الذي ترمينه بالوهن والضعف لا يصدك إلا عما

تكرهين ؟! فقالت لى :
آه . أنا أعرف سوء ظنك بى . إنك لاتكاد تفطن إلى أى مكروه يلم بى ولا إلى أى خطر يحيق بحياتى !
وهنا رميتها بنظرة قاسية ، وقلت لها :
أبدا . أبدا . أعتقد أنك تمثلين ولا تصدقين ، وتقومين بخدعة هائلة طيلة هذه الخمس والعشرين سنة الأخيرة . ويقينى أنك أشد من عرفت من الناس أنانية وجشعا . لقد عصفت بشباب ذينك الرجلين اللذين رمت بهما الأقدار فى طريقك المشئوم ، وها أنت ذى اليوم تقيمين العقبات والسدود أمام سعادة ابنتك وهنائها . ولم أكن أستغرب لو سقطت لوسى بعد كلماتى تلك من إعياء قلبها وهبوطه . وكنت أنتظر أن يتجهم وجهها ، وتغلى مراجل سورتها ، ولكن شيئا من ذلك لم يحصل . بل إن ابتسامة عذبة رقيقة قد ارتسمت على ثغرها . ثم سمعتها تقول :
ستندم عن قريب على تقولك هذا على .
فقلت لها :
والآن هل قر قرارك ألا تتزوج أيريس من ذلك الفتى ! فقالت لى :
لقد تضرعت إليها ما استطعت التضرع أن تتزوجه ؛ وأنا أعرف أن هذه هى القاضية على . ولكنى لا أبالى بنفسى . إن أحدا لم يعد يهتم بى . إن أحدا لا يرثى لحالى . أنا الآن عبء على الناس فادح . فمضيت أسألها :
« وهل قلت لأبنتك إن زواجها ذاك قاض عليك ؟ » فأجابتنى :
« أجل . لقد اضطرتنى أن أقول لها ذلك . » فقلت لها :
« إنك تبدين كما لو أن أحدا استطاع يوما أن يحملك على شىء تكرهينه . » فردت على مغيظة :
« لأيريس أن تتزوج فتاها اليوم أو غدا وإن كان ذلك قاتلى ، فلأذهبن له ضحية وقربانا . » فقلت لها :
« أجل دعينا نخاطر بذلك . » فقالت لى معاتبة :
« أما فيك نحوى عاطفة أو رأفة ؟ »
فقلت لها :
وهل يستطيع قلب أن يشفق على شخص يمعث فيه من التسلية والضحك والدعابة مثلما تبعثين ؟ » وهنا اربد وجهها وامتقع خداها ، وإذ تكلف ثغرها الابتسام فلا شك أن قلبها كان يتميز غيظا . ثم أخذت تقول لى :
ستزف أيريس إلى عريسها فى بحر شهر ، وإذا ما أصابنى سوء أو مسنى ضر فأرجو الله أن يغفر لك ولأيريس كيدكما وبغيكما . وكانت صادقة الوعد فى ذلك :

الأم

للقصصي الألماني فيلكس سالتين

بقلم الأستاذ علي كامل

كانت والدة جان واقفة أمام صوان الملابس وقد تملكها منذ لحظة سرور عظيم وهى تنعم النظر فى تلك الكنوز المكدسة بعناية . كانت تشعر بالراحة والسعادة فابتدأت تغنى

وأمسكت بأحد أقمصة جان ، وعندما نشرته أمامها استولى عليها التفكير وسكتت عن الغناء . كانت تقول لنفسها : هذه الدنتلا الفاخرة ، هذا القميص الصغير المزركش كان بالنسبة إليها منذ سنوات قليلة ثروة طائلة تجعلها فى غنى عن الكد والعمل وفى حماها وفلذات أكبادها من ألم الجوع

فتعيش وقتا طويلا فى هدوء واطمئنان دون أن تقاسى تلك المشاغل القاسية التى كانت حتى اليوم تهز نفسها هزا عنيفا ، وكأنها خرجت من خطر مميت

نعم . لقد أخرجتها جان ، تلك الفتاة الصغيرة ، بغنائها الساحر من هذه التعاسة ، من ذلك الظلام السحيق . فقد اقتحمت جان طريق المجد بسرعة فائقة حتى بلغت السماء جاذبة وراءها أسرتها

وتمتمت الأم قائلة : ابنتى !

ثم صمتت وقد انتابها فرح عظيم أمام هذه السعادة وكأنها أمام معجزة ، وكل

فحدد للزفاف ميقات معلوم ، وصنع جهاز للعرس رائع جميل ، وأرسلت الدعوات للأهل والأصدقاء . وبدت آيات البشر وأمارات الغبطة على محيا العروسين السعيدين ، فكانا ينتقلان فى خفة الطائر المرح من هنا لهناك ، يستمدان لليوم الموعود والنعيم المنشود

وفى يوم الزفاف ، وفى الساعة العاشرة تماما سقطت لوسى صريعة قلبها . وفى صمت كصمت القبور ، وسكون كسكون الليل؟ أسلمت تلك المرأة الجهنمية روحها لبارئها ؛ وما نسيت أن تستغفر الله لتلك التى غدرت بها وتزوجت !

عبد الوهاب محمد

هذه السنين الأخيرة لم تكن فى الواقع إلا سلسلة لا تنقطع من المعجزات ؛ لقد تفتح أمامهم عالم منير ، فهجرت الحجرة الضيقة المظلمة ، والشارع الصغير القذر الذى كانت تقطن فيه حتى ذلك الوقت حيث أخرجت إلى الدنيا أولادها وحيث رأتهم يشبون ويخطون بخطواتهم الصغيرة . كذلك استطاعت أن تهجر تلك المدينة الصغيرة التعسة ، حيث كانت تحيا حياة خاملة بائسة سجينة الهم واليأس ؛ وبفضل ابنتها وغنائها العجيب دخلت هذه الدنيا الباسمة خجولة طامعة وكأنها فى حلم . كانت تقول لنفسها :

أيكافئ الله هذه الأم كما كافأ ابنتها ؟ أيمكن أن يغمرها على الدوام بفضله وإحسانه ؟ لقد حصلت على أكثر مما كانت تجرؤ أن تأمله . حصلت أولا على النجاح ثم على المجد ، ولم تحصل على المال الوفير فحسب ، بل إن أوربا بأسرها تتكلم عن ابنتها وأمريكا تستدعيها

وضحكت الأم والقميص ذو الدنتلا البيضاء لا يزال بين يديها . إن ابنتها جان ترتدى أفخر الملابس كإحدى الأميرات ، وتحلى رقبتها الصغيرة الجواهر التى لا يعرفها إلا الملكات

وتنهدت الأم من أعماق نفسها وابتدأت تغنى الأغنية الرائعة التى نالت بها ابنتها النجاح المدوى فى الليلة السابقة فى دار الأوبرا ؛ فقد كانت القاعة تهتز من التصفيق العاصف . كانت الأم تحفظ عن ظهر قلب كل جزء من تلك الأغنية ، فقد سمعتها مئات المرات عندما كانت جان تحفظها بينما هى بجانبها تنصت إليها . وهاهى ذى الآن تغنى تلك الأغنية ؛ على أن ذلك لم يدم طويلا إذ قرع باب الغرفة قارع ...

فقالت : من القادم ؟ ادخل !

فأجاب الأستاذ برجير وهو يدخل :

— ها أنذا !

ونظر الرجل حوله دهشا ثم قال :

أين إذن الآنسة جان ؟

فقالت : ليست هنا

فقال : ليست هنا ! آه ! يا لأولئك الفاتنات العظيمات ! ونظر بعينيه وقد بدا على وجهه ما يقصد ثم قال :

إنهن يغلقن أبوابهن فى وجه المدير الفنى دون أى حرج

فنظرت إليه الأم دون أن تفهم ما يريد وقالت :

أؤكد لك يا أستاذ برجير أن ابنتى ليست بالمنزل

فقال الرجل ساخرا :

إذن من التى كانت تغنى منذ لحظة ؟

فقالت : لم تكن جان ؛ وضحكت الأم ثم أضافت : أنا التى كنت أغنى

وبدا على الأستاذ برجير الدهش وقال وهو يهز رأسه :

أنت ؟ إنى لا أستطيع أن أصدقك !

وأكدت الأم له ما قالت وقد بدا عليها الاضطراب

قال الأستاذ برجير :

إنى لا أحب منها أن تغلق الباب فى وجهى إذا لم تكن تريد أن ترانى فى هذه اللحظة . إنى مدير فنى بلغت الشيخوخة فأنا أعرف هذه النزوات الغريبة ؛ إنى أعرف ذلك الصوت الذى سمعته ، وعلى ذلك لا يستطيع أحد أن يخدعنى

فنظرت إليه الأم بعينيها الهادئتين وقالت ببساطة :

إن جان ليست بالمنزل

وفقد الرجل عناده وصمت مفكرا ثم قال دون تردد :

إننى لم أسمعك قط تغنين . وكان يجب أن أسمعك يوما ما مادمت كثير التردد على هذا المنزل

فقلت : إننى لم أغن منذ طويل ؛ وفى الأعوام التى كانت تدرس فيها جان كنت أقنع بالإصغاء إليها . كان كل اهتمامى منصبا على هذه الفتاة وعلى باقى أفراد الأسرة فلم يكن عندى الوقت الكافى لأغنى . وقديما عندما كنت أعانى ألم الفقر كنت كثيرا ما أغنى لأنسى مشاغلى وهمومى

وابتسمت الأم قليلا ثم قالت :

نعم . فى ذلك الوقت كنت أصغر منى الآن . كنت أغنى لأجلب النوم إلى عيون أطفالى . وكنت أغنى أثناء عملى المضنى وأنا جالسة أمام طست الغسيل الساعات الطوال

وضحكت ثانية وقد بدت على وجهها علائم التفكير وهى تنظر إلى قميص جان

كان مدير المسرح أثناء ذلك يرمقها بعينيه ثم قال بصوت منجمض :

حسن ! آسف لأننى لم أحظ بمعرفتك وسماع صوتك . ولو حدث ذلك لما قضيت وقتا طويلا من حياتك أمام طست الغسيل

كان الرجل يمتحن تلك المرأة التى لفتها الشيخوخة فرآها صغيرة الجسم تشيع فى وجهها تجعدات خفيفة . ذابلة اللون . ولكن عينيها الذابلتين كانتا تنبئان بأن هناك نارا هادئة تستعر فى جوفها . فهز كتفيه وقال وهو يخرج من الغرفة

يا للخسارة !

***

بعد ساعة مما حدث كانت جان جالسة أمام المرآة ووراءها أمها تصفف شعرها وتحدثها عن الحفلة التى ستذهبان إليها

معا . قالت الأم :

سوف يكون هناك أرشيدوق وعدد من الأمراء . ما أعظم ذلك !

وألقت الأم نظرة إلى جان فتملكها السرور الغامر عندما رأت الدنتلا البيضاء كالعاج تحيط كتفى ابنتها بصورة فاتنة . كانت تنعم النظر فى وجه ابنتها الدقيق فى المرآة وقد بدت عليها سعادة تمتزج بها خشونة خفيفة . كانت ترى عينيها السوداوين تلمعان تحت جبينها الأبيض الضيق . كانت تتملكها السعادة وهى تشعر بحرارة شعر جان المنتعش الحى تحت أناملها . وفجأة غمرها السرور والاعتراف بالجميل فابتدأت تغنى ثانية بينما كانت جان جالسة كطفلة صغيرة تنصت لغناء أمها وهى تصفف شعرها

ودخلت الخادمة فقالت :

إن رئيس فرقة العزف يريد مقابلة الآنسة

فقالت جان : فلينتظر !

وعندئذ صرخ رئيس فرقة العزف من الخارج قائلا :

كفى عن الغناء يا جان . لماذا تتعبين نفسك وتغنين دون وزن ؟ !

فانقطعت الأم عن الغناء . ولم تجب جان وسمع صوت رئيس فرقة العزف من الخارج وهو يقول :

ومع ذلك فهذا غناء رائع يا جان . عندما أسمع أى صوت من فك لا أستطيع أن أمنع نفسى من القول بأن هذا رائع

ورأت الأم فى المرآة تغيرا على وجه جان

وقال رئيس فرقة العزف من الغرفة المجاورة وهو دهش :

لماذا لا تجيبينى !

فقالت جان غاضبة وقد نفد صبرها :

أرجوك تتركنى وشأنى . إنك تعرف جيدا أننى لا أغنى

واستمرت ناظرة إلى الأرض دون أن ترفع ناظريها

وأثناء هذه الثوانى ظهر بين المرأتين شىء لا يمكن تفسيره . ظهر وكأن بين الاثنتين فاصلا بعيدا . وفى الوقت نفسه اندماج قوى جمع بينهما . وأنهت الأم عملها بهدوء وخرجت من الغرفة فى صمت

وفى المساء جلست الأم فى القاعة الفاخرة التى سيدوى بين أرجائها صوت ابنتها . وقريبا من القاعة كان الحديث يدور بين المجتمعين فى غرف مضاءة بالأنوار اللامعة حيث جلست جان يحيط بها الحاضرون يغمرونها بالمديح المتحمس والتملق الرخيص

كانت الأم جالسة مرتدية معطفا أسود يحيط بها نسوة عجائز يتهامسن . كانت تستقبل كبار القوم الذين كانوا ينحنون

أمامها تحية وإجلالا ومد لها الأرشيدوق يده وعلى فمه ابتسامة غامضة فردت عليه تحيته . وقال لها أحد القادمين : كيف لا تحسدين على أن لك بنتا كابنتك . ولقد سئلت خمس مرات أو ستا : ألا تغمرك السعادة الآن ؟ لقد كان هذا الإحساس بالمجد يملؤها بالسعادة . كان كل ما تأمله أن تمتلئ القاعة بالسامعين وكانت تقول لنفسها : هل ستفوز جان بنجاح كبير ؟ وكانت كلما خطرت ببالها هذه الفكرة اضطربت قليلا لأنها كانت ترغب رغبة حارة فى أن ترى نجاح ابنتها عظيما رائعا

بيد أن اضطرابا غريبا كان يزداد تدريجيا فى أعماق نفسها . كانت تتردد على سمعها كدقات الساعة كلمة المدير الفنى حين قال عنها « يا للخسارة ! » وقول رئيس فرقة العزف « هذا رائع ! »

وازدحمت القاعة بالوافدين وامتلأت على سعتها بالسيدات الجميلات يزين أكتافهن الفراء الفاخر مرتديات ملابس غالية الثمن . واقتربت جان من البيان بينما كانت أمها تتبعها بنظراتها . كانت جان رشيقة متكبرة فيها فتنة الشباب . وكان شعرها الأسود ورأسها الصغير ينعكسان على الواجهة البراقة البيضاء فيبدو منظرها جميلا ساحرا . وفجأة أحست الأم أنها هى التى على المسرح وليست ابنتها . رأت أمامها فتاة صغيرة فى ملابسها الرائعة تروح وتجئ غير هيابة ومع ذلك فهى هى نفسها

وتمتمت الأم قائلة : « شبابى ! » وكأن شيئا فى داخلها قد تمزق وتحطم إلى ألف قطعة

***

وارتفع صوت جان واضحا كيوم من أيام الربيع . منسجما حارا كضوء الشمس وكانت الأم تصغى إلى صوت ابنتها بانتباه أكثر من المعتاد وقالت لنفسها « هى أنا هى أنا » وانتابتها رعشة حين أحست ذلك الاحساس الغريب وهو أنها تسمع نفسها . فاضطربت أفكارها وأصبح لا يرن فى أذنها غير تلك الكلمة « يا للخسارة ! »

رأت الأم أمام عينيها غرفة صغيرة مظلمة ينبعث منها الهواء الفاسد المخنوق الرطب ورأت أطفالا صغارا . رأت أطفالها بين الوسائد القذرة يصرخون وينادون أمهم باكين طالبين أن تدللهم . رأت نفسها منحنية تحت فرن أسود يلفح وجهها بالبخار المحرق المتصاعد من الطعام القذر الذى تطهيه . رأت نفسها راكعة على ركبتيها تنظف أرض الغرفه وقد أكل الصابون أصابعها . رأت نفسها واقفة على حافة النهر رافعة طرف ردائها تغسل الملابس بالماء القذر الموحل وهى تنتفض من البرد القارس .

رأت كل ذلك فرددت كلمة المدير الفني « لو كنت مررت من هنـاك » ولـكن لم يعر أحد . نعم لم تسمح الظروف فلم يسمعها أحد تغني كما سمعت لابنتها جان فاكتشفت موهبتها

كان اضطرابها يزداد فتشعر بأنها في حاجة لأن تتعلق بمقعدها . قالت لنفسها : حياتي . حياتي . قالت هذه الـكلمة بقوة لدرجة أنها تلفتت حولها لترى إن كان قد سمعها أحد . إن ما يبحث عنه هذا الجمع الحاشد بحماس كبير ويعجب به بحرارة كانت تملـكه هذه المرأة العجوز ولـكنها جهلته بل أضاعته . نعم أضاعته أثناء بؤس حياتها المضطربة . أضاعته من أجل أن تقوم بأعمالها الحقيرة . أضاعت نفسها وسط بخار الأطباق التعسة . أما موسيقى نفسها الرائعة ، تلك الموسـيقى العظيمة التي كان سيسمعها الناس بإعجاب كبير فقد بعثرتهـا على أرض الغرفة القذرة وبين أمواج النهر اللعين الموحلة

ورفعت نظرها إلى ابنتها فرأتهـا يعلو رأسها أكليل المجد الذى أحرزته بقوة صوتها الجميل وبدت كأنها مغترة بفنها وعندئذ قالت الأم لنفسها :

هل هي سلبتني حياتي ؟ هل هي انتزعت حياتي بتلك الشراهة القاسـية التي يبديها الأبناء نحو أمهاتهم ؟ أم هي قد ردت إلى ما افتقدته وحفظت لي مالم أهتم بحفظه ، وهي الآن تبنى من جديد حياة محطمة من أجل أن تسعدني؟

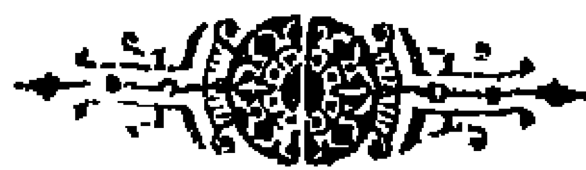
وفجأة أحست بأن عاملا خارقا قد ربطها بابنتها التي كانت تغني أمامها برباط وثيق . وفي الوقت نفسه شعرت بأن بينها وبين ابنتها هوة سحيقة . وعنـدما دوى التصفيق في القـاعة كنهر حطم ما أمامه من سدود . تملـكت الأم عاطفة قوية فاندفعت تصفق

وأثناء ذلك جاء الأرشـيدوق وانحنى أمامها قائلا :

— إنني أعرف جيدا ما يجول في هذه اللحظة في قلبك كأم

ولـكنه لم يكن يعرف !

علي كامل



أسير العجز

للقصصي الأرمني بارونيان

بقلم الأديب ن ب . نظاريان

كانت قطع من الأنسجة المحلاة بالرسوم تزين داخل الغرفة بلونها الكستنائى ، وتكسبها نظافة وأناقة . وكانت مائدة مستديرة تغطيها سجادة خضراء تشغل وسط الغرفة ، ومصباح مكلل بمظلة معدنية تعكس النور الصافى الذى يوضح الأقسام السفلى من الغرفة تاركا زواياها العليا فى ظلمة خفيفة رقيقة

وامرأة فى الأربعين من عمرها كانت جالسة قرب المائدة على أريكة تشغلها بجسمها الممتلئ ، وعلى محياها قسمات حلوة ، وبعض الشعرات البيضاء تبدو بين خصلات شعرها الكستنائى ، وقد اكتسبت شيئا من الفتنة تحت نور المصباح ، ملتمعة كالفضة

وكان رجل فى الخامسة والأربعين من عمره جالسا قبالتها ؛ وقد التمعت صلعة رأسه كالمرمر ، وعلى قسمات وجهه الهادئة يبدو تهكم خفيف ، دون أن يغير هذا التهكم شيئا من طيب خلقه ، وقوة عزيمته الباديتين عليه . كان يتصفح كتابا منشورا بين يديه على غطاء المائدة ، ويقلب صفحاته باستمرار وهو يلقى من حين إلى حين نظرة عطف وحنان على زوجته

وفجأة انطلقت منه حركة انزعاج وملل ، فأغلق الكتاب ؛ وتحرك فى جلسته بعد تنهدة أرسلها ، واستوى على الأريكة بكل جسمه ملقيا رأسه إلى الخلف

— كفاك يا (سربوهى) ما اشتغلت ، وبالأخص فى الليل ؛ فكثرة الشغل تؤذى عينيك .. فلنتحدث قليلا

فرفعت زوجته رأسها دون أن تنصرف عن شغلها اليدوى ، ونظرت إلى زوجها بعينيها السوداوين الواسعتين نظرة عطف وقالت :

— لا يمنع عملى من أن نتجاذب أطراف الحديث . فإن على أن أفرغ من هذه السترة قبل ساعة ، لأنها لولدنا (هوسيبيك) .

فقاطعها زوجها قائلا :

— حبيبى (هوسيبيك) ! ثم أضاف : تعرفين يا (سربوهى) أن ولدنا لم يتخط

بعد السادسة من عمره ، وهو يعامل هـذه الفتاة الصغيرة التى تلعب معه بكل احترام وأدب . فكأنه يريد أن يغازلها ، أو يحب أن يدخل معهـا فى دور غرامى . آه من الصبية فى هذا العصر !

فقالت : لا تتكلم هكذا يا عزيزى . إن الذكور مزودون دائما بتلك الإحساسات بصورة طبيعية . وإن لها علاقة متينة بتكوينهم الجثمانى ، فسرعـة نمو الجسم ؛ وتبدل الشعور والإحساسات تكون سببا لهـذه التصرفات . وكيف كنت أنت فى صغرك ؟

فأجابهـا الزوج بشئ من السخرية الغامضة : قائلا لست فى الحق أذكر شيئا من عهد الطفولة

وأنت؟ هل كان لك حبيب (كهوسيبيك) فى صغرك ؟

فانصرفت المرأة لحظة عن شغلها اليدوى وأخذت تحـدق فى نقطة مجهولة ، وعلى نظراتها تبـدو حالة من يبـذل جهدا لاسترجاع ذكريات قديمة جداً إلى ساحة ذهنه . ثم قالت : وأجفانها تكاد تنطبق بشئ من لذة غامضة ونشوة مجهولة :

— نعم ! كان لى حبيب (كهوسيبيك) عندما كنت فى الثامنة من عمرى . كان أهله يسكنون على بعد عدة دور من دارنا . ولم يكن بين أهلينا اتصـال ولا علاقة .

ولـكن ولدهم الصغير (أونيك) كان صبياً فى العاشرة أو الثانية عشرة من عمره ممتلئاً بالخبث ومعروفا بالحركة والنشاط . فى كل مساء بعد عودتنا من المدرسة كنا نلعب ونلهو معا على المرج الأخضر قرب دارنا مع لداتنا من الأولاد . وكان (أونيك) يبدى ميلا خاصا نحوى ؛ فكان يأخذ أوضـاع المدافع عنى ؛ وهو يمنع الأولاد من العبث بى وتعذيبهم إياى ، باسطا حمايته على . أما أنا فبالرغم من ميله الشديد . ومظاهر المحبة الحارة نحوى ، كنت أشعر بميل ضعيف نحوه . غير أن التى كانت تعذبنى وتسبب لى الألم هى تلك العيـون البراقة ؛ تلك الأحداق الخبيثة السوداء . وكم كنت مشتاقة لمعانقته لتقبيلها . ولـكنى كنت أتهرب منه كلما أراد الاقتراب منى . فكأنى كنت أتدلل ، أو أريد أن أكون غالية الثمن عليه فى دلالى

سوف تدهش من أن طفلة فى الثامنة من عمرها كانت تستطيع أن يكون لهـا إحساسـات دقيقة مرهفة . حقا إن تلك الإحساسات والشعور لا تكون عن معرفة صحيحة أو إدراك تام ؛ ولـكن الغريزة كما تظهر شديدة عند الحيوانات تظهر كذلك عند تلك المخلوقات الآدمية الصغيرة .

كنت أبذل جهـدى لإبراز سحرى

وجمالى (لأونيك) للظفر بنظرات الإعجاب منه . وعندما كنا نركض على الحشائش ويطارد بعضنا بعضا كان يلاحقنى فاتحا ذراعيه ، ويقبض على . فكنت أصرخ بشدة وأصيح صيحات متقطعة رهيبة . كان الصبي المسكين يقف متحيرا دهشا دون أن يفهم سبب صيحاتى ولا سبب هربى منه ومعاملتى له بهذا الشكل ...

وبينما كانت السيدة (سربوهى) غارقة فى حديثها . كان زوجها يصغى إليها بكل انتباهه ، وقد وضع مرفقه على طرف الأريكة وأراح ذقنه على كفه

وكانت المرأة تعمل بنشاط ورغبة أكثر من ذى قبل متأثرة من استعادة هذه الذكرى الحلوة البعيدة

واستأنفت قائلة : أحيانا عندما أنظر إلى ولدى (هوسيبيك) يخطر على بالى (أونيك) المسكين . أواه ! كأنه هو بالذات : بعينيه البراقتين الخبيثتين ، وبحركاته المليئة بالخفة والنشاط . حقاً إننى الآن أؤنب نفسى على تلك المعاملة . وقلبي يتألم من تعذيبي (لأونيك) المسكين . كان عندما يحصل على بعض النقود يشترى بها الحلوى ويقدمها إلى لألتهمها . وكان يتأملنى بلذة وفرح ؛ وأنا ألتهم حلواه . وبعدئذ كان يمد يده وهو يظن أنه كسبنى ليقبض على رأسى وهو يقول : — يا حلوتى ! — فكنت أرسل صرخة فى الفضاء وأفلت من قبضته هاربة

والأمر الذى ما كان يقبل الشك هو أن ذلك الصبي الصغير كان يشقى ويتألم ؛ ولكن هو نفسه أيضا كان يجهل سبب شقائه بدون شك

وفى ذات مساء بعد أن انصرفنا من المدرسة ذهبت إلى ملعبنا المعهود ، ولم أجد هناك إلا (أونيك) وكان الأولاد الآخرون قد تأخروا عن الحضور . أردت أن أعود إلى الدار تاركة (أونيك) وحده . غير أنه تقدم إلى وبين يديه قطعة من الورق مليئة بالحلوى وقدمها إلى ، وكانت عيناه تلتمعان أكثر من أى وقت مضى ، وهو يراقبنى بشئ من الشوق والرغبة ، بينما كنت ألتهم الحلوى واحدة تلو الأخرى غير شاعرة بتلك اللذة التى كنت أسببها له . فكم كنت مشغولة بالتهام الحلوى حتى أنى لم الاحظ كيف أن الملعون قد اقترب منى شيئا فشيئا . وفجأة شعرت بضغط حول عنقى ، وإذا بشفاه ندية حارة قد التصقت بخدى ، وسيل من القبلات أخذ ينهمر عليه . ماذا حدث فى تلك اللحظة ؟ أردت أن أصيح ، وأصرخ ، لكنى لم أستطع حتى كدت أن أختنق ،

فأخذت أحرك ساعدى لأفلت من ذلك الضغط ، ومن تلك القبضة . وأخيراً تركنى وانطلق يعدو . فالتهب الغيظ فى نفسى . ولم أدر كيف أصنع . أخذت حجراً من الأرض وشرعت فى مطاردته حتى اقتربت منه فقذفت رأسه بالحجر فإذا بصرخة أليمة تنطلق منه . وإذا به يقبض على رأسه بكلتا يديه والدم يسيل . أما أنا فلم يكن منى إلا أن أسرعت فى الهرب ، ولم تطأ قدماى ذلك المكان بعد ذلك أبداً

وبعد مدة قصيرة من الزمن غادرنا تلك القرية إلى مكان آخر . وحتى الآن لا تزال صرخة حبيبى (أونيك) الأليمة تدوى فى أذنى ! فكم شتمنى ولعننى يا ترى ! ولكن هذه الذكريات هى أحلى ذكريات طفولتى .

كانت عينا السيدة (سربوهى) السوداوان النديتان بالدموع متجهتين نحو زوجها بشىء من الحزن البادى على محياها .

وفى ذلك الحين نهض زوجها من مكانه وقد أشرق وجهه بابتسامة حالمة . وتقدم نحو زوجته بعد أن أحنى رأسه أمامها وهو يزيح الشعر عن قفاه ويقول :

أترين هذه العلامة البيضاء ؟

وبينما كانت الزوجة تحدق فى العلامة دهشة : قال زوجها :

إنها أثر ذلك الحجر الذى قذفتنى به !

ه . ب نظاريان

فتاة السرك

للأديب محمد أبو المعاطى أبو النجا

كان الجمهور داخل السرك ينصت إلى الأغنيات الشعبية التي يصدح بها « الجرامفون » في فترات الاستراحة ...

وكانت الموائد المحدقة بحلقة اللعب حيث يجلس الرواد المترفون لا تكاد تلقى بالها إلى هذه الأغنيات، لأن من عادتها كل مساء أن تستقبل في تلك الفترات خطوات « رجاء » فاتنة السرك وهى تطوف بها لتوزع صورها الجميلة لقاء ما ينفحها به الرواد من قروش ...

وكانت رجاء الفتاة التي عرفت طبائع النفوس .. تحرص كل الحرص على أن تصنع لكل صورة إطارا نفسيا خاصا يختلف عادة باختلاف الرواد !

فحين تمر بمائدة يجلس عليها جمع من الشباب كان هذا الإطار يتألف من تلك الابتسامة الساحرة التي يظن كل من يراها أنها له ، ومن تلك الانحناءة الرقيقة للعنق العاجى ، تلك الانحناءة التي تستتبع عادة ميل خصلات شعرها الأشقر الفاتن إلى جانب وجهها في دلال مثير !

وحين تنتقل إلى مائدة أخرى تجلس إليها عائلة ، فإن الإطار يتغير عن ذى قبل ، فتبدو تلك الابتسامة وادعة خاضعة ، ويعتدل العنق المائل ليرتفع بالرأس الصغير في شرود صامت ؛ وبين لحظة وأخرى تطرف العيون الفاتنة بنظرات كأنها خجولة !

وكان لهذا الإطار المتغاير دخل كبير في تقدير الثمن المناسب للصورة المهداة ...

وانتهت خطواتها إلى مائدة منفردة تحدق بها عائلة صغيرة قوامها زوج وزوجة في نهاية العقد الثاني، وطفل صغير !

ولم تكد تمد يدها بالصورة نحو الطفل الذى كان يشير إليها بيديه الصغيرتين حتى أخذها منها ثم هتف بعد أن نظر إليها قليلا ... الله ! ... الصورة دى زيك تمام ياماما ! ثم أدناها من فمه في سذاجة حلوة وقبلها بطريقة جعلت أبويه يغرقان في الضحك !

ولأول مرة لم تنتبه رجاء إلى ما تصنع بالقطعة الفضية التي أعطاها إياها الزوج ... لم تفكر فيما إذا كان ينبغى أن تأخذها كلها أو تعطيه فكتها ليعطيها هو ما يشاء من قروش ! لم تفكر في شىء من ذلك ، وإنما

وضعتها بلا وعى فى جيبها الخارجى ، وظلت مشاعرها كلها موزعة حائرة كأنما كانت تحاول أن تجمع من الفضاء نبرات ذلك الصوت الصغير البرئ لتسمعه من جديد !

ولأول مرة أيضا نسيت أن تقول كلمتها التقليدية « مرسى ! » وإنما مدت يديها لتجمع بينهما ذلك الوجه الصغير وتطبع على وجنتيه قبلتين ذاخرتين !

ولأول مرة أيضا نسيت عددا من الموائد كانت تمر بروادها كل مساء ... وفى خطى مذعورة كانت تسرع نحو حجرتها الخاصة لتغير ثيابها التى تختلف باختلاف الأدوار !

وكان لا يزال هناك فسحة من الوقت فاستلقت على مقعدها شبه مخدرة .. حتى هذه اللحظة لم تكن تفهم حقيقة مشاعرها وإنما كانت تحس كأن هناك أشياء خفية مبهمة تتجاذب تلك المشاعر بل وتصنع بها خيوطا دقيقة متشابكة وتنثرها فى الفضاء .. كانت تحس كأن قواها منسرقة وموزعة على تلك الخيوط الدقيقة المتشابكة ! ورويدا رويدا بدأت هذه الخيوط تتقارب وتجتمع وتلقى على خواطرها ظلالا واضحة المعالم بارزة السمات !

ما أكثر ما كانت تسمع من همسات الغزل وكلمات الإطراء ! وما أكثر ما كانت ترى فى عيون النظارة من الوله المثير والهيام الملح ! ولكنها مع هذا كله لم تكن تهتز ، بل ولم تكن تختلج . كانت حتى فى اللحظات الحاسمة حين تقف فوق هرم من الأجسام الرياضية المفتولة لتؤدى ألعابها المثيرة ، كانت حتى فى هذه اللحظات تقف لتواجه عيون النظارة التى تكاد تخرج من محاجرها دون أن تشعر بأدنى اضطراب ! فمالها الآن لا تملك أمر نفسها ولا تكاد تمسك زمام مشاعرها ؟

ولكن ، ولكن ماذا يا رجاء ؟ وإنك تكذبين على نفسك ، فما كانت همسات الغزل ولا نظرات التودد جديرة بأن تنفذ من أذنيك إلى قلبك حتى يخفق أو يهتز . أنت تعرفين إن عمر هذه الكلمات قصير ، كالتفاتة الذعور ... إنها تولد هنا فى السرك وتموت هنا أيضا قبل أن يخرج الرواد ليهمس بعضهم فى أذن بعض قائلين : لقد كانت سهرة عامرة بالضحك حافلة بالطرائف حتى شعرت برغبة فى العشاء مرة ثانية !

لا يا رجاء ! إنها كلمات ميتة لا تهز قلب عذراء ... عذراء ؟ ماذا قلت يا رجاء ؟ أليست تلك مغالطة أخرى ؟ أين أنت من العذارى يا فتاة ؟

لقد نزعت من حولك تلك الأردية اللطيفة الشفيفة التى ترفل فيها العذارى دائما كما ترفل الورود فى غلائل شفافة من قطرات الندى الصافية !

هذه الأردية التى تلف الطبيعة فيها عرائسها الصغيرة حتى تزفهن إلى العش السعيد . هناك حيث تمتد يد الرجل الموعود لتفك عروتها واحدة بعد واحدة !

الصمت الخجول .. الهمس المرتبك .. الحمرة الشفيفة .. البسمة العذراء .. كل هذه الأردية يا رجاء تمزقت عنك ... مزقتها عيون الرواد منذ كنت صبية فى الرابعة عشرة من عمرك !

لا ! لست عذراء لست امرأة ... من أنت يا رجاء ؟

وهنا فقط بدأت حياتها تدور على نفسها إلى الوراء ، كانت تعرض أمام عينيها كل ما أخفته فى ظلالها الأيام ! كنت حبيبة صغيرة ذات يوم ، وكنت وقتذاك لا تكفين لحظة عن الضحك السعيد . كان يزهيك أن تنجحى فى أداء الأدوار برغم ما فيها من قسوة لا تلائم عودك الغض وجسدك الرطيب ، مادمت ستسمعين أخيرا ذلك التصفيق المتواصل الذى تتعثرين فى أصدائه وأنت تجرين فى مرح خارجة من الحلقة ، وأيضا مادمت ستنالين نصيبك من تلك الهدايا التى يؤثرك بها أبوك بين حين وحين ، وهى لا تخرج عادة عن النقود اللامعة أو الفساتين الجديدة أو العقود الغالية ثم ، ثم جاء اليوم الذى أصبحت فيه كما يقولون عن أمثالك عروسا !

كان قلبك الصغير يفتح أبوابه لهذا الضيف الخالد الذى يحمل فى يديه غذاء الأرواح ! وبدأت أوقاتك تمتلئ بالرؤية البهيجة والأحلام الخضراء ، وكانت أيامك تمضى وكأنها تترنح !

ومنذ ذلك الحين يا رجاء بدأت تدركين أن فى الدنيا أشياء أخرى جميلة غير النقود وغير الفساتين وغير العقود ، بل أدركت يا رجاء أن هذه الفساتين الجميلة والعقود اللامعة والعطور الفواحة ليست فى ذاتها الأمل المرجو والحلم الكبير ... إنما هى درجات فى السلم المرتفع الذى يعلو بنا إلى السماء الجميلة هناك ، حيث الرجل المنشود. الرجل الذى يضاعف من أعجابه جمال الفستان وعبير العطر وبريق العقد !

وهنا تعثرت خطوات أحلامك فى نتوء الحقيقة الصلد ... تلك الحقيقة التى عرفتها بفطنة المرأة وغريزة الأنثى ، وانتهيت منها إلى أن هذا الرجل المنشود لن يدخل حياتك إلا من هذا الباب المسحور .. باب الحلم والوهم والخيال ... لأن جميع الأبواب الأخرى موصدة . يقف خلفها ذلك الرجل الموهوب . ذو النظرات القاسية والشارب الغليظ والتقاطيع الصلدة . ذلك الرجل الذى يملك من أمر هذا السرك كل شئ ، والذى

يناديه كل أفراد السرك يامعلم ، وتناديه أنت بيا أبى ! ترى هل تألمت يارجاء لأنك تعرفين أن كل أب فى حياة كل عذراء إنما يبذل قصارى جهده فى تستر ولباقة ليظفر لابنته بالزوج المنشود ... ولأنك تعرفين أيضا أن هذا الرجل الموهوب إنما يبذل نفس الجهد فى تستر ولباقة ليحول بينك وبين هذا الزوج المنشود !

إن انتقالك إلى بيت الزوجية معناه فى لغة الواقع التى لا يجيد أبوك غيرها من اللغات ، معناه شئ واحد : هو أن ينتقل جميع أفراد السرك وعماله وعلى رأسهم أبوك نفسه إلى الشارع ليؤدوا دورا جديدا على ناصيته ، هو التسكع والبطالة !

أجــــل تلك هى الحقيقة التى لا تغنى عنها أحلامك .. فهؤلاء الرواد جميعا إنمــا يحضرون هنا من أجلك ، من أجل عينيك يا رجاء .. قومى وتأملى فى المرآة عينيك ، تأملى هذا الإشراق الساحر الذى ينبعث منهما ليذكر الناس بأيامهم الجميلة . تأمليه لحظة واحدة لأنه ليس بمقدورك أن تتأمليه أكثر من ذلك ! ثم .. ثم طوفى بنظراتك حول هــذا الوجه الذى تصلى أهدابه فى محراب العيون .. ثم تذكرى أنه ليست مرآتك وحدها هى التى تضم صورته ، وإنما هناك مئات من المرايا الأخرى تعكس نفس الصورة .. ولــكن هنالك فى قلوب الرواد

ثم اهبطى بعينيك حول هذا القوام المشوق وتخيلى كيف يمكن أن يبدو وهو يتأود فى خطوات مرتبكة داخل الطوق الحديدى الذى يبدو فوق سلك دقيق !

هذه الــكنوز كلها يارجاء تجلب إلى أبيك مئات من الرواد ومئات ؛ ولــكنها لا تستطيع أن تجلب إليك رجلا واحدا يمكنك أن تجلسى معه إلى مائدة واحدة وبينكما طفل صغير .. كهذا الطفل الذى قبل صورتك وهتف بصوت صغير برئ :

— الله ! الصورة دى زيك تمام ياماما !

آه يا رجاء .. لقد لفحت هذه الــكلمات مشاعرك كلها وهزت كيانك كله ونضرت أصــداؤها الندية فى أرض حياتك أوراق حلم ذابل !

آه يارجاء ! لقد تمنيت وقتذاك لو كنت مكان الصورة لتحسى وقع شفتيه النديتين على خدك ، وتتركى وجهك لحظة لأنامله الصغيرة تعبث به كما تعبث بالأشياء !! ومع هذا كله فإن أباك يعتقد أنه أراح ضميره أمام الله حين عرض عليك أن تتزوجى من أحد أفراد السرك وبهذا لا يكون قد حال بينك وبين حقك الطبيعى فى الحياة !

أرأيت إلى منطق التجار يارجاء ؟ إن حقك الطبيعى فى نظره يتمثل فى رجل ؟

مجرد رجل !! ولكن أنى لهذا الأب يارجاء أن يسبر غور أحلامك ليعرف أنك لا تريدين مجرد رجل ؛ وإنما تريدين حياة أخرى في مكان آخر. هذه الحياة الأخرى التي يحلم بها كل عذراء مهما كان نصيبها من الجمال! هذه الحياة التي ترفرف في عش صغير هادىء بجناحي زوج وطفل ! هناك حيث تقضين وجه النهار السعيد .. تغسلين الأطباق أو ترتقين الجوارب ثم تهيئين للزوج الغائب طعام الغداء ؛ حتى إذا عاد واحتواك بين ذراعيه في لهفة وشوق وقال بصوت تقطعه القبلات .. هل من الواجب يا عزيزتي أن أشكر لك .. كل ذلك ! فأقول له : هذا إذا كان من الواجب أن اشكر لك هذه القبلات!

ولكن ... ولكن حسبك أحلاما يا رجاء ! فهناك حقيقة أخرى هائلة لن تغني عنها أحلامك ... !

حقيقة تلك الصفقة التي عقدها أبوك مع الجمهور يوم باعه حياتك كلها وأعطاك هذا الثمن المزيف ... الهتاف .. التصفيق ... الإعجاب ... الشهرة ... ! كل هذه الفقاقيع كانت هي الثمن .. ثمن القلب الذي ضاع وضاعت أحلامه والعمر الذي اقفر وإن سهرت حتى الصباح لياليه .. !

أتريدين أن تصدق حقيقة هذه الصفقة يا رجاء ، لتعلمي ماذا تقابل حياتك في حياة الناس ؟

إسمعي يا رجاء ... إن لكل فرد من رواد السرك وزبائنه حياته الخاصة التي يعيشها بملء حريته ويمضي في أرجائها على هواه ... حتى إذا أراد أن يلهو وأن يعبث وأن يعيش جزءا فارغا من حياته جاء إلى هنا حيث تقدمين له حياتك كلها . .

أرأيت إذن إلى حقيقة الصفقة ، بل إلى حقيقة المهزلة . مهزلة حياتك يا فتاة .. !

هذي أنت يا رجاء فهل عرفت أخيرا من أنت ؟

وكأنما أشفقت عليها الأقدار من التمادي في تفكيرها هذا المر ... فاستوقف خواطرها رنين حاد متواصل تعودت رجاء أن تسمعه كلما اقترب ميعاد دورها في اللعب !

ومضت لحظات قصيرة كانت بعدها قد لبست ما يلائم الدور الجديد من ملابس ، ولم تنس وهي خارجة أن تستعيد لشفتيها ابتسامة إنسان سعيد ، ولحركاتها رشاقة ظبي سانح . ولم تكد تظهر في الحلقة حتى دوت جوانب السرك بتصفيق حاد كان يتخلله حشد من الكلمات الغزلة والتحايا الشعبية !

وشيئا فشيئا بدأت الأصوات تسكن والحركات تهدأ والأعناق تشرئب والنظرات

تعبر فى صدق عما يضطرب فى النفوس من قلق ودهشة وإعجاب !

كانت رجاء إذ ذاك تؤدى حركاتها البارعة وهى فوق سلم خشبي دقيق يرتكز فوق قدمى رجل قد استلقى على ظهره ورفع ساقيه فى خطين متوازيين بعد أن ثنى وركيه فوق صدره !

وحين فرغت من أداء حركاتها المثيرة كان عليها أن تقف لحظة كما تقضى قوانين اللعب لتحيي الجمهور وهى هناك فوق السلم الذى لا يعتمد على غير الله ... !

وبدون أن تشعر وجدت عينيها تتصفحان وجوه الجماهير بلهفة وشوق وكأنها قارئ يقلب أوراق كتاب ليعثر على صفحة خاصة ... وأخيرا وقعت عيناها على تلك الصفحة الخاصة كانت تحمل صورة لأسرة صغيرة قوامها زوج شاب وزوجة فى نهاية العقد الثانى وطفل صغير ... !

ولا تدرى لماذا أحست كأنه لا يوجد فى السرك سواه .. ذلك الطفل الذى التقت عيناها بعينيه فى نظرة عميقة ! شعرت رجاء بعدها بأن كيانها كله يهتز وجسدها كله ينتفض

و ... و ... ولم تعد بعد ذلك تشعر بشيء !

* * *

يا صديق ... ترى هل أنت فى حاجة بعد إلى أن تسمع بقية القصة ؟ لا أعتقد ولكن الوفاء للواقع يوجب أن تسمع تلك البقية من أفواه الجماهير التى خرجت وقتذاك ولا حديث لها سوى تلك البقية !

كان البعض يردد فى أسى وأسف ... مسكينة ! يبدو أنها كانت مرهقة من طول ماتؤدى من أدوار ، ويبدو أن هذا هو الذى جعلها تفقد توازنها فى اللحظة الأخيرة !

وكان البعض الآخر يؤكد أنها قد حسدت ، فما لا شك فيه أنها كانت مثار إعجاب خطر ... !

وكان لا يزال هناك فريق آخر يبدو أنه كان أكثر ذكاء من بقية الناس ؛ فقد كان هذا الفريق يهز رأسه بغير اكتراث كما يفعل الأذكياء ؛ وكان يقول بصوت خافت ممطوط : إنهم يفعلون ذلك عادة استجلابا لعطف الجمهور !

محمد أبو المعاطى أبو النجا

اعتراف القاتل

لجي دي موباسان

بقلم الأديب عبد اللطيف حسن الأرناؤوط

ارتاعت القرية .. وعقلت تفكير أهلها حيرة خرساء . فراحوا يتساءلون ، مشدوهين مستفسرين عن الحادث الذى وقع ليلة أمس إذ وجدوا صباحا ضحيتين رجلا وامرأة غدر بهما مجهول ، فطعنهما بخنجر ، أرداهما قتيلين

وبعد التحقيق عنهما .. والكشف عليهما .. تبين أنهما من كبار اغنياء المدينة المجاورة للقرية ، ومن أولئك المرموقين بين أهلها ، ولم يكن قد مضى على زواجهما عام وذلك بعد ما ترملت المرأة من زوجها الأول

وذهب اعتقاد الناس إلى أن القاتل رجل شغف بحب المرأة ، و[illegible] وجدا بها ؛ فلما لم يحظ بها انتقم لنفسه [illegible] لحبه

وبالرغم من فرض الرقابة الشديدة .. والتفتيش المستمر فى أنحاء [illegible] ة .. لم يعثر على أى أثر للقاتل

مضت أسابيع كادت [illegible] ة خلالها تنطوى وتنسى إلى الأبد [illegible] أن يعرف القاتل أو يهتدى إليه [illegible] يرتع فى ربوع الحياة دون أن يمسه أذى

وفى أحد الأيام ، دخل مكتب التحقيق شاب فى العقد الثالث من عمره .. مربوع القامة، أشقر الشعر .. أزرق العينين.. وقد عرف بين أهل القرية أنه النجار الأمين الذى يعمل فى حانوته بجد ونشاط دون أن يعكر صفو أحد

فاندفع أمام قاضى التحقيق وقال :

سيدى القاضى : أنا المجرم .. أنا القاتل الذى تفتشون عنه ، ولم تهتدوا إليه ، فانظر ماذا تأمر ...

فدهش القاضى لهذه الجرأة.. فابتدره قائلا:

كيف تكون القاتل ، وهل سبق أن عرفت القتيلين ؟

فأجابه الشاب دون وجل :

نعم .. لقد عرفت الرجل منذ عامين .. أما المرأة فلم يمض على معرفتى إياها أكثر من ستة أشهر ... كانا يترددان بين حين وحين على حانوتى ... يشتريان منى بعض ما يحتاجان إليه ، أو يطلبان إلى أن أصلح لهما أثاث منزلهما ...

فسأله القاضى : إذن لم أقدمت على قتلهما ؟

فأجابه : قتلتهما لأن نفسى سولت لى

أن أقتلهما …

وحاول القاضى أن يستفسر منه أكثر من ذلك ، ولكن الشاب امتنع عن الإجابة عن الأسئلة التى وجهت إليه

وتحروا ماضى الشاب فتبين لهم .. أنه جئ به إلى القرية وهو طفل صغير ، فتبنته إحدى المرضعات حتى كبر وشب وأتقن فى هذه المدة صناعة النجارة ، كما عرف بين الناس بخلقه القويم ، ونشاطه فى عمله ووداعته وانطوائه على نفسه حتى أطلقوا عليه لقب الزاهد

وثبتت التهمة عليه فأحيلت قضيته على محكمة الجنايات .. وأراد المحامى أن ينقذه من ورطته فوصمه بأنه معتوه ، فكان مما ذكره فى دفاعه عنه قوله :

من المستحيل أن يتصور عقل أن يقدم هذا الزاهد الأمين على القتل ، فيقتل بمجرد أن سولت له نفسه ذلك ، مع أن القتيلين كانا من خير زبائنه .. وقد ربح منهما مبلغا يتجاوز ألفى فرنك

إن مثل هذا الرجل الذى لم يعكر عيش أحد ، ولم يقدم يوما من الأيام على أذى أحد ، جدير أن نفكر فيه مليا ، ونرى أنه ليس من المعقول أن يقدم اليوم على قتل اثنين

وفرغ المحامى من دفاعه ، فالتفت الرئيس إلى المتهم ، وسأله : ألديك ما تذكره ؟

فأومأ الشاب برأسه ، ووقف وراء قفص الاتهام وكانت الأنظار ترنو إليه فى تساؤل ، ورفع المتهم رأسه ، وقال بصوت جهورى ينبعث منه رنين الشجاعة والهيبة … :

سيدى الرئيس … حضرات المحلفين .. والمستمعين …

إنى لا أرضى أن يحكم على بالعته ، ولا أقبل هذه السفاهات التى يرددها بعضهم لتبرئة ساحتى على حساب تشويه سمعتى وامتهان كرامتى . أريد أن أعترف بالحقيقة الواضحة ، وأجلى الشك من نفوس الناس كى لا يعترى أذهانهم أى لبس ولا أى استفهام …

فأنا أفضل الموت فى ظلال العز والشرف ، على حياة ملؤها الخزى والعار . فأنصتوا إلى ، ثم انطقوا بالحكم الذى ترونه

ووقف هنيهة يجيل الطرف فى الحضور كأنه يبعث من أعماق الذكرى حوادثه التى وأدها الماضى فى طياته … والتفت إلى الرئيس وقال :

ما إن فتحت عينى للنور حتى دفعتنى أمى إلى إحدى مرضعات هذه القرية ، وأقصتنى عنها ، وأبعدتنى عن حنانها . ثم امتنعت عن أداء أجرة المرضعة . فأخذت هذه

ترعانى .و تتعهد تربيتى إشفاقا على . ورحمة
بطفولتى المشردة . وقدمت لى المحبة والحنان
اللذين حرمتهما من أمى التى تنكرت لى
وهكذا حتى كبرت وشببت فإذا بى
بعدما أصغيت إلى صدى نفسى خالجنى
إحساس مريب . وخامرنى شعور غريب
هو أنى لست كامل الشرف والكرامة
وأن الكلمة التى كان أصدقائى فى المدرسة
يرددونها عنى ، ما تزال ترن فى أذنى، فتثير
كوامن الغيظ والألم فى نفسى ، تلك
الكلمة هى — «لقيط» ، لكننى أعذرهم
لأنهم لم يكونوا قد عرفوا بعد ما تنطوى
عليه هذه الكلمة من معان ، إلا أنى
أشعر بسوء وقعها فى نفسى ، وقبح طالعها
فى حياتى . غير أننى كنت أتجلد ولا أظهر
غيظى وإن كنت قد أحسست فى ذلك
الوقت أن تلك الكلمة قد نقشت فى
سويداء قلبى ، فأخذت أعلم أننى ثمرة جناية
والدى اللذين أقدما على الإثم ، فكنت
ضحيتهما البريئة

إن الآباء ينتظرون بفارغ صبرهم أن يجنوا
الثمرة التى تهبها الحياة لهم ، فهم يصيخون
بنفوسهم إلى أصوات أبنائهم

إن الأمهات يقبلن على حياة الأمومة
بقلوب مفعمة سرورا وجوارح تترقرق
حبورا ، ويهدهدن سرر أطفالهن ، يناغينهن
أمل المستقبل ، ويداعبهن رجاء الغيب
وهن ينصتن إلى بكاء أطفالهن

ولو كان حبهما — حب أبى وأمى —
قائماً على حطام منزل زوج أمى الأول ...
لسعدت بحياة غنية بالسعادة والهناءة
يكتنفها حنان الأمومة وتظللها رأفة الأبوة
ولكنهما اقترنا على أنقاض حبهما الزائف
فكنت الضحية البريئة ... وأصبحت فى
هذه الحياة وحيداً شريداً طريداً

كان الواجب يقضى عليهما أن يحبانى
ولكنهما أبغضانى فنبذانى عنهما وأقصيانى.
يقولون إن المرء مدين لوالديه بالحياة ، ولكن
هل تعتبر حياتى ... حياة التشرد والهجر
حياة ؟ وهل أدخلت فى نفسى غير المداوة
والبغضاء لهذين اللذين تمنيا موتى ، فنبذانى
وأنا طفل فى المهد ...

يا سادة

إذا هاجمك سارق ومد يده إلى جيبك
وأراد أن يسلب منك ماملك فربما قاصصته .
وإذا داهم بيتك أحد وشتمك ... لانتقمت
لنفسك . وإن خانك إنسان أو جردك من
الشرف والحرية ... حاولت أن تأخذ حقك
السليب منه

أما أنا فقد جردنى والداى من شرف
وسلبا منى حريتى وعزتى ... وسرقا باسمى ثم
أسقطا حياتى بنبذهما إياى وعدم اعترافهما بى

لقد كنت مخدوعاً بشرفى من قبل ؛ أما بعد ماتيقنت أن جريمتهما هى أشنع ماارتكباه ، وأن خطيئتهما لايغتفرها أحد، صممت على أن أنتقم ؛ لأنى علمت أن حريتى المسلوبة تدفعنى إلى أن أنتقم لنفسى وأغسل بدمهما العار الذى لطخا به سمعتى

ربما تقولون ... إن قتل الوالدين جريمة شنعاء؛ لكن الوالدين اللذين ينبذان وليدهما صغيرا ، ويشردانه فى مجاهل الغيب طفلا ، لايحق لهما أن يكونا والدين !

لقد عاشا فى كنف حبهما الرغيد ... ونبذانى فى بيداء الشقاء المتيد ليمحوا عن سجل القضاء عارها بولادتى ... ولذلك قررت أن أجازيهما بالمثل ... فأمحو العار الذى ألحقاه بى ، بأننى مجهول الأبوين . لقيط ! سادتى

لقد كانت فكرة الصفح عنهما تخامر ذهنى فكنت على وشك العفو .. فأبادلهما المحبة والوئام، وأشاركهما العيش والحياة، دون أن أبوح بسرها ، ولكننى اضطررت إلى أن أقصى هذه الفكرة عنى .. وأن أقدم على الانتقام

منذ سنتين جاءنى رجل فى الحانوت ولم يسبق لى أن رأيته من قبل ، وطلب منى أن أصنع له مائدتين ، وعلمت أنه استخبر عنى قسيس القرية فاستغربت أمره ، ولكنى لم ألق بالا إليه

وبعد أيام طلب منى أن أصنع له مقعداً . ومما أدهشنى أنه كان يدفع لى القدر الذى أطلب منه دون أن يساومنى ، كما كان يخاطبنى بلهجة ملؤها الرقة والحنان مما حفظت له من أجل ذلك حباً فى قلبى وأضمرت له إخلاصاً فى عملى

وبعد مدة جاءنى برفقة امرأة قال إنها زوجته . فما دخلت حانوتى واقتعدت مقعداً حتى بدت علائم الاضطراب تظهر جلية على وجهها ، فاعتقدت أنها عليلة ؛ وكانت كل نظراتها تصوبها نحوى ، وكنت كلما سألتها عما أصنع لها وكيف ! أجابتنى: نعم. ولا تزيد على ذلك كلة ، وبعد ان غادرا الحانوت .. وانصرفا عنى اعتقدت أنها مصابة بخبل أفقدها التفكير

وبعد أيام عادت تلك المرأة برفقة زوجها ، وكانت فى هذه المرة أثبت جرأة ، وأوفر شجاعة من المرة الأولى . وجلست تسألنى أين قضيت مرحلة الطفولة ؟ وكيف كانت حياتى ، ومن هما والداى ..و..

فرجوتها ألا تسألنى عن والدى .. ولا عن حياتى التعسة

فقالت : ولم ؟ أهناك مايمنعك أن تحدثنى عن والديك ؟

قلت : نعم ، فقد أجرما فى حقى ، ولذلك

لا أريد أن أنكأ جروحي ، فهما في نظري من المجرمين ولا يغفر جريمتهما الشنعاء إلا الانتقام . لقد نبذاني صغيرا وشرداني طفلا دون أن يرقا لبراءتي .

وما إن سمعت المرأة مني ذلك حتى اصفر لونها وزاغ بصرها وانطرحت على المقعد خائرة القوى مغشياً عليها ؛ فتملكتني دهشة مما رأيت ، فسألت نفسي أتكون هذه أمي تلك التي هجرتني ، ولم تعطف علي ؛ بل انطلقت وراء حبها .. طائشة ؟

ولما أفاقت من إغمائها أسندها زوجها إلى ذراعه .. وانصرفا

* * *

جلست في الحانوت وحيدا مفكرا في أمر تلك المرأة وذاك الرجل . وانتهى بي التفكير الطويل إلى أنهما والداي

فالمرأة هي أمي ؛ أما الرجل فهو أبي بعينه

وفي أحد الأيام عادا معا إلى الحانوت فلمست الاضطراب والقلق في قسمات وجه المرأة . وقبل مغادرتهما الحانوت قالت:

إنني أدعو لك بالتوفيق والتقدم المطرد في أعمالك ؛ لأني ألمح فيك حسن الخلق وطيب النفس وصفاء السريرة .. وها أنذا أقدم إليك هذا المال الزهيد كي تقضي به حوائجك ، ولتستعين بواسطته على تمهيد طريق مزدهر لمستقبلك

وناولتني بضع ورقات من المال بينما كان نظري معلقاً بها لا يحيد . ودون أن أشعر صحت بها . أمي ! أنت أمي !

فارتاعت مني وابتعدت عني وجحظت عيناها ، وهمت بالبكاء ، بينما أسرع الرجل إليها وأخذها بين ذراعيه وصاح في وجهي

أمعتوه أنت ؟ هل فقدت رشدك ؟

فأجبت بصوت خافت :

لا ، لست معتوها . لقد تيقنت أنك أبي وهذه أمي ، فاعترفا بأنكما والداي ، وإنني أقسم لكما ألا أبوح بسركما ، ولا أخون ودادكما ..

وسحب الرجل امرأته من يدها وهم بالخروج ، ولكنني أسرعت إلى الباب وأغلقته . ثم التفت إليه وقلت : هل تنكر أنها أمي ؟ انظر إلى حالتها وهي تبكي . إن هذا لأكبر برهان على ذلك

فاغتاظ الرجل مني ، وارتعدت فرائصه وتجسمت الجريمة التي اقترفها أمام ناظريه ؛ ورأى أن سره سيذيع ، وستلوكه ألسن الناس ، فما عساه أن يفعل ؟

فصاح في وجهي : اسكت ! حقاً إنك دنيء . تريد أن تتهمنا .. إليك . عني إنك وغد لئيم

فالتفتت إليه والدتي وقالت: لنخرج من هنا فإني أشعر بضيق

فصاح الرجل بي: افتح البـاب وإلا أبلغت أمرك لرجال الأمن ليقبضـوا عليك ويودعوك السجن ليذيقوك العذاب الأليم.

ففتحت لهما الباب فأسرعا بالخروج، لايلويان على شيء. وما إن غابا عن ناظري حتى خيل إلى الشقاء الذي رافقني في حياتي فغمرني الحزن والأسى فبكيت ..

لقد انقلبت عاطفتي نحوهما وحبي لهما إلى بغض وكره .. فـكانت نفسي تسول لي أن أنتقم لشرفي الجريح، وأنتصر لعزتي وأثأر لـكرامتي، فأنتزع من حناياصدريهما حياتي. فهمت على وجهي في سكون الليل وهدوئه أسير بالقرب من الشاطىء، أستعرض في مخيلتي ذكريات طفولتي المحرومة التعيسة. وبينما كنت في لجة التفـكير لمحتهما عن كثب فأسرعت نحوهما أسـترق السمع، فكانت أمي تبكي وتنتحب بينما كان أبي يخفف من لوعتها ويقول لها: أرأيت الفاجعة التي كادت تحل بنا فينكشف أمرنا ؟ لقد قلت لك إن ما اقترفناه من ذنب وإثم، لايسمح لنا أن نقدم على ذلك، فنتتبع أثره

وهرعت نحوهما، ووقفت أمامهما باسماً وخاطبت أبي قائلا:

ألم أقل لك إنك أبي، وهذه أمي .. أنتما والداي. لقد نبذتماني صغيرا فهل ترغبان أن تطرداني، وتتنكرا لي شابا !

سيدي الرئيس، سادتي المحلفين

أقسم لـكم أن أبي رفع يده وأراد ضربي، ولـكنني أمسكت بها ورجوته إن كنت أسأت إليه أن يغفرلي، وليعفو عني. ولـكنه مد يده الأخرى إلى جيبه وأخرج مسدساً وصوبه نحوي. عندئذ طار صوابي وفقدت وعيي وجن جنوني فأخرجت مديتي وأغمدتها في عنقه ..و.. وفي أحشائه، فوقع يتخبط على الأرض ويسبح في دمه

وأخذت أمي تستغيث، وتستنجد صائحة في وجهي، وكانت تضربني بكلتا يديها مما آلمني فثارت ثائرتي عليها فطعنتها في صدرها دون أن أعي ما أفعله وما أقترفه من ذنب ..

ولـما شاهدتهما جثتين لاحراك بهما حملتهما وألقيتهما في النهر فحملتهما الماء إلى ...

هذه هي قصتي سردتها على مسـامعكم دون أن أزيد فيها أو أنقص منها، فانظروا ماذا ترون ..

وجلس المتهم .. وأخذ يمسـح العرق الذي نضـح من جبينه بينما كان الرئيس يشير إلى تأجيل النظر في القضـيـة .. للجلسة القادمة.

دمشق **عبد اللطيف حسين الأرناؤوط**

الرتيلاء

للقصصي البرازيلي أوجيني لاسا

بقلم الأستاذ اسكندر كرباج

اشتهر (ملّلو) بمهارته في العزف على الرباب، ومساهمته في كل حفلة غنائية موسيقية يرصد ريعها لمعاهد البر والإحسان. وعندما كان هذا الفنان يحتضن ربابه، ويأخذ في مداعبة أوتاره بتفنن ولباقة، عازفا عليه أنشودة شعبية، أو كلاسيكية، كان الرباب يئن بين يديه بصورة مؤثرة تحرك أعشار القلب

وكان لملّلو مزرعة كبيرة في إحدى مناطق هذه الولاية. فكان يقصد إليها من حين إلى آخر، تارة للاستراحة من ضوضاء المدينة وجلبتها الصاخبة، وطورا للاشراف على أعمال الحصاد. وكان في مثل هذه الأسفار يحمل ربابه معه للتسلي بالعزف عليه في الليالي الموحشة

وفي ليلة من ليالي المزرعة، بينما هو في قاعة الطعام، وقد استولى عليه الملل من وحدته وانفراده، تناول ربابه وراح يعزف عليه نغما شجيا أودعه كل ما في نفسه من حساسية الفن، وما في قلبه من رقة العاطفة. وفيما هو كذلك، وقد غاب من عالم الحس، وقع نظره فجأة على رتيلاء سوداء اللون كبيرة الحجم، كثيرة القوائم، هائلة المنظر، كانت على مسافة قصيرة منه، وقد جمدت في مكانها وكأنها تصغي إلى نغمات ربابه. فأجفل لرؤيتها وتحفز من مكانه يريد سحقها بقدمه. ولكنه ما كاد يتوقف عن العزف وينقطع صوت الرباب، حتى أبصرها تنسحب مسرعة وتتوارى في شق كان بين الجدار وأرض القاعة. فقبض على قطعة من الخشب ولبث منتظرا ظهورها ثانية ليقضي عليها. إلا أن الرتيلاء ظلت طول مدة انتظاره متوارية في شقها المظلم. ولما عيل صبره عاد إلى احتضان ربابه ومتابعة عزف ألحانه

وما كادت نغمات الرباب ترتفع في فضاء القاعة، حتى ظهرت ذات اللون الأسود، والقوائم المديدة، والمنظر المخيف، وراحت تتقدم نحوه، حتى إذا صارت على بضع خطوات منه، وقفت وعلائم الانسحار بادية عليها. فلما أبصرها ملّلو توقف عن العزف واستعد للقضاء عليها بضربة مسددة من خشبته. ولكنه ما كاد يلقي الرباب من يده، ويتحفز للهجوم عليها، حتى انسحبت

الرتيلاء من الهوام أنواع وهي منها العنكبوت

بشيء من التردد ، وتوارت فى شقها . وبعد قليل من الانتظار عاد مللو إلى مداعبة أوتار ربابه ، وعزف ألحانه . وقد أعيد تمثيل هذا الدور مرارا ، أى أن الرتيلاء كانت لا تكاد تسمع صوت الرباب مرتفعا فى فضاء القاعة ، حتى تبرز من مخبئها وتأخذ فى التقدم نحوه كأن فيه قوة خفية تجذبهـا إليه ، ولا يكاد ينقطع الصوت حتى تعود إلى التوارى فى شقها

دهش مللو لأمر هذه الرتيلاء الغريب . وبات لا يرى فى منظرها ما يخيفه . وقد ألف رؤيتها وأصبح مشوقا إلى معرفة ما إذا كان لنغمات ربابه تأثير عليها . وأخيرا انصرف إلى فراشه دون أن يخامره أقل خوف أو قلق من وجود تلك الحشرة السامة داخل بيته وعلى مقربة منه

قضى اليوم التالى بين مراقبة العمال والتجول على ظهر جواده فى كل أنحاء المزرعة . ولكنه لم ينقطع لحظة عن التفكير فى الرتيلاء والتساؤل عما إذا كانت ستظهر فى المساء لدى سماعها نغمات الرباب كما ظهرت فى الأمس ، أو أن ما حدث فى تلك الليلة كان من قبيل الصدف

ما صدق مللو أن توارت الشمس وراء خط الأفق ، ونشر الليل رداءه القاتم على الكون ، حتى عاد مسرعا إلى البيت . وأول عمل باشره ، بعد فراغه من تناول طعام العشاء . هو احتضان ربابه والعزف عليه بفن وشغف قائلا لنفسه : لنر ما إذا كانت ستظهر فى هذه الليلة . وكان يعزف فى هذه المرة بشيء من التأثر البادى فى اضطراب أعصابه وخفقان قلبه كما لو كان يعزف على المسرح أمام الجمهور . وكان يحرك بأنامله أوتار الرباب وعيناه شاخصتان إلى الشق حيث تبرز رتيلاؤه

لم تمر دقائق قليلة على ارتفاع نغمات الرباب فى فضاء القاعة ، حتى خرجت الرتيلاء من شقها وراحت تبدى انسحارها بتقدمها البطيء . وأراد مللو أن يكمل تجربته فتوقف عن العزف ليرى ما سيبدو منها . ولما طال عليها السكوت انسحبت إلى شقها بصورة هادئة كئيبة

بعد تلك التجربة وثق مللو من انسحار الرتيلاء بنغمات ربابه ، وأصبح العزف لها فى كل ليلة من أحب الأعمال إليه ، وأصبحت رؤيتها من أجمل المشاهد فى نظره . وبلغ من شدة شغفه بها أنه أهمل التفكير فى مغادرة المزرعة والعودة إلى المدينة . ولكثرة ما تحدث عنها أمام العمال والموظفين وغيرهم من الزوار ، ذاع أمرها فى كل تلك الأنحاء ، وأخذ سكان المدن القريبة يتوافدون إلى مزرعة مللو لرؤية ذلك الحيوان المخيف الذى يطرب لنغمات الموسيقى كسائر

البشر . وكانوا يعجبون أكثر لبقائها بعد عزف أنشودة شعبية ، أو قطعة كلاسيكية ، جامدة فى مكانها كأنها لا تزال سكرى من سماع تلك النغمات المتآلفة والأنات المتوازنة . وكانت تطرب بنوع خاص لأعزوفة «كافوتاده تاريكا» فكان مللو ، وقد لحظ منها ذلك ، يودع هذه القطعة كل إحساسه الفنى وشعوره الفياض

وقد بلغ من شدة هيام مللو بضيفته المسالمة أنه اتخذها رفيقته ونديمته ومسليته فى وحدته . وكان كلما خرجت من شقها للاستمتاع بسماع نغمات ربابه، يصيح قائلا كأنه يرحب بأعز الناس عنده : أهلا بك: وليس ذلك فقط بل إنه وضع لها اسما شاعريا كان يدعوها به تحببا . حتى أن ألفتهما قضت على ملل حياته فى تلك المزرعة النائية . فكان ورفيقته الصامتة الخرساء على تفاهم كلى ، وتآخ عز نظيره حتى بين البشر

ولما حان ميعاد رجوعه إلى العاصمة استولى عليه الحزن وآلمه التفكر فى مغادرة تلك الرفيقة الأمينة ، والصديقة الصدوقة ، والوحشة التى ستمانيها وتشعر بهـــا بعد انقطاعها عن سماع ألحان ربابه . واشتد به الحزن لدى تفكره فى استحالة نقلها معه

وفيما هو على هـذه الحال من الحزن والكآبة والتردد فى مغادرة المزرعة، زاره أحد ممثلى شركات تصدير البن ، وحل ضيفا عليه . وفى المساء أخذ الضيف يقص على مضيفه أخبار سوق البن وإقبال موسمه فى ذلك العـــام ، والأرباح الطائلة التى سيجنيها المزارعون من ارتفاع أسماره فى البنادر الأجنبية . ومع ما لهذا الحديث من الأهمية فى نظر أصحاب مزاوع البن ، فقد مله مللو لصرفه إياه عن العزف لصديقته ورفيقته الليلية . لذلك اغتنم فرصة توقف ضيفه عن الكلام ، وقبض على ربابه وراح يعزف عليه أحب الألحان إلى قلبه وقلب رتيلائه

فما مرت بضع دقائق على ارتفاع صوت الرباب حتى برزت من شقها ذات اللون الأسود ، والقوائم العديدة، والمنظر المخيف، وراحت تتهادى فى سيرها كأنها فى حالة طرب ، فما إن وقعت عليها عينا الضيف حتى علت وجهه صفرة الخوف ، وبأسرع من لمح البصر تقدم منها وسحقها بحذائه الغليظ قبل أن يسمع صيحة الذعر تنطلق من فم مضيفه ، فالتفت إليه هذا وقال له : أنظرت أى خطر نجونا منه ؟

اسكندر كرباج

طبيعة الرجل

للكاتب الإنجليزي ليس مِت

بقلم الأديب حسين فتحي خليل

بالرغم من أن (كاتي) وجدت في (دان) الجمال من يوافق طبيعتها كمفتاح يتلاءم مع قفله إلا أنها اختارت (سلوين) بائع السمك في سوق القرية زوجا لها في النهاية. فقد قررت في ذات نفسها أن جسدها المتناسق وجلدها الأملس الناعم وشعرها الأصفر الذهبي وفمها الشهير بأسنانه اللامعة، إنما يستحق كل هذا رجل أرقى من دان، الذي يسكن كوخا حقيرا منفردا في طرف الغابة يبعد عن القرية بستة أميال، وتتصاعد منه رائحة الفئران والعفن.

وفي الأمسية التي وطدت العزم فيها على ذلك، ذهبت إلى كوخ دان الذي يسكنه وحيدا بعد أن توفي والده ونادته من الخارج، وكانت نافذته مفتوحة:

«أخرج أيها الرجل الكسول واستمع إلى السيدة» وما إن ظهر أنفه المقوس من الباب حتى أضافت قائلة «أعد إلي الغطاء الذي عكفت على تطريزه بيدي في الشتاء الماضي لأني لن أتزوجك أيها القوقعة، وسأزف في الشهر القادم إلى سلوين السماك»

وأشارت بيدها نحو السوق. وحملق فيها دان وكان أشعث الشعر مغبره وبجانبه الوعاء الذي يستقبل نقط الماء المتساقطة من السقف ورفعه في لحظة خاطفة ثم ألقى الماء عليها، ولكنها أسرعت تتفاداه، وصاح فيها غاضبا «اذهبي وتزوجي ذلك السماك القذر، أغربي عن وجهي» وعاد يلقي عليها الماء

فالتقطت قطعة من الحجر ورمته بها فأصابته في صدره ولكنها لم تكن قد غادرت مكانها بعد. وبقي هو واقفا على عتبة بابه وصدره يعلو وينخفض في ثورة. وقالت هي «سيعلن عن زواجي يوم الأحد القادم وسيكون زواجا حافلا. يا لك من أبله لامطمح له، كأنك أرنب جبلي» وداعب الهواء شعرها الأصفر فتناثر على جانبي رأسها. قال: وعيناه تقدحان شررا: «اذهبي وتزوجيه فأنتما بيضتان تالفتان» فقالت في نشوة الانتقام «يا للغيرة! أعد إلي غطائي، وأنصحك بأن تتزوج (ماري) العرجاء فهي خير زوجة تليق بك.»

وهكذا جملا يتبادلان السباب ولـكنه لم يعطهـا ذلك الغطاء الأزرق المزركش بالطيور والزهور والذى سبق أن أهـدته إليه منذ زمن ليس بالبعيد ، قائلة أنها أعدته لفراش زواجهما وأنه يساوى مبلغا لا بأس به ، لو بيع فى السوق

وأخيرا .. اضطرت أمام عناده وصلابته أن تغادره بعد أن صبت عليه جام شتائمها وعيرته بفقره وحقـارة كوخه وذكرت له كل مثالبه ، وصعدت الطريق نحو القرية . ولما اشـتد الظلام أغلق دان باب كوخه وأشعل شمعة وصب غضبه على صرصور تحت قدمه فقتله شر قتلة

لقد كانت شكواها منه دائما هى السبب فى تأخير زواجهما ، فهو رجل ريفى بطئ التفكير ، شـديد الحرص على كل شئ ، ولطالما تردد هل يشترى سـيارة نقل قبل زواجه ، أو يكتفى بالعربة والحصان العجوز اللذين يعتز بهما . ولـكن تعيير كاتى الدائم له بأنه عاجز غير طموح أوقعه فى حيرة .. ولذلك كان يتـأخر تاريخ زواجهما مرة بعد أخرى

كما أنها كانت تدفعه لأن يغـادر ذلك الـكوخ القديم الذى تملـكه عائلته منذ مائتى عام وأن يذهب للسكن فى قلب القرية حيث تزدهر حرفته بعد شرائه السيارة ، ولـكنه كان يكتفى بما لديه وكأن قدميه قد تسمرتا بكوخ أجداده حيث قضى أجمل سنى حياته

ودامت تلك العلاقة بينهما خمس سنوات وكانا يسيران جنبا إلى جنب فى الغـابة ويقضيان معظم الوقت يتشاجران كأنهـما شيطانان لا يمكنهما الافتراق عن بعضهما . وكانت هى تحلب البقر فى مزرعة تريكوريل وتعيش من ذلك . وكان دان يعرف أن سلوين بائع السمك اعتاد أن يتـابع كاتى بنظراته النهمة السكرى حين تسلك الطريق بالقرية دافعة صدرها إلى الأمام كأنه سلة من الخوخ

ولـكنه فوجئ يومئذ أن تهديداتها كانت هذه المرة حقيقة ، فلقد تزوجت من السماك وأقامت معه فوق حانوته فى القرية القديمة التى يخترقها نهر أزرق ويوجـد بها قصر عتيق ودار للسـينما تعرض أفلامها ثلاث مرات فى الأسبوع . وفى اليوم الذى تم فيه زواجها مرت بكوخ دان وهى فى طريقها إلى القرية على عربة حملت عليها كل متاعها ورأته خلف النافذة ولـكنها لم تناده ، ولم تطالبه بغطائها ، إنما كل مافعلتـه هو أن سوت ثوبها الجديد ولمت أسنانها البيضاء ومرت عليه فى أنفة وكبرياء .

وفى هذا المساء ذبح دان إحدى دجاجاته السمينة ونزع ريشها ثم جرها على النـار

وأكلها فى نهم وشرب لترا من البيرة ، ولما ثمل تصايح يغنى فى ضوء الشمعة الهزيل أغنيات تهزأ بالنساء وعواطفهن .

وقضت كاتى السنتين الأوليين من زواجها فى القرية تلبس الجوارب الحريرية بعد أن لم يكن يمس قدميها وساقيها طيلة حياتها سوى الجوارب القطنية فحسب

ولكن سرعان ما بهت لون شعرها الذهبي وصار أشعث مهوشا فقد كان زواجها غير موفق ، وزوجها سلوين كان غبيا لاعقل له كأحدى سمكاته . وكانت أسعد لحظات حياته هى التى يقضيها فى احتساء الوسكى فى الشارب . ولكن لعل عدم التناسق فى حياته هو الذى كان يدفعه إلى تمضية وقته فى الخارج دائما حتى بارت تجارته

بينما كانت كاتى تحاول أن تنسى شقاءها هذا ، وتدفن همها فى تهيئة ملابس جديدة لها ، وهى نعمة لم تكن تحلم بها . ولكنها أصبحت كغراب يتأنق ، بعد أن ذهب عنها جمالها القديم . وأحيانا كانت لا تمالك نفسها عن البكاء فتهوى على سلوين بسبابها وشتائمها

وفى نفس الوقت كان دان وكأنه أراد أن يثأر لنفسه فإذا به يصعد درجات النجاح قدما ، فقد اشترى سيارة نقل على أقساط ، ولكنه لم يغادر كوخه المظلم ، وما زال يبدو دائما قاسيا صلبا ويقضى أوقات فراغه يحفر على قطع الخشب أشكال حيوانات مختلفة ، واشترى مصباحاً زيتيا وعدة سكاكين ، بل وتمادى فى تبذيره فاشترى لنفسه خاتما ذهبيا

ولكنه لم يهتم بأية امرأة : وأصبح يمر بعربته على ست قرى يحمل منها وإليها الخضر والبيض والطيور . ولما ازدهرت أعماله حاول كثير من النساء — بالرغم من قسوة مظهره — أن يشغلن مكان كاتى فى قلبه ولكنه ظل صلبا كالحجر ولم يعرهن التفاتا

وحدث أن كان يمر بعربته يوما أمام حانوت السمك فرأى كاتى وهى خارجة من منزلها فوجه إليها الكلام قائلا : « ما سعر السمك البائت اليوم يا سيدة السمك ؟ » فوقفت تحملق بعينين متسعتين دهشتين فى السيارة التى أسرعت فى طريقها .

وذات مساء عاصف من نوفمبر وبعد أربعة أعوام من افتراقهما رفع وجهه فى بطء عن القطعة الخشبية التى كان يحفرها فلمح وجهها تنظر إليه من خلف النافذة ، فزم شفتيه ونكس رأسه وهو يتابع عمله ، ونقرت هى بإصبعها على خشب النافذة ونادت خلال الريح : دعنى أدخل يا دان . . دعنى أدفئ نفسى بجانب نار كوخك . فصاح فيها :

أغربي عني وجهي . فقالت : إن الريح باردة ياداان ومعدتي خاوية . فرفع نظره إليها مرة أخرى ولمح ذقنها الهزيلة وعظام خديها البارزة ثم أجابها : أغربي عني .. عودى إلى زوجك ولا تقفي هكذا وإلا ناديت رجال الشرطة . فضربت زجاج النافذة حتى هشمته وسال الدم من يدها وهي تولول قائلة : إن الليل قارس البرد.. أعدني في عربتك ياداان . ولكنه أطفأ المصباح واطمأن إلى أن الباب مغلق جيدا وسمعته وهو يصعد إلى حجرة نومه . وعادت من طريق الغابة تقطع الستة أميال نحو القرية على قدميها ، لقد كانت تحوم حول مراتع صباها وشبابها باكية أيامها الخالية بعد أن تشاجرت مع سلوين الذي كان ممعنا في شرابه

وعادت إلى الظهور بعد شهر وكانت ترتعش وهي رثة الثياب ، وكان داان متجهم الوجه حين أدلت إليه بأخبارها من النافذة لأنه كان قد سمع بها من قبل . قالت : لقد أفلس سلوين وأغلق الحانوت اليوم ولا مأوى لي ، كل ما أملكه الآن هو حشية على الأرض .. دعني أدخل ياداان . ولكنه صاح فيها . إن المحيط العميق قد خلق للأسماك تغوص فيه .. يمكنك أن تسيري على قدميك في القرية بعد أن تعلقي على أصابعك أجراسا ولم يجرؤ على غلق النافذة حتى لا تكسر أحد ألواحها فقد كلفه اللوح السابق ثمانية عشر بنسا لإصلاحه . فقالت صارخة: إذن اعطني غطائي المطرز فهو يساوي شيئا من المال . فضحك منها ساخرا وهو يقول : إنه يدفئني في زمهرير الليل . فتضرعت إليه قائلة : سأطهو لك طعامك وأخيط ملابسك وأغسلها وأنظف لك كوخك بدون أجر ، وسأفترش حصيرا على الأرض . فقال ضاحكا : هناك حفر دافئة على طول الطريق

ومرة أخرى قام فأغلق النافذة وسمعته وهو يصعد السلم إلى حجرة نومه

فألصقت يدها بحائط الكوخ وكأنما تريد أن تشعر بالدفء ، وعادت إلى الطريق

واختفى زوجها بعد أسبوع فاضطرت لأن تقيم وتأكل في الكنيسة حتى تجد عملا صغيرا في مطبخ فندق القرية . ولقد أثرت فيها هذه الحالة المزرية التي أصبحت عليها فهي ما زالت تذكر جسدها المتناسق وشعرها الذهبي وملابسها الحريرية وصدرها المترجرج ، وعادت ثانية إلى مطارح صباها في ليلة قاسية البرودة من ليالي يناير ، وكانت تسير متلصصة كأنها حيوان بلا مأوى ، تقودها رغبة جارفة لا تقوى على مغالبتها . وكانت الثلوج تغطي الطريق والأشجار تهتز في عنف

وكان داان يعد نقود الشهر التي سيودعها

المصرف ، عدة أوراق مالية وقطع فضية كثيرة ، وكانت يداه السمراوان تقبضان على النقود ، وخياشيمه تستقبل رائحتها فى لذة تفوق لذته لو شم رائحة جسدها . ولم يلتفت حين طرق سمعه صوت نقرها على النافذة ، بل رفع بعض القطع الفضية وتركها تتساقط فى ضوء المصباح

فصاحت : دان ، إن كاتى تريد الدخول . أنا الآن فى الثانية والثلاثين وأنت فى السادسة والثلاثين ، لا تدعنا نضيع سنوات أخرى عبثا ودع الأيام تتفتح لنا عن السعادة . أعد إلى رونق جسدى الذى فقدته واطرد البرد عن صدرى

ونقرت فى رقة على خشب النافذة ، ولكنه لم يلتفت إليها بل كان يغنى قائلا :

اذهبى وابحثى عن حوتك فى قاع البحر

فصاحت : سأنظف لك كوخك وسأطهى لك أشهى الطعام كل يوم ، وسنتخلى عن طباعنا الشرسة وأحزاننا . لقد خلقنا لبعضنا يادان ولا تنكر ذلك الآن. فوضع النقود فى كيس جلدى وصاح فيها دون أن يلقى عليها نظرة واحدة : أغربى عن وجهى يا ذيل السمكة فأنا لا أفكر فيك أبدا . فتضرعت إليه باكية وهى تقول : افتح الباب

ولكنه أطفأ النور وصعد السلم ووضع كيس النقود تحت الوسادة ثم استغرق فى سبات عميق ، تحت الغطاء الدافئ المزركش بالطيور والأزاهير ، ونام طيلة ليله كالخنزير .

وفى الصباح فتح باب الكوخ الخارجى فسقط جسدها على قدميه ، كان وجهها شديد الزرقة ويداها مثلجتين فأسندها إلى الجدار وأغلق الباب ثم ذهب فى سيارته إلى مركز البوليس وقال لرجل الشرطة : أترى ما فعلته كاتى ؟ لقد ماتت على عتبة بابى . أرجو أن تكلم رجال الكنيسة تليفونيا ليرسلوا عربة الأسعاف لحملها لأنى مشغول اليوم ، إذ لدى حمولة بيض وطيور من مزرعة باول

وباع الغطاء بعشرة شلنات فى يوم السوق التالى ، حتى يمحو كل ذكرياتها ودفنت كاتى فى أرض الصدقة

وبالرغم من أن دان قد طلا كوخه من الخارج بلون أخضر زاه ، واعتاد شرب اللبن يوميا واشترى حلة سوداء وساعة جديدة ، إلا أنه مع هذا كله كان يشعر أن هناك شيئا ينقصه ، فقد انطفأت لمعة عينيه ولم يعد يتقن الحفر على الخشب كما كان من قبل ، وكان ينتقل من مكان إلى آخر وكأنه ليس هناك فى الدنيا ما يمنيه ، وأخيرا فاجأه الموت شتاء وهو يقود سيارته فى وقت كان يجب أن يبقى فيه نائما فى فراشه ، فقد اصطدمت

الشمـــــلة

للكاتب الفرنسى أندريه موروا

بقلم الأستاذ حسن نديم

سألنى صاحبى : أتعرف الشاعر النمسوى الظريف « ريزنتال » ؟

فأجبته قائلا : لم أقابله غير مرة واحدة وأذكر أنه تحدث عن روسيا بمزيج شيق من البساطة والغموض . كان يتراقص حول قصصه ضباب خفيف يضفى على الأشخاص الذين يصورهم هالة مطلقة ، ويجعلهم خلقا آخر يسمو على دنيا الناس ، حتى صوته فقد كان غريبا فى نبراته وكأنه ينطلق من وراء حجب . أجل ، لم أره سوى مرة واحدة ؛ غير أنى أحببته منها أكثر مما أحببت كثيرا من النـاس الذين عرفتهم طوال حياتى . لقد علمت بوفاته بعد هـذا اللقاء القصير بزمن قليل ، فأسفت أشد الأسف ، لـكننى لم أعجب لموته ، فلم تـكن تبدو عليه سيما الأحياء ولا أنه من أهـل دنيانا . ومنـذ ذلك العهـد طالما قابلت خلال أسفارى فى الأقطار المختلفة أصدقاء لريزنتال رجالا ونساء ، ملأ حياتهم ، وصاغ نفوسهم ، فأصبحوا اليـوم بفضله أرق عاطفة وارهف حسا من سائر الخلق

قال صاحبى : إنى جد مغتبط لما تقول ؛ لأنى كنت صديقا لريزنتال . لقد حظيت مثلك بلقائه ذات يوم ولساعة من الزمان فلم أستطع بعدها نسيانه ، ثم مر ببلدتى منذ أعوام ثلاثة ، فذكرنى وكتب إلى ، وحل ضيفا بدارى يوما كاملا . كان ذلك فى مقتبل الخريف والجو ما زال باردا ، ولما كنت أقطن سفح جبل عال فقـد عانى ريزنتال وهو العليل النحيل أشد العناء ، إذ لم يـكن قد أتى معه بأثواب ثقيلة تدرأ عنه غائلة البرد ، فسألنى والبسمة تعـلو شفتيه : هل لك أن تعيرنى معطفا ؟ وأنا كما ترى أضخم منه وأطول . فذهبت من

السيارة بإحدى الأشجار ...

لم يجدوا إنسانا يطالب بنقوده أو حتى يرث كوخـه الموحش القفر حيث تقفز الفيران لاهية على فراشه !

حسن فتحى خليل

فورى أبحث عن شملة سمراء اعتدت أن أرتديها كلما خرجت شتاء للصيد. أرانى ريزنتال وهو جذلان طروب أنه استطاع أن يلتف بالشملة لفتين فينعم بمزيد من الدفء. وهكذا تسنى له أن يتريض معى طويلا بين المروج والشجر

طاب له المقام عندى ذلك اليوم، ففى خلال النهار راقه منزلى وحديقتى والجبال المطلة عليها. وفى المساء لذ له الاصطلاء بنار الخشب المستعرة فى مدفأتى، فقرر أن يقضى معى يوما آخر. ونشر الشملة فوق الفراش ونام ليلته. وفى الصباح اشتمل بها كلباس منزلى، حتى إذا أقبل المساء أخبرنى أنه لا يبغى الرحيل فى الغد، وصادف ما ارتآه هوموقعامن نفسى، فلم أكن أتمنى أكثرمن أن أحتجز عندى هذا المخلوق الغريب أطول مدة ممكنة. وهكذا مرت الأيام تترى يوما فى إثر يوم، حتى قضى أسبوعين كاملين كان خلالها مدثرا بشملتى. ثم سافر بعد أن ترك لى قصيدة فى ذكرى إقامته، وبعد بضعة أشهر نبئت بوفاته

وحل الخريف التالى، فحظيت بزيارة أخرى لكاتب فرنسى يعجبنى أسلوبه المصقول الشفاف. كانت صلتى به إذ ذاك لاتعدو المعرفة العابرة، وعن له فى طريقه إلى فينا أن يقضى فى بلدتى الصغيرة يوما واحدا. لقد جرى حديثنا خلال الغداء عسيرا جافا، وخيل إلى أن الألفة التى كنت أنشد توثيق عراها بينى وبينه تفتر وتتداعى، وأننا جد مختلفين كل منا عن الآخر، وأيقنت آسفا أننا سنفترق دون أن يخلف أحدنا فى نفس الآخر أثرا باقيا. وفرغنا من تناول الغداء، فمضينا تحت الشجر الصفر نتريض، ثم شكا برودة الجو، فانطلقت أبحث له عن شملة ريزنتال

إن ما حدث بعدئذ لغريب يثير الدهش والعجب، فما إن وضع صاحبى الشملة على كتفيه حتى استحال شخصا آخر. بدت روحه التى خلقت صماء محدودة الأفق وقد تسربلت فجأه بشفوف من الشعور الحزين فرقت حاشيته وانطلق لسانه بما يجيش فى نفسه. وما جن الليل حتى توطدت بيننا أواصر الصداقة، وأنس كل منا إلى صحبة رفيقه، وكما فعل ريزنتال من قبل، وقضى ضيف الخريف عندى — وقد أتى ليوم واحد — أسبوعين كاملين

وبعد، لقد أصبحت يا صاحبى أعتز كثيرا بهذه الشملة السمراء، وأسند إليها — وإن كنت لا أعتقد كثيرا فى هذه الأمور — قوة روحية خيرة. ففى غضون الشتاء التالى تعشقت فتاة غسوية رائعة الحسن تدعى «انجبورج»، تنحدر من

أسرة عريقة أناخ عليها الدهر ، مما ألجأها إلى أن تصيب قوتهـا بالعمل لدى أحد الناشرين .

عرضت عليها الزواج بى ، غير أنها كانت كمعظم الفتيات اللاتى نشأن بعـد الحرب تتشبث بالحياة الحرة الخالية من كل قيد ، وأجابتنى — وهى تحرص على أن تشعرنى بأنى إلى نفسها قريب — قائلة : إنها لا تطيق مجرد فكرة الارتباط بوثاق الزواج . كنت لا أملك نفسى من الألم كلما شاهدتها طليقة فى مدينة كبيرة ، وشاهدت حولها نفراً من الذين ليس لهم من ضميرهم وازع ، ولبثنا عدة أشهر مضنية على تلك الحال .

وفى نشوة الربيع رضيت انجبورج ان تزورنى فى منزلى بوينزلاند ، وخرجنا إلى الحديقة بعد العشاء فى أول أمسية من إقامتها عندى فقلت لها : هل لك أن تصنعى معى جميلا ، فتسمحى لى أن أضع على كتفيك شملتى بدلا من معطفك ؟ إنى أعلم أنك لا تقيمين للعواطف وزنا ، ولا بد أن تبدو لك مثل هذه الرغبة سخيفة ، ولـكن ماذا يضيرك ؟ هذه أول أمسية تقضينها عندى ، فاستجيبى لرجائى من أجلى ناشدتك الله ! فضحكت ساخرة منى فى كثير من الفتنة والدلال ، ثم قبلت أن تشتمل شملتى

أمسك صاحبى عن الـكلام بغتة ، فقد كان يتهادى نحونا من نهـاية المشى فى غسق الليل شخص رائع الحسن عليه شملة سمراء

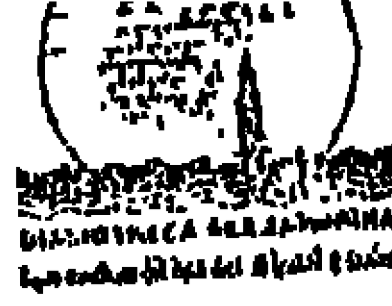
ثم قال لى : هلا عرفت زوجتى ؟

حسن ندیم

وحى الرسالة

فى ثــــلاثة أجـــــزاء

للأستاذ أحمد حسن الزيات



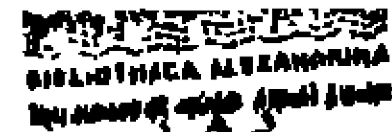
الرسالة

مجلة الأدب الرفيع والأسلوب العالى

تجددت

فى الشكل ، والموضوع ، والتحرير ، والطبع

لتساير العهد الجديد الذى بدأته مصر في الثقافة والحضارة



هدفها : وصل الجديد بالقديم ، وربط الشرق بالغرب على هدى وبصيرة

[illegible] في دينك ، وعقلها في ثقافتك ، وفيها لأدبك ، وسعة في ثقافتك

تظهر كل أحد من كل أسبوع

مطبعة الرسالة